العلامة أسد حيدر

الإمام الصادق والمذاهب الأربعة

المجلد الثاني

مؤسسة
دار الكتاب الإسلامي

والكاظمين الغيظ
الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

الإمام الصادق
والمذاهب الأربعة

أسد حيدر

الإمام الصادق والمذاهب الأربعة

فيها اضافات وتحقيقات جديدة

المجلد الثاني

الجزء الثالث ـ الجزء الرابع

جميع حقوق الطبع محفوظة و مسجلة للناشر

الكتاب .... الامام الصادق عليه السلام والمذاهب الاربعه / ج ٢

المؤلف .... العلامه أسد حيدر رحمه الله

الناشر .... دارالكتاب الأسلامي

الطبعه .... الاولى ١٤٢٥ هـ. ق / ٢٠٠٤ م

المطبعه .... مطبعة أسوة

عدد النسخ .... (٢٥٠٠) نسخه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾

[آل عمران: ١٩]

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[آل عمران: ٨٥]

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

[الأعراف: ٣]

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾

[المائدة: ٥٦]

الجزء الثالث

عَرض وتمهيد

نوعية البحث:

هذا هو الجزء الثالث من كتابنا الإمام الصّادق والمذاهب الأربعة، أضعه بين يدي القرّاء.

وقد نهجت فيه منهجي الذي سرت عليه في الجزئين الأول والثاني، مبتدئاً بذكر الإمام الصّادق عليه السلام في بيان موجز عن تاريخ حياته، ونشاط مدرسته، وبعض تعاليمه. ولم أتوسع في البحث ـ كما يتطلّبه الموضوع ـ إذ لا يمكن إعطاء شخصيته حقها من الإحاطة والبيان، فإن ذلك أمر يشق على الباحث حصوله مهما أنفق من جهد في هذا السبيل، وفي أي ناحية يسلك ليفرغ منها فراغاً تاماً يجد نفسه في البداية لا في النهاية؛ لأن شمول البحث لجميع جوانب شخصية الإمام الصّادق عليه السلام ومزاياه التي اتّصف بها، وأعماله التي قام بها، لإعلاء كلمة الإسلام وتوحيد صفوفها، هو من الصعوبة بمكان. ولهذا التجأت إلى إفراد البحث في ذلك بجزء خاص به، كما أن الفترة التاريخية التي عاشها الإمام عليه السلام كانت مليئة بأحداث تأثّر بها مجتمعه الذي كان يتصل به، ويرتبط بواقعه، فكان يعالج تلك المشاكل بحنكة وتدبّر، عن بصيرة ومعرفة بعاقبة الأمور.

وكانت الظروف تقضي على رجال أهل البيت عليهم السّلام أن يكونوا محور آمال الأمّة؛ لأن الثورة قامت باسمهم، وقد ارتفعت هتافات الثوّار بالدعوة لهم، وإسناد الحكم إليهم، وكان هو عليه السلام زعيم أهل البيت وسيّدهم في عصره، وهو أعلم الناس بتلك الأمور، وما يؤول إليه الأمر بين العبّاسيين والعلويين، كما أنه درس تلك الأوضاع وعاش مع أحداث مختلفة، ومشاكل متراكمة. فكان موقفه عليه السلام

أحرج موقف يقفه زعيم ديني يحمل رسالة الإسلام، ويريد تطبيق نظامه في عصر هبّت فيه زوبعة الأهواء، واختلفت الآراء، وذهب الناس فيه مذاهب شتّى، وسلكوا طرقاً متباينة، فالموقف إذاً يحتاج إلى قيادة حكيمة، وسياسة إسلامية مركّزة، فكان موقفه عليه السلام موقف القائد المحنّك، الذي يسير على هدى من دينه، وبصيرة من أمره، ولقد ظلم التاريخ مواقفه، وألجم عن التصريح بأعماله وآثاره، ولو أفصح التاريخ عن جميع مآثره وجليل أعماله ـ ولم يكن محظوراً عليه ذلك ـ لاتسعت دائرة البحث عن إدراك جوانب تاريخ حياته.

ومن الحق هنا الاعتراف بالقصور عن إدراك شخصيته ومكانتها في تاريخ الإسلام، وما لها من الأثر العظيم في التشريع الإسلامي. وليس ذلك، لغموض يكتنف جوانب عظمته، أو وجود زوائد في دراسة حياته، أو اندفاع وراء العاطفة لرفع مكانته وعلوّ مقامه بدون حق، كل ذلك لم يكن، وإنما اتساع دائرة معارفه، وتعدد نواحي شخصيته، وعظيم أثره في بعث الفكر الإسلامي، وتدفق ينبوع آرائه، وجهاده المتواصل في سبيل توجيه الأمة بآثاره الخالدة وتعاليمه القيّمة، هو السبب في قصور الباحث عن إدراك الغاية المطلوبة بسهولة.

والتزمت أن أذكر في كل جزء إماماً واحداً من الأئمة الأربعة. فذكرت في الجزء الأول: الإمام أبا حنيفة، وفي الثاني: الإمام مالكاً، وفي هذا الجزء الإمام الشافعي، مقتصراً على ذكر أنسابهم ومناقبهم ونشأتهم ونبوغهم، وذكر شيوخهم وتلامذتهم، دون استقصاء لآرائهم وفقههم. وفي الجزء الرابع يأتي ذكر الإمام أحمد بن حنبل. وفي بقية الأجزاء سنعرض إلى الموازنة والمقارنة بين المذاهب الإسلامية.

تفاوت المذاهب في الانتشار:

تكلّمت فيما مضى عن أسباب نشأة المذاهب وانتشارها وكثرة عددها، وقد اقتصرت على ذكر البعض منها، مع بيان موجز عن حياة رؤسائها ومنزلتهم العلمية. وأشرت إلى أسباب اندراس تلك المذاهب وبقاء الأربعة منها: الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي. وقد اتضح لنا أن للحكومات دخلاً في نصرة المذاهب وانتشارها، فإذا كانت الحكومة قوية وأيّدت مذهباً من المذاهب، تبعه الناس بالتقليد، وظل سائداً إلى أن تزول الدولة.

وانتشار المذاهب وعظيم الإقبال عليها لا يدل على قوّتها الروحية، وعواملها الذاتية، فقد رأينا أن قوة الدعاة وتدخّل السلطة أقوى عامل لنشر المذهب (فأيّ مذهب كان أصحابه مشهورين، وأسند إليهم القضاء والإفتاء، واشتهرت تصانيفهم في الناس، ودرسوا درساً ظاهراً، انتشر في أقطار الأرض، ولم يزل ينشر كل حين. وأي مذهب كان أصحابه خاملين، ولم يولّوا القضاء والإفتاء، ولم يرغب فيهم الناس اندرس بعد حين)[1].

والمذاهب الأربعة نفسها كانت تختلف بالقوة والانتشار، فقد رأينا المذهب الحنفي هو أكثر المذاهب انتشاراً، وأعظمها إقبالاً، لقوة أنصاره وكثرة دعاته في البداية والنهاية، إذ كانت نواة شهرته من غرس أَبي يوسف قاضي قضاة الدولة العباسية، فهو ناشر المذهب أَو مؤسّسه ـ إن صح لنا أن نقول ذلك ـ وقد كان أبو يوسف وجيهاً في الدولة، مقبولاً عند الخلفاء، له منزلة لا يشاركه فيها أي أحد. فكان لا يولي قاضياً إلاّ من انتسب لمدرسة أَبي حنيفة.

واستمر القضاة في نشر المذهب في جميع الأقطار، مستمدين قوّتهم من السلطة التنفيذية، حتى أصبح مذهب أَبي حنيفة هو المذهب الرسمي للدولة.

ولما اعتنق الأتراك مذهب أَبي حنيفة أثّر ذلك في قوّته وانتشاره في العصور المتأخرة، وناهيك بما للأتراك من قوة في الدولة، وقسوة في الحكم، واستبداد في الأمر، وقد ناصروه بكل حول وقوة، وكان انتصارهم لطمعهم في الخلافة. فإن السلطان سليماً طمع في الخلافة الإسلامية، وهي لا تكون إلاّ في قريش باتفاق المذاهب إلاّ الحنفي فإنّه جوّز أن يتولى الخلافة غير قرشي، فحمل الناس على اعتناق هذا المذهب.

وقد رأينا انتصار العباسيين لمالك بن أنس ـ بعد غضبهم عليه ـ فقد أمروا بقصر الفتوى عليه، وأُعلن ذلك بأمر الدولة، ونودي ـ غير مرة علناً ـ ألاّ يفتي الناس إلاّ مالك[2] وأمروا عمّالهم باستشارته في الأمر، وعدم القطع دونه، فهذا المنصور يقول لمالك: إن رأيت ريبة من عامل المدينة أو عامل مكّة، أو أحد عمّال الحجاز، في ذاتك،

(١) حجة الله البالغة للدهلوي ج١ ص١٥١.
(٢) تذكرة الحفاظ ج١ ص٢٠٦.

أو ذات غيرك، أو سوء سيرة في الرعية، فاكتب إليّ بذلك، أُنزل بهم ما يستحقون، وقد أكتب إلى عمالي بها أن يسمعوا منك ويطيعوك في كل ما تعهد إليهم، فانههم عن المنكر وأمرهم بالمعروف توجر على ذلك، وأنت خليق أن تطاع ويسمع منك[1].

وكان مالك يأمر الحرس ليأخذوا شخصاً إلى السجن، ويأمر بإطلاقه حين يرى ذلك. ويجلس مالك عند الوالي فيعرض عليه السجن فيقول له: اقطع هذا واضرب هذا مائة وهذا مائتين واصلب هذا إلخ[2].

وعلى أي حال فإن مالك بن أنس قد لحظته الدولة وقرّبته، إذ وجدت منه عوناً ومؤازرة، فقرّبوه وأحسنوا إليه، ورفعوا مجلسه، ونشروا علمه، وأجزلوا له العطاء، وأصاب منهم ثروة طائلة، ومع هذا فهم مدينون لمالك في مؤازرتهم ومعاونتهم والركون إليهم.

وكان انتشار مذهبه في الأندلس يرجع لفضل القضاة، وقوة السلطة، إذ حملوا الناس على اعتناق مذهبه بالسيف كما مرّ بيانه.

أما المذهب الشافعي فقد تعرّضنا لذكره وعوامل انتشاره، وستأتي زيادة بيان في ترجمته، كما تعرّضنا لانتشار مذهب الإمام أحمد، وقد رأينا الإعراض عنه محسوساً. ولم يكن كغيره من المذاهب شهرة، بل اقتصر انتشاره في بغداد أما في سائر الأقطار فكان قليلاً جداً، حتى إن بعضهم لم يعدّه من المذاهب المعمول بها، وذكر مكانه مذهب الظاهري.

ولما امتد سلطان العثمانيين أصاب المذهب الحنبلي ضربة قاضية، وأخذ المذهب يتضاءل شيئاً فشيئاً. أما في مصر فلم تكن له أي شهرة هناك، فقد كان في العصور المتأخرة عدد شيوخ الأزهر ٣١٢ شيخاً من جميع المذاهب، وعدد طلاّبه ٩٠٦٩، وكان من بينهم ٢٨ طالباً من الحنابلة، و٣ شيوخ منهم فقط، ولكنه ظهر في القرن الثامن عشر ميلادي في صورة قوية جديدة، بظهور الوهابيين الذين يتبيّن في مذهبهم أثر تعاليم ابن تيمية. وقد تطرّفوا في ذلك إلى حدّ بعيد، وسيأتي الكلام على ظهورهم وتعاليمهم عند كلامنا في مذهب أحمد بن حنبل.

---

(١) مالك الخولي ص٣١٨.

(٢) مالك الخولي ص٣١٩ نقلاً عن القاضي عياض في الترتيب ج١ ص٢٧.

نظرة في التعصّب المذهبي:

وقد رأينا كيف تغلّبت روح التعصب المذهبي الشديد، كما تغلّبت الفكرة القائلة بتحريم تقليد غير المذاهب الأربعة. وتطورت الدعوة إلى ذلك بصورة واسعة وأخذ نشاطها يزداد حتى جعل من قلّد غير هذه المذاهب خارجاً عن الدّين. فكان هناك نزاع واحتدام وتعصّب حتى بين معتنقيها، أدّى إلى معارك دامية، واتّهام البعض للبعض الآخر وتكفير قوم لآخرين، حتى قال قائل الحنفية: لو كان لي الأمر لأخذت الجزية من الشافعية[1].

وأصبح كلٌ يحتكر الإيمان بالله والتصديق بنبيّه لأبناء مذهبه. وأن الجنّة وقف عليهم ولا نصيبِ لأحد فيها معهم، خلافاً لما جاء به النبي (ص) وخروجاً على تعاليم الإسلام حتى قال أحد الحنابلة: إنه من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم.

وقد اندفع المتطرّفون من معتنقي المذاهب الأربعة لبذل جهدهم في جعل رئيس مذهبهم هو المؤسّس لعلوم الإسلام، والمرجع الأعلى للتشريع، وأن العلم مقصور عليه، والاجتهاد لا يليق إلاّ به. وقد استنفدوا كل إمكانياتهم في تصويره بصورة لا تشبهها صورة (فهو ملك بصورة البشر)[2] وتمسّكوا بأقوال أئمتهم تمسّكاً جعلهم يقدّمونها على كتاب الله وسنّة رسوله[3] فكان يقال لهم: قال رسول الله فيقولون: قال فلان[4] ـ أي رئيس المذهب ـ ويأنفون أن تنسب إلى أحد من العلماء فضيلة دون إمامهم[5].

وعلى أي حال فإن تلك الاتجاهات التي سار عليها المتعصّبون للمذاهب، قد استولت على كثير من أتباعها، وقد يكون ذلك نتيجة للظروف التي مرّت بها الأمة الإسلامية، من تدخّل عناصر خارجة عن الإسلام، لتشويه سمعة المسلمين والإساءة إلى المجتمع، من بث روح الفرقة وإثارة الشغب، ومن المؤسف أن نجد البعض (قدمهم على الأنبياء عند تعارض كلامهم ـ أي أئمة المذاهب ـ مع الحديث الصحيح،

---

(١) مرآة الزمان القسم ١ ج٨ ص٤٤.
(٢) أبو حنيفة للسيد عفيفي المحامي ص٦.
(٣) همم ذوي الأبصار ص٥١.
(٤) توالي التأسيس للحافظ ابن حجر ص٧٦.
(٥) الاعتصام للشاطبي ج٣ ص٢٥٩.

فإنّهم يردون كلام النبيّ المعصوم ـ مع اعتقاد صحة سنده ـ لقول نقل عن إمامهم، ويتعلّلون باحتمالات ضعيفة)[١].

كما وقد دفعهم التعصّب إلى أنّهم (إذا وقفوا على آية محكمة، أو سنّة قائمة، أو فريضة عادلة تخالف مذهبهم، صاروا يؤولونها على غير تأويلها، ويصرفونها عن ظاهرها إلى ما تقرر عندهم من المذاهب والمشارب، وطفقوا يطعنون على من عمل بفحواها الظاهر ومبناها الباهر، كأن الدين ـ عندهم ـ هو ما جاء عن آبائهم وأسلافهم دون ما جاء عن الله في كتابه، أو عن رسوله ﷺ)[٢].

ومهما يكن من الأمر فإن تلك الاتجاهات كانت من تدخّل عناصر دخيلة في الإسلام، بعيدة عن مبادئه، وإلاّ كيف يصح أن يقدم مسلم تشبّعت فيه روح الإسلام إلى هذه الأمور المخالفة للحق، والتي يتبرأ منها الإسلام، كما أن أئمة المذاهب هم أنفسهم لا يعرفون ذلك في أنفسهم.

ولو استنطقنا تاريخ حياة أولئك الأئمة، لأجاب بالإنكار على ما يرتكبه المتعصّبون من مخالفة الواقع، وقد ألّفوا كتباً تختص بمناقبهم، وجمعوا فيها ما لا يقبله العقل، ولا يرتضيه الذوق، من أمور لا صلة لها بالواقع. كما قد تساهلوا في نقل كل ما سمعوا، وأثبتوا كل ما وجدوا، من دون التفات إلى المؤاخذات.

ويجب علينا ـ إن أردنا دراسة شخصية أحد من أئمة المذاهب، أو إعطاء صورة عنها ـ أن لا نقتصر على اقتفاء ما نقلته ألسنة المعجبين به. فإن العقل يشهد بوضع أكثرها، وعدم ارتباطها بالحقيقة، ولهذا كان البحث عن المذاهب أمراً شاقاً مجهداً؛ لما يكتنف الموضوع من غموض وتعقيد، ويحتاج إلى تأمّل واستفراغ واسع، لإعطاء النتيجة عند الوصول إلى الغرض المطلوب. وربما يبدو للبعض سهولة البحث في الموضوع. ولكن الحقيقة غير هذا، بل هو موضوع شائك يحتاج إلى جهد وعناء.

والخلاصة: إن مشكلة التعصّب للمذاهب الأربعة هي أعظم مشكلة حلّت في المجتمع الإسلامي، أدّت إلى اختلاف في الآراء، وتشتت في الأهواء، واضطراب حبل المودّة، وتكدير صفو الأخوّة. وكان من وراء ذلك خطر عظيم، وانحطاط

---

(١) الوحدة الإسلامية للسيد رشيد رضا ص٤٥.

(٢) الدين الخالص للسيد محمّد صديق حسن ج٣ ص٢٦٣.

فظيع، وقد تنبّه المسلمون لدفع ذلك الخطر، في اتخاذ الطرق الناجحة لإصلاح الوضع وجمع الكلمة، وقد تجاوبت أصوات المصلحين بالدعوة إلى الوحدة ولكن ذهبت صرختهم في واد ونفختهم في رماد!! لأن المتعصبين للمذاهب قد سيطرت عليهم عوامل العاطفة، فحالت بينهم وبين التفكير بسوء عاقبة ذلك الانقسام الذي أوجده المتعصّبون، وقد مرّ المجتمع الإسلامي ـ على أثر ذلك ـ بفترات مائجة بالفتن والفوضى والحوادث الدامية، حتى تصدع كيان المجتمع الإسلامي، وطغى تيار التعصّب، واستفحل خطر الانقسام وتلبدت سحب الفرقة في سماء المسلمين، والتقوا على صعيد الحقد والخصومة، وتحلّلوا من رابطة المودة والإخاء فكانت حوادث مؤسفة، من إراقة دماء، ونهب أموال، وحرق دور، وإعلان مسبة البعض للبعض الآخر أو تكفير فرقة لأخرى، وجعلوا الدين وسيلة للتغلب، وطريقاً لنجاح الخصومة فوضعوا أحاديث، واختلقوا مناقب ووضعوا بذلك كتباً مليئة بأوهام وخرافات تتعلّق بنصرة المذهب وإعلاء كلمته. وكان كبار الأمة وصلحاؤها يقفون موقف المناوأة والمعارضة لهذه الأوضاع، ولكن السواد تغلبت عليه دعاية العناصر المتدخلة، بمعاونة السياسة العمياء.

وعلى تطاول الأيام وامتداد التاريخ لا نعدم من مشاهدة تلك الخلافات ولا زال دعاة الفرقة، وأعوان الاستبداد يسايرون ركب الإسلام عبر التاريخ لتحقيق أهدافهم، ولكن جولة الباطل ساعة وجولة الحق إلى قيام الساعة.

الإمَام الصَّادق
المدرسَة وَالمذهب وَالشيعة

مدرسته وطابعها:

كانت الفترة التي عاشها الإمام الصَّادق عليه السلام فترة محنة تمر بها الأمة، فقد كان الحكم الأموي حكماً جائراً؛ إذ ابتعدت السلطة عن أحكام الإسلام، فكانت نهاية الحكم الأموي مثل بداية قيامه؛ إذ صبغت بالدم نهايته كما كانت بدايته.

وقامت دولة بني العباس، وهي تلبس لباس الدِّين، وترفع شعار الدعوة لمناصرة آل محمَّد، والانتقام من أعدائهم، وهي تحاول أن تكسب ود المسلمين.

وبعد أن تكشفت سياسة بني العباس، وزال القناع عن وجه حكمهم، اعتبر الناس عهدهم امتداداً لحكم بني أمية الجائر.

فأصبح المسلمون في معترك عصيب.. تحركت في جوانحهم الثورة وتاقت نفوسهم لتحقيق الإصلاح، وكان البيت العلوي هو محط آمال الأمّة، فساندهم رجال الدين، وانضوى بعض الفقهاء تحت رايتهم.

وفي ذلك المعترك الرهيب برزت شخصية الإمام الصَّادق وهو يحمل للأمة مبادىء الإسلام، وينشر تعاليمه، ويرفع صوت الإنكار على الظلم، ويدعو للإصلاح بكل جهد، وشارك الأمّة في محنتها إذا امتزجت مشاعره بمشاعر الأفراد، وتوجهت إليه الأنظار، وانضم إليه رجال الفكر ودعاة الإصلاح؛ لأنه عليه السلام يعرف كيف يبدأ الدعوة، وكيف يداوي النفوس من الأمراض الاجتماعية، فكانت دعوته سلمية، تهدف لتنوير الرأي العام، والحضّ على التمسّك بأحكام القرآن، وقد توسعت آفاق دعوته، كما انتشر دعاته من تلامذته في كل مكان، فأصبحت مدرسته منهلاً لرجال الأمّة ومصدراً لعلوم الإسلام.

وكان طابع مدرسة الإمام الصّادق الذي طبعت عليه، ومنهجها الذي اختصت به ـ من بين المدارس الإسلامية ـ هو استقلالها الروحي، وعدم خضوعها لنظام السلطة، ولم تفسح المجال لولاة الأمر، بأن يتدخلوا في شؤونها، أو تكون لهم يد في توجيهها وتطبيق نظامها، لذلك لم يتسن لذوي السلطة استخدامها في مصالحهم الخاصة، أو تتعاون معهم في شؤون الدولة. ومن المستحيل ذلك ـ وإن بذلوا جهدهم في تحقيقه ـ فهي لا تزال منذ نشأتها الأولى تحارب الظالمين، ولا تركن إليهم، كما لا تربطها وإياهم روابط الألفة، ولم يحصل بينها وبينهم انسجام. وبهذا النهج الذي سارت عليه، والطابع الذي اختصت به، أصبحت عرضة للخطر. فكان النزاع بينها وبين الدولة يشتد والعداء يتضخم، فلا الدولة تستطيع التنازل بمنهج المدرسة فتكسب ودها وتسعد بمعاونتها، ولا المدرسة في إمكانها أن تتنازل لإرادة الدولة، فتؤازرها وتسير بخدمتها وتتعاون معها، وكيف يكون ذلك؟! وهي منذ نشأتها الأولى ترتبط بالثقلين كتاب الله وعترة رسوله ﷺ وهما متلازمان متكاتفان لن يفترقا في أداء واجبهما لإرشاد الأمّة وهدايتها. فالقرآن ينهى عن معاونة الظالمين والركون إليهم ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾(١).

مواقفه من ساسة عصره:

ومن الواضح أن مبدأ العدالة ـ وهو من أعظم مبادىء الشريعة الإسلامية ـ أصبح في عهد أولئك الولاة لا يعمل به. فهم جبابرة ظلمة، لا يصلحون لمركز الولاية على المسلمين، وليس لهم كفاءة على التحلّي بصفات الخلافة، ولا قدرة لهم على تنفيذ أحكام الإسلام، فهم لا يصلحون للولاية ولا تجب طاعتهم بحال. وإنّ في مؤازرتهم والمعاونة معهم خروجاً عن أمر الله، ومخالفة لكتابه. وبذلك لا تكون ملازمة بين العترة وبين الكتاب إن داهنوا الظلمة أو ركنوا إليهم.

فسياسة أهل البيت تقضي بحرمة معاونة الظالمين، وعدم الركون إليهم. ومنهجهم في توجيه الأمّة لا يتعدّى حدود ما أمر الله به، فهم والقرآن يسيرون جنباً إلى جنب في أداء الرسالة ومهمة التبليغ، وهم أئمة للعدل وحماة للدين، ودعاة للصلاح. وقد برهنوا على أعمالهم بما كانوا يتحلّون به من مكارم الأخلاق، وجميل الصفات،

(١) سورة هود، آية ١١٣.

وشدة محافظتهم على نواميس الشرع. وقد اتضح لنا من سيرتهم ما لا حاجة إلى إطالة البحث فيه.

وقد روى الحسن بن علي بن شعبة أن سائلاً سأل الإمام الصّادق عن وجوه المعاش، فكان من جوابه (ع): «. . . وأما وجه الحرام من الولاية فولاية الجائر وولاية ولاته، فالعمل لهم والكسب معهم بجهة الولاية لهم محرم معذب فاعل ذلك على قليل من فعله أو كثير».

وصحّ عن الإمام الصّادق أنّه قال لأصحابه: «ما أحب أن أعقد لهم ـ أي الظلمة ـ عقدة أو وكيت لهم وكاء، ولا مدة بقلم. إن الظلمة وأعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد».

وكان ينهى عن المرافعة إلى حكامهم، ولا يرى لزوم ما يقضون به، لأن حكمهم غير نافذ، كما كان يشتد على العلماء الذين يسيرون في ركاب الدولة ويأمر بالابتعاد عنهم حيث يقول: «الفقهاء أُمناء الرسل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتّهموهم»[1].

وقد حاول المنصور أن يستميل الإمام الصّادق في عدة مرات، ولكنّها محاولة فاشلة فلم يزل يبتعد عنه، ويعلن غضبه عليه، ولا تأخذه في الحق لومة لائم. كما أعلن مقاطعته له فكتب المنصور إليه: لولا تغشانا كما تغشانا سائر الناس. فأجابه الإمام عليه السلام: «ما عندنا من الدنيا ما نخافك عليه، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنيك عليها، ولا تعدها نقمة فنعزيك بها فلِمَ نغشاك؟!!»

فكتب إليه المنصور ثانية: تصحبنا لتنصحنا. فأجابه الإمام: «من أراد الدنيا فلا ينصحك ومن أراد الآخرة فلا يصحبك».

وبهذا يتجلى موقف الإمام الصّادق من حكام عصره، وابتعاده عنهم، وهو النهج الذي أمر أتباعه أن ينهجوه، وقد أبدى ذلك في كثير من مواقفه وأعلن للأمة وجوب مقاطعة الظالمين وحرمة معاونتهم ليحد من نشاطهم في هضم حقوق الناس، واستيلائهم على مقدراتهم، واستبدادهم بالأمور وجورهم في الحكم.

وكانت محاولة المنصور لجذب شخصية الإمام إليه وطلب الاتصال به لغرض

---

(١) حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم ج٣ ص١٩٤.

تضييق دارة المقاطعة التي أعلنها الإمام الصّادق، والتي سار عليها كثير من الناس.

وسيأتي مزيد بيان لمواقفه مع المنصور وإعلان غضبه عليه، وقد عرف المنصور بالشدة والقسوة وعدم مبالاته في إراقة الدماء وكان يقتل على الظنة والتهمة ويحاسب من يتهمه بالإنكار عليه أشد المحاسبة، ولا يلين في شيء من ذلك، كما لا يتورع عن ارتكاب ما حرّمه الله تعالى.

والمنصور على ما فيه من الظلم وسوء المعاملة للرعية، كان يتمنى أن يكون في دولته مثل الحجّاج بن يوسف، ذلك السّفاح المستهتر، فكان يقول: والله لوددت أني وجدت مثل الحجّاج بن يوسف، حتى أستكفيه أمري وأُنزِلُهُ أحد الحرمين(١).

ومعنى ذلك أنّه كان يتمنى أن يقضي على أهم مصدر للتشريع الإسلامي، فيضع السيف في حملة الحديث ورجال العلم الذين يحتفون بالإمام الصّادق ويتفقهون عليه، ويملأ السجون من الصلحاء، ويصبغ وجه الأرض من دماء الأبرياء. وقد أشرنا إلى طرف من أعمال المنصور وسوء سيرته، وما كان يلقى الإمام الصّادق منه في سبيل الدعوة إلى الله تعالى(٢).

الصراع بين المدرسة والدولة:

وكانت مدرسة الإمام الصّادق عليه السلام بعيدة عن التأثر بآراء الحكّام، الّذين يفرضون إرادتهم على العلم والعلماء، ويحاولون أن تكون لهم السلطة الدينية إلى جانب السلطة التنفيذية، مما يؤدّي إلى الفوضى الكاملة في الحكم عندما يستغلّون الدّين، ويتّخذون من رجاله وسيلة لاشتغال الناس عن مؤاخذتهم، ويدينون لهم بالطاعة الكاملة ويحل الإيمان بتقديسهم محل الإيمان بالله!! أما مدرسة الإمام الصّادق عليه السلام فإن الصراع بينها وبين الدولة كان على أشده، والعداء بالغاً نهايته، الأمر الذي جعل المدرسة عرضة للخطر، ولكنها رغم ذلك صمدت لتلك الهجمات التي توجهها الدولة لتمحوها من صفحة الوجود. وقد تحملت بطش الجبارين، وعسف الظالمين، فأدت رسالتها على أكمل وجه. وكان منها النتاج الصالح، الذي يفيض على الأمّة خيراً وبركة، ويطفح بالعلم والحكمة والعرفان، وخرّجت عدداً وافراً من رجال العلم، وحملة الحديث. ولم تكن كل تلك المعارضات من قبل ولاة الجور

---

(١) الطبري ج٩ ص٢٩٨.

(٢) الإمام الصّادق والمذاهب الأربعة ج٢.

لتعوقها عن مواصلة كفاحها في الدعوة إلى الحق، والخير والعدل والمساواة والأخوة الإسلامية العامة، والمدنية الصحيحة والحضارة الراقية، ومحاربة أهل الأهواء، والبدع والضلالات، ويتضح ذلك من تعاليم العترة الطاهرة ـ زعماء هذه المدرسة ـ وسيرتهم العادلة وشدة اهتمامهم بتوجيه الأمة نحو دينهم الذي يتكفّل لهم بالسعادة، ويدعوهم إلى الأهداف الكريمة، والغايات السامية، والأغراض الشريفة، والمُثُل العليا، بتطبيق نظامه على جميع الطبقات.

نواة المدرسة وتاريخ نشأتها:

إن تاريخ نشأة مدرسة الإمام الصّادق عليه السلام هو أسبق من جميع المدارس الإسلامية، إذ لم يكن الإمام الصّادق عليه السلام هو الواضع لحجرها الأساسي، والغارس لبذرتها الأولى، بل كان الواضع لحجرها والغارس لبذرتها هو الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله. فقد وضع منهاجها ونظامها، وحثّ الناس على الانتهاء إليها، إذ قرن العترة بكتاب الله العزيز بقوله صلى الله عليه وآله: «**إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً**». الحديث[1] كما صرّح في كثير من تعاليمه بلزوم اتباع أهل بيته والأخذ عنهم وأنهم لسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق، كما أشار النبي الأعظم إلى لزوم اتباعهم في كثير من أحاديثه.

فالمدرسة كانت نشأتها في عهد صاحب الرسالة، وكان رئيسها الأول هو الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو أقضى الأمة وأعلمهم، وهو نفس محمّد صلى الله عليه وآله، وكان ملازماً له في جميع أوقاته، يأخذ عنه العلم، ويتلقى التشريع العملي، فهو صاحبه في سفره وحضره وحربه وسلمه، يقيم أنّى أقام، ويرحل أنّى ارتحل. ورسول الله صلى الله عليه وآله هو معلّم عليّ ومتولي تربيته ونشأته، فكان عليه السلام باب علم مدينة الرّسول وأمينه على سرّه.

فكان له من الكفاءة والاستعداد ما جعله مرجعاً لأحكام الأمّة، وإماماً هادياً. وقد عوّل النبي عليه في جميع شؤونه لاتصافه بصفات الإمامة، وإنكار ذلك مكابرة ومغالطة، ولا حاجة بنا إلى إطالة البحث ورحم الله المتنبي إذ قال:

---

(١) إن هذا الحديث الشريف لجدير ببسط القول في ما جمعه من مقاصد جليلة، وأمور يجب على كل مسلم أن يتدبّرها، وقد ألّف علماؤنا في بيان مقاصده رسائل عديدة.

وتركت مدحي للوصي تعمداً إذ كان نوراً مستطيلاً كاملا
وإذا استطال الشيء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

ولما انتقل علي عليه السلام إلى جوار ربّه تزعّم الحركة العلمية وترأس المدرسة الإمام الحسن عليه السلام سبط الرّسول، وريحانته، فكان عليه السلام محطاً لآمال الأمة، ومرجعاً لأحكامها. ولكن الظروف القاسية والحوادث المتتابعة في عهد معاوية لم تسمح للمدرسة أن تتقدّم على الوجه المطلوب، وسارت بخطى ثقيلة، لأنّها قابلت جور معاوية بكل ما لديها من قوّة في إعلان الغضب عليه، وقد قابلها بسياسة لا تعرف الرحمة، وشدة لا تعرف الهوادة، حتى أريقت دماء بعض المنتمين إليها، وهدمت دورهم. كل ذلك في سبيل الدعوة إلى الإصلاح.

وجاء دور الحسين بن علي عليه السلام وهو أعظم الأدوار وأهمّها. ومعاوية قد عظمت شوكته وامتدّ سلطانه، وكثر بطشه وفتكه، وتلاعب بالأحكام وحرّف الكلم عن مواضعه، وأخذ يتتبع رجال الفكر وخيار الأمّة، ويقتلهم تحت كل حجر ومدر. ومهّد الأمر لابنه يزيد ـ وهو الفاسق الذي لا يختلف اثنان على حق في إجرامه وكفره ـ فأصبح خليفة للمسلمين، وإماماً يتربع على عرش الخلافة الإسلامية، (وهو الفاسق المستهتر الذي أباح الخمر والزّنا وحط بكرامة الخلافة إلى مجالسة الغانيات، وعقد حلقات الشرب في مجلس الحكم، وألبس الكلاب والقرود جلاجل من ذهب، ومئات من المسلمين صرعى الجوع والحرمان)[1].

وأصبحت الأمة الإسلامية في حالة سيئة، لم يسهل احتمالها على نفوسهم. فعمّ التأثر جميع البلاد، حتى لم يجد الحسين عليه السلام طريقاً للسكوت. فنهض منتصراً للحق، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، حتى أريق في ذلك دمه، واستبيح حرمه، فكانت نهضته صرخة داوية ترددها الأجيال من بعده، وتلقي عليهم دروس التضحية والتفاني في سبيل إنقاذ الأمة من براثن الظّلَمة، وكانت منهجاً لثورات إصلاحية مرّت عليها الأجيال من بعده، اقتداءً به، وعملاً بدروسه القيّمة، فسلام عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حياً[2].

---

(١) الثائر الأول في الإسلام لمحمّد عبد الباقي ص٧٩.
(٢) من وحي ذكرى الطف ومواسم إحياء الثورة الحسينية كتبنا «مع الحسين في نهضته» الذي هيأناه بإضافات وتنقيحات لطبعته الثانية إن شاء الله.

ومن بعده انتقلت رئاسة المدرسة لولده زين العابدين الإمام علي بن الحسين عليه السلام وهو أورع أهل زمانه وأتقاهم، وأعلم الأمة. وقد اشتدت الرقابة عليه من قبل الأمويين بصورة لا مجال لأحد أن يتظاهر بالانتماء لتلك المدرسة، إلاّ من طريق المخاطرة والمغامرة. ومع هذه الشدة وتلك الرقابة فقد كان سيرها محسوساً وكفاحها متواصلاً وخرّجت عدداً وافراً من علماء الأمة، الذين أصبحوا مرجعاً للأحكام ومصدراً للأحاديث.

وعلى عهد الإمام زين العابدين وتحت وطأة السياسة الوحشية والجور الأموي بدأت مرحلة جديدة إذ كان الإمام علي بن الحسين أمام أمرين: إما أن يبقي نفسه لمواصلة الرسالة والاضطلاع بأعباء الولاية الشرعية، وإما أن ينجرّ لما تعمل من أجله أمية للقضاء على آل محمّد وقتله بعد إذ نجّاه الله بآية باهرة وحكمة بالغة والله أعلم حيث يجعل رسالته.

وهكذا كان عهد ولده الإمام الباقر عليه السلام من بعده في أول الأمر، ولكن ما أن دب الضعف في جسم الدولة الأموية، حتى بعث النشاط في مدرسة أهل البيت عليهم السلام فقام الإمام الباقر بواجبه، ونشر معالم الإسلام وأحيا مآثر السنّة، فكانت حلقة درسه في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومسجد مكة «ابن ماحل» هي أعظم حلقات الدروس. ولما جاء عصر الإمام الصّادق وكان أزهر العصور، اتّسع فيه نطاق الحركة العلمية ونشأت المدارس الإسلامية، وكان في كل بلد عالم يرجع إليه، وكانت مدرسة الإمام الصّادق في المدينة جامعة إسلامية كبرى، تشد إليها الرحال، وترسل إليها البعثات من سار الأقطار الإسلامية لانتهال العلم إذ وجدوا عنده ضالتهم المنشودة وغايتهم المطلوبة، ولم يذكر التاريخ لنا أنه سئل عن شيء فأجاب: بلا أدري، أو أن مناظراً قطعه، بل كان هو المتفوق في كل علم، والمحلق في كل مناظرة، واشتهر عنه أنه كان يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني فإنّه لا يحدثكم أحد بمثل حديثي»[1].

وكيف لا يكون كذلك؟ وهو وارث علم جدّه أمير المؤمنين عليه السلام الذي اشتهر عنه هذا القول، ولم يستطع أحد أن يقول ذلك إلاّ أُفحم، وعلي هو باب مدينة علم الرّسول لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا مدينة العلم وعلي بابها».

---

(١) تذكرة الحفاظ ج٢ ص١٥٧.

فالإمام الصّادق يروي عن أبيه الباقر، عن أبيه زين العابدين، عن الحسين بن علي، عن علي بن أبي طالب عليهم السلام. وهذا الإسناد هو المعروف بالسلسلة الذهبية. وهو أصح الأسانيد وأقواها(١).

صمود مذهبه أمام الحكام:

ومهما يكن من أمر، فإن ما يبدو لنا بوضوح: أنّ ذلك الانفصال وعدم التأثر بآراء الحكّام هو الذي أوجد تلك المرونة في المذهب الجعفري، لأنه يستقي من ينبوع لم يكدر صفوه التعليم الاستعماري بما فرضه على العلم والعلماء، ولمّا كان غلق باب الاجتهاد هو من مقترحات الدولة وتشريع السياسة، فلم يلتزم المذهب الجعفري به، ولم يخضع لذلك النظام الجائر الذي يفضي مؤداه إلى الجمود الفكري وتحجير العقل، ورد نعمة أنعم الله بها على هذه الأمة(٢).

ومن الواضح أن عدم الالتزام بما تفرضه الدولة، هو خروج عن الطاعة وعمل يستوجب العقاب والمقاومة. وقد عُرف معتنقو مذهب أهل البيت عليهم السلام بأنّهم لا يرون لزوم طاعة أولئك الحكّام الذين تربعوا على عرش الخلافة بدون حق، فلم يؤازروهم، ولم يتعاونوا معهم اقتداءً بأئمتهم واتباعاً لأوامر الرّسول ﷺ في مقاطعة الظلمة، وحرمة المعاونة لهم، لأن ليس في نظام الملوك الذي أوجده الأمويون والعباسيون قواعد الخلافة ومبادىء الحكم الإسلامي إلاّ ما اقتضته مصالحهم الشخصية، وهو نظام زمني يقوم على المظاهر والأشخاص، وليس نظاماً دينياً يقوم على الإيمان والعقيدة.

كانت الطبقة الحاكمة تعد من لا يؤازرها ويتعاون معها خصماً يجب القضاء عليه، لأن عدم التعاون مع الدولة هو عدم الاعتراف بأهليتها للحكم، وانتقاد لسياستها وسيرة رجالها.

لذلك اتجهت قوة الدولة لمعارضة مذهب أهل البيت عليهم السلام واتهام منتحليه بسوء العقيدة، والخروج عن الإسلام، فسلكوا في تحقيق ذلك تلك الطرق الخداعة،

---

(١) معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري ص٥٥.

(٢) سيأتي الكلام حول الاجتهاد والتقليد، وقد تقدم في الجزء الأول نقل آراء بعض العلماء ورؤساء المذاهب في لزوم فتح باب الاجتهاد.

وأسندوا إلى الشيعة ما ليس من عقائدهم، وأوعزوا إلى الوعّاظ في المساجد، والقصاص في الطرقات، وإلى العلماء المرتزقة الذين يطلبون ود السلطان طلباً لمنفعة، واستدراراً لنعمة، وحيازة لصلة الملوك ليقوموا بكل ما يأمرونهم به من مخالفة الحق، باتهام الشيعة: بأنهم يكفّرون جميع الصحابة (والعياذ بالله) وأنهم لا يعملون بالقرآن.. وألزموهم بأن يذكروا ذلك محفوفاً بشواهد يتقبلها السذج وعوام الناس، حتى تمكنت في نفوسهم، ولهجت بها ألسنتهم، كأنها حقيقة لا تقبل أي جدل ونقاش.

وبدون تفكير وتدبر انتشرت في ذلك المجتمع السائر في ركاب الدولة فكرة بغض الشيعة، وأنى لذلك المجتمع بأن يظفر أفراده بالتفكير الحر وتحكيم العقل، وقد فرضت السلطة عليهم تلك الافتعالات بقوة قاهرة، لا يستطيعون لها دفعاً ولا يجدون عن الإذعان لها سبيلاً، والناس مع القوة عند ضعف الإيمان، ولكن الحق لا بد أن يظهر مهما طال الزمن وادلهمت الخطوب.

وعلى أي حال فليس من العسير أن يقف المتتبع على بواعث تلك الافتعالات التي أوجدتها عوامل السياسة، وقوة الإرهاب، وسلطة الاستبداد، التي شوهت الحقيقة، وغيرّت مجرى الواقع، وإن الوقوف أمام ذلك التيار أمر لا يتحمّله إلاّ رجال الفكر وحاملو ثقل العقيدة الإسلامية.

وصفوة القول أن المذهب الجعفري قد انتشر على وجه البسيطة، ولم تقف أمامه تلك المحاولات التي بذلها رجال السلطة وأعوانهم في محوه والوقوف أمام انتشاره، ولم تقض عليه كما قضت على بقية المذاهب التي لا يروقها انتشارها، كما لم تقف أمامه تلك المجازر والفظائع السود التي يقوم بها خصومه.

وقد أشرنا فيما سبق من أجزاء الكتاب إلى عوامل إنشاء المذاهب واختيار رؤسائها، ولذا لزم أن ننبّه هنا إلى أن تسمية «المذهب الجعفري» لم تكن على منوال التسميات الأخرى التي تتعلّق بإرادة السلطان، وإنما كانت هذه التسمية نتيجة لنشاط مدرسة الإمام الصّادق وصورة لرعايته لطلاّبه ومنتسبي مدرسته. فكما أشرنا سابقاً أنه عليه السلام كان يتحرى قابلياتهم ويتولى توجيههم ورعايتهم وحثّهم على العمل والعلم فيسمعهم أرق عبارات الود وأعذب ألفاظ الاحترام، وكان يسميهم «أصحاب جعفر بن محمّد» ويسعى إلى ذيوع تميزهم في الفقه واستقلال أقوالهم، وكان عليه السلام

يصرح بسروره إذا اشتهر أصحابه بالورع وحسن الخلق، وأن يوصف واحدهم بـ (الجعفري) وسنأتي على تفصيل ذلك.

وما دمنا بصدد البحث عن مدرسة الإمام الصّادق عليه السلام فلا بدّ لنا من التنبيه على أمور ثلاثة:

التنبيه الأوّل: التابعون والإمام الصّادق:

قد يبدو للبعض أن الإمام الصّادق عليه السلام حضر عند أحد من التابعين، أو روى عنه، ومنشأ هذا أنّ بعض من ترجم للإمام الصّادق ذكر أنّه روى عن نافع وعطاء وعروة بن الزُبير والزهري.

وهذا القول لا يثبته التتبع، وهو بعيد عن الصواب، بل هي كلمات يلوكها من يرسل القول على عواهنه، ويعطي الآراء جزافاً، وينقل الأقوال بدون تثبت وتمحيص، فإننا لم نجد في حديثه أنّه أسند عن أي واحد من الناس سوى آبائه الطاهرين عليهم السلام فإذا أراد أن يسند فسلسلة حديثه هكذا: حدّثني أبي الباقر، قال: حدّثني أبي زين العابدين، قال: حدّثني أبي الحسين، قال: حدّثني أبي علي بن أبي طالب، قال: حدّثني رسول الله ﷺ. وهو أصح الأسانيد عند علماء الحديث كما تقدّم، وهو الترياق المجرّب كما سمّاه بعض العلماء. وربما أرسل حديثه بدون إسناد ولكنه أعطى قاعدة مشهورة بقوله: حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث أبيه وحديث أبيه حديث علي بن أبي طالب وحديث علي حديث رسول الله ﷺ.

كما أننا بعد البحث والتتبع لم نجد في كتب الرجال من يذكره في عداد من حضر على هؤلاء، نعم إلاّ الخزرجي صاحب الخلاصة ذكره في من أخذ عن عطاء، وهو كما قلنا بعيد عن الصواب، على أن بعض هؤلاء قد كان يحضر عند الإمام الباقر كمحمّد بن المنكدر، والزهري، فلا يتصور أن الصادق كان يحضر على أحد في عهد أبيه الباقر، إذ لم يكن هناك نقص فيحاول إكماله على أيدي هؤلاء، وبعد وفاة أبيه، فقد استقل بالفتوى، وتزعم المدرسة، وانتشر ذكره، وأصبح هو المتفرّد بالزعامة.

وأمّا قولهم: أنه حضر عند عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٢هـ وسمع منه فهذا من الغرابة بمكان، لأن عروة لا تخفى حاله على الإمام الصّادق عليه السلام وما كان

يتصف به من الشذوذ، وعدم الاستقامة بتقرّبه إلى الأمويين، وهو من الوضّاع الذين اتخذهم معاوية أعواناً يستعين بهم على مهماته في وضع الأحاديث الكاذبة، والذين أطلقنا عليهم أعضاء (لجان الوضع).

قال أبو جعفر الإسكافي المعتزلي: إن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين، على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه. منهم أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة ومن التابعين عروة بن الزبير[1].

فمن كانت هذه حاله كيف يصح أن ينسب إلى الصادق الرواية عنه؟ وكذا الزهري فقد كان من أعوان الأمويين والمتصلين بخدمتهم والمؤازرين لهم، وكان قطب رحَى أداروا به مظالمهم، وجسراً يعبرون عليه إلى بلاياهم، وسلّماً إلى ضلالهم، داعياً إلى غيهم، سالكاً سبيلهم، يدخلون الشك به على العلماء، ويقتادون به قلوب الجهال. كما جاء في رسالة الإمام زين العابدين عليه السلام إليه يرشده بها لطريق الحق والصواب. وقد انقطعت صلته بالإمام زين العابدين بعد أن نهل من علمه وتعلم منه حتى جرّه الأمويّون إلى قصورهم وأغروه بخدمتهم وتنفيذ أغراضهم.

ومن كانت هذه صفته، فهو مسلوب العدالة، ولا يوثق بحديثه، فكيف يكون مصدراً لحديث أهل البيت؟ ولعل الذي أوقع صاحب هذا القول ـ وهو رواية الصادق عن الزهري ـ أنه اشتبه عندما رأى في عداد تلامذة الزهري رجلاً يسمى بجعفر، فتوهم أنه الصادق كما سبق مثل هذا الاشتباه لكثير من المؤرخين، إذ نسبوا الشهرة بالزجر، والفأل، والتنجيم، لجعفر بن محمّد الصّادق. ولم يفرّقوا بينه وبين جعفر بن محمّد الفلكي، المعروف بأبي معشر البلخي، فإنه كان مشهوراً في الزجر، والفأل، والتنجيم، وكان عصره مقارباً لعصر الإمام الصّادق، ونقل الناس أخباره في ذلك، ولا يستبعد أن أعداء جعفر بن محمّد أشاعوا ذلك، للحط من كرامته وبخس حقّه من العلم، والنيل من مكانته الرفيعة، وقد ردّد هذا القول كثير من الكتّاب بدون وقوف على حقيقة الأمر.

قال ابن كثير: إن الذي نسب إلى جعفر بن محمّد الصّادق من علم الزجر

---

(١) شرح النهج ج١ ص١٥٨.

والطرف، واختلاج الأعضاء، إنما هو منسوب إلى جعفر بن محمَّد أَبي معشر الفلكي، وليس بالصَّادق، وإنما يغلطون[1].

قلت بل أكثرهم كان يتعمد ذلك، ولا شيء هناك إلاّ عوامل السياسة، ولا أذهب بك بعيداً في الاستدلال على ذلك، أو أرجع بك إلى تلك العصور التي سيطرت عوامل السياسة على عقول أبنائها، فأعمتها عن الحق، وأبعدتها عن الصواب، ولكني أسلك بك أقرب الطرق في أقرب العصور ـ عصر النور أو القرن العشرين ـ هذا الدكتور أحمد أمين يقع في هذا الغلط، أو يتغافل عن الحقيقة! يقول في «فجر الإسلام»: في هذا العصر كان العلم ـ ولا سيما الديني ـ يدرس في المساجد، يجلس الأستاذ في المسجد، وحوله الآخذون عنه، على شكل حلقة، وتكبر الحلقة وتصغر تبعاً لقدر الأستاذ. إلى أن يقول: وكذلك كان يفعل جعفر الصَّادق في المدينة ـ أي أنه يجلس ويجلس الآخذون حوله حلقة ـ قالوا: وكان يشتغل بالكيمياء والزجر والفال[2].

ولا يخفى على القارىء اللبيب سرعة انتقال الأستاذ أحمد أمين لنقل ذلك القول وإيراد ذلك الغلط، وما يقصده في ذلك، كما لا تخفى نزعته العدائية للشيعة، فلا يروقه أن يذكر حلقة درس رئيس مذهبهم في المسجد، وإعطاء ما يلزم لها من النقل التاريخي، إن كان مؤرخاً منصفاً، ولكنه يثقل عليه ذلك.

وخلاصة القول: إن الإمام الصَّادق لم يرو عن أحد من التابعين، ولم يحضر حلقة درس أي واحد منهم، أما في حياة أبيه، فقد كان في غنى عن ذلك، وأما من بعده فإنه أصبح المبرز في كل فن، والمرجع الأعلى في الأحكام، وكانت حلقة درسه تضم رجال العلم من رؤساء المذاهب وغيرهم، كسفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، وسفيان بن عيينة، ومالك بن أنس، وأبي حنيفة، ويحيى بن سعيد القطان، وأيوب السجستاني، وعبد الملك بن جريج وغيرهم. فليس من المعقول أن يكون ـ رئيس مدرسة تضم أمثال هؤلاء ـ يحضر درس من هو أقل درجة منه، بل هم أقل درجة من كثير من تلامذته. وإن أمثال هذه الأقوال إنما تقال لمجرد المبالغة في التقدير والتوثيق في حق من يريدون رفع

---

(١) البداية والنهاية ج١١ ص٥١.

(٢) فجر الإسلام ص١٦٥.

مقامه، وليس بمستطاع لأي أحد أن يأتينا برواية للإمام الصّادق في سندها أحد أولئك القوم.

التنبيه الثاني: تلامذة الإمام ومركزية الكوفة:

إذا أردنا أن نرسل نظرة إحصاء لتلامذة الإمام الصّادق عليه السلام من حيث البلدان النائية التي ينتسبون إليها فسنجد الكوفيين أكثرهم عدداً!!! وعلى وجه التقريب: يكون عددهم قد يتجاوز الألف. وعكسها الشام فإن عدد تلامذته المنتسبين إليها لا يتجاوز العشرة!!! وأسباب ذلك ربما تعود للنزعة التي يتصف بها كل من البلدين. فالكوفة كانت تناصر أهل البيت عليهم السلام وتتشيّع لهم، والشام على عكس ذلك. وبهذا أصبحت الكوفة محل اهتمام الخلفاء الذين يجعلون من أهل البيت خصوماً ويعتقدون بأنه لا يستقر أمر الخلافة ما لم يتخذوا لها التدابير للقضاء على نشاطهم العلمي والسياسي. لذلك نجد الدولة الأموية تهتم بأمر الكوفة وتحاول إخضاعها بالقوة عندما تعيّن ولاة لا رحمة في قلوبهم، ولا وازع دين يردعهم عن الفتك وإراقة الدماء كالحجاج، وزياد، وعبيد الله بن زياد، وخالد القسري. وكذا العباسيون اتخذوها مركزاً للخلافة، لتكون تحت مراقبة الخليفة مباشرة.. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: إن الكوفة كانت مركزاً تجارياً وصناعياً ملحوظاً في حياة المجتمع الإسلامي في القرن الأول الهجري، وازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية، وهي ما سمّوها عمل الوشي والخز. وكانت هذه المصنوعات تلقى رواجاً في الأقطار الإسلامية[١] وكانت محاطة بقرى كثيرة وفيها من غير المسلمين عدد كبير، كالنصرانية في الحيرة وغيرها، ووفد عليها أربعة آلاف من رعايا الفرس عُرفوا بحمراء الديلم[٢].

وقد كثرت الهجرة إلى الكوفة من ذوي العقائد المتباينة، واختلطوا بمجتمع الكوفة وكان أكثر هؤلاء يترقبون الفرص للفتك بالمسلمين، انتصاراً لدياناتهم التي قضى عليها الإسلام.

ثم زخرت الكوفة بالموالي، فكان لهم أثر محسوس في تطور الحياة الاجتماعية وبهذا أصبحت الكوفة تموج بعناصر مختلفة، لا تتحد في الرأي، ولا تتفق في

---

(١) الأغاني ج٢ ص١٧٣.

(٢) البلاذري في فتوح البلدان ص٢٨٩.

الاتجاه، وهذا الاختلاط يوجد اضطراباً، وعدم الاستقامة في الأمور، وكان له أثر واضح في أخلاق أهل الكوفة، وقد لحظه حذيفة بن اليمان من قبل فبيَّنه في خطاب له قائلاً: (يا معشر أهل الكوفة، إنكم أول ما مررتم بنا كنتم خيار الناس، فغيّرتم بذلك زمان عمر وعثمان، ثم تغيرتم وفشت فيكم خلال أربع: بخل، وخبّ[1] وغدر وضيق، لم تكن فيكم واحدة منهن، فنظرت في ذلك فإذا ذلك في مولديكم، فعلمت من أين يأتي، فإذا الخب من قبل النمط، والبخل من قبل فارس، والغدر من قبل خراسان، والضيق من قبل الأهواز)[2].

وحين اتّسع نطاق الحركة العلمية كانت الكوفة مركزاً هاماً لمختلف العلوم، وقد ظهر علم الكلام، وكثر الجدل حول العقائد، وأهمّها البحث عن الأمانة. وقد ازداد نشاط ذوي العقائد الفاسدة، والآراء الشاذة، فأظهروها على سبيل النقاش العلمي، فكانت تلك الآراء تأخذ مفعولها في المجتمع، ويتناقلها الناس ومصدرها الكوفة، وهي شيعية فتنسب تلك المقالة إلى الشيعة. وكانت السياسة تؤيد ذلك بغضاً للشيعة ووسيلة للقضاء عليهم، وقد اتبع المؤرخون للفرق تلك الخطة، فنسبوا للشيعة فرقاً كثيرة من ذوي المقالات الفاسدة بدون إنصاف أو تعقّل، وما ساقهم إلى ذلك إلاّ الجهل بعقائد الشيعة، أو البغض لهم اتباعاً لأسيادهم ومجاراة للظروف.

ولا أطيل الحديث ـ والحديث شجون ـ حول تلك الدعاية الكاذبة، في نشر الآراء الشاذة، والعقائد الفاسدة، التي يبثّها أعداء الإسلام ليتقبّلها ضعفاء النفوس، والمصابون في تفكيرهم، فينسبونها للشيعة ولا ربط لها بعقائد الشيعة، إلاّ أنَّ الكوفة كانت مصدراً لها والكوفة شيعية، وقد تعمد أولئك النفر أن يعلنوا سبّ الصحابة ليكون ذلك طريقاً لمؤاخذة شيعة آل محمَّد، الذين تأدّبوا بآدابهم واتّبعوا أوامرهم، كما أن موجة الغلو قد ظهرت في الكوفة دون غيرها من البلدان، وكان القصد من ذلك ما قلناه وهو أن أعداء آل محمَّد أرادوا الوقيعة في أتباعهم فأشاعوا الغلو في بلد يعرف أهله بالتشيع لهم والانتساب إليهم.

وقد عالج أهل البيت تلك المشكلة الخطيرة. وعرفوا تلك الدوافع التي دعت

---

(١) الخب بفتح الخاء المعجمة: الغدر والخداع والغش.

(٢) حركات الشيعة المتطرفين نقلاً عن ابن مسكويه، تجارب الأمم ص٤٣٥ ليدن.

هؤلاء إلى الالتحاق بصفوف الشيعة، واتضحت لهم غايات خصومهم، الذين يريدون أن يوقعوا بهم المكروه، فأعلنوا البراءة منهم، وجاهروا في لعنهم، وأمروا شيعتهم بالابتعاد عنهم، وإليك بعض النصوص في ذلك:

روى هشام بن الحكم: أنه سمع أبا عبد الله الصّادق يقول: «كان المغيرة يتعمّد الكذب على أبي، ويأخذ كتب أصحابه ويدس فيها الكفر والزندقة ويسندها إلى أبي ثم يدفعها إلى أصحابه، ويأمرهم أن يبثوها في الشيعة فكل ما كان في كتب أبي من الغلو فذلك مما دسّه المغيرة بن سعيد في كتبهم».

يظهر لنا أن حركة المغيرة كانت حركة يهودية ضد الإسلام، كما أشار الإمام الصّادق في قوله:

«لعن الله المغيرة بن سعيد، ولعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلّم منها السحر والشعبذة، إن المغيرة كذب على أبي» إلخ[1].

التنبيه الثالث: مدرسة الإمام ومعنى التشيّع:

إننا إذ نُعبر عن المدرسة، فإنما المقصود بذلك هو تعاليم المذهب وانتشاره، لأن مذهب أهل البيت ينسب للإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام لما اشتهر به من العلم وكثرة التعاليم في تلك الفترة، وهي بين شيخوخة الدولة الأموية وطفولة الدولة العباسية، وإلاّ فمذهب الشيعة هو مذهب أهل البيت، وعنهم يأخذون الأحكام، لأنهم أصدق الناس في الحديث، وأشدهم محافظة على أداء رسالة التبليغ، واتباعاً لأمر النبي ﷺ إذ قرنهم بالكتاب العزيز الدال بكل صراحة على وجوب اتباع أهل البيت والتمسّك بهم، فإنّه نجاة من الضلالة. وهذا هو التشيّع بمعناه الجلي، ولهذا أخذنا عنوان الكتاب لأن ظروف نشأة المذاهب لا تشمل المذهب الشيعي ولم يخضع لأي ظرف منها، كيف وهو في جذوره يمتد إلى زمن الرسالة، ولم يكن في وجوده أثر لمصلحة إلاّ مصلحة الدين أو سبب إلاّ سبب العقيدة. وبرز اسم الإمام الصّادق في تلك المرحلة التي ظهرت فيها دوافع إيجاد المذاهب فكان أولى أن يطلق اسمه على المذهب تمييزاً لا مساواة وبدواعي تلك الفترة وبإشارة من الإمام عليه السلام الذي كان يوجه أصحابه ويعين مهامهم الدينية والاجتماعية وما ينبغي لهم القيام به في ظل تلك

(١) منهج المقال ص٣٤٠.

المرحلة التي ماجت بالأفكار المختلفة والأصول والمنابع. وجعل الإمام لكل واحد من أصحابه دوراً مخصوصاً في تلك المرحلة. وراح يعدّهم لتحمّل المسؤوليات الدينية بأعلى درجة من التفقه والتقوى، فكان الإمام الصادق ينظر إلى أن يقال في أصحابه: «رحم الله جعفر بن محمّد ما أحسن ما أدب به أصحابه». وهذا هو التشيع في إحدى مراحله المهمّة. وعلى أي حال، فإن محور التشيع وركيزته الأساس إطاعة صاحب الرسالة والتمسك بأهل بيته والاقتداء بتعاليمهم وموالاتهم ونص أهل اللغة بمعناه:

يقول الحافظ الأزهري: الشيعة قوم يهوون هوى عترة النبي ويوالونهم[١].

وقال في القاموس: وشيعة الرجل بالكسر أتباعه وأنصاره، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى علياً وأهل بيته حتى صار اسماً خاصاً لهم[٢].

وقال في التاج: إذا قيل فلان من الشيعة عرف أنّه منهم، وفي مذهب الشيعة كذا أي عندهم، وأصل ذلك من المشايعة والمطاوعة[٣].

وقال الجوهري: شيعة الرجل أتباعه وأنصاره، يقال: شايعه ويقال والاه[٤].

ويقول ابن منظور الإفريقي: وأصل الشيعة الفرقة من الناس، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكّر والمؤنّث بلفظ واحد ومعنى واحد، وقد غلب هذا الاسم على من يتولى علياً وأهل بيته «رضوان الله عليهم أجمعين» حتى صار اسماً خاصاً، فإذا قيل: فلان من الشيعة عرف أنّه منهم[٥].

وبهذا القول نفسه قال ابن الأثير في «النهاية ج٢ ص٢٤٦» وكذا في «صبح الأعشى ج١٣ ص٢٣٦» و«مجمع البحرين» في مادة شيع وغيرها من معاجم اللغة.

وقال أبو حاتم الرازي: (إن أول اسم ظهر في الإسلام هو الشيعة، وكان هذا لقب أربعة من الصحابة هم: أبو ذر، وسلمان، وعمّار، والمقداد، حتى آن أوان صفّين فاشتهر بين موالي علي رضي الله عنه)[٦].

---

(١) لسان العرب ج١٠ ص٥٥.
(٢) القاموس ج٣ ص٤٧.
(٣) تاج العروس ج٥ ص٤٠٥.
(٤) الصحاح ج١ ص٦٣.
(٥) لسان العرب ج١٠ ص٥٥.
(٦) روضات الجنات ص٨٨.

وقال ابن النديم: لما خالف طلحة والزبير على علي عليه السلام وأبيا إلاّ الطلب بدم عثمان، وقصدهما علي عليه السلام ليقاتلهما حتى يفيئا إلى أمر الله جلّ اسمه سمى من اتبعه على ذلك الشيعة، فكان يقول: شيعي...

ولسنا الآن بصدد الإحاطة بتعريف الشيعة، أو تعيين الزمن الذي نشأت به، ولا نريد أن نطيل الكلام في نقل الاختلاف في سبق هذا الاسم أو تأخره، إذ من الثابت أن هذا الاسم كان على عهد النبي صلى الله عليه وآله.

لكن ما يؤسف له أن بعض ذوي الفهم المعكوس قد حملوا اسم الشيعة على غير معناه، وشرقوا في ذلك وغربوا، وقد اضطربت أقوالهم وخرجوا عن منطق العلم في تجاوز الحد، وارتكبوا أموراً لا تليق بمن يتزيا بالعلم، إذ هي تدل على نقص في الإدراك، وخلل في التفكير! وقد ساهم المستشرقون في هذه الافتعالات ووسعوا دائرة الطعن على الشيعة، وتبعهم بعض كتّاب العصر الحاضر، بدون التفات إلى نوايا أولئك القوم الذين يحاولون تشويه تاريخ الإسلام.

ومما تجدر الإشارة إليه: هو أن البعض يتعمد استعمال هذا الاسم على عمومه وحيث كان اسم التشيّع يدل على الاتباع فقد أطلق المؤرخون اسم الشيعة على أنصار العباسيين وأتباعهم، فيقولون: شيعة المنصور أو شيعة الرشيد مثلاً، ويذكرون لهم كثيراً من الحوادث. وأهم هذه الفرقة هم الشيعة الراوندية وهم شيعة المنصور الدوانيقي الذين غلوا في حبّه، بل عبدوه من دون الله.

ولا بد من الانتباه إلى ما في بعض نصوص المصادر من ذكر تسمية «الشيعة» وملاحظة السياق وطبيعة الأحداث، فقد جرى بعض المؤرخين على هذا الإطلاق وهم يعنون به أنصار العباسيين ورجالهم أو حتى ملوكهم.

ومن الغريب أن بعض كتّاب العصر الحاضر عندما ذكر فرق الشيعة وبيّن عقائدهم التي خبط فيها خبط عشواء جعل الراوندية من شيعة آل محمّد وهذا نص قوله:

الراوندية فرقة من غلاة الشيعة ناهضت العلويين في أيام العباسيين، وذهبت إلى أن أحق الناس بالإمامة هو (العباس بن عبد المطّلب) لأنه عمّ النبي، ثم يأتي من بعد العباس أبناؤه، إلى أن يقول: وقد غلت الراوندية أو فريق منهم (بل كلهم) فعبدوا أبا

جعفر المنصور وطاروا قائلين (أنت أنت) أي أنت الله[1].

ولا ندري كيف يتفق هذا مع عقائد الإمامية (سبحانك اللّهمّ هذا بهتان عظيم).

وليس من الصعب الوقوف على كثير من شذوذ الكتّاب الذين دونوا أسماء الفرق وألحقوا بفرق الشيعة من ليس منهم عندما نعرف عقائد الشيعة الإمامية ولكن الأغراض والأهواء قد انحرفت بكثير ممن كتب عن الشيعة. وقد ساعد على ذلك خوض بعض الكتّاب المعاصرين في بحوث تقصر هممهم عن الإيفاء بشروطها، وتعجز قدراتهم عن الإحاطة بظروفها، ولكن بعضها قد بحث بما فيه بيان الحق وليس فيه ما يسبب لمن لم يتزود بالاطلاع الكافي ارتباكاً أو خطأً، فإن قضية استغلال العباسيين لمشاعر النقمة الكبرى التي اعتملت بها النفوس تجاوباً وتعاطفاً مع أهل البيت الأطهار هي من الحقائق التي لم يختلف عليها، وأن العباسيين ركبوا تلك الموجة وأَخْفَوا ما بأنفسهم مستغلين شمولهم بالتسمية، ولكنهم لم يجسروا على الإعلان عن نواياهم حتى مر عهد ملكهم الأول السفاح، وجاء المنصور فبدأت جولة الحرب الجديدة ونزع القناع الأسود عن وجهه.

ومسألة شمول العباسيين بآل البيت قيد إطلاقها بالمعارضة الشديدة والإنكار الواضح من قبل الشيعة، لأن إطلاقها بالشكل الذي استخدمه العباسيون قد جرّ الأمة إلى بلوىٰ جديدة حملت أناساً ظلمة جدد إلى مواقع الحكم والسلطان، وأصبح الأمر واضحاً بتطورات الأحداث ومجريات السياسة، فكيف نفعل مع خدمة الحكام الذين صرعهم شيطان التعصب في تلك الظروف المظلمة، وراحوا يوسعون في دلالة التسمية مكابرة وعناداً؟ وإنما تركوا لمن أتى من المعاصرين مادة تساعدهم على القول بدون تثبّت.

(١) الدكتور عادل العوا ـ الكلام والفلسفة ص٣١.

أخطاء وأكاذيب

المؤلّفون والشيعة:

رأينا أن أكثر من كتب حول الشيعة. قد استندوا لأقوال أقوام عاشوا في عصور احتدام النزاعات، واشتداد عواصف الطائفية، وإيقاد نار البغضاء بين طوائف المسلمين: من حنفية وشافعية وحنبلية وأشعرية ومعتزلة... مما أدّى إلى ارتباك حبل الأمن، وحل عرى المودّة، وهدم صروح الوحدة.

تلك أمور كانت نتائجها وخيمة يتألم لها قلب كل مسلم، لما أصاب المسلمين من الانحطاط والتأخر. وانتهى ذلك النزاع إلى حالة مؤسفة، عندما تحوّل إلى عقيدة ومبادىء، واستمد كل قوته من أمور وهمية لا مساس لها بالدين، فهم في جانب، وهو في جانب آخر ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ والإسلام يدعو إلى كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة، وبث روح الأخوة، لتتم سعادة البشر في اتّباع أوامره والوقوف عند زواجره.

نعم إنهم كتبوا عن الشيعة بدون تثبّت، واستندوا لأقوال قوم دعاهم حب الشغب وخدمة السلطة إلى اختراع تلك الاتهامات. وقد تقوّل أكثر المقلّدين لهم، والناقلين عنهم، فزادوا في الطين بلّة.

ولقد ساروا تحت ظلام الأوهام، ولا يعرفون إلاّ ما قيل، ولا يقولون أي شيء، تقليداً للسلف وخضوعاً للعاطفة.

وكنا نأمل من جيلنا الحاضر وأبناء عصر النور، أن لا تميل بهم نزعة الهوى، ولا تخفف العاطفة وزنهم، ولا يلجؤوننا إلى نشر تلك الفضائح، وإخراج تلك الدفائن، ونحن بأمس الحاجة إلى اتجاه واحد، واتحاد كامل، لإيجاد قوة إسلامية

متكاتفة، تقف أمام تيار الإلحاد الجارف، ورد هجمات خصوم الإسلام، والوقوف أمام عدوانهم الغاشم، وتحرير الأمة الإسلامية من قيود الاستعباد، ورفع كابوس الاستعمار، برفع لواء كلمة «لا إله إلا الله محمّد رسول الله» وأناشيدنا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقد يكون في هذا الكلام صدمة لمن لا يرتضي التفاهم بين المسلمين لإزالة سوء التفاهم، لأنا وجدناهم لا يعيشون إلا في ظلمة الفتن ومن وراء حجب التمويه والأكاذيب، فهم مع الباطل فلا يروق لهم إظهار كلمة الحق لثقلها على بعض النفوس!! لكننا نرى أنّه من الخير استمرارنا بهذه الصراحة، لأنا نفضل مواجهة الحقيقة بأقصى ما يمكننا من ذلك، لإظهار الحق واتباعه، والحق أحق أن يتّبع.

مع أحمد أمين في كتبه:

إذاً فليس من الحق قول أحمد أمين: (والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية، ونصرانية، وزردشتية، وهندية، ومن كان يريد استقلال بلاده، والخروج على مملكته. إلى أن يقول: فاليهودية ظهرت في التشيع في القول بالرجعة وقال الشيعة إن النار محرمة على الشيعي إلا قليلاً، كما قال اليهود لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات... إلخ)[1].

نعم ليس من الحق أن يتقوّل على الشيعة بهذا، أو يقلد ما كتبه المستشرقون وهم الذين دعاهم حب الشغب لإثارة الطائفية بين المسلمين. وفي الواقع أن الرجل اتبع آراء الغربيين، الذين يكتبون عن الإسلام بداعي الحقد والوقيعة في أهله وهو في هذا المورد ـ بالأخص ـ قد اتبع المستشرق (ولهوسن) حيث يقول: إن العقيدة الشيعية نبعت من اليهودية أكثر مما نبعت من الفارسية. واتبع أيضاً قول المستشرق (دوزي): إن العقيدة الشيعية أساسها فارسي، فالعرب تدين بالحرية، والفرس يدينون بالملك وبالوراثة في البيت المالك، ولا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة، وقد مات محمّد ولم يترك ولداً، فأولى الناس بعده علي بن أبي طالب فمن أخذ الخلافة منه ـ كأبي بكر وعمر وعثمان والأمويين ـ فقد اغتصبها من مستحقها. وقد اعتاد الفرس أن ينظروا إلى

---

(١) فجر الإسلام ص٢٧٦.

الملك نظرة فيها معنى إلهي. فنظروا النظر نفسه إلى علي وذريته وقالوا: إن طاعة الإمام أول واجب، وإن إطاعته إطاعة الله[1].

وهذا هو مضمون عبارة أحمد أمين بتصرّف وزيادة. ونحن الآن لا نريد أن نتعرّض لجميع ما كتبه أحمد أمين عن الشيعة وأئمتهم من سادات أهل البيت وسلالة النبي ﷺ.

نعم لا نريد أن نذكر جميع أقواله وتقولاته، ولا نقف طويلاً في ردّه، ولكن شيئاً واحداً نريد أن نقوله هو: إن أحمد أمين كاتب له شهرة فائقة، وآثار كثيرة. ولكن مما يؤسف له أن الرجل لم يكن واقعياً، بل كان ينقاد للعواطف بسرعة، ويخضع للنزعات ويستسلم للشكوك التي تموج في صدره. فهو يجهل نفسه أمام الواقع ويفقد الجرأة الأدبية عندما تتجلى الحقيقة أمامه. ويتضح ذلك من مؤلفاته ومقالاته!

إن أحمد أمين أديب كاتب، ولكن لم تكن له خبرة في علم الرجال، ولا إلمام بعلم الحديث. وله أخطاء في التاريخ، فكان اللازم عليه أن يتجنّب الخوض في أمور ليست من اختصاصه، ليدفع بذلك نقصاً جرّه إلى نفسه، وعيباً لصقه بها. وهو فيما يذهب إليه ـ في كثير من الآراء ـ يبرهن على نقص في إدراكه ودراسته، فيستسلم إلى آراء المستشرقين الذين انطوى اهتمامهم بالمواضيع الإسلامية على أهداف قذرة أملاها عليهم الاستعمار. وبمزيد الأسف أن «أمين» وعد أن يكون أميناً ويتدارك ما أخطأ فيه ولكنه لم يفعل؟!

أخطاءُ القصيمي:

ولا نريد أن نتعرّض للقصيمي[2] في صرعه، فهو مصروع لشدة داء (الهستريا) ومدفوع بحركة لا شعورية، فلا حاجة إلى التعرّض له ولأمثاله، ممن أبتلي بداء الشغب، وحب التفرقة بين المسلمين، خدمة للاستعمار واستدراراً لصلته، وطلباً لنائله، نعم لا نريد أن نتعرّض لخرافاته وسفاسفه، وأخطائه وأكاذيبه، فقلما يترفع عن مناقشته من أوقف نفسه لخدمة أعداء الإسلام.

ولكنا نود أن ننبّه لشيء واحد من أخطائه وأكاذيبه وهو قوله في ج٢ ص٣٨:

---

(١) فجر الإسلام ص٢٧٧.

(٢) هو الشيخ عبد الله القصيمي، ومؤلف كتاب «الصراع بين الوثنية والإسلام».

استفتى أحد الشيعة إماماً من أئمتهم ولا أدري أهو الصادق أم غيره؟ في مسألة من المسائل فأفتاه فيها، ثم جاءه من قابل واستفتاه في المسألة نفسها فأفتاه بخلاف ما أفتاه عام أوّل، ولم يكن بينهما أحد حينما أفتاه بالمرتين، فشك ذلك المستفتي في إمامته وخرج من مذهب الشيعة وقال: إن كان الإمام إنما أفتاني تقية فليس معنا من يتقي في المرّتين، وقد كنت مخلصاً لهم عاملاً فيما يقولون؛ وإن كان مأتى هذا هو الغلط والنسيان فالأئمة ليسوا معصومين إذن. والشيعة تدعي لهم العصمة، ففارقهم وانحاز إلى غير مذهبهم. وهذه الرواية مذكورة في كتب القوم.

لا أريد أن أسائل القصيمي عن الكتب التي ذكرت فيها هذه الحادثة. ولا ألزمه بأن يبيّن لنا اسم الرجل السائل أو الإمام المسؤول، فالقصيمي جوابه ـ كنقله ـ كذب وافتعال بيّن. فإذا كذب في النقل يكذب في الجواب. ودائرة الكذب غير محدودة، تمتد إلى حيث لا نهاية. وإني قد ألقيت القصيمي وكتابه في (سلة المهملات)[1] فلا أحب التعرّض لهفواته، إلا بهذه فقط لأنه أراد أن ينال من كرامة الإمام الصّادق عليه السلام بإسناد هذه الحكاية له على وجه الترديد، وقد اشتبه عليه الأمر في ذلك. أو هو يتعمد ارتكاب الخطأ. وإن هذه القضية نقلها على غير وجهها فإنّها لم تكن في كتب الشيعة ولم يكن المسؤول هو الإمام الصّادق، بل غيره من أئمة المذاهب وإليك نصّها:

جاء رجل من أهل المشرق إلى أبي حنيفة بكتاب منه بمكة عام أول. فعرضه عليه مما كان يسأل (وفي نسخة سئل عنه) فرجع أبو حنيفة عن ذلك كله. فوضع الرجل التراب على رأسه ثم قال: يا معشر الناس أتيت هذا الرجل عاماً أولاً فأفتاني بهذا الكتاب، فأهرقت به الدماء، وأنكحت به الفروج، فرجع عنه هذا العام. قال ابن قتيبة: حدّثني سهل بن محمّد: قال حدّثنا المختار بن عمر: إن الرجل قال له ـ أي لأبي حنيفة ـ: كيف هذا؟ قال: رأياً رأيته فرأيت العام غيره. قال: فتؤمنني أن لا ترى من قابل شيئاً آخر. قال أبو حنيفة: لا أدري كيف يكون ذلك. فقال له الرجل: لكنني أدري أن عليك لعنة الله. انظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص٦٢ ـ ٦٣ المطبوع بمطبعة كردستان بمصر، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٦هـ.

---

(١) هو عنوان موضوع يأتي في هذا الكتاب إن شاء الله.

هذه هي الحكاية التي أخطأ القصيمي في نسبتها للإمام الصّادق أو غيره من الأئمة مع تصرّف فيها منه. ولا أستبعد أن الرجل لا يفرق بين أن يكون أبو حنيفة إماماً للحنفية أو للشيعة، لأن كتابه لم يتركز على قواعد علمية، ولا على نقل صحيح. بل هو هوس وتهريج، وتقوّل بالباطل. فلا نود مناقشة رجل يحور الوقائع، ويغيّر النص، ويتعمّد الكذب، ولا عتب عليه فهو إنسان أفلت من عقال التعقّل، وخرج على الموازين، وحارب الإسلام بدافع الطمع بما في أيدي أعدائه من صهاينة وملاحدة، لهذا نعرض عن الاستمرار في بيان أباطيله وأضاليله، وها نحن نلقيه في سلة المهملات.

مع ابن عبد ربّه:

ومن الخطأ الإصغاء لأخطاء ابن عبد ربّه ـ فيما ينقله في ذم الشيعة ـ من الأمور التي يتبيّن لذي العين الباصرة أنّها باطلة، أملاها التعصب والتشاحن المذهبي. وهي من وضع أقوام تقرّبوا للدولة، بوضع خرافات لمسوا رغبتهم في نشرها، ولم يلتفتوا إلى أي مؤاخذة أو نقص. وخذ مثلاً لذلك ما نقله عن مالك بن معاوية[1] أنّه قال لي الشعبي ـ وذكرنا الرافضة ـ: يا مالك إني درست الأهواء كلّها فلم أرَ قوماً أحمق من الرافضة ثم قال: أحذّرك الأهواء المضلّة شرها الرافضة، فإنّها يهود هذه الأمّة، يبغضون الإسلام، كما يبغض اليهود النصرانية ولم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة من الله ولكن مقتاً بأهل الإسلام، وبغياً عليهم. إلى أن يقول: قالت اليهود لا يكون الملك إلاّ في آل داود وقالت الرافضة: لا يكون الملك إلاّ في آل علي بن أبي طالب، واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم، وكذلك الرافضة، واليهود لا ترى الطلاق شيئاً، وكذلك الرافضة. إلى أن قال: واليهود تستحل دم كل مسلم وكذلك الرافضة، إلى آخر ما نقله من هذه الأسطورة، وما فيها من الأمور التي تضحك الثكلى. كما أن مثل هذا لا يصدر عن رجل مثل الشعبي[2] المعروف بالعلم فيجهل أمثال هذه الأمور، ويصدر عنه ما يكذبه الواقع قبل الوجدان. صحيح أننا لا نتوقع من الشعبي الدفاع عن الشيعة بعد تحولاته وانقلاباته في المواقف والآراء، وبعد

---

(١) العقد الفريد ج١ ص٢٥٩.

(٢) هو عامر بن شراحيل، ولد في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي سنة ١٠٣هـ. روى عن علي وابن مسعود وعمر ولم يسمع منهم، وعن أبي هريرة وعائشة، وهو من رجال الصحاح الستة.

أن استقرّت سيرته على مسالمة الحكام ومسايرة مؤسساتهم في الموقف من الشيعة، إلاّ أنا نستبعد أن يكون الشعبي واحداً من علماء السوء الذين اصطنعتهم الدولة، وقد يصدر من الشعبي ما يناقض سيرته الماجنة وما يخالف به الشيعة لكن ليس إلى هذا الحد من الافتراء والسقوط. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: إن وفاة الشعبي كانت سنة ١٠٢هـ وظهور اسم الرافضة سنة ١٢١هـ ـ ١٢٢هـ كما يقولون. وقبل هذا التاريخ لم يعرف أحد هذا الاسم وقالوا: إن زيد بن علي سمّاهم بذلك، عندما خرج بالكوفة سنة ١٢١هـ ولم يذهب أحد إلى سبق هذا الاسم واشتهاره قبل هذا التاريخ، مع أن الناقل وهو مالك بن معاوية لم يعرف وليس له ذكر في كتب الرجال قط، ولكن هذا من اختراع ابن عبد ربه، أو لقّنه بها بعض القصاصين، الذين استخدمتهم السلطة لمحاربة مذهب أهل البيت ولا أستبعد أن هذه التسمية ونسبتها لزيد من اختراعات الأصمعي ومجونه، فهو راوي قصة الشيعة مع زيد في حربه بالكوفة[1] وقضية زيد مشهورة وثبوت الشيعة معه في حربه أمر لا ينكر، ولكنها حيلة سياسية استعملها الأمويون لتفرقة بعض الناس عنه إذ دسّوا أدواتهم وعبيدهم بين صفوف أصحاب زيد مستخدمين قضية الشيخين لأغراضهم السياسية ـ هذا على فرض صحة الخبر ـ فتوسّلوا إلى إنقاذ حكمهم بمثل هذه الوسيلة والقضاء على ثورة عمّر قلوبَ أصحابها الإيمان بالإسلام وفاضت صدور جنودها بمشاعر الولاء لآل بيت النبي المصطفىٰ والنقمة على الظالمين المضلين.

وقد قامت تهمة الرفض في ظلال روح النصب وأفياء العداء لآل البيت النبوي الكريم، ورغم انفضاح بواعثها وتلفيقها فقد ظلت مداد الأقلام ومضامين الأسفار، لأن الظالمين أقاموا سياستهم على ذلك وأذعن الكتّاب والمحترفون ومالوا إلى هوىٰ المتسلطين ودواعي النفع، وإلاّ فإن من الإسرائيليات والعقائد اليهودية التي أفشاها كعب الأحبار ـ وهو في عرفهم الثقة المأمون والتابعي الجليل ـ ما يكفي لتجريد الأقلام وصرف الأموال لتشذيب ما علق بأذهان الناس والدعوة إلى رفض ما بثّه فيهم اليهود من تجسيم وتشبيه وخرافات وأساطير لا تليق إلاّ بأهلها من قتلة الأنبياء.

ولنتأمّل في ختام القول عن ابن عبد ربّه هذه النقطة المهمّة: وهي استسهال

(١) تاج العروس ج٥ ص٣٤.

الاتهام بالتشيع والرمي بالمغالاة في أهل البيت لا لشيء إلاّ لأن الحقيقة قد روعيت والوقائع قد ذكرت لأن العداء للتشيع يقضي على أتباع المتسلطين وورثة السلف السائرين في ركاب الظلمة بإهمال الحقائق وإغفال الوقائع.

وابن كثير يتهم ابن عبد ربّه بالتشيع لأن ابن عبد ربه تكلم عن سيرة خالد بن عبد الله القسري والتي يراها ابن كثير غير صحيحة فتحمله المغيرة على الدخول في دينه ويجعل من التشيع لأهل البيت سبيلاً لتوهين ما عرف من سيرة خالد بن عبد الله القسري مما لم يستطع ابن كثير نفسه منه فكاكاً فذكر شيئاً منها مرغماً.

ولكن كل الجرائم تهون دون بطش خالد وجرائمه التي تتفق في منحاها مع القسوة والغلظة التي اتصف بها النواصب ودعاة السلفية.

فيدافع ابن كثير الحافظ عن خالد بما لفظه: والذي يظهر أن هذا لا يصح عنه فإنه كان قائماً في إطفاء الضلال والبدع.. وقد نسب إليه صاحب العقد أشياء لا تصح لأن صاحب العقد كان فيه تشيّع شنيع ومغالاة في أهل البيت، وربما لا يفهم أحد من كلامه ما فيه من التشيّع، وقد اغتر به شيخنا الذهبي فمدحه بالحفظ وغيره. اهـ.

نعم ابن كثير وحده يفهم هذا التشيع الغريب والذي رأى الاتهام به دفاعاً عن القائم بإطفاء الضلال والبدع. وخالد باعتراف ابن كثير نفسه وتحريره أنه كان متهماً في دينه، وبنى لأمّه كنيسة في داره، لأن أمّه كانت نصرانية ويدعى بابن النصرانية. وليت الأمر ينتهي بهذا الحد من الفضائل، بل أن خالداً جمع «الإيمان» من أطرافه وبتحرير ابن كثير أيضاً لقول ابن خلكان كان في نسبه يهود فانتموا إلى القرب وكان يقرب من شق وسطيح.

ومثل هذه النماذج جديرة بأن تكون منزهة لأن لديها الاستعداد النفسي لحمل راية العنف والشدة فيكون العداء لها صادراً من الجهة التي تقف بوجه الظلم والعنف.

يطلق ابن كثير على صاحب العقد الفريد تهمة التشيّع وبذلك يكشف عن واحد من الأمور التي يتعجل بها في الحكم. وما أكثرها في منهجه. لقد كان ابن عبد ربه من رجال بلاط عبد الرّحمٰن الناصر الأموي، ونظم في سيرته ملحمة، ولما جاء فيها ذكر الخلفاء لم يذكر الإمام علي، وجعل معاوية رابع الراشدين، فذكر أبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية مما حدا بعالم أندلسي هو منذر بن سعيد البلوطي للرد عليه قائلاً:

أو ما عليٌ ـ لا برحت ملعناً … يا ابن الخبيثة ـ عندكم بإمام

رب[1] الكساء وخير آل محمّد   داني الولاء مقدم الإسلام

وقد حملته أمويته على عدم ذكر اسم الإمام الكاظم عليه السلام وهو يورد رسالته عليه السلام إلى هارون الرشيد وقد بعثها إليه من السجن والتي جاءت في أغلب المصادر وأمّهات كتب التراجم والتي يخاطب فيها الرشيد: «إنه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلاّ انقضى عنك يوم من الرخاء حتى نقضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء ويخسر فيه المبطلون». فيذكرها في العقد الفريد: أن الرشيد حبس رجلاً فلما طال حبسه كتب إليه. ويذكر المعنى وبلفظ آخر وهو مما ينفرد به.

وليت الأمر يقف عند هذا الحد، ولكنهم توسعوا في الكذب، حتى استخدموا ألسنة الشياطين. وإليك مثلاً من ذلك:

أحلام ابن العماد:

نقل أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي[2] عن الأعمش ـ بلا سند ـ أنه قال: خرجت في ليلة مقمرة أريد المسجد، فإذا أنا بشيء عارضني، فاقشعر منه جسدي، وقلت أمن الجن أم من الإنس؟ فقال: من الجن. فقلت: أمؤمن أم كافر؟ فقال: بل مؤمن. فقلت: هل فيكم من هذه الأهواء والبدع شيء؟ قال: نعم. ثم قال: وقع بيني وبين عفريت من الجن اختلاف في أبي بكر وعمر، فقال العفريت: أنهما ظلما علياً واعتديا عليه. فقلت: بمن ترضى حكماً؟ فقال: بإبليس. فأتيناه فقصصنا عليه القصة فضحك، ثم قال: هؤلاء من شيعتي وأنصاري، وأهل مودتي. ثم قال: ألا أحدّثك بحديث؟ قلنا: بلى. قال: أعلمكم أني عبدت الله تعالى في السماء الدنيا ألف عام فسُميت فيها العابد، وعبدت الله في الثانية ألف عام فسُميت فيها الزاهد، وعبدت الله في الثالثة ألف عام فسميت فيها الراغب، ثم رُفعت إلى الرابعة، فرأيت فيها سبعين ألف صف من الملائكة يستغفرون لمحبي أبي بكر وعمر، ثم رُفعت إلى الخامسة فرأيت فيها سبعين ألف ملك يلعنون مبغضي أبي بكر وعمر. انتهى.

هذه هي أسطورة ابن العماد ينقلها للطعن في الشيعة وإظهار فضل أبي بكر وعمر، نقدّمها ليتضح للقارىء مدى الشوط الذي لعبه الجهل في عقول الناس، حتى

(١) رب: بمعنى رابع واختصرت للضرورة الشعرية.

(٢) شذرات الذهب ج١ ص٢٥.

استخدموا الشياطين في أكاذيبهم ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[١] ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[٢].

أسطورة ابن سبأ:

ومن الأساطير التي أخذت مفعولها في المجتمع، وتأثر بها أهله تأثراً جعلهم يرسلونها إرسال المسلمات، هي أسطورة عبد الله بن سبأ. تلك الشخصية الموهومة التي لا وجود لها في التأريخ، وإنما هي أحاديث خرافة وضعها القصّاصون وأرباب السمر والمجون. في أواسط الدولتين الأموية والعباسية إذ بلغ الترف والنعيم أقصاه، وكلما اتسع العيش وتوفرت دواعي اللهو اتسع المجال للوضع، وراجت سوق الخيال، ونسج القصص والأمثال، كي تأنس بها ربّات الحجال. والترف والنعمة[٣].

ولقد اندفع أعداء الشيعة في القرون المتوسطة إلى جعل أسطورة عبد الله ابن سبأ ذات شأن في تأريخ الإسلام، وأسندوا إليه أموراً يأباها البحث المبرأ من الهوى، ويرفضها العقل السليم، فقد اخترعوا له أفعالاً ومواقف، وأسندوا إليه قصصاً ووقائع، وألبسوه أبراد العظمة، وادعوا له الشجاعة والبسالة؛ فهو الذي أثار حرب الجمل، وهيّأ جيش مصر لحرب عثمان، وأقام في الكوفة يثير الفتنة على عثمان وعمّاله، ويسير في أنحاء الأقطار الإسلامية بسرعة البرق ليوقد الفتنة، ويعود للمدينة فيؤلب الناس على عثمان، وتأثر به كثير من كبار الصحابة. إلى آخر ما هنالك من الأمور العجيبة التي حُفّت بها شخصية عبد الله بن سبأ!!

وقد نص كثير من القدماء المحققين على نفي وجود شخصية عبد الله ابن سبأ، وأنها أسطورة وضعها أعداء الشيعة[٤]... وكذلك ذهب جماعة من المتأخرين إلى نفيها[٥] وللمستشرقين آراء كثيرة في ذلك: يقول برناردو لويس: (ونسب كثير من

---

(١) سورة الحج آية ٥.

(٢) سورة المؤمنون آية ٩٧.

(٣) أصل الشيعة وأصولها ص٨٤.

(٤) عبد الله بن سبأ للأستاذ السيد مرتضى العسكري فهو خير كتاب في هذا الموضوع، فقد تتبع فيه أصل وضع هذه الأسطورة.

(٥) الفتنة الكبرى لطه حسين ج١ ص. وخطط الشام لمحمّد كرد علي ج٦ ص٢٥١ ـ ٢٥٦.

المؤرخين المسلمين بداءات التشيّع الثوري إلى رجل اسمه عبد الله بن سبأ وهو يهودي يماني، عاصر علياً، وكان يدعو إلى تأليهه، فأمر علي بحرقه لما دعا إليه، ومن هنا قيل إن أصل التشيّع مأخوذ من اليهودية. ولكن البحث الحديث قد أظهر أن هذا استباق للحوادث وأنّه صورة مثل بها الماضي وتخيلها الرواة في القرن الثاني الهجري من أحوالهم وأفكارهم السائدة).

فهو يذهب بهذا إلى أن فكرة عبد الله بن سبأ من تخيّل الرواة نظراً للأفكار السائدة، والأحوال التي كانوا عليها في انتحال القصص والخرافات[1] وأظهر فلهاوزن، وفريد لندر بعد دراسة نقدية: أن المؤامرات والدعوة المنسوبتين إلى عبد الله بن سبأ من اختلاق المؤرخين. وقال كايتاني: (إن مؤامرة مثل هذه بهذا التفكير وهذا التنظيم، لا يمكن أن يتصوّرها العالم العربي عام ٣٥هـ بنظامه القبلي القائم على سلطان الأبوة، وأنها تعكس العصر العباسي الأول بجلاء).

والغرض أن أمثال هذه الأساطير واختراع تلك الخرافات لا تخفى على من أعطاها نظرة صادقة، ووقف وقفة متريث يريد أن يعرف الواقع، ويصل إلى معرفة البواعث التي أدت إلى وضعها من قبل سلف مخدوع يسير وراء توجيهات الدولة. وقد تبعهم كثير من أبناء الجيل الحاضر وضربوا على وترهم لتصبح تلك الأمور الخرافية قواعد ثابتة الأصول وما هي في عرف الحق إلا: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[2] وسيأتي في الجزء السادس من هذا الكتاب بحث مستفيض عن هذه الأسطورة.

وصفوة القول أن الاتهامات التي وجّهت للشيعة، إنما تعود لأسباب سياسية، قد اتخذها الحكام وسيلة للقضاء عليهم، ومحو مذهبهم الذي أصبح عبئاً ثقيلاً على كاهل الدولة، وشبحاً مخيفاً يقض مضاجعهم، لأنه يتصل بأهل البيت، وهم أعداء للباطل وحرب على الظالمين.

وقد اتضح إعلانهم الانفصال عن دولة لا تحترم الحقوق، وتسير بالأمة على

---

(١) أصول الإسماعيلية ص٨٦ ـ ٨٧.

(٢) سورة إبراهيم ٢٦ ـ ٢٧.

غير هدى، حتى عُرف المنتمون لهم بذلك اتّباعاً لهم واقتداءً بهم. فكانت من أبرز معالم سيرة أئمة أهل البيت وأهم خصائص مسيرة شيعتهم، تعاهدها الأئمة الأطهار بالرعاية لكي يعلم الحكّام أن أمر العقيدة أبعد من مرماهم وأكبر من سياستهم.

قال الأنباري: كتبت إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام أربع عشرة (مرة) أستأذنه في عمل السلطان، فلما كان آخر كتاب كتبته: إني أخاف على خيط عنقي وأن السلطان يقول: إنك رافضي، ولسنا نشك في أنك تركت العمل للسلطان للترفض. فكتب إليّ أبو الحسن: «إني قد فهمت كتبك، وما ذكرت من الخوف على نفسك، فإن كنت تعلم أنك إذا وُليت عملت في عملك بما أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله» إلى آخر الكتاب[1].

فيظهر جلياً أن عدم معاونة الدولة والعمل لها آنذاك، يوقع الإنسان بتهمة التشيع، الذي هو من أعظم الذنوب في ذلك العصر؛ لأنهم ـ أي الشيعة ـ معارضون لذلك النظام!! وناهيك بما يلقى المعارضون لحكام الجور من مقاومة وتنكيل. فإذا رأينا في بعض مراحل حكم بني العباس من عرف بالتشيع والولاء لأهل البيت وهو في محل من الدولة أو في مسؤولية من الحكم ولم يخف انتماءه، فذلك أن الكثير بقي على أمل إقامة الأمر على ما كانت عليه الثورة ضد حكم الأمويين، كما أن كثرة شيعة أهل البيت الساحقة، وتزايد أعداد العلماء منهم وذوي الكفاءة في الشؤون المختلفة جعل من التخلص منهم أمراً عسيراً. والذين كانوا في الولاية والعمل لأهل الجور منهم لا يفتأون يتصلون بالأئمة عليهم السلام فيرشدوهم إلى سبل خدمة الرعية وطرق تجنّب ظلم الناس كما كان عليه النجاشي مع الإمام الصّادق، والأنباري الذي تقدم ذكره مع الإمام الرضا عليه السلام.

فانتشار مذهب أهل البيت يعتبر في الواقع اتساعاً للمعارضة، لذلك اجتهد حكام الجور في معارضته والتنكيل بأهله، ولكنه استطاع أن يصمد لتلك الأعاصير الجانحة، ويتخطى تلك العقبات الهائلة، فانتشر على وجه البسيطة، فكان عدد المنتمين إليه مائة مليون أو يزيدون.

وجدير بمن يريد دراسة المذهب الجعفري أن يزن أقوال بعض علماء الرجال الذين ساروا في ركاب الدولة، ونفخوا ببوقها ـ عندما يترجمون لعلماء الشيعة ـ

---

(١) فروع الكافي في باب عمل السلطان.

فيقولون مثلاً: فلان صدوق إلاّ أنه مبتدع أو أنه سيء المذهب، أو زائغ عن الحق. كما قال الذهبي في ترجمة أبان بن تغلب: إنه صدوق إلاّ أنه مبتدع، فلنا صدقه وعليه بدعته. إلى آخر ما هنالك من أقوال بعيدة عن الصواب. وإذا أردنا أن نسائلهم عن بدعتهم فلا شيء هناك إلاّ مخالفة ما شرعته السياسة لا ما شرعه الإسلام؟! وقد رأيت قبل قليل كيف جعلت الأهواء من خالد بن عبد الله القسري المتهم في دينه قائماً بإطفاء البدع، وابن عبد ربّه السني متشيعاً ومغالياً.

نقول هذا ونحن نأسف الأسف الشديد على ذوي التفكير من أبناء العصر أن يعوّلوا على أقوال قوم جرفهم تيار التعصّب، أو كان فهمهم للمذهب الجعفري فهماً عاطفياً!! لذلك نرى أكثر من كتاب عن تأريخ التشريع الإسلامي وبيان المذاهب فيه، قد أهمل ذكر جعفر بن محمّد الصّادق. ولئن دل إهمالهم له على شيء فإنما يدل على اعتزازهم بتلك النعرات الطائفية، وتلوث وجدانهم بالرواسب التي ورثوها من السّلف المخدوع ليضعوها في طريق وحدة المسلمين، في الوقت الذي يكونون فيه بأمسّ الحاجة إلى إزالة ما خلفته تلك العصور المظلمة من عقبات تحول بينهم وبين التفاهم والوحدة، وما أحوجهم إليها اليوم لمقابلة أعداء الإسلام الذين يكيدون له بكل ما لديهم من حول وقوة، وما أخذناه ما هو إلاّ أمثلة قليلة للقضايا الكبرى التي اختلقها أعداء الشيعة وغيرها مما لا يحاط به ولا يحصى، ونحن في هذا العصر نطالب بأن تتبع طرق التفكير السليم والمنطق الصحيح من خلال الإجابة على سبب هذا التحايل والكره، ولماذا يبقى المرء أسير نظرة الأنظمة المتعسفة الذين اتجهوا ضد الشيعة لأنهم يمثلون خطراً؟!. ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٢].

الإمَام الصَّادق
اصحَابه وحَمَلة فقهِهِ

مؤهلات الإمام الصَّادق ومكانته:

انتشر ذكر مدرسة الإمام الصادق عليه السلام في جميع الأقطار الإسلامية، فأصبحت جامعة إسلامية كبرى تقصدها وفود الأمصار، حتى كان عدد المنتمين إليها أربعة آلاف كلهم من حملة الحديث.

ولم يُعرف لأحد من أئمة المذاهب من التلاميذ مثل ما عُرف للإمام الصَّادق، مع تباعد أقطارهم. فكان تلاميذه، من: العراق، ومصر، وخراسان، وحمص، والشام، وحضرموت وغيرها.

ومما يلفت النظر أن أكثر تلاميذه كانوا من الكوفة والمدينة. لانتشار التشيع في الأولى ونشأته في الثانية.

وأن هذا العدد وهو ٤٠٠٠ طالب في مدرسته لم يكن هائلاً ـ كما قد يبدو للبعض ـ وهو قليل بالنسبة لذلك العصر من حيث اتساع نطاق الحركة العلمية واتجاه الناس لإحياء ما درس من السُّنن. ولأن الإمام الصَّادق عليه السلام هو سيد أهل البيت في عصره ووارث علم جدّه، وكان لأهل البيت نشاط علمي؛ فلا غرابة أن اتجهت إليه الأمّة الإسلامية تنتهل من ينبوع علمه، فضلاً عن أنّه قد اتّصف بجميع الصفات التي تؤهله لأن يتزعم الحركة العلمية في عصر نهضتها، وقد (نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان)[1] (وروى حديثه خلق لا يحصون)[2].

وكانت له (نواح كثيرة يعذب فيها القول، وتفيض في شأنها المعاني

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر ص١٢٠.

(٢) الخلاصة للخزرجي ص٥٤.

والدراسات، ومن أبرز ذلك: أنه عليه السلام كان ـ بشخصيته وعلمه ـ موضع احترام وتقدير وحب، من أهل الإيمان والعلم في عصره، لا فرق بين الخاصة والعامة، ولا بين من يتبعونه ويعتقدون بنصيّة إمامته، ومن يتبعون المذاهب الأخرى. كلهم عرفوه إماماً جليلاً، وعالماً قوياً، وصادقاً إذا حدَّث، ومنصفاً إذا فكّر، لا هدف له إلاَّ الحق، ولذلك لُقِّب بالصَّادق، وهي نفحة من نفحات جده الأعظم رسول الله ﷺ حيث كان ملقباً بالصَّادق)[1].

ولا نستغرب قول من يعترف بعدم استطاعته لإحصاء تلامذته، ورواة حديثه، وقد نقلنا من أوثق المصادر بعضاً منهم من سائر الناس، دون خواصه، وسنواصل نشر الآخرين منهم.

وعلى أي حال فإن الناشرين لفقه الإمام جعفر بن محمَّد خلق كثير. ولكن فقهه الذي أراد الله تعالى أن يكون خالداً مع الزمن، وهو المتبع عند الشيعة، والمرجع في أهم الأحكام، انحصر تلقيه في جماعة اختصوا بالإمام الصَّادق وواصلوا دراستهم عنده، وكانوا من العدالة والوثاقة بمنزلة تجعلهم أهلاً لقبول ما يروى عنهم من فقهه، الذي ينبع فيضه من بحار آبائه، الذين هدى الله بهم الأمّة، وأوجب محبتهم على الخاصة والعامة.

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن عدداً من تلامذته، وهم أربعمائة قد ألّفوا في فقهه والرواية عنه أربعمائة كتاباً، وهي أصول الفقه للمذهب الجعفري المعروفة بالأصول الأربعمائة. وقد جُمعت هذه الكتب في الكتب الأربعة وهي: الكافي، والاستبصار، والتهذيب، ومن لا يحضره الفقيه.

وكان الإمام الصَّادق ينظر إلى أصحابه على قدر كفايتهم الموهوبة كل على حسب استعداده وتمكّنه، فاختص بجماعة منهم، فكانوا خير معين على حل المشاكل التي تحل بالمجتمع، والتي يهتم بها الإمام الصَّادق أشد الاهتمام. فهم يقومون بتنفيذ الخطط التي يرسمها لهم، وتحت إشرافه يكون قيامهم بها، فهو المصدر الأول والمنتهى الأخير لتلك التعاليم التي تقوم بها النخبة الصالحة من أصحابه.

وكانت لهم اليد الطولى في خوض معارك الحياة الاجتماعية والسياسية، وفي

---

(١) من كلمة عن دار التقريب بمصر.

محاربة أهل الإلحاد والزندقة، ومناظرة أهل العقائد الفاسدة، والفرق الشاذّة، ومقابلة الظلمة في شدة الإنكار عليهم، وتوجيه الانتقاد إليهم. بطرق مختلفة.

وكان عليه السلام يشيد بذكر خُلّص أصحابه، ويظهر للناس كفايتهم. وحيث كانت ترد عليه الوفود من سار البلاد الإسلامية للاستفادة مرة، وللمناظرة أخرى. فقد جعل لكل واحد من أصحابه وظيفة خاصة يقوم بها عندما يعوّل في الجواب عليه، إظهاراً لفضله وعلو منزلته.

فجعل أبان ابن تغلب للفقه، وأمره أن يجلس في المسجد فيفتي الناس. ووكل لحمران بن أعين الأجوبة عن مسائل علوم القرآن، وزرارة بن أعين للمناظرة في الفقه، ومؤمن الطاق للمساجلة في الكلام، والطيّار للمناظرة في الاستطاعة وغيرها، وهشام بن الحكم للمناظرة في الإمامة والعقائد. وكان منهم جماعة يتجولون في الأمصار، وأمدهم بالأموال للتجارة. والقصد من ذلك أن يمتزجوا بالمجتمع. لتوجيه الناس والدعوة إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام.

وهكذا كان يوجه أصحابه ويجعل لكل واحد جهة، وعلى كل واحد أداء رسالة خاصة. ولا يسعنا ـ ونحن بهذه العجالة ـ أن ندرس حياة أولئك العظماء الذين وقفوا إلى جانب أهل البيت، واتبعوا الحق أينما سارت ركائبه. فكانوا أعلاماً يهتدى بهم، وعلماء يرجع إليهم في أهم المسائل العلمية، مع خطورة الموقف، وعظيم المراقبة من قبل السلطة، ومعارضة أعوانها لهم، وقد وقفوا بصلابة الإيمان، ونفاذ البصيرة، يتحدّون كل مقابلة، واجتازوا كل الصعاب التي تعترضهم؛ ليصلوا إلى الهدف الذي عاهدوا الله على الوصول إليه، وإن دراسة حياتهم دراسة مستفيضة أمر ليس بالهيّن إدراكه ولهذا فقد اكتفينا بالإشارة للبعض بإلمامة موجزة وعرض قليل؛ إتماماً للغرض ووفاء بالوعد. وقد ألّف علماؤنا كتباً مطولة في تراجمهم ودراسة حياتهم.

وقد رأينا لزاماً أن نتكلّم عن هشام بن الحكم بصورة واسعة بالنسبة لغيره، لا بالنسبة لدراسة حياته، لنعرف بذلك منهجه في تفكيره وبيان عقيدته. ونقف على بواعث الاتهام له بتلك العقائد الفاسدة، عسانا نوفق لكشف تلك الحجب التي غطّت وجه الحقيقة في معرفة هشام ودراسة شخصيته.

أما أصحاب الإمام الصّادق عليه السلام فأخذنا بعضاً من البارزين منهم ممن أسهموا في الحركة العلمية، واشتهروا بالفقه والرواية وعلوم القرآن وفنون الإسلام، فتوسعنا فيهم وأوردنا تراجم الآخرين من تلامذته ورواة حديثه.

أبان بن تغلب

نسبه وأقوال العلماء فيه:

أبان بن تغلب بن رباح[1] هو أبو سعيد البكري الجريري المتوفى سنة ١٤١هـ كان جليل القدر، عظيم المنزلة، لقي الإمام زين العابدين، والباقر، والصّادق، وكانت له حلقة في المسجد.

وقال ياقوت الحموي: كان قارئاً لغوياً فقيهاً إمامياً، ثقة عظيم المنزلة، جليل القدر، روى عن علي بن الحسين، وأبي عبد الله عليه السلام وسمع من العرب وصنف غريب القرآن وغيره.

وقال الذهبي: أبان بن تغلب شيعي جلد صدوق، لكنه مبتدع، فلنا صدقه وعليه بدعته. وقد وثقه أحمد بن حنبل وابن معين. روى عنه موسى بن عقبة وشعبة وحماد بن زيد وابن عيينة وجماعة.

وقال ابن عدي: له نسخ عامتها مستقيمة، إذ روى عنه ثقة، وهو من أهل الصدق في الرواية وإن كان مذهبه مذهب الشيعة، وهو في الرواية صالح لا بأس به.

وقال الحاكم: كان قاص الشيعة وهو ثقة، ومدحه ابن عيينة بالفصاحة.

وقال أبو نعيم في تاريخه: مات سنة ١٤٠هـ وكان غاية من الغايات.

---

(١) ترجمته في تهذيب التهذيب لابن حجر ج١ ص٩٣، وطبقات ابن سعد ج٦ ص٢٥٠، وفهرست ابن النديم ص٣٠٨، ومعجم الأدباء ج١ ص١١٧، وبغية الوعاة ص١٧٦، وميزان الاعتدال ج١ ص٤، وخلاصة تذهيب الكمال ص١٣، وشذرات الذهب ج١ ص٢١٠، وطبقات القراء لشمس الدين الجزري ج١ ص٨٦، ومرآة الجنان ج١ ص٢٩٣، ومنهج المقال، والخلاصة، وفهرست الشيخ الطوسي وغيرها.

وقال العقيلي: سمعت أبا عبد الله يذكر عنه عقلاً وأدباً وصحة حديث، إلاَّ أنه كان غالياً في التشيع.

وقال ابن سعد: كان ثقة. وذكره ابن حبان في الثقات.

وقال الأزدي: كان غالياً في التشيع وما أعلم به في الحديث بأساً.

خرّج حديثه مسلم في صحيحه، والترمذي، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة. وهو ممن أجمعوا على قبول روايته وصدقه، واعترفوا بعلو منزلته، فلا يضر قول من زاغ عن الحق في طعنه ـ في أبان ـ كإبراهيم الجوزجاني[١] حيث يقول: أبان زائغ مذموم المذهب مجاهر.

قال ابن حجر: وأما الجوزجاني فلا عبرة بحطه على الكوفيين، فالتشيع في عرف المتقدمين هو اعتقاد تفضيل علي عليه السلام على عثمان، وأن علياً كان مصيباً في حروبه وأن مخالفه مخطىء، وربما اعتقد بعضهم أن علياً أفضل الخلق بعد رسول الله، وإذا كان معتقد ذلك ورعاً ديناً صادقاً مجتهداً فلا ترد روايته.

وعلى أي حال فلا يهمنا قول الجوزجاني، ولا نود أن نخوض في بحث يقصينا عن الغاية، ونكتفي بأن نحيل القارىء المنصف المتجرد عن نزعة الهوى إلى مراجعة تاريخ حياة الجوزجاني، ويقف هناك وقفة قصيرة فيعرف نزعة الرجل التي اتصف بها، فهو خارجي يرى رأي الحرورية[٢] وكان شديد الميل على علي عليه السلام يذهب مذهب أهل الشام الذين تغذّت أدمغتهم بأباطيل معاوية وأضاليله، حتى سلك الناس طرقاً ملتوية وزاغوا عن الحق اتباعاً لمن لا يروق له قول الحق!

وقد اتصف الجوزجاني أيضاً بأنه حريزي المذهب، أي يذهب مذهب «حريز بن عثمان» المعروف بالعداء لعلي بن أبي طالب عليه السلام فقد كان حريز[٣] أموي النزعة شامي النشأة يحمل على عليّ، وقيل: إنه يسبّه.

---

(١) هو إبراهيم بن يعقوب السعدي المتوفى سنة ٢٥٦هـ سكن دمشق، كان من المتحاملين على أهل البيت ويتجاهر بنصب العداء لهم.

(٢) تهذيب التهذيب ج١ ص١٨١ ـ ١٨٣.

(٣) حريز بن عثمان الرحبي المتوفى سنة ١٦٣هـ من رجال البخاري الأربعة، وكان معروفاً بالنصب. ويقول: لا أحب علياً لأنه قتل آبائي. وحكى الناس عنه أيضاً سوء الاعتقاد وفساد المذهب، ولكن البخاري خرج حديثه ووثقه، كما وثقه أحمد بن حنبل. ترجمته في تاريخ بغداد ج٨ ص٢٦٥ ـ ٢٧٠ والخلاصة ص٦٤ وغيرهما.

ومن الغريب أنهم يصفون من عرف ببغض علي عليه السلام بالصّلابة في السنّة كما وصفوا عليّ بن الجهم والجوزجاني.

ولا أدري أي سنّة هذه التي يتصف بها مبغض علي عليه السلام؟! أجل أين قول الرّسول ﷺ: «يا علي لا يحبك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق» وهذا الحديث خرّجه الحفاظ من طرق متعددة، ورواه مسلم، والنسائي، وابن عبد البر. والطبري، وغيرهم.

وقد كان أصحاب النبي ﷺ يعرفون إيمان الرجل بحبّه لعلي، ونفاقه ببغضه له، متّخذين من هذا الحديث قاعدة مطردة.

وكيف كان فإن بدعة أبان التي وصفه بها الجوزجاني والذهبي هي موالاته لعلي، وصلابة الجوزجاني في السنّة هي بغضه لعلي، والحكم في هذا للقارىء المنصف.

علمه وشيوخه:

وكان أبان بن تغلب من الشخصيات الإسلامية التي امتازت باتّقاد الذهن، ووفور العقل، وبعد الغور، والاختصاص بعلوم القرآن، وهو أوّل من ألّف في ذلك. وكان فقيهاً يزدحم الناس على أخذ الفقه عنه، وإذا دخل مسجد المدينة المنورة أخليت له سارية النبي ﷺ فيحدّث الناس. وله علم باختلاف الأقوال، وقد شهد له معاصروه بالفضل والتفوّق. ويكفيه ـ شهادة في التقدّم ـ أن الإمام الباقر والإمام الصّادق أمراه أن يحدّث الناس في مسجد النبي ﷺ وكلٌ يقول له: «اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس فإني أحب أن يُرى في شيعتي مثلك».

وأخذ أبان علمَيْ الفقه والتفسير عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فقد حضر عند الإمام زين العابدين، ومن بعده عند الإمام الباقر، ثم عند الإمام الصّادق فهؤلاء شيوخه وأساتذته، وهو من كبار أصحابهم والثقات في رواياتهم.

وقد عدّ علماء الرجال من جملة أساتذة أبان جماعة منهم:

الحكم بن عتيبة الكندي المتوفى سنة ١١٥هـ وهو من رجال الصحاح الستة، ومن حملة الحديث وأعلام الأمّة.

وفضيل بن عمرو الفُقَيمي أبو النظر الكوفي المتوفى سنة ١١٠هـ خرّج حديثه مسلم والأربعة.

وأبو إسحاق عمرو بن عبد الله الهمداني السبيعي، المتوفى سنة ١٢٧هـ وهو أحد أعلام التابعين، ومن رجال الصحاح الستة.

تلامذته:

وروى الحديث عنه خلق كثير منهم:

موسى بن عقبة الأسدي المتوفى سنة ١٤١هـ من رجال الصحاح الستة، وثقه ابن معين، وأحمد، وأبو حاتم. وقال مالك: عليكم بمغازي موسى بن عقبة. وقد صنّف فيها وأجاد.

وشعبة بن الحجاج تقدمت ترجمته في الجزء الأول.

وحماد بن زيد بن درهم الأزدي أبو إسماعيل الأزرق البصري الحافظ المتوفى سنة ١٩٧هـ عن إحدى وثمانين سنة. قال ابن مهدي: ما رأيت أحفظ منه ولا أعلم بالسنّة ولا أفقه بالبصرة منه. وقال أحمد: هو من أئمة المسلمين.

وسفيان بن عيينة تقدمت ترجمته في الجزء الأول.

ومحمّد بن خازم التميمي أبو معاوية الضرير المتوفى سنة ١٩٥هـ خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة، وروى عنه أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وابن المديني وابن معين. وكان أحفظ الناس لحديث الأعمش.

وعبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي مولاهم أبو عبد الرّحمن المروزي المتوفى سنة ١٨١هـ أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة. قال ابن المبارك: كتبت عن أربعة آلاف شيخ فرويت عن ألف، وثّقه جماعة.

هؤلاء الذين ذكرهم ابن حجر في «تهذيب التهذيب» والخزرجي في «خلاصة تذهيب الكمال» وغيرهما. وهذه عادة علماء الرجال أن يذكروا من تلامذة الشخص بعضاً ويتركوا آخرين. ويعبرون عن ذلك بقولهم: وجماعة، وآخرين، وخلق كثير.

ونظراً لمنزلة أبان العلمية ومكانته في الفقه، وكثرة الآخذين عنه. لا بد وأن يكون له عدد كثير من التلاميذ، وحيث لا يمكننا إحصاؤهم فنعوّل في ذلك بالرجوع

إلى «جامع الرواة» فقد ذكر عدداً وافراً ممن روى عن أبان، وأشار إلى موضع الرواية عنه في كتب الأصحاب.

مكانته وكفايته العلمية:

وصفوة القول: أن أبان بن تغلب شخصية إسلامية، قد أهمل التاريخ أكثر مآثره، وبخسه أكثر علماء الرجال حقه، ولم يعطوه ما يستحقه من البيان. والأسباب غير مجهولة، فإن تدوين التاريخ جاء في عصور قد اشتدت فيها النعرة الطائفية، فأسرع أكثر الكتّاب والمؤرخين إلى مجاراة الدولة، والخضوع لأوامر السلطة. وإن أبان من أعيان الشيعة، والشيعة ـ كما لا يخفى ـ هم الحزب المعارض لسلطان الجور، وحكام الاستبداد.

وكيف نرجو من أولئك المؤرخين أن يعطوا رجال الشيعة حقّهم من البيان مع بخسهم حق عترة الرّسول وأئمة الهدى؟! فإنهم يتحرّجون عن ذكر ما لهم من المآثر، وما خصّهم الله به من الفضائل، فتراهم عند ترجمة أي واحد من الأئمة يستعملون الإيجاز المخل.

لقد عاش أبان بن تغلب مدة من الزمن وهو ملازم لأهل البيت عليهم السلام يأخذ عنهم، حتى أنّه كان يحفظ عن الإمام الصّادق ثلاثين ألف حديث[1].

وكان الإمام الصّادق يرشد إليه في أخذ الأحكام، ورواية الحديث.

قال سليم بن أبي حبّة: (كنت عند أبي عبد الله الصّادق عليه السلام فلما أردت أن أفارقه ودّعته وقلت: أحب أن تزوّدني). فقال: «ائتِ أبان بن تغلب فإنّه قد سمع مني حديثاً كثيراً، فما روى لك فاروه عني».

ومما يدل على إحاطة أبان وتفوقه في الحديث أنّه كان يجلس في مسجد النبي فيجيء إليه الناس ويسألونه فيخبرهم على اختلاف الأقوال، ثم يذكر قول أهل البيت ويسوق أدلته ومناقشته، لأنه يرى أن الحق مع أهل البيت وأن قولهم الفصل.

يحدّثنا عبد الرّحمن بن الحجاج قال: كنا في مجلس أبان فجاءه شاب فقال: يا أبا سعيد أخبرني كم شهد علي بن أبي طالب من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله؟ فقال له أبان:

---

(١) منهج المقال ص٨٦.

كأنك تريد أن تعرف فضل علي بن أَبي طالب ومن تبعه من أصحاب رسول الله؟ فقال الرجل: هو ذاك.

فقال أبان: والله ما عرفنا فضلهم ـ أي الصحابة ـ إلاّ باتباعهم إياه ـ يعني علياً ـ فقال أبو البلاد: (عض ببظر أم رجل من الشيعة في أقصى الأرض وأدناها يموت أبان لا تدخل مصيبته عليه).

فقال أبان: يا أبا البلاد أتدري من الشيعة؟ الشيعة الذين إذا اختلف الناس عن رسول الله ﷺ أخذوا بقول علي عليه السلام وإذا اختلف الناس عن علي، أخذوا بقول جعفر بن محمّد عليه السلام.

وقال أبان: مررت بقوم يعيبون عَليّ رواية جعفر بن محمّد فقلت: كيف تلومونني في روايتي عن رجل ما سألته عن شيء إلاّ قال: قال رسول الله؟

مؤلفاته:

١ ـ غريب القرآن: وهو أول تأليف في ذلك، فصار أساساً لعلم اللغة وقد ذكر شواهده من الشعر، فجاء فيما بعد عبد الرّحمن بن محمّد الأزدي الكوفي فجمع من كتاب أبان، وكتاب محمّد بن السائب الكلبي، وأبي ورق عطية بن الحرث فجعلهما كتاباً واحداً، وبيّن فيه ما اختلفوا فيه وما اتفقوا عليه فتارة يجيء كتاب أبان مفرداً وتارة مشتركاً.

٢ ـ كتاب الفضائل.

٣ ـ كتاب معاني القرآن.

٤ ـ كتاب القراءات.

٥ ـ كتاب الأصول في الرواية على مذهب الشيعة، ذكره ابن النديم في الفهرست.

وله مناظرات ومجادلات وقراءة للقرآن مفردة مقرّرة عند القرّاء.

قال محمّد بن موسى: ما رأيت أقرأ منه قط. وقال محمّد بن إبراهيم الشافعي: كان أبان مقدماً في كل فن من العلم: في القرآن، والفقه، والحديث والأدب واللغة.

وعلى أي حال فقد كان أبان من رجال الأمّة المبرزين في العلم ومن حملة فقه آل محمّد، حفظ عن الإمام الصّادق عليه السلام ثلاثين ألف حديث، وكان لعظم منزلته

إذا دخل المدينة تفوضت إليه الحلق وأخليت له سارية النبي ﷺ[1].

ولقد كان من المقرّر المضيُّ في دراسة مشاهير الرواة عن الإمام الصّادق عليه السلام وحملة فقهه بنفس الأسلوب الذي سرت عليه في دراسة حياة «أبان» من ذكر الشيوخ والتلاميذ والأقوال فيه مع مراعاة الاختصار.

لكني تبينت جلياً عدم استطاعتي استيفاء هذا الغرض لأن ذلك مما يضيق به وسع الكتاب. فالتجأت إلى حذف كثير مما أعددته من الدراسات لهذا الجزء، وفضلت الاقتصار على دراسة حياة أبان بن تغلب، ومؤمن الطاق، وهشام بن الحكم كما هو المقرر في الأصل، واكتفيت بدراسة حياة الآخرين بالاختصار مرة وبالإشارة أخرى.

واخترنا مختصرين عدداً منهم:

أبان بن عثمان:

أبان بن عثمان بن يحيى بن زكريا اللؤلؤي[2] المتوفى سنة ٢٠٠هـ.

كان من أهل الكوفة، وكان يسكنها تارة ويسكن البصرة أخرى. وقد أخذ عنه من أهل البصرة: أبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبو عبد الله محمَّد بن المثنى، وأبو عبد الله محمَّد بن سلام الجمحي، وأكثروا الحكاية عنه في أخبار الشعراء والنسب والأيام. روى عن أبي عبد الله، وأبي الحسن موسى بن جعفر، وما عرف من مصنفاته إلا كتاب جمع فيه المبدأ، والمبعث، والمغازي، والوفاة، والسقيفة والردة.

ولأبان أصل يرويه الشيخ الطوسي عن عدة من الأصحاب.

وكان أبان من الستة الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم، والإقرار لهم بالفقه، وهم: جميل بن دراج، وعبد الله بن مسكان، وعبد الله بن بكير، وحماد بن عيسى، وحماد بن عثمان، وأبان بن عثمان.

وقد روى عن أبان خلق كثير، منهم الحسن بن علي الوشا، وعلي بن الحكم

---

(١) قاموس الرجال ج١ ص٧٤.

(٢) معجم الأدباء ج١ ص١٠٨ ـ ١٠٩، ولسان الميزان ج١ ص٢٤، وبغية الوعاة ص١٧٧، وفهرست الشيخ الطوسي ص١٨، ومنهج المقال ص١٦، وجامع الرواة ج١ ص١٢ ـ ١٥، وغيرها من كتب الرجال والأدب.

الكوفي، وفضالة بن أيوب، والحسين بن سعيد، وصفوان بن يحيى، وعيسى الفراء، وجعفر بن سماعة وغيرهم.

وكان هو أيضاً يروي عن جماعة من أصحاب الإمام، كزرارة، والفضيل بن يسار، وعبد الرحمٰن بن أبي عبد الله وغيرهم كما هو موجود في كتب الحديث.

بريد العجلي:

وبريد بن معاوية العجلي[1] هو أبو القاسم الكوفي المتوفى سنة ١٥٠هـ.

كان من أصحاب الإمام الباقر، وولده الإمام الصّادق. وهو من حملة الحديث ورجال الفقه، وله منزلة عند أهل البيت عليهم السلام من الوثاقة وعلو القدر. وورد مدحه في روايات صحيحة، كما أجمعت الشيعة على تصحيح ما صحّ عنه. والذي يظهر أن له منزلة سامية في نشر حديث أهل البيت، لذلك نجد الخصوم قد وضعوا أحاديث في ذمّه ليحطوا من قدره، ويصرفوا الناس عنه، ولكنها لم تقف في طريقه، أو تعرقل سيره المتواصل في نشر المذهب، وبث الأحكام. وهو من الستّة الذين عرفوا بأنّهم أفقه الناس وهم: زرارة بن أعين، ومعروف بن خربوذ، وبريد العجلي، وأبو بصير الأسدي، والفضيل بن يسار، ومحمّد بن مسلم الطائفي. وأفقه الستة زرارة.

وقال الإمام الصّادق: «زرارة بن أعين ومحمّد بن مسلم وبريد العجلي وأبو جعفر الأحول أحب الناس إليّ أحياءً وأمواتاً».

روى الحديث عن الإمام الباقر والإمام الصّادق، وروى عنه داود بن يزيد بن فرقد، والحكم وإسماعيل ابنا حبيب. والقاسم بن عروة ومنصور بن يونس، وعبد الله بن المغيرة، وخلق كثير.

وكان بريد من المؤلّفين في عصر الإمام الصّادق. له كتاب يرويه عنه علي بن عقبة بن خالد الأسدي. وقد تقدم ذكر بريد في الجزء الثاني من هذا الكتاب، في جملة أصحاب الإمام الباقر عليه السلام فلا حاجة إلى إطالة البحث.

كما تقدمت هناك ترجمة بكير بن أعين، ومحمّد بن مسلم، وزرارة بن أعين،

---

(١) منهج المقال للأسترابادي ص٦٦، وجامع الرواة جـ١ ص١١٧ ـ ١١٩، والإمام الصّادق للمظفر ص١٤٧ ـ ١٤٨، وغيرها كتنقيح المقال للمامقاني، ورجال أبي علي، ورجال الشيخ محمّد طه نجف.

وجابر الجعفي، وعبد الملك بن أعين، وأبي حمزة الثمالي، وحمران بن أعين، وكلهم من الثقات وحملة فقه الإمام الباقر وولده الإمام الصّادق عليه السلام. وإن التعرّض لدراسة حياتهم أمر يقصينا عن الموضوع، لاتساع دائرة البحث فنكتفي بما ذكرناه عنهم من الإشارة هناك.

• جميل بن دراج:

وجميل بن دراج بن عبد الله أبو علي النخعي[1] مولاهم الكوفي من أصحاب الإمام الصّادق عليه السلام وولده أبي الحسن موسى عليه السلام وكان ثقة. وهو من الستّة الذين أجمعوا على تصحيح ما يصح عنهم. توفي في أيام الإمام الرضا عليه السلام وكان كثير الحديث، فقيهاً، زاهداً، متعبّداً، له مؤلّفات، منها كتاب اشترك هو ومحمّد بن حمران فيه. وله كتاب اشترك هو ومرازم بن حكيم فيه، وله أصل يرويه الشيخ الطوسي عن الحسين بن عبيد الله.

روى عنه الحديث خلق كثير كالحسن بن محبوب، وصالح بن عقبة. وعبد الله بن جبلة، وأبو مالك الحضرمي ومحمّد بن عمرو وغيرهم.

وكان لجميل أخ يقال له نوح بن دراج، وكان قاضياً في الدولة العباسية وقد اشتدت الملامة عليه من قبل أصحاب الإمام الصّادق لأن القضاء من قبل الدولة يعد مؤازرة لهم، وكان نوح من رواة حديث الإمام الصّادق، ولكنه اعتذر أنّه لم يتول القضاء حتى سأل أخاه جميلاً.

جميل بن صالح:

وجميل بن صالح الأسدي الكوفي. من أصحاب الإمام الصّادق وولده موسى عليه السلام. ثقة له أصل، روى عنه جماعة كالحسن بن محبوب وسعد بن عبد الله وعمار بن موسى الساباطي محمّد بن عمر وغيرهم.

حماد بن عثمان:

وحماد بن عثمان بن زياد الرواسي الكوفي المتوفى سنة ١٩٠هـ.

---

(١) فهرست الشيخ الطوسي ص٤٤، وجامع الرواة ج١ ص١٦٥، ومنهج المقال ص٧٨ وغيرها.

هو من الستّة الذين أقرّت الطائفة لهم وتصحيح ما يصح عنهم. روى حماد عن الإمام الصّادق وولده موسى الكاظم، وعن جماعة من أصحابهما عليهما السلام.

وروى عنه جماعة منهم: محمّد بن الوليد، وعلي بن مهزيار، وصفوان بن يحيى وغيرهم.

حماد بن عيسى:

وحماد بن عيسى بن عبيدة الجهني[1] الواسطي ثم البصري، غريق الجحفة المتوفى سنة ٢٠٨هـ من أصحاب الإمام الصّادق والكاظم عليهما السلام وهو من الستّة الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم.

حبيب بن ثابت:

وحبيب بن ثابت الكاهلي[2] مولاهم أبو يحيى الكوفي المتوفى سنة ١٢٢هـ من التابعين ومن رجال الصحاح الستة. روى عن زين العابدين والإمام الباقر وولده الصّادق، وعنه مسعر والثوري وشعبة وأبو بكر النهشلي، وثقه العجلي وأبو زرعة وخلق كثير. قال ابن معين: له نحو مائتي حديث.

حمزة بن الطيار:

وحمزة بن محمّد الطيار كان من رجال الفقه والمتفوقين في علم الكلام وله مناظرات مع خصوم أهل البيت، كما دلّت على ذلك آثاره ووردت من أحاديث أهل البيت في مدحه. منها ما رواه أبان الأحمر عن الطيار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: بلغني أنك كرهت مناظرة الناس وكرهت الخصومة. فقال: «أما كلام مثلك فلا يكره. من إذا طار أحسن أن يقع، وإن وقع أحسن أن يطير، فمن كان هكذا فلا نكره كلامه». إلى غير ذلك من الأحاديث التي لم نذكرها للاختصار. كما لم نذكر جماعة منهم: داود بن فرقد، وحميد بن المثنى العجلي، وداود الرقي، وزيد الشحام، وسدير الصيرفي، وعبد الرّحمٰن البجلي، وداود بن يزيد الكوفي العطار، وداود بن كثير، وروح بن عبد الرحيم الكوفي، وعبد اللّه بن أبي يعفور

---

(١) خلاصة تذهيب الكمال ص٧٨، وجامع الرواة ج١ ص٢٧٣، ومنهج المقال ص١٢٢.

(٢) تهذيب التهذيب ج٢ ص١٨٧، والمعارف لابن قتيبة ص٢٦٨، والخلاصة للخزرجي وغيرها.

الكوفي، وعبد الله بن شريك، وعبد الله بن مسكان، والعلاء بن رزين، وعمر بن حنظلة، وشعيب العقرقوفي، والمعلّى بن خنيس.

وكل هؤلاء قد أعددنا لهم ترجمة وافية، ولكن ضيق المجال حال بيننا وبين نشرها.

ومما يلزم التنبيه عليه: أن أكثر من دوّن في مناقب أئمة المذاهب قد نسبوا إلى أئمتهم من المشايخ والتلاميذ ما لا يتصل بالواقع، ولا أصل لتلك النسبة، إذ التتبع ينفي ذلك، فمثلاً نجد عدد تلاميذ أبي حنيفة من الكثرة بمكان، ولكن الواقع أن تلاميذه الذين سمعوا منه وحضروا عنده لا يتجاوز عددهم أكثر من ستة وثلاثين.

أما المشايخ فإنهم يخطئون كثيراً فيهم. وقد تقدم في الجزء الأول من هذا الكتاب تكذيب دعوى سماع أبي حنيفة من الصحابة بما لا حاجة إلى إعادته، وهذا كثير عندهم في نسبة مشايخ أو تلاميذ للشخص بدون تثبت. فمثلاً إنهم يقولون: إن محمّد بن الحسن بن فرقد الشيباني صاحب أبي حنيفة ومدون فقهه، قد سمع من عمرو بن دينار. وهذا غير صحيح لأن عمرو بن دينار قد توفي سنة ١١٥هـ وكانت ولادة محمّد بن الحسن سنة ١٢٩هـ فكيف يصح سماعه من عمرو بن دينار الذي توفي قبل ولادته بأربعة عشر عاماً؟

وحذراً من وقوع هذا الاشتباه نؤكّد: أن العدد الذي بيناه في تلامذة الإمام الصّادق عليه السلام هو أربعة آلاف أو يزيدون. هذا العدد لم يكن فيه شيء من الإدعاء أو خروج عن حدود الواقع، وإنما هو نتاج تتبع وتمحيص وتحمّل مشقة وعناء. ونستطيع أن نقول: إن عددهم كان أكثر من هذا. وبهذه المناسبة أود أن أنبه على شيء له أثر في الموضوع وهو: أن الشيخ الخالصي ذكر في حديثه عن الإمام الصّادق عليه السلام - كما جاء في سلسلة أشعة من حياة الصّادق عليه السلام الحلقة الأولى ص٣٤ - أن محمّد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة كان من جملة تلامذة الإمام الصّادق عليه السلام. وهذا شيء ينفرد به الشيخ الخالصي! إذ التحقيق لا يؤيّد ذلك. وكما قلنا: إننا لم نثبت في عداد تلامذة الإمام الصّادق من لا تصح في حقه تلك النسبة، ولا نريد أن نلقي الأشياء جزافاً، دون تثبّت، فالتاريخ يحاسبنا على ذلك. والذي أعتقده أن الأمر اشتبه على الشيخ، وذلك أن عبد الله بن الحسن الشيباني،

أخو محمّد بن الحسن الشيباني، كان من تلامذة الإمام الصّادق عليه السلام ورواة حديثه.

ومن قواعد التصنيف والترجمة لدى الشيعة أن يكون بأثر وأن يدل على الترجمة خبر، فكتب الرجال تضم تراجم من استحق الترجمة بعلمه، أو اقتضت الأمانة العلمية التنويه به، ولذلك فإن ما أحصي من تلامذة الإمام الصّادق هو ما كان بالشواهد والأثر.

على أن من أهم ما يجب التركيز عليه بالقول هو أن تلامذة الإمام الصّادق لم يكن لهم دور كدور تلامذة رؤساء المذاهب كأبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد في تبويب الأقوال وجمع الآراء وانتهاج الاستقلال من بعدهم ليدخل المذهب في دور التأسيس والإعلان، لأن تلامذة الإمام الصّادق لا مزيد لهم على ما تلقوه منه عليه السلام إلاّ في مجال الدربة والإعداد للاجتهاد في الحوادث، أما أصول المذهب وقواعده فالحمد لله هي من جذور الإسلام تمتد بامتدادها ولا تبدأ بعصر دون آخر أو فترة دون أخرى. وكان الإمام الصّادق عليه السلام يقول لأصحابه: «إذا نزلت بكم حادثة لا تجدون حكمها فيما رووا عنا، فانظروا إلى ما رووه عن علي عليه السلام فاعملوا به».

مؤمن الطّاق
محمّد بن علي بن النعمان

نسبه وأقوال العلماء فيه:

محمّد بن علي بن النعمان البجلي الكوفي(1) أبو جعفر، مولاهم الأحول، الملقب بمؤمن الطاق. وهو من أصحاب الإمام جعفر الصّادق عليه السلام ولقبه خصومه ـ شيطان الطاق ـ ويقال: إن أول من لقبه شيطان الطاق أبو حنيفة، لمناظرة جرت بين مؤمن الطاق والخوارج، وكانت الغلبة له وأبو حنيفة حاضر فلقبه بذلك.

وهناك رأي آخر في سبب لقبه في قول: قال ابن أبي طي: إنه نسب إلى سوق في طاق المحامل بالكوفة، كان يجلس للصرف بها، فيقال: إنه اختصم مع آخر في درهم زيف فغلب. فقال أنا شيطان الطاق. والصحيح: أن هذه النسبة كانت من خصومه وأعدائه الذين تفوّق عليهم بالمناظرة، وأعجزهم عن المقابلة له، فالتجأوا إلى لغة الانتقاص كما يأتي.

ولما بلغ هشام بن الحكم ذلك لقّبه: مؤمن الطاق، فعرف بذلك بين الطائفة.

وذكره المرزباني في شعراء الشيعة وأورد من شعره ما رواه عمارة بن حمزة وذلك: أن المنصور كان إذا ذكر مدح ابن قيس الرقيات المتوفى سنة ٨٥هـ لعبد الملك بن مروان تغيظ منه وشقّ عليه.

فقال عمارة: يا أمير فيكم رجل من أهل الكوفة أجود مما قال قيس. قال: ومن هو؟ قال: مؤمن الطاق وأنشده:

---

(1) لسان الميزان ج٥ ص٣٠٠، وفهرست ابن النديم ص٢٥٠، وتكملة الفهرست ص٨، والملل والنحل للشهرستاني ج١ ص١١٣، وجامع الرواة ج١ ص١٥٨، ومنهج المقال ص٣١٠، وفهرست الشيخ الطوسي ص١٢١، ولباب الأنساب ج٢ ص٤٢، والكنى والألقاب ج٢ ص٢٩٨ ـ ٢٩٩ وضحى الإسلام ج٣ ص٢٧٠ ـ ٢٧١ وغيرها.

يا من لقلب قد شفّه الوجع — يكاد مما عناه ينصدع
أمسى كئيباً معذباً كمداً — تظل فيه الهموم تصطرع
عن ذكر آل النبي إذ قهروا — واللون مني مع ذاك ملتمع
قالت قريش ونحن أسرته — والناس ما عمروا لنا تبع
قالت قريش منا الرّسول فما — للناس في الملك دوننا طمع
قد علمت ذاك العريب فما — تصلح إلاّ بنا وتجتمع
فإن يكونوا في القول قد صدقوا — فقد أقروا ببعض ما صنعوا
لأن آل الرّسول دونهمو — أولى بها منهمو إذا اجتمعوا
وإنّهم بالكتاب أعلمهم — والقرب منه والسبق قد جمعوا
ما راقبوا الله في نبيهمُ — إذ بعد وصل أهله قطعوا(1)

ووصفه المرزباني بقوله: أبو جعفر محمّد بن علي بن النعمان، وإنما سمي بالطاق لأنه كان بطاق المحامل بالكوفة يعاني الصرف، وكان من الفصحاء البلغاء، ومن لا يطاول في النظر، والجدال في الإمامة، وكان حاضر الجواب. وذكر له عدة مناظرات مطولة ومختصرة، وكانت له الغلبة فيها.

وقال ابن النديم في ترجمته: أبو جعفر محمّد بن النعمان الأحول، نزل طاق المحامل بالكوفة، وتلقبه العامة بشيطان الطاق، والخاصة تعرفه بمؤمن الطاق، وشيعته ـ أي أصحابه ـ تسميه شاه الطاق أيضاً. وهو من أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام. ولقد لقي زيد بن علي زين العابدين وناظره على إمامة أبي عبد الله ولقي علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام وقيل: إنما سمي شيطان الطاق لأنّه كان يتصرف ويشهد الدنانير، فلاحاه قوم في دينار جرّبوه وبهرجه هو، فأصاب وأخطأوا، وألزمهم الحجّة، فقال: أنا شيطان الطاق. يعني طاق المحامل بالكوفة موضع دكانه، فلزمه هذا اللقب. وكان حسن الاعتقاد والهدى، حاذقاً في صناعة الكلام. سريع الخاطر والجواب. ثم ذكر مناظراته مع أبي حنيفة وستأتي.

قال أبو خالد الكاملي: رأيت أبا جعفر صاحب الطاق وهو قاعد في الروضة،

---

(1) المرزباني، شعراء الشيعة ص٨٦.

قد قطع أهل المدينة إزاره، وهو دائب يجيبهم ويسألونه، فدنوت منه وقلت: إن أبا عبد الله نهانا عن الكلام. فقال: أو أمرك أن تقول لي؟ فقلت: لا والله ولكنه أمرني أن لا أكلم أحداً. قال: فاذهب وأطعه فيما أمرك. فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام فأخبرته بقصة صاحب الطاق، فتبسم أبو عبد الله عليه السلام وقال: «يا أبا خالد إن صاحب الطاق يكلم الناس فيطير، وأنت إن قصّوك لن تطير»[1].

علمه ونبوغه:

وكان محمّد بن علي بن النعمان كثير العلم، متفوقاً في معارفه، قوياً في حجته، تعددت فيه نواحي العبقرية والنبوغ ـ فهو عالم ـ بالفقه، والكلام، والحديث، والشعر، وكان قويّ العارضة، سريع الجواب واضح الحجّة.

اشتغل بالتجارة وتنقّل بين أكثر المدن الإسلامية، وعرف بتشيّعه وإخلاصه لأهل البيت عليهم السلام ولقي من عنت خصومهم والمناوئين لهم ما نغّص عليه عيشه، ولكن لم يحل ذلك بينه وبين الإعلان بمبدئه، والجهر في دعوته. وكان يتمتع بشخصية فذّة، يعترف له الناس بالفضل والعلم، والنبوغ والتفوّق.

وقد كان عصره يقضي على المفكّرين ـ من أمثاله ـ بكبت الشعور وكمّ الأفواه، وتمويه الحقائق، ولكنه لم يخضع لذلك الحكم الجائر، فهو لا يزال يدعو بالحق، ويعلن بفضل عليّ، ويظهر تمسكه بأبنائه.

مناظراته واحتجاجه:

كان مؤمن الطاق يمتاز بقدرة فائقة على الجدل، وقوة في التفكير، ومهارة في الاستنباط. ويكاد المؤرخون يجمعون على تفوقه، في سرعة الجواب وقوة العارضة. وإذا أردنا استقصاء مناظراته فالأمر يستلزم الإطالة، ولكننا نكتفي بالبعض منها، وهي كثيرة مبعثرة في بطون الكتب.

١ ـ اجتمع قوم من الخوارج وقوم من الشيعة بالكوفة عند أبي نعيم النخعي، فقال أبو حذرة الخارجي: أن أبا بكر أفضل من علي وجميع الصحابة بأربع خصال: فهو ثان لرسول الله دفن في بيته، وهو ثاني اثنين معه في الغار، وهو ثاني اثنين صلى

(١) الكنى والألقاب ج٢ ص٢٩٨.

بالناس آخر صلاة قبض بعدها رسول الله، وهو ثاني صدّيق من الأمة.

فردّ عليه شيطان الطاق ـ على حد تعبير الدكتور أحمد أمين ـ وقال: يا ابن أبي حدرة، أتَرَكَ النبي ﷺ بيوته التي أضافها الله إليه، ونهى الناس عن دخولها إلاّ بإذنه، ميراثاً لأهله وولده؟ أو تَرَكها صدقة على جميع المسلمين؟

فإن تركها ميراثاً لولده وأزواجه فقد ترك تسع زوجات، فليس لعائشة إلاّ نصيب إحداهن، أي لم يكن لها أن تدفن أبا بكر في بيته ونصيبها لا يسمح بذلك.

وإن تركها ميراثاً لجميع المسلمين فإنه لم يكن له نصيب من البيت إلاّ كما لكل رجل من المسلمين.

وأما قولك: إنه ثاني اثنين إذ هما في الغار، فإن مكان علي في هذه الليلة على فراش النبي ﷺ، وبذل مهجته دونه أفضل من مكان صاحبك في الغار. وأمّا قولك: في صلاته بالناس، فقد تقدم ليصلي بالناس في مرض رسول الله ﷺ، فخرج النبي وتقدم فصلّى بالناس وعزله عنها، ولو كان قد صلّى بأمره لما عزله من تلك الصلاة.

وأما تسميته بالصدّيق، فهو شيء سمّاه الناس. إلى آخر المناظرة(1).

٢ ـ عن أبي مالك الأحمسي قال: خرج الضحاك الشادي بالكوفة فحكم وتسمى بإمرة المؤمنين، ودعى الناس إلى نفسه.

فأتاه مؤمن الطاق، فلما رأته الشراة وثبوا في وجهه فقال لهم: جانح، فأتوا به صاحبهم، فقال له مؤمن الطاق: أنا رجل على بصيرة من ديني فأحببت الدخول معكم.

فقال الضحاك لأصحابه: إن دخل هذا معكم نفعكم. ثم أقبل مؤمن الطاق على الضحاك فقال: لِم تبرأتم من علي بن أبي طالب، واستحللتم قتله وقتاله؟

قال الضحاك: لأنه حكم في دين الله.

قال مؤمن الطاق: وكل من حكم في دين الله استحللتم دمه وقتاله والبراءة منه؟

قال: نعم.

قال: فأخبرني عن الدين الذي جئت أناظرك عليه، لأدخل معك إن غلبت

---

(1) ضحى الإسلام للدكتور أحمد أمين ج٣ ص٢٧٠ ـ ٢٧١.

حجتي حجتك، أو حجتك حجتي، من يوقف المخطىء على خطأه ويحكم للمصيب بصوابه؟ فلا بدّ لنا من إنسان يحكم بيننا. فأشار الضحاك إلى رجل من أصحابه وقال: هذا الحكم بيننا، فهو عالم بالدين.

قال مؤمن الطاق: وقد حكمت هذا في الدين الذي جئت أناظرك فيه؟

قال: نعم. فأقبل مؤمن الطاق على أصحاب الضحاك فقال: إن صاحبكم قد حكم في دين الله فشأنكم به. فاختلف أصحابه وأسكتوه، وخرج مؤمن الطاق منتصراً.

٣ ـ كانت الخصومة بين مؤمن الطاق وأبي حنيفة شديدة جداً، لأنا نرى كثرة المناظرة بينهما، وأهمها في الإمامة والتفضيل، وبدون شك أن أبا حنيفة لم يكن معروفاً بعلم الكلام، وليس له قوة على مقابلة من تفوّق به. وإن مؤمن الطاقة كان معروفاً بعلم الكلام وقوة الحجّة، وسرعة الجواب، وشدة العارضة. فهو دائماً يتفوق في مناظراته، ويسمو في حجّته.

قال ابن حجر: وقعت له ـ أي لمؤمن الطاق ـ مناظرة مع أبي حنيفة في شيء يتعلّق بفضائل علي، فقال أبو حنيفة كالمنكر عليه: عمّن رويت حديث رد الشمس لعلي؟

فقال مؤمن الطاق: عمّن رويت أنت عنه يا سارية الجبل.

وقال أبو حنيفة له يوماً: ما تقول في المتعة؟ قال: حلال. قال أبو حنيفة: أيسرّك أن تكون بناتك وأخواتك يُمتع بهن؟

قال مؤمن الطاق: شيء أحلّه الله، ولكن ما تقول أنت في النبيذ؟ قال: حلال. قال مؤمن الطاق: أيسرك أن تكون بناتك وأخواتك نباذات «هن»؟

ولما مات الإمام الصّادق عليه السلام قال له أبو حنيفة: قد مات إمامك. قال: لكن إمامك من المنظرين. أو لا يموت إلى يوم القيامة.

وفي لفظ الخطيب البغدادي: لما مات جعفر بن محمّد التقى هو ـ أي مؤمن الطاق ـ وأبو حنيفة. فقال له أبو حنيفة: أما إمامك فقد مات، فقال شيطان الطاق: أما إمامك فمن المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم[١].

---

(١) تاريخ بغداد ج١٣ ص٤١٠.

وقال الخطيب: كان أبو حنيفة يتهم شيطان الطاق بالرجعة، وكان شيطان الطاق يتهم أبا حنيفة بالتناسخ. فخرج أبو حنيفة يوماً إلى السوق فاستقبله شيطان الطاق ومعه ثوب يريد بيعه، فقال له أبو حنيفة: أتبيع هذا الثوب إلى رجوع علي؟ فقال: إن أعطيتني كفيلاً أن لا تمسخ قرداً بعتك. فبهت أبو حنيفة[1].

وله معه مناظرة في إبطال الطلاق الثلاث[2].

وقد ألّف مؤمن الطاق كتاباً في مناظراته مع أبي حنيفة، ولم نذكر هنا شيئاً من تلك المناظرات الكثيرة معه، واقتصرنا منها على هذا القدر القليل. ولم يكن من رأيي التعرض لأمثال هذه المناظرات، التي جرت بين مؤمن الطاق وأبي حنيفة، ولكني وقفت على بعض كتب الحنفية ـ التي دونت في مناقب إمامهم ـ فوجدتهم يذكرونها بصورة معكوسة، فأحببت أن أنبه على هذا الخطأ، لأن الذين ذكروا هذه المناظرات ـ على وجهها الصحيح ـ كانوا أقدم من هؤلاء المحرفين.

فهذا ابن النديم وهو من علماء القرن الرابع، إذ كانت وفاته سنة ٣٨٥هـ قد ذكرها في الفهرست. أما الذين نقلوها على العكس فهم المتأخرون، كابن البزاز الكردري المتوفى سنة ٦٢٧هـ. والخوارزمي المتوفى سنة ٥٦٨هـ. وكذلك الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ ذكرها في تاريخه. ذكرها بصورتها الواقعية ولكن الحنفية جعلوا الغالب هو المغلوب، وهذا شأن كتاب المناقب في كثير من القضايا والمتتبع يقف على أمور من التحريف والتحوير تبعث على العجب والاستغراب.

مؤلفاته:

وكيف كان فإن مؤمن الطاق من فرسان حلبة علم الكلام ومن أبطال الرجال الذين حملوا رسالة التشيّع فتحمّلوا الأذى في جنب الله، ووقف مواقفاً مشرفة في الدفاع عن آل محمّد ﷺ. كما أنه ألّف كتباً قيّمة في شتى المواضيع الهامة وقد ذكر منها الشيخ الطوسي وابن النديم الكتب الآتية:

١ ـ كتاب الإمامة.

٢ ـ كتاب المعرفة.

---

(١) تاريخ بغداد ج١٣ ص٤٠٩، وتكملة فهرست ابن النديم ص٨.

(٢) البحار ج٤ ص٣٧١.

٣ ـ كتاب الرد على المعتزلة في إمامة المفضول.

٤ ـ كتاب في أمر طلحة والزبير وعائشة.

٥ ـ كتاب إثبات الوصية.

٦ ـ كتاب افعل، لا تفعل.

وله كتاب المناظرة مع أبي حنيفة.

وصية الإمام الصّادق له:

للإمام الصّادق عدة وصايا يوصي بها أصحابه بما ينفعهم في الدنيا والآخرة، وقد ذكرنا جملة منها في الجزء الثاني، ونقتطف هنا فصولاً من وصيته لمؤمن الطاق.

قال عليه السلام: «يا ابن النعمان إياك والمراء فإنه يحبط عملك، وإياك والجدال فإنه يوبقك، وإياك وكثرة الخصومات. فإنّها تبعدك من الله. إن من كان قبلكم يتعلمون الصمت، وأنتم تتعلمون الكلام. كان أحدهم إذا اراد التعبّد يتعلم الصمت قبل ذلك.

إنما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء، وصبر في دولة الباطل على الأذى، أولئك النجباء الأصفياء الأولياء حقاً، وهم المؤمنون. إن أبغضكم إليّ المترئسون المشاؤون بالنمائم، الحسدة لإخوانهم، ليسوا مني ولا أنا منهم، إنما أوليائي الذين سلموا لأمرنا، واتبعوا آثارنا.

يا ابن النعمان إنّا أهل بيت لا يزال الشيطانُ يدخل فينا من ليس منا ولا من أهل ديننا، فإذا رفعه ونظر إليه الناس أمره الشيطان فيكذب علينا، وكلما ذهب واحد جاء آخر.

يا ابن النعمان إن أردت أن يصفو لك ودُّ أخيك فلا تمازحنّه، ولا تمارينّه ولا تباهينّه. ولا تطلع صديقك من سرّك إلاّ على ما لو اطلع عليه عدوك لم يضرك، فإن الصديق قد يكون عدوك يوماً.

يا ابن النعمان ليست البلاغة بحدة اللسان، ولا بكثرة الهذيان، ولكنها إصابة المعنى وقصد الحجة.

يا ابن النعمان لا تطلب العلم لثلاث: لترائي به، ولا لتباهي به، ولا تماري. ولا تدعه لثلاث: رغبةً في الجهل، وزهادةً في العلم، واستحياءً من الناس»[1].

---

(١) تحف العقول ص ٣٠٧ ـ ٣١٢.

آراء ومناقشات:

زعم المتقولون على مؤمن الطاق: أنّه كان من المشبهة، وتنسب إليه فرقة يقال لهم شيطانية من مذهبهم التشبيه. وأنّه كان يقول: إن الله تعالى إنما يعلم الأشياء إذا قدرها، والتقدير عنده الإرادة، وللإرادة فعل[1] وأنه كان يذهب إلى أن الإله على صورة الإنسان ولا يسميه جسماً[2] إلى غير ذلك من الأقوال التي نطق بها من لا يبالي بمؤاخذة ولا يدري ما يقول؟!

إنها لعمر الله فرية، وتقوّل بالباطل، ونحن لا نستغرب اتهام مؤمن الطاق بما يخالف عقيدته، لأنّه كان حرباً على ذوي الآراء الفاسدة. وقد أُعطي نصيباً وافراً من قوة العارضة وسرعة الجواب، فكان يقيم الدليل على خصمه، ويرغمه على الاعتراف بالخطأ.

ومن الواضح: أن تلك المناقشات التي كانت تدور في أندية الكوفة كان أكثرها يهدف إلى تشويش الأفكار، والتلاعب بالعقول، لوجود طائفة من الدخلاء كان غرضهم ذلك.

وكان مؤمن الطاق وبقية خواص الأئمة قد بذلوا جهدهم في مقاومة أولئك الخصوم، الذين يريدون الفتك بالإسلام وأهله، فكان أهون شيء عليهم أن ينسبوا لأولئك الصفوة ما يخالف عقائدهم، والظروف تساعدهم على ذلك عندما أطلق الباطل من عقاله، فدفع صاحبه إلى اتهام البريء وبراءة المتهم.

ويكفينا في براءته وعلو منزلته وحسن عقيدته، ما ورد في مدحه والثناء عليه من أئمة الهدى. وقد كان من أحب الناس إلى الإمام الصّادق. فقد صح عنه أنّه كان يقول: «أربعة أحب الناس إليّ أحياءً وأمواتاً: بريد بن معاوية العجلي، وزرارة بن أعين، ومحمّد بن مسلم، وأبو جعفر الأحول».

فلا تضره تهجمات أولئك القوم الذين ألقوا مقاليد أمورهم للعاطفة، فاتهموه بما هو بريء منه، ورموه بما لا يليق بشأنه.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[النساء: ١١٢].

---

(١) لباب الأنساب ج٢ ص٤٢.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي ص١٣١، وسيأتي مناقشة هذه الأقوال في دراسة حياة هشام بن الحكم.

هشام بن الحكم

«يا هشام ما زلت مؤيداً بروح القدس»

الإمام الصّادق

«رحم الله هشاماً كان عبداً ناصحاً»

الإمام الرضا

(لسان هشام أوْقَعُ في نفوس الناس من ألف سيف)

هارون الرشيد

نسبه ونشاته وأقوال العلماء فيه:

هشام بن الحكم الكندي[1] أبو محمّد البغدادي المتوفى سنة ١٩٧هـ.

كانت نشأته بالكوفة وواسط، ويدخل بغداد للتجارة، ولكنه استقام بها بعد مدة من الزّمن، ونزل قصر وضاح بالكرخ من مدينة السّلام، له دار بواسط. وكان يتجول للتجارة ينتقل من بلد إلى آخر وهو يرشد الناس ويدافع عن مذهب أهل البيت ويناظر الملحدين فيفحمهم ورجع الكثيرون إلى التوحيد تسليماً لقوة الحجة وخضوعاً للحق، وهو من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام ومن خواص ولده موسى الكاظم عليه السلام.

(١) فهرست ابن النديم ص٢٤٩، والتكملة ص٧، والملل والنحل ج١ ص٣٠٨، ولسان الميزان ج٦ ص١٩٤، والمراجعات لشرف الدين ص٣٠٠ ـ ٣٠١، والانتصار للخياط في عدة مواضع، وضحى الإسلام ج٣ ص٢٦٨، وعقد الفريد ج١ ص٣٦٠، وعيون الأخبار لابن قتيبة ج٢ ص١٥٠، وحياة هشام بن الحكم للشيخ محمّد الحسين المظفر (مخطوط) وجامع الرواة ج٢ ص٣١٣، ونهج المقال ص٣٥٦، وحياة هشام للشيخ محمّد صالح الشيخ راضي «مخطوط» وغيرها.

نشأ هشام بن الحكم بالكوفة، وكانت الكوفة مصطرعاً للآراء، وموطناً لاختلاف المذاهب التي استوطنتها، وقوي بها انتشار علم الكلام، وازدهرت أرجاؤها بحلقات العلم ورجال الفكر، فكانت هناك خصومات وجدل ونزاع بين أصحاب المذاهب المختلفة، والآراء المتفرقة والفرق المتعددة. وقد اتخذ كل فريق علم الكلام وسيلة للانتصار على خصمه، ووسيلة لتأييد رأيه وتصحيح مذهبه.

وكان هشام بن الحكم من أبرز شخصيات ذلك العصر، يمتاز بقوة شخصيته التي جعلته مطمحاً لأنظار علماء عصره، لتفوقه ومهارته وشدة خصومته، وقوة حجته؛ ويصف ابن النديم هشاماً بقوله:

هشام بن الحكم من متكلمي الشيعة، ممن فتق الكلام في الإمامة، وهذّب المذهب والنظر، وكان حاذقاً بصناعة الكلام، حاضر الجواب. سئل هشام عن معاوية أشهد بدراً؟ قال: نعم، من ذاك الجانب ـ أي من جانب المشركين.

ويقول الشهرستاني: هشام بن الحكم صاحب غور[1] في الأصول لا يجوز أن يغفل عن إلزاماته على المعتزلة، فإن الرجل وراء ما يلزمه الخصم، ودون ما يظهره من التشبيه.

وقال الزركلي: هشام بن الحكم فقيه، متكلم، مناظر، من أكابر الإمامية، ولد بالكوفة. فانقطع إلى يحيى بن خالد، فكان القيم بمجالس كلامه[2].

ويقول الدكتور أحمد أمين: أما هشام بن الحكم فيظهر أنه أكبر شخصية شيعية في علم الكلام، وكان من تلاميذ جعفر الصّادق عليه السلام وكان جدلاً قوي الحجة، ناظر المعتزلة وناظروه، ونقلت في كتب الأدب له مناظرات كثيرة، دل على حضور بديهته وقوّة حجّته، إلى أن يقول: والجاحظ يشتد عليه في المناقشة ويغضب في نقده. وستأتي بقية الأقوال فيه.

---

(١) غور كل شيء قعره، وعمقه، وصاحب غور هو من تعمق في علمه، حتى وصل إلى حقيقته، ومنه فلان بعيد الغور أي متعمق النظر وهو بحر لا يدرك غوره. انظر في التعليق الملل والنحل ج١ ص٣١١.

(٢) الأعلام ج٣ ص١١٢٣.

صلته بالإمام الصّادق:

اتصل هشام بمدرسة الإمام الصّادق عليه السلام وأصبح من أبرز رجالها في الحكمة والدراية، والعرفان، والفقه، والحديث. ويقال: إنّه كان قبل اتصاله بالإمام يذهب إلى رأي جهم بن صفوان[1]، ولكنه تركه عندما اجتمع بالإمام الصّادق عليه السلام في مدينة الوحي، وقد اكتظ المجلس بوفود الأمصار وطلاّب العلم، فرأى من هيبة الإمام وروحانيته، وسمع ما طرق سمعه من أجوبته لسائليه، وحسن بيانه وعذوبة ألفاظه، ما أفقده الاعتزاز بنفسه، وعرف عجزه عن مقابلته في مسائله.

وكان الإمام الصّادق عليه السلام قد عرف هشاماً وسمع به من قبل، فاتجه إليه ليوجهه إلى الحق، ويرشده إلى الهدى، فألقى إليه سؤالاً بما كان قد اختص هشام به، فلم يستطع الجواب عنه، وعرف الحق فاتبعه «والحق أحق أن يتبع».

وانقطع إلى الإمام الصّادق عليه السلام فأصبح من خواصه، ومن أبرز رجال مدرسته، فكان من أشهر رجال العلم، ومن أبطال الفلسفة، يمثل في مواقفه البطولة والجرأة الأدبية، يسير مع الحق أينما سارت ركائبه. وفاز بالتفوّق على مناوئيه بواضح الحجّة، وساطع البرهان، واستجاب الله دعوة الإمام الصّادق فيه: «يا هشام ما زلت مؤيداً بروح القدس».

كان هشام شديد الإخلاص، قوي الإيمان، راسخ العقيدة، يدافع عن مذهب أهل البيت، ويتشدّد في مناقشته للخلافات المذهبية، وتفنيد آراء المتكلمين من سائر الفرق الإسلامية الذين تأثروا بانتقال الفلسفة اليونانية. وكان يخرج منتصراً في جميع مواقفه، لما عرف فيه من قوة الحجّة وسعة التفكير، وبذلك أصبح في خطر من قبل الدولة ـ كما هو شأن المفكّرين وأهل الآراء الحرّة من أمثاله ـ وقد عرف هشام بشدة مناظرته في الإمامة، وانتصاره للعلويين، وهم خصوم الدولة وأهل الحق الشرعي.

وقد خشي الرشيد من اتساع نشاط هشام، وتفوّقه على أكثر المفكّرين من رجال عصره. فحاول الفتك به والقضاء عليه.

---

(١) جهم بن صفوان إليه تنسب الفرقة الجهمية، ظهرت بدعته بترمذ وقتله سلم بن أحوز المازني بمرو، آخر الدولة الأموية، وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية وزاد عليهم: أنه لا يجوز أن يوصف الباري بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضي تشبيهاً، فنفى كونه حياً عالماً، وأثبت كونه فاعلاً خالقاً لأنه لا يوصف شيء بالفعل والخلق. إلى آخر أقواله في الملل والنحل ج١ ص١١٣.

ولكن يحيى بن خالد البرمكي كان يدافع عن هشام، ويلطّف الجو، لأنه كان مختصاً به، حتى تغيّر قلبه على هشام لأسباب هناك، فأعرض عن دفاعه. وجرى بحث الإمامة في مجلس البرمكي والرشيد يسمع من وراء الستر، فاشتدت المناظرة وكانت الغلبة لهشام، فغضب الرشيد وقال: إن لسان هشام أوقع في نفوس الناس من ألف سيف. ولكن الرشيد بما عُرف عنه من عداء لأهل بيت النبوة ومقاومته لآثارهم، يرى في هشام مبتدعاً. روي أن ملك الصفد كتب إلى الرشيد يسأله أن يبعث إليه من يعلّمه الدين، فدعا يحيى بن خالد فعرض عليه الكتاب، فقال يحيى: لا يقوم بذاك إلاّ رجلان ببابك: هشام بن الحكم، وضرار [بن عمرو من شيوخ المعتزلة] فقال: كلا، إنهما مبتدعان فيلقنان القوم ما يفسدهم ويغويهم بالمسلمين، ليس لذلك إلاّ أصحاب الحديث[1].

وكان هشام قد احتل منزلة في حركة مدرسة الإمام الصّادق الفكرية، وعمل بتوجيهات الإمام الصّادق إلى جانب تلامذة الإمام الآخرين ممن مهروا في الكلام واختصوا بأفانين الجدل في عصر ساد الأوساط ما يشبه الموجة التي تكاد يعتورها نفس الأفكار لولا تلقي رجال الأمة لها بالتصدي للتخفيف منها والتحكّم في شططها وانحرافها حتى تنساب برقّة وتصب في مجرى العقيدة بلا شوائب وأكدار. وقد عزم الإمام الصّادق على انتشال هشام بن الحكم من مؤثرات ذلك العصر ثم هداه الله إلى ما يريده من الإمام وأصبحت له مكانة في النشاط الديني والفكري واحتل منزلة خاصة في نفس الإمام الصّادق.

يروي يونس بن يعقوب قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فورد عليه رجل من أهل الشام فقال: إني رجل صاحب كلام وفقه وفرايض وقد جئت لمناظرة أصحابك، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «كلامك هذا من كلام رسول الله ﷺ أو من عندك؟» فقال: من كلام رسول الله ﷺ بعضه ومن عندي بعضه. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «فأنت إذن شريك رسول الله ﷺ؟» قال: لا. قال: «فسمعتَ الوحي عن الله؟» قال: لا. قال: «فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله ﷺ؟» قال: لا. قال: فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إليّ فقال: «يا يونس بن يعقوب هذا قد خصم نفسه» قبل أن يتكلم، ثم قال: «يا يونس، لو كنت تحسن الكلام كلمته» قال

(١) محاضرات الأصبهاني ج١ ص٣٧ ـ ٣٨.

يونس: فيا لها من حسرة، فقلت: جعلت فداك، سمعتك تنهى عن الكلام وتقول: «ويل لأصحاب الكلام يقولون هذا ينقاد وهذا لا ينقاد، وهذا ينساق وهذا لا ينساق، وهذا نعقله وهذا لا نعقله؟» فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إنما قلت: ويل لقوم تركوا قولي وذهبوا إلى ما يريدون».

ثم تأتي رواية ابن يعقوب لتبين عظيم المكانة التي عليها هشام فيقول: أخرج أبو عبد الله عليه السلام رأسه من الخيمة فإذا هو ببعير يخبّ، فقال: «هشام ورب الكعبة». فظننا أن هشاماً من ولد عقيل كان شديد المحبة لأبي عبد الله عليه السلام فإذا هشام بن الحكم قد ورد وهو أول ما اختطت لحيته وليس فينا إلاّ من هو أكبر سناً منه، قال: فوسع له أبو عبد الله عليه السلام وقال: «ناصرنا بقلبه ولسانه ويده» ثم قال لحمران بن أعين: «كلّم الرجل الشامي» فكلّمه حمران فظهر عليه، ثم كلّمه الآخرون ممن حضر مجلس الإمام... يقول ابن يعقوب: ثم قال للشامي: «كلّم هذا الغلام» يعني هشام بن الحكم، فقال: نعم. ثم قال الشامي لهشام: يا غلام سلني في إمامة هذا، يعني أبا عبد الله عليه السلام فغضب هشام حتى ارتعد، ثم قال له: أخبرني يا هذا، أربّك أنظر لخلقه أم هم لأنفسهم؟ فقال الشامي: بل ربي أنظر لخلقه. قال: ففعل بنظره لهم في دينهم ماذا؟ قال: كلّفهم وأقام لهم حجة ودليلاً على ما كلّفهم، وأزاح في ذلك عللهم. فقال له هشام: فما هذا الدليل الذي نصبه لهم؟ قال الشامي: هو رسول الله ﷺ. قال له هشام: فبعد رسول الله من؟ قال: الكتاب والسنّة. قال له هشام: فهل ينفعنا اليوم الكتاب والسنّة فيما اختلفنا فيه حتى يرفع عنا الاختلاف ومكّنا من الاتفاق؟ قال الشامي: نعم. قال له هشام: فلِمَ اختلفنا نحن وأنت وجئتنا من الشام تخالفنا وتزعم أن الرأي طريق الدين، وأنت تقرّ بأن الرأي لا يجمع على القول الواحد المختلفين؟ فسكت الشامي كالمفكّر، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «ما لك لا تتكلم؟» قال: إن قلت أنا ما اختلفنا كابرت، وإن قلت إن الكتاب والسنّة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه.. ثم يقوم الشامي بسؤال هشام، ويجيب هشام حتى يخرج الشامي من مجلس الإمام وهو على الهدىٰ.

عصره:

كان عصر هشام من أزهر العصور في الكلام بجميع أصوله، لكثرة الفرق. وجعل هاتيك الأصول الكلامية مبتنية على القواعد المنطقية. وكانت الرغبة ملحّة في

النظر والجدل، فكانت المجالس تعقد للمناظرة، وتشد الرحال للمدارسة والاحتجاج، ولا سيما في الإمامة، لأنها الأصل الذي يصحح للخليفة ـ بالشكل المعهود ـ أن يستولي به على العباد والبلاد باسم الشريعة، ويصحح له أن يكون ولي الأمر الذي تجب طاعته على الأمّة، أو يمنعه عن التصرّف في مقدرات البلاد، والقبض على رقاب العباد، ويأبى له من أن يكون الحجة من الخالق إلى المخلوق.

فالملوك من أمية وبني العباس وقفوا سدّاً دون سيل الكلام في الإمامة لئلا يشيع رأي الشيعة فيها، وألجموا الأفواه، وحجروا العقول، ومنعوا حرية القول، وساروا بالناس سيرة إرهاب وتهديد.

فكان هشام بن الحكم واسطة القلادة في تلك الأندية، يساجل في كل أصل، فإن انتهت الخصومة إلى الإمامة، أدلى بحجته، مصرحاً إن أمن من العقاب، وملوحاً إن خاف النكال.

لأن إثبات الإمامة في الأئمة الاثني عشر هدم لصروح إمامة الأوائل، وثلّ لعروش الأواخر[1]. وكان لمجلس يحيى البرمكي الذي يعقد في بغداد للمناظرة أثر كبير في تنوير العقول، ولا يعقد ذلك المجلس إلاّ تحت إشراف هشام ورئاسته. ومن الحق أن نقول: إن هشاماً كان من مفاخر الأمة الإسلامية، فقد جنّد نفسه لخدمة الحق، ونشر مبادىء الإسلام، وقد تصدّى للرد على أعداء الدين، ورفع الغشاوة من بعض العقول التي قد ركبها الشطط، وغلبها الغرور.

سأل ضرار هشام بن الحكم عن الدليل على الإمام بعد النبي ﷺ فقال هشام: الدلالة عليه ثمان دلالات: أربع منها في نعت نسبه، وأربع منها في نعت نفسه. أما الأربع التي في نعت نسبه: فأن يكون معروف القبيلة، معروف الجنس، معروف النسب، معروف البيت. وذلك أنه إذا لم يكن معروف القبيلة معروف الجنس معروف النسب معروف البيت جاز أن يكون من أطراف الأرض و في كل جنس من الناس، فلما لم يجز أن يكون الدليل إلاّ في أشهر الأجناس، ولما لم يجز أن يكون إلاّ في هذا الجنس لشهرته؛ لم يجز أن يكون إلاّ هكذا، ولم نجد جنساً في العالم أشهر من جنس

---

(١) عن كتاب حياة هشام لشيخنا المظفر مخطوط.

محمّد ﷺ وهو جنس العرب الذي منه صاحب الملّة والدعوة الذي ينادىٰ باسمه في كل يوم وليلة خمس مرّات على الصوامع والمساجد في جميع الأماكن: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله، ووصل دعوته إلى كل بر وفاجر من عالم وجاهل معروف غير منكر في كل يوم وليلة، فلم يجز إلاّ أن يكون في هذه القبيلة التي فيها صاحب الدعوة لاتصالها بالملّة، لم يجز أن يكون إلاّ في هذا البيت الذي هو بيت النبي لقرب نسبه من النبي ﷺ إشارة إليه دون غيره من أهل بيته، ثم إن لم يكن إشارة إليه اشترك أهل هذا البيت، وادعيت فيه، فإذا وقعت الدعوة فيه وقع الاختلاف والفساد بينهم ولا يجوز أن يكون إلاّ من النبي ﷺ إشارة إلى رجل من أهل بيته دون غيره لئلا يختلف فيه أهل هذا البيت أنه أفضلهم وأعلمهم وأصلحهم لذلك الأمر

وأما الأربع التي في نعت نفسه: فأن يكون أعلم الخلق، وأسخى الخلق، وأشجع الخلق، وأعفّ الخلق وأعصمهم من الذنوب صغيرها وكبيرها، لم تصبه فترة ولا جاهلية، ولا بد من أن يكون في كل زمان قائم بهذه الصفة إلى أن تقوم الساعة. فقال عبد الله بن يزيد الأباضي ـ وكان حاضراً ـ: من أين زعمت يا هشام أنّه لا بد أن يكون أعلم الخلق؟ قال: إن لم يكن عالماً لم يؤمن أن تنقلب شرائعه وأحكامه، فيقطع من يجب عليه الحدّ، ويحدّ من يجب عليه القطع، وتصديق ذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾. قال: فمن أين زعمت أنّه لا بد أن يكون معصوماً من جميع الذنوب؟ قال: إن لم يكن معصوماً لم يؤمن أن يدخل فيما دخل فيه غيره من الذنوب، فيحتاج إلى من يقيم عليه الحدّ كما يقيمه على غيره، وإذا دخل في الذنوب لم يؤمن أن يكتم على جاره وحبيبه وقريبه وصديقه، وتصديق ذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. قال له: فمن أين زعمت أنه لا بد أن يكون أشجع الخلق؟ قال: لأنه قيّمهم الذي يرجعون إليه في الحرب، فإن هرب فقد باء بغضب من الله ولا يجوز أن يبوء الإمام بغضب من الله، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾. قال: فمن أين زعمت أنه لا بد أن يكون أسخى الخلق؟ قال: لأنّه إن لم يكن سخياً لم يصلح للإمامة، لحاجة النّاس إلى نواله وفضله والقسمة بينهم بالسوية، وليجعل الحق في موضعه؛ لأنه إذا كان سخياً لم تتق نفسه إلى أخذ شيء من حقوق الناس والمسلمين، ولا يفضل نصيبه في القسمة

على أحد من رعيته، وقد قلنا إنه معصوم فإذا لم يكن أشجع الخلق وأعلم الخلق وأسخى الخلق وأعفّ الخلق لم يجز أن يكون إماماً[1].

ولما كان هشام قد عرف بالتفوّق، وقوة الحجة، وسرعة الجواب، واتقاد الذهن، فقد أصبح ذكره حديث الأندية، وقد تحامل عليه خصومه فنسبوه إلى ما لا يليق بشأنه، ولا يتسق مع اعتقاده (لأن الرأي العام في ذلك العهد من أنصار الخلافة المعهودة، ولا تصغي العامة للحجج إذا خالفت الرغبة) فتوجهوا إليه بتلك الطعون الشائنة، والتي لا تمت بشيء من الحقيقة كما سنوافيك بجملة منها.

شيوخه وتلامذته:

أخذ هشام علم الفقه، والحديث والتفسير، وغيرها عن الإمام الصّادق عليه السلام وكان ملازماً له منذ نشأته، وروى عنه أحاديث كثيرة في مختلف الأحكام.

وكان الإمام الصّادق يكرمه ويرفع من مقامه، وله أصل يرويه الشيخ الطوسي عن جماعة من الأصحاب.

ولما انتقل الإمام الصّادق إلى جوار ربه، أصبح هشام من خواص الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وروى الحديث وأخذ عنه علماً كثيراً.

أما تلامذته: فخلق كثير، توجد رواياتهم عنه في كتب الفقه والحديث منهم: النضر بن سويد الصيرفي الكوفي من تلامذة الإمام الكاظم، وكان من الثقات، المشهورين بالعدالة وصحة الحديث.

ونشيط بن صالح العجلي مولاهم الكوفي، عده الشيخ في رجاله من تلامذة الصّادق والكاظم.

ويونس بن عبد الرّحمٰن مولى آل يقطين، كان من أصحاب الكاظم والرضا. وله مؤلّفات كثيرة، وكان ثقة عظيم المنزلة.

وغيرهم مما لا يسع المجال لذكرهم.

مؤلفاته:

كانت لهشام بن الحكم مؤلّفات في شتى العلوم، ذكر منها ابن النديم:

(١) علل الشرائع ج١ ص٢٠٤.

١ ـ كتاب الإمامة.

٢ ـ كتاب الدلالات على حدوث الأشياء.

٣ ـ كتاب الرد على الزنادقة.

٤ ـ كتاب الرد على أصحاب الاثنين.

٥ ـ كتاب الرد على هشام الجواليقي.

٦ ـ كتاب الرد على أصحاب الطبائع.

٧ ـ كتاب الشيخ والغلام.

٨ ـ كتاب التدبير.

٩ ـ كتاب الميزان.

١٠ ـ كتاب الرد على من قال بإمامة المفضول.

١١ ـ كتاب اختلاف الناس في الإمامة.

١٢ ـ كتاب الوصية والرد على من أنكرها.

١٣ ـ كتاب في الجبر والقدر.

١٤ ـ كتاب الحكمين.

١٥ ـ كتاب الرد على المعتزلة في طلحة والزبير.

١٦ ـ كتاب القدر.

١٧ ـ كتاب الألفاظ.

اجوبته ومناظراته:

نشأ هشام تحت ظلال مدرسة أهل البيت، وتغذى منها تعاليمه القيّمة، وثقافته العالية. وامتاز بقوة شخصيته التي جعلته محطاً لأنظار علماء عصره، وقد تجرّد لنصرة مذهب أهل البيت، وناضل في الدفاع عنهم، ولم تقعد به ملاقاة عنت أو تكبد أذىً. وكان يقصده الكثير من علماء عصره الذين عُرفوا بقوة المناظرة ليناظروه ويحاجوه في مختلف العلوم. وكان هو كذلك يتعرّض لمناظرتهم ويقصد علماء الأمصار ورؤساء الحلقات العلمية للمناظرة، طلباً لإظهار الحق ودفعاً للباطل.

ونظراً لما كان يمتاز به هشام من قوة العارضة، وغزارة العلم، وسرعة

الجواب، فقد ترأس مجلس المناظرة الذي كان يعقده يحيى بن خالد البرمكي مساء كل جمعة ببغداد، وهو يضم جميع علماء الفرق، ورؤساء الأديان، وأهل الآراء، فكانوا لا يخوضون في مسألة حتى يحضر هشام فيكون قوله الفصل، وحكمه العدل. وكان الرشيد يحضر ذلك المجلس من وراء الستار ـ في بعض الأوقات ـ يستمع لتلك المناظرات ويصغي لتلك الأقوال. وأراد بعضهم أن يوقع الشر في قلب الرشيد على هشام، فألقى إليه سؤالاً في قضية مخاصمة العباس لعلي عليه السلام في ميراث النبي، وهو لا يعلم بمكان الرشيد.

قال السائل: يا أبا محمّد (وهي كنية هشام) أما علمت أن علياً نازع العباس إلى أبي بكر؟

قال هشام: نعم.

قال السائل: فأيّهما كان الظالم لصاحبه؟ فتوقف هشام وقال في نفسه: إن قلت: العباس خفت الرشيد، وإن قلت: علياً ناقضت قولي وعقيدتي.

ثم قال هشام: لم يكن فيهما ظالم.

فقال السائل: أفيختصم اثنان في أمر وهما محقان جميعاً؟

قال هشام: نعم، اختصم الملكان إلى داود وليس فيهما ظالم، وإنما أرادا أن ينبهاه. كذلك اختصم هذان إلى أبي بكر ليعلماه ظلمه. فأمسك الرجل[1] ووقع الجواب عند الرشيد موقع القبول ومال قلبه لهشام.

وله كثير من أمثال هذا من الأجوبة المسكتة، والكلمات التي كان يتفوق بها على خصومه. قال ابن النديم بعد وصفه بقوة الحجّة وسعة التفكير: وكان هشام يقول: ما رأيت مثل مخالفينا؟! عمدوا إلى من ولآه الله من سمائه فعزلوه (يعني علياً) وإلى من عزله الله من سمائه فولوه (يعني أبا بكر). ويذكر قصة مبلغ سورة براءة، ومرد أبي بكر، وإيراد علي عليه السلام بعد نزول جبرائيل عليه السلام قائلاً لرسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يؤديها عنك إلاّ أنت أو رجل منك». فرد أبا بكر وأنفذ علياً عليه السلام[2].

---

(١) العقد الفريد ج١ ص٣٦٠، وعيون الأخبار لابن قتيبة ج٢ ص١٥٠. وضحى الإسلام ج٣ ص٢٦٨.

(٢) تكملة فهرست ابن النديم ص٧.

وعلى أي حال فإن لهشام بن الحكم أجوبة ومناظرات قد احتفظ التاريخ ببعضها، وهي خير شاهد لقوة شخصيته في شتى العلوم.

ولا يسعنا الآن بسط القول فيها، بل نذكر نموذجاً منها، وإليك ثبتاً في بعضها:

١ ـ مناظرته مع الإباضية.

٢ ـ مناظرته مع أحد البراهمة.

٣ ـ مناظرته في ضرورة احتياج الناس إلى حجّة.

٤ ـ مناظرته مع جماعة من أهل الشام في مجالس متفرقة في أمور شتى.

٥ ـ مناظرته في بيان أحقية علي بالخلافة دون غيره.

٦ ـ مناظرته في أفضلية علي عليه السلام على جميع الأمة وتفنيد الاستدلال بآية (ثاني اثنين).

٧ ـ مناظرته في إثبات وجوب الموالاة لعلي عليه السلام.

٨ ـ مناظرته في لزوم طاعة الإمام الحق.

٩ ـ مناظرته مع أبي شاكر الديصاني.

١٠ ـ مناظرته مع الجاثليق.

١١ ـ مناظرته في نفي الجهة وعدم الاثنينية.

١٢ ـ مناظرته مع ابن أبي العوجاء.

١٣ ـ مناظرته مع أبي حنيفة في عدة مواطن.

١٤ ـ مناظرته مع إبراهيم بن يسار المعتزلي.

١٥ ـ مناظرته مع أبي الهذيل العلاف.

وغير ذلك كثير متفرق في الكتب التاريخية والأدبية.

نموذج من مناظراته:

تصدى هشام لمناظرة أهل الكلام، والرد على الملحدين والزنادقة، ويكاد المؤرّخون يجمعون على تفوقه في المناظرة وسرعة الجواب وقوة العارضة، وإليك نموذجاً من مناظراته:

١ ـ جاء إليه رجل ملحد فقال له: يا هشام أنا أقول بالاثنين وقد عرفت إنصافك ولست أخاف مشاغبتك.

فقام هشام ـ وهو مشغول بثوب ينشره ـ وقال: حفظك الله هل يقدر أحدهما أن يخلق شيئاً لا يستعين بصاحبه عليه؟

قال: نعم.

قال هشام: فما ترجو من اثنين؟ واحد خلق كل شيء أصح لك.

فقال الرجل: لم يكلمني أحد بهذا قبلك.

٢ ـ ودخل المؤبذ على هشام بن الحكم فقال له: يا هشام حول الدنيا شيء؟

قال: لا.

قال المؤبذ: فإن أخرجت يدي منها ثم شيء يردها؟

قال هشام: ليس ثم شيء يردك ولا شيء تخرج يدك فيه.

قال: فكيف أعرف هذا؟

قال هشام: يا مؤبذ أنا وأنت على طرف الدنيا فقلت لك: يا مؤبذ، إني لا أرى شيئاً.

فقلت لي: ولم لا ترى؟ فقلت لك: ليس ها هنا ظلام يمنعني.

قلت لي: يا هشام إني لا أرى شيئاً. فقلت لك: ولم لا ترى؟

قلت: ليس ضياء أنظر فيه.

فهل تكافأت الملتان في التناقض؟

قال: نعم. قال هشام: فإن تكافأتا في التناقض لم تتكافآ في الإبطال أن ليس شيء. فأشار المؤبذ بيده: أن أصبت.

وعاد إليه المؤبذ فقال: هما في القوة سواء. قال: فجوهرهما واحد؟

فقال المؤبذ لنفسه ـ ومن حضر يسمع ـ: إن قلت: إن جوهرهما واحد عاد في نعت واحد، وإن قلت: مختلف اختلفا أيضاً في الهمم والإرادات ولم يتفقا في الخلق، فإن أراد هذا قصيراً أراد هذا طويلاً.. ولما عجز عن الجواب التفت إليه هشام فقال: كيف لا تسلم! قال: هيهات[1]!.

---

(١) عيون الأخبار ج٥ ص١٥٢.

٣ ـ قال هشام لأبي الهذيل[١]: إذا زعمت أن الحركة تُرى فلِم لا زعمت أنها تُلمس؟

قال: لأنها ليست بجسم فيلمس، لأن اللمس إنما يقع على الأجسام.

فقال له هشام: فقل إنّها لا تُرى لأن الرؤية إنما تقع على الأجسام.

فرجع أبو الهذيل سائلاً: من أين قلت: إن الصفة ليست الموصوف ولا غيره؟

قال هشام: من قبل أنه يستحيل فعلي أنا، ويستحيل أن يكون غيري، لأن التغاير إنما أوقعه على الأجسام والأعيان القائمة بأنفسها، فلما لم يكن فعلي قائماً بنفسه، ولم يجز أن يكون فعلي أنا، وجب أنّه لا أنا ولا غيري. وعلة أخرى أنت قائل بها: زعمت يا أبا الهذيل أن الحركة ليست مماسة ولا مباينة، لأنها عندك مما لا يجوز عليه المماسة ولا المباينة، فلذلك قلت أنا: إن الصفة ليست أنا ولا غيري، وعلّتي في أنّها ليست أنا ولا غيري علتك في أنّها لا تماس ولا تباين، قال المسعودي: فانقطع أبو الهذيل ولم يرد جواباً[٢].

ذكرنا هذه المناظرة لا بقصد أن نعطي صورة عن هشام بن الحكم فيها، ولكنا نود أن ننبه على خيانة للنقل وجناية على التاريخ وتهجم على الحقائق بما ارتكبه ابن حجر العسقلاني فإنه ذكر[٣] ما هذا نصه: وقال المسعودي: قال أبو الحسن الحناط مات أبو الهذيل سنة ٢٢٧هـ وتنازع أصحابه في مولده فقال قوم سنة إحدى وثلاثين وقال قوم: سنة أربع. وذكر (أي المسعودي) مناظرة بينه وبين هشام بن الحكم الرافضي، وأن هشاماً غلبه أبو الهذيل فيها.

هذا وقد أوقفناك على نص عبارة المسعودي وأن هشاماً غلب أبا الهذيل ولم يرد جواباً. والحكم للقارىء المنصف.

٤ ـ اجتمع هشام في إحدى رحلاته إلى البصرة بعمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٤هـ وتناظرا في الإمامة، وكان عمرو يذهب إلى أن الإمامة اختيار من الأمة في

---

(١) هو محمّد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول البصري، أبو الهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٣٥هـ شيخ المعتزلة ومقدمهم ومقرر الطريقة والمناظر عليها، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل، وله آراء وأقوال وإليه تنسب الفرقة الهذيلية من المعتزلة.

(٢) مروج الذهب ج٤ ص٥٤.

(٣) لسان الميزان ج٥ ص٢١٤.

سائر الأعصار، وهشام يذهب إلى أنها نص من الله ورسوله على علي بن أبي طالب عليه السلام وعلى من يلي عصره من ولده الطاهرين.

فقال هشام لعمرو بن عبيد: أليس قد جعل الله لك عينين؟

قال: بلى.

قال: ولِمَ؟

قال: لأنظر بهما في ملكوت السمٰوات والأرض فأعتبر.

قال: فلِمَ جعل لك سمعاً؟

قال: لأسمع به التحليل والتحريم والأمر والنهي.

قال: فلِمَ جعل لك فماً؟

قال: لأذوق المطعوم، وأجيب الداعي. ثم عدد الحواس كلها.

قال: ولم جعل لك قلباً؟

قال: لتؤدي إليه الحواس ما أدركته، فيميز بين مضارها ومنافعها.

قال هشام: فكان يجوز أن يخلق الله سائر حواسك ولا يخلق لك قلباً تؤدي هذه الحواس إليه؟

قال عمرو: لا.

قال: ولِمَ؟

قال: لأن القلب باعث لهذه الحواس على ما يصلح لها.

فقال هشام: يا أبا مروان (كنية عمرو بن عبيد) إن الله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحّح لها الصحيح، ويترك هذا الخلق كله لا يقيم لهم إماماً يرجعون إليه؟! قال المسعودي: فتحيّر عمرو ولم يأت بفرق يعرف[1].

مع هشام في تهمته:

نضج علم الكلام في العصر العباسي الأول، وانتشر الخلاف وكثر الجدل وكان النزاع يملأ حلقات العلم، والمناظرات تقع في مجالس الخلفاء، وفي المساجد، وفي الشوارع.

---

(١) مروج الذهب ج٤ ص٥٥، وعلل الشرائع ص١٩٤، والطبرسي ص٢٠٠ وأمالي المرتضى وغيرها.

وكان للمعتزلة نشاط في الحركة الكلامية، فقد كانوا يبحثون عن أهم المسائل ويصطدمون مع خصومهم.

إلى جانب ذلك نراهم قد تعرّضوا لمسائل تكاد تكون سوفسطائية مثل: الإله قادر على الظلم أو لا؟ هل الجنّة مخلوقة اليوم أو لا؟ هل قدرة الله تتعلّق بالمحال أو لا؟ هل الكافر قادر على الإيمان والمؤمن قادر على الكفر؟ إلى كثير من أمثال ذلك. مع اختلافهم في الإمامة والسياسة، وكل هذه الآراء تكوّن جواً مضطرباً ونزاعاً علمياً، وقد حصل ذلك في عصرهم وبعد عصرهم.

وكان هشام بن الحكم شديد الخصومة لهم، قوي الحجة عليهم، واسع الفكر. وله شهرة في علم الكلام، لذلك ترأس مجلس المناظرة في بغداد، وكان يقصد حلقات العلم فيمتحن رؤساءها بما يفحمهم فيه، فكان انتصاره عليهم سبباً لاتهامه بما لا يليق بشأنه، ولا صلة له بالواقع. وكان الجاحظ من أشد الناس عداة لهشام، فنسب إليه تلك المفتريات هو والنظام إبراهيم بن سيار، وجاء ابن قتيبة في (مختلف الحديث) فأرسلها إرسال المسلّمات، وكذلك الخياط المعتزلي كما جاء في كتاب «الانتصار».

وليس من العسير علينا أن نستشف بواعث تلك الاتهامات الموجهة لهشام من قبل خصومه مع براءته من ذلك. ولا يصح لنا أن ننساق مع المندفعين بتيار الهوى والخاضعين للعاطفة، الذين اتهموه بتلك التهم الشنيعة بدون التفات إلى الواقع، أو استناد إلى مصدر وثيق، وإنما كانت بدافع الانتقام منه والحقد عليه لكونه يغلب خصمه بمنطقه ويقطعه ببراهينه.

كما كان الحكم على هشام بتلك التهم صادراً عن طائفية بغيضة رغبة في تشويه الحقيقة، أو اقتناع بما دبّرته عوامل عصر هشام، من الاعتداء على المفكّرين من رجال الأمة، وتطبيقه بوسائل عنيفة وحشية. ولم يخف على المتتبعين ما أحدثه ذلك التطور الفكري، من وجود خلافات مذهبية وفوارق طائفية أدت إلى خصومة عنيفة، خرجت عن حدود العلم والمنطق الصحيح، بل عن حدود العقل والاتزان. وكان الموقف السياسي يؤثّر في كفة الخلاف، ويؤيد حركة النزاع الطائفي من وراء الستار لغاية التفريق، والوصول لأمور لا تحصل إلاّ بذلك، طبقاً لقاعدة (فرّق تسد) وهي خطة سلكها الأمويون واتبعهم العباسيون، فصارت مركباً لحكام الاستبداد وأمراء الجور.

واتضح لنا مما سبق أن الموقف العدائي للشيعة قد تعدّى حدود المنطق، وبلغ إلى الهوس والتهريج، والتقوّل بالباطل، كل ذلك يرمي إلى تشويه الصورة الحقيقية، وتنفير الناس عن عقائدهم التي لا تستطيع سياسة تلك العصور أن تتركها بدون معارضة ومقاومة، وبالأخص فيما يتعلّق بالإمام.

ولنقف عند هذا الحد من التعرّض لتلك التقولات على الشيعة ونعود لبعض ما قيل عن هشام في اتهامه.

كما أننا لا نريد أن نستقصي ذلك ولا لنجهد أنفسنا في الرد على تلك التقولات، فالأمر أوضح من أن يدعونا إلى ذلك. فشخصية هشام لها مقومات واقعية، تستمد اتجاهاتها من واقع تعاليم الدين الحنيف ولا يضرّه تقولات أعدائه وإليك بعضاً منها:

١ ـ يقول عبد القاهر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩هـ في بيان مذاهب المشبهة: ومن هذا الصنف هشامية منتسبة إلى هشام بن الحكم الرافضي، الذي شبّه معبوده بالإنسان، وزعم لأجل ذلك أنه سبعة أشبار بشبر نفسه وأنه جسم ذو حدّ ونهاية، وأنّه طويل، عريض، عميق، وذو لون وطعم ورائحة وقد روي عنه أن معبوده كسبيكة الفضة المستديرة[(١)].

هذا ما يقوله صاحب الفرق بين الفرق وهو عار عن الصحة، بعيد عن الواقع، لأن آثار هشام من كتب ومناظرات تدل بوضوح على إيمانه بالله، فكتابه التوحيد وغيره من كتب الرد على الملحدين تتكفل صدق ما نقوله عنه. وكذب ما يقوله البغدادي ومن سار على نهجه الذي لا يعتمد على الحق، ولا يركن إلى الصواب بل هو محض افتراء وتقوّل بالباطل، ومجرد أوهام فاضت بها أحقاد المناوئين، فراحوا يذكرون عن هشام وطائفته بما لا يمت إلى الواقع بصلة، ونحن إذا أمعنا النظر في أسباب هذه الحملات على هشام، فإنّا نجد مصدرها المعتزلة، فإنّهم خصومه لأنه كان شديداً عليهم؛ مفنداً لآرائهم. وسنوضح موقف الجاحظ ـ وهو من كبار المعتزلة ـ من هذه المعركة، وكيف صبّ جام غضبه على هشام بأسلوبه الساخر، فكانت اتهامات هشام من صوغ الجاحظ وإنتاجه الأدبي.

---

(١) الفرق بين الفرق ص١٣٩.

٢ ـ ويقول محمَّد بن أحمد بن عبد الرَّحمٰن الملطي الشافعي المتوفى سنة ٣٧٧هـ في كتابه التنبيه:

الفرقة الثانية عشر من الإمامية هم أصحاب هشام بن الحكم، يعرفون بالهشامية، وهم الرافضة الذين رُوي فيهم الخبر أنّهم يرفضون الدين بحب علي (رضي الله عنه) فيما يزعمون، وكذب أعداء الله وأعداء رسوله وأصحابه، وإنما يحب علياً من يحب غيره، وهم أيضاً ملحدون لأن هشاماً كان ملحداً دهرياً، ثم انتقل إلى الدهرية والمانوية، ثم غلبه الإسلام فدخل في الإسلام كارهاً، فكان قوله في الإسلام بالتشبيه والرفض. وأما قوله بالإمامة فلم نعلم أن أحداً نسب إلى علي عيباً مثل هشام. . .

والله نحمده قد نزع عن علي وولده العيوب والأرجاس وطهرهم تطهيراً، وما قصد هشام التشيع ولا محبة أهل البيت، ولكن طلب بذلك هدم أركان الإسلام، والتوحيد والنبوة. انتهى.

هكذا يقول الملطي. وإذا أردنا أن نسائل هذا الشيخ عن المصدر الذي استمد منه معلوماته عن هشام، وعلى أي شيء اعتمد في كيل هذه الاتهامات، وما الذي عرفه عن هشام فاستوجب أن ينسب إليه الإلحاد؟ وهل نقل عن مصدر موثوق به. كل ذلك لم يكن، وإنما يحتج بما نقل عن هشام في قوله بإمامة عليّ عليه السلام وأن النبي ﷺ نصّ على إمامته، وأن علياً أفضل الأمة. وإليك نص ما نقله الملطي عن هشام إذ يقول: فزعم هشام أن النبي ﷺ نصّ على إمامة علي في حياته بقوله: «من كنت مولاه فعلي مولاه». وبقوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنه لا نبي بعدي» وبقوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» وبقوله: «تقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله» وأنّه ـ أي علياً ـ وصي رسول الله وخليفته في ذريته، وهو خليفته في أمّته، وأنه أفضل الأمة وأعلمهم، ولا يجوز عليه السهو ولا الغفلة ولا العجز، وأنّه معصوم، وأن الله عزّ وجل نصبه للخلق إماماً ولكن لا يهملهم، وأن المنصوص على إمامته كالمنصوص على القبلة وسائر الفرائض. . . إلخ.

هذه هي المزاعم التي استنتج منها الشيخ الملطي مقاصد هشام من التشيّع، فهشام بن الحكم في نظر هذا الشيخ إنما كان عدواً للإسلام، وأصبح ملحداً غير مؤمن، لأنه يذهب إلى إمامة علي بالنص، وأنّه خليفة رسول الله في أمّته.

ونحن لا نلوم هذا الشيخ على هذيانه وتمرّده على الواقع، ولكنا نلوم الرجل

المثقف الذي يريد أن يخدم الأمة بنشر هذه الفضائح[1] وإخراج هذه الجيف، فلا نطيل الوقوف هنا فالزمن أثمن والوقت من ذهب. وعند الله تجتمع الخصوم.

٣ ـ وقال ابن حجر[2]: هشام بن الحكم أبو محمَّد الشيباني من أهل الكوفة، وكان من كبار الرافضة ومشاهيرهم، وكان مجسماً يزعم أن ربه سبعة أشبار بشبر نفسه، ويزعم أن علم الله محدث. ذكر ذلك ابن حزم. بدون مستند ولا سند، وإنما هذا مجرد تهجم على الأبرياء كما هو شأن ابن حزم.

وعلى هذه اللغة وهذه اللهجة سار كل من تعصَّب على هشام. وقد ثبت من التحقيق أن هذه الجمل التي يسوقونها للانتقاص من هشام والحط من كرامته، إنما هي مفتعلات الجاحظ ومفترياته. لأنه كان شديد القسوة على من يخالفه. وقد عرف بالانتصار للمعتزلة، وكان هشام حرباً عليهم ناظر علماءهم وانتصر عليهم.

والجاحظ معروف بأسلوبه التهكمي اللاذع، الذي كان يتذرّع به في كثير من مهماته، فتراه عندما يأخذ بعض الأشخاص بالتصوير التهكّمي يقدّم لك الصورة الدّقيقة الرّائعة، التي تثير في نفسك كل ما يمكن من النفور والبغض.

وهو إذ يتهجّم على هشام يسلك سبيل السخرية والتهكم، فيقول: إن هشاماً مجسّم يدّعي أن إلهه سبعة أشبار بشبر نفسه، له طول وعرض، وطوله مثل عرضه إلى آخر قوله في اتهام هشام. وهذا أمر لا يحتاج إلى تحمّل مشقة في الرد، لأن خصومة الجاحظ لهشام ولأمثاله أوضح من أن تخفى.

وحيث كان الجاحظ هو بطل الخصومة لهشام، وهو مصدر تلك الاتهامات الباطلة فلا بد لكفة الميزان أن تحويه لتكشف نقصه مهما كان لاسمه صدى في ميدان الأدب ومكانة في رحابه.

الجاحظ في الميزان:

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني مولاهم المعروف بالجاحظ المتوفى سنة

(١) نشر هذا الكتاب عزة العطار مدير مكتبة نشر الثقافة الإسلامية في مصر وعلّق عليه وحقّقه محمّد زاهد الكوثري.

(٢) لسان الميزان ج٦ ص١٩٤.

٢٥٠هـ أو سنة ٢٥٥هـ تلميذ النظام، وهو من رؤساء المعتزلة ومتكلميهم، وله شهرة عظيمة في أدبه، كما أن له مؤلفات كثيرة في شتّى العلوم والفنون، اتّصل بالحكّام والأمراء والخلفاء، وتقرّب إليهم بتصنيف الكتب والرسائل، وبها يتعصّب لمذاهبهم ويعضد بها آراءهم وينقض بها آراء مخالفيهم، طلباً لجوائزهم ونيلاً لرفدهم.

ولا نريد البحث عن علمه، ولكنا نريد أن نعرف: هل كان الجاحظ رائده الحق؟ وضالته الحقيقة ينشد الوصول إليها عن طريق التثبت والتجربة والبرهان؟ أم كان له غرض خاص يطلبه ويسعى لتحقيقه. ولو كان الجاحظ يهدف إلى غاية معينة، ويلتزم فكرة، يجند لها قلمه لأبْتَعَدَ عن المتناقضات وسار في خطّ مستقيم، فكم جاء بقول وأتى بعده بما يناقضه، وكم أبدى فكرة وأتى بما ينفيها، فهو متقلّب الرأي ضعيف العقيدة.

ويتجلى لنا الأمر ـ إذا عرفنا منزلته وصدقه ـ عندما نسائل عنه علماء الرجال، ونصغي لما وصفوه به وما عرفوه عنه.

قال أبو جعفر الإسكافي، وهو من كبار المعتزلة وعلمائهم:

إن الجاحظ ليس على لسانه من دينه وعقله رقيب، وهو من دعوى الباطل غير بعيد، فمعناه نزر، وقوله لغو، ومطلبه سجع، وكلامه لعب ولهو، يقول الشيء وخلافه، ويحسن القول وضده، ليس له من نفسه واعظ، ولا لدعواه حد قائم[(١)].

وقال ابن أبي دؤاد: الجاحظ أثق بظرفه ولا أثق بدينه[(٢)].

وقال الذهبي: كان الجاحظ من أهل البدع.

وقال ثعلب: الجاحظ ليس بثقة ولا مأمون، كان كذاباً على الله وعلى رسوله وعلى الناس.

وقال أبو منصور في مقدمة تهذيب اللغة: وممن تكلم في اللغات بما حصره لسانه، وروى عن الثقات ما ليس من كلامهم الجاحظ، وكان قد أوتي بسطة في القول، وبياناً عذباً في الخطاب، ومجالاً في الفنون، غير أن أهل العلم ذمّوه وعن الصدق دفعوه[(٣)].

---

(١) شرح النهج ج٣ ص٢٦٧.
(٢) تاريخ بغداد ج١٢ ص٢١٨.
(٣) لسان الميزان ج٤ ص٣٥٦ ـ ٣٥٧.

وحكى الخطيب عنه: أنّه كان لا يصلي.

وقال الإسكندري: الجاحظ كان عثمانياً يتنصب يفضل عثمان على عليّ[1].

وقال ابن قتيبة: الجاحظ هو آخر المتكلمين وأحسنهم للحجّة استشارة، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يكبر، وتصغير العظيم حتى يصغر، ويبلغ به الاقتدار على أن يعمل الشيء ونقيضه، ويحتج للعثمانية على الرافضة، ومرةً للزيدية على العثمانية وأهل السنّة، ومرة يفضل علياً «رضي الله عنه» ومرةً يؤخره، ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين، فإذا صار إلى الردّ عليهم تجوز في الحجة، كأنّه إنما أراد تنبيههم على ما يعرفون، وتشكيك الضعفة من المسلمين وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الأحداث وشرّاب النبيذ، ويستهزىء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم إلى أن يقول: وهو مع هذا من أكذب الأمّة، وأضعفهم لحديث، وأنصرهم لباطل[2].

هذه صورة عن الجاحظ نقدمها ليقف القارىء على أثر طعنه وتهجمه، ورميه الأبرياء من الأمة بما ليس فيهم، فهو غير مستقيم ولا حدّ لتقلّبه وتلوّنه. يختلق الاتهامات، ويبتدع الأقوال، ويكذب في نقله.

إن الجاحظ موهوب في أدبه، بارع في تهكمه وسخريته، له قدرة على تصوير الأشياء التي يخترعها من نفسه، ولا يهمه أن تتناقض أقواله وتضطرب آراؤه، فتراه يؤلّف في الأمور المتناقضة، والأشياء المتفرقة.

نرى الجاحظ يميل مع الهوى ويساير الظروف، فهو إذ يخالف الواقع ويسلم قياده لهواه ـ تراه في مورد آخر يرجع إلى الحقيقة ويعطيها حقها من البيان، ويتبين لك تكلفه عند مخالفته للواقع، وانحرافه عن الصواب، وله رسائل عديدة متفرقة يستقصي فيها الحجج لنفسه، ويؤيدها بالبراهين، ويعضدها بالأدلة فيما يتصوّر من عقله، وما يوحيه الهوى، ويفرضه عليه تماجنه وعبثه.

ألّف الجاحظ رسائل في أمور متناقضة تشهد على عدم استقامته، فهو ينتصر للعثمانية، ويذهب إلى تأخير علي عليه السلام في الفضيلة، ويمدح معاوية بن أبي سفيان منتصراً له من علي عليه السلام وشيعته، ويذكر إمامة آل مروان وبني أمية بما شاء له الهوى

---

(١) تاريخ آداب اللغة ص٨٤.

(٢) مختلف الحديث لابن قتيبة ص٧١ ـ ٧٢.

والعصبية والمجون، ثم ينفلت من أسر هواه ويعود إلى رشده، ويترك الأخذ بالآراء والأهواء، فيؤلف رسالة في بني أمية، ويصفهم بما يلزمه الواقع، ويجعل معاوية ظالماً سفاكاً للدماء، جائراً في الحكم، مخالفاً لأحكام الإسلام.

ويكتب رسائل في تفضيل علي عليه السلام والانتصار له، ويقدم الحجج ويقيم الأدلة والبراهين، وهو يصرح: بأنه عاد إلى رشده، وأفلت من عقال هواه وأخذ اليقين وترك الشك والظن، وإليك نصّ رسالته التي ذهب بها إلى تفضيل علي على جميع الأمة. وقد ذكرها الاربلي في كشف الغمة.

رسالة الجاحظ في تفضيل علي عليه السلام:

قال: هذا كتاب من اعتزل الشك والظن، والدعوى والأهواء، وأخذ باليقين والثقة من طاعة الله ورسوله ﷺ، وبإجماع الأمة بعد نبيها عليه السلام مما يتضمنه الكتاب والسنّة، وترك القول بالآراء، فإنها تخطىء وتصيب، لأن الأمة أجمعت أن النبي ﷺ شاور أصحابه في الأسرى ببدر، واتفق على قبول الفداء منهم فأنزل الله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ﴾.

فقد بان لك: أن الرأي يخطىء ويصيب ولا يعطي اليقين، وإنما الحجّة لله ورسوله وما أجمعت عليه الأمّة من كتاب الله وسنّة نبيّها. ونحن لم ندرك النبي ﷺ ولا أحداً من أصحابه الذين اختلفت الأمة في أحقّهم، فنعلم أيهم أولى، ونكون معهم كما قال تعالى: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ نعلم أيهم على الباطل فنتجنبهم؟

وكما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ حتى أدركنا العلم فطلبنا معرفة الدين وأهله، وأهل الصدق والحق، فوجدنا الناس مختلفين يبرأ بعضهم من بعض، ويجمعهم في حال اختلافهم فريقان:

أحدهما، قالوا: إن النبي ﷺ مات ولم يستخلف أحداً. وجعل ذلك إلى المسلمين يختارونه، فاختاروا أبا بكر.

والآخرون، قالوا: إن النبي ﷺ استخلف علياً، فجعله إماماً للمسلمين بعده. وادعى كل فريق منهم الحق. فلما رأينا ذلك وقّفنا الفريقين لنبحث ونعلم المحق من المبطل؟

فسألناهم جميعاً: هل للناس بدّ من وال يقيم أعيادهم، ويجبي زكاتهم، ويفرقها

على مستحقيها، ويقضي بينهم، ويأخذ لضعيفهم من قويهم ويقيم حدودهم؟

فقالوا: لا بد من ذلك.

فقلنا: هل لأحد يختار أحداً فيوليه، بغير نظر من كتاب الله وسنة نبيّه؟

فقالوا: لا يجوز ذلك إلاّ بالنظر.

فسألناهم جميعاً عن الإسلام الذي أمر الله به؟

فقالوا: إنه الشهادتان، والإقرار بما جاء من عند الله، والصلاة، والصوم، والحج ـ بشرط الاستطاعة ـ والعمل بالقرآن يحل حلاله ويحرم حرامه.

فقبلنا ذلك منهم لإجماعهم.

ثم سألناهم جميعاً: هل لله خيرة من خلقه، اصطفاهم واختارهم؟.

فقالوا: نعم.

فقلنا: ما برهانكم؟

فقالوا: قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾.

فسألناهم: من الخيرة؟

فقالوا: هم المتقون.

فقلنا: ما برهانكم؟

فقالوا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

فقلنا: هل لله خيرة من المتقين؟

قالوا: نعم، المجاهدون بأموالهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾.

فقلنا: هل لله خيرة من المجاهدين؟

قالوا جميعاً: نعم السابقون من المهاجرين إلى الجهاد بدليل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾.

فقبلنا ذلك منهم لإجماعهم عليه، وعلمنا أن خيرة الله من خلقه المجاهدون السابقون إلى الجهاد.

ثم قلنا: هل لله منهم خيرة؟

قالوا: نعم.

قلنا: من هم؟

قالوا: أكثرهم عناء في الجهاد، وطعناً وضرباً وقتلاً في سبيل الله، بدليل قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

فقبلنا منهم ذلك، وعلمنا وعرفنا: أن خيرة الخيرة أكثرهم في الجهاد عناءً، وأبذلهم لنفسه في طاعة الله، وأقتلهم لعدوه.

فسألناهم عن هذين الرجلين علي بن أبي طالب وأبي بكر أيهما كان أكثر عناء في الحرب، وأحسن بلاءً في سبيل الله؟

فأجمع الفريقان على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه كان أكثر طعناً وضرباً وأشد قتالاً، وأذب عن دين الله ورسوله.

فثبت بما ذكرناه من إجماع الفريقين، ودلالة الكتاب والسنّة أن علياً أفضل.

وسألناهم ـ ثانياً ـ عن خيرته من المتقين؟

فقالوا: هم الخاشعون، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾. وقال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾.

ثم سألناهم: من الخاشعون؟

فقالوا: هم العلماء، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

ثم سألناهم جميعاً: من أعلم الناس؟

قالوا: أعلمهم بالقول، وأهداهم إلى الحق، وأحقهم أن يكون متبوعاً ولا يكون تابعاً بدليل قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فجعل الحكومة لأهل العدل.

فقبلنا ذلك منهم، وسألناهم عن أعلم الناس بالعدل من هو؟

قالوا: أدلهم عليه.

قلنا: فمن أدل الناس عليه؟

قالوا: أهداهم إلى الحق. وأحقهم أن يكون متبوعاً ولا يكون تابعاً بدليل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ فدل كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ والإجماع: أن أفضل

الأمّة بعد نبيها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لأنه إذا كان أكثرهم جهاداً كان أتقاهم، وإذا كان أتقاهم كان أخشاهم، وإذا كان أخشاهم كان أعلمهم، وإذا كان أعلمهم كان أدل على العدل، وإذا كان أدل على العدل كان أهدى الأمّة إلى الحق، وإذا كان أهدى كان أولى أن يكون متبوعاً، وإن يكون حاكماً لا تابعاً ولا محكوماً.

وأجمعت الأمّة ـ بعد نبيّها ﷺ ـ أنه خلف كتاب الله تعالى ذكره وأمرهم بالرجوع إليه إذا نابهم أمر، وإلى سنة نبيه ﷺ فيتدبرونهما ويستنبطوا منهما ما يزول به الاشتباه فإذا قرأ قارئهم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ فيقال له: اثبتها، ثم يقرأ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ وفي قراءة ابن مسعود ـ إن خيركم عند الله أتقاكم ـ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

فدلّت هذه الآية على أن المتقين هم الخاشون.

ثم يقرأ فإذا بلغ قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فيقال له: اقرأ حتى ننظر هل العلماء أفضل من غيرهم أم لا؟ فإذا بلغ قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ علم أن العلماء أفضل من غيرهم.

ثم يقال: اقرأ، فإذا بلغ إلى قوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾.

قيل: قد دلّت هذه الآية على أن الله قد اختار العلماء وفضّلهم ورفعهم درجات، وقد أجمعت الأمّة على أن العلماء من أصحاب رسول الله ﷺ الذين يؤخذ عنهم العلم كانوا أربعة: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن العباس، وابن مسعود، وزيد بن ثابت.

وقالت طائفة: عمر. فسألنا الأمّة: من أولى الناس بالتقديم إذا حضرت الصّلاة؟

فقالوا: إن النبي ﷺ قال: يؤم القوم أقرؤهم. ثم أجمعوا على أن الأربعة كانوا أقرأ من عمر، فسقط عمر.

ثم سألنا الأمة: أيّ هؤلاء الأربعة أقرأ لكتاب الله، وأفقه لدينه فاختلفوا، فأوقفناهم حتى نعلم.

ثم سألناهم: أيهم أولى بالإمامة؟

فأجمعوا على أن النبي ﷺ قال: الأئمة من قريش. فسقط ابن مسعود وزيد بن ثابت. وبقي علي بن أبي طالب وابن عباس، فسألنا:

أيهما أولى بالإمامة؟

فأجمعوا: على أن النبيّ قال: إذا كان عالمان فقيهان من قريش فأكبرهما سناً وأقدمهما هجرة. فسقط عبد الله بن العباس وبقي علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، فيكون أحق بالإمامة، لما أجمعت عليه الأمة ولدلالة الكتاب والسنّة عليه. انتهى.

ذكر هذه الرسالة[1] أبو الحسن علي بن السعيد فخر الدين عيسى بن أبي الفتح الأربلي وقال: إنها نسخت عن مجموعة للأمير أبي محمّد الحسن بن عيسى المقتدر بالله.

وبهذا نكتفي عن الحديث حول الجاحظ، كما أنّا لا نود أن نتعرّض لذكر ابن حزم وتشنيعه على هشام وقسوته في اتهامه، ويكفينا في ابن حزم ما عرف عنه من التهجم على العلماء بدون استناد حتى قيل: لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان. إذ كل واحد منهما يفتك بالمسلمين ظلماً وعدواناً.

وقد تحامل ابن حزم على الشيعة بما لا يتقبّله العقل، ولا ندري من أي مصدر استقى ذلك. فلنترك مناقشته وعلى الله حسابه.

عود على بدء:

إن دراسة حياة هشام والوقوف على آرائه وأقواله توقف القارىء النبيه على أسباب اتهامه بتلك التهم الشنيعة التي تناقض الحقيقة، ولا تتفق مع عقيدته وإيمانه.

وقد أشرنا لبعض الأسباب التي دعت خصومه لرميه في ذلك، وهناك شيء آخر وهو: أن هشاماً كان ذا شخصية قوية وفكر واسع ورأي صائب، وهو صلب في إيمانه، قوي في عقيدته، لا يتنازل عنها لسلطان، ولا يجاري الأغلبية الساحقة، ولم ينقطع يوماً ما أمام مناظر، أو يهزم في قول أو يغلب في حجاج، وكانت المعركة الفكرية تدور حول الإمامة وما شاكلها، وكان هشام يخالف في رأيه سلطان عصره،

(١) كشف الغمة ص١٢ ـ ١٣.

ويناظر على صحة قوله وصواب رأيه، فهو مع أهل البيت يناضل عن حقّهم، ويحاجج في لزوم اتباعهم، ولم يعبأ في مخالفة الأغلبية، ولم يبال بالاضطهاد المنتظر بحق كل من يخالف رأي الدولة. وإن كان رأيها هو الرأي السائد والقول المتبع.

فلذلك تكونت حول شخصيته تلك المؤامرات والدسائس، التي تتكيف بمزاج العصر وأوضاعه؛ لأن أعظم سلاح يقاوم به من يخالف آراء ملوك ذلك العصر هو الاتهام بالبدعة، والرمي بالإلحاد والزندقة.

ويكفي للاستدلال على براءة هشام من ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام: «يا هشام ما زلت مؤيداً بروح القدس». وقوله: «هذا ناصرنا بقلبه ولسانه».

وقوله: «هشام رائد حقّنا المؤيّد لصدقنا، والدافع لباطل أعدائنا، من تبعه وتبع أمره تبعنا، ومن خالفه فقد عادانا».

وقال علم الهدى السيد المرتضى: فكيف يتوهم عاقل ـ مع ما ذكرناه ـ على هشام هذا القول: بأن ربّه سبعة أشبار بشبره، وهل ادعاء ذلك عليه (رضوان الله عليه) مع اختصاصه المعلوم بالصادق، وقربه منه وأخذه عنه إلاّ قدح في أمر الصّادق، ونسبته للمشاركة في الاعتقاد الذي نحلوه هشاماً، وإلاّ كيف لم يظهر عنه من النكير عليه، والتبعيد له بما يستحقه المقدم على هذا الاعتقاد المنكر، والمذهب الشنيع[1].

ووردت في حقه روايات مدح من بقية الأئمة عليهم السلام كقول الإمام الرضا عليه السلام عندما سئل عن هشام: «رحمه الله كان عبداً ناصحاً وأوذي من قبَل أصحابه حسداً منهم له».

وقال الإمام الجواد عليه السلام: «هشام بن الحكم رحمه الله ما كان أذبّه عن هذه الناحية».

وصفوة القول: إن هشام بن الحكم كان عظيم المنزلة، رفيع المكانة ثقة في الحديث، مبرزاً في الفقه والتفسير وسائر العلوم والفنون.

والشيء الذي يلفت النظر، هو وجود بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تنص على الطعن في عقيدة هشام، وقد ذكرها الأصحاب في معرض النقد والرد، إذ هي ـ بدون شك ـ مكذوبة لا صلة لها بالصحة.

---

(١) الشافي ص١٢.

فمن ذلك: ما أشاعوه عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال في هشام: إنه ضال مضل، شرك في دم أبي الحسن الكاظم عليه السلام ولما شاعت هذه المقالة قدم جماعة من الشيعة إلى الإمام الرضا عليه السلام يسألونه عن ذلك القول، وعن مبلغه من الصحة لكي يتبرأوا من هشام إن صح ذلك.

فتقدم إليه موسى بن المشرقي يسأله عن ذلك القول، وهل يتولّون هشاماً أم يتبرأون منه؟

فأجابه الإمام بلزوم موالاة هشام، وقال له: «تولوه، إذا قلت لك فاعمل به ولا تريد أن تغالب به، أخرج الآن فقل لهم ـ أي الشيعة ـ: قد أمرني بولاية هشام».

وقال عليه السلام «رحمه الله ـ أي هشاماً ـ كان عبداً ناصحاً وأوذي من قِبل أصحابه حسداً منهم له»(١).

ومنهم: عن محمّد بن زياد قال: سمعت يونس بن ظبيان يقول: دخلت على أبي عبد الله الصّادق عليه السلام فقلت له: إن هشام بن الحكم يقول قولاً عظيماً إلاّ أني أختصر لك منه حرفاً: يزعم أن الله جسم لأن الأشياء شيئان: جسم وفعل فلا يجوز أن يكون الصانع بمعنى الفعل، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل.

فقال أبو عبد الله: «ويله، أما علم أن الجسم محدود متناه، والقدرة محدودة متناهية، فإذا احتمل الحد احتمل الزيادة والنقصان، وإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً».

هكذا ادعى يونس بن ظبيان أنّه سمع ذلك في حقّ هشام. ويونس، هذا هو ممن يكيد لهشام ويبغضه، لأن يونس من الغالين الذين شوّهوا سمعة المذهب، وهو من أصحاب أبي الخطاب. قال ابن الغضائري: يونس بن ظبيان كوفي غال كذاب، وضّاع للحديث. روى عن أبي عبد الله، لا يلتفت إلى حديثه.

وقال النجاشي: إنه مولى ضعيف جداً لا يلتفت إلى ما رواه، كل كتبه تخليط، وقد ورد لعنه على لسان الأئمة.

وعلى أي حال، فإن هشام بن الحكم من المعذّبين في الله، وهو أجلّ من أن

(١) جامع الرواة ج٢ ص٢١٣.

تنسب إليه تلك الأمور، وأعظم منزلة من كل ما يرمونه به، فلا يلتفت إلى تلك الخرافات والأوهام والدسائس التي حيكت حول شخصيته.

هل تؤاخذ الأمة بقول الفرد؟!

ولم يكف خصوم هشام صوغ تلك العبارات واختراع تلك الحكايات في ذمّه والحط من كرامته، حتى تجاوزوا الحدّ في ذلك، ونسبوا تلك الآراء المفتعلة لمجموع الشيعة، وهذا من الخطأ الفاحش.

ولو سلمنا جدلاً أن هشام بن الحكم كان يعتقد بما نقل عنه (والعياذ بالله) فهل يصح لهم أن يجعلوا ذلك الرأي لمجموع الشيعة، وأن تلك العقائد المكذوبة هي من عقائد الشيعة؟ وهل يصح لهم مؤاخذة الكل بجريمة الجزء؟ وهذا أمر لا يبرّره منطق سليم، لأن جميع الهيئات والطوائف في المجتمع الإنساني لا تخلو من أفراد يحطّون من قدرها ويسيؤون إلى سمعتها!!

وقد استساغوا ذلك في حق الشيعة بنسبة الآراء الفردية لمجموع الأمة، وهذا كثير لا حصر له ولسنا بصدده الآن.

وكما قلنا: إذا سلمنا جدلاً بصحة ما يقولونه في هشام (وليس لقولهم نصيب من الصحّة) فهل يصح أن يجعل ذلك الرأي لمجموع الشيعة؟

وقد سلك هذه الطريقة الملتوية وارتكب هذا الخطأ الفاحش جماعة من القدماء وبعض المتأخرين ولم يكتفوا بالافتراء على هشام بل جعلوا ذلك لمجموع الشيعة إفكاً وزوراً. وعلى سبيل المثال نذكر ما يقوله الخياط المعتزلي في كتابه «الانتصار»، بعد أن ذكر تلك المفتريات عن هشام بن الحكم منتصراً لأشياخه، ومقلداً للجاحظ في إفكه وبهتانه.

قال: الرافضة تعتقد أن ربها ذو هيئة وصورة، يتحرك ويسكن، ويزول وينتقل، وأنّه غير عالم فعلم. إلى أن يقول: هذا توحيد الرافضة بأسرها إلاّ نفرٌ منهم يسيرٌ صحبوا المعتزلة واعتقدوا التوحيد، فنفتهم الرافضة عنهم وتبرأوا منهم.

أما جملتهم ومشايخهم مثل هشام بن سالم، وشيطان الطاق، وعلي بن ميثم، وهشام بن الحكم، والسكاك، فقولهم ما حكيت عنهم.

ثم يقول: الرافضة تقول: إن ربّها جسم ذو هيئة وصورة، يتحرك ويسكن ويزول وينتقل.

فهل على وجه الأرض رافضي إلاّ وهو يقول: إن الله صورة.

ويروي في ذلك الروايات ويحتج فيه بالأحاديث عن أئمتهم إلاّ من صحب المعتزلة منهم. إلى آخر أقواله وتقولاته في كتاب «الانتصار» في مواطن متعددة.

ولا أريد مناقشة هذا الافتراء والدسّ، وهذه الأقوال التي لا ربط لها بالحقيقة، ولا مساس لها بالواقع، ولكن من الحق أن نؤاخذه بهذا الانحراف، ونحاسبه على هذا الشذوذ في سلوك تلك الخطة الملتوية، وقد سار على هذا كثير ممن كتب عن الشيعة بدون تفكير وتدبّر، وذكروا فرقاً للشيعة بأسماء من ينسبون إليهم رأياً فردياً، وهو افتراء وتقول بالباطل.

ولئن صح هذا السلوك واستساغوا هذه اللغة فيصح للشيعة عندئذ هذا الاستعمال فيقيسوا مجموع الأمة بالفرد وينسبوا الآراء الفردية للجميع.

وقد اشتهر جماعة من علماء المذاهب الأخرى والمقدمين عندهم بشذوذ في الآراء وفساد في الاعتقاد وإليك منهم:

١ ـ شهاب الدين يحيى بن حبش، فقد اشتهر عنه أنه كان زنديقاً، وله عقيدة الانحلال والتعطيل، وله أشياء منكرة، وكان بارعاً في علم الكلام مناظراً محجاجاً[١].

٢ ـ محمّد بن جمال الباجريقي الشافعي المعروف بالشمس، وقد عرف بالزندقة والإلحاد، وله أتباع ينسبون إليه، ويعكفون على ما كان يعكف عليه[٢].

٣ ـ الرفيع الجيلي الشافعي قاضي القضاة بدمشق المتوفى سنة ٦٤٢هـ.

قال ابن شهبة في تاريخه: إنه كان فاسد العقيدة دهرياً مستهزءاً بأمور الشريعة.

ويقول ابن العماد: إنه سار سيرة فاسدة. مع قلة دين وفساد عقيدة، مع استعمال المنكرات وحضور صلاة الجمعة سكراناً[٣].

٤ ـ عبد اللّه بن محمّد بن عبد الرزّاق الحربوي بن الخوام الشافعي، فإنه نسب الوزير رشيد الدولة إلى الربوبية بتقريضه تفسيره حتى قال شاعر وقته:

يا حزب إبليس ألا فابشروا   إن فتى الخوام قد أسلما

---

(١) شذرات الذهب ج٤ ص٢٩، ومرآة الجنات ج٣ ص٤٣٧.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج١٤ ص١٤.

(٣) شذرات الذهب ج٥ ص٢١٤.

وكان فيما قال في كفره إن رشيد الدين رب السما
وقال لي شيخ خبير به ما أسلم الشيخ بل استسلما[(١)]

فهل يصح هنا أن نؤاخذ الأمة بهذا الرأي الفردي، كما أخذوا الشيعة بما ينسب للحسن بن هاني الشاعر الأندلسي في مدحه للمعز بقوله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهّار

وقالوا: إن الشيعة بلغوا في الغلو درجة بعيدة، ومثلوا له بقول الحسن بن هاني[(٢)].

ومما يؤسف له أن هذا القول صدر من مثقف من أبناء عصر النور، فما قولنا في أبناء العصور المظلمة. وهذا القول هو أحد الدواعي التي ألجأتنا إلى إعطاء هذه الصورة وإثبات هذا العرض.

٥ ـ محمّد بن العلي أبو عبد الله الحكيم الترمذي الشافعي.

كان يفضل الأولياء على الأنبياء، وقد ألّف كتاباً في ذلك سمّاه ختم الولاية، وقال: إن للأولياء خاتماً كما لأن للأنبياء خاتماً، وإنه يفضل الولاية على النبوة محتجاً بالحديث: «الأولياء يغبطهم النبيون والشهداء». قال: لو لم يكونوا أفضل منهم لم يغبطوهم[(٣)].

٦ ـ الركن عبد السّلام بن وهب بن عبد القادر الجيلاني الحنبلي المتوفى سنة ٦١١هـ.

كان داعية للانحلال وحُكم بكفره، وكان يخاطب النجوم ويقول لزحل: أيها الكوكب الدزي المضيء المنير أنت تدبر الأفلاك وتحيي وتميت وأنت إلهنا. وله في حق المريخ من هذا الجنس[(٤)].

٧ ـ صدقة بن الحسين البغدادي الحنبلي المتوفى سنة ٢٦٧هـ.

كان بارعاً في فقههم وأصولهم، والمقدم في عصره عندهم، مع سوء اعتقاده

(١) الدرر الكامنة ج٢ ص٢٩٢.

(٢) أثر التشيع في الأدب العربي لمحمّد سيد كيلاني ص٨٩.

(٣) طبقات الشافعية ج٢ ص٢٠.

(٤) شذرات الذهب ج٥ ص٤٥.

وفساد رأيه، ورداءة مذهبه. قال ابن الجوزي في المنتظم: إنه يعترض على القدرة، وأورد له من الشعر ما يدل على سوء معتقده. كقوله:

لا تـوطّـنـهـا فـلـيـسـت بـمـقـام   واجـتـنـبـهـا فـهـي دار الانـتـقـام

أتـراهـا صـنـعـة مـن صـانـع   أم تـراهـا رمـيـة مـن غـيـر رام

وقد وضعوا فيه مناماً بعد موته عندما سئل عن حاله فقال: غفر لي بتميرات تصدقت بها على أرملة[1].

٨ ـ إسماعيل بن علي الملقب بفخر الدين الفقيه الحنبلي المتوفى سنة ٦١٦هـ.

كان من المشهورين في علم الكلام، قرأ المنطق والفلسفة على ابن مرقيس الطبيب النصراني، وكان يتردد عليه إلى بيعة النصارى، وصنّف كتاباً سمّاه نواميس الأنبياء، يُذكر أنّهم كانوا حكماء، كهرمس، وأرسطاطاليس وكان متسامحاً في دينه متلاعباً به، إلى آخر ما نقل عنه من الآراء الفاسدة، والأمور القبيحة[2].

كان أحد العلماء العارفين بالمذهب، ونسبت إليه أشياء قبيحة وآراء فاسدة[3].

٩ ـ إبراهيم الملقب بشمس الدين الحنبلي المتوفى سنة ٦١٠هـ.

١٠ ـ إبراهيم بن يوسف أبو إسحاق الأوسي المالكي المتوفى سنة ٦١١هـ المعروف بابن المرأة، كان فقيهاً مالكياً غلب عليه علم الكلام. ذكره ابن حبان في زنادقة أهل الأندلس[4].

١١ ـ أبو معن النميري من كبار المعتزلة، قال ابن قتيبة: ومن المشهور عنه أنّه رأى قوماً يتعادون إلى الجمعة لخوفهم فوت الصلاة فقال: انظروا إلى البقر أنظروا إلى الحمُر. ثم قال لرجل من إخوانه: أنظر ما صنع هذا العربي بالناس[5]؟

١٢ ـ ومحمّد اللوشي الغرناطي المتوفى سنة ٧٧٦هـ فقد نسب إلى الزندقة

(١) لسان الميزان ج٣ ص١٨٦.
(٢) شذرات الذهب ج٥ ص٤١.
(٣) شذرات الذهب ج٥ ص٤٠.
(٤) لسان الميزان ج١ ص١٢٧.
(٥) نفس المصدر ج٢ ص٨٣.

والإلحاد والانحلال، والخروج عن الدين، وانتقاص النبي ﷺ إلى غير ذلك مما اتصف به[1].

وغير هؤلاء ممن يطول المقام ببسط القول فيهم، كالشيخ نجم الدين بن خلكان[2] وإسماعيل بن عبد الله الرعيني، والفخر الرازي المؤرخ الكبير والمفسّر الشهير[3] وأبو حيان التوحيدي الشافعي وغيرهم ممن رمي بالإلحاد والزندقة وسوء العقيدة ونسبت إليه آراء فاسدة.

وإذا أردنا أن نتوسع في الموضوع ونرجع إلى أعيان المذاهب ومن عليهم مدار أحكامها فالأمر أفظع.

فهذا محمّد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩هـ، وهو عماد المذهب الحنفي وقوامه، وعليه مدار أحكامه، لما قام به من التأليف ونشر المذهب، وإذا صح التعبير فنقول: هو إمام المذهب الحنفي الثاني، ومع هذا فقد رموه بالإرجاء وغيره، كما حكي عن أحمد بن حنبل أنّه قال فيه: إنه مرجىء.

وقد ردّ شريك القاضي شهادته ووقعت بينه وبين أبي يوسف منافرة، فكان أبو يوسف يقول: محمّد بن الحسن جهمي. إلى غير ذلك من الأقوال فيه[4] ومن أعيان الحنفية: بشر بن غياث المريسي المتوفى سنة ٢١٨هـ فقد وصفوه: بأنه ضال مبتدع، ونص أبو زرعة على زندقته، وقال الأزدي: إنه على غير طريقة الإسلام. وإنه كان ينكر عذاب القبر وسؤال الملكين، والصراط والميزان، إلى آخر ما روي عنه من الأقوال المنكرة، والآراء الفاسدة[5].

وكذلك محمّد بن شجاع الثلجي المتوفى سنة ٢٦٧هـ. من فقهاء الحنفية، وله الرياسة في وقته، وقد نسب إلى البدعة.

سئل عنه أحمد بن حنبل فقال: مبتدع صاحب هوى. وقال الساجي: إن

---

(١) شذرات الذهب ج٦ ص٤٦.
(٢) انظر مرآة الجنان ج٤ ص٢٤٢.
(٣) شذرات الذهب ج٥ ص٢١.
(٤) وفيات الأعيان ج٣ ص٢٢٤، ولسان الميزان ج٥ ص١٢١.
(٥) لسان الميزان ج٢ ص٣٠، والفوائد البهية في تراجم الحنفية ص٥٤، والفرق بين الفرق للبغدادي ص١٢٤.

محمّد بن شجاع كان كذاباً، احتال في إبطال حديث رسول الله ﷺ نصرةً لأبي حنيفة.

وقال ابن الجوزي: كان يضع الحديث في التشبيه وينسبه لأهل الحديث[1].

هذا عرض تاريخي موجز لجماعة اتهموا بسوء الاعتقاد فتحمّلوا مسؤوليته دون غيرهم، ويوسعنا أن نذكر من الشخصيات العظيمة التي نسبوا إليها آراء فاسدة ومذاهب ذميمة، كأبي الحسن الأشعري[2] إمام أهل السنّة، وشيخ الطريقة في الاعتقاد فقد وصفوه بالبدعة والضلالة، وأنّه أنكر نبوة محمّد ﷺ بعد موته، كما أنكر عذاب الله للعصاة والكفّار، وأنّه تعالى لا يجازي المطيعين على إيمانهم وطاعتهم. وكان يقول: بتكفير العوام[3] إلى غير ذلك مما نسبوه له، وما اتهموه فيه. وكذلك ابن تيمية وابن القيم الجوزية وتاج الدين السبكي وغيرهم.

إننا لا نستعمل تلك الطريقة الملتوية، وذلك القياس المعكوس، فلا نقيس الأمّة بالفرد، ولا نؤاخذ السليم بالسقيم، بل نتثبت في الحكم على الشخصيات الإسلامية، فلا نتسّرع بقبول الاتهام ما لم يتضح الأمر، لأننا قد عرفنا أثر ذلك التطور الذي حدث في البلاد الإسلامية، فهو عامل من أخطر العوامل التي لعبت دورها في الحياة العقلية، في تلك العصور الماضية.

إلى جانب ذلك يلزمنا أن لا نهمل عوامل السياسة، والتهالك على السيادة في تفريق صفوف الأمة، وجعلها أحزاباً وفرقاً!.

والغرض: أن قياس الأمّة بالفرد من الأمور التي لا يقرّها المنطق. وقد سلكوا في اتهام الشيعة طرقاً غير صحيحة، وكالوا لهم الذم جزافاً، بدون تمحيص وتدبّر، ولعبوا في التاريخ وخاضوا فيه بالباطل ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ولا نريد أن نقابلهم بالمثل ولا نقيم معهم الحساب، بل نتركهم ليوم الحساب، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فهم مسؤولون أمام الله عن بذور التفرقة

---

(١) الفوائد البهية ص١٧٢.

(٢) أبو الحسن الأشعري: هو علي بن إسماعيل يرجع نسبه إلى أبي موسى الأشعري، توفي سنة ٣٢٤هـ كان معتزلياً ويعد من كبارهم ومتكلميهم، ثم رجع عن الاعتزال وألّف كتباً في العقائد، فأصبح شيخ طريقة أغلب أهل السنة وعليه المدار في الاعتقاد.

(٣) طبقات الشافعية ج٢ ص٢٧٨ ـ ٢٨٥.

التي زرعوها في حقول التاريخ فاجتنت ثمرتها الأجيال؛ فكان من أثر تسمم الثمرة أن يهاجمنا في كل آونة بعض من أبناء هذا العصر ممن أخذ التقليد بعنقه. فسيّره طوع إرادته، وحرمه حرية التفكير، ولكنا لا نود مقابلته بل نمرّ على ما نقرأ له مرّ الكرام، داعين الله له بالشفاء من الأمراض العقلية.

وصفوة القول: إن تلك العصور التي عظم فيها التطاحن قد كدّرت صفو الأخوة، وغيّرت مجرى الواقع. والشيء الذي نود أن ننبّه عليه في ختام هذا العرض: هو أنّه لما لم يكن الاتهام مبنياً على أساس وثيق، وقاعدة بيّنة، كثر الخلط والخبط، ولم يفرقوا بين السليم والسقيم، والمتهم والبريء. وإليك أمثلةً من ذلك:

١ ـ إن اسم الجعفرية أصبح علماً لأتباع جعفر بن محمّد الصّادق، وبه يعرفون.

وتوجد هناك فرقتان من المعتزلة عرفتا بالجعفرية:

الأولى: أتباع جعفر بن حرب الثقفي المتوفى سنة ٢٢٤هـ.

والثانية: أتباع جعفر بن مبشر الهمداني المتوفى سنة ٢٢٦هـ، وكلاهما من المعتزلة ولهما آراء وأقوال شاذة اشتهرت عنهما، وتناقلها الناس، وتبعهما على ذلك خلق عُرفوا بالجعفرية، فجاء من لا يفرق بين الحق والباطل ولا يعرف إلاّ اتباع هواه، فخلط هذين الفرقتين مع الفرقة الجعفرية الشيعية، ونسب تلك الأقوال الشاذة إليهم بدون تفكير وتدبر!!

٢ ـ قولهم في المفضل بن عمر أنّه كان يلعب بالحمام، وإنه من أصحاب أَبي الخطاب، مع العلم بأن المفضل هو أجلّ من ذلك، ولكنهم لم يفرّقوا بينه وبين المفضّل بن عمر الصيرفي، الذي كان من الخطابية ومن المخالفين لقواعد الإسلام، فخلطوا بين هذا وذاك ولم يهتدوا للتفرقة، ولعل أكثرهم يتعمد ذلك للوقيعة في المفضل، لأنه شيعي من خواص الإمام الصّادق.

٣ ـ إن من المعتزلة فرقة تعرف بالهشامية، وهم أصحاب هشام بن عمر الفوطي، وكان معاصراً لهشام بن الحكم، وقد ذهب إلى أشياء منكرة.

وأنت عند مراجعتك لما اتهم به هشام من تلك الأمور المفتعلة تجد أكثرها من أقوال الفوطي، لأنهم خلطوا في ذلك، ولم يفرّقوا بين هشام بن الحكم وبين هشام بن عمرو الفوطي!!

وكثير من هذا الخبط والخلط، مما يطول بنا الحديث عنه والحديث شجون.

ولنعد إلى الحديث عن هشام ومكانته، ونرى من الخير أن نذكر هنا وصية الإمام موسى بن جعفر له، فهي من غرر الوصايا، وجوامع الكلم، وعلى ضوئها نأخذ صورة عن منزلة هشام.

وقد اقتطفنا منها قليلاً، وهي طويلة:

وصية الإمام موسى له:

قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام موصياً هشاماً:

«يا هشام، من أراد الغنى بلا مال، وراحة القلب من الحسد، والسّلامة في الدين، فليتضرع إلى الله في مسألته بأن يكمل له عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه، ومن قنع بما يكفيه استغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبداً.

يا هشام، من صدق لسانه زكى عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن برّه بإخوانه وأهله مُدّ في عمره.

يا هشام، لا تمنحوا الجهال الحكمة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.

يا هشام، كما تركوا لكم الحكمة؛ فاتركوا لهم الدنيا.

يا هشام، إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: لا يجلس في صدر المجلس إلاّ رجل فيه ثلاث خصال: يجيب إذا سئل، وينطق إذا عجز القوم عن الكلام، ويشير بالرأي الذي فيه صلاح أهله. فمن لم يكن فيه شيء منهن فجلس فهو أحمق.

يا هشام، إن العاقل لا يحدّث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يعد ما لا يقدر عليه، ولا يرجو ما يعنّف برجائه، ولا يتقدّم على ما يخاف لعجز عنه.

يا هشام، رحم الله من استحيا من الله حق الحياء فحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وذكر الموت والبلى، وعلم أن الجنّة محفوفة بالمكاره، والنار محفوفة بالشهوات.

يا هشام، من كفّ نفسه عن أعراض الناس أقال الله عثرته يوم القيامة، ومن كفّ غضبه عن الناس كفّ الله عنه غضبه يوم القيامة.

يا هشام، تعلّم من العلم ما جهلت، وعلّم الجاهل مما علمت. عظّم العالم لعلمه، وصغّر الجاهل لجهله ولا تطرده، ولكن قرّبه وعلّمه.

يا هشام، عليك بالرفق، فإن الرفق يمن، والخرق شؤم، إن الرفق والبر وحسن الخلق يعمر الديار، ويزيد في الأعمار.

يا هشام، إن مثل الدنيا مثل الحية مسّها ليّن، وفي جوفها السم القاتل. يحذرها الرجال ذوو العقول، ويهوي إليها الصبيان بأيديهم.

يا هشام، إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصَّفا، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع، ولا تعمر في قلب المتكبر الجبّار، لأن الله جعل التواضع آلة العقل، وجعل التكبر آلة الجهل، ألم تعلم أن من شمخ إلى السقف شجّه، ومن خفض رأسه استظل تحته وأكنه، وكذلك من لم يتواضع لله خفضه الله ومن تواضع لله رفعه.

يا هشام، إياك ومخالطة الناس والأنس بهم، إلاّ أن تجد بهم عاقلاً ومأموناً فآنس به، واهرب من سائرهم كهربك من سباع الضارية. وينبغي للعاقل إذا عمل عملاً أن يستحي من الله. وإذا مرّ بك أمران لا تدري أيهما خير وأصوب فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه، فإن كثير الصواب في مخالفة هواك.

يا هشام، من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه. وما أوتي عبد علماً فازداد من الدنيا حباً إلاّ ازداد من الله بعداً، وازداد الله عليه غضباً.

يا هشام، إياك والطمع، وعليك باليأس مما في أيدي الناس، وأمت الطمع من المخلوقين، فإن الطمع مفتاح للذل واختلاس العقل، واختلاق المروءات وتدنيس العرض، والذهاب بالعلم. وعليك بالاعتصام بربك والتوكّل عليه، وجاهد نفسك لتردّها عن هواها، فإنّه واجب عليك كجهاد عدوك».

قال هشام: قلت أي الأعداء أوجبهم مجاهدة؟

قال عليه السلام: «أقربهم إليك، وأعداهم لك، وأضرّهم بك، وأعظمهم لك عداوة، وأخفاهم لك شخصاً ـ مع دنوه منك...».

يا هشام، من أكرمه الله بثلاث فقد لطف له: عقل يكفيه مؤنة هواه، وعلم يكفيه مؤنة جهله، وغنى يكفيه مخافة الفقر.

يا هشام، احذر هذه الدنيا واحذر أهلها، فإن الناس فيها على أربعة أصناف: رجل متردي معانق لهواه، ومتعلّم مقرىء كلما ازداد علماً ازداد كبراً يستعلي بقراءته وعلمه على من هو دونه، وعابد جاهل يستصغر من هو دونه في عبادته، يحب أن

يعظّم ويوقّر، وذو بصيرة ولا يقدر على القيام بما يعرفه فهو محزون مغموم بذلك، فهو أمثل أهل زمانه وأوجبهم عقلاً».

ثم ذكر عليه السلام العقل وجنده والجهل وجنده. وتركنا ذلك اختصاراً.

وخلاصة القول: إن هشام بن الحكم قد عز بولائه لأهل البيت، وناظر جميع أهل الفرق في التوحيد والإمامة، وضحّى براحته في سبيل مبدئه، وبذل أقصى الجهد من أجل إصلاح العقيدة والقضاء على البدعة. وكان يستمد تعاليمه من ينبوع أهل بيت النبوة، هداة الخلق، وأئمة العدل. وقد لقي العنت من حساده ومنافسيه، وكان عرضة للخطر من قبل سلطان عصره حتى أصبح مشرداً عن البلاد. وقد طلبه هارون الرشيد أشد الطلب حتى أدركه الموت بالكوفة مختفياً، وأوصى أن يحمل في جوف الليل، ويدفن بالكناسة، وتكتب رقعة على قبره: هذا قبر هشام بن الحكم ـ الذي طلبه أمير المؤمنين ـ مات حتف أنفه.

وبلغ هارون الرشيد ذلك فقال: الحمد لله الذي كفانا أمره. وكان هارون قد أخذ به خلقاً كثيراً من تلامذته وأصحابه، ومنهم إخوانه. فأفرج عنهم بعد موته وأطلقهم.

لقد كان هشام من المفكّرين المصلحين، الذين خدموا الأمّة بإخلاص النية وصدق العزيمة ورجاحة الرأي. وله القدح المعلى في نصرة مذهب أهل البيت، وإنك عندما تتبع آثاره الخالدة تجده يلتفت إلى النوادر من الفروع. وإلى الغوامض من المسائل، وله كلمات خالدة ذكرها العلماء في مختلف المواضيع: في التوحيد، والنبوة والإمامة، وقد ضاق المجال عن استقصائها.

وقد كانت لي رغبة شديدة في إحياء مآثره والإحاطة بدراسة شخصيته دراسة وافية غير أني لما وجدت الشيخ محمّد حسين المظفر قد كتب رسالة كبيرة قيمة فيه. تركت الميدان لفارس الحلبة. فرحم الله هشاماً، لقد أوذي في سبيل نصرة الحق، وكان من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

وهنا ينتهي حديثنا عن أصحاب الإمام الصّادق، ولم نذكر كثيراً منهم طلباً للاختصار. وستأتي الإشارة إلى الأعيان منهم كهشام بن سالم الجواليقي، وهشام بن الأحمر، وهشام بن المثنى الرازي، وغيرهم، وبالله نستعين ومنه نستمد التوفيق.

---

(١) سورة الأنعام آية ٨٢.

الفرق الإسلامية
في عصر الإمام الصّادق

تمهيد:

لعل خير ما يعكس لنا أهمية الدور الذي لعبته مدرسة الإمام الصّادق عليه السلام والنشاط العلمي الذي قامت به في ذلك العصر، واتساع نفوذها وكثرة روادها هو ما نجده في انتماء رجال من أهل العلم إليها، وحضورهم عنده لانتهال العلم، وأخذ الأحكام، فقد كانت مدرسته عليه السلام جامعة إسلامية، يؤمّها المسلمون من مختلف الطوائف، وشتّى الفرق، فهي مدار الحركة الفكرية، والمحور الذي تدور عليه آمال الموجهين وحملة الدعوة الإسلامية، وقد أثرت تعاليمه عليه السلام في كثير من أولئك الرجال فاعتدلوا في آرائهم.

والإمام أبو حنيفة الذي عُرف بكثرة القياس وطرح أكثر الأحاديث؛ يكشف لنا أهمية هذه المدرسة وعظيم أثرها إذ يقول: (لولا السنتان لهلك النعمان) والسنّتان هما اللتان حضر بهما عند الإمام الصّادق وكان الإمام الصّادق يشتد عليه في كثرة القياس ويناظره في ذلك، وبهذا يتضح أن أبا حنيفة في أخذه أقوال الإمام الصّادق، واتباع أمره يعد نفسه في نجاة من الهلكة، وربما يكون ذلك في تركه القياس، وأخذه بالأحاديث الصحيحة.

ومهما يكن من أمر فقد حدّثنا التاريخ عن أولئك الرجال الذين ينتمون لفرق مختلفة قد حضروا عند الإمام الصّادق وناظرهم، وفنّد كثيراً من آرائهم، وقد كان عليه السلام يتحرّىٰ من برز منهم مخافة اشتداد خطره واستفحال أمره، فإن لم يأته كبقية أصحاب الفرق والمعتقدات والأفكار الذين يقصدونه للكلام والمناظرة، وجّه أصحابه وأوصاهم بطريقة الوعظ وبمنهج الكلام الذي يختص بهذا الجانب، فيمضي

الأصحاب في حلقاتهم ودروسهم على تلك الطريقة وذلك المنهج، ومن قصده من أصحاب الفرق والأقوال بعد سماعه ما تتحدّث به الركبان وتلهج به الألسن من علم الإمام الصّادق يَلْقَ من الإمام حججاً ساطعة وبراهين واضحة لا يملك معها الإنسان إلاّ أن يثوب إلى رشده أو يكابر ويعاند. ومن الضروري التعرّف على أهم تلك الفرق الإسلامية، التي نشأت في عصره أو سبقته بدون إحاطة أو إسهاب في البيان.

الخوارج:

نشأت هذه الفرقة بصفّين، عندما طلب معاوية التحكيم من الإمام علي عليه السلام، وهي خدعة حربية استعملها معاوية ودلّه عليها ابن العاص عندما أحس بالهزيمة ولمس الضعف في جيشه، وعرف تفوق علي بحقّه، وإن الحق مع علي عليه السلام وقد انضم لجيشه رجال مخلصون قد رسخ الإيمان في قلوبهم.

أراد معاوية أن يوقع الشك، ويحدث الفرقة في صفوف جيش الإمام عليه السلام وقد وقع ما أراد معاوية، فقد نفرت طائفة لم يترسخ الإيمان في قلوبهم ومرقوا من الدِّين، ولم يقبلوا تحكيم أحد في كتاب الله ورأوا أن التحكيم خطأ، لأن حكم الله في الأمر واضح جلي، والتحكيم يتضمن شك كل فريق من المحاربين أيهما المحق؟ وليس يصح هذا الشك، لأنهم وقتلاهم إنما حاربوا وهم مؤمنون.

هذه المعاني المختلجة في نفوسهم صاغها أحدهم في الجملة الآتية: (لا حكم إلاّ لله) فسرت هذه الجملة سير البرق إلى من يعتنق هذا الرأي، وتجاوبتها الأنحاء فأصبحت شعار هذه الطائفة (الخوارج).

وعلى أي حال، فقد تكونت هذه الفرقة من عناصر مختلفة، وظهرت منهم مخالفة علي عليه السلام وتجرأوا على مقامه. ونسبوا إليه ما لا يليق بشأنه.

وقد نظموا أمورهم، وقاموا بأمر لم يكن وليد وقته وإنما هو أمر مدبّر من ذي قبل، فكانت حرب النهروان، وقضى الإمام علي عليه السلام على زعمائهم.

واستمروا على اعتقادهم وحماسهم، وكانوا يظنّون أنهم أشد فرق المسلمين دفاعاً عنه، وأظهروا غضبهم على كثير من الخلفاء، واستعملوا ألفاظاً معسولة في الدعوة إلى مبادئهم، وتظاهروا بالهدف إلى العدل والمساواة، ولكنهم تلبسوا بالظلم إلى أبعد حد، وأباحوا دماء جميع المسلمين، وخضبوا البلاد الإسلامية بالدماء.

وكانوا يتهورون في دعوتهم، ويتشدّدون في عقيدتهم، ويرون إباحة دماء المسلمين الذين يخالفون عقيدتهم، فالمسلم المخالف لهم لا عصمة لدمه.

ومن طريف أخبارهم: أنهم أصابوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني، وقالوا: احفظوا ذمّة نبيّكم فيه. وقتلوا عبد اللّه بن خباب وفي عنقه مصحف، وقالوا: إن الّذي في عنقك يأمرنا أن نقتلك، فقرّبوه إلى شاطىء النهر فذبحوه ويقروا بطن زوجته.

وساوموا نصرانياً نخلة له، فقال: هي لكم. فقالوا: والله ما كنا لنأخذها إلاّ بثمن، فقال لهم النصراني: ما أعجب هذا؟ أتقتلون مثل عبد اللّه بن خباب ولا تقبلوا منا ثمن نخلة؟!.

آراء الخوارج وفرقهم:

اتفق جمهور الخوارج على نظريتين:

١ ـ نظرية الخلافة: وهي أن الخليفة لا يكون إلاّ بانتخاب حر صحيح من المسلمين، ويستمر الخليفة ما قام بالعدل مبتعداً عن الزيغ والخطأ، فإن حاد وجب عزله أو قتله.

٢ ـ إن العمل جزء من الإيمان، وليس الإيمان الاعتقاد وحده، فمن لم يعمل بفروض الدين وارتكب الكبائر فهو عندهم كافر. ولم يفرّقوا بين ذنب يرتكب عن قصد وسوء نية وخطأ في الرأي والاجتهاد يؤدي إلى مخالفة الصواب، وبهذا كفّروا جميع فرق المسلمين وأباحوا دماءهم.

والخوارج لا يرون أن يختص الخليفة ببيت من العرب، فليست الخلافة في قريش عندهم، وليست لعربي دون أعجمي، والجميع فيها سواء، بل يفضّلون أن يكون الخليفة من غير قريش ليسهل عزله أو قتله.

وبهذا استمالوا العناصر غير العربية، وجلبوا الموالي إليهم، لأن آراء الخوارج من شأنها أن تجعل للموالي الحق في أن يكونوا خلفاء، لذلك التحق بهم عدد كثير من الموالي، ولولا تعصب بعض الخوارج عليهم لازداد عددهم، لأن هذه الآراء تفسح المجال لتدخّل الدخلاء في الإسلام، ومع ذلك فقد تكونت فرقة منهم انضمت لفرقة الخوارج، وهم اليزيدية أتباع يزيد بن أنيسة الخارجي، وادّعوا أن الله سبحانه وتعالى

يبعث رسولاً من العجم ينزل عليه كتاباً ينسخ الشريعة المحمدية. وكذلك تكونت فرقة الميمونية، أتباع ميمون العجردي؛ وأظهروا عقائد المجوس، فكانوا يبيحون نكاح بنات الأولاد وبنات أولاد الأخوة، وبنات أولاد الأخوات.

فرق الخوارج:

ذُكر للخوارج فرق كثيرة قاربت العشرين فرقة على حسب اختلافهم في الآراء، وأهم فرقهم المشهورة:

الأَزارقة:

وهم أتباع نافع بن الأزرق، وكان من أكبر فقهائهم. وقد كفّر جميع المسلمين. وقال: إنّه لا يحل لأحد من أصحابه أن يجيبوا أحداً من غيرهم إذا دعاهم إلى الصّلاة، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم، ولا أن يتزوجوا منهم، ولا يتوارث الخارجي وغيره، وهم مثل كفار العرب وعبدة الأوثان، لا يقبل منهم إلاّ الإسلام أو السيف. ودارهم دار حرب، ويحل قتل أطفالهم ونسائهم، ولا تحل التقية، واستحل الغدر بمن خالفه.

وأسقطوا الرجم عن الزاني إذ ليس له في القرآن ذكر، كما أسقطوا حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال، مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء. وقالوا: يجوز أن يبعث الله نبياً يعلم أنه يكفر بعد نبوته، أو كان كافراً قبل البعثة.

وكان أصحاب نافع من أقوى فرق الخوارج وأكثرهم عدداً، خرجوا من البصرة معه، فتغلبوا على الأهواز وما وراءها من بلدان فارس وكرمان، وقتلوا عمال تلك النواحي واشتدت شوكتهم ووقعت حروب بينهم وبين الدولة الأموية بما لا يسع المجال لذكرها.

النجدات:

وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفي. وهم الذين خالفوا نافعاً وانفردوا بتعاليم منها: إن المخطىء بعد أن يجتهد معذور. وإن الدين أمران: معرفة الله، ومعرفة رسوله، وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهله إلى أن تقوم عليهم الحجّة، ومن أدّاه اجتهاده إلى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور. وأن من كذب كذبة صغيرة

أو كبيرة أو نظر نظرة وأصرّ عليهما فهو مشرك. ومن شرب الخمر أو زنا أو سرق غير مصرّ على ذلك، فهو مسلم. ويوجبون قتل من خالفهم من المسلمين.

الأباضية:

وهم أتباع عبد الله بن أباض التميمي، الذي خرج أيام مروان الحمار. آخر ملوك بني أمية، ولا يزال أتباعه إلى اليوم في المغرب، ولعلّهم هم البقية من جميع فرق الخوارج الكثيرة. فقد انقرضت تلك الفرق ولم تبق منهم باقية إلاَّ الأباضية، وهم على عقيدتهم في تكفير جميع المسلمين، ويعتذرون عنهم بأنّهم يذهبون إلى تكفيرهم لا على سبيل الشرك، بل يرون أنّهم كفّار نعمة.

ومن جملة آرائهم: أن دماء مخالفيهم حرام في السرّ لا في العلانية، ودارهم دار توحيد. وإنهم ليسوا مشركين ولا مؤمنين، ويسمونهم كفاراً، ولا يحل من غنائمهم في الحرب إلاَّ الخيل والسّلاح.

ولا يزال الأباضيون يؤلّفون جماعات عديدة في أفريقية الشمالية، ويوجد فريق آخر بزنجبار بأفريقية الشرقية. أما الوطن الأصلي للأباضيين الذين يهاجرون منه إلى أفريقية الشرقية فهو بلاد عُمان العربية.

وقد حاولوا في السنوات الأخيرة أن يستنهضوا همّتهم ونشاطهم وأن يستعيدوا الشعور بكيانهم. وتقسم الأباضية ذاتها إلى ثلاثة شعب هي: الحفصية، والحارثية، واليزيدية.

الصُفرية:

وهم أتباع زياد بن الأصفر، وقولهم في الجملة كقول الأزارقة في أن أصحاب الذنوب مشركون، لكنهم أقل تطرّفاً منهم، وأشد من غيرهم؛ فلا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم، والأزارقة يرون ذلك. واختلفوا في مرتكب الكبائر فلم يتفقوا على إشراكه، فمنهم من يرى أن ما كان من الأعمال عليه حد واقع لا يسمى صاحبه إلاَّ بالاسم الموضوع له، وسمّاه الله به كالسارق والزاني، وما ليس فيه حد فمرتكبه كافر.

ومن زعماء الصفرية: أبو هلال مرداس، الذي خرج أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة، على عبيد الله بن زياد.

ومنهم: عمران بن حطان، وقد انتخبه الخوارج إماماً لهم، وهو القائل يمدح عبد الرَّحمٰن بن ملجم المرادي:

يا ضربة من منيب ما أراد بها إلاّ ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا

وأجابه جماعة، منهم عبد القادر البغدادي المتوفى ٤٢٩هـ:

يا ضربة من كفور ما استفاد بها إلاّ الجزاء بما يصليه نيرانا
إني لألعنه ديناً وألعن من يرجو له أبداً عفواً وغفرانا
ذاك الشقي لأشقى الناس كلهم أخفهم عند رب الناس ميزانا

وعمران بن حطان قد خرّج حديثه البخاري ووثّقه، وهذا من مزايا صحيحه وامتيازه.

العجاردة:

وهم أتباع عبد الكريم بن عجرد، وكانت العجاردة مفترقة عشرة فرق، ثم افترقوا فرقاً كثيرة، منها ما يتعلّق بالقدر وقدرة العبد، ومنها ما يتعلّق بأطفال المخالفين. وقد فارقوا الأزارقة في عدم استحلال أموال مخالفيهم.

هذا جملة القول في أهم الخوارج. وقد بلغت فرقهم عشرين في العدد وكل فرقة تخالف الأخرى في تعاليمها وآرائها، إلاّ أنّهم اتفقوا على النظريتين السابقتين. كما أجمعوا على تكفير: علي، وعثمان، وأصحاب الجمل، والحكمين، ومن رضي بالتحكيم، وصوّب الحكمين أو أحدهما، واعترفوا بصحة خلافة الشيخين. وبهذا قد اكتسبوا الرضا من أكثر من كتب عن الفرق، فإنّك تجد اللهجة خفيفة في التعبير عنهم، وربما وصفوا زعماءهم بالزهد والصلاح.

فالخوارج ـ مع عظيم إجرامهم ـ لا يوصفون بما وصف به الشيعة، فهم يكفّرون علياً، ولكن لا يعد هذا جرماً في نظر المتطرّفين، فلم يعبروا عنهم كما يعبّرون عن الشيعة بتلك العبارات القبيحة، والألفاظ المستهجنة، وهم يوالون علياً ويذهبون لأحقيته بالخلافة.

وبدون شك أن حركة الخوارج كانت من أكبر العوامل التي هدّدت المسلمين

بأخطار شتّى، وقد اتخذوا تكفير جميع فرق المسلمين وسيلة لنشاط دعوتهم، لأن ارتكاب الجرائم ـ بمبرر ـ يميل إليه أهل الشغب والأهواء.

ولو لم يكن من مبدئهم وجوب الخروج على أئمة الجور لاستخدمتهم سياسة تلك العصور، ولعزّزت جانبهم للفتك بمن يريدون الفتك به.

ولكن ذلك الاعتقاد ـ وهو وجوب الخروج ـ هو الذي أوجب أن تقاومهم السلطة، فتدور رحى الحرب معهم مدة من الزّمن، وقد سجّل التاريخ عنها حوادث كثيرة.

المعتزلة:

يطول بنا الحَديث عن المعتزلة إن أردنا بيان فرقها، وأسباب افتراقها وآرائها السياسية والدينية، ونشاطها الفكري، وحياتها العقلية. وقد اختلف في تاريخ نشأتها، وتسميتها بهذا الاسم، فهل كانت على عهد الصحابة أم على عهد الحسن البصري، لاعتزال واصل بن طاء حلقة درس الحسن؟ إلى كثير من الأبحاث حول هذه الفرقة. ونحن نكتفي بإلمامة موجزة لبيان الغرض في ذلك:

الأكثر على أن الاعتزال نشأ في البصرة، عندما اعتزل واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٣١هـ حلقة درس الحسن البصري، لمخالفته إياه في مسألة مرتكب الكبيرة، فقال واصل: أنا أقول إن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن بإطلاق، بل هو في منزلة بين المنزلتين، أي أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، لكنه فاسق، والفاسق يستحق النار بفسقه.

فرق المعتزلة:

قال الخياط في كتاب «الانتصار»: ليس يستحق أحد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد، والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا كمنت في الإنسان هذه الأصول الخمس فهو معتزلي.

وافترقت المعتزلة إلى فرق كثيرة، منهم:

١ ـ الواصلية وهم أصحاب واصل بن عطاء.

٢ ـ الهذيلية وهم أصحاب أبي الهذيل العلاف.

٣ ـ النظامية وهم أصحاب النظام إبراهيم بن سيار.

٤ ـ الحائطية وهم أصحاب أحمد بن حائط.

٥ ـ البشرية وهم أصحاب بشر بن المعتمر.

٦ ـ المعمرية وهم أصحاب معمر بن عباد السلمي.

٧ ـ المزدارية وهم أصحاب عيسى، المكنى بأبي موسى الملقب بالمزدار.

٨ ـ الثمامية وهم أصحاب ثمامة بن أشرس النميري.

٩ ـ الهشامية وهم أصحاب هشام بن عمر الفوطي.

١٠ ـ الجاحظية وهم أصحاب عمرو بن بحر الجاحظ.

١١ ـ الخياطية وهم أصحاب أَبي الحسين الخياط.

١٢ ـ الجبائية وهم أصحاب أَبي علي محمّد بن عبد الوهاب الجبائي.

وغيرهم.

كما هو مذكور في كتب أهل المقالات والفرق، وقد ذكروا لهم أقوالاً شاذة وآراء فاسدة. وقد ألف الأشعري كتاباً في تكفير النظام.

ويتفق المعتزلة في الاعتقاد بأن الله تعالى قديم، والقدم أخص وصف لذاته ونفوا الصفات القديمة أصلاً فقالوا: هو عالم لذاته، قادر لذاته، حي لذاته، لا بعلم وقدرة وحياة، هي صفات قديمة ومعاني قائمة به لأنه لو شاركته الصفات في القدم ـ الذي هو أخص الوصف ـ لشاركته في الإلهية.

واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق في محل. وهو حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه، فأينما وجد في المحل عرض فقد فني في الحال.

واتفقوا على أن الإرادة، والسمع، والبصر، ليست معاني قائمة بذاتها.

واتفقوا على أن العبد قادر خالق لأفعاله ـ خيرها وشرّها ـ مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة، والربّ منزّه أن يضاف إليه شر وظلم.

واتفقوا على أن الحكيم لا يفعل إلاّ الصلاح والخير، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد. وأما الأصلح واللطف ففي وجوبه خلاف عندهم وسموا هذا النمط عدلاً.

واتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب

والعوض والتفضّل، ومعنًى آخر وراء الثواب. وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار، ويكون عقابه أخف من عقاب الكفّار. وسموا هذا النمط عدلاً ووعيداً.

واتفقوا على أصول المعرفة وشكر النعمة واجبان قبل ورود السمع. والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل، واعتناق الحسن واجب، واجتناب القبيح واجب كذلك. وورود التكاليف ألطاف للباري تعالى، أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء امتحاناً واختباراً.

واختلفوا في الإمامة والقول فيها ـ نصاً واختباراً ـ كما هو بيّن في مقالاتهم وآراء فرقهم.

ولسنا هنا بصدد الاشتغال بتفصيل أقوالهم وآرائهم. وإن أهم غرض هو معرفتهم بموجز من القول، لأن المعتزلة كونوا جواً فكرياً، وبرعوا في علم الكلام، وكانت الخصومة شديدة بينهم وبين رجال الشيعة، الذين اشتهروا في هذا العلم؛ كما أن النزاع بينهم وبين الأشاعرة والمجسمة بلغ إلى درجة الخروج عن حدود المقبول، وتعدى إلى التهريج والاعتداء، كما هو المذكور في تاريخ عصورهم.

المرجئة وفرقهم:

وهم الذين يبالغون في إثبات الوعد، وهم عكس المعتزلة المبالغين في إثبات الوعيد، فهم يرجون المغفرة والثواب لأهل المعاصي، ويرجئون حكم أصحاب الكبائر إلى الآخرة، فلا يحكمون عليهم بكفر ولا فسق ويقولون: إن الإيمان إنما هو التصديق بالقلب واللسان فحسب، وإنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فالإيمان عندهم منفصل عن العمل. ومنهم من زعم أن الإيمان اعتقاد بالقلب؛ وإن أعلن الكفر بلسانه، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية، وعبد الصليب، وأعلن التثليث في دار الإسلام، ومات على ذلك، فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله، وهو ولي الله، ومن أهل الجنة، ذكر ذلك ابن حزم.

وكلمة الإرجاء على معنيين:

أحدهما: التأخير مثل قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أمهله وأخّره.

ثانيهما: إعطاء الرجاء. أما إطلاق اسم ـ المرجئة ـ على الجماعة بالمعنى الأول

فصحيح. لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد. وأما بالمعنى الثاني فظاهر، لأنهم كانوا يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

ولقد اضطربت الأقوال حول نشأة هذه الفرقة وبدء تكوينها، ولم نستطع بهذه العجالة تحديد ذلك على وجه التحقيق.

ويرى النوبختي أن نشأتها لما قتل علي عليه السلام بسيف ابن ملجم المرادي واتفقت بقية الناكثين والقاسطين وتبعة الدنيا على معاوية فسموا المرجئة، وزعموا أن أهل القبلة كلهم مؤمنون بإقرارهم الظاهر بالإيمان، ويرجون لهم جميعاً المغفرة[1].

وفي الواقع أن هذه الفرقة سياسية، ولكنها أخذت تخلط السياسة بأصول الدين، فهم أعوان الأمراء والمنضوون تحت لوائهم، يؤيّدون دولتهم مع ارتكابهم المحارم، وانغماسهم بالجرائم.

وقد فسح هذا المبدأ للمفسدين والمستهترين طريق الوصول إلى غاياتهم بما يرضي نهمهم، وقد اتخذوه ذريعة لمآثمهم، ومبرراً لأعمالهم القبيحة، وساتراً لأغراضهم الفاسدة.

وقد أيّدوا ـ برأيهم هذا ـ خلفاء الدولة الأموية، تأييداً عملياً، فهم في الواقع قد فتحوا باب الجرأة على ارتكاب المحارم، وأيّدوا المجرمين، ووازروا الظلمة، وهوّنوا الخطب في العقاب والمؤاخذة.

وافترقت المرجئة إلى خمسة فرق ـ كل فرقة تضلّل أختها ـ وهم:

(١) اليونسية ـ أصحاب يونس النميري.

(٢) العبيدية ـ أصحاب عبيد بن مهران الكوفي.

(٣) الغسانية ـ أصحاب غسان الكوفي، وهو غير غسان بن أبان المحدث كما توهم بعضهم، فإن غسان بن أبان يماني وهذا كوفي.

(٤) الثوبانية ـ أصحاب أبي ثوبان المرجىء.

(٥) التومنية ـ أصحاب أبي معاذ التومني.

---

(١) فرق الشيعة ص٦.

ولكل فرقة أقوال وآراء، ذكرها المؤلفون في الفرق، ولا يتسع المجال بهذا العرض للتعرّض لذكرها بأكثر من هذا.

الجبرية:

الجبر هو نفي الفعل عن العبد حقيقة، وإضافته إلى الربّ حقيقة، وزعمت هذه الفرقة: أن الإنسان لا يخلق أفعاله، وليس له مما ينسب إليه من الأفعال شيء، فقوام هذا المذهب نفي الفعل عن العبد، وإضافته إلى الرب تعالى.

وقد اختلفت الأقوال في نشأة هذه الفرقة، ومن هو القائل بها أولاً؟ فقيل: إن أول من قال بهذه النحلة رجل يهودي، وقيل الجعد بن درهم، أخذها عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت بن أعصم اليهودي. فهي على هذا فكرة يهودية، وقد ضل بها خلق كثير.

وبهذا المذهب لا يكون للإنسان كسب ولا إرادة ولا اختيار ولا تصرّف، فيما وهبه الله من نعمة العقل على حسبه، فكيف يكون له مطمع في ثواب أو خوف من عقاب؟

وقد انتشر هذا المبدأ ومبدأ المفوضة: وهم الذين يقولون بتفويض الأفعال إلى المخلوقين، ورفعوا عنها قدرة الله وقضائه، عكس المجبرة الذين أسندوا الأفعال إليه تعالى، وأنّه أجبر الناس على فعل المعاصي، وأجبرهم على فعل الطاعات، وأن أفعالهم في الحقيقة أفعاله، فكان أثر هاتين الفكرتين سيئاً في المجتمع الإسلامي، تصدّى الإمام الصّادق عليه السلام للردّ على هؤلاء، وأعلن العقيدة الصحيحة والرأي السديد في التوسّط بين الأمرين فقال عليه السلام:

«لا جبر ولا تفويض ولكن أمرٌ بين أمرين» وخلاصته: أن أفعالنا من جهة، هي أفعالنا وتحت قدرتنا واختيارنا؛ ومن جهة أخرى، هي مقدورة لله تعالى، وداخلة في سلطانه، فلم يجبرنا على أفعالنا حتى يكون قد ظلمنا في عقابنا على المعاصي، لأن لنا القدرة على الاختيار فيما نفعل، ولم يفوض إلينا خلق أفعالنا حتى يكون قد أخرجها عن سلطانه، بل له الخلق والأمر وهو قادر على كل شيء ومحيط بالعباد.

واعتقاد الشيعة في ذلك وسط بين المذهبين، كما بيّنه أئمة الهدى، ودلّت عليه كلمة الإِمام الصّادق المشهورة.

وبالجملة، فإن عصر الإمام الصّادق عليه السلام كان عصر مجادلات ونظر، واتسعت فيه دائرة الخلاف، وقد رأينا موقفه في مقابلتهم، وردع أهل الآراء الفاسدة والعقائد المخالفة للإسلام. وقام خلّص أصحابه وأعيانهم بقسط وافر من ذلك النضال دفاعاً عن تعاليم الإسلام الصحيحة. وقد مرّت بعض مناظراتهم، كما احتفظ التاريخ بقليل منها.

وقبل أن نتخطى موضوع البحث عن الفرق، يلزمنا ذكر ما يتصل بالبحث، وتوضيح بعض الأمور التي لها صلة بالموضوع:

نسبة أبي حنيفة إلى المرجئة:

ذكر أصحاب المقالات: أن أبا حنيفة كان من المرجئة، وحكى عنه غسان الكوفي الذي تنسب إليه الفرقة الغسانية: أنّه كان على مذهبه، ويعدّه من المرجئة، لأن أبا حنيفة كان يذهب إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

قال وكيع: سمعت الثوري يقول: نحن المؤمنون، وأهل القبلة عندنا مؤمنون في المناكحات، والمواريث، والصّلاة، والإقرار. ولنا ذنوب ولا ندري ما حالنا عند الله؟. قال وكيع: وقال أبو حنيفة: من قال بقول سفيان هذا فهو عندنا شاك، نحن المؤمنون هنا وعند الله حقاً. قال وكيع: ونحن نقول بقول سفيان. وقول أبي حنيفة عندنا جرأة.

وعلى هذا فإن أبا حنيفة كان يذهب إلى أن العمل ليس جزءاً من الإيمان. وخالفه كثير من الفقهاء والمحدّثين، الذين يرون أن العمل يدخل في تكوين الإيمان، من حيث تأثيره فيه بالزيادة والنقصان، وأبو حنيفة يرى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وهو يعتبر أن إيمان أهل السماء وأهل الأرض واحدٌ كما تنص على ذلك الرواية عنه أنّه قال:

(إيمان أهل الأرض وأهل السماوات واحد، وإيمان الأولين والآخرين والأنبياء واحد، لأنّا كلّنا آمنا بالله وحده، وصدّقناه، والفرائض كثيرة مختلفة، وكذا الكفر واحد، وصفات الكفار كثيرة وكلنا آمنا بما آمن به الرسل إلخ. . .)(١).

---

(١) انظر مناقب أبي حنيفة لكردري ج٢ ص١٤١.

ويروى عنه غير هذا، كما حدَّث أبو إسحاق الفزاري أنّه سمع أبا حنيفة يقول: إيمان أبي بكر الصدِّيق وإيمان إبليس واحد، قال إبليس: يا رب. وقال أبو بكر الصدِّيق: يا ربِّ.

قال أبو إسحاق: ومن كان من المرجئة ثم لم يقل هذا انكسر عليه قوله(١). وكذلك يحكى عنه في مساواة إيمان آدم وإيمان إبليس.

ويقول محمَّد بن عمرو: سمعت أبا مسهر يقول: كان أبو حنيفة رأس المرجئة.

وقال عمر بن سعيد بن سالم: سمعت جدي يقول: قلت لأَبي يوسف: أكان أبو حنيفة مرجئاً؟ قال: نعم.

قلت: أكان جهمياً؟ قال: نعم.

قلت: فأين أنت منه؟

قال: إنما كان أبو حنيفة مدرساً، فما كان من قوله حسناً قبلناه وما كان قبيحاً تركناه. ومثله عن محمَّد بن سعيد عن أبيه(٢).

وكانت هذه التهمة وسيلة للتشنيع على أبي حنيفة، وناله كثير من العلماء بالطعن وخالفوه في مسألة الإيمان. وقد جاء عن أبي حنيفة(٣) ما يبين الفرق بين مذهبه ومذهب المرجئة الذين أهملوا ناحية العمل بالطاعة، وعدم إدخالها بالحساب.

تقولات حول فرق الشيعة:

إن موضوع البحث عن الفرق وتعدّدها موضوع مضطرب شائك، ولا يستطيع الكاتب أن يجزم بكل ما نقله أهل المقالات، لأنّهم قد أفرطوا إلى أبعد حد، وتقبّلوا كل نسبة على حسب مفهومها السطحي بدون تثبت وتأمّل. وقد تعصّب أكثرهم على من يخالف رأيه، فينقل عنهم آراءً على غير وجهها ولا يصح قول مخالف ما لم يؤيّد بثبوته من غير طريقه. وإن هناك آراءً فردية نسبوها لجماعة لا وجود لها، وقد تعصّب أكثر الكتّاب في الموضوع، فنقلوا المذاهب على خلاف الواقع، وأكثرهم قد افتعل فرقاً خيالية كقولهم في عدّ فرق الشيعة: إن منهم الهشامية وهم فرقتان: فرقة تنسب

(١) تاريخ بغداد ج١٣ ص٣٧٣.
(٢) المصدر السابق ص٣٧٥.
(٣) الفقه الأكبر ص٩.

إلى هشام بن الحكم والأخرى تنسب إلى هشام بن سالم الجواليقي، ونسبوا إليهما آراءً خاطئة، وأقوالاً كاذبة.

وكذلك جعلوا من فرق الشيعة فرق: الزرارية، نسبة إلى زرارة بن أعين. والشيطانية نسبة إلى شيطان الطاق، وهو محمّد بن النعمان المعروف عند الشيعة بمؤمن الطاق. وكل هذا من الأمور المرتجلة التي لا حقيقة لها، وإنما هي افتعال وتقول بالباطل، إذ الشيعة تستمد من مصدر واحد، وتستقي من ينبوع أهل البيت. وقد شق على مرضى النفوس أن يبلغ رجال الشيعة درجات رفيعة في العلم بلغت حد التميز الذي يجتذب النفوس ويستميل العقول، حتى كان لكثير منهم جماعة يعرفون باسم من يتصدرهم كجماعة زرارة، وهم في مطارحاتهم ومناظراتهم يشبعون المسائل بحثاً واستقصاءاً، وتدور ما بين جماعة فلان من أصحاب الإمام الصّادق وجماعة فلان من أصحاب الإمام أيضاً مناقشات هي على نمط ما يجري بين حلقات العلماء اليوم فاختلقوا من المتعلمين على زرارة والمتصلين به فرقة. فزرارة ـ كما مر ـ من مشاهير رجال الشيعة وهو من أصحاب الإمام الباقر والإمام الصّادق، وهو شيخ الأصحاب في زمانه ومتقدمهم قارئاً فقيهاً متكلماً، ومؤمن الطاق من أحب الناس إلى الإمام الصّادق كما قال عليه السلام أحياءً وأمواتاً. ومؤمن الطاق المتميّز بقوة التفكير وعمق النظرة ووضوح الحجة وسعة العلم، كان له دوره البارز في التوجيه والإرشاد وعقد المناظرات وخوض المجادلات، فكان حاضر الجواب حاذقاً في فن الكلام، شد إليه الأنظار؛ فنسبوا إليه فرقة «الشيطانية» والتسمية تكشف عن القصد والغرض من وراء اختراع هذه الفرق واختلاقها، فأُطلق لقب «شيطان الطاق» من قبل أعداء الشيعة وخصوم مؤمن الطاق ـ كما مرّ بنا ـ.

وأوضح شيء من هذا الشذوذ هو إجماعهم على وجود فرقة السبائية المنسوبة لعبد الله بن سبأ، تلك الشخصية الموهومة، وما قضيته إلاّ أسطورة سياسية.

والشيء الذي يلزمنا التنبيه عليه: هو متابعة بعض المؤلّفين لبعض، فإن الشهرستاني قد كتب في الفرق، معتمداً على عبد القاهر البغدادي، والإسفرائيني كان تلميذ عبد القاهر وصهره، وألفاظهما في التعبير واحدة. أما ابن حزم فذاك فارس ميدان التعصّب والتقوّل على الشيعة.

قال الرازي في مناظرته مع أهل ما وراء النهر، في المسألة العاشرة عند ذكره

لكتاب «الملل والنحل»: إنه كتاب حكى فيه مذاهب أهل العالم بزعمه، إلاّ أنه غير معتمد عليه، لأنه نقل المذاهب الإسلامية من الكتاب المسمى «بالفرق بين الفرق» من تصانيف الأستاذ أبي منصور البغدادي، وهذا الأستاذ كان شديد التعصب على المخالفين، ولا يكاد ينقل مذهبهم على الصحيح. ثم إن الشهرستاني نقل مذاهب الفرق الإسلامية من ذلك الكتاب، فلهذا السبب وقع الخلل فيه.

وعلى أي حال، فإن موضوع الفرق يحتاج إلى دقة في البحث وتأمل في سير الحوادث والتطور. وهو إلى الآن لم ينل دراسة عادلة، وخوضاً دقيقاً وغربلة وتمحيصاً، فإن حصر الفرق الإسلامية بهذا العدد غير وجيه، والحديث الذي يشير إلى تعددها فيه مناقشة من حيث الدلالة والسند، لاختلاف ألفاظه وإن كثرت طرقه. وعسى أن ينال هذا الموضوع دراسة دقيقة لطرح الزوائد، وإيضاح دسائس المغرضين، وبيان خطأ المؤرخين في ذلك.

ومن الغريب أن ينفرد الدكتور أحمد أمين في كتابه «ظهر الإسلام» يعدّ القرامطة والزنج من فرق الشيعة! بل لا غرابة في تجاوز الدكتور وتحدّيه للشيعة، فقد برهن على تعصّبه الشائن وتجاهله المعيب، إذ هو كما يقول الشاعر:

إن يسمعوا الخير أخفوه وإن علموا ... شراً أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

ويؤلمني أن أقول: إن الدكتور يفقد توازنه عندما يتناول الشيعة بالبحث كما يتجرّد عن جميع معلوماته، ويتخلّى عن تفكيره وإدراكه، وكان بوسعه أن يدقّق ويبحث كأديب أو مؤرخ، ولكنه مقلد للمستشرقين الذين يتقوّلون على المسلمين ويثيرون الفتن ويفتعلون الأقاويل.

كما كان بوسعه أن يتثبت وأن يقارن بين عقائد الشيعة وعقائد القرامطة والزنوج، إن وجد مصدراً يذكر ذلك.

وكم كان يسعدنا لو أثبت ما أدّى إليه الحوار معه، ودوّن ما أقره على نفسه من تعصّب وتحامل، وأنجز ما وعد من إعلان العدول عن أقواله.

حول فرق الغلاة:

تركنا البحث هنا عن فرق الغلاة، اكتفاءً بما مرّ في الأجزاء السابقة، وسيأتي في الجزء الرابع مزيد بيان. وقد ذكرنا هناك أن حركتهم كانت ضد الإسلام بصورة عامة،

وضد أهل البيت بصورة خاصة، لأن انتحالهم حب أهل البيت يفتح لخصومهم طريق الوقيعة في أتباعهم، وقد وقع ذلك بدون التفات إلى التباين بين تعاليم أهل البيت وبين ما يذهب إليه الغلاة.

وكما قلت سابقاً: إن الكوفة قد عرفت بالتشيّع، وهي تموج بعناصر مختلفة لكثرة المهاجرين إليها، من المدن المجاورة لها والنائية عنها، وذلك عند اتساع نشاط الحركة العلمية، فكانت جماعة المتدخلين في الإسلام يبثون سمومهم في ذلك المجتمع، ويتناقل الناس مع مساعدة السلطة تلك الأخبار، فتنسب للكوفة، والكوفة شيعية.

وقد أعلن الإمام الصّادق براءته منهم، وجهر بلعنهم، وقد دخل الكوفة عدة مرات ينشر تعاليم الإسلام الصحيحة، ويظهر للملأ فساد عقائد الغلاة، وواصل كفاحه في مقابلتهم حتى بادت جماعتهم بتلك السرعة، وقبرها في مقرّها الأخير، ولم يبق لهم أثر إلاّ في بطون الكتب.

وأبت نفوس من يضربون على وتر سياسة تلك العصور، ويترنحون بنغمات الهجاء والطعن على شيعة أهل البيت، إلاّ أن يقيموا تلك الرمم البالية، ويخرجوا تلك الجيف النتنة لتكون عاراً على الإسلام، ومنظراً بشعاً، يدل عليه من لا يود إظهار محاسنه للأجيال انتصاراً لدينهم، وانتقاماً لأسلافهم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾.

الإمام الصَّادق
وصَايَاه وَحِكمه

تمهيد:

للإمام الصَّادق عليه السلام من التراث الفكري والفكر الخوالد، والآراء والحكم والمواعظ ما لا يحيط بها الإحصاء، أو تنالها يد الحصر والتتبع إلاَّ بجهد ومشقة. وهي على كثرتها قليلة بالنسبة إليه، لما قام به من التوجيه والإرشاد والهداية في عصر ضلّت به قافلة الأمّة، وحدا بالركب غير سائقه، فقام عليه السلام بما يجب عليه أن يقوم به من الإرشاد والدعوة إِلى الصلاح والإصلاح، يلتمس كل ما يجد فيه طريقاً للوصول إِلى الغاية التي ينشدها، فهو حيث كان وأينما حل لا ينفك عن تأدية رسالته في الإرشاد إِلى الهدى، والدعوة إِلى الحق، ويحاول أن ينتصر المجتمع الإسلامي على ميوله ونزعاته، ويهذّب نفوسهم من دنس الرذائل ويحملهم على اعتناق الفضائل، ويودّ للمسلم أن يكون كما أراد الله له وجاء به النبي ﷺ.

فهو حريص على هداية الأمة، يواصل جهاده في مكافحة الأوضاع الشاذة، ويعلن آراءه ضد نظام ذلك الحكم الجائر. ولقد كان عليه السلام دوماً صوت إصلاح داوي، وصرخة إرشاد عالية، يدعو الناس إِلى التمسّك بمبادىء الإسلام وهدى القرآن، وقد عرف أوضاع الأمة، وما أصابها من تفكك وهوان، ورأى أن الداء وراء تحكم النزعات في النفوس، وأن الدواء هو التزام مبادىء الدين وأحكامه، وأن رسوخ العقيدة في القلوب قوة لأفراد الأمة، ومنعة لكيان المجتمع من تحكم النزعات، وانتشار الرذيلة، كما أنّها سلاح فاتك يرهب ولاة الجور، فكان عليه السلام لا تفوته فرصة دون أن يدعو إِلى اعتناق الفضائل ومحاربة الرذيلة، ليصبح المجتمع متماسكاً يستطيع أن يوحد كلمته في مقابلة الظالمين، الذين استبدوا بالحكم، وابتعدوا عن الإسلام.

وإن الثورة الدموية ضدهم لا تعود على المجتمع إلاّ بالضرر، لأنّهم أناس عرفوا بالقسوة وسوء الانتقام، ولهم أعوان يشدّون أزرهم، وأنصار يدافعون دونهم، فالإمام الصّادق عليه السلام كان يهتم بإصلاح الوضع الداخلي. فكان يرسل وصاياه عامة شاملة، وينطق بالحكمة عن إخلاص وصفاء نفس، وحب للصالح العام ليعالج المشاكل الاجتماعية. وانتظم من أصحابه رجال عهد إليهم بمهمات الإصلاح، وكلّفهم بأعمال الخير، كما كوّن منهم معلّمين ورواة في ظل مدرسته، ومجاهدين ودعاة في مسير ركبه. كان عليه السلام يدعو الناس إلى الورع عن محارم الله والخوف منه تعالى والامتثال لأوامره، والشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى، وجعل يوم الحساب ماثلاً أمام أعينهم، مع حثّهم على التكسب وطلب الرزق كما كان يحث على العمل ويعمل بنفسه، وينهى عن الكسل والبطالة. ويأمر بطلب الرزق كما أمر الله تعالى.

يحدّثنا العلاء بن كامل: أنه جاء إلى الإمام الصّادق عليه السلام فقال له: يا أبا عبد اللّه ادع الله أن يرزقني في دعة.

فقال عليه السلام: «لا أدعو لك، أطلب كما أمرك الله ورسوله».

وعلى أي حال فإن حكم الإمام ووصاياه تشرق على وجه الزمان إلى آخر الزمان، وقد ذكرنا في الجزء الثاني طرفاً منها، ونحن هنا نذكر بعض ما لم نذكره في ذلك الجزء من تلك الوصايا القيّمة، والحكم الخالدة، سواء كانت عامة شاملة يرسلها إلى الأطراف النائية، أم كانت وصايا خاصة لبعض الأفراد، وهي كالأولى في عمومها وشمولها، وإليك طرفاً من ذلك.

وصية عامة إلى جميع أصحابه:

«صبّروا النفس على البلاء في الدنيا، فإن تتابع البلاء فيها، والشدة في طاعة الله وولايته، وولاية من أمر بولايته، خير عاقبة عند الله في الآخرة، من ملك الدنيا وإن طال تتابع نعيمها، وزهرتها وغضارة عيشها في معصية الله وولاية من نهى الله عن ولايته وطاعته، فإن الله أمر بولاية الأئمة الذين سمّاهم في كتابه بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾...

إن الله أتم لكم ما آتاكم من الخير. واعلموا أنّه ليس من علم الله ولا من أمره أن يأخذ أحد من خلق في دينه بهوى ولا رأي ولا مقاييس، قد أنزل الله القرآن وجعل فيه

تبيان كل شيء، وجعل للقرآن وتعلم القرآن أهلاً، لا يسع أهل علم القرآن ـ الذين آتاهم الله علمه ـ أن يأخذوا فيه بهوى ولا رأي ولا مقاييس، أغناهم الله عن ذلك بما آتاهم من علمه وخصهم به، ووضعه عندهم، وكرامة من الله أكرمهم بها. وهم أهل الذكر الذين أمر الله هذه الأمة بسؤالهم. . .

أكثروا ذكر الله ما استطعتم في ساعة من ساعات الليل والنهار، فإن الله تعالى أمر بكثرة الذكر له، والله ذاكر لمن ذكره من المؤمنين.

واعلموا أن الله لم يذكره أحد من عباده المؤمنين إلاّ ذكره بخير، فاعطوا الله من أنفسكم الاجتهاد في طاعته، فإن الله لا يدرك شيء من الخير عنده إلاّ بطاعته، واجتناب محارمه.

واتبعوا آثار رسول الله وسنته فخذوا بها، ولا تتبعوا أهواءكم وآراءكم فتضلّوا، فإن أضلّ الناس عند الله من اتبع هواه ورأيه بغير هدى من الله.

وأحسنوا إلى أنفسكم ما استطعتم، فإن أحسنتم احسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها.

وجاملوا الناس ولا تحملوهم على رقابكم، وإياكم وسب إعداء الله ـ حيث يسمعونكم ـ فيسبوا الله عدواً بغير علم.

واعلموا أنّه لن يؤمن عبد من عبيده حتى يرضى عن الله فيما صنع الله إليه، وصنع به على ما أحب وكره.

وعليكم بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى، وقوموا لله قانتين كما أمر الله المؤمنين في كتابه من قبلكم.

وعليكم بحب المساكين المسلمين، فإن من حقرهم وتكبّر عليهم فقد زل عن دين الله، والله له حاقر وماقت. وقد قال أبونا رسول الله: أمرني ربي بحب المساكين المسلمين منهم.

واعلموا أنّه من حقر أحداً من المسلمين ألقى الله عليه المقت منه حتى يمقته الناس، والله له أشد مقتاً، فاتقوا الله في إخوانكم المسلمين المساكين منهم، فإن لهم عليكم حقاً أن تحبوهم، فإنّ الله أمر نبيّه ﷺ بحبّهم، فمن لم يحب من أمر الله بحبّه فقد عصى الله ورسوله، ومن مات على ذلك مات من الغاوين.

وإياكم والعظمة والكبر، فإن الكبر رداء الله تعالى، فمن نازع الله رداءه قصمه الله وأذلّه يوم القيامة.

وإياكم أن يبغي بعضكم على بعض، فإنّها ليست من خصال الصالحين، فإنه من بغى صيّر الله بغيه على نفسه، وصارت نصرة الله لمن بُغي عليه، ومن نصره الله غلب وأصاب الظفر من الله.

وإياكم أن يحسد بعضكم بعضاً، فإن الكفر أصله الحسد.

وإياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم، فيدعو الله عليكم، فيستجاب له فيكم، فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول: إن دعوة المظلوم مستجابة.

وليعن بعضكم بعضاً، فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول: إن معونة المسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام.

وإياكم وإعسار أحد من إخوانكم المسلمين فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول: ليس لمسلم أن يعسر مسلماً، ومن أنظر معسراً أظلّه الله يوم القيامة بظله، يوم لا ظل إلاّ ظلّه.

واعلموا أنّه ليس بين الله وبين أحد من خلقه، لا ملك مقرّب، ولا نبي مرسل، ولا من دون ذلك كلهم، إلاّ طاعتهم له، فجدّوا في طاعة الله، إن سركم أن تكونوا مؤمنين حقاً حقاً، ولا قوة إلاّ بالله.

وإياكم ومعاصي الله أن تركبوها، فإنّه من انتهك معاصي الله فركبها، فقد أبلغ في الإساءة إلى نفسه، وليس بين الإحسان والإساءة منزلة، فلأهل الإحسان عند ربهم الجنة، ولأهل الإساءة عند ربهم النار، فاعملوا بطاعة الله، واجتنبوا معاصيه، واعلموا أنّه ليس يغني عنكم من الله أحد من خلقه، لا ملك مقرّب، ولا نبي مرسل، ولا من دون ذلك، فمن سرّه أن تنفعه شفاعة الشافعين؛ فليطلب إلى الله أن يرضى عنه.

وإياكم أن تشره أنفسكم إلى شيء مما حرم الله عليكم، فإنّه من انتهك ما حرم الله عليه ههنا ـ في الدنيا ـ حال الله بينه وبين الجنّة ونعيمها، ولذّاتها وكرامتها الدائمة لأهل الجنّة أبد الآبدين.

واعلموا أنّه بئس الحظ الخطر لمن خاطر بترك طاعة الله، وركب معصيته، فاختار أن ينتهك محارم الله، في لذات دنيا منقطعة زائلة عن أهلها، على خلود نعيم

في الجنّة ولذاتها، وكرامة أهلها، ويل لأولئك، ما أخيب حظهم، وأخسر كرّتهم وأسوأ حالهم عند ربهم يوم القيامة، استجيروا الله أن يجيركم في مثالهم أبداً وأن يبتليكم بما ابتلاهم به ولا قوة لنا ولكم إلاّ به.

فاتقوا الله وسلوه أن يشرح صدوركم للإسلام، وأن يجعل ألسنتكم تنطق بالحق حتى يتوفاكم وأنتم على ذلك، وأن يجعل منقلبكم منقلب الصالحين ولا قوة إلاّ بالله، والحمد لله رب العالمين[1]».

وصيته لعنوان البصري:

وعنوان هو شيخ بصري قدم المدينة لطلب العلم، اتصل بمالك بن أنس، ثم اتصل بالإمام الصّادق، فقال له الإمام: «إذا أردت العلم فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبودية».

قال عنوان البصري: فقلت: ما حقيقة العبودية؟

فقال الإمام الصّادق: «ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً، لأن العبيد لا يكون لهم ملك، بل يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله، ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً، وجملة اشتغاله هي فيما أمره الله به ونهاه عنه، وإذا لم ير العبد فيما خوّله الله ملكاً هان عليه الإنفاق فيما أمره الله، وإذا فرض تدبير نفسه إلى مدبره هانت عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل بما أمره الله به ونهاه عنه، لا يتفرغ إلى المراء والمباهاة مع الناس، فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاث هانت عليه الدنيا، فلا يطلبها تفاخراً وتكاثراً، ولا يطلب عند الناس عزاً وعلواً، ولا يدع أيامه باطلة، فهذا أول درجة المتقين، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾».

فقال عنوان: يا أبا عبد الله أوصني.

فقال: «أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله، والله أسأل أن يوفقك لاستعمالها: ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم، فاحفظها وإياك والتهاون بها.

---

(١) روضة الكافي ٣٩٧ ـ ٤٠٨.

أما اللواتي في الرياضة: فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه فإنه يورث الحمق والبله، ولا تأكل إلاّ عند الجوع، فإذا أكلت فكل حلالاً وسمّ الله تعالى، واذكر حديث النبي ﷺ: ما ملأ آدمي وعاءً أشد شراً من بطنه، فإن كان ولا بد فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه.

وأما اللواتي في الحلم: فمن قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشراً، فقل له: إن قلت عشراً لم تسمع واحدة. ومن شتمك فقل له: إن كنت صادقاً فيما تقوله فأسأل الله أن يغفر لي، وإن كنت كاذباً فاسأل الله أن يغفر لك. ومن وعدك بالخيانة فعده بالنصيحة والوفاء.

وأما اللواتي في العلم: فاسأل العلماء ما جهلت، وإيّاك أن تسألهم تعنتاً وتجربة، وإياك أن تعدل بذلك شيئاً، وخذ بالاحتياط في جميع أمورك ما تجد إليه سبيلاً، واهرب من الفتيا فرارك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً[1]».

وصيته عليه السلام لعمرو بن سعيد:

قال عمرو بن سعيد بن هلال: قلت لأبي عبد الله الصّادق عليه السلام: إني لا أكاد ألقاك إلاّ في السنين، فأوصني بشيء آخذ به.

قال عليه السلام: «أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث، والورع والاجتهاد، واعلم أنه لا ينفع اجتهاد لا ورع معه، وإيّاك أن تطمح نفسك إلى من فوقك، وكفى بما قال عزّ وجلّ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾.

وقال عزّ وجل لرسوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

فإن خفت شيئاً من ذلك، فاذكر عيش رسول الله ﷺ فإنما كان قوته الشعير، وحلواه التمر، ووقوده السعف إذا وجده.

وإذا أُصبت بمصيبة فاذكر مصابك برسول الله، فإن الخلق لم يصابوا بمثله قط».

وصيته للمفضل بن عمر:

قال عليه السلام: «أوصيك ونفسي بتقوى الله وطاعته، فإن من التقوى الطاعة

---

(١) الاثني عشرية للسيد ابن القاسم العيتاني ص٩٣. والإمام الصّادق للمظفر ج٢ ص٥٨ ـ ٦١ نقلاً عن البحار.

والورع والتواضع لله، والطمأنينة والاجتهاد، والأخذ بأمره، والنصيحة لرسله، والمسارعة في مرضاته، واجتناب ما نهى عنه، فإن من يتق الله فقد أحرز نفسه من النار بإذن الله، وأصاب الخير كلّه في الدنيا والآخرة.

ومن أمر بتقوى الله فقد أفلح الموعظة، جعلنا الله من المتقين برحمته».

ومن وصيته ـ أيضاً ـ للمفضل بن عمر: «أوصيك بست خصال تبلّغهن شيعتي». قال المفضل: وما هي يا سيدي؟ قال عليه السلام: «أداء الأمانة إلى من ائتمنك، وأن ترضى لأخيك ما ترضى لنفسك، واعلم أن للأمور أواخر فاحذر العواقب، وأن للأمور بغتات فكن على حذر، وإياك ومرتقى جبل إذا كان المنحدر وعراً، ولا تعِدَنّ أخاك ما ليس في يدك وفاؤه».

وصيته لحمران بن أعين:

قال عليه السلام: «يا حمران انظر إلى من هو دونك ولا تنظر إلى من هو فوقك في المقدرة، فإن ذلك أقنع لك بما قُسم لك، وأحرى أن تستوجب الزيادة من ربّك.

واعلم: أن العمل الدائم القليل على اليقين، أفضل عند الله من العمل الكثير على غير اليقين.

واعلم: أن لا ورع أنفع من تجنب محارم الله، والكفّ عن أذى المؤمنين واغتيابهم، ولا عيش أهنأ من حسن الخلق، ولا مال أنفع من القنوع باليسير المجزي، ولا جهل أضر من العجب».

* * *

وهكذا كان الإمام الصّادق عليه السلام يواصل أصحابه بوصاياه القيّمة، وتعاليمه التي تدل على شدة اهتمامه بتوجيه الدعوة إلى الرشاد وطريق الهدى.

وكان يرسل وصاياه العامة مع من يحضر عنده من أصحابه، ويلزمهم أن يبلغوا من يلقونه من أصحابهم كقوله: «أقرأوا من لقيتم من أصحابكم السّلام، وقولوا لهم: فلان بن فلان ـ يعني نفسه ـ يقرؤكم السّلام، إني والله ما آمركم إلاّ بما نأمر به أنفسنا، فعليكم بالجد والاجتهاد.

وإذا صليتم الصبح وانصرفتم، فبكروا في طلب الرزق واطلبوا الحلال، فإن الله عزّ وجل سيرزقكم ويعينكم عليه».

ويحدّثنا زيد الشحام: قال: قال لي أبو عبد الله الصّادق عليه السلام: «أقرء ـ من ترى أنه يطيعني منكم ـ السّلام، وأوصيكم بتقوى الله عزّ وجلّ والورع في دينكم، و الاجتهاد لله وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمّد صلى الله عليه وآله.

أدّوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها برّاً أو فاجراً، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأمر بأداء الخيط والمخيط.

صلّوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدّوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث، وأدّى الأمانة، وحسن خُلقه مع الناس، وقيل هذا جعفري، يسرّني ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر، وإذا كان غير ذلك دخل عليّ بلاؤه وعاره».

ونقف عند هذا الحد من ذكر وصاياه التي كان يوجهها إلى أصحابه، وقد ذكرنا بعضاً منها في الجزء الثاني، ولكثرتها لا نستطيع حصرها في جزء واحد، وسنواصل نشرها إن شاء الله تعالى في بقية الأجزاء.

حِكَمُهُ عليه السلام:

كانت وصاياه عليه السلام هي لغته في مخاطبة العقول وطريقته في تربية النفوس يستمدها من الدين والعقيدة، ويتجه بها إلى المجتمع والأفراد.

وأما حكمه عليه السلام فهي خلاصة المعاني وصفوة الأفكار، يقولها لمختلف الأغراض الدينية والأخلاقية والاجتماعية بخبر وأمر ووصف تنم عن عمق إيمانه وكمال شخصيته وعظيم خصاله وكل قول يرقى إلى الحكمة يأتي عن دراية وتجربة، فما ظنك بإمام يتولى بنفسه مواجهة الأخطار التي تهدد المجتمع من مصادرها السياسية والفكرية ويتبنّى أمر المسلمين في مرحلة تشتد فيها وسائل الحكام في مراقبته والإيقاع به، ويرى نفسه مسؤولاً عن الأمة مهما تزايد ظلم الحكام وجورهم؛ فهو يدنو من المجتمع الإسلامي في عمومه وتعدد أقطاره. ويعايش الأفراد وتصرفاتهم معايشة المصلح الموجّه والحكيم المرشد. وإليك باقة من تلك الحكم الخوالد:

* «أفضل الملوك من أعطي ثلاث خصال: الرأفة، والجود، والعدل، وليس

يُحب للملوك أن يفرطوا (أي يقصّروا) في ثلاث: في حفظ الثغور، وتفقد المظالم، واختيار الصالحين لأعمالهم».

* «ثلاثة لا يُعذر المرء فيها: مشاورة ناصح، ومداراة حاسد، والتحبب إلى الناس».

* «احذر من الناس ثلاثة: الخائن، والظلوم، والنمّام. لأنّ من خان لك خانك، ومن ظلم لك سيظلمك، ومن نمّ إليك سينم عليك».

* «ثلاثة من تمسّك بهنّ نال من الدنيا بغيته: من اعتصم بالله، ورضي بقضاء الله، وأحسن الظنّ بالله».

* «كل ذي صَناعة مضطر إلى ثلاث خلال يحتلب بها المكسب: أن يكون حاذقاً في عمله، مؤدياً للأمانة فيه، مستميلاً لمن استعمله».

* «إذا لم تجتمع القرابة على ثلاثة أشياء، تعرضوا لدخول الوهن عليهم، وشماتة الأعداء بهم، وهي: ترك الحسد فيما بينهم لئلا يتحزّبوا فيتشتت أمرهم، والتواصل ليكون ذلك حادياً لهم على الإلفة، والتعاون لتشملهم العزّة».

* «ثلاثة لا يصيبون إلاّ خيراً: أولو الصمت، وتاركو الشر، والمكثرون ذكر الله عزّ وجلّ. ورأس الحزم التواضع».

فقال له بعضهم: وما التواضع؟ قال: «أن ترضى من المجلس بدون شرفك، وأن تسلّم على من لقيت، وأن تترك المراء وإن كنت محقاً».

* «خذ من حسن الظن بطرف تروج به وتروح به قلبك».

* «من ظهر غضبه ظهر كيده، ومن قوي هواه ضعف عزمه، ومن أنصف من نفسه رضي حكماً لغيره».

* «العجب يكلم المحاسن، والحسد للصديق من سقم المودة، ولن تمنع الناس من عرضك إلاّ بما تنشر عليهم من فضلك».

* «العز أن تذل للحق إذا ألزمك».

* «من أخلاق الجاهل الإجابة قبل أن يسمع، والمعارضة قبل أن يفهم، والحكم بما لا يعلم».

* «من أدب الأديب دفن أدبه».

* «إن خير ما ورّث الآباء لأبنائهم الأدب لا المال، فإن المال يذهب والأدب يبقى»

* «لا تطعنوا في عيوب من أقبل إليكم بمودة، ولا توقفوه على سيئة يخضع لها، فإنّها ليست من أخلاق رسول الله ﷺ ولا من أخلاق أوليائه».

ومن حِكَمِهِ:

«العلم جُنّة. والصدق عز. والجهل ذل. وحسن الخلق مجلبة للمودة. والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس. والحزم مشكاة الظن. والله ولي من عرفه. والعاقل غفور والجاهل ختور. وإن شئت أن تكرم فلن. وإن شئت أن تهان فاخشن. ومن كرم أصله لان قلبه، ومن خشن عنصره غلظ كبده. ومن فرّط تورّط. ومن خاف العاقبة تثبت فيما لا يعلم. ومن هجم على أمر من غير علم جدع أنف نفسه».

* * *

ونكتفي بهذا الموجز من البيان لبعض وصايا الإمام الصّادق وحكمه، وسيأتي كثير منها في ثنايا البحث، وإن استقصاءنا لها يستلزم وضع مؤلّف كبير في ذلك، لأنها تشتمل على أمور هامة ومواعظ نافعة تتناول كل نواحي الحياة ومشاكل عصره، وقد بذل جهده عليه السلام في إيجاد قوة فعّالة تتجه نحو الخير ليحيى المسلمون حياة طيبة، ولا يحصل ذلك إلاّ في توثق العلاقات بينهم، وإيجاد المحبة في قلب المسلم لأخيه المسلم وقمع غرائز الأثرة، والابتعاد عن الرذائل، واتباع المثل العليا في الإسلام.

وكان الإمام الصّادق وحيد عصره في مختلف العلوم والفنون، وظهرت في شخصيته آثار الوراثة بأجلى صورها، إذ هو رضيع ثدي الإيمان، ووليد بيت الوحي، ووارث علم النبي، وحافظ تراثه. وكانت الآمال تتركز حول شخصيته، لذلك لم نجد مدرسة إسلامية تطاول مدرسته في الشهرة، أو تماثلها في منهجها الذي سارت عليه. وقد انتشر مذهبه في أقطار الأرض ـ رغم تلك الحواجز التي وقفت في طريقه ـ فهو بقوته القدسية قد ذلّل المصاعب، وصارع الحوادث، وشق طريقه إلى التقدّم.

ومهما تكن العوامل في صرف الناس عنه ـ فإنّها لم تؤثّر أثرها المطلوب. إذ العقيدة أكبر مؤثّر في تكوين العقل الإنساني ـ رقياً وانحطاطاً ـ فإن الناس لا يجهلون ما لأهل البيت من الأثر العظيم في المجتمع الإسلامي، وقد منحهم النبي ﷺ صفة لا يشاركهم فيها أحد، وهي الاقتران بالكتاب وعدم افتراقهما إلى آخر الزمن. فهم دعاة

للخير وأئمة للهدى، وسفن النجاة إذا طغت أمواج النفاق. وهم أكثر الناس زهداً في الحياة وفناء في الله.

وقد بذلوا نفوسهم الزكية لحفظ تعاليم الإسلام، ولم تقف أمامهم مقاومة الأعداء. وتحمّلوا قسوة الطغاة وعنت الباغين، وجور المستبدين، انتصاراً للحق وثورة على الباطل. وامتازوا بقوة الإيمان وصدق النيّة، وإخلاص العمل في سبيل حفظ الإسلام ونشر تعاليمه وإحياء مآثره، وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«فأين تذهبون وأنّى تؤفكون، والأعلام قائمة والآيات واضحة، والمنار منصوبة، فأين يُتاه بكم، بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم أزمّة الحق، وأعلام الدّين، وألسنة الصدق».

ويقول عليه السلام: «انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم؛ فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى»[1].

ويقول الإمام الصّادق عليه السلام:

«نحن أصل كل خير، ومن فروعنا كل بر، فمن البر: التوحيد، والصيام، وكظم الغيظ، والعفو عن المسيء، ورحمة الفقير، وتعهد الجار، والإقرار بالفضل لأهله.

وعدوّنا أصل كل شر، ومن فروعهم كل قبح وفاحشة، فمنهم: الكذب، والبخل، والنميمة، والقطيعة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم بغير حقّه، وتعدي الحدود التي أمر الله، وركوب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والزّنا، والسرقة وكل ما وافق ذلك من القبيح، وكذب من زعم أنّه معنا وهو متعلّق بفروع غيرنا».

وإلى هنا ينتهي بحثنا فيما شرعنا فيه حول مدرسة الإمام الصّادق وحملة فقهه، وبيان الفِرق في عصره، وبيان بعض تعاليمه من حكمه ووصاياه. وننتقل الآن مع القارىء الكريم، إلى دراسة تتعلّق بالمذاهب الأربعة. من حيث الالتزام بأخذ الأحكام الشرعية عن الأئمة الأربعة دون غيرهم، ولا يصح العمل إلاّ بذلك. فعلينا إذاً أن ندرس القضية، ونقف على الأمر، وهل كان هذا الالتزام أمراً شرعياً قرّره الإسلام؟ وهل أن باب الاجتهاد مغلق بعد الأئمة الأربعة، ومتى كان هذا الالتزام؟ وبأي تاريخ وقع؟ وما هي أسبابه وعوامله؟

---

(١) شرح نهج البلاغة ج١ ص١٥٢.

المذاهب الأربعة
التزام وآراء

تمهيد:

إن أهم موضوع في تاريخ التشريع الإسلامي هو موضوع غلق باب الاجتهاد، وادعاء استحالته لأحد غير أئمة المذاهب الأربعة: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل. وأن تقليدهم لازم، ولا يصح العمل إلاّ بما جاء عنهم، وأن من المستحيل حصول ملكة الاجتهاد لأحد غيرهم حتى أن البعض يرى أن من يقلّد غيرهم زنديق، وأن العمل لا يصح إلاّ بالأخذ عن واحد من هؤلاء الأئمة، فهم أعلم الأمة وسادات الأئمة إلى غير ذلك من الإدعاءات.

وقد تقدم الكلام عن أسباب نشأة المذاهب وعوامل انتشارها ولإيضاح ما لعله لم يتضح من هذا الموضوع، نتعرّض هنا لما يتعلّق فيه من بيان تاريخ الالتزام، بالأخذ عن الأئمة الأربعة، وبيان العوامل التي أدّت إلى الجمود الفكري، فأغلق باب الاجتهاد في وجوه المسلمين، وادّعي استحالته بعد ذلك الزمن، وأن من يدعي ذلك يوصم بالجهل، ويؤاخذ بدعواه، وربما رمي بالزندقة، ومع ذلك فإن البعض من أهل السنّة يعارضون هذه الفكرة، ويقفون أمام هذه الدعوة بشدة إن ساعدتهم الظروف على ذلك، فهم يوافقون الشيعة في حرية الرأي، وعدم القول بغلق باب الاجتهاد.

ولقد أثر هذا الالتزام بوحدة المسلمين، ففرّق كلمتهم ونشبت بين معتنقي المذاهب حروب دموية، نتيجة للخلافات المذهبية، وادعاء كل فريق أن الحق له دون غيره، وأن إمامه هو المنفرد بمنزلة العلم وأهلية الاتباع، واندفعوا بكل وسيلة لرفع مقام رئيس المذهب إلى منزلة لا يدانيه فيها أحد، وتحكم التعصب الطائفي، وكثر الجدل، وعظم الخلاف بين أتباع أئمة المذاهب (ودب التقليد في صدورهم دبيب

النمل وهم لا يشعرون، وكان سبب ذلك تزاحم الفقهاء وتجادلهم فيما بينهم)[1].

وبلغ الأمر بهم في صوغ عبارات المدح والثناء إلى ما يقف العقل أمامه موقف الرد والإنكار، كما ذهبوا إلى أعلمية هؤلاء الأئمة على جميع المسلمين، وأنهم بلغوا درجة العصمة عن الخطأ؛ وأن الله لا يقبل عمل عامل إلاّ من طريقهم وكلّ يعتقد أفضلية إمامه على بقية الأئمة، وأن مذهبه هو الصواب.

إلى غير ذلك من التفريط والغلو، مما لم يعرفه معاصرو أولئك، ولم يجدوه هم في أنفسهم.

الالتزام بالمذاهب الأربعة:

تطورت الدعوة إلى المذاهب الأربعة، وتكثرت العوامل لاتباعهم بصورة خاصة، وقد ذكرنا في الجزء الأول أسباب نشأتها وعوامل انتشارها بما لا حاجة إلى إعادته.

والغرض: إن الالتزام بهذه المذاهب الأربعة كان بصورة تدريجية، حتى أدّى ذلك على مرور الزمن، إلى أن ينحصر أخذ الأحكام عنها دون غيرها من المذاهب الإسلامية على كثرتها وانتشارها.

والشيء المحصل من جميع الأقوال أن الأخذ بها ولزوم التقليد كان في القرن الرابع، أما الالتزام بها دون غيرها ووجوب أخذ أقوالهم وترك أقوال الآخرين وعدم السماح بالاجتهاد والاستنباط يرجع تاريخه إلى سنة ٦٤٥هـ وذلك عندما رأت السلطة أن تحصر الأخذ عن المشايخ الأربعة: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد. فأحضر مدرسو المدرسة المستنصرية إلى دار الوزير، وتقدم إليهم أن لا يذكروا شيئاً من تصانيفهم، ولا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها، بل يذكرون كلام المشايخ تأدّباً معهم وتبرّكاً بهم، وأجاب جمال الدين عبد الرّحمٰن بن الجوزي ـ مدرّس الحنابلة ـ بالسمع والطاعة، ثم مدرس المالكية سراج الدين عبد اللّه الشرمساحي، وقال: ليس لأصحابنا تعليقة، فأمّا النقط من مسائل الخلاف فما أرتبه.

وأما شهاب الدين الزنجاني مدرس الشافعية، وأقضى القضاة عبد الرّحمٰن بن اللمغاني مدرّس الحنفية فإنهما قالا ما معناه: (إن المشايخ كانوا رجالاً ونحن رجال).

---

(١) حجة الله البالغة ج١ ص١٥٣.

ونحو ذلك من إبهام المساواة فانتهت صورة الحال، فتقدم الخليفة أن يلتزموا بذكر كلام المشايخ واحترامهم، فأجابوه بالسمع والطاعة[١].

وبذلك أصبح الالتزام بهذه المذاهب أمراً رسمياً لا يمكن خلافه، وقضي على غيرها من المذاهب المعمول بها في ذلك الوقت ـ على قلة اتباعها ـ كمذهب سفيان الثوري، ومذهب داود بن علي الظاهري، حتى أدت الحالة إلى محو الجميع، وبقاء المذاهب الأربعة نظراً لما أظهرته السلطة من تهديد وتوعيد، وترغيب وترهيب (ولم يبق لأهل السنّة إلاّ المذاهب الأربعة السابقة، لأنّها وجدت من الملوك والوزراء من يحمل الناس عليها، وينشيء لها تلك المدارس، ويحبس عليها تلك الأوقاف، فلما طال العهد بها على الناس أخذوا يتعصّبون لها وينكرون ما عداها من المذاهب السابقة)[٢].

التطرّف بالتزام المذهب:

واتسع الخلاف وكثر الجدل، وعظمت الفرقة، وذهب كلٌ إلى تأييد مذهبه وتصويب رأيه، وإبراز صرة إمام مذهبه في صفحة الوجود بإطار الغلو والعبقرية الإدعائية، لا العبقرية الواقعية، جهلاً منهم بعاقبة الأمر، واتباعاً لهوى سلطان لا يروق له اتحاد الأمة.

وقد اندفع المتطرّفون إلى أبعد حدّ من الشذوذ، ولم يصغوا لأهل الاعتدال والتوازن منهم، ولم يجعلوا وزناً لأقوال أئمتهم، وما هو مأثور عنهم: بأنّهم لم يصلوا إلى تلك الدرجة التي يدعونها لهم، فإنهم بشر يخطئون ويصيبون، وأن أقوالهم لا قيمة لها تجاه الأثر والنصوص النبوية، كما يأتي بيانه. لم يسمعوا ذلك، بل وصفوهم بما تهوى أنفسهم، كما وصفوا أبا حنيفة بأنّه: سراجُ الأمة، وسيد الأئمة، ومحيي السنّة، وأنه إذا تكلم خيّل إليك أن ملكاً يلقنه، وما كلّم أحدٌ في باب من أبواب الفقه إلاّ ذلّ له، وإذا أشكلت مسألة على أعلم الناس سهلها عليه. كما تجد ذلك في كتب مناقبه للمكي، والكردري وغيرهما.

وأنك لتدهش من تلك الألفاظ الفارغة، التي لا تجد فيها سوى التهجم على

(١) الحوادث الجامعة ص٢١٦ ـ ٢١٧.

(٢) ميدان الاجتهاد ص١١.

الحقائق، ومخالفة الحق والواقع!!! إذ هي وليدة عصور متأخرة لا يعرفها معاصروه، ولم يشهد له بذلك علماء عصره، وقد كان أكثرهم ينكرون عليه ويردّون فتاواه. منهم: أيوب السجستاني، وجرير بن حازم، وهمام بن يحيى، وحماد بن سلمة، وأبو عوانة، وعلي بن عاصم، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، ومالك بن أنس وغيرهم، وكلماتهم في الرد عليه مشهورة مدونة[1].

وكان هو بنفسه لا يرى ذلك، ويعترف بأنّه يخطىء ويصيب، كما يتضح ذلك من أقواله المدونة والمشهورة عنه[2].

والشيء الذي يلفت النظر هو تكرارهم لكلمة تنسب إلى الشافعي، وقد جعلوها من أعظم المؤيّدات لأتباع مذهب أبي حنيفة وهي: أنّه كان يقول: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة. مع أن المشهور غير هذا. والعبارة لم تصدر إلاّ من قبل دعاة المذهب، إذ المعروف عن الشافعي أنّه كان يقول: أبو حنيفة يضع أول المسألة خطأً ثم يقيس الكتاب كلّه عليه.

ويقول: ما أشبه رأي أبي حنيفة إلاّ بخيط سحارة، وهي شيء يلعب به الصبيان، تمده هكذا فيجيء أصفر، وتمده فيجيء أخضر.

ويقول: رأيت أبا حنيفة في النوم وعليه ثياب وسخة فقال: ما لي ولك[3]؟

وكان الشافعي يفضل مالكاً على أبي حنيفة. واشتهرت مناظرته لمحمّد بن الحسن الشيباني.

قال محمّد بن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: قال لي محمّد بن الحسن: أيهما أعلم، صاحبنا أو صاحبكم؟ ـ يعني مالكاً وأبا حنيفة ـ قلت على الإنصاف؟ قال: نعم. . قلت: فأنشدك الله من أعلم بالقرآن صاحبنا أو صاحبكم؟ قال: صاحبكم ـ يعني مالكاً.

قلت: فمن أعلم بالسنّة، صاحبنا أو صاحبكم؟ قال: اللّهمّ صاحبكم.

قلت: فأنشدك الله من أعلم بأقاويل أصحاب رسول الله ﷺ والمتقدمين، صاحبنا أو صاحبكم؟ قال: صاحبكم.

---

(١) تاريخ بغداد ج١٣. والانتقاء وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر وغيرها.

(٢) حجة الله البالغة ج١ ص١٥٧.

(٣) آداب الشافعي لابي حاتم الرازي ص١٧١ ـ ١٧٤.

قال الشافعي: قلت فلم يبق إلاّ القياس. والقياس لا يكون إلاّ على هذه الأشياء، فمن لم يعرف الأصول على أي شيء يقيس(١)؟

هذه هي أقوال الشافعي في أبي حنيفة. وتدلّنا بكل وضوح على بطلان ما نسبوه إليه من أن الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة.

وكذلك أقوال أحمد بن حنبل في مدح أبي حنيفة، فإن التتبع يرفع الوثوق بها، وقد اشتهر عنه قوله:

إذا رأيت الرجل يتجنّب أبا حنيفة ورأيه والنظر فيه، ولا يطمئن إليه ولا إلى من يذهب مذهبه، ويغلو، ولا يتخذه إماماً، فارجو خيره(٢).

وكان يشتدِ على أصحاب الرأي في استعمال الحيل فيقول: هذه الحيل التي وضعها هؤلاء ـ أبو حنيفة وأصحابه ـ عمدوا إلى السُّنن فاحتالوا في نقضها. أتوا الذي قيل لهم أنه حرام، فاحتالوا فيه حتى أحلّوه.

وقال أيضاً: إنهم يحتالون لنقض سنن رسول الله ﷺ(٣).

وسُئل أحمد عن مالك فقال: حديث صحيح ورأي ضعيف. وسئل عن أبي حنيفة فقال: رأي ضعيف وحديث ضعيف.

وما أكثر الشواهد التي تدل على خلاف ما يذهبون إليه من الإفراط والاندفاع وراء العاطفة، والتمسّك بأشياء بعيدة عن الصواب. فقد كثر الجدل وعظم الخلاف (حتى آل بهم التعصّب إلى أن أحدهم إذا ورد عليه شيء من الكتاب والسنّة على خلاف مذهبه يجتهد في دفعه بكل وسيلة من التأويلات البعيدة، نصرة لمذهبه ولقوله)(٤).

ونقل الرازي عن أكبر شيوخه في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ﴾ أنه قال: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله في بعض مسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوها، ولم يلتفتوا إليها،

---

(١) آداب الشافعي لابن أبي حاتم الرازي ص١٥٩ ـ ١٦٠. ومناقب الفخر ص١٠١. ومناقب مالك للسيوطي والزواوي ص١٠ ـ ١٢. وحلية الأولياء ج٦ ص٣٢٩. وطبقات الفقهاء ص٤٢ وغيرها.

(٢) طبقات الحنابلة ج١ ص٢٤٧.

(٣) طبقات الحنابلة ج٢ ص١٥١ ـ ١٥٢.

(٤) أبو شامة في مختصر المؤمل ص١٤ ـ ١٥.

ويقوا ينظرون إليّ كالمتعجب ـ يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها؟ ولو تأملت حق التأمّل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا.

قال أبو شامة[1]: وكانت تلك الأزمنة مملوءة بالمجتهدين، فكل صنف على ما رأى، وتعقب بعضهم بعضاً مستمدّين من الأصلين: الكتاب والسنّة، وترجيح الراجح أقوال السلف المختلفة بغير هدى، ولم يزل الأمر على ما وصفت، إلى أن استقرت المذاهب المدونة، ثم اشتهرت المذاهب الأربعة وهجر غيرها، فقصرت همم اتباعهم إلاّ قليلاً منهم، فقلدوا بعدما كان التقليد حراماً لغير الرسل، بل صارت أقوال أئمتهم بمنزلة الأصلين ـ الكتاب والسنّة ـ وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فعدم المجتهدون وغلب المتقلدون، وكثر التعصّب وكفروا بالرّسول حيث قال: «يبعث الله في كل مائة سنة من ينفي تحريف الغالين وانتحال المبطلين» وحجروا على رب العالمين، مثل اليهود، أن لا يبعث بعد أئمتهم ولياً مجتهداً، حتى آل بهم التعصب إلى أن أحدهم إذا أورد عليه شيء من الكتاب والسنّة على خلافه يجتهد في دفعه بكل سبيل من التأويلات البعيدة نصرة لمذهبه ولقوله.. إلخ[2].

وهنا يستوقفني الفكر طويلاً عندما أتأمل أقوال العلماء المبرزين، الذين ينتسبون لأحد المذاهب، وأنهم كيف كانوا يتشدّدون في النهي عن التقليد ومضاره، وكيف كانوا يخالفون رئيس المذهب في اجتهادهم وأنهم لم يعرفوا عن أئمة المذاهب ما يدعيه المتأخرون عنهم من المبالغات، وذلك التشديد في وجوب تقليد إمام بعينه.

فكم الفرق بين الفريقين؟ وإن الأمر ليبعث على الاستغراب! وإن المتتبع يقطع ببطلان ما يذهب إليه المتأخرون، وأنهم قد خالفوا أئمتهم ورؤساء مذاهبهم في اتباع تلك الأمور المبتدعة، وتعصّبهم لمذاهبهم بما لا يرضى به أولئك الأئمة الذين ادّعوا أنهم لهم متبعون، ووصفوهم بأقصى ما يتصور من المدح والثناء، وجعلوا تقليدهم

---

(١) هو شهاب الدين أبو القاسم عبد الرّحمٰن بن إسماعيل بن إبراهيم المتولد في ٥٩٦هـ المتوفى سنة ٦٦٥هـ.

(٢) مختصر المؤمل للرد إلى الأمر الأول ص١٤ ـ ١٥.

والرجوع لأقوالهم أمراً إلزامياً. ولا نعلم من أين جاء هذا الالتزام، والأئمة أنفسهم ينهون عن ذلك؟!

ولجلاء الأمر نضع صورة موجزة من أقوال أئمة المذاهب.

الإمام أبي حنيفة لا يلزم بالرجوع إليه:

إن أقوال أبي حنيفة وآثاره تدل على عدم الإلزام بالرّجوع إليه، وأخذ قوله دون غيره، وأن حكمه هو الصواب لا غير، حتى أدى الأمر إلي أن يتعصب أكثر اتباعه في تقديم قوله على الآثار الصحيحة. وكيف ساغ لهم ذلك وهو ينهى عنه؟!! كما كان ينهى عن تقليده، بما اشتهر عنه أنه كان يقول: (إذا صح الحديث فهو مذهبي).

وقوله: لا ينبغي لمن لا يعرف دليلي أن يفتي بكلامي. وفي رواية: حرام على من لا يعرف دليلي.

وكان يقول: هذا رأي النعمان بن ثابت ـ يعني نفسه ـ وهو أحسن ما رأيت، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب(١).

وقال: هذا الذي نحن فيه رأي لا يجبر أحد عليه، ولا نقول يجب على أحد قبوله بكراهية، فمن كان عنده شيء أحسن منه فليأتِ به(٢).

وقيل لأبي حنيفة: إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه؟ قال: اتركوا قولي بكتاب الله. فقيل: إذا كان خبر الرسول ﷺ؟ فقال: اتركوا قولي لقول رسول الله ﷺ. فقيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة(٣).

وقد اشتهر منع الفتوى بدون معرفة الدليل على أكابر أصحاب أبي حنيفة.

قال عصام بن يوسف: كنت في مأتم، فاجتمع فيه أربعة من أصحاب أبي حنيفة: زفر بن الهذيل، وأبو يوسف، وعافية بن يزيد، وآخر، فكلهم أجمعوا على أنه قال: لا يحل لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعلم من أين قلناه. قال الشيخ صالح بن محمّد العمري: إن هؤلاء الأئمة لا يبيحون لغيرهم أن يقلّدهم بغير أن يعلموا دليل قولهم(٤).

---

(١) حجة الله البالغة ج١ ص١٥٢ ـ ١٥٣.
(٢) الانتقاء ص١٤٠.
(٣) الوحدة الإسلامية ص٩٧.
(٤) إيقاظ همم ذوي الأبصار ص٧٢.

وقال أبو الليث السمرقندي: باب من يصلح للفتوى؟ قال الفقيه: لا ينبغي لأحد أن يفتي إلأ أن يعرف أقاويل العلماء ـ يعني أبا حنيفة وصاحبيه ـ ويعلم من أين قالوا، ويعرف معاملات الناس، فإن عرف أقاويل العلماء ولم يعرف مذاهبهم... إلخ.

وقال أبو يوسف بمثل قول أبي حنيفة وهو قوله: حرام على من لم يعرف دليلنا أن يفتي بقولنا[1].

الإمام مالك ينهى عن التقليد:

وقد اشتهر عن مالك: أنّه كان ينهى عن التقليد والرجوع لقول أي أحد دون كتاب الله وسنّة رسوله. ويعلن معارضته لمن كان يتعصب له ويدعي أعلميته على جميع الأمة.

ويتضح من مطاوي كلماته أن الحديث الذي ادّعوه في فضله، وهو حديث عالم المدينة، لم يكن يعرفه مالك، وإن كان معروفاً فلا يرى انطباقه عليه لوجود من هو أعلم منه، والمأثور عن مالك في ذلك كثير، كقوله: إنما أنا بشر أخطىء وأصيب، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنّة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنّة فاتركوه.

وكان مالك لا يخرج عن عمل أهل المدينة، ويصرح في موطنه بأنه أدرك العمل على هذا، وهو الذي عليه أهل العلم ببلدنا. ويقول في غير موضع إذا سئل عن شيء: ما رأيت أحداً أقتدي به يفعله[2] أي يفعل ذلك الشيء المسؤول عنه.

وروى محمّد بن محمّد بن سنه بسنده عن مالك أنّه قال: إنما أنا بشر أخطىء وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق فاتركوه. وروي مثله عن أحمد بن مروان المالكي[3].

وكان رأي مالك: أن من ترك قول أحد من الصحابة لقول تابعي أنّه يستتاب. وقد صرح مالك بأن من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعي أنه يستتاب.

---

(١) الدين الخالص ج٤ ص١٨٠.

(٢) أعلام الموقعين لابن القيم ج٢ ص١٨٦.

(٣) الدين الخالص ج٤ ص١٨٢.

فكيف بمن ترك قول الله والرّسول لقول من هو دون إبراهيم أو مثله[1] وهذا على سبيل المثال لا التشخيص منه.

وقد اشتهر عن مالك كثرة قوله: لا أدري. في كثير من المسائل، وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنين وثلاثين منها: لا أدري.

وسئل من العراق عن أربعين مسألة، فما أجاب منها إلاّ في خمس.

قال أبو مصعب: قال لنا المغيرة: تعالوا نجمع كل ما نريد أن نسأل عنه مالكاً. فمكثنا نجمع ذلك، ووجه به المغيرة إليه، وسأله الجواب، فأجاب مالك في بعضه، وكتب في الكثير منه: لا أدري[2].

والروايات عنه في «لا أدري» و«لا أحسن» كثيرة، حتى قيل: لو شاء رجل أن يملأ صحيفة من قول مالك: «لا أدري» لفعل.

وقيل لمالك إذا قلت ـ أنت ـ يا أبا عبد اللّه: لا أدري فمن يدري؟ قال: ويحك؟ أعرفتني؟ ومن أنا؟ وأيش منزلتي حتى أدري ما لا تدرون؟ ثم أخذ يحتج وقال: قد ابتلي عمر بن الخطاب بهذه الأشياء، فلم يجب فيها.

وقال عبد اللّه بن مسلمة: دخلت على مالك ـ أنا ورجل آخر ـ فوجدناه يبكي، فسلمت عليه، فرد عليَّ، ثم سكت عني وهو يبكي، فقلت: يا أبا عبد اللّه ما الذي يبكيك؟ فقال لي: يا ابن قعنب أبكي لله على ما فرط مني من هذا الرأي وهذه المسائل. وقد كان لي سعة فيما سبقت. فقلنا له: ارجع عن ذلك. فقال: وكيف لي بذلك وقد سارت به الركبان[3]. وسأل رجل مالكاً عن مسألة، وذكر أنّه أُرسل فيها من مسيرة ستة أشهر من المغرب فقال له: أخبر الذي أرسلك أنّه لا علم لي بها.

قال: ومن يعلمها؟ قال مالك: من علّمه الله.

وسأله رجل عن مسألة استودعه إياها أهل المغرب، فقال: ما أدري، ما ابتلينا بهذه المسألة ببلدنا، ولا سمعنا أحداً من أشياخنا تكلم فيها، ولكن تعود. فلما كان من الغد جاء الرجل وقد حمل ثقله على بغله يقوده، فقال: مسألتي. فقال مالك: ما أدري ما هي؟

---

(١) أعلام الموقعين لابن القيم.

(٢) الموافقات ج٤ ص٢٨٨.

(٣) الوحدة الإسلامية ص١٠٧.

فقال الرجل: يا أبا عبد الله تركت خلفي من يقول: ليس على وجه الأرض أعلم منك. فقال مالك غير مستوحش: إذا رجعت إليهم فأخبرهم إني لا أحسن[1].

وهذا مما يدل على خطأ ذلك الاعتقاد الذي كونته عوامل غير مشروعة، وأيّدته ظروف خاصة، لذلك أنكر عليهم مالك، إذ هو لم يعرف من نفسه ما قد ادّعاه فيه غيره، وكذلك لم يكن يعرف المتّصلون بمالك، والذين عرفوا منزلته كما عرفه الناؤون عنه، وأخذوا عنه صورة مكبرة رسمتها يد المبالغة والغلو، فأنكر مالك عليهم ما يدّعونه فيه من العصمة والوصول إلى درجة الإحاطة بكل العلوم. واتسع الأمر بعد مالك حتى أصبح قوله يقدم على الكتاب والسنّة كما أشرنا لذلك.

الإمام الشافعي ينهى عن التقليد:

وكذلك الإمام الشافعي كان ينهى عن التقليد، ويدعو إلى العلم من طريقه.

وقد روي عنه أنّه قال: مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل، يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه، وهو لا يدري. ذكره البيهقي.

وقال إسماعيل بن يحيى المزني في أول مختصره: اختصرت هذا من علم الشافعي ومن معنى قوله: لأقربه على من أراده، مع إعلامية نهيه ـ أي الشافعي ـ عن تقليده وتقليده غيره، لينظر فيه لدينه، ويحتاط فيه لنفسه[2].

ومختصر المزني هذا قد أصبح للشافعية فيه اعتقاد وتمسك شديد، وامتلأت به البلدان، حتى أن المرأة كانت إذا جهزت للدخول على زوجها حمل في جهازها مصحف ونسخة من مختصر المزني[3].

وقال ابن حجر في توالي التأسيس: قد اشتهر عن الشافعي: (إذا صح الحديث فهو مذهبي). قال ابن القيم: هذا صريح في مدلوله، وأن مذهبه ما دل عليه الحديث لا قول له غيره، ولا يجوز أن ينسب إليه ما خالف الحديث، فيقال هذا مذهب الشافعي، ولا يحل الإفتاء بما خالف الحديث على أنه مذهب الشافعي، ولا الحكم به، صرّح بذلك جماعة من أئمة أتباعه.

(١) الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي ج٤ ص٢٨٧ ـ ٢٨٨.

(٢) أعلام الموقعين ج٢ ص١٨١.

(٣) مختصر المؤمل ص٣٥.

وقد اعترف الشافعي بعدم إحاطته بالأخبار الصحيحة، كما روي عن أحمد بن حنبل أنّه قال: قال الشافعي: أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه[1] ولذلك قال أبو ثور: إن الشافعي ما كان يعرف الحديث، وإنما كنّا نوقفه عليه ونكتبه.

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: ما من أحد إلاّ وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه، فمهما قلت من قول، وأصّلت من أصل، فيه عن رسول الله خلاف ما قلت، فالقول ما قاله رسول الله ﷺ وهو قولي، وجعل يردد هذه الكلمات.

وقال أيضاً: أجمع الناس على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن ليدعها لقول أحد. وستأتي زيادة بيان لهذه الأقوال عند بحثنا عنه.

الإمام أحمد يحارب التقليد:

وكذلك الإمام أحمد بن حنبل فإن المأثور عنه والمشهور من أقواله أنّه كان يحارب التقليد، ويحث الناس على طلب الحكم من دليله، ويقول: كثرة التقليد عمى في البصيرة[2].

وقال أبو داود: قلت لأحمد: الأوزاعي هو أتبع من مالك؟ فقال أحمد: لا تقلد دينك هؤلاء، ما جاء عن النبي وأصحابه فخذ به[3].

وكان ينهى عن الكتابة عنه ويقول: لا تكتبوا عني ولا تقلدوني، ولا تقلدوا فلاناً وفلاناً، وخذوا من حيث أخذوا[4].

وقال أحمد أيضاً: لا تقلدني، ولا تقلّد مالكاً، ولا الثوري ولا الأوزاعي، وخذ من حيث أخذوا.

وقال: من قلّة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال[5].

---

(١) البداية والنهاية ج٩ ص٣٢٧، وطبقات الحنابلة ج١ ص٢٨٢، وآداب الشافعي لابن أبي حاتم ص٩٥، وميزان الشعراني ج١ ص٢٦ ومجموعة الرسائل المنبرية ج٣ ص٩٩.

(٢) جلاء العينين للألوسي ص١٠٥.

(٣) أعلام الموقعين ج٢ ص١٨١.

(٤) مختصر المؤمل لأبي شامة ص٣١.

(٥) أعلام الموقعين ج٢ ص١٨٢.

قال صاحب المنار: وقد كان هذا الإمام الجليل متأخراً قليلاً عن «الأئمة الثلاثة» وإن أدرك بعضهم وصحب أحدهم وكان قد رأى بوادر التزام تقليد الذين تكلموا في الأحكام وكتبوا فيها، وعلم أن مالكاً «رحمه الله» قد ندم قبل موته إذ نقلت أقواله وفتاويه قبل موته، ولذلك لم يدون مذهباً، واقتصر على كتابة الحديث، ولكن أصحابه جمعوا من أقواله وأجوبته وأعماله ما كان مجموعه مذهباً، كما قال العلامة ابن القيم[1].

وقال سلمة بن المسيب: سمعت أحمد بن حنبل يقول: رأي الأوزاعي ورأي مالك، ورأي أبي حنيفة كله رأي، وهو عندي سواء وإنما الحجة في الآثار[2]!.

يقول السيد صديق حسن، بعد نقله لأقوال أئمة المذاهب في النهي عن تقليدهم: فإنّهم ـ رضي الله عنهم ـ قد نهوا عن الرأي والتقليد، وصرح بعضهم بأن الاستحسان بدعة، ولكن مقلديهم باللسان دون الجنان، لم يرضوا بهذا النهي وقالوا نحن مقلدوكم شئتم أو أبيتم ـ وهم والله يعلم ـ أنهم كاذبون. (الدين الخالص ج٤ ص٣٧٣).

والشيء الذي نود التنبيه عليه هنا أن أتباع أحمد قد تمسكوا بتقليده والأخذ بأقواله، بل جعلها بعضهم كأقوال النبي ﷺ وهي بمثابات ما يروى عن النبي ﷺ من الآثار[3].

هذا ما أردنا ذكره في هذا العرض الموجز عن أئمة المذاهب، ونحن لا نريد أن نحط من كرامة واحد منهم، أو نتعصب عليه، ولكني كما قلت سابقاً: إن من الحق والإنصاف أن نعطي شخصية كل واحد من أئمة المذاهب حقها من الدراسة المتجردة عن التعصّب والتحيّز، وأن لا ننقاد للعواطف، ولننظر الواقع بعين تبصرَ الحقائق كما هي.

وبدون شك أن ذلك التعصّب الطائفي قد أوجد مشاكل اجتماعية فرقت الكلمة وكدرت صفو الأخوة. وما أحوج المسلمين إلى الإلفة والاتحاد وهي دعوة رفع الأئمة بها أصواتهم وكان تعاليمهم تحث على الوحدة والاتفاق. فالتعصّب ينافي المبادىء

---

(١) الوحدة الإسلامية ص١١٧.

(٢) الإيقاظ للفلاف ص٢٨.

(٣) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ج٢ ص١٧٦.

الصحيحة ويدعو إلى الفرقة، ونحن بأمسّ الحاجة إلى التفاهم من طريق العلم والواقع.

ولا يتسنى لنا حصول الغرض إلاّ برفع تلك الزوائد التي أوجدتها عوامل التعصّب، وأن لا نقيم وزناً لعوامل السياسة التي قضت على المسلمين باتساع شقة الخلاف، فهي تساعد الضعيف ليقوى على مقابلة خصمه، فإذا ما بلغ الغاية أو كاد؛ سحبت يد المساعدة خلسة لتضمها للجانب الآخر!!! وهكذا على ممر الزمن واختلاف العصور.

أسباب التعصب المذهبي وتطور الدعوة:

والغرض: إن التعصب قد شوّه وجه الحقيقة، وقلب الأمور عن واقعها، ولعل أسباب ذلك تعود إلى ما يلي:

١ ـ كان لتطور الدعوة إلى الالتزام بالمذاهب الأربعة، أثر في تحيز كل جانب إلى المذهب الذي يعتنقه، مما يؤدي إلى الاندفاع بنوع من التعصب وراء طلب المؤيدات لذلك المذهب، بدون التفات إلى مؤاخذة، أو استناد لأمر ملموس. وكانت الظروف تساعد على تنمية تلك الاندفاعات، إذ وجدت نشاطاً ساذجاً في المجتمع، وقبولاً في العقول المتبلبلة، فكالت المدح لها جزافاً ما شاءت بدون حساب.

٢ ـ إن التزاحم على مناصب الدولة من قضاء وتولي حسبة، كان يؤدي إلى المجادلة والمناضلة والتحزب، ولا يحصل من وراء ذلك إلاّ خلاف وتباعد، وادّعاء كل الحق في جانبه، وأن مذهبه هو المذهب الذي لا يقبل الله عملاً إلاّ به، وأن رئيس المذهب هو المتفرّد بعلوم الإسلام لا غير، لتكون له الغلبة على غيره. وقد تزلفوا للأمراء والخلفاء طلباً للحصول على ذلك المنصب (ولذلك تجد الوطيس لم يُحم إلاّ بين الحنفية والشافعية، لأن المناصب كانت محصورة فيهم)[1].

٣ ـ مزاحمة المذهب الجعفري وانتشاره في المجتمع الإسلامي، مع بذل الجهد من السلطات في معارضته، والقضاء على المنتمين إليه مرة، وبتشجيع غيره من المذاهب تارة أخرى، مما يبعث معتنقيها على التفاني في التعصّب لها، والتحامل على هذا المذهب الذي فرض نفسه على المجتمع بدون مشجع مادي.

(١) الوحدة الإسلامية للسيد محمّد رشيد رضا ص٣٧.

وقد أفصح التاريخ عن كثير من ذلك مما لا حاجة لذكره الآن. ومن المناسب أن نختم هذا الفصل بما ذكره الأستاذ السيد محمَّد رشيد رضا، في جواب الأسئلة التالية الموجهة إليه من باريس، من صديقه أحمد زكي بك وهي:

١ ـ متى أُقفل باب الاجتهاد؟ وماذا ترتب على هذا الإقفال من المنافع والمضار؟

الجواب: زعموا أنه أُقفل بعد القرن الخامس، ولكن كثيراً من العلماء اجتهدوا بعد ذلك، فلم يكونوا يعملون إلاّ بما يقوم عندهم من الأدلة، ولا يخلو زمن من هؤلاء، كما صرح بذلك علماء الشافعية.

ولولا خوفهم من حكومات الجهل لبيّنوا للناس مفاسد التقليد الذي حرمه الله. ودعوهم إلى العمل بالدليل كما أمر الله، وقد علمت الحكومة العثمانية ـ منذ عهد قريب ـ بأن بعض علماء الشام يحملون تلاميذهم على ترك التقليد والعمل بالدليل، فشددت عليهم النكير حتى سكتوا عن الجهر بذلك.

ولا نعرف في ترك الاجتهاد منفعةً ما، وأما مضاره فكثيرة وكلها ترجع إلى إهمال العقل وقطع طريق العلم، والحرمان من استقلال الفكر. وقد أهمل المسلمون كل علم بترك الاجتهاد فصاروا إلى ما نرى.

٢ ـ ما معنى قولهم أُقفل باب الاجتهاد؟

الجواب: معناه أنّه لم يبق في الناس من تتوفر فيه شروط المجتهد، ولا يرجى أن يكون ذلك في المستقبل، وإنما قال هذا القول بعض المقلّدين، لضعف ثقتهم بأنفسهم، وسوء ظنّهم بالناس، وزعمهم أن العقول دائماً في تدلٍّ وانحطاط، وغلو في تعظيم السابقين.

وقد رأي أن تلك الشروط ـ أي شروط الاجتهاد ـ ليست بالأمر الذي يعز مثاله، وتعلم أن سنّة الله تعالى في الخلق الترقي إلاّ أن يعرض مانع، كما يعرض لنمو الطفل مرض يرجعه القهقرى. كان آخر الأديان أكملها.

٣ ـ ما معنى هذه العبارة: قفل باب الاجتهاد، عند العامة وعند أهل التحقيق؟

الجواب: العامة يقلّدون آباءهم ورؤساءهم في قولهم: إن أهل السنّة ينتمون إلى أربعة مذاهب من شذّ عنها فقد شذّ عن الإسلام. ولا يفهمون أكثر من هذا.

وأما المشتغلون بالعلم أو السياسة، فالضعفاء المقلّدون منهم يفهمون من الكلمة ما فسرناها به في جواب السؤال السابق، ويحتجّون على ذلك بأن الناس قد أجمعت كلمتهم على هذه المذاهب، فلو أُجيز للعلماء الاجتهاد لجاؤونا بمذاهب كثيرة، تزيد الأمة تفريقاً، وتذهب بها في طرق الفوضى.

والمحققون، يعلمون أن منشأ هذا الحجر هو السياسة، فالسلاطين والأمراء المستبدون لا يخافون إلاّ من العلم، ولا علم إلاّ بالاجتهاد. فقد نقل الحافظ ابن عبد البر وغيره الإجماع على أن المقلد ليس بعالم، ونقله عنه ابن القيم في (أعلام الموقعين) وهو ظاهر، إذ العالم بالشيء هو من يعرفه بدليله، وإنما يعرف المقلد أن فلاناً قال كذا فهو ناقل لا عالم. وربما كانت آلة (الفوتغراف) خيراً منه.

* * *

آراء حول الاجتهاد والتقليد

حول الاجتهاد والتقليد:

أغلق باب الاجتهاد والتقليد في وجوه المسلمين، وأصبح الالتزام بالمذاهب الأربعة لازماً، حتى جعلت أحكام الإسلام مقصورة على الأئمة الأربعة دون غيرهم، لأن درجة الاجتهاد مستحيلة على أي أحد من علماء الأمة (كما يقولون) مع سهولة الوصول إليها. وقد اتضحت لنا الأسباب التي دعت إلى هذا الالتزام، وقد وقفنا على الأمور التي أدت إلى قفل باب الاجتهاد. ومعناه الضربة القاضية على حرية الفكر بل على الإسلام، الذي جاء للناس كافة ليساير مختلف العصور والشعوب.

يقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدي: وإني أستطيع أن أحكم بعد هذا بأن منع الاجتهاد قد حصل بطرق ظالمة، وبوسائل القهر والإغراء بالمال، ولا شك أن هذه الوسائل لو قدرت لغير المذاهب الأربعة - التي نقلدها اليوم - لبقي جمهور يقلّدها أيضاً ولكانت الآن مقبولة عند من ينكرها، فنحن إذاً في حل من التقيد بهذه المذاهب الأربعة التي فرضت علينا بتلك الوسائل الفاسدة، وفي حل من العود إلى الاجتهاد في أحكام ديننا لأن منعه لم يكن إلاّ بطريق القهر، والإسلام لا يرضى إلاّ بما يحصل بطريق الرضى والشورى بين المسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1].

وقد ذكرنا فيما سبق عرضاً موجزاً لأقوال العلماء الأعلام من الأمة في الإنكار على غلق باب الاجتهاد، ومنع المسلمين من الاهتداء بهدي القرآن وصحيح الحديث، والاقتصار على أقوال المذاهب الأربعة، وليس من الصحيح الاعتقاد بأنهم أحاطوا

---

(١) ميدان الاجتهاد ص١٤.

بأسرار القرآن وعلوم الحديث، فدوّنوها في كتبهم أو لقنوها لتلامذتهم، مع أن كلماتهم تدل على عدم بلوغهم تلك الدرجة من الكمال؛ ولا ارتياب بأنه لو فسح في أجل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وعاشوا إلى اليوم، لداموا مجتهدين مجدين يستنبطون لكل قضية حكماً وكلما زاد تعمّقهم زادوا فهماً وتدقيقاً.

إلى آخر ما تعرضنا لذكره من الآراء والأقوال في الإنكار على غلق باب الاجتهاد، ومنعه و(وهو سر تأخر المسلمين، وهو الباب المرن الذي عندما قفل تأخّر المسلمون بقدر ما تقدم العالم، فأضحى ما وضعه السابقون لا يمكن أن يغير ويبدّل لاعتبارات سياسية).

وعلى أي حال فإن هناك طائفة من العلماء يحاولون رفع ذلك الجمود الفكري وفتح باب الاجتهاد الذي دعت السياسة لإقفاله، حيث لم يعرف هناك دليل شرعي يؤيد ما ذهب إليه المقلّدون والقائلون بلزومه، ووجوب الرجوع إلى المذاهب الأربعة دون غيرها من علماء الأمة.

وقد عقد ابن القيم فصلاً طويلاً في أعلام الموقعين استقصى فيه أدلة القائلين بذلك وإبطالها بالأدلة القوية، كما قد أُلفت رسائل عديدة لهذا الغرض، وكلها تدعو إلى التحرر من تلك القيود التي أخذت بأعناق العلماء، وإذا رفع أحد منهم صوته بالدعوة إلى رفع تلك القيود أُلقي في غيابت السجن، ولقي العذاب والتنكيل، لأن السلطان كان مؤيداً لأهل التقليد، لأنهم آلة السياسة وأعوان الرياسة، فكان صوت المصلحين بينهم خافتاً ومقامهم خافياً.

وها نحن أولاء نلقي نظرة خاطفة حول الاجتهاد والتقليد، ونقف على شروط الاجتهاد كما وقفنا على كلمات الأئمة من الدعوة إليه والنهي عن التقليد، ونستطرد حجج القائلين به.

الاجتهاد:

الاجتهاد في اللغة: بذل المجهود واستفراغ الوسع في فعل من الأفعال. ولا يستعمل إلاّ فيما فيه كلفة، فيقال: اجتهد في حمل حجر الرحى. ولا يقال: اجتهد في حمل خردلة. ثم صار هذا اللفظ في عرف العلماء مخصوصاً ببذل الفقيه وسعه في طلب العلم بأحكام الشريعة.

والاجتهاد التام: أن يُبذل الوسع في الطلب بحيث يحس من نفسه بالعجز عن مزيد طلب.

وقال في كشاف اصطلاحات الفنون: (الاجتهاد في اللغة استفراغ الوسع في تحصيل أمر من الأمور مستلزم للكلفة والمشقة. وفي اصطلاح الأصوليين: استفراغ الفقيه الوسع في تحصيل ظن بحكم شرعي. والمستفرغ وسعه في ذلك التحصيل يسمى مجتهداً بكسر الهاء. ثم ذكر بعد ذلك بحثاً في التعريف والقول بتجزي الاجتهاد ـ أي جواز كونه في بعض الأحكام دون بعض ـ وشروط المجتهد فقال: (للمجتهد شرطان:

١ ـ معرفة الباري تعالى وصفاته، وتصديق النبي بمعجزاته، وسائر ما يتوقف عليه علم الإيمان، كل ذلك بأدلة إجمالية وإن لم يقدر على التحقيق والتحصيل، على ما هو دأب المتبحرين في علم الكلام.

٢ ـ أن يكون عالماً بمدارك الأحكام وأقسامها، وطرق إثباتها ووجوه دلالتها، وتفاصيل شرائطها ومراتبها، وجهات ترجيحها عند تعارضها، والتقصي عن الاعتراضات الواردة عليها فتحتاج إلى: معرفة حال الرواة، وطرق الجرح والتعديل، وأقسام النصوص المتعلقة بالأحكام، وأنواع العلوم الأدبية من اللغة والصرف وغير ذلك، هذا في حق المجتهد المطلق الذي يجتهد في الشرع) اهـ.

وجعل الشاطبي في الموافقات العمدة فيها: فهم العربية متناً وأسلوباً. ومعرفة مقاصد الشريعة، .وأجاز تقليد المجتهد لغيره في الفنون التي هي مبدأ الاجتهاد، كأن يقلد المحدثين في كون هذا الحديث صحيحاً وهذا ضعيفاً، من غير أن يعرف هو حال الرواة وطرق الجرح والتعديل.

ومن الأقوال ما يجمع بين التزام الاجتهاد والتقليد، وهي مما اقتضاه الحال في مواجهة تحرير المسائل ومقالات المتأخرين في الأصول، حيث ينم تصريحهم عن رغبة في الاجتهاد أو عمل به بالفعل، وقد ورد هنا قول محمَّد بن عبد العظيم الرومي الموردي الحنفي في الفصل الأول من كتابه (القول السديد) الذي ألفه سنة ١٠٥٢هـ: (اعلم أنه لم يكلف الله أحداً من عباده بأن يكون حنفياً أو مالكياً أو شافعياً أو حنبلياً، بل أوجب عليهم الإيمان بما بعث محمَّداً ﷺ والعمل بشريعته، غير أن العمل بها متوقف عليها. والموقوف له طرق، فما كان منها مما يشترك به العوام وأهل النظر

كالعلم بفريضة الصلاة والزكاة والصوم والحج والوضوء إجمالاً، وكالعلم بحرمة الزنا والخمر واللواطة وقتل النفس وغير ذلك مما علم من الدين بالضرورة، فذلك لا يتوقف فيه على اتباع مجتهد ومذهب معين، بل كل مسلم عليه اعتقاد ذلك. فمن كان في العصر الأول فلا يخفى وضوح ذلك في حقه، ومن كان في الأعصار المتأخرة فلوصول ذلك إلى علمه ضرورة من الإجماع والتواتر وسماع الآيات والسنن، أي الأحاديث الشريفة المستفيضة المصرحة بذلك في حق من وصلت إليه. وأما ما لا يتوصل إليه إلاّ بضرب من النظر والاستدلال، فمن كان قادراً عليه بتوفر الآلة وجب عليه فعلاً كالأئمة المجتهدين (رضي الله عنهم) ومن لم يكن له قدرة عليه؛ وجب عليه الاتباع إلى من يرشده إلى ما كلف به ممن هو أهل النظر والاجتهاد والعدالة.

التقليد:

التقليد: هو قبول قول بلا حجة. وليس من طرق العلم لا في الأصول ولا في الفروع، إلاّ أنّه لما كان الظن في الفروع كافياً للعمل، وفي الأصول غير كاف؛ جاز في الفروع دون الأصول.

وقال قوم: إن طريق معرفة الحق: التقليد، وإن ذلك هو الواجب، وإن النظر والبحث حرام(1)!!!.

قال الذين جوزوا التقليد أيضاً في الأصول: إن النظر لو كان واجباً لفعله الصحابة وأمروا به، ولكنهم لم يفعلوا، ولو فعلوا لنقل عنهم كما نقل النظر في الفروع.

ودليل الجمهور في منع التقليد في الأصول: انعقاد الإجماع على وجوب العلم بالله تعالى، ولا يحصل ذلك بالتقليد لإمكان كذب المقلّد، إذ أن صدقه إنما يعرف بالضرورة أو النظر، والأول منتف، وإذا علم ارتفع التقليد.

بين طائفتين:

ها نحن ذا بعد هذا البيان الموجز للاجتهاد والتقليد نقف بين طائفتين من المسلمين، وكل واحدة تخالف الأخرى فيما تذهب إليه من حيث الاجتهاد والتقليد،

(1) أصول الفقه لمحمّد الخضري ص٣٦٩.

وأنّ النزاع لا يزال يشتد، كلما اتسع الفكر وانتشر العلم ورفعت القيود كانت كفة القائلين بالجواز أرجح.

وإن استقصاء حجج كل من الطرفين يستدعي الإطالة في الموضوع والخروج عن شرط الكتاب، ولكنا نكتفي بالإشارة للبعض منها، والإطلاع على التفصيل في الكتب المختصة بذلك. وإنّ أكثرها فائدة واستقصاء هو كتاب «الدين الخالص» للسيد صديق حسن وكتاب «أعلام الموقعين لابن القيم الجوزية» فليراجع من أراد الوقوف على ذلك.

حجّة المقلّدين:

لقد سرت روح التقليد سرياناً عاماً بعد أن كان مريد الفقه يشتغل أولاً بدراسة الكتاب، ورواية السنة، اللذين هما أساس الاستنباط، أما في هذا الدور ـ أي دور غلق باب الاجتهاد ـ فأصبح مريد الفقه يتلقى كتب إمام معيّن، ويدرس طريقته التي استنبط بها ما دوّنه من الأحكام، فإذا أتم ذلك صار من العلماء الفقهاء. ومنهم من تعلو به همّته فيؤلّف كتاباً في أحكام إمامه. ولا يستجيز الواحد منهم لنفسه أن يقول في مسألة من المسائل قولاً يخالف ما أفتى به إمامه. كأن الحق كله نزل على لسان إمامه وقلبه، حتى قال طليعة فقهاء الحنفية في هذا الدور، أبو الحسن عبيد الله الكرخي: كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤوّلة أو منسوخة. وكل حديث كذلك فهو مؤوّل أو منسوخ. وبمثل هذا أحكموا دونهم أرتاج باب الاختيار.

والتزم كل منهم مذهباً معيناً لا يتعدّاه. ويبذل كل ما أوتي من مقدرة في نصرة ذلك المذهب جملة وتفصيلاً. مع أنه لا يخطر ببال هؤلاء الفحول ثبوت العصمة لأي إمام في اجتهاده، وقد كان الأئمة أنفسهم يعترفون بجواز الخطأ عليهم، وأن تكون هناك سنّة لم يطلعوا عليها[1].

وعلى هذا سارت قافلة الزمن، ولم يكن هناك طريق لرفع ذلك التحجير وإيقاف تسريات تلك الروح. ومن يحاول الاجتهاد والاتصال بالأدلة الشرعية يكون نصيبه النكال والتعذيب، ويُرمى بالبدعة والضلالة. وقد وقع ذلك لكثير من العلماء.

وعلى أي حال فقد احتج القائلون بلزوم التقليد بأمور:

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامي ص٤٢٤ ـ ٤٢٦.

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وبقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وقالوا: إنَّ أهل الذكر وأولي الأمر هم العلماء.

٢ ـ إن النبي ﷺ أرشد إلى التقليد وسؤال من لا يعلم لمن يعلم، فقال في حديث صاحب الشجة: «ألا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العيّ السؤال»[١].

٣ ـ تصريح الشافعي بتقليده لعمر: في الضبع بعير، أي كفّارة قتل الضبع بعير، أنّه قال: قلته تقليداً لعمر، وفي مسألة بيع الحيوان بالبراءة من العيوب، تقليداً لعثمان. وفي مسألة الجد مع الأخوة، تقليداً لزيد. وعنه (أي عن زيد) قبلنا أكثر الفرائض. وهذا أبو حنيفة ليس معه في مسائل الابار إلاّ تقليد من تقدمه من التابعين فيها. وهذا مالك لا يخرج عن عمل أهل المدينة.

وقال محمّد بن الحسن الشيباني: يجوز للعالم أن يقلّد من هو أعلم منه، ولا يجوز له أن يقلّد من هو مثله.

٤ ـ استدلّوا بقول عمر: إني لأستحي من الله أن أخالف أبا بكر. وقال لأبي بكر: رأينا تبع لرأيك. إلى آخر ما أوردوه من الاحتجاج لذلك. وأنت ترى أن حججهم خارجة عن محل النزاع.

أما الآيات فهي عامة، فما الدليل على تخصصها بالأربعة، وأنّه لا يجوز سؤال غيرهم؟ وأن جميع ما ذكروه لا يصلح لإثبات المدعى. وقد أجاب عنه مانعو التقليد وفندوا ما ذهبوا إليه.

وقال أبو عمر: يقال لمن قال بالتقليد لم قلت به وخالفت السّلف في ذلك فإنهم لم يقلّدوا؟

فإن قال: قلت لأن كتاب الله لا علم لي بتأويله، وسنّة رسول الله ﷺ لم أحصها، والذي قلدته قد علم ذلك، فقلدت من هو أعلم مني.

---

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه عن جابر قال: خرجنا في سفر، فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبر بذلك فقال: «قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا» الحديث.

قيل له: أما العلماء إذا أجمعوا على شيء من تأويل الكتاب، أو حكاية عن رسول الله ﷺ أو اجتمع رأيهم على شيء فهو الحق لا شك فيه، ولكن قد اختلفوا فيما قلدت فيه بعضهم دون بعض، فما حجتك في تقليد بعضهم دون بعض وكلهم عالم؟ ولعل الذي رغبت عن قوله أعلم من الذي ذهبت إلى مذهبه.

فإن قال: قلدته لأني أعلم أنه على صواب.

قيل له: علمت ذلك بدليل من كتاب الله أو سنة أو إجماع؟

فإن قال: نعم. أبطل التقليد وطولب بما ادعاه من الدليل.

وإن قال: قلدته لأنه أعلم مني. قيل له فقلد كل من هو أعلم منك، فإنك تجد من ذلك خلقاً كثيراً، ولا تحصي من قلدته إذ علتك فيه أنه أعلم منك.

فإن قال: قلّدته لأنه أعلم الناس.

قيل له: إذاً أعلم من الصحابة وكفى بقول مثل هذا قبحاً!! إلى أن يقول: ولا خلاف بين أئمة الأمصار في فساد التقليد[1].

وعلى أي حال فإن روح التقليد قد سرت وأشرب قلوب المقلدين حب التعصب للمذهب الذي يتبعونه، وحكموا بخلوّ الأرض من القائمين لله بحجة، وقالوا: لم يبق في الأرض عالم منذ الأعصار المتقدمة.

فقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد أبي حنيفة، وأبي يوسف وزفر بن الهذيل، ومحمّد بن الحسن الشيباني، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وهذا قول كثير من الحنفية.

وقال بكر بن العلاء القشيري: ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة.

وقال آخرون: ليس لأحد أن يختار بعد الأوزاعي، وسفيان الثوري، ووكيع بن الجراح، وعبد الله بن المبارك.

وقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد الشافعي.

وعند هؤلاء أن الأرض قد خلت من قائم لله بحجّة، ولم يبق فيها من يتكلم بالعلم، ولم يحل لأحد بعدُ أن ينظر في كتاب الله ولا سنّة رسوله لأخذ الأحكام منها،

(١) أعلام الموقعين ج٢ ص١٧٩.

ويقضي ويفتي بما فيهما حتى يعرضه على قول مقلده ومتبوعه، فإن وافقه حكم به وأفتى به، وإلاّ ردّه ولم يقبله.

وهذه أقوال ـ كما ترى ـ قد بلغت من الفساد والبطلان والتناقض والقول على الله بلا علم، وإبطال حججه، والزهد في كتابه وسنة رسوله[١].

وإن منهم من أقام رؤساء المذاهب مقام الأنبياء (بل إن من اتباعهم من قدّمهم عليهم عند تعارض كلامهم مع الحديث الصحيح، فإنّهم يردون كلام النبي المعصوم مع اعتقادهم صحة سنده، لقول نقل عن إمامهم، ويتعلّلون باحتمالات ضعيفة كقولهم: يحتمل أن يكون الحديث نُسخ، ويحتمل أنّ عند إمامنا حديثاً آخر يعارضه!!).

ولا شك أنّ هؤلاء المقلدين قد خرجوا بغلوهم في التقليد عن التقليد، لأنهم لو قلّدوا الأئمة في آدابهم وسيرتهم وتمسّكهم بما صح عندهم من السنّة لما ردّوا كلام المعصوم لكلام غير المعصوم، الذي يجوز عليه الخطأ والجهل بالحكم، وكانوا يأمرون بأن يُترك قولهم إذا خالف الحديث. بل تسلّق هؤلاء الغالون ـ بمثل ذلك ـ إلى القرآن نفسه، وهو المتواتر القطعي والإمام المبين.

وتجرأ بعضهم أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ دينه من الكتاب، لأنه لا يفهمه، وإنما يفهمه رجال الدين، فيجب عليه أن يأخذ بكل ما قالوا وإن خالف الكتاب، ولا يجوز له أن يأخذ بالكتاب إذا خالف ما قالوا، بل لا يجوز لأحد أن يقول: هذا حلال وهذا حرام، لأن الله قال كذا، أو لأن رسول الله قال كذا، بل لأن فلاناً الفقيه قال كذا[٢]!!!!.

وجملة القول أنهم انقسموا إلى فئتين، فئة ترى بقاء القديم على قدمه والمحافظة على إبقاء ما قرر في تلك العصور، حتى عدوا محاولة الخروج عن ذلك ضلالاً وبدعة.

وفئة ترى وجوب حل تلك القيود وإطلاق حرية الفكر والرجوع إلى أصول

---

(١) أعلام الموقعين ج٢ ص٢٥٦ ـ ٢٥٧.
(٢) الوحدة الإسلامية ص٤٥ ـ ٤٦.

استنباط الحكم، وكلما طال الزمن اتسع نشاط هذا الرأي وكثر الإنكار على من يقول بغلق باب الاجتهاد.

ذكروا يوماً في مجلس السيد جمال الدين الأفغاني(١) قولاً للقاضي عياض، واتخذوه حجة، واشتد تمسّكهم بذلك القول حتى أنزلوه منزلة الوحي، بأنّه لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا من أمامه.

فقال جمال الدين: يا سبحان الله إن القاضي عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله، وتناوله فهمه وزمانه، أفلا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه وأصح من قول القاضي عياض أو غيره من الأئمة؟.

وذكروا أن باب الاجتهاد مسدود لتعذّر شروطه.

فتنفّس جمال الدين الصعداء وقال:

ما معنى باب الاجتهاد مسدود؟ وبأي نص سد باب الاجتهاد، أو أي إمام قال لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهد ليتفقه بالدين؟! وأن يهتدي بهدي القرآن، وصحيح الحديث، أو أن يجدّ ويجتهد لتوسيع مفهومه منها، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان وأحكامه، ولا ينافي جوهر النص.

إن الله بعث محمّداً رسولاً بلسان قومه العربي يفهمهم ما يريد إفهامهم، وليفهموا منه ما يقوله لهم ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾.

وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ وفي مكان آخر ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

فالقرآن ما أنزل إلاّ ليُفهم، ولكي يعمل الإنسان بعقله لتدبّر معانيه. وفهم أحكامه، والمراد منها(٢).

---

(١) السيد جمال الدين بن صفتر أو صفدر ولد سنة ١٢٥٤هـ ١٨٣٨م، وتوفي يوم الثلاثاء ٩ مارس سنة ١٨٩٧م ١٣١٤هـ بالأستانة، وينتهي نسبه إلى الحسين بن علي عليهما السّلام، وعشيرته قوية في الأفغان، وهم محل احترام وتقدير الأفغانيين، ونشأ جمال الدين بينهم وسافر إلى البلاد الإسلامية يدعو للإصلاح، ولقي أذى كثيراً في سبيل ذلك من أعلام النهضة ورجال الحرية. ترك منهجه واضحاً عند الكثيرين وكان له الفضل في بعث روح الفكر وتجديد حركتها بالتصدي للجمود والتعصب.

(٢) خاطرات جمال الدين للمخزومي ص١٧٧ ـ ١٧٨.

وكان تلميذه الشيخ محمّد عبده[1] يدعو لفتح باب الاجتهاد، وينكر الجمود على القديم، ويدعو لحل تلك القيود، وإطلاق حرية الفكر، والرجوع الصحيح إلى قواعد الدّين. وكان يناضل عن هذه الفئة بلسانه وقلمه، وإليك بيان وجهة نظره في قوله:

(وارتفع صوتي في الدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه من ينابيعها الأولى، واعتباره من موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلّل من غلطه وخبطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وأنّه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم، باعثاً على البحث في أسرار الكون، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في آداب النفس وإصلاح العمل[2].

وقام السيد رشيد رضا تلميذ الشيخ محمّد عبده في المطالبة بفتح باب الاجتهاد، وشدّد النكير على من يذهب إلى غلقه، في لزوم اتباع مذهب معين، ومن أقواله: (ولا نعرف في ترك الاجتهاد منفعة ما، وأما مضاره فكثيرة، وكلها ترجع إلى إهمال العقل، وقطع طريق العلم، والحرمان من استغلال الفكر، وقد أهمل المسلمون كل علم بترك الاجتهاد، فصاروا إلى ما نرى)[3].

وذكر (أنه لولا خوفهم ـ أي العلماء ـ من حكومات الجهل لبيّنوا مفاسد التقليد الذي حرمه الله، ودعوا الناس إلى العمل بالدليل كما أمر الله، وقد علمت الحكومة العثمانية منذ عهد قريب، بأن بعض علماء الشام يحملون تلاميذهم على ترك التقليد، والعمل بالدليل، فشددت عليهم النكير حتى سكتوا عن الجهر)[4].

ويقول الدكتور أحمد أمين: وقد أصيب المسلمون بحكمهم على أنفسهم بالعجز وقولهم بإقفال باب الاجتهاد؛ لأن معناه أنه لم يبق في الناس من تتوفر فيه شروط المجتهد، ولا يرجى أن يكون ذلك في المستقبل وإنّما قال هذا القول بعض

---

(١) هو الشيخ محمّد بن عبده خير الدين المتوفى ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣هـ ١٩٠٥م كان حامل لواء نهضة العلم في مصر، وهو تلميذ السيد جمال الدين الأفغاني وله آثار قيمة وذكر جميل.

(٢) أعلام الإسلام ص٩٩.

(٣) الوحدة الإسلامية ص١٣٧.

(٤) نفس المصدر ص٤٥.

المقلّدين لضعف ثقتهم بأنفسهم وسوء ظنّهم بالناس وزعمهم عكس ما يقول أصحاب النشوء والارتقاء من دعواهم أن العقل دائماً في تدنٍ وانحطاط، وغلوهم في تعظيم السابقين. . .(1).

وقد تقدم في الجزء الأول بعض ما يتعلّق بمسألة الاجتهاد والتقليد وذكرنا هناك آراء كل من الفريقين من العلماء المعاصرين وغيرهم.

التلفيق:

وهو الأخذ برأي إمام في مسألة، والعدول عن رأيه إلى رأي غيره في مسألة أخرى. وقد وقع الخلاف في جوازه ومنعه.

وقال الشاطبي: إنّه ليس للمقلد أن يتخير في الخلاف، كما إذا اختلف المجتهدون على قولين، فوردت كذلك على المقلّد، فقد يعد بعض الناس القولين بالنسبة إليه مخيراً فيهما، كما يخير في خصال الكفّارة، فيتبع هواه وما يوافق غرضه. إلى أن يقول: وقد أدى إغفال هذا الأصل إلى أن صار كثير من مقلدة الفقهاء يفتي قريبه أو صديقه بما لا يفتي به غيره من الأقوال، اتباعاً لغرضه وشهوته، أو لغرض ذلك القريب وذلك الصديق. ثم أورد قصصاً عن القضاة والمفتين الذين طلبوا الرخص في الفتوى، نزولاً لرغبة السلطان أو الأصدقاء والأقارب، كقصة قاضي قرطبة الذي قضى بما يرضي المخلوقين، وقصة يحيى بن لبانة عندما عزل عن القضاء لسقوط عدالته، ولكنه عاد إلى المنصب عندما أفتى الخليفة بما يرضيه(2).

وأجاز ذلك آخرون. وقد نسبوا التخير في القولين، وتتبع الرّخص لأكثر أصحاب الشافعي. وقد منع الحنفية ذلك، ولكنه واقع عندهم في أكثر الفتاوى. واستدل المجوزون: بما فعله أبو يوسف من التلفيق، وذلك أنّه لما صلى بالناس الجمعة، فأخبر بوجود فارة في ماء الحمام الذي كان قد اغتسل منه للجمعة، فقال: نأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة: (إذا بلغ الماء قلّتين لم يحمل خبثاً)(3).

وكان أبو يوسف ومحمّد بن الحسن ـ وهما عماد المذهب الحنفي ـ يكبّران في

---

(1) يوم الإسلام ص١٨٩.

(2) الموافقات ج٤ ص١٣٧ ـ ١٤١.

(3) القول السديد ص٢٤.

العيدين تكبير ابن عباس، لأن هارون الرشيد كان يحب تكبير جدّه[1].

قال الأستاذ السيد محمّد رشيد رضا في تعليقته على قول الشاطبي في الاعتصام في الوجه الثامن من الوجوه التي جعلها لمعرفة الانحراف عن السنّة والميل للبدعة؛ (ومن فروع هذه البدعة أن بعضهم يستحل أن يجعل المرجح لأحد القولين في الفتوى ما يعطيه المستفتون من الدراهم، فإذا جاء مستفتيان في مسألة واحدة فيها خلاف يطلب أحدهما الفتوى بالجواز أو الحل، والآخر يطلب الفتوى بالمنع أو الحرمة، يفتي من كان منهما أكثر بذلاً للمفتي، فهو تارة يفتي بالحل وتارة يفتي بالحرمة، والقاعدة في ذلك ما صرّح به بعض الفقهاء في بعض الكتب التي تدرس في الأزهر: (نحن مع الدراهم قلةً وكثرةً) فإذا كان القولان المتناقضان صحيحين في المذهب؛ جاز أن يكون السحت هو المرجح في الفتوى. ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم[2]) اهـ.

وقال الشيخ محمّد عبد الله دراز شارح الموافقات: بل أخرجوا الأمر عن كونه قانوناً شرعياً وعدّوه متجراً، حتى كتب بعض المؤلّفين في الشافعية ما نصه: (نحن مع الدراهم كثرةً وقلةً)[3].

نسبة المذهب إلى أبي حنيفة:

وقبل أن نترك الكلام حول الاجتهاد والتقليد لا بد لنا من الإشارة لأمور:

إن المذهب الحنفي لم يكن ينتسب لأبي حنيفة لأنه مرجع جميع أحكامه ومصدر فقهه، ولكن تلك النسبة اصطلاحية. فإنا نجد أن المذهب قد تكوّن من مجموعة أقوال وآراء لأبي حنيفة ولأصحابه من بعده، وأن أصول المذهب مشتملة على أقوال أبي يوسف[4] وأبي حنيفة، ومحمّد بن الحسن.

وكان أبو يوسف ومحمّد بن الحسن يجتهد كل منهما، وربما يتفق مع قول أبي حنيفة أو يخالفه، كما أن أبا يوسف ومحمّد بن الحسن كانا يختلفان في كثير من

---

(١) حجة الله البالغة ج١ ص١٥٨.

(٢) كتاب الاعتصام ج٣ ص٢٦٨.

(٣) الموافقات ج٤ ص١٣٥.

(٤) بحثنا في الجزء السابع في سيرة أبي يوسف وإفتائه بحسب رغبة المستفتي.

المسائل، على أنا نقطع بأن كثيراً من الحوادث والوقائع لم يكن لأبي حنيفة فيها رأي، ولكن استنبطها المجتهدون المتأخرون عنه، بل لم تكن فيها رواية عن أبي يوسف وغيره من الطبقة الأولى من مجتهدي المذهب، فنسبت تلك المسائل التي استخرجها المتأخرون إلى المذهب باعتبار أن هؤلاء مجتهدون في المذهب فحسب، وإن كانت لهم ملكة الاستنباط والاستدلال والقوة في الاجتهاد.

ومن مجموع تلك الأقوال التي صدرت عن أبي حنيفة وأصحابه، وما خرّجه المتأخرون تكوّن المذهب الحنفي. فأصبح المجموع ينسب لأبي حنيفة. والظاهر أن منعهم اجتهاد أي أحد، والالتزام بقول إمام المذهب، لا يعود لأبي حنيفة وحده، وإنما هو لأبي حنيفة وأصحابه معاً.

طريق الأصول للمذاهب:

إن أصول الفقه للمذاهب قد اتفقت طريقتهم في الأصول في الجملة، وإن أصولهم لم تكن كأصول المذهب الشافعي، فهو يعد في الواقع أصلاً لأصولهم وإن خالفوه في كثير منها.

فالحنفية قد اتفقت طريقة استنباطهم في الجملة مع أصول الاستنباط عند الشافعي، وكذلك المالكية اتحدت طريقتهم مع أكثر ما جاء في رسالة الشافعي، والخلاف بينهم وبينه أكثر مما بينه وبين الحنفية، وقد تجاوز الخلاف التفصيلات إلى بعض الأصول العامة، فعمل أهل المدينة حجة عندهم. وقد شدّد الشافعي عليه في رده في مواضع كثيرة من كتاب «الأم».

والحنابلة قد أخذوا بأصول الشافعي، ولكنهم لم يتصوروا إجماعاً غير إجماع الصحابة، وفي التحقيق أنهم - وإن خالفوا الشافعي في ظاهر الأصل - فإنهم لم يتعدوا روح الرأي عند الشافعي، لأن الشافعي - وإن أطلق حجية الإجماع - فلم يفرضها في عصر ولا في أمر، فالفرق في الإجماع بين الشافعي وأحمد ليس كبيراً، وإن كان في ظاهر القول لا يبدو صغيراً.

ومن هذا نرى المذاهب الأربعة تتلاقى أصولهم وتتقارب ينابيع استنباطهم، ولا تتباعد، وإن جاءت الفروع مختلفة اختلافاً كبيراً في بعض الأحيان[1].

---

(1) الشافعي لأبي زهرة ص ٣٣٠.

الشيعة والاجتهاد:

كان من المناسب ذكر شروط الاجتهاد عند الشيعة في هذا البحث، ولكن رأينا تأخير ذلك لمحله، عند ذكرنا لنهضة الشيعة العلمية، وأنّهم لم يخضعوا لنظام السلطة في غلق باب الاجتهاد، إذ لم يكن تعليمهم يدخل تحت نظام الدولة، ولم تخضع مدارسهم لذلك المنهج الذي سارت عليه أكثر المدارس الإسلامية، بل ساروا على منهج أهل البيت في عدم مؤازرة الدولة (وباب الاجتهاد عندهم لم يغلق، ولا زال مفتوحاً، وهذا مما يفاخر به الشيعة سائر جماعات المسلمين اليوم)[1].

ومن الخطأ القول بأن الشيعة تقدّم أقوال الأئمة على نصّ الكتاب وحديث الرسول، كيف وإن أئمة أهل البيت هم حملة علم الكتاب وسنّة رسوله، فهم المبلّغون لهما، وهم أصدق الناس حديثاً وأتقاهم وأشدّهم خوفاً من الله، وأزهدهم في الحياة الدنيا.

وإنّ الغلو الذي يدّعونه على الشيعة في أهل البيت، إنما هو دون الغلو في أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، من إعطاء أقوالهم وآرائهم منزلة تهجر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في جانبها. وسيتضح ذلك في بحث الفقه إن شاء الله.

الخلاصة:

إن تفرق المسلمين واختلافهم في المذاهب، وتعصّب كل لمذهبه والانتصار له قد ملأ جو العالم الإسلامي بفتن يتبع بعضها بعضاً، وكان التعصب والتحزب وراء أن يشهر المسلمون سيوفهم بعضهم على بعض، والسبب الذي حلّل دماءهم وأموالهم وأعراضهم. وحرّف الكتاب والسنّة ثم صيرهما كالعدم بسد باب الاجتهاد.

ثم ترتب على هذا الافتراق تقويم كل لعمود الشقاق، وصار كل منهم يعتز بمن مال إليه من الملوك على خصمه، وعظمت المجادلة واشتدت المناضلة. وأسباب ذلك ترجع إلى التزلف للأمراء والخلفاء، والتزاحم على منصب القضاء، كما ذكر ذلك الغزالي وغيره، وقد شدّد النكير على من ينتقل من مذهب لآخر.

---

(١) الشافعي لأبي زهرة ص٣٣٤.

وحدث من وراء ذلك فتن ومشاغبات بين المذاهب، كما حدث للسمعاني[1] عندما انتقل من مذهب النعمان إلى مذهب الشافعي، فقامت الحرب على ساق، واضطرمت بين الفريقين نيران فتنة كادت تملأ ما بين خراسان والعراق، واضطرب أهل مرو لذلك اضطراباً، وذلك في سنة ٤٦٨هـ وأدّى الأمر إلى غلق باب الجامع، ورفعوا الأمر للسلطان، فنفاه من مرو ولم يعد إليها إلاّ بعد مدة[2]. وكثير أمثال السمعاني قد واجهوا مصائب عند تحولهم من مذهب إلى مذهب.

وأدّى الخلاف بين المذاهب إلى رمي بعضهم بعضاً بالكفر، كما صرّح القشيري في كلامه للوزير عندما أراد حل مشكلة الخلاف بين الحنبلية والشافعية. وكان القشيري زعيم الشافعية فقال للوزير: أيّ صلح يكون بيننا؟ إنما يكون الصلح بين مختصمين على ولاية أو دين أو تنازع في ملك. فأمّا هؤلاء فإنّهم يزعمون أنّا كفار، ونحن نزعم أن من لا يعتقد ما نعتقده كافر، فأيّ صلح يكون بيننا[3]؟

وذهب بعضهم إلى لزوم تعزير من انتقل من مذهب لمذهب، وعدم قبول شهادته (كما اشتهر بين الحنفية، من أن الحنفي إذا انتقل إلى مذهب الشافعي يعزر، وإذا كان بالعكس يخلع، وقيل لا تقبل شهادته)[4] ومنعوا اقتداء بعض أهل المذاهب بالبعض الآخر. بل تجد الحنفي في كثير من البلاد لا يصلّي خلف الشافعي. وكسر بعضهم سبابة مصلّ لرفعه إياها في التشهد لأن ذلك محرّم عندهم، كما ذهب إليه الكيداني وغيره من الحنفية، واختلفوا في تزويج الحنفية بالشافعي، لقول بعضهم: لا يصح ذلك لأنها تشك في إيمانها، يعني أنّ الشافعية وغيرهم من الأشعرية يجوزون أن يقول المسلم: أنا مؤمن إن شاء الله. وقال آخرون: يصح نكاحها ـ أي الشافعية ـ قياساً على الذمية[5]، إلى غير ذلك من الأمور البعيدة عن روح الإسلام ولا يقرّها أولئك الأئمة ولا يرضون بها.

وبهذا الاختلاف وقع من الفتن بين المختلفين في الفروع وفي الأصول ما سوّد

---

(١) هو منصور بن أحمد التميمي أبو المظفر السمعاني المتوفى سنة ٤٨٩هـ بمرو كان حنفي المذهب، فنشر المذهب الشافعي مدعياً إن الله أمره بذلك في الرؤيا، إذ رأى رب العزة والمقام فقال له: عد إلينا، فأوّل ذلك بأنه أراد مذهب الشافعي.

(٢) طبقات الشافعية ج٤ ص٢٣ ـ ٢٥.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ج١ ص٢٢.

(٤) إيقاظ همم ذوي الأبصار ص٧٦. (٥) الوحدة الإسلامية ١٤٥ ـ ١٤٦.

وجه التاريخ، وكدّر صفو الأخوة، وذهب بجهود المصلحين أدراج الرياح، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

وفي الحقيقة إنّ مبعث ذلك إنما هو حب الرياسة والأثرة، وشغب المتدخلين في صفوف المسلمين لإيقاد نار البغضاء والحقد، ولو رجعنا إلى الواقع نجد ذلك الشذوذ والتطرّف الذي ارتكبه المتعصّبون بعيداً كل البعد عن الدين.

ولم يكن الأمر ليصل إلى هذا الحد من التطاحن والتفرّق لولا الأخذ بأساليب الحكام والميل إلى سبلهم في حماية أشخاصهم ومصالح ملكهم. وقد كان غلق باب الاجتهاد من تصرفات الحكام بعد أن تمكّن غيرهم من توجيه الأحداث كما يشاؤون، والتدخّل في معتقدات الناس وأفكارهم، وحتى يأمنوا جانب العلماء خشية مضيهم على ما ركّبه الله فيهم من آلة العقل وأداة التفكّر فيقولوا أو يفتوا بما يضر الجور ويقف بوجه الظلم، فأغلقوا الباب الذي كان يمكن أن يتسلّل منه هذا الخطر. وبذلك دخلت الأمّة في دور من الجمود والحجر ـ وصفنا جانباً منه في الأجزاء السابقة، وسنأتي على صور منه فيما يأتي من أجزاء ـ. ولم يخضع الشيعة لمثل هذه السياسة التعسفية وإنما بقي للعقل مكانته، فكيف تهمل وسيلة من وسائل التدبّر والحكمة التي ـ بضبطها بقواعد الاستخدام الشرعية المستمدة من الكتاب والسنّة ـ تنتج أحكام ليس فيها شطط الرأي ولا ميل الهوى. ومن نتائج البعد عن العقل ومجافاة الصواب انقياد المسلم لما ارتآه الحكام لمصلحتهم، واتفقت الأدلة على منافاته لروح الأخوة الإسلامية.

وبعد أن مرّت تلك الأدوار وما فيها ـ وفي ذمة التأريخ ذلك ـ فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى الوحدة والتفاهم، لرفع تلك الأشواك التي غرست في طريق تفاهم المسلم مع أخيه، لأنا في مشاكل أمام خصوم الإسلام لا يحلّها إلاّ الاتحاد والرجوع إلى الأمر الأول، واتباع أوامر الرّسول وتعاليم القرآن، وأخذ العلم من أهله، وأن نعرف الحق حقاً فنتبعه والباطل باطلاً فنتجنبه، لنعيش عيش سعادة وهناء تحت ظلال الدين الحنيف.

وإلى الله نبتهل أن يجعل كلمة الإسلام هي العليا. وأن يجمع شمل المسلمين وينصرهم على خصومهم الذين يكيدون لهم ويسعون في تفريق كلمتهم، وما النصر إلاّ من عند الله.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

الإمـام الشافعي

تمهيد:

مرّ بنا من قبل أن البحث عن حياة أئمة المذاهب الأربعة معقد يحتاج إلى مزيد من العناية، لكثرة الحكايات والقصص التي لا تتسق مع الواقع ولا أثر لها في تمييز الطابع الذي طبع عليه، لذلك نرى من الحق علينا أن نتناول دراسة حياة كل واحد منهم من طرقها المختلفة، لكي يتسنى لنا الوقوف على الواقع بعد التمحيص والتثبت في جميع ما ورد بمختلف المصادر، من أمور متباينة وأقوال متناقضة، كان مبعثها اندفاع بعض معتنقي المذهب وراء العاطفة، والخروج عن حدود الواقع، إذ العاطفة تغلب على العقل فتعطّله، وتطغى على الواقع فتخفيه، وتجعل الأمور الوهمية كحقائق لا تقبل النقاش والجدل، وبذلك تضاعفت تلك الصعوبات التي تقف أمام الباحث، وها نحن أمام البحث عن حياة الإمام الشافعي، وقد وقفنا على كثير من الزوائد فأهملنا ذكرها، وإن من الغريب أن يجمد بعض أساتذة العصر الحاضر على ما وقفوا عليه في دراسة حياة الإمام الشافعي بدون تمحيص، وكان الواجب يقضي عليهم أن يتتبعوا الحقائق التاريخية ولا يقتنعوا بكل ما ورد، وإليك مثلاً من ذلك:

الأستاذ علي فكري، الأمين الأول لدار الكتب المصرية، يحدّثنا أن الشافعي سافر إلى العراق في حياة الإمام مالك ودخل الكوفة واجتمع بأبي يوسف ومحمّد بن الحسن الشيباني وجرت بينهم مناظرات ومسائل، ونزل في الكوفة ضيفاً على محمّد بن الحسن ونسخ كتبه. ثم ذكر رحلته إلى بلاد فارس وما حولها من بلاد العجم، ثم سافر إلى بلاد ربيعة ومضر وشمال العراق حتى وصل إلى جنوب بلاد الروم ـ وهي الأناضول الآن ـ وعرج على حرّان وأقام فيها زمناً، ثم سافر منها إلى فلسطين وأقام في الرملة في جنوب بيت المقدس. وقد استغرقت هذه السياحة حولين

كاملين من سنة ١٧٢هـ إلى سنة ١٧٤ ثم رجع إلى المدينة لرؤيا مالك. إلى آخر ما ذكره[1].

وجميع ما ذكره لا أصل له، والأستاذ عوّل على مخيلته أو على كتب لا يعتمد عليها. وكان بوسعه ـ وهو الأمين الأول لمكتبة عامة ـ أن يراجع ويبحث وينقّب عن مصادر يستمد منها ما يكتب.

كان بوسع الأستاذ أن يقف على الحقائق التاريخية، وأن يعلم أن رحلة الشافعي كانت لبغداد لا للكوفة، وذلك سنة ١٨٤هـ وهي الرحلة الأولى، وأن وفاة أبي يوسف كانت سنة ١٨٢ أو ١٨٣هـ أي قبل دخول الشافعي لبغداد بأكثر من سنة.

وكان بوسع الأستاذ أن يعرف وفاة الإمام مالك وهي سنة ١٧٩هـ وأن رحلة الشافعي سنة ١٨٤هـ ليتضح له أن رحلة الشافعي كانت بعد وفاة مالك بخمس سنوات.

ولعله استند في بعض ما نقله إلى الرحلة التي وضعها عبد الله بن محمّد البلوي، وهي مكذوبة لا أصل لها؛ كما نص على ذلك حفّاظ الحديث، كأبي نعيم، والفخر الرازي، وابن حجر وابن القيم وغيرهم. وكثيراً من الأمور التي تخالف الواقع أو ردّوها على علاّتها في ترجمة الشافعي بدون تثبت وترو.

وعلى أي حال فإن من الحق أن نتناول دراسة حياة الإمام الشافعي من مختلف المصادر، ولنا الحق في التنبيه على بعض ما يخالف الواقع خدمة للعلم وطلباً للحق، والله المسدد للصواب.

نسبه ونشأته:

أبو عبد الله محمّد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف.

ولد سنة ١٥٠هـ نهار الجمعة آخر يوم من رجب. وقيل في اليوم الذي مات فيه أبو حنيفة، وقيل غير ذلك على اختلاف الأقوال.

واختلفوا في محل ولادته، فقيل: بغزة، أو عسقلان، أو اليمن. وهناك قول

(١) أحسن القصص ج٤ ص٧٣ ـ ٨٧.

شاذ: أنّه ولد بمكة، وقد أجهد أصحاب المناقب أنفسهم بالجمع بين هذه الروايات ولا حاجة لذكرها هنا.

أما وفاته فكانت سنة ٢٠٤هـ بمصر، وحمل على الأعناق من الفسطاط حتى دفن في مقبرة بني زهرة، وتعرف بتربة ابن عبد الحكم وفيه يقول الشاعر:

أكرم به رجلاً ما مثله رجلٌ   مشارك لرسول الله في نسبه
أضحى بمصر دفيناً في مقطمها   نعم المقطم والمدفون في تربه

والمطلب الذي ينتهي إليه الشّافعي هو أحد أولاد عبد مناف الأربعة، وهم: المطلب، وهاشم، وعبد شمس جد الأمويين، ونوفل. والمطلب هو الذي ربّى عبد المطلب ابن أخيه هاشم جد النبي ﷺ.

فالشّافعي بهذا السياق قرشي النسب، يلتقي مع النبي ﷺ في عبد مناف. هذا ما عليه الأكثر.

وذهب بعضهم: أن الشّافعي لم يكن قرشياً بالنسب، بل كان قرشياً بالولاء. فهو مولى لهم وليس منهم، لأن شافعاً جده كان مولى لأبي لهب، فطلب من عمر أن يجعله من موالي قريش فامتنع، فطلب من عثمان ذلك ففعل، فعلى هذا التقدير يكون الشافعي من موالي قريش كما ذكر ذلك بعض المالكية والحنفية[1].

وأمّا أمّه فهي من الأزد وكنيتها أم حبيبة كما ذكر ذلك الساجي، والأبري والبيهقي والخطيب والأردستاني وغيرهم.

وقيل: إنها إسدية، مستدلين على ذلك بما روي عن الشافعي: أنّه لما قدم مصر سأله بعضهم أن ينزل عنده فأبى وقال: أنزل على أخوالي الأسديين فنزل عليهم[2].

وقيل إنها فاطمة بنت عبد اللّه، أبو عبيد بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب. قال الرّازي: وهذا القول شاذ رواه الحاكم، وضعفه البيهقي، وذهب المقري إلى نفيه، ولكن السبكي ذهب إلى تأييده وليس له شاهد على ذلك.

وقيل أيضاً: إنّها فاطمة بنت عبد اللّه بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي

(١) مناقب الشافعي للفخر الرازي ص٣ ـ ٥. وهامش الانتقاء لابن عبد البر ص٦٦. والشافعي لمحمّد أبو زهرة ص١٥.
(٢) طبقات الشافعية ج١ ص١٠٠.

طالب، أو أنها بنت عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط[1].

وعلى أي حال: إن الادعاء بكرامة قرشية علوية مخالف لما عليه الإجماع وعلماء النسب، ولكن ذلك منصب محض وادعاء يخالف ما جاء عن الشافعي في عدة روايات: أن أمه أزدية لا قرشية وانعقد الإجماع على ذلك.

أما أبوه إدريس فلم يفصح التاريخ عن شيء من حياته وسيرته ووفاته، ولم يحتفظ إلاّ بالاسم فقط، فليس له ترجمة في جميع الكتب التي ذكرت الشافعي، ولا في غيرها من كتب الحديث والرجال والأدب.

وبذلك حرمنا معرفة كثير من الأمور التي نود أن نعرفها عن حياة إدريس والد هذا الإمام العظيم. وقد ذكر بعضهم أشياء مرتجلة لا صحة لها كقول هداية الله الحسيني: إن والد الشافعي سلّمه للتفقه إلى مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة. وهذا غير صحيح بالإجماع، لأن جميع الروايات متضافرة على أن الشافعي نشأ يتيماً في حجر أمه، وتولت تربيته عندما خشيت عليه الضيعة، فأرسلته إلى مكة وهو ابن عشر سنين.

فالشافعي إذاً لم يترب في ظلال أبيه، ولم يتول ذلك إلاّ أمه، ولا نعلم أنه عرف أباه وحدّث عنه، كما لا نعلم هل ولد الشافعي في حياة أبيه أم أنه مات أبوه وهو حمل في بطن أمه؟ وهل أن إدريس كان في مكة ورحل إلى اليمن. وما هي أسباب رحلته؟ كل ذلك مجهول وفي ذمة التاريخ.

وجاء في مقدمة كتاب «الأم»: أن والد الشافعي كان رجلاً حجازياً فقيراً خرج مهاجراً من مكة إلى الشام وأقام بـ «غزة» و«عسقلان» ببلاد فلسطين، ثم مات بعد ولادة الشافعي بقليل.

ولكن هذا القول لم يستند إلى نص تاريخي، وأياً كان فالروايات مختلفة والأقوال متفرقة في ولادته ومحلها، وهجرته ووقتها وكذلك رحلاته المتعددة وتحصيله للعلم بأي زمن. فهل كان من صغر سنه أم بعد نشأته. وكذلك دخوله إلى مكّة فقيل: إنه لما بلغ من العمر سنتين وأصبح قرة عين والدته، فرأت أمه أن تحمله إلى مكة المكرّمة، صوناً لنسبه من الضياع إذا بقي في غزة، فهاجرت به، ونزلت

---

(١) مناقب الرازي ٦. وطبقات السبكي ج١ ص١٠٠ ـ ٢٤٩. وتوالي التأسيس ص٤٦. ومشارق الأنوار للعدوي ص١٨١. وإسعاف الراغبين للصبّان وغيرها.

بجوار الحرم بحي يقال له «شعب الخيف» ولما ترعرع أرسلته أمّه إلى الكتّاب، وحفظ القرآن وعمره سبع سنوات. وقيل: إن الشافعي ولد بغزّة وحمل إلى عسقلان ودخل مكة وهو ابن عشر.

طلبه العلم في مكّة:

كان دخول الشافعي إلى مكة وهو صغير السن، ولما ترعرع سلمته أمّه إلى الكتّاب فحفظ القرآن الكريم، وتعلم الكتابة، وكان حريصاً على استماع الحديث، وكان يكتب على الخزف مرةً وعلى الجلود أخرى.

وخرج إلى البادية فلازم هذيلاً، وحفظ الأشعار، وكان يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم، فرجع إلى مكة ينشد الأشعار ويذكر الآداب والأخبار، وقد تأثر بالبداوة واكتسب من هذيل فصاحتهم، كما يحدّث عن نفسه[1].

ويظهر أن مقامه في البادية كان أكثر من عشر سنين، وفي إحدى الروايات أنه أقام عشرين سنة[2] وفي أخرى سبع عشرة سنة، كما حدّث هو عن نفسه[3].

وفي هذه المدة لم تكن له شهرة علمية، ولم يتجه لطلب الفكر ولم يعرف به.

قال النووي: كان الشافعي في ابتداء أمره يطلب الشعر وأيام العرب والأدب، ثم أخذ في الفقه، ثم ذكر سبب ذلك[4].

وأفاد كثيراً من ملازمته أهل البادية، وظهر عليه ذلك بقدرته الشعرية وتمكنه من اللغة ومعرفته بفنونها مما لا يخفى في بعض إجاباته وأقواله وما روي عنه من شعره.

وقد صرّح الشافعي بسبب اتجاهه لطلب الفقه فيما يروى عنه أنه قال ـ بعد أن ذكر ابتداء تعلّمه للقرآن والكتابة في مكة ـ: ثم إني خرجت عن مكة فلزمت هذيلاً في البادية أتعلم كلامها، وآخذ طبعها، وكانت أفصح العرب، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة، أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب، فمرّ بي رجل من الزبيريين من بني عمي، فقال لي: يا أبا عبد الله عزّ عليّ أن لا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه[5].

---

(١) معجم الأدباء ج١٧ ص٢٨٤ ـ ٢٨٥. (٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٠ ـ ٢٥٢.
(٣) معجم الأدباء ج١٧ ص٢٨٥. (٤) تهذيب الأسماء واللغات ج١ ص٤٦.
(٥) معجم الأدباء ج١٧ ص٢٨٤. وتهذيب الأسماء ج١ ص٤٦. والحلية ج٩ ص٧٠.

فهو لهذا الحد وطول ذاك الزمن لم يعرف الفقه، وكان قول الزبيري سبباً لتوجيهه إلى طلب الفقه والحديث، فقصد لمجالسة مسلم بن خالد الزنجي ـ مفتي مكة المتوفى سنة ١٨٠هـ ـ وهو أول شيوخ الشافعي.

وروى النووي عن مصعب بن عبد الله الزبيري قال: كان الشافعي في ابتداء أمره يطلب الشعر وأيام العرب، ثم أخذ في الفقه؛ وكان سبب ذلك: أنه كان يسير يوماً وخلفه كاتب لأبي، فتمثل الشافعي ببيت شعر، فقرعه الكاتب بسوطه ثم قال: مثلك يذهب بمروته!! أين أنت من الفقه، فهزّه ذلك، فقصد مجالسة مسلم بن خالد الزنجي[١].

والذي نستظهره من مجموع الروايات، أن اتجاه الشافعي لطلب العلم كان في العقد الثالث من عمره، وعلى رواية ابن كثير أن بقاءه في البادية عشرين سنة. فيكون طلبه للفقه في العقد الرابع، أي بعد تجاوزه الثلاثين من عمره، فتكون ملازمته لمسلم بن خالد الزنجي قصيرة جداً.

فما يروى عن الحميدي أنه قال: سمعت خالداً الزنجي وقد مر على الشافعي وهو يفتي، وهو ابن خمس عشرة سنة، فقال: يا أبا عبد الله افت فقد آن لك أن تفتي، فإنه لا أصل له، نظراً لما بين أيدينا من الأدلة التاريخية المصرحة بأن الشافعي لم يعرف بالفقه إلاّ من بعد مدة طويلة، مع أن الحميدي لم يدرك مثل هذا التاريخ. قال الخطيب البغدادي بعد نقل هذه الحكاية: (وليس ذلك بمستقيم لأن الحميدي كان يصغر عن إدراك الشافعي وله تلك السن)[٢].

ومن الغريب إرسال ذلك إرسال المسلّمات، وقد جعلوا هذا النقل من المؤيدات لعلم الشافعي وعلو منزلته، لأنه كان يفتي وهو ابن خمس عشرة سنة. وبعضهم يرجع إلى الوراء فيقول: إنه كان يفتي وهو ابن عشر سنين! وكل ذلك غير صحيح لأن المشهور عن الشافعي أنه قدم مكة وهو ابن عشر سنين أو أكثر وتعلّم القرآن فيها، وانصرف إلى حفظ الأشعار، ولازم هذيلاً، وكان مقامه في البادية أكثر من عشر سنين، وقيل عشرين سنة، وقيل سبع عشرة سنة كما تقدم بيانه.

ومهما يكن من أمر فإن الشافعي لم يعرف الفقه والحديث وهو في مكة، ولكنه

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ج١ ص٤٦. (٢) تاريخ بغداد ج٢ ص٦٤.

اتصل بعد ذلك بمالك بن أنس، ورحل إلى المدينة لتعلم الفقه والحديث، وواصل دراسته، فكانت له تلك الشهرة بعد مدة طويلة.

قال ابن حجر: انتهت رياسة الفقه في المدينة إلى مالك، ورحل الشافعي إليه ولازمه، وأخذ عنه، وانتهت رياسة الفقه إلى أبي حنيفة، فأخذ عن صاحبه محمّد حملاً ليس فيها شيء إلاّ وقد سمعه عليه، فاجتمع له علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث.

وكان محمّد يواسيه بالبر ويتعاهده بالأعطيات بخمسين ديناراً فما فوقها بين حين وآخر، وبمحمّد اكتمل بدر الشافعي، وبه تخرج حتى أصبح له شأن في العلم...

طلبه العلم في المدينة:

اتجه الشافعي لطلب الفقه، وحضر على بعض علماء مكة كخالد الزنجي وسعيد بن سالم القداح، واشتهر مالك بن أنس في المدينة وشاع ذكره، فتاقت نفس الشافعي إلى الهجرة للمدينة طلباً للعلم والحضور عند مالك بن أنس، فأخذ وصية من والي مكة إلى والي المدينة يطلب منه إيصال الشافعي إلى مالك.

قال الشافعي: فأوصلت الكتاب إلى الوالي، فلما أن قرأه قال: يا فتى إن مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون عليّ من المشي إلى باب مالك بن أنس، فلست أرى الذلة حتى أقف على بابه. فقلت: أصلح الله الأمير إن رأى يوجه إليه ليحضر. قال: هيهات ليت أني إذا ركبت أنا ومن معي وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجاتنا.

قال: فواعدته العصر وركبنا جميعاً، فوالله لكان كما قال. فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير: قولي لمولاك إني بالباب. فدخلت فأبطأت، ثم خرجت فقالت: إن مولاي يقرؤك السلام ويقول: إن كانت لك مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف. فقال: قولي له إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة، فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي فوضعته، ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة، فرفع إليه الوالي الكتاب(١).

---

(١) معجم الأدباء ج١٧ ص٢٧٥. ومناقب الفخر الرازي ص١٠.

وهنا يحدّثنا الشّافعي عن انتقاد مالك له بحمله الكتاب من الوالي وتأثره من ذلك، يقول الشّافعي: إن مالكاً عندما قرأ الكتاب رمى به من يده، ثم قال: سبحان الله أَو صار علم رسول الله يؤخذ بالوسائل؟. فأجابه الشافعي معتذراً وأخبره بقصته.

اتصل الشّافعي بمالك وأخذ عنه وقرأ الموطأ، ولا نعرف بالضبط متى كان قدوم الشّافعي إِلى المدينة وحضوره عند مالك، وكم كانت سنّه يوم ذاك. والأخبار مضطربة مشوشة جداً لا نكاد نلمس الواقع منها، فالحكايات الواردة عن الشّافعي مختلفة. فمرة أنه اتجه لمالك بعد عودته من البادية، وأخرى بعد وفاة خالد الزنجي.

وعلى أي حال: فالمحصل من مجموع الروايات أنه قدم على مالك وقد تجاوز عمره الثلاثين سنة. وما يرويه ابن حجر في مناقب الشّافعي أنه حضر عند مالك وعمره ثلاث عشرة سنة هو خطأ بيّن ونقل بدون تثبّت، إذ لا خلاف بأن وروده على مالك كان بعد عودته من البادية، وقد مكث فيها مدة تزيد على خمس عشرة سنة.

ومن المحقق أن ملازمته لمالك كانت أربع سنوات، وتوفي مالك سنة ١٧٩هـ فيكون عمر الشّافعي ٢٩ سنة. وبقي الشافعي بعده في ضنك من العيش، وبسبب ذلك كانت رحلته إِلى اليمن مع واليها وليس له ما يستعين به من المال، فرهن داره وأخذ ثمنها.

ولاية الإمام الشّافعي:

نشأ الشّافعي يتيماً في حجر أمه كما تقدم، ولما اتصل بمالك اتسعت حاله بواسطته، لأنّه كان يرعاه ويقوم بشؤونه، فلما توفي مالك سنة ١٧٩هـ اشتد الأمر عليه وضاقت حالته، فاتفق أن والي اليمن قدم المدينة، فكلّمه بعض القرشيين في أن يصحبه. فأخذه ذلك الوالي معه واستعمله في أعمال كثيرة[١] فبقي في العمل خمس سنوات، وبهذه المدة كان متجهاً للعمل والولاية، وخمد ذلك النشاط الذي في نفسه نحو الاتجاه لطلب العلم، لأنه مشغول في تدبير شؤون السلطان ومعاملة الناس إِلى سنة ١٨٤هـ وهي السنة التي قدم فيها لبغداد المرة الأولى بسبب المحنة واتهامه بالميل للعلويين. وأن مطرفاً كتب إِلى الرشيد: إن أردت اليمن لا تفسد عليك، فأخرج محمّد بن إدريس. فحمل إِلى بغداد، وقد جاء عن الشّافعي: أنه نقل من اليمن إِلى ولاية نجران فأحسن السيرة هناك.

(١) مناقب الفخر الرازي ص١٠.

الإمام الشّافعي في بغداد:

قدم الشّافعي العراق ثلاث مرّات، الأولى سنة ١٨٤هـ حمل من اليمن إلى بغداد بسبب اتهامه بالميل للعلويين، والثانية سنة ١٩٥هـ بعد أن مات هارون الرشيد، والثالثة سنة ١٩٨هـ.

أما الأولى: فكانت بسبب اتهامه بالميل للعلويين، أو أن عامل اليمن تغيّر عليه وثقل مقامه هناك، لأن الشافعي كان يعارض ظلم ذلك الوالي، وينبه الناس على مؤاخذته. وأن الشافعي أحسن إدارة العمل ونال ثناء الناس مما أوجب تغير قلب الوالي عليه، واتهامه بالميل للعلويين، وذلك أعظم جرم تعاقب عليه الدولة، وإن كان هذا الاتهام وتلك القضية أشبه شيء بالأساطير.

وعلى أي حال: فقد حمل الشّافعي إلى بغداد بتهمة المخالفة للدولة والانضمام لجانب العلويين. وتعرض بتلك التهمة إلى خطر شديد، ولكنه دافع عن نفسه، وتوسط له الفضل بن الربيع وتشفع له، فنجا بعد أن قتل من كان معه. وسيأتي البحث عن أسباب التشيع وعن ميله للعلويين.

وإذا أردنا البحث عن محنة الشّافعي وقدومه لبغداد، وما قابل به الرشيد عند اجتماعه، ومناظرته مع محمّد بن الحسن الشيباني، فالأمر يستدعي إطالة البحث واتساع شقة المناقشة، للمناقضات في تلك الرحلة المروية عن الشّافعي. ففي بعضها: أنّه ناظر أبا يوسف[1] وهذا غير صحيح لأن وفاة أبي يوسف كانت سنة ١٨٢هـ أو ١٨٣هـ أي قبل ورود الشّافعي بسنتين أو بأكثر من سنة.

وفي بعضها: أن محمّد بن الحسن انتصر للشافعي، وأخرى أنه حرض الرشيد على قتله ووصفه بأنّه يريد الخروج على الدولة، وأن الرشيد سأل أبا يوسف عن صدق هذه الدعوى فأيّدها.

وهناك اختلاف في حمله إلى العراق، هل كان من اليمن أم من مكة؟ فابن عبد البر، يروي بسند عن المزني عن الشافعي أنّه قال: رفع إلى هارون الرشيد أن بمكّة قوماً من قريش استدعوا رجلاً علوياً كان باليمن، فاجتمع إليه من قريش فتية جماعة، يريدون أن يبايعوه ويقوموا به، فأمر الرشيد يحيى بن خالد بن برمك أن

(١) الحلية ج٩ ص٨٥.

يكتب إلى عامله بمكة أن يبعث إليه ثلاثمائة رجل كلهم من قريش، مغلولة أيديهم إلى أعناقهم. قال الشافعي: فأشخصت فيمن أشخص مغلولاً، فلما وردنا العراق أتي بنا إلى دار يحيى بن خالد وقال لنا: يا معشر قريش قد رفع عليكم أمر كبير وعسى الله أن ينجيكم من البلاء إن كنتم قد بغي عليكم، والذي أراه أن تقدموا من أنفسكم رجلاً يخاطب الرشيد عنكم وعن نفسه، فقالوا كلهم: هذا الشافعي يخاطبه. ثم حكى عن نفسه دفاعه عنها وعنهم، فكانت النتيجة أن عفى الرشيد عن الجميع وأمر لهم بجائزة(١).

وبصورة أخرى: أنه حمل من الحجاز مع تسعة من العلويين فضربت أعناقهم، ونجا الشافعي وأكرمه الرشيد. ورواية الفخر الرازي التي يفترض أن تكون دقيقة في التاريخ التي نضمها ففيها مشاورة الرشيد لأبي يوسف في أمر الشافعي بشأن هذه الحادثة التي يثبتها الرازي بأنها وقعت في سنة ١٨٤هـ. ومعلوم أن وفاة أبي يوسف كانت قبل سنة أو سنتين من هذا التاريخ على اختلاف في الروايات كما مرّ.

وفي الحلية: إن السبب في حمله من اليمن: أن خارجياً خرج على هارون الرشيد، فأرسل الرشيد إليه جيشاً فقبض عليه وحمل إلى العراق ومعه الشافعي، وأحضروا جميعاً وأمر بقتلهم، فعرض الشافعي عليه قصته مع الخارجي وبيّن له نسبه، وذكر كلاماً استحسنه الرشيد وطلب إعادته، وقال له: كثّر الله في أهل بيتي مثلك(٢). وعفى عنه، إلى آخر الاختلاف في الصّور، والزمان، والأسباب.

ومهما يكن من أمر فإن الغرض من اتساع هذا الحادث، وإيراده بصور مختلفة هو التعصب للشافعي، ووصفه بعلو المنزلة واتساع العلم وقوة الحجة، ونبوغه على القرشيين، كما رأيت في الصورة المتقدمة، بأن أولئك القرشيين الذين حملوا معه وكانوا ثلاثمائة رجل كأن الله سلب منهم كل موهبة الدفاع عن النفس، وقوة الحجّة، وطلاقة اللسان، وبلاغة البيان وهم أهله، فليس لهم قابلية على الدفاع، ولم يملكوا من الشجاعة والجرأة قليلاً أو كثيراً فيها، وانفرد الشافعي بالجرأة وقوة البيان وثبات القلب، وهو شاب قد تجاوز الثلاثين من عمره، وحاشا قريشاً أن يمثلوا موقفاً كهذا الموقف، ولكن دائرة الاختراع واسعة، والتقولات لا حد لها. وقد اعترف الشافعي

---

(١) الانتقاء ص٩٦. (٢) الحلية ج٩ ص٨١.

نفسه بقصوره عن إدراك منزلة الطالبيين وإحجامه عن الكلام بحضورهم كما يروى: أنّه حضر الشّافعي مجلساً فيه بعض الطالبيين فقال: لا أتكلم في مجلس أحدهم أحق بالكلام مني، ولهم الرياسة والفضل[1].

وقد وضع عبد الله بن محمّد البلوي صورة لهذه الرحلة تتضمن أشياء كثيرة لا أصل لها[2] وهي طويلة، ذكر فيها دخول الشّافعي على الرشيد مقيداً بالحديد، وسؤال الرشيد له بمختلف العلوم والفنون، وجواب الشّافعي له، ووعظه، وبكاء الرشيد ومن حضر، إلى آخر ما فيها من الأمور المكذوبة التي لا تمت بالواقع، وقد نص ابن حجر[3] وابن القيم الجوزية[4] وغيرهما على وضعها.

وخلاصة القول: إن مجموع الروايات في محنة الشّافعي وحمله لبغداد مضطربة كل الاضطراب، وتشتمل على أشياء لا صحة لها، كما تشتمل على ما لا يصح صدوره من الشّافعي كما نقلوا عنه في جوابه للرشيد ـ عند الدفاع عن نفسه من تهمة المبايعة للعلويين ـ أنه قال للرشيد: أأدع من يقول أني ابن عمه (يعني الرشيد) وأصير إلى من يقول أني عبده (يعني العلويين)؟ . . .

إن هذا من التجني على الحقائق والتهجم على الواقع بأن ينسب العلويين إلى اتخاذ المسلمين عبيداً، وأنهم يسيرون تحت طغيان الأنانية التي لا توضح لهم إلاّ طريق الاستبعاد للناس، والاستعلاء عليهم والاحتقار لهم، وحاشاهم من ذلك وهم أبعد ما يكون عن اتصافهم بما يخالفون ما طبعوا عليه، من اتباع نظم الإسلام، وإن الناس عندهم سواسية لا يتفاضلون إلاّ بالأعمال الصالحة، وهم لم يكونوا كغيرهم ممن ولي أمر المسلمين الذين لا يشعرون إلاّ بوجودهم الخاص، ولا يفكّرون إلاّ نحو ما يعود عليهم بالنجاح، ولا يرون إلاّ مصلحة أنفسهم، ولا يقيمون لمصالح الأمة وزناً.

كل هذا لم يكن له أثر عند العلويين، وحاشاهم من ارتكاب ما يخالف نظام الإسلام وأحكامه. وصدور مثل هذا القول من الشّافعي تقوّل عليه بالباطل، ولا يصح

---

(١) الفهرست لابن النديم ص٢٩٥.

(٢) الحلية ج٩ ص٨٥ ـ ٩١. ومناقب الفخر الرازي ص٢٣ ـ ٢٧.

(٣) مناقب الشافعي لابن حجر ص٧١.

(٤) مفتاح السعادة ص٥٦٥.

ذلك عنه. وقد صح عنه أنه بايع ليحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى.

قال ابن العماد: قام يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى، وبث دعاته في الأرض، وبايعه كثير من أهل الحرمين واليمن ومصر والعراقين، وبايعه من العلماء: محمّد بن إدريس الشافعي، وسليمان بن حرير[1].

وفي هذه المحنة التي امتحن بها الشّافعي كان له أسوة بمن قبله من أئمة المذاهب، فأبو حنيفة قتل مسموماً بدعوى أنه لم يقبل القضاء، ومالك بن أنس ضرب بالسياط لفتوى تخالف رأي السلطان، وليس ببعيد أن مخترع هذه المحنة أراد مساواة الشّافعي بمن قبله وبمن بعده، فإن أحمد بن حنبل امتحن في مسألة خلق القرآن، وكذلك قالوا أن الشّافعي امتحن باتهامه بالميل للعلويين، وذكروها بصورة موسعة وألفاظ مختلفة. وهي من تصرّف كتّاب المناقب والمتصرين للمذهب.

الإمام الشّافعي في مصر:

قدم الشّافعي إلى مصر سنة ١٩٨هـ ونزل بالفسطاط ضيفاً كريماً على محمّد بن عبد الله بن عبد الحكم، فأكرم مثواه وآزره، وكانت لمحمّد بن عبد الله مكانة في مصر ورياسة علمية، وكان أهل مصر لا يعدلون به أحداً، وتأكدت بينه وبين الشّافعي مودة وإخاء، وقام في معاونة الشّافعي ومؤازرته ونشر علمه. وكان قدوم الشّافعي إلى مصر في صحبة الوالي من قبل المأمون، وهو العباس بن موسى بن العباس، فلقي هناك إقبالاً من المالكية، لأنه من أشهر تلامذة مالك بن أنس، وكان يقول: هذا قول أستاذنا (يعني مالكاً).

ولما استقل بآرائه، ووضع الكتب في الرد على مالك؛ تنكر له المالكية وعارضوه وأرادوا إخراجه من مصر، واتهموه بالتشيّع مرة، وبمقاومة السلطة أخرى، حتى اغتالوه فمات بسبب ضربة على رأسه سنة ٢٠٤هـ.

والذي يظهر أن الشّافعي عاد إلى مكة وبقي مدة، ثم رجع سنة ٢٠٠هـ وفيها سطع نجمه وكثر أتباعه رغم تعصب الحنابلة عليه وإيذائهم له.

* * *

(١) شذرات الذهب ج١ ص٣٢٨.

الإمام الشافعي وحياته العلمية

مناقبه:

إن من الحق والإنصاف أن نعطي شخصية كل واحد من أئمة المذاهب الأربعة حقّها من الدراسة والعناية العلمية، وأن نتناول سيرهم من غير تعصب وتحيّز، وننظر إلى ما كتب عنهم بعين تبصر الحقيقة، ونبرز جوهر تلك الشخصيات التي أخذت محلها من التشريع الإسلامي.

ومهما يكن من أمر فإن المؤثرات الاجتماعية والأحداث السياسية تشوّه سير البحث، ولا يستنتج الباحث منها الغاية المطلوبة، إذ أن أكثرها مبالغات أوجدها التعصّب الطائفي، عندما كثر الجدل وعظم الخلاف بين أنصار المذاهب، وخاصة المؤرخين والراوين الذين ساروا على ما تقتضيه ظروفهم المعاشية أو السياسية، لا لما يقتضيه واقع الأئمة الملموس، وقد وصفوهم بصفات بعيدة عن الحقيقة، إذ جعلوهم في أعلى درجة من الكمال، وأرفع منزلة من العلم. بحيث يمتنع على أي مخلوق أن يصل إلى تلك المنزلة!

ولا حاجة بنا إلى إعادة النظر في الأمور، ولسنا نرغب أن نستقصي القول فيما أدعي للشافعي من تلك المناقب الموضوعة، نعم لا بد لنا من التعرض للأحاديث التي استدلّوا بها على تقديم الشّافعي على غيره، وترجيح مذهبه على سواه، في لزوم الأخذ به، ووجوب اتباعه، والاقتداء به، وإلى القارىء طرفاً من تلك الأحاديث:

١ ـ من يرد هوان قريش أهانه الله.

٢ ـ من أحب قريشاً أحبّه الله، ومن أبغض قريشاً أبغضه الله.

٣ ـ إذا اجتمعت جماعات من قريش فالحق مع قريش، وهي مع الحق.

٤ ـ إنما نحن وبنو المطلب هكذا ـ وشبك بين أصابعه.

٥ ـ أمان أهل الأرض من الاختلاف الموالاة لقريش.

٦ ـ هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلاّ أكبه الله على منخريه.

٧ ـ الأئمة من قريش.

٨ ـ إن الله يبعث لهذه الأمة على كل مائة سنة من يجدّد لها دينها.

وبهذه العمومات بنوا حصر الأخذ عن الشافعي ووجوب الرجوع إليه. قال السبكي بعد إيراد هذه الأحاديث: والغرض الأعظم تبيين أنّه (أي الشّافعي) قرشي مطلبي، وذلك أمر قطعي، ومن أجله سقنا ما أوردناه من الأحاديث. ثم يمضي في الاستدلال على انحصار هذه الأحاديث وتخصيص عموماتها في الشّافعي، وهي حصر المبتدأ بالخبر(١).

والواقع غير هذا! فإن هذه الأحاديث مع فرض صحتها هي عامة شاملة، ولا سبيل إلى حصرها بالشافعي، والاستدلال بها غير وجيه. وقد فرّعوا على هذه الأحاديث أشياء كثيرة.

منها حرمة نسبة الخطأ للشافعي في مسألة ما، لأن ذلك إهانة له، وإهانة القرشي غير جائزة، ومنها وجوب الحذر من معاندة الشافعي وبغضه وعداوته(٢). ومنها لزوم تقديم الشّافعي، والابتداء بذكره لقول النبي ﷺ قدّموا قريشاً وتعلموا من قريش. إلى آخر ما هنالك من أمور أثبتوها في تقديم الشّافعي على غيره.

وكان إمام الحرمين، وابن السمعاني، والكيا الهراسي، وغيرهم يقولون لتلامذتهم: يجب عليكم التقيد بمذهب إمامكم الشّافعي، ولا عذر لكم عند الله تعالى في العدول عنه(٣).

ومهما يكن من أمر فإن هذه الأحاديث لا تنهض حجة على المطلوب، وليس فيها ما يصلح لإثبات المدّعى. وقد أجاب عنها أصحاب المذاهب الأخرى بأجوبة كثيرة، منها:

١ ـ أن المراد بحديث (قدّموا قريشاً) إنما هو في الخلافة لا العلم.

٢ ـ إن قوله: تعلّموا من قريش ولا تعلّموها. فهذا الخبر لا أصل له.

---

(١) طبقات الشافعية ج١ ص١٠١.

(٢) مناقب الفخر ص١٣٦.

(٣) ميزان الشعراني ج١ ص٤٠.

وكيف يُظن به ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ أن يقول: اتركوا جهال قريش على جهلهم فلا تعلموها. هذا محال.

ثم قالوا: إن الشّافعي كان قرشياً، ولم يكن له معلم من قريش، وإنما أخذ علمه من غير قريش، كمالك بن أنس، ومحمّد بن الحسن، وخالد الزنجي، وهؤلاء من غير قريش[1].

٣ ـ وقال ابن الجوزي: فأما قوله: قدّموا قريشاً. فقد قال إبراهيم الحربي: سئل أحمد بن حنبل عن ذلك، فقال: يعني الخلافة.

ويقول: فإن قالوا (أي الشّافعية): إن الشّافعي كان فصيحاً فمسلّم، وذلك لا يعطي التقدّم على غيره، لأن التقدّم بكثرة العلم. على أنه قد أخذ عليه كلمات فقالوا: قد قال: ماء مالح. وإنما يقال ماء ملح.

وقال: إذا أشلا كلباً (يريد أغراه) وإنما الأشلاء عند العرب الاستدعاء.

وقال: ثوب يسوى كذا، والعرب تقول يساوي. ثم ذكر ابن الجوزي أدلة ترجيح أحمد بن حنبل على الشّافعي بالعلم[2].

وصفوة القول: إن ادعاء الشّافعية بالأحاديث، في لزوم اتباع الشّافعي لا يقرّها المنطق الصحيح، وإن جميع حججهم لا تنهض في إثبات المدعى. على أننا نناقش في أصل لزوم الرجوع إلى مذهب معين، وأنه أمر لا دليل عليه. وقد بينّا ذلك في البحث السابق، بإشارة موجزة حول الاجتهاد والتقليد.

فإذا كان أصل الالتزام لا أصل له، فلا حاجة إلى هذا التكلّف.

كما لا حاجة إلى ذكر كثير من المناقب التي أسندوها للشافعي وغيره، من منامات وغيرها، تدل بمؤداها على لزوم اتباعه والأخذ بمذهبه.

والخلاصة: أن أتباع كل إمام قد أحاطوا شخصية إمامهم بهالة من التقديس، وسلكوا سبلاً مختلفة وطرقاً متعددة، لإقامة الدليل على أعلمية إمامهم، وأولويته

---

(١) مناقب المكي ج٢ ص١٤٣ ـ ١٤٥.

(٢) مناقب أحمد ص٥٠٢.

بالاتباع دون غيره، فنشبت خلافات وظهرت ضغائن، ومرّت الأمة نتيجة ذلك بفترة محزنة، توترت فيها العلاقات الاجتماعية، وصبغت بالحدة والعنف.

ولقد كان الهدف الأول لاختراع تلك الأمور ونشرها هو إثبات أعلمية ذلك الإمام، وأهليته للإتباع، ليتشر المذهب ويكتب له النجاح.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل امتدت الحركة الادعائية هذه لترتكز على قاعدة قوية يكون لها أثرها في رسوخ المذهب وثبوته في القلوب، وذلك ادعائهم بالبشائر النبوية! فكل سلك جانباً من الادعاء على صاحب الرسالة، وقد ساهم القصاصون وأعوان السلطة بنشر تلك الأكاذيب.

شيوخه وتلامذته:

تلقى الشّافعي الفقه والحديث على شيوخ من مكة، والمدينة، واليمن، وبغداد، وقد ذكر ابن حجر منهم عدداً يتجاوز الثمانين، أما غيره فاقتصر على المشهورين منهم. ونحن نشير إليهم هنا بترجمة قصيرة وهم تسعة عشر: خمسة من مكة، وستة من المدينة، وأربعة من اليمن، وأربعة من العراق. وقد ترك الفخر الرازي ذكر محمّد بن الحسن الشيباني تعصباً، ولا مجال لتركه فإن الشّافعي قد اعترف بأخذه العلم عنه، وأنه حمل عنه علماً كثيراً ونمت مواهبه في ملازمته، ويعد في الواقع من أشهر شيوخه، بعد مالك بن أنس، وأول شيخ تلقى الشّافعي عنه العلم هو:

١ ـ مسلم بن خالد المخزومي أبو خالد المكي، المعروف بالزنجي المتوفى سنة ١٨٠هـ وهو من موالي مخزوم، وهو أول شيوخ الشافعي، وابتدأ بأخذ الفقه والحديث عنه، ثم انتقل إلى المدينة وحضر عند مالك، ولم يكن مسلم بن خالد ممن يعتمد عليه في الحديث، فقد طعن عليه وضعفه كثير من الحفّاظ، كأبي داود، وأبي حاتم، والنسائي، خرّج حديثه ابن ماجه وأبو داود(١).

٢ ـ سعيد بن سالم القداح، أبو عثمان الخراساني، ثم المكي المتوفى سنة ١٧١هـ وكانت له حلقة مسلم بن خالد الزنجي، بعد أن توفي مسلم، وقد أخذ الشّافعي عنه وروى حديثه، وكان سعيد يرمى بالإرجاء (أي أنه من المرجئة).

---

(١) تهذيب التهذيب، والخلاصة ص٣٢١ وغيرهما.

٣ ـ داود بن عبد الرَّحمٰن العطار المتوفى سنة ١٧٥هـ.

قال الشّافعي: ما رأيت أورع منه. ووثقه ابن معين.

ولم تكن ملازمة الشّافعي له كغيره من شيوخه، ولعل أخذه عنه كان قليلاً.

٤ ـ سفيان بن عيينة بن أبي عمران المتوفى سنة ١٩٨هـ تقدمت ترجمته في هذا الكتاب في أسماء تلامذة الإمام الصادق، وهو من رؤساء المذاهب البائدة.

٥ ـ مالك بن أنس الأصبحي المتوفى سنة ١٧٩هـ تقدمت ترجمته في الجزء الأول والثاني.

٦ ـ عبد الله بن نافع الصائغ، مولى بني مخزوم المتوفى سنة ٢٠٦هـ.

٧ ـ يحيى بن حسان بن حيان، البكري المصري المتوفى سنة ٢٠٨هـ.

٨ ـ إبراهيم بن محمّد بن أبي يحيى أبو إسحاق المدني المتوفى سنة ١٨٤هـ. وقد أكثر الشافعي من الرواية عنه. وهو عندهم ضعيف. وقد رموه بالكذب. وطعنوا على الشّافعي بالأخذ عنه، ولكن الشّافعي كان يرى إبراهيم صدوقاً، وإنما رُمي بالكذب لغايات هناك، وقد روى الربيع بن سليمان عن الشّافعي أنه كان يقول: لئن ينحر إبراهيم من بعد أحب إليه من أن يكذب. وكان ثقة في الحديث.

وإبراهيم هذا كان من تلامذة الإمام الصّادق وخرّيج مدرسته، وكان يروي أحاديث أهل البيت عليهم السلام وله مؤلّف مبوّب في الحلال والحرام على مذهب أهل البيت، وهو أستاذ الواقدي، وكُتُب الواقدي أكثرها مأخوذة عنه. وحيث كان الشّافعي يعتمد على كتبه ورواياته، فكان مرة يصرح باسمه ومرة أخرى يورّي عنه فيقول: حدّثني الثقة، حدّثني مَن لا أتهمه.

٩ ـ حماد بن أسامة الكوفي، مولى بني هاشم المتوفى سنة ٢٠١هـ.

١٠ ـ وكيع بن الجراح بن مليح الرواسي، أبو سفيان الكوفي المتوفى سنة ١٩٦هـ.

١١ ـ إبراهيم بن سعد الأنصاري الزهري، المتوفى سنة ١٨٣هـ تقدمت ترجمته في تلامذة الإمام الصّادق عليه السلام.

١٢ ـ محمّد بن الحسن الشيباني القاضي، تلميذ أبي حنيفة، قال الشّافعي: حملت عن محمّد بن الحسن الشيباني حمل بختي (نوع من الإبل، ليس عليه إلاّ

سماعي) وقال: كان محمّد بن الحسن جيد المنزلة، فاختلفت إليه، فلزمته وكتبت كتبه[1]. ولذلك قالوا: إن محمّد بن الحسن أغزر منه (أي من الشّافعي) علماً وأخطر أثراً، وأن علم الشافعي راجع إليه ومأخوذ عنه.

١٣ ـ عبد الوهّاب بن عبد المجيد بن الصلت البصري المتوفى سنة ١٩٤هـ تقدمت ترجمته في هذا الكتاب في تلامذة الإمام الصّادق.

١٤ ـ هشام بن يوسف أبو عبد الله قاضي صنعاء، المتوفى سنة ١٩٧هـ وهو من الأبناء، سمع معمراً، وابن جريج، وأخذ عنه ابن المديني، توفي قبل عبد الرزّاق بن همام[2].

١٥ ـ إسماعيل بن إبراهيم الأسدي القرشي. مولاه أبو بشر البصري المتوفى سنة ١٩٣هـ ويعرف بابن عليّة، وهي أمّه، مولاة لبني أسد بن خزيمة ولما ولي إسماعيل بن عليّة القضاء كتب إليه ابن المبارك:

يا جاعل العلم له بازياً — يصطاد أموال المساكين
تحتال للدنيا ولذاتها — بحيلة تذهب بالدّين
فصرت مجنوناً بها بعد ما — كنت دواء للمجانين
أين رواياتك فيما مضى — عن ابن عون وابن سيرين
أين رواياتك في سردها — في ترك أبواب السّلاطين
إن قلت أكرهت فذا باطل — زل حمار العلم في الطين[3]

تلامذته ورواة مذهبه:

نقل مذهب الشّافعي عن طريقين: أحدهما تلامذته، والثاني كتبه. أما رواة مذهبه فمنهم من العراق. ومنهم من مصر[4]. والعراقيّون هم:

١ ـ خالد اليماني الكلبي، أبو ثور البغدادي المتوفى سنة ٢٤٠هـ وقد تقدمت

---

(١) آداب الشافعي لابن أبي حاتم ص٢٣ ـ ٣٢.
(٢) طبقات فقهاء اليمن للجعدي ص٦٧.
(٣) تهذيب التهذيب ج١ ص٢٧٨.
(٤) الانتقاء لابن عبد البر ص١٠٤ ـ ١١٥، وتوالي التأسيس لابن حجر ص٣٧ ـ ٤٣. ومناقب الشافعي للرازي ص١٣. وطبقات الشافعية ج١ ص١٨٦ ـ ٢٩٩.

ترجمته في المذاهب البائدة، والحق أن عدّه في رواة مذهب الشّافعي غير صحيح، فإن الرجل كان مجتهداً مطلقاً، وله مذهب قد اعتنقه كثير من الناس، واشتهر الأخذ به في القرن الثاني، ولكنه اندرس، شأنه شأن غيره من المذاهب التي لم تحظ بتشجيع فيكتب لها البقاء، وله كثير من المسائل قد خالف فيها الشّافعي، وسيأتي بيانها.

٢ ـ الحسن بن محمّد بن الصباح الزعفراني البغدادي المتوفى سنة ٢٦٠هـ وهو أثبت رواة المذهب القديم للشافعي، وكان يذهب مذهب أهل العراق، فتركه وتفقه للشافعي.

٣ ـ الحسن بن علي الكرابيسي تفقه أولاً على مذهب العراقيين، ثم تفقه للشافعي وسمع منه ومن غيره وقد تجنب الناس روايته. لأن أحمد بن حنبل طعن عليه في مسألة اللفظ، لأنه كان يقول: لفظي بالقرآن مخلوق.

٤ ـ أحمد بن عبد العزيز البغدادي كان من كبار أصحاب الشّافعي الملازمين له ببغداد، ثم صار من أصحاب ابن داود وتبعه على رأيه، وله مسائل خالف بها الشّافعي.

٥ ـ أبو عبد الرّحمٰن أحمد بن محمّد بن يحيى الأشعري البصري، كان يشبّه بالشافعي ويوصف به، لأنه انتصر للمذهب ودافع عن أصحابه، لمكانته من السلطان، وعلو منزلته في الدولة، فقد كان رفيع المنزلة عندهم، له جاه عظيم. وقد أجهد نفسه في نصرة مذهب الشّافعي وانتشاره، حتى وصف بما أشرنا إليه.

٦ ـ أحمد بن محمّد بن حنبل إمام المذهب الحنبلي (ستأتي ترجمة حياته) والشيء الذي نود الإشارة إليه هو أن الحنابلة يجعلون الشّافعي تلميذ أحمد بن حنبل، ويعدّونه في عداد من أخذ عنه وتعلّم منه، ويستدلّون بقول أبي حاتم: إن أحمد بن حنبل أكبر من الشّافعي. تعلم الشّافعي أشياء من معرفة الحديث من أحمد بن حنبل وكان الشّافعي فقيهاً، ولم تكن له معرفة بالحديث، فربما قال لأحمد هذا الحديث محفوظ؟ فإذا قال أحمد: نعم، جعله أصلاً وبنى عليه.

وقال إسحاق بن حنبل: كان الشّافعي يأتي أبا عبد اللّه أحمد بن حنبل عندنا ههنا عامة النهار يتذاكرون الفقه.

وقال أبو بكر الأثرم فيما كتبه إلى المروزي: وأخبرت أن الشّافعي له معرفة بالحديث مما تعلمه منه (أي من أحمد بن حنبل).

وعن عبد الله بن أحمد قال: قال لنا الشافعي: أنتم أعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحاً فأعلموني أن يكون كوفياً، أو بصرياً، أو شامياً، حتى أذهب إليه إذا كان صحيحاً.

هكذا ذكر ابن رجب في طبقات الحنابلة(١) وقال ابن الجوزي: وممن حدّث عن أحمد بن حنبل: الشّافعي. وقد ذكره في عداد تلامذته. ولكن الشّافعية جعلوا أحمد بن حنبل تلميذاً للشافعي.

٧ ـ داود بن علي الظاهري، إمام أهل الظاهر، أخذ عن الشّافعي، ولكنه لم يكن من رواة المذهب وناشريه، بل كان له مذهب مستقل وله أتباع، ولا زال مذهبه معمولاً به مدة من الزمن، وكان من أشهر علماء المذهب: ابن حزم صاحب كتاب المحلى.

المصريون:

وانتشر مذهب الشّافعي في مصر أكثر من غيره، لأن أصحاب الشافعي في مصر قاموا بنشر المذهب، وتأليف الكتب، وقد ساعدت الظروف على ذلك كما يأتي، فكان للشافعي أصحاب من مصر لهم يد في نشر مذهبه، وله تلامذة كثيرون، كان أشهرهم:

١ ـ يوسف بن يعقوب البويطي أو يعقوب المصري المتوفى سنة ٢٣١هـ في سجن بغداد، لأنه لم يقل في مسألة خلق القرآن.

وكان البويطي من أكبر أصحاب الشّافعي، وناشري مذهبه، وهو خليفته على حلقة درسه، وكان الشّافعي يحيل عليه في الفتيا إذا جاءته مسألة، ويعد في الواقع من أكبر أنصار المذهب ودعاته، فقد كان يدني الغرباء ويقرّبهم، ويعرفهم فضل الشّافعي وكتبه، حتى كثر الطالبون لكتب الشّافعي، وكان يقول: كان الشّافعي يأمر بذلك، ويقول لي أصبر للغرباء. وغيرهم من التلاميذ حتى كثر أتباعه وقوي انتشار المذهب، فحسده ابن أبي الليث الحنفي قاضي مصر وعاداه، وبسبب ذلك أخرجه أيام المحنة في خلق القرآن، وحمل مع من حمل من أهل مصر، وحبس ببغداد ومات في السجن سنة ٢٣١هـ.

---

(١) طبقات الحنابلة ج١ ص٢٨٠ ـ ٢٨٢.

٢ ـ إسماعيل بن يحيى المزني أبو إبراهيم المصري المتوفى سنة ٢٦٤هـ كان من أكبر أنصار الشافعي وناشري مذهبه، حتى قال الشّافعي في حقه: المزني ناصر مذهبي. وقال أيضاً في وصفه: لو ناظر الشيطان لغلبه(١).

وله في مذهب الشّافعي كتب كثيرة، منها: الجامع الكبير، والجامع الصغير والمختصر، والمنثور، والمسائل المعتبرة، والترغيب في العلم، وكتاب الوثائق، وكتاب نهاية الاختصار.

واشتهر كتاب «المختصر» بين الناس، وامتلأت به البلدان، وكان للناس فيه اعتقاد شديد حتى أن المرأة إذا جهزت للدخول على زوجها حمل في جهازها مصحف ونسخة «مختصر المزني»(٢) وكان المزني من المجتهدين في المذهب، وممن له حرية الاستنباط، وكان ممن ينهى عن التقليد والجمود كما جاء في مقدمة المختصر.

٣ ـ الربيع بن سليمان بن عبد الجبّار بن كامل المرادي المتوفى سنة ٢٧٠هـ كان من موالي مراد، ومؤذن جامع الفسطاط، وهو راوي كتب الشّافعي، وثقوه في الحديث على غفلة فيه، وتُقدم روايته على غيره، فلو تعارض هو والمزني في رواية قدّم أصحاب الشّافعي روايته على رواية المزني، وقد رحل الناس إليه لتلقي كتب الشّافعي، وكان الشّافعي يحبّه حتى قال له: لو قدرت أن أطعمك العلم لأطعمتك إيّاه.

٤ ـ الربيع بن سليمان بن داود الجيزي، أبو محمّد الأزدي مولاهم المصري المتوفى سنة ٢٥٦هـ روى عن الشافعي أحاديثاً، ولم يرو كتبه، وكان ضعيفاً في الحديث.

ومن المصريين أيضاً: حرملة بن يحيى بن حرملة، أبو حفص المصري المتوفى سنة ٢٦٦هـ صحب الشافعي وروى عنه كتباً لم يروها الربيع بن سليمان. ومنهم: قحزم بن عبد اللّه بن قحزم، وأبو حنيفة القبطي المتوفى سنة ٢٧١هـ صحب الشافعي وأخذ عنه وكتب كثيراً من كتبه، وروى عنه عشرة أجزاء في السنن والأحكام.

ويونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري ولد سنة ١٧٠هـ وتوفى سنة ٢٦٤هـ

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ج١ ص٢٣٨.
(٢) مختص المؤمل لأبي شامة ص٣٥.

وسمع الحديث من ابن عيينة وابن وهب، وتفقه على الشّافعي، وانتهت إليه رياسة العلم المصري، وفيه يقول الشّافعي: ما رأيت بمصر أحداً أعقل من يونس بن عبد الأعلى.

ومحمَّد بن عبد اللّه بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٨هـ. كان من أصحاب الشّافعي، وكان أهل مصر لا يعدلون به أحداً. قال المزني: نظر إليه الشافعي فأتبعه بصره، وقال: (وددت لو أن لي ولداً مثله وعليّ ألف دينار). وقال أبو إسحاق الشيرازي: انتهت إليه رياسة العلم بمصر، وكانت بينه وبين الشّافعي مؤاخاة صادقة، ومودة صافية. ولما مرض الشّافعي، وأحس بدنو منيته، وطلب إليه أصحابه أن يذكر من يخلفه في حلقته أشار إلى البويطي، دون ابن عبد الحكم، وكان قد استشرف لها وأرادها، فأغضبه ذلك وترك مذهب الشافعي، وانتصر لمذهب مالك، وأخذ يرد على الشّافعي، فهو إذاً من تلامذة الشافعي ولم يكن من ناشري المذهب.

هؤلاء هم أشهر أصحاب الشّافعي، الذين انتشر بهم علمه بما ألّفوا وصنّفوا.

كتبه وآثاره:

يمتاز الشّافعي عن غيره من أئمة المذاهب الأربعة بنسبة الكتب التي عرف أنّه صنفها بنفسه، فكان عليها اعتماد المتمذهبين بمذهبه: كرسالة أدلة الأحكام وهي رسالة أصولية، وكتاب اختلاف الحديث، وكتاب المسند، والأمالي، ومجمع الكافي، وعيون المسائل، والبحر المحيط، وهذه الكتب الأربعة تعرف بالقديم.

وإن من سبقه من الأئمة لم يظهر له مثلما ظهر للشافعي، فمالك بن أنس له كتاب «الموطأ» فحسب، وأبو حنيفة ليس له شيء من التأليف إلاّ ما يقال من نسبة كتاب «العالم والمتعلم» وقد تقدم الخلاف في ذلك، وسيأتي الكلام حول كتب الإمام أحمد.

أما أهم كتاب ينسب إلى الشافعي فهو كتاب «الأم» المطبوع في ستة مجلدات، وهو المرجع لفقه الشّافعي قديمه وجديده.

وأهم شيء نود الوقوف عليه في هذا البحث هو: هل «الأم» من تأليف الشافعي أو هو لغيره ونسب إليه؟

كتاب الأم:

لقد وقع الخلاف حول هذا الكتاب، وكثر الجدل في نسبته للشافعي، وأنه أكب على تأليفه بنفسه، فبعضهم يذهب إلى ذلك. والبعض الآخر ينفي ذلك، ويذهب إلى عدم نسبته للشافعي.

وإذا نحن أردنا أن نلحظ الكتاب في قراءة موضوعية نجد أننا كثيراً ما نصطدم بعبارات توجب التشكيك في صحة القول بأن الشافعي هو مؤلف هذا الكتاب. ولعل من الخير أن نضع بين يدي قرائنا المحترمين، بعضاً من الشواهد على ذلك:

منها ـ افتتاح كثير من فصوله بهذه العبارة:

«أخبرنا الربيع، قال: قال الشافعي ـ كما ورد في مطلع الجزء الأول وكثير من فصول الكتاب، وفي كتاب الحيض والاستحاضة في عدة موارد، وفي ص٥٨ قال: قال الربيع: قال الشافعي، وهو الذي نقول به: إن أقل الحيض يوم وليلة. وأكثره خمسة عشر.

وفي كثير من فصول الكتاب، يحكي الربيع بن سليمان أقوال الشافعي وآراءه كما في ص٦٠ ج١ وكذلك في ص٦٧ و٧٢ و٧٣ إلى غير ذلك.

وإن المؤيدات لنفي دعوى تأليف الشافعي كثيرة لا تحصى، ففي ص٧٤ في باب الأذان قال الربيع: أخبرنا الشافعي قال: أخبرنا إبراهيم بن محمّد[1] وغيره، عن جعفر بن محمّد عليه السلام إلى أن يقول قال الشافعي: وبهذا كله نأخذ.

ومن أهم المؤيدات، أن الربيع كان ينص في بعض الموارد على سماعه من الشافعي، وفي بعضها أنّه لم يسمع ذلك منه. وورد في باب غسل الميت ص٢٤٨ أخبرنا الربيع بن سليمان أنّه قال: لم أسمع هذا الكتاب من الشافعي، وإنما أقرأه على المعرفة.

وتقع في الكتاب عبارة: قيل للشافعي فأجاب بكذا. كما تكثر فيه عبارة: (سألت الشافعي بكذا فأجاب بكذا) كما في السؤال عن ولوغ الكلب في الإناء ج٧ ص٩٤ وغيره.

---

(١) إبراهيم بن محمّد بن أبي يحيى هو أحد تلامذة الإمام الصّادق عليه السلام ومن أكبر شيوخ الشافعي وقد أكثر الرواية عنه وستأتي ترجمته.

ويأتي أيضاً: قلت للشافعي كذا، فأجابني بكذا. إلى آخر ما هنالك من الشواهد والتعليقات للربيع وللبويطي، كما في ج٥ ص٥٩، ١٤٤، ١٤٥، ١٨٣ أكبر دليل على ذلك.

ويجد المتتبع لفصول الكتاب، صراحة في عدم تأليف الشافعي لهذا الكتاب، كما في باب الصلح، والحوالة، والوكالة، والوليمة، وإقرار الوارث وغيرها.

وعلى أي حال: فإن للقول في عدم نسبة الكتاب للشافعي مجالاً. وأنه لم يؤلّفه بنفسه، ولا أكبّ على كتابته، ولكن أقرب الاحتمالات: إن الكتاب هو مجموعة آرائه وأقواله دوّنها تلامذته، كغيره من أئمة المذاهب، مع زيادات في التخريج على أصول المذهب. وعلى الأقل فإن القطع بعدم نسبة جميع الكتاب للشافعي لا مجال لإنكاره، فهو إما تأليف البويطي أو الربيع بن سليمان. وقد أيّد ذلك الغزالي في الإحياء، وأبو طالب المكي في قوت القلوب.

قال أبو حامد الغزالي: كان الشافعي رحمه الله آخى محمّد بن عبد الحكم، وكان يقرّبه ويقبل عليه ويقول: ما يقيمني بمصر غيره، فاعتل محمّد فعاده الشافعي رحمه الله فقال:

مرض الحبيب فعدته فمرضت من حذري عليه
وأتى الحبيب يعودني فبرأت من نظري إليه

وظن الناس من صدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقته إليه بعد وفاته، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟ فاستشرف له محمّد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومىء إليه، فقال الشافعي: سبحان الله! أيُشك في هذا! أبو يعقوب البويطي. فانكسر لها محمّد، ومال أصحابه إلى البويطي، مع أن محمّداً قد حمل عنه مذهبه كله.

لكن البويطي كان أفضل وأقرب إلى الزهد، فنصح الشافعي لله وللمسلمين وترك المداهنة، ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى.

فلما توفي، انقلب محمّد بن عبد الحكم عن مذهبه، ورجع إلى مذهب أبيه. ودرس كتب مالك. وآثر البويطي الزهد والخمول، ولم يعجبه الجمع والجلوس في الحلقة، واشتغل بالعبادة، وصنف كتاب «الأم» الذي ينسب الآن إلى الربيع بن

سليمان ويعرف به، وإنما صنفه البويطي، ولكن لم يذكر نفسه فيه، ولم ينسبه إلى نفسه، فزاد الربيع فيه وتصرّف[1].

هذا هو النص الذي أورده الغزالي، على نفي نسبة كتاب الأم للشافعي، وإنما ألفه البويطي، ثم نسبه الربيع بن سليمان إلى نفسه، وزاد فيه وتصرف. والغزالي هو من أئمة الشافعية، الذين عليهم المعوّل.

وقال أبو طالب المكي: إن البويطي هو الذي ألف كتاب الأم وأعطاه الربيع، وصار يُعرف به، لأنه اعتزل الناس بالبويطة من سواد مصر، وصنّف كتاب الأم الذي ينسب الآن للربيع بن سليمان ويعرف به، وإنما هو جمع البويطي، لم يذكر نفسه فيه، وأخرجه إلى الربيع فزاد فيه[2].

وهذا نص صريح في تأكيد المدّعى، وقد مرّت العصور على نسبة الكتاب للشافعي، وأنّه أكبّ على تأليفه، مع وجود هذه النصوص والشواهد التي يتجلى منها عدم صحة هذه النسبة، لمن يتتبع فصول الكتاب، من وجود تلك العبارات الدالة بصراحة على نفي تلك النسبة كما قدمناه، وكذلك في بقية الأبواب المسبوقة بعبارة (أخبرنا الربيع بن سليمان قال: أخبرنا الشافعي) كما في باب الصلح، والحوالة، والوكالة، والوليمة وإقرار الوارث وغيرها.

وتسمية هذا الكتاب باسم الأم تسمية جديدة وأحياناً ما يرد ذكره في الكتاب ولعله من فعل الشراح[3].

وبهذه الأمور أصبح التشكيك في نسبة الكتاب للشافعي، بل جزم أكثرهم بأن الشّافعي لم يؤلّفه. وحقيقة أنه جامع لأقواله وآرائه التي لم يقصد منها تصنيف كتاب بعينه ولو قدّم كذلك، لسلم ما فيه من علم من التشكيك ورفع عنه التردد.

الاختلاف حول كتاب الأم:

وقد ثار الخلاف في مصر حول هذه المسألة، وكثر الجدل فيها، وهو: هل أن كتاب «الأم» ألّفه الشافعي أو ألفه البويطي؟

---

(١) الإحياء ج٢ ص١٩٠.

(٢) قوت القلوب للمكي ج٤ ص١٣٥.

(٣) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص٢٥٥.

فمنهم، من ينفي تأليف الشّافعي لهذا الكتاب، وأنّه عكف على كتابته وتأليفه في هذا الموضع النهائي.

ومنهم، من يرى أن الشّافعي أملاه على تلامذته في حلقة درسه، وقسم آخر يرى أن الشّافعي أملى مسائل، وكتب مسائل، وتحدّث بمسائل، ثم ترك علمه ورسائله وأماليه وديعة في خزائن أصحابه وصدورهم بعد موته، فجاء البويطي فصنّف من ذلك كله كتاب الأم وأعطاه الربيع، فزاد فيه وتصرّف. ولكل قول مرجحات ومؤيّدات.

يقول الدكتور أحمد أمين: (فليس يستطيع أحد أن يقول أن ما بين دفتي الكتاب الذي بين أيدينا هو من تأليف الشّافعي، وأنّه عكف على كتابته وتأليفه في هذا الموضع النهائي. كما أنّه لا يستطيع أحد أن ينكر أن في «الأم» مذهب الشّافعي بقوله وعبارته، فالظاهر أنّها أمال أملاها الشافعي في حلقته، وكتبها عنه تلاميذه، وأدخلوا عليها تعليقات من عندهم، واختلفت رواياتهم بعض الاختلاف)[1].

وكتب الدكتور زكي مبارك رسالة خاصة في هذه المسألة تحت عنوان: (إصلاح أشنع خطأ في تاريخ التشريع الإسلامي، كتاب الأم لم يؤلّفه الشافعي، وإنّما ألّفه البويطي وتصرّف فيه الربيع بن سليمان).

يقول في المقدمة: (وملك الدنيا بأسرها لا يساوي عندي تصحيح هذه الغلطة التي درج عليها الناس منذ أجيال، وهي نسبة كتاب الأم إلى الشافعي رحمه الله، مع أن الشّافعي لم يؤلّف ذلك الكتاب، ولم يعرفه على الإطلاق، لأنه ألّف بعد وفاته بسنين).

ويقول: إن الفرق عظيم بين كتاب يؤلّفه الشّافعي أو يمليه ويرويه عنه أصحابه، وكتاب يؤلّف بعد وفاته بسنين، الفرق عظيم جداً بين هذين في التأليف والتصنيف، إلاّ أن تكون الحقائق الأدبية في مصر مما يكال ويوضع في الأعدال.

ويستمر الأستاذ مبارك في مناقشته، وبحثه حول الكتاب ـ وهو المعروف بدقة البحث وسلامة الذوق ـ ويقيم الأدلة على ما يدّعيه، من إثبات تأليف الكتاب للبويطي، لا للشافعي، ويصف لنا مهاجمة الناس له، وقيام المعركة حول إثارة هذه

---

(١) ضحى الإسلام ج٢ ص٢٣١.

المسألة، وأن المعركة تنتهي على أن الشافعي لم يعرف كتاب الأم بصورته، وأنه لا مفرّ من الاعتراف بأثر أبي يعقوب البويطي، والربيع بن سليمان في تأليف ذلك الكتاب.

ويقول: كتب الله لنا النصر في تلك الحرب الشعواء، واعترف خصومي بأن الشافعي لم يعرف كتاب الأم في حياته، اعترفوا في محادثات شخصية وتلفونية، وسألتهم أن يذيعوا ما اقتنعوا به فلم يفعلوا، لأن الاعتراف بالهزيمة يصعب على كثير من الناس.

ولكنهم لم يكونوا جميعاً في درجة واحدة من المكابرة، فقد تفرد الرجل الفاضل الأستاذ محمّد عرفة ـ وكيل كلية الشريعة ـ بكلمة وقعت منه قضاءً وقدراً، في مقال نشره بالبلاغ في مساء السبت ٢٨ شعبان سنة ١٣٥٢هـ إذ قال: (إلا أنه يحتمل أن يكون الشافعي أملى كتابه الأم كتباً متفرقة ومسائل مجزأة، والذي جمعه وجعله كتاباً مستقلاً، وسماه بهذا الاسم هو الربيع بن سليمان، ونحن نرجح هذا الاحتمال).

هذا كلام وكيل كلية الشريعة بالجامع الأزهر، فماذا ينتظر الناس من الفوز لرأي زكي مبارك، من أن يوافقه وكيل كلية الشريعة من حيث لا يحتسب.

ويختم الأستاذ زكي مبارك رسالته، التي نشرها حول إثارة هذا الموضوع فيقول:

وأظهر ما تكون عقبة التوحيد في الفقه الإسلامي، فقد رأينا كيف يتفق فقهاء الشافعية على إضافة مؤلفات أصحاب الشافعي إلى الشافعي، ومضوا على ذلك الرأي الموحد إلى اليوم، حتى رأينا من فقهاء عصرنا من يضجر ويحزن ويكتئب حين يسمع من يقول: إن للبويطي والربيع بن سليمان يداً في تأليف كتاب الأم، لأن في ذلك إشراكاً بالشافعي رحمه الله!

ولا ننسى أن من فقهاء الشافعية جماعة أنطقت الرسول عليه السّلام بمدح الشافعي قبل أن يولد بزمان، فزعمت أنه قال: (عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً) وأن المقصود بهذا الحديث محمّد بن إدريس الشافعي. إلى أن يقول: لقد مرت أجيال والمسلمون يعتقدون أنه ليس لأحد بعد الأئمة الأربعة أن يجتهد في الشريعة الإسلامية، والخارج عن المذاهب الأربعة ـ وهو رأي الجمهور ـ صاحب بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار!

ومن المؤسف، أن تتغلغل هذه العقيدة في الجماهير الإسلامية. حتى نجد من يسأل عن مذهب رسول الله ﷺ أشافعي هو أم مالكي؟! وغفلة العوام فرع عن غفلة الخواص!

فإن لم يكن ذلك كذلك ـ كما كانوا يعبرون ـ فلم يصرخ بعض الناس فيقولون في جريدة يومية: أنه يعزّ عليه أن ينسب كتاب الأمّ إلى غير الشّافعي؟ مع أن في فحول المتقدمين من نسبه إلى البويطي والربيع، مع أن الأدلة تظافرت على أنّه ألف بعد وفاة الشّافعي بسنين؟

يقولون: إن أصحاب الشّافعي كانوا جميعاً عالة عليه. ونحن نقول: لولا أصحاب الشّافعي لكان مصيره مصير الليث بن سعد، فقد كان من كبار الأئمة، ولكن قعد عنه أصحابه فضاع. وفي عصرنا شاهد لذلك، فلولا رشيد رضا لما كان محمّد عبده، وهل استطاع الشيخ محمّد عبده أن يظفر بكلمة ثناء! وهل جرى في الدنيا أنّه الأستاذ الإمام وأنه (لوثر) هذا الجيل؟ لولا عناية رشيد رضا بطبع مؤلّفاته، وإذاعة ما وعى عنه من مختلف الأقوال.

إن التلميذ المخلص شريك أستاذه في الفضل، فلا تغضبوا من قيمة أصحاب الشّافعي لتصح لكم في الشّافعي عقيدة التوحيد، فبعض التوحيد وثنية لو تعلمون. انتهى. وفي الرسالة مباحث قيمة لم يتسع الوقت لإعطاء صورة عنها.

وبهذا ينتهي بحثنا حول شبهة كتاب الإم، ونسبته للشافعي. وللشافعي كتب أخرى في علوم مختلفة، كالتفسير واللغة وغيرهما. كما أنّهم نسبوا إليه معرفة كثير من العلوم، والتحقيق لا يقر ذلك، والتتبع لا يثبته. فمن ذلك:

إن بعض من درسوا الشّافعي ينسبون إليه تعلم اليونانية، معتمدين على ما نقله الرازي عن الشّافعي: أنّه عندما دخل على الرشيد بتلك التهمة، سأله الرشيد عن علمه، فكان مما جاء في هذه المحاورة: قال الرشيد: فكيف علمك بالطب! قال الشافعي: أعرف ما قالت الروم مثل أرسطاطاليس وجالينوس، وفرفوريوس، وأبو قليس بلغاتها، وما نقله أطباء العرب، وقنّنه فلاسفة الهند، ونمقته علماء الفرس.

والقصة مكذوبة لا يعتمد عليها، لاشتمالها على أمور متناقضة وأشياء مكذوبة، وأوضح ما فيها من الكذب أن السؤال من الرشيد كان بمحضر أبي يوسف، مع القطع بأن الشافعي دخل بغداد بعد وفاة أبي يوسف، ولم يجتمع به قط. وكذلك تشتمل

القصة على مناقشات فقهية تخالف مذهب الشافعي، قديمه وجديده[١].

فليس من التحقيق العلمي التمسّك بشيء مما جاء في هذه القصة، لأن راويها كذاب وضّاع، وهو محمّد بن عبد الله البلوي، وحاله أشهر من أن يذكر، ولم نجد نسبة تعلمه للطب واللغة اليونانية إلاّ في هذه الرواية التي لا يعتمد عليها، ونص على ذلك كثير من المحققين.

وليس لنا غرض في نفي ذلك عنه، إلاّ الالتزام بشرط الدراسة من التعرّض لكثير من الأمور التي هي بعيدة عن الواقع.

أما الكلام حول علم الأصول، وهل كان الشافعي هو الواضع له، أو أنه أول من ألّف فيه؟! فذلك ما يستدعي بيانه الإطالة في البحث لاستلزامه الرجوع إلى البحث عن تاريخ علم الأصول ونشأته، وهو متأخر عن علم الفقه لأنه ميزان له، فالفقه هو المادة التي توزن، والمادة سابقة على الميزان.

وقد أشرنا في الجزء الثاني في فصل تدوين العلم: أن الإمام الباقر عليه السلام كان هو الواضع الأول لقواعده وأسسه، وقد ألّف تلامذته رسائل في مسائله.

ومهما يكن من أمر فلا مجال إلى الاعتراف بوضع الشافعي لعلم الأصول، ولا يمكن التمسك بما نقله البعض في ذلك، لبعده عن الحقيقة، وعدم مطابقته للواقع، لأنا نجد من كان قبل عصر الشافعي من علماء الإسلام مَن كان يستعمل في استنباطه للحكم كثيراً من القواعد الأصولية، للوقوف على حقيقة الحكم الوارد من الشارع.

وكان لكل مذهب أصول وقواعد، وقد ألّف أبو يوسف كتاباً في أصول الفقه، كما أن قواعد أصول الفقه المالكي كانت سابقة على الشافعي، وقد ألّف محمّد بن الحسن الشيباني كتاباً أسماه أصول الفقه. وتدعي الحنفية أن أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة هو أبو يوسف[٢].

وذكر ابن النديم كثيراً من كتب الأصول لمن هو أسبق في التأليف من الشافعي من معاصريه وغيرهم.

وقد تقدم القول بأن الإمام الباقر عليه السلام هو الذي وضع قواعد علم الأصول

---

(١) وقد رد ابن القيم هذه الرواية، ورفضها ابن حجر وابن كثير، ونص الجميع على كذبها. وقد أوردها الفخر الرازي بدون سند.

(٢) مناقب أبي حنيفة للمكي ج١ ص٢٤٥.

وفتح أبوابه، وأوّل من صنّف فيه هو هشام بن الحكم المتوفى سنة ١٧٩هـ صنّف كتاب (الألفاظ ومباحثها) ثم من بعده يونس بن عبد الرّحمٰن مولى آل يقطين، وهو مبحث تعارض الحديثين، ومسائل التعادل والتراجيح. وقد ذكر ابن النديم مؤلّفات الشيعة في الأصول لمن هو أسبق من الشّافعي، وقد مر البحث في ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب. ونحن لا ننكر أن الشّافعي له يد في علم الأصول، وأنه وسع الدائرة في بعض المسائل، إلاّ أنه لم يكن واضعاً لهذا العلم، بل هو مؤلّف وله الرسالة المشهورة، وقد تصدّى أبو سهل النوبختي، وهو من علماء الشيعة، فنقضها وبيّن أخطاء الشّافعي فيما كتب عن علم الأصول. ولكننا ننكر أن يكون هو الواضع الأول لعلم الأصول، وهو ادّعاء لا يثبت أمام التفاصيل التي حوتها كتب الشيعة، والتي تبيّن الأبواب التي جرى عليها الإمام الباقر في مسائله وأقواله، وتظهر القواعد التي وضعها في استخراج الأحكام وتصنيف المسائل والتي برزت أيضاً بمنهج الإمام الصّادق ومدرسته الكبرى.

بين قديم وجديد:

تختلف أقوال الشّافعي وفتاواه في كثير من الموارد، وقد عرف عنه أنه عدل عن فتواه في العراق، وعرفت بالمذهب القديم، وهو الذي تحمّله عنه تلامذته في العراق وأخذوا عنه، وحفظوا مسائله، ودوّنوا كتبه كالزعفراني والكرابيسي وغيرهما. ومن كتب المذهب القديم المنسوبة للشافعي: الأمالي، ومجمع الكافي.

ولما دخل مصر رجع عما أفتاه في العراق، وما دُوّن عنه، حتى روى البويطي: إن الشّافعي قال: لا أجعل في حلٍ من روى عني كتابي البغدادي[1] هذا مع العلم بأن تلك الآراء والأقوال قد انتشرت وأخذها من تتلمذ عليه في بغداد، ولا نعلم معنى هذا النهي ومؤدّاه ـ إن صح عنه ـ فهل كان الرجوع عنها لعدم مطابقتها للحق؟ أم أن استعداده الاجتهادي كان قاصراً عن إدراك الواقع الذي أدركه في مصر؟!

وصفوة القول: أن ما تقدم يضع بين يدي الباحث حقيقة مذهبية طريفة هي تأثر ذهنية الفقيه بالمحيط الجغرافي؛ وهذا ما لم يَصل إليه التصور أو الإدراك، فالشّافعي صاحب المذهب المعروف هو الذي تفرّد مذهبه بهذه الصبغة (صفة الجديد وصفة

(١) مناقب الشافعي للفخر الرازي ص٦٩.

القديم) فمذهبه الجديد هو ما أملاه في مصر، وأخذ عنه تلامذته هناك، والقديم هو مذهبه في بغداد؛ وقد عدل عنه ونهى عن نقله، ولكن تلامذته في بغداد لم يبلغهم نهيه وعدوله، فدونوها وتناقلوها وانتشرت بينهم، ولهذا تجد الأقوال عن الشّافعي مختلفة. فيأتي في المسألة قولان أو أكثر، وقد يثبت رجوعه عن أحدها أو لا يثبت، فيبقى القولان ثابتين في المذهب منسوبين إليه، كما جاء في كتاب الأم وغيره. وقد يعتبر هذا الاختلاف دليلاً على النقص في اجتهاد الشّافعي لأن عدم الجزم دليل على نقص العلم.

ذكر الفخر الرازي في المسألة الحادية عشرة: أنهم ـ أي العلماء القائلين بنقص اجتهاد الشّافعي ـ قالوا: إنه ـ أي الشّافعي ـ ما كان كاملاً في الاجتهاد لأنه توقف في أكثر مسائل الفقه. وتساوت عنده الأدلة، وذلك يدل على ضعف الرأي وقلة الفقه[1].

واعتذر الرازي: بأن هذا يوجد عند أبي حنيفة أيضاً في مسألة الماء المستعمل في الوضوء، فقد نقلوا عن أبي حنيفة ثلاث روايات:

١ ـ رواية محمّد بن الحسن عن أبي حنيفة أنه طاهر.

٢ ـ رواية أبي يوسف أنّه نجس نجاسة خفيفة.

٣ ـ رواية الحسن أنّه نجس نجاسة غليظة، ولهم من هذا الباب مسائل كثيرة، فثبت أنّ هذا الإشكال مشترك من الجانبين (أي من الشافعي وأبي حنيفة في اختلاف الأقوال).

وسنوقف القارىء الكريم على كثير من ذلك. وقد جعلوا قول الشافعي الجديد ناسخاً لقوله القديم، كما أنّهم قد أكثروا من الاعتذار عن وجود هذا الاختلاف الذي جعله بعض العلماء نقصاً في اجتهاد الشّافعي وإدراكه.

قال أبو منصور البغدادي: وليس الشّافعي أجلّ من رسول الله ﷺ حين سئل عن قذف الرجل امرأته، حتى نزلت آية اللعان، وقد روي: أن المؤمن وقاف والمنافق وثاب.

وأنت ترى أن هذا النوع من الدفاع عن الشّافعي لا موجب له، وهو تعصّب محض وقياس مع الفارق، فليس من الصحيح أن تقاس حوادث الشافعي بالنبي ﷺ

---

(١) مناقب الشافعي للرازي ص٦٨.

الذي كان يستمد تعاليمه من السماء، وأنّه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وحي يوحى. على أن الشّافعي قد أراحهم من هذا التكلف، فإنه لم يدّع العصمة والكمال، وقد دلّت أقواله على خلاف ما يدعونه له، من صفة الإنسان الكامل الذي لا يعتريه الخطأ والنسيان، كما تقدم بيانه.

وحدث البويطي عن الشّافعي أنّه قال: صنفت هذه الكتب فلم آل فيها الصواب، فلا بد وأن يوجد فيها ما يخالف كتاب الله وسنّة رسوله، فما وجدتم فيه ما يخالف كتاب الله وسنّة رسوله فإني راجع عنه إلى كتاب الله وسنّة رسوله.

وقال المزني: قرأت كتاب «الرسالة» على الشّافعي ثمان مرات، فما من مرة إلاّ وقد كان يقف على خطأ، فقال لي الشّافعي: أبى الله أن يكون كتاباً صحيحاً غير كتابه تعالى. فقول أبي منصور في نصرة الشّافعي خطأ محض وجرأة على مقام الرسالة، وليس بغريب على من انغمس في بحر التعصب للمذهب بأن تصدر منه أمثال هذه المخالفات، فقد ترك قول النبي ﷺ لقول صاحب المذهب، وقد مرّ أن بعضهم يسأل عن مذهب النبي ﷺ هل كان حنفياً أم شافعياً.

ولسنا الآن بصدد البحث عن هذا، ولكن الغرض أن أقوال الشّافعي قد اختلفت في كثير من المسائل، فهو قد أفتى في بغداد بمسائل، ثم أعرض عنها في مصر، فسميت تلك الأقوال بالمذهب القديم.

وإن أقواله القديمة منشورة في أبواب الفقه المختلفة، وأخذ العلماء يوازنون بينها، واختلفت ترجيحاتهم وتصحيحاتهم فيها، بل تناولوا ما رجحه الشافعي نفسه بالدراسة والفحص، فكانوا يرجحون القول الآخر إذا وجدوا حديثاً صحيحاً ـ سيراً على قاعدة الشّافعي التي سنّها لنفسه ـ إذا صح الحديث فهو مذهبي.

قال البجرمي: الفتوى على ما في الجديد دون القديم، وقد رجع الشّافعي عنه، وهذا كله قديم لم يعضده حديث، فإن اعتضد بحديث فهو مذهب الشّافعي، فقد صح عنه أنّه قال: إذا صح الحديث فهو مذهبي، واضربوا بقولي عرض الحائط.

ولكن بعض الشّافعية تردد في الأخذ بالحديث إن عارض قول الشّافعي، لأنه عساه يكون منسوخاً في نظره أو مؤوّلاً، أو صح عند غيره بطريق أقوى من طريقه، وبعضهم إذا وجد حديثاً يخالف رأياً مأثوراً عن الشّافعي يأخذ بالحديث الصحيح، ويترك رأي الشافعي.

وقد أفتى المتقدمون من فقهاء الشافعية بعدة مسائل في القديم، وترجيحها على الجديد، واختلفوا في عددها، وحاولوا حصرها في عدد قليل أو أكثر، وقد منع بعضهم الحصر. وحصرها بعضهم في اثنين وعشرين، منها:

عدم وجوب التباعد عن النجاسة في الماء الراكد الكثير، والتثويب في الأذان، وعدم انتقاض الوضوء بمس المحارم، وطهارة الماء الجاري ما لم يتغيّر، وعدم الاكتفاء في الاستنجاء بالحجر إذا انتشر البول، وتعجيل صلاة العشاء، وعدم مضي وقت المغرب بمضي خمس ركعات، وعدم قراءة السورة في الأخيرتين، والمنفرد إذا أحرم الصّلاة ثم أنشأ القدوة (أي جواز ذلك)، وكراهية تقليم أظافر الميت، وعدم اعتبار النصاب في الركاز، وشرط التحليل في الحج بعذر المرض، وتحريم جلد الميتة بعد الدباغ. ولزوم الحد بوطء المحرم بملك اليمين، وقبول شهادة فرعين على كل من الأصلين. إلى آخر ما ذكر.

وصفوة القول: إن اختلاف الشّافعية في أقوال الشّافعي المختلفة قد فتحت لهم أبواب الترجيح، والتخريج، والموازنة بين أقواله وتطبيقها على الأحاديث، فما كان له شاهد من الحديث قُدم على ما لم يكن له شاهد، واشترطوا لذلك شروطاً يأتي بيانها.

وهاتان الناحيتان (القديم والجديد) تظهران جلياً في كتاب الأم، وفي اختلاف الشّافعية المتأخرين، إذ يذكرون للمسألة قولين، ويقصدون القديم والجديد. وقد مرّ أن اتباع أئمة المذاهب يجعلون أقوالهم هي بمنزلة أقوال النبي ﷺ وربما ترك قوله ﷺ لقولهم.

وقد قيل في أسباب تحول الشّافعي عن أقواله في بغداد: أن انتقاله من بغداد إلى مصر، وتقلبه في عادات جديدة أثر ذلك في تبدّل رأيه.

وغير بعيد أن الشّافعي عندما كان في بغداد كان يرى نفسه تلميذاً لمالك بن أنس، وبعد ذهابه لمصر بقي مدة ينقل أقوال أستاذه، ثم تحوّل إلى مرحلة النضوج الاجتهادي في تعمقه ودراسته، فهجر ما قاله أولاً، وانتقد أستاذه مالكاً، ووضع الكتب في الرد عليه، وأعلن بحرمة العمل في قوله الأول، ومنع من نقله عنه.

ولكن مدة بقائه بمصر لا تساعده على اكتساب تلك الملكة الاجتهادية، وذلك الأفق الواسع من العلم كما ينقل عنه.

آراؤه في القرآن:

قيل أن الشّافعي كان يرى أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق ويقول: إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾.

ومسألة خلق القرآن من المشاكل المهمة التي حلّت بالجامعة الإسلامية. والتي أدت إلى موجة كلامية في تاريخ الإسلام، نجم عنها تباعد وعداء، واتهام بالكفر، ورمي بالزندقة والإلحاد. وإثارة للفتن، وإيقاد لنار البغضاء، حتى عد من لم يقل بخلق القرآن خارجاً عن الدين ويقتل.

وقد تطورت هذه المسألة بعد وفاة الشّافعي، وظهر الامتحان بها في سنة ٢١٨هـ ففيها دعا المأمون المحدثين والقضاة إلى القول بخلق القرآن، محتجاً على أنه محدث، وكل محدث مخلوق، وهذا الرأي السائد عند كثير من علماء عصره. وكان معارضو هذا الرأي يقولون: إن القرآن كلام الله تعالى: القائم بذاته المقدّسة، وما كان قائماً بذاته لا يكون مخلوقاً[١].

وأخذ المأمون جماعة من الفقهاء فحبسهم وماتوا في السجن[٢].

وأجاب كثير منهم تقيةً. طمعاً في الوظائف، وإبقاء على النفس. ويتجاوز عدد الذين أجابوا أكثر من ستين عالماً كلّهم من كبار المحدثين، كيحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣هـ. ومحمّد بن سعد صاحب كتاب الطبقات المتوفى سنة ٢٣٠هـ وقتيبة بن سعيد المتوفى سنة ٢٤٠هـ وغير هؤلاء يأتي الكلام عليهم إن شاء الله تعالى.

ولقد تجاوز أكثر الفقهاء الحد في هذه المسألة، فذهبوا إلى كفر من قال بخلق القرآن، وبطلان نكاحه، وأن امرأته قد بانت منه. فإن تاب وإلاّ ضربت عنقه، ولا يُدفن في مقابر المسلمين.

---

(١) سيأتي بحث هذه المشكلة بمزيد من البيان في الجزء السابع ضمن بحث أسباب التخلف والتأخر.

(٢) منهم يوسف بن يحيى البويطي خليفة الشافعي في مصر، مات في سجن بغداد سنة ٢٠٦هـ، ونعيم بن حماد الخزاعي، مات في السجن سنة ٢٢٨هـ، وعبد الأعلى بن مسهر الغساني، مات في سجن المأمون سنة ٢٠٨هـ وغيرهم سيأتي بيانهم في الجزء الرابع إن شاء الله.

وقال: إن من وقف وقال: لا أقول أن القرآن مخلوق أو غير مخلوق، فقد ضاهى الكفر، ومن زعم أن لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، لا يُجالس ولا يُكلم.

وكان أحمد بن حنبل لا يقبل توبة أحد ممن يقول بخلق القرآن، بل كان يرتب عليهم آثار الكفر وأحكامه، فلم يشيع جنائزهم، ولم يُصلّ على واحد منهم، وحرم الكلام معهم.

ولقد أخذت هذه المسألة دورها في ذلك العصر، حتى أن امرأة جاءت إلى القاضي فقالت: طلّقني فإن زوجي يقول بخلق القرآن.

ثم اتسعت الحالة فخرجت عن اعتقاد البشر إلى الجن، وأنهم يقولون بذلك إلى آخر ما فيها من تطور وتأزم كما سيأتي في الجزئين الرابع والسابع إن شاء الله.

وبالجملة، فإني أرى أن ما ينقل عن الشّافعي من التشدّد في هذه المسألة لا يخلو بعضه من مبالغة، كما لا يخلو من زيادة ـ نسبة للظروف المتأخرة ـ إذ المسألة في عصر الشّافعي لم تأخذ أثرها في المجتمع بذلك الشكل الذي يجعلنا نثق بصحة كل ما جاء عن الشّافعي فيه، مع أنا لا نريد أن ندفع عن الشّافعي ما كان يراه، أو نقول بعدم صحة النقل عنه، ولكنا نشك في تشدده في أمر من يقول بخلق القرآن!..

قال الربيع بن سليمان: سمعت الشّافعي يقول: من حلف باسم من أسماء الله فحنث فعليه الكفارة، لأن اسم الله غير مخلوق، ومن حلف بالكعبة أو بالصفا والمروة فليس عليه كفارة. لأنه مخلوق وذاك غير مخلوق[1].

وقال الربيع بن سليمان: حدّثني من أثق به قال: كنت حاضراً في المجلس فقال حفص الفرد: القرآن مخلوق. فقال الشّافعي: كفرت بالله العظيم.

وقال الربيع أيضاً: حضر عبد الله بن عبد الحكم، ويوسف بن عمر، وحفص الفرد، وكان الشّافعي يسميه حفص المنفرد، فسأل حفص عبد الله بن الحكم وقال: ما تقول في القرآن؟ فأبى أن يجيبه، ثم سأل يوسف بن عمر فلم يجبه، وكلاهما أشار

---

(١) آداب الشافعي ص١٩٥.

للشافعي، فسأل الشّافعي. فاحتج عليه الشّافعي، وأقام الحجة عليه بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وكفّر الشّافعي حفصاً. قال الربيع: فلقيت حفصاً في المجلس فيما بعد فقال: أراد الشّافعي قتلي[1].

رأيه في الرؤية:

قال الربيع: كنت يوماً عند الشّافعي، وجاءه كتاب من الصعيد يسألونه عن قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾.

فكتب الشّافعي: لما حجب قوماً بالسخط، دل على أن قوماً يرونه بالرضا.

قال الربيع: أو تدين بذلك؟

قال: والله لو لم يدن محمّد بن إدريس إنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا[2].

وبهذا يتضح لنا رأي الشّافعي: أن الرؤية محققة في الآخرة، ولولا ذلك لما عبد الله في الدنيا.

وقد اختلف المسلمون في رؤية الله تعالى، فذهب قوم إلى جوازها في الدنيا والآخرة. ومنعها آخرون في الدنيا ووقوعها في الآخرة، كما هو مذهب الشّافعي.

وذهب أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم إلى استحالة الرؤية في الدنيا والآخرة، وعدم إمكانها لأنه تعالى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ لأن الأبصار إنما تتعلّق بما كان في جهة أصلاً أو تابعاً، كالأجسام. والهيئات، وعلّل ذلك بأن الباصرة لا تكون في حيز الممكنات ما لم تتصل أشعة البصر بالمرئي، ويمتنع اتصال شيء ما بذاته جل وعلا.

وللإمام أبي الحسن الهادي عليه السلام أسلوب آخر في تقرير هذا الوجه، يوافق رأي الفلاسفة من أهل هذا العصر. أخرج الكليني في باب إبطال الرؤية، من كتاب التوحيد من أصول الكافي، بسنده إلى أحمد بن إسحاق قال: كتبت إلى أبي الحسن

---

(١) آداب الشافعي ص١٩٥.

(٢) طبقات الشافعية ج١ ص٢٣١.

الثالث أسأله عن الرؤية؟ فكتب عليه السَّلام: «لا تجوز الرؤية ـ عقلاً ـ ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء[1] ينفذ البصر، فإذا انقطع الهواء عن الرائي أو المرئي لم تصح الرؤية».

قال سيدنا شرف الدين: إن العقل الذي عرفنا الله تعالى به يحكم مستقلاً بامتناع رؤية الباري سبحانه، سواء أكانت الرؤية بصرية، أم قلبية، أم خيالية، أم وهمية، لامتناع لوازمها بحكم العقل.

نعم، ندرك بأبصارنا آيات الله في عجائب مخلوقاته ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

وندرك ببصائرنا أنه هو الله، الذي لا إله إلاّ هو، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرَّحيم.

وعن الإمام الرضا عليه السلام أخرجه الكليني في أصول الكافي بسنده إلى صفوان بن يحيى قال: سألني أبو قرة المحدث أن أدخله على الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك، فأذن لي، فأدخلته عليه، فسأله عن الحلال والحرام حتى بلغ سؤاله إلى التوحيد، فقال أبو قرة: إنا روينا أن الله قسم الرؤية والكلام بين النبيين، فقسم الكلام لموسى، ولمحمَّد الرؤية فقال الإمام عليه السلام: «فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين من الإنس والجن في أنه لا تدركه الأبصار، ولا يحيطون به علماً، وليس كمثله شيء؟ أليس هو محمَّد ﷺ؟»

قال أبو قرة: بلى.

قال عليه السلام: «كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم: أنه جاء من عند الله، وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله، ويقول لهم عن الله: أنه لا تدركه الأبصار، ولا يحيطون به علماً، وليس كمثله شيء؟ ثم يقول لهم: أنا رأيت الله بعيني، وأحطت به علماً، وهو على صورة البشر. أما تستحون؟! ما قدرت الزنادقة أن ترميه ﷺ بهذا، أن يكون يأتي من عند الله بشيء ثم يأتي بخلافه!..»

قال له أبو قرة: فإنه تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾.

---

(١) الهواء كنه المعنى الذي يعبر عنه فلاسفة اليوم بالأثير الممتد عندهم من عين الرائي إلى المرئي.

فقال الإمام عليه السلام: «إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى ﷺ حيث قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ يقول: ما كذب فؤاد محمّد ما رأت عيناه، ثم أخبر بما رأى فقال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ فآيات الله غير الله تعالى. وقد قال عزّ من قائل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ فإذا رأته الأبصار فقد أحيط به علماً». قال أبو قرة: أفتكذّب الروايات؟

قال الإمام: «إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبتها، وقد أجمع المسلمون على أنه لا يحاط به علماً، ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شيء».

ودخل رجل من الخوارج على محمّد الباقر عليه السلام فقال له: أي شيء تعبد فقال عليه السلام: «الله».

قال الرجل: رأيته؟

قال: «بلى، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبّه بالناس، موصوف بالآيات، معروف بالدلالات، ذلك الله لا إله إلاّ هو».

ولا حاجة إلى الاسترسال بذكر الشواهد على خطأ هذه الفكرة بما ورد عن أهل البيت عليهم السلام من تنزيه الله عزّ وجلّ عن إدراك البصر له وتحديده، فهو لا يحويه مكان ولا يخلو منه مكان.

أما ما ورد عن الشافعي في هذا فهو يوافق أغلبية الجمهور، وقد نقلوا عنه غير ذلك، وأنّه لا يرى هذا الرأي، واتبع في نفي الرؤية لله تعالى أستاذه مسلم بن خالد الزنجي، وإبراهيم الأسلمي، وقد نقل ذلك الهمداني في طبقات المعتزلة. وأن الشّافعي لم يصرح بأن الرؤية تكون بالباصرة، بل كان يطلق ذلك ويقول: إن الله يراه أولياؤه في الآخرة. والروايات عنه مضطربة، ولكن أصحابه جعلوا رأيه الصحيح هو ما عليه أغلب بقية المذاهب من الرؤية والإدراك بالحواس.

رأيه في الصفات:

عن يونس بن عبد الأعلى المصري، قال: سمعت أبا عبد الله محمّد بن إدريس الشّافعي يقول ـ وقد سئل عن صفات الله وما ينبغي أن يؤمن به ـ: لله تبارك وتعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيه ﷺ أمته، لا يسمع أحداً ممن

خلق الله قامت عليه الحجّة: أن القرآن نزل به وصح عنه بقول النبي ﷺ فما روي عنه العدل، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو والله كافر، فأما قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبر فمعذور بالجهل، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالرؤية والفكر، ونحو ذلك أخبار الله سبحانه وتعالى، أتانا أنه سميع وأن له يدين، بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وأن له يميناً بقوله: ﴿وَالسَّمَٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِۦ﴾ وأن له وجهاً، بقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وأن له قدماً، بقول النبي ﷺ: (حتى يضع الرب فيها قدمه) يعني جهنم. وأنه يضحك من عبده المؤمن بقول النبي ﷺ ـ للذي قتل في سبيل الله ـ: أنه لقي الله وهو يضحك إليه[1] وأنّه يهبط كل ليلة إلى سماء الدنيا بخبر رسول الله ﷺ وأنّه ليس بأعور، بقول النبي ﷺ ـ إذ ذكر الدجال ـ فقال: «إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بأبصارهم، كما يرون القمر ليلة البدر» وأن له أصبعاً، بقول النبي ﷺ: «ما من قلب إلاّ هو بين أصبعين من أصابع الرَّحمن عزّ وجل».

فإن هذه المعاني التي وصف الله بها نفسه. ووصفه بها رسوله. مما لا تدرك حقيقته بالرؤية والفكر، فلا يكفر بالجهل بها أحد إلاّ بعد إنهاء الخبر إليه بها. فإن كان الوارد بذلك خبراً يقوم في الفهم مقام المشاهدة في السماع، وجبت الدينونة على سامعه بحقيقته والشهادة عليه، كما عاين وسمع من رسول الله ﷺ. ولكن يثبت هذه الصفات وينفي التشبيه، كما نفى ذلك عن نفسه تعالى ذكره، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

رأيه في الإمامة:

كان الشافعي يرى أن الإمامة في قريش، ولا يشترط البيعة. روى عنه تلميذه حرملة أنّه قال: كل شيء غلب على الخلافة بالسيف، واجتمع عليه الناس فهو خليفة. فالعبرة عنده في الخلافة بأمرين: كون المتصدي لها قرشياً، واجتماع الناس عليه، سواء أكان الاجتماع سابقاً على إقامته خليفة، كما في حال الانتخاب والبيعة، أم لاحقاً لتنصيبه نفسه خليفة، كحال التغلب، وهذا لا يسمى اجتماعاً.

ولم يشترط الهاشمية، بل القرشية كافية. وكان يرى: أن علي بن أبي طالب هو

(١) طبقات الحنابلة للقاضي محمّد بن أبي يعلى ج١ ص٢٨٣ ـ ٢٨٤.

الإمام الحق في عصره، وأن معاوية وأصحابه كانوا الفئة الباغية، ولذلك اتخذ في كتاب السير سنّة علي عليه السلام في معاملة البغاة، كما هو مدون وثابت في كتاب الأم وغيره من كتب الشّافعية، لذلك اتهم الشّافعي بأنه رافضي. كما تقدم بيانه.

فهو لا يبالي بأن يظهر حب آل محمَّد. وإن اعترضت حواجز في طريق إظهار الحب، كما شاءت السياسة بأن يرمى محب أهل البيت بكل تهمة، ويكون عرضة للخطر. وقد أعلن الشّافعي ذلك بقوله:

إن كان رفضاً حب آل محمَّد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

وكان يذكر علياً بكل إعجاب وتقدير، وله أشعار في مدحه تأتي في محلها. وسئل يوماً عن علي عليه السلام فقال: ما أقول في رجل أخفت أولياؤه فضائله خوفاً، وأخفت أعداؤه حسداً، وشاع له من هذين ما ملأ الخافقين.

وأخذ هذا المعنى السيد تاج الدين فقال:

لقد كتمت آثار آل محمَّد ... محبوهمو خوفاً وأعداؤهم بغضا

فشاع لهم بين الفريقين نبذة ... بها ملأ الله السماوات والأرضا

وحكى البيهقي في مناقب الشّافعي: أنه قيل إن أناساً لا يصبرون على سماع منقبة لأهل البيت، فإذا أراد أحد أن يذكر شيئاً من ذلك قالوا تجاوزوا عن هذا فهو رافضي، فأنشأ الشافعي يقول:

إذا في مجلس ذكروا علياً ... وسبطيه وفاطمة الزكيه

يقال تجاوزوا يا قوم هذا ... فهذا من حديث الرافضيه

برئت إلى المهيمن من أناس ... يرون الرفض حب الفاطميه

وسيأتي في باب اتهامه بالتشيع زيادة بيان لهذا. هذا موجز البيان في رأيه في الإمامة. أما رأيه في الخلافة والخلفاء، فكان يقول: الخلفاء خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز، أما الباقون في نظره فهم ملوك.

رأيه في علم الكلام:

المعروف عن الشّافعي أنه كان يبغض علم الكلام وينهى عنه، حتى ذهب إلى عدم جعل كتب الكلام من كتب العلم، كما حدّث الربيع: أنّ الشّافعي كان يقول: لو أن رجلاً أوصى بكتبه من العلم وفيها كتب الكلام؛ لم تدخل كتب الكلام في تلك الوصية.

وكان يرى لزوم تعزير أهل الكلام، وضربهم وإهانتهم، وأن يطاف بهم في العشائر. واشتهر عنه أنّه كان يقول: إيّاكم والكلام. وكان يقول: ولئن يبتلي الله المرء بكل ما نهى عنه ـ ما عدا الشرك به ـ خير من أن ينظر في الكلام.

وهذا التشديد من الشّافعي يدل على بغضه لعلم الكلام، وعدم الرضا بتعلمه والنظر فيه. وهذا غريب جداً فإن العصر الذي نشأ فيه الشّافعي قد نضج فيه الكلام، واتسع نشاط المتكلمين، وأثاروا في المجتمع مسائل كثيرة، وقد كثر النقاش والجدل، وكان لا بد لكل عالم أن يلتمس الدلائل والبراهين الفلسفية، لتقوية جانبه والرد على مخالفيه.

وكان لا بد من الانهزام أمام ذلك التيار. إذا لم يكن هناك استعداد وقابلية للمقابلة والرد عند خوض تلك المعارك التي دارت رحاها في عصره.

وقد علّل الرازي نهي الشّافعي عن علم الكلام وبغضه: بأن المعتزلة قد حرضوا الخلفاء على أذى العلماء، وقد كانوا هم القوامين على هذا العلم، وأن الفتن العظيمة وقعت في ذلك الزمان بسبب خوض الناس في مسألة خلق القرآن، وأهل البدع استعانوا بالسلطان وقهروا أهل الحق، ولم يلتفتوا إلى دلائل المحقين، وتلك الحكايات والواقعات مشهورة، فلما عرف الشّافعي أن البحث عن هذا العلم في ذلك الزمان ليس لطلب الحق، وليس لله وفي الله، بل لأجل الدنيا والسلطنة، فلا جرم أنه تركه وأعرض عنه وحرّم من اشتغل به.

وفي الواقع أن التعليل بعيد عن الواقع، لأن تلك الأمور التي أشار إليها كانت بعد موت الشّافعي، وأن أكثر ما ذكره يحتاج إلى إثبات.

وعلى أي حال: فهل كان الشافعي مع نهيه عن علم الكلام على جهل به؟ مع أنا نرى له ما يدل أنه يتعاطاه ويناظر فيه!!!.

وبهذا نكتفي عن بيان آرائه، وسنعود إن شاء الله تعالى.

تنبيه:

لم أتعرض لذكر حديث (عالم قريش) الذي استندت إليه الشافعية في البشارة بالشّافعي، لأني كنت مطمئناً من عدم صحة الاستدلال به ـ إن قلنا بصحته ـ إذ لا مجال للمغالطة وتضييع الوقت في ذلك، ولكني رأيت الكثير من علماء الشّافعية قد

أخذ هذا الحديث بعين الاعتبار، ورتب عليه نتائج تلزم بوجوب اتباع الشافعي.

يقول بعضهم: في هذا الحديث (أي حديث عالم قريش) علامة بينة، إذا تأمله الناظر المميز علم أن المراد به رجل من قريش ظهر علمه، وانتشر في البلاد، وكُتب كما تكتب المصاحف، ودرسه المشايخ والشبان في مجالسهم، وأجروا أقاويله في مجالس الحكام والقراء، وأهل الآثار وغيرهم. وهذه صفة لا نعلمها في أحد غير الشافعي، فهو عالم قريش الأفضل(١).

هكذا نظر هذا الإنسان لهذا الحديث، فتلقفها من جاء بعده، فإنهم ينقلون هذه العبارة بالنص، وليس كل إنسان مصيباً في رأيه، فالنظر يصيب ويخطىء. وبدون شك أن هذا كان متأثراً بالبيئة التي يعيش فيها والمجتمع الذي يندمج فيه. ولا أريد أن أتحدث عن جميع فقرات هذه الكلمة التي أصبحت كمنهج متبع، ولكني أريد أن اتساءل:

هل كانت قريش على درجة من الانحطاط والخمول والجهل ليكون الشافعي حامل لواء نهضتها، ولسانها الناطق، وعالمها الأوحد؟

وهل بلغ الشافعي بعلمه تلك الدرجة التي لم ينالوها، وعرف من غوامض العلوم ما لم يعرفوه؟

وهل كان انتشار علمه عن نفسه لنفسه، أو بمشجع من عوامل لو تهيأت لمن هو دونه لكان علمه منتشراً مقبولاً؟

أما الجواب عن هذه الأسئلة فيسير لا عناء في الحصول عليه، لأن التاريخ طافح بتكذيب تلك الادعاءات الكاذبة.

وحاشا قريشاً ـ وهم أعلم الناس ومفخرة العرب ـ أن تمر عليها قرون لا تعرف بالعلم، ولم ينشر لها شيء، إلاّ بعد أن بعث الشافعي، فبعثها من رقدتها!!

ونحن إذا أردنا أن نتصدّى للرد ونتعرض للنقد نخرج عن موضوع البحث.

وإن هذا الفهم الذي فهمه ذلك الإنسان وتابعه مقلّدوه. لم يكن فهم عقل وتفكير، بل هو فهم تلقين من ناحية معيّنة، والحقيقة شيء والعاطفة شيء آخر، لأن العاطفة طاغية تسيطر على العقل فتطفىء شعلته، وتطغى على الواقع فتضيعه، وتحكم

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ج١ ص٥٢.

على الفكر بالجمود، ولكن من أين يستطيع الوصول إلى الواقع مَن كبّلته قيود التقليد، وأثقلته أوزار التعصّب الممقوت؟!!

أما الحديث الذي أشرنا إليه فهو: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (اللهم أهدِ قريشاً، فإن عالمها يملأ طباق الأرض علماً).

ومع التسليم بصحة هذا الحديث، فإن انطباقه على الشافعي بعيد جداً، لوجود الكثير من علماء قريش ممن له أهلية الاتصاف بذلك، ولكن أكثر علماء الحديث قد ذهبوا إلى وضع هذا الحديث، وقد نص على ذلك ابن أبي الحوت في (أسنى المطالب) والإسفرائيني في سُفر السعادة وغيرهما.

عصر الإمام الشّافعي وأحداثه:

يمتد عصر الشّافعي من آخر خلافة المنصور المتوفى سنة ١٥٨هـ إلى أول خلافة المأمون، أي من سنة ١٥٠هـ إلى سنة ٢٠٤هـ وعلى هذا فقد أدرك الشافعي ثماني سنين من خلافة المنصور، وخلافة المهدي المتوفى سنة ١٦٥هـ وخلافة الهادي المتوفى سنة ١٧٠هـ وخلافة الرشيد المتوفى سنة ١٩٣هـ والأمين المقتول سنة ١٩٨هـ. وستة سنين من خلافة المأمون.

ونحن إذا أردنا أن نلحظ أدوار الدولة العباسية، نجد هذه الفترة من أزهر العصور وأهمّها، وإن كانت لا تخلو من حوادث هامّة، تهدد كيان الدول وتنغص عيش أربابها، ولكن تلك الحوادث كانت هينة بالنسبة لقوة الدولة، عندما استقر أمرها وتمكن سلطانها، وازدهرت حياتها في امتداد نفوذها، واتساع دائرتها. فهي تمتد من الأندلس إلى الممالك التي تصاقب الصين شرقاً.

وكانت المملكة الإسلامية واسعة الأطراف، وقد أخذت المدن الإسلامية حضارتها في العلم، والتجارة، والصناعة، ونشطت الحركة العلمية، واقتبس العلماء من فلسفة اليونان.

كما نشطت حركة الترجمة، وانتشر علم الكلام. وقد ساهم الخلفاء بتشجيع تلك الحركة. إلى آخر ما هنالك من عوامل امتياز ذلك العصر، من مظاهر فكرية واجتماعية واقتصادية، وفي ذلك العصر بلغت الدولة العباسية أوج عظمتها، عندما استطاعت أن ترغم خصومها على عدم المعارضة، بوسائل البطش والإرهاب، واستعمال أنواع ألوان التعذيب، وكانت لا تعف عن ارتكاب أشنع وسائل العنف، تحقيقاً لسيادتها.

ويكفي أن نستدل على ذلك بما ارتكبوه في معاملة العلويين وأنصارهم، ومَن كانوا يخشون معارضته لسيرتهم الملتوية، وأعمالهم الشاذة، عندما كبّلوا الأمة بقيود جديدة من العبودية، وسلبوا حرية المجتمع، وتلاعبوا بالأموال، وجعلوها وقفاً على أنفسهم، ولا ينال منها إلاّ المتقرّبون منهم وعامة الناس منها محرومون، وتفننوا بذاك الثراء الطائل في وجوه حياتهم، في الشراب والطعام، وغير ذلك من وسائل العيش. فكانت حياتهم مضرب المثل في الرغد والسرف والبذخ.

بذخ الدولة العباسية:

تدفقت الأموال على الدولة العباسية من جميع الأقطار، وامتلأت خزائنها بما يجبيه العمال، بمختلف الطرق وشتى الوسائل، حتى أنّهم كانوا يستولون على أموال الناس وأملاكهم بدون حق، لأنهم لا يُحاسبون على ذلك من قبل الخليفة. كما حدّث المسعودي: عن الرجل الهمداني الذي أراد والي همدان أن يغتصب ضيعته، التي تساوي ألف ألف درهماً، فامتنع. فكبّله بالحديد، وحمله إلى المنصور، فأودع في السجن أربعة أعوام لا يُسأل عنه، ولا ينظر في أمره[1].

كما أن المنصور نفسه كان يأخذ أموال العمال الذين يعزلهم ويجعلها في بيت خاص، وأوصى بتسليمها إليهم بعد موته، ولا نعرف أسباب المنع لها في حياته!!

وقد جاء في وصيته لولده المهدي: وقد جمعت لك من الأموال ما أن انكسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات، والذرية ومصلحة البعوث، فاحتفظ بها، فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً، وما أظنك تفعل[2].

ولا نعلم مقدار هذه الثروة الطائلة، والوفر الهائل الذي كنزه المنصور من أموال الأمة الإسلامية، وأبناؤها يعانون الحرمان، ويمنعون من حقهم في بيت مال المسلمين.

ولما ولي المهدي[3] وكان عكس أبيه في إنفاق الأموال والإسراف، فإن

---

(١) مروج الذهب ج٣ ص١١٥. (٢) الكامل لابن الأثير ج٦ ص٦.

(٣) المهدي هو محمّد بن عبد الله بن محمّد بن علي بن عبد الله بن العباس، المتوفى سنة ١٦٩هـ وكان سبب موته أنه خرج إلى الصيد فتبع وحشاً، فدخل الوحش خربة وتبعته الكلاب وتبعها المهدي، فدق ظهره في باب الخربة لشدة عدوه فمات لساعته، وقيل أنه أكل طعاماً مسموماً، وكانت مدة خلافته عشرة سنين وأشهر.

المنصور كان أبخلهم، وفرق المهدي من تلك الأموال التي جمعها المنصور في خزينة الدولة مائة ألف ألف، وستين ألف درهماً، وأعطى شاعراً ـ مدحه ـ خمسين ألف ديناراً، وأعطى لأعرابي ـ سقاه لبناً ـ خمسمائة ألف(١).

ودخل عليه مروان بن حفص، فأنشده قصيدة يتعرّض بها لآل علي عليه السلام منها:

هل تطمعون من السماء نجومها ... بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة عن ربكم ... جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية ... بتراثهم فأردتموا إبطالها

فلما سمعها المهدي تزاحف من صدر مصلاه، وأخذه الفرح، ثم قال له: كم هي؟ قال: مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم(٢).

واندفع الشعراء بدافع الطمع يمدحون العباسيين، ويضعون من العلويين طلباً للمادة وحباً للصلة، طالما كان صرف الأموال بغير حساب!!

ومضى عهد المهدي والهادي(٣) والأموال تتضخم، وجاء دور الرشيد فكان عهده عهد رخاء وسعة إلى أبعد حد، وبالغ الرشيد في البذخ والترف، وتفنن في حياته حتى بلغ مبلغ الإسراف، وبلغت مظاهر الحياة عنده إلى غايتها، فكان في داره من الجواري والخصايا وخدمهن، وخدم زوجته وأخواته، أربعة آلاف جارية. وحضرن عنده يوماً فغنته المطربات منهن، فطرب جداً وأمر بمال فنثر عليهن، وكان مبلغ ما حصل لكل واحدة منهن ثلاثة آلاف درهم(٤).

وغناه مسكين المدني فأطربه، فأمر له بأربعة آلاف دينار(٥) وأضحكه ابن مريم فأعطاه ألف دينار. وكانت زوجته زبيدة لا تستطيع أن تقوم لكثرة ما عليها من

---

(١) شذرات الذهب ج١ ص٢٦٧.
(٢) الخطيب ج١٣ ص١٤٤.
(٣) الهادي هو موسى بن محمّد المهدي بن المنصور أبو محمّد الهادي، المتوفى سنة ١٧٠هـ كانت مدة خلافته سنة، ويقال في سبب موته: إن أمه الخيزران هي التي تولت قتله بوسادة وضعتها عليه، لأنه أراد قتل أخيه الرشيد وقيل غير ذلك. وكان موسى قاسي القلب جباراً ظالماً.
(٤) تاريخ ابن كثير ج١٠ ص٢٢٠.
(٥) مروج الذهب ج٣ ص٢٧٩.

المجوهرات والحلل، وقد سلكت في صرف الأموال طريقة الرشيد، فكانت تستهين بالأموال، ولا تحسب لها أي حساب.

خرج الرشيد منها يوماً يضحك، فسئل عن ذلك فقال: دخلت اليوم على هذه المرأة (يعني زبيدة) فأقلت عندها فما استيقظت إلا على صوت ذهب يصب، وقالوا هذه ثلثمائة ألف دينار قدمت من مصر، فقالت: زبيدة هبها لي يا ابن عم. فقلت: هي لك، فما خرجت من عندها حتى عربدت عليّ وقالت: أي خير رأيته منك[1].

وأهدت لأبي يوسف القاضي لأجل فتوى أفتاها توافق مرادها فكان فيها: حق فضة فيه حقان، في كل حق لون من الطيب، وجام ذهب فيه دراهم، وجام فضة فيه دنانير، وغلمان وتخوت من ثياب وحمار وبغل[2].

واشترى الرشيد من مسلم بن عبد الله العراقي درة بسبعين ألف دينار، واشترى فص ياقوت أحمر بثمانين ألف دينار وكان وزنه مثقالاً ونصفاً، وكانت بيده سبحة فيها مائة حبة كل حبة اشتريت بمائة ألف دينار.

وهكذا كانت الأموال تنفق في البذخ والإسراف، وتوزع بين طبقة خاصة من الناس، ويتنعم بها أفراد قلائل. وقد استغل الولاة هذه الفرصة، فجمعوا الأموال الطائلة، وادخروا العروض وبنوا الأملاح، وقد ترك سليمان بن جعفر العباسي ستين ألف ألف دينار ما عدا المتاع والدواب[3] وهكذا غيره من الولاة والأمراء ومن سار في ركاب الدولة من سائر الناس. على حين أنّ هناك آلافاً من المسلمين قد تلاطمت بهم أمواج العسرة، ولعبت بهم عوامل الفقر المدقع، لأن ثروة الأمة وأموال المسلمين أصبحت تحت تصرف الطبقة الحاكمة من نساء ورجال، يتصرّفون بها في لذاتهم بغير مانع ولا رادع، وكانوا يتفننون في الملبس والمأكل، فيجلبون لحوم الطيور ولو بعد مكانها، فتأتيهم على البريد وينفقون على ذلك الأموال الطائلة، ليتنعموا في المأكل[4] كما قد جلبت لهم الفواكه من أقصى البلدان. واتخذوا الأسرّة الذهبية المرصعة بالجوهر، والحصر المنسوجة بالذهب المكلّلة بالدر والياقوت[5].

---

(١) البداية والنهاية ج١٠ ص٢١٩.

(٢) مروج الذهب ج٣ ص٢٦٠.

(٣) تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٤٦٣.

(٤) ثمار القلوب ج١ ص٤٢٨.

(٥) ابن خلدون ج٥ ص١٠٦.

وكان شغف نسائهم بالتفنن في ألوان الزينة يبعث على العجب والاستغراب، كما وأنهن اتخذن من الأملاك ما كانت وارداته أكثر من ألف ألف وستمائة ألف دينار.

إلى جانب ذلك اتخاذهم مجالس الشرب والغناء، وإغداقهم في العطاء على المغنين، حتى أن بعض المغنين الذي كان يغني لسيدة، أورث ابناً له أربعين ألف ديناراً.

وقد جعل الرشيد للمغنين مراتب وطبقات. وكان الأمين لا ينقطع عن الشراب. ووجه إلى جميع البلدان في طلب المغنين، وأجرى لهم الأرزاق. وغناه أحد المغنين فأعطاه أربعين ألف دينار.

كما وقد زاد نشاط الجواري لشغف الخلفاء بهنّ، فكان لهن نفوذ في المملكة وسلطة على الأمر. وكانت لهارون الرشيد جارية تسمى (هيلانة) لها منزلة عنده. فلما ماتت رثاها بأبيات من الشعر، كما رثاها الشعراء تبعاً لرغبته فأجاز بعضهم أربعين ألف دينار[1].

هذا في الوقت الذي نجد رجال الأمة وصلحاءها والأحرار من أبنائها يتجرعون غصص الحاجة، وكان نصيب أكثرهم الخوف والتشريد، وظلمة السجون والتعذيب والقتل. كما نجد ألوان العذاب تصبّ على رؤوس أهل الخراج من قبل عمال الدولة، ويعاملونهم أسوأ معاملة وأقساها.

ولا يسعنا المضي في الموضوع بأكثر من هذا. والغرض الذي سقنا لأجله هذه الأمور، هو إعطاء صورة عن بذخ ذلك العصر، والإسراف الذي بلغ إلى أبعد حد ولم يقتصر ذلك على عصر الرشيد، بل اندفع أحفاده وأولاده إلى التبذير بصورة ربما تكون أوسع وأكبر.

فإنا نجد الأمين قد أسرف إلى أبعد حد. وكان المعتصم[2] لا يقل درجة عنه. فقد ترك ثروة طائلة كان منها ثمانية آلاف ألف ديناراً من الذهب، وثمانية عشر ألف ألف درهماً، ومن الخيل ثمانين ألف فرساً، ومن الجمال والبغال مثل ذلك، ومن

---

(١) تاريخ ابن كثير ج١٠ ص١٦٥.

(٢) هو أبو إسحاق محمّد بن المعتصم بن هارون الرشيد، ثامن خلفائهم، وكان أمياً لا يحسن القراءة، أكثر من استخدام الترك، وكان له من المماليك منهم عشرون ألفاً، توفي في ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ.

المماليك ثمانية آلاف، ومثلهم من الجواري[1] وكذلك المتوكل، والواثق، وقد كان المتوكل ينفق الأموال خاصة في مجالس الشرب، وبناء القصور، واتخاذ الجواري.

وإنه لمن المؤسف حقاً عدم إنكار العلماء الذين نالوا رضا أولئك الملوك وسعدوا بقربهم، وكيف ينتظر منهم الإنكار وقد استخدموهم لمصالحهم الخاصة وأقاموا منهم ستاراً تُملى من ورائه إرادتهم، واستعانوا بهم في فسح المجال لمؤاخذة الخصوم بالاتهام والانتقاص، ولو أنهم رفعوا أصواتهم بالإنكار وانضموا لجانب المعارضين لهان الخطب واعتدل الأمر، سواء من ناحية أحوال العاملين في العلم والذين يتبوؤن مواقع الإفتاء والإرشاد، أو من ناحية الحكم، لأن حضور العالم الذي يعرف ما عليه وهو عند الحاكم يجعل الحاكم يراعي ولو قليلاً مبادىء العدل ووصايا الإسلام في الرعية، ولقد ضمت مسانيد وصحاح رؤساء المذاهب أحاديث مشهورة جمعت في هذه الفترة، ولم يكن الأمر غريباً على العلم ولا على سيرة العلماء في التصدي للجائرين، فخير الشهداء من قال كلمة حق عند سلطان جائر. لذلك نرى أن تأريخ أهل البيت يثير في نفوس الحكام مشاعر القلق، وسير رجالهم المعاصرين تبعث فيهم الخوف. أضف إلى أن نصيب من انتمى إليهم من العلماء يكون الضيق والسجن، وقد أشرنا إلى وجود العالم عند الحاكم كما هو واقع الحال. أما الإسلام فيدعو إلى احترام العلم وإجلال العلماء من قبل الحكام والعامة، وكان النبي ﷺ يشير إلى هذا الأمر الذي سيحدث لمعالجته، وأن خير الحكام من كان على أبواب العلماء، وشر العلماء من كان على أبواب الحكام.

* * *

وصفوة القول أن الدولة العباسية قد سارت على طريقة لا تتفق مع نظام الإسلام، مع أنهم قطعوا على أنفسهم عهوداً تبعث بمؤداها على الارتياح بتحقيق مطاليب الأمة، وجعل نفوذهم السياسي يتمشى مع تعاليم الإسلام جنباً إلى جنب، ولكن تلك العهود ذهبت مع الريح، وكانت أقوالاً فارغة وادعاءات جوفاء.

والذي نود الإشارة إليه هو أن ذاك الوفر وتلك الثروة الطائلة كان أكثره يصرف

---

(١) انظر شذرات الذهب ج٢ ص٦٣. ومرآة الجنان ج٣ ص٩٤.

في تشجيع معارضة العلويين، والوقوف أمام نفوذهم، فكانوا يجيزون الشعراء الذين ينالون من العلويين أموالاً طائلة.

هذا بشار بن برد المعروف بالزندقة والإلحاد، يتقدم إلى المهدي بأبيات منها:

أنى يكون وليس ذاك بكائن — لبني البنات وراثة الأعمام

فيجيزه بسبعين ألف درهم.

ويقف آخر وهو مروان بن أبي الجنوب، فينشد هذه الأبيات بين يدي الخليفة التي جاء فيها:

لكمو تراث محمد — وبعدلكم تشقى الظلامة

إلى أن يقول:

ما للذين تنحلوا — ميراثكم إلاّ الندامة

فيخلع عليه أربع خلع، وينثر ثلاثة آلاف دينار ويأمر بالتقاطها، ويعطى عشرة آلاف درهم، ويعقد له على ولاية البحرين واليمامة[1] وكثير من أمثال هذا الشاعر من الذين دفعهم الطمع، وساقهم الشيطان حباً في الصلة ورغبة في المال، وإرضاء للسلطة وإن غضب الله عليهم.

اضطهاد الدولة العباسية للعلويين:

أما العلويون فكانوا يلاقون أنواع العذاب، ويتجرّعون غصص الفاقة، ويتحمّلون كل ذلك اعتزازاً بأنفسهم وحفظاً لكرامتهم، ولم يخضعوا يوماً لينالوا من ذلك النعيم أو يهنأوا بذلك العيش. فكان نصيب زعمائهم القتل والسجن والتشريد، وكانوا بين آونة وأخرى عرضة لصدور الأمر من عاصمة الملك بتسفيرهم من الأطراف وإليها، ليكونوا تحت الرقابة وينالوا العقاب هناك، ويصدر مرسوم من بغداد إلى مصر بأن لا يقبل علوي ضيعة، ولا يركب فرساً، ولا يسافر من الفسطاط أو إلى طرف من أطرافها، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلاّ العبد الواحد، وإن كانت بين علوي وبين أحد من الناس خصومة، فلا يقبل قول العلوي، ويقبل قول خصمه بدون بيّنة[2].

---

(١) الكامل ج٧ ص٣٨.

(٢) الولاة والقضاة للكندي ص١٩٨.

وأمر الرشيد عامله على المدينة بأن يضمن العلويون بعضهم بعضاً، وكانوا يعرضون على السلطات كل يوم فمن غاب منهم عوقب، وكانت هذه الأوامر تصدر من المهدي والهادي قبله.

وما زال آل أبي طالب يكفل بعضهم بعضاً ويعرضون، فغاب أحدهم عن العرض، فطولب به الحسين صاحب (فخ) ويحيى بن عبد الله كافليه، وأغلظ الوالي لهما فحلف يحيى أنه يأتيه به من ليلته، أو يدق عليه الباب يؤذنه به، وذلك إشارة للخروج وإعلان الثورة التي كان من المقرر القيام بها أيام الموسم، ولكن سوء معاملة الوالي أعجلهم على الخروج في تلك الليلة، واقتحموا المسجد وأعلنوا الثورة، وبايع الناس الحسين المعروف بصاحب فخ ولقبوه بالمرتضى.

الحسين صاحب فخ:

هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام[1].

كانت نهضته سنة ١٦٩هـ، وكان الحسين من رجال بني هاشم وساداتهم، وكان ممن روى الحديث عن الإمام الصّادق عليه السلام وله منزلة علمية، وكانت أسباب نهضته: أنه لقي عنتاً من والي المدينة، وهو عبد العزيز بن عبد الله من ذرية عمر بن الخطاب، وكان العمري يسيء إلى الطالبيين، وأفرط في التحامل عليهم، وطالبهم بالعرض في كل يوم، فكانوا يعرضون في المقصورة، وأخذ كل واحد منهم بكفالة قرينه ونسيبه. واشتد العمري في أمر العرض، وولّى على الطالبيين رجلاً يعرف بعيسى الحائك، فحبسهم في المقصورة. إلى آخر ما كان يعاملهم به ذلك الرجل. فثار آل أبي طالب، واجتمع إليهم ناس كثيرون. فتحصن منهم عاملها، فكسروا السجون وأخرجوا من كان بها، وبويع الحسين بن علي بن الحسن عليه السلام وعظم شأنه، وبقي الحسين واحداً وعشرين يوماً في المدينة، وارتحل إلى مكة فأقام بها إلى زمن الحج، فجهز إليه الهادي جيشاً فالتقوا بموضع يقال له (فخ) بين مكة والمدينة، فقتل الحسين ومعه جماعة من العلويين[2] وحمل رأس الحسين إلى القائد العباسي،

---

(١) تاريخ هذا الحادث في مقاتل الطالبيين ص٢٨٨ ـ ٣٠٨. والفخري ص١٧٢. والطبري وابن كثير في حوادث سنة ١٦٩هـ.

(٢) الآداب السلطانية ١٧٢. وتاريخ ابن كثير ج١ ص١٥٧. والكامل ج٦ ص٢٦.

حمله رجل خراساني وهو ينادي بالبشارة، حتى ألقى الرأس بين يديه، وهو مضروب على الجبهة والقفى، فجمعت رؤوس القتلى فكانت مائة ونيفاً[1] وأفلت إدريس بن عبد الله، فأتى مصر وعلى بريدها أفلح مولى صالح بن منصور، فحمله إلى المغرب فبايعه الناس وأسّس هناك دولة[2].

حدث أبو القرناء قال: أرسلني موسى بن عيسى (قائد الجيش) فقال: اذهب إلى عسكر الحسين حتى تراه وتخبرني بكل ما رأيت. فذهبت فدرت، فما رأيت خللاً ولا فللاً، ولا رأيت إلاّ مصلياً أو مبتهلاً أو ناظراً في مصحف أو معداً لسلاح، قال فجئت فقلت: ما أظن القوم إلاّ منصورين. فقال: وكيف؟

قال: فأخبرته. فضرب يداً على يد، وبكى حتى ظننت أنه سينصرف، ثم قال: هم والله أكرم خلق الله وأحق بما في أيدينا منا.

كان هذا الحادث من أهم الحوادث التي شغلت بال الدولة، وأقضّت مضاجع ذوي الأمر، لأنها كانت في أهم مركز إسلامي وهو الحجاز. لذلك أسرع الهادي في مقاومة تلك الحركة خوفاً من اتساعها في البلاد الإسلامية.

وتتابعت ثورات العلويين غضباً للحق، ومن أهمها ـ أيضاً ـ ثورة يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في الديلم، وقد قويت شوكته، فاحتال الرشيد عليه بإعطائه الأمان، ونقضه بعد ذلك، فسجنه وضيق عليه إلى أن مات في السجن، ووجد جسده معلقاً قد سمّرت يداه. ومضى العباسيون في سفك دماء العلويين، وشرّدوهم في البلاد بدون رحمة ولا وازع ديني.

وعلى أي حال فقد كان مجتمع ذلك العصر يموج بعناصر مختلفة، وكانت بغداد هي موطن الحكم وعاصمة المملكة، وحاضرة العالم الإسلامي، وقد قصدها كثير من علماء اليونان والفرس والهنود، ونقلت كتب الفلسفة إلى العربية. وظهر علم الكلام ونضج، فكثرت حلقات الجدل والخصومات، وظهرت آراء شاذة، وعقائد فاسدة أثرت على عقول من لا تقوى نفوسهم على هضمها واحتمالها، فكونت هناك فوضى فكرية واضطراباً وحيرة. ونشطت هنالك حركة المتدخلين في الإسلام، لبث

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٤٥٧.

(٢) نفس المصدر.

تلك الآراء التي يأملون من ورائها القضاء على العقيدة الإسلامية، أو إثارة فتن بين المجتمع الإسلامي على الأقل.

وقد نبغ رجال من علماء المسلمين في علم الكلام، وعُرفوا بقوة المناظرة والتفوق في الحجّة، وعقدت المجالس والحلقات للمناظرة دفاعاً عن المبادىء الصحيحة والعقائد الإسلامية، وقابلوا تلك النزعات التي نشرت لواء الشك في عقائد ذلك المجتمع، وكان النصر لمن قرّبهم الخلفاء وأدنوا مجالسهم وفتحوا لهم باب قصورهم، أما الذين لم يكونوا كذلك فترد أقوالهم ولا يُصغى لما يدلون به من الحجاج، وما يقيمونه من الأدلّة القوية ذوداً عن الإسلام وذبّاً عن حياضه.

وأستطيع أن أؤكد أن تلك الحركات الفكرية كانت لها صلة وثيقة بالسياسة، وهي التي تدير كفتها لتلعب دورها من وراء الستار.

وكانت هذه الناحية وذلك التطور في الآراء والعقائد من أخطر العوامل التي نجم من ورائها التفكك في المجتمع، وتكوين جماعات تختلف في الآراء، وكلٌ يذهب إلى أن الحق في جانبه دون غيره.

الزندقة في عرف العباسيين:

ومن المشاكل ذات الخطورة في ذلك العصر، مشكلة ظهور الزنادقة وانتشارهم. وأهم من ذلك هو أن تشخيص الزنديق بطابعه الخاص، الذي يكشف عن شخصيته، لم يكن واضحاً عندما أصبح انطباق هذه اللفظة على معان مختلفة، لأن الاتهام بالزندقة كان لأسباب سياسية، عندها اتخذها الخلفاء وسيلة للقضاء على خصومهم، بل كان هناك من الوزراء من يتخذون من الاتهام بالزندقة سبيلاً للكيد والوقيعة بنظرائهم الذين يحقدون عليهم. لذلك أصبح لفظ الزنديق لفظاً مشتركاً غامضاً، فأطلق على معان مختلفة بعد أن كان يطلق على من يؤمن بالمانوية ويثبت أصلين أزليين للعالم: هما النور، والظلمة. وهذا المعنى هو المطلوب أولاً وبالذات، ثم اتسع المعنى حتى أطلق على كل صاحب بدعة وكل ملحد، بل انتهى به الأمر أخيراً إلى أن يطلق على من يكون مذهبه مخالفاً لمذهب أهل السنة، أو حتى من كان يحيى حياة المجون!!!.

كان شريك بن عبد الله القاضي لا يرى الصلاة خلف المهدي، فأحضره

وتكلم معه، فقال له المهدي في جملة كلامه: يا ابن الزانية! فقال شريك: مه مه يا أمير المؤمنين، فلقد كانت صوّامة قوّامة.

فقال له المهدي: يا زنديق لأقتلنك. فصحك شريك وقال: يا أمير المؤمنين، إن للزنادقة علامات يُعرفون بها: شربهم القهوات واتخاذهم القينات. فأطرق المهدي[1].

فنرى أن المهدي كان يطلق كلمة زنديق على من لم يعترف بخلافته أو عدالته، وما أكثر الذين يذهبون لذلك من رجال الأمة وعلمائها، كما أن شريكاً القاضي أطلق لفظ الزندقة على من كان يحيى حياة المجون، وإن من أوضح الأمور انطباق ذلك على المهدي نفسه، فهو الشخص الوحيد الذي يمثّل دور المجون والاستهتار، فأطلق عليه شريك لفظ الزندقة بالتلميح.

وكذلك أطلق لفظ الزندقة على من يناقش أحاديث الصحابة أو يردّها لعدم صحتها[2] وكذلك أطلق لفظ الزندقة على المفكّرين الذين يقفون أمام الحوادث التاريخية موقف تثبّت، لاستجلاء الواقع ومعرفة الحقيقة. فالأمر الذي يتعلّق بالبحث حول بعض الصحابة وما صدر منهم قد أصبح محظوراً، فلا يمكن إلاّ التسليم بصحة ما صدر منهم ـ وإن خالف الشرع ـ لأن البحث عن ذلك أمر يستوجب الاتهام بالزندقة، وليس وراء ذلك إلاّ السيف. حتى أصبح ذلك من القواعد المقرّرة المعمول بها طبقاً لإرادة الدولة، وتلك القاعدة هي. إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب محمّد ﷺ فاعلم أنّه زنديق[3].

يقول الدكتور أحمد أمين: (إن الاضطهاد والرّمي بالزندقة عنوان الشخصية. فالرجل إن كان ضعيف الهمّة، فائل الرأي، أو ذا رأي ولكنه ملق، يكلم كل إنسان بما يحب فلم يضطهد؛ وإذا كان يسير في العلم حسب رأي الأغلبية، ويرى من النظريات والقواعد والتعاليم ما يراه الناس في عصره فلم يضطهد. إنما يضطهد القوي في الرأي، لا يتنزل عنه لسلطان أو أمير، المستقل الفكر، يؤديه فكره إلى نتائج قد يخالف

---

(١) ابن كثير ج١٠ ص١٥٣.
(٢) تاريخ بغداد ج١٤ ص٧.
(٣) الكفاية للخطيب البغدادي ص٤٩.

فيها أهل عصره جميعاً، فلا يعبأ بمخالفتهم ولا يأبه لنقدهم. . . إذ ذاك يكون الاضطهاد وتكون الحرب العوان بين الآراء، فيقف ذو الشخصية وأتباعه القليلون في جانب، وذوو الجاه والسلطان أحياناً في جانب آخر، ويكون النضال، وتكون الدسائس والمؤامرات، وما شئت من صنوف القتال؟).

فلهذه الأسباب كان الاتهام على الزندقة لأقل شبهة، وقد سجل التاريخ كثيراً من تلك الحوادث التي كان مبعثها الحقد والانتقام والتشفي.

وصفوة القول: أن تلك الحملة على الزنادقة لو تجردت عن تلك الزوائد لكان أثرها أكثر نفعاً لتطهير المجتمع الإسلامي من أولئك النفر الذين لعبوا دوراً هاماً في نشر الخرافات والأساطير، والتحلل من قيود الشريعة الإسلامية ممن هم زنادقة فعلاً، عندما وجد أكثرهم طريقاً يسلكون فيه، وكان منهم ذوو مكانة في الدولة: كمطيع بن أياس، وابن المقفع، وابن أبي العوجاء. وقد وضعوا حوادث وأحاديث يقصدون بها إفساد الرأي العام؛ وعندما قدم ابن أبي العوجاء للقتل قال: (أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحرم فيه الحلال وأحل فيه الحرام، والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتكم في يوم فطركم) كما أنهم وضعوا كثيراً من القصص في المجون والهزل، وخلقوا شخصيات لا وجود لها، واخترعوا حوادث لا واقع لها، كما أنهم ترجموا كتب الزنادقة ونشروها في المجتمع للتضليل والخداع وقد قام جماعة منهم ـ وعلى رأسهم سيف بن عمرو ـ بالدس الشائن في تاريخ الإسلام فحوروا وبدّلوا واخترعوا، وقد اشتهر كتاب الردة لسيف بن عمرو، وأصبح مصدراً لكثير من المؤرخين. وسيف هو رأس الزنادقة والكذّابين كما نص عليه علماء الرجال واشتهر عنه ذلك.

وكيف كان فإن وضعهم سيء وأثرهم في المجتمع أسوأ، وكما قلنا فإن لفظ الزندقة أو الاتهام بها لم يكن دقيقاً، فقد اتهم أبرياء، وقتل صلحاء تحت غبار هذه الحملة، وأطلقت هذه اللفظة على بعض من لم يصح أن يكون موضوعاً لمحمولها ولكن ذلك كان لأسباب سياسية أو أغراض انتقامية كما قدّمنا.

وقد اعتمد عليها أكثر الباحثين فلم يكلفوا أنفسهم بالبحث عن الحقائق لمعرفة الأسباب. والوقوف على العوامل التي دعت إلى اتهام الكثيرين من رجال الأمة وصلحائها بالزندقة، والحكم عليهم بدون مبرر، لأن تلك اللفظة قد اتسع معناها إلى

حد لا يسمح بتحديده تحديداً دقيقاً. وأصبح الزنديق الواقعي آمناً إن أمنت السلطة سطوته.

وهذا ما حمل الكثيرين من الكتّاب على إيجاد رابطة بين الزندقة وبين التحرر الفكري والنقد للأوضاع، ذهولاً منهم عن التوصل إلى الحقيقة، وقصوراً عن معرفة الأسباب، التي جعلت الانتساب إلى التشيع دليلاً على الزندقة، وداعياً إلى الاتهام بها، ولا شيء هناك إلا عدم ارتباط العقائد بالدولة، وإن انفصالهم الروحي وعدم امتزاجهم بالسلطان وأعوانه لأكبر دليل على الاستهانة بتوجيه الأسباب التي توجب اتهامهم بذلك. وأهم شيء اتهامهم بسب الشيخين، فإن هذه التهمة هي فوق جريمة الإلحاد، فإن المتهم بالزندقة تقبل توبته، أما المتهم بهذه التهمة فلا تقبل توبته، ويحكم بكفره وإلحاده مع إيمانه بالله ورسوله وإقامة الفرائض، ولكن للسياسة حكم فوق ما يثبته الواقع ويقرّه الحق، إذ هي عمياء لا تبصر، ولهذه المشاكل كان ذلك العصر يموج بحوادث لها أهميتها في تاريخ الإسلام.

نشاط العلماء وتأييد الدولة:

وكان من أهم مظاهر ذلك العصر انصراف علماء الإسلام إلى دراسة العلوم المختلفة، كما اتسعت حركة التأليف، وزاد نشاط العلماء في تدوين علوم الإسلام، ورتبوا أبواب الفقه وأنواع الحديث. وكان الخلفاء ـ مع انغماسهم في الشهوات والترف وارتكابهم المحرمات ـ يتظاهرون بخدمة العلماء، ويتحلون بالنزعة الدينية، وبهذا تمكنوا من استخدام رجال منهم وسيلة لتوطيد استبدادهم، وذريعة لإخضاع العامة لهم، وأنهم ملزمون بإطاعة السلطان إطاعة عمياء، وأن تصرفه لا يجوز الاعتراض عليه، وإن انحرف عن حدود طاعة الله؛ وبهذا وقع تطور أوجد مشاكل خطيرة، فكانت في ذلك العصر للفقهاء والمحدثين درجات عالية عند الخلفاء، وقد كثر الجدل والنقاش في أهم المسائل الفقهية، كما كثر في العقائد والمسائل الكلامية. كما وقد اشتدت قضية أهل الرأي وأهل الحديث، وأصبح لكل جانب أنصار، وهم يقيمون الحجج والبراهين على ما يذهبون إليه. إلى غير ذلك من مميزات ذلك العصر الذي نشأ فيه الشّافعي.

كما وقد أثيرت هناك مسائل كثيرة تتعلق بالتوحيد وبالصفات. ورؤية الله بالابصار، وغيرها من المسائل ذات الأهمية في ذلك العصر. كالبحث حول الحديث

وصحته، والاجتماع وكيفية الاستدلال به. ولقد جاء عن الشافعي في كتاب الأم أنه ناظر في كثير من هذه المسائل، وقد كانت طريقة الشافعي في النقل عن كثير من المناظرات، نقل الحجة عن لسان واحد بدون تعيين، ولعل ذلك طريقة علمية للتوصل إلى إيضاح الأمر وبيانه.

الخلاصة:

والخلاصة؛ أن العصر الذي نشأ فيه الشافعي كان أزهر العصور من جهة، ومن جهة أخرى كان عصر مشاكل للأمة عندما استبد ولاة الأمر بأمور المسلمين، فاستأثروا بالأموال، وتحكموا بالرقاب، وخالفوا حدود الله مع ادعائهم ـ الأجوف ـ بالمحافظة عليها، وقد تجاوزوا الحد في تعدي حدود الله ومخالفة أحكامه؛ حتى لقد استعملوا في معاملة الرعية أشد أنواع التعسف والجور، الأمر الذي دعا رجال الإصلاح والمحافظين على نواميس الإسلام إلى متابعة الإنكار ورفع أصواتهم بالمؤاخذة، فكان نصيبهم القتل والتشريد وظلمة السجون.

وقد أدّى ذلك الظلم إلى عواقب وخيمة، كان من ورائها عدم استقرار الأمر وضياع الحق، وقد حاولنا أن نلمس موقف الشافعي وسط ذلك المعترك، ومواجهته تلك الأوضاع الشاذة، وهو ذلك الرجل الطموح الذي كان يتحسّس إلى النهوض في وجه الظلم، بانضمامه لجانب العلويين كما نقل عنه. فإنا لم نجد للشافعي موقفاً يدلنا بصراحة على إنكاره للأوضاع، ولعل قضية اتهامه بذلك حالت بينه وبين نشاطه وشعوره المتوقد، هذا إن كان لقضية الاتهام أصل، وإلاّ فلا شيء يدل على أي أثر هناك، لأن القضية مكذوبة ولا أصل لها.

ولا تهمّنا هذه الجهة، ولكن يهمنا معرفة تأثره بطابع ذلك العصر، من حيث النشاط العلمي، والتقدم بين أقرانه، لما اتصف به من ذكاء وفطنة. ونحن عندما ندرس تلك الجهة عن طريق المعجبين به نجد أن له نشاطاً عظيماً وتقدماً فائقاً يوم كان ببغداد. ولكن هناك أيضاً من ينفي هذا ويصفه بالانسحاب عن ميدان المقابلة لعلماء عصره، ويجعل ذلك سبباً لخروجه إلى مصر.

يقول البزاز: كان الشافعي (رض) بالعراق يصنّف الكتب، وأصحاب محمّد (أي الشيباني) يكسرون عليه أقاويله بالحجج ويضعفون أقواله، وقد ضيّقوا عليه،

وأصحاب الحديث أيضاً لا يلتفتون إلى قوله، ويرمونه بالاعتزال. فلما لم يقم له بالعراق سوق خرج إلى مصر، ولم يكن فقيه معلوم، فقام بها سوقه[1].

ويقول أيضاً: عن علي بن حسين الرّازي قال: اجتمع في عرس هو وسفيان بن سحبان، وفرقد، وعيسى بن أبان، وأخذوا في مسألة غامضة وفيهم الشافعي، فدخل في نكتة من المسألة غامضة، فظن الإمام الشافعي أنه فطن للمسألة. ولم يكن ذلك، فجرّه سفيان إلى أغمض منها حتى تحيّر، ولم يتهيأ له الكلام، فحكى ذلك لمحمّد فقال: ارفقوا به فإنه جالسنا وصحبنا، ولا تفعلوا به هذا[2].

أما الأولون، فقد وصفوه بأنه قد أحدث في بغداد تغيّراً محسوساً، وقد ثقل مقامه على أهل الرأي، لأنه كان ينتصر لمذهب أستاذه مالك، ويدفع عنه، وحوّل أكثر المبرزين منهم إلى حلقته.

حدث الفضل الزجاج فقال: لما قدم الشّافعي إلى بغداد سنة ١٩٥هـ وكان في الجامع إما نيف وأربعون حلقة، أو خمسون حلقة. فلما دخل بغداد ما زال يقعد في حلقة حلقة ويقول لهم: قال الله وقال الرّسول. وهم يقولون: قال أصحابنا. حتى ما بقي في المسجد حلقة غيره[3].

ومعنى هذا أن الدراسة توحدت للشافعي، ولم يبق لأهل الرأي مجال لمقابلة ذلك النشاط الذي لقيه الشّافعي. وهذا أمر موكول إلى صحة أحد القولين، ولا مجال لنا في تأييد جانب دون آخر؛ على أننا لا ننكر منزلة الشافعي العلمية، كما لا ننكر مقابلته لأهل الرأي، مع أنا نعلم أنّه أخذ أكثر معلوماته عن محمّد بن الحسن الشيباني.

وعلى أي حال: فإن أكثر الروايات حول الشّافعي مضطربة ـ كما قدمت ـ ولكن مقتضى شرطنا في هذه الدراسة التعرّض لكثير من ذلك، ولنا الحق في المناقشة، وقد رأينا ترك هذا الموضوع، ونريد أن نلتحق بركب صاحبنا لمعرفة أخباره، وأكثرها كانت في مصر، ولنأخذ على ضوئها صورة عن طابع شخصيته.

---

(١) المناقب للبزاز ج٢ ص١٥٣.
(٢) نفس المصدر ج٢ ص١٥٠.
(٣) تاريخ بغداد ج٢ ص٦٨ ـ ٦٩.

أخباره:

نشأ الشافعي يتيماً في حجر أمه، وقدِمت به مكة خوفاً عليه من الضيعة، وليتلقى دراسته، فاستقبل عهد دراسته على خالد الزنجي ومالك، وكان بطبيعة الحال شديد الحاجة إلى ما يساعده على مواصلة دراسته، لأنه كان فقيراً لا يجد ثمن القرطاس الذي يكتب عليه دروسه، فكان يتعوض عنه بأكتاف الغنم. وقد ساعده مالك بن أنس لسعة حاله، وبعد وفاة مالك التجأ إلى الوساطة لأن يلي عملاً للدولة، ليستعين به على زمانه. فعُيِّن في اليمن، وحمل منها أو من مكة إلى بغداد بتهمة التشيع أو غير ذلك. وكانت بغداد في عنفوان نهضتها العلمية وحركتها الثقافية، واتجاهها الفكري إلى مختلف العلوم.

وكان الفقهاء في ذلك العصر قد انقسموا إلى أهل رأي يعتمدون في نهضتهم على سرعة أفهامهم، ونفاذ عقولهم، وقوتهم في الجدل. وأهل حديث يعتمدون على السنن والآثار، ولا يأخذون من الرأي إلاَّ ما تدعو إليه الضرورة.

وكان الشافعي قد تفقه على أهل الحديث من علماء مكة، وعلى مالك من علماء المدينة. وكان يعترف لمالك بالفضل والمنة فكان يقول: إذا ذُكر العلماء فمالك النجم، ما أحد أمنّ عليّ من مالك بن أنس.

ولما ذهب إلى العراق استرعى نظره تحامل أهل الرأي على أستاذه والمنعم عليه مالك بن أنس وعلى مذهبه. وكان أهل الرأي أقوى سنداً وأعظم جاهاً بما لهم من المكانة عند الخلفاء، وبتوليتهم شؤون القضاء، ذلك لأنهم أوسع حيلة في الجدل من أهل الحديث وأنفذ بياناً[1]. وقد وقعت لكثير من الخلفاء وغيرهم مشاكل، فكان لها مخرج عند أهل الرأي، لذا كانت منزلتهم في الدولة أعظم من غيرهم.

وكان الشافعي قد لازم محمَّد بن الحسن عند قدومه العراق، ودرس كتبه وأخذ عنه الشيء الكثير، واطلع على كتب فقهاء العراق، فأضاف ذلك إلى ما عنده من طريقة أهل الحديث.

وعاد الشافعي من العراق إلى الحجاز، واستمر بمكة يواصل استفادته من الوافدين إلى مكة من علماء الأمصار، واختلط بهم، ثم عاد إلى العراق مرة ثانية سنة

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٢١.

١٩٥هـ في خلافة الأمين، وهناك أملى على من التف حوله كتبه التي كتبها في مذهبه في العراق ـ وهو المعروف بمذهبه القديم ـ وقد رجع عن ذلك عندما نزل في مصر وحرم الرواية لذلك عنه، وكان نزوله في هذه القدمة على محمَّد بن أبي الحسن الزيادي، ومقامه هناك سنتان.

وقد توفي محمَّد بن الحسن، وقام مقامه ـ من أصحاب أبي حنيفة ـ الحسن بن زياد اللؤلؤي، ثم عاد إلى الحجاز. وفي سنة ١٩٨هـ قدم العراق قدمته الثالثة، فأقام هناك أشهراً، ومن العراق سافر إلى مصر فنزل في الفسطاط ضيفاً كريماً على عبد الله بن عبد الحكم.

كانت الأسباب التي حملت الشافعي للرحيل إلى مصر كثيرة مختلفة، فبعضٌ يقول: أنّه كان يتشوق إلى مصر دائماً، ورووا له في ذلك شعراً:

أرى النفس قد أضحت تتوق إلى مصر ... ومن دونها قطع المهامه والقفر

فوالله ما أدري ألِلفوز والغنى ... أساق إليها أم أساق إلى القبر[1]؟

وهذه الأبيات تنسب إلى الحسن بن هاني وهو المعروف بأبي نواس، وأن الشافعي تمثل بها، ذكر ذلك أبو بكر أحمد بن محمَّد الهمداني المعروف بابن الفقيه في كتاب البلدان.

وقيل: إنه قدم مصر رغبة منه في معارضة انتشار أقوال أبي حنيفة ومالك، كما حدّث الربيع قال: سألني الشافعي عن أهل مصر. فقلت: هم فرقتان فرقة مالت إلى قول مالك وناضلت عليه، وفرقة مالت إلى قول أبي حنيفة وناضلت عليه. فقال: أرجو أن أقدم مصر إن شاء الله، فآتيهم بشيء أشغلهم به عن القولين.

فهو إذ ذاك سلك طريقاً وسطاً، فلم يكن على رأي مالك في الحديث وتشدده، ولا كأصحاب الرأي يتساهلون في الحديث ويكتفون بشهرته، ويقدّمون القياس على خبر الآحاد وإن صح سنده.

فانتقد مالكاً لأنه ترك أحياناً حديثاً صحيحاً، لقول واحد من الصحابة أو التابعين، أو لرأي نفسه. وكان أشد نقد لمالك قد وجهه الشافعي، أنّه ترك قول ابن عباس إلى قول عكرمة في مسألة، مع أن مالكاً كان يسيء القول في عكرمة.

---

(١) معجم الأدباء ج١٧ ص٣١٩.

الإمام الشّافعي في مصر:

وكان قدوم الشافعي لمصر، وقد انتشر مذهب مالك وتركزت دعائمه على أيدي تلامذته، الذين كان لهم في مصر مكانة عظيمة، فأصبح اعتقاد الناس في مالك عظيماً، ويقدّمون قوله على السنّة إذ يقال لهم: قال رسول الله. فيقولون: قال مالك. وكانت له قلنسوة يستسقون بها، وقد غلوا بكتابه غلواً عظيماً حتى قالوا: ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك. وفي لفظ آخر: ما على الأرض كتاب أقرب إلى القرآن من كتاب مالك.

ونزل الشّافعي ضيفاً كريماً على محمّد بن عبد الله بن عبد الحكم، وكان من أكبر أنصار مذهب مالك، وكانت له مكانة ورياسة، وكان أهل مصر لا يعدلون به أحداً، فأكرم مثوى الشّافعي ووازره، وتأكدت بينهما مودة وإخاء. وقد عُرف الشّافعي بأنه تلميذ مالك وناصر مذهبه والمدافع عنه، وكان هذا أحد الأسباب التي هيأت النجاح للشافعي.

يضاف إلى ذلك أنه قدم مصر مزوداً بتوصية من خليفة العصر إلى أمير مصر، أو أنه جاء بصحبته على ما في القضية من اختلاف الأسباب. يقول ابن حجر: إن الرشيد سأل الشّافعي أن يوليه القضاء فامتنع، فقال: سل حاجتك. قال: حاجتي أن أعطى من سهم ذوي القربى بمصر وأخرج إليها. ففعل ذلك وكتب له إلى أميرها[1].

وقيل: إنّه خرج إلى مصر مع أميرها العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى العباسي، وكان العباس هذا خليفة أبيه على مصر، وقد صحبه جماعة من أعيان أهل مصر، كبني عبد الحكم، والربيع بن سليمان، وذلك بعد وفاة الرشيد سنة ١٩٩هـ.

فكان الشّافعي موضع عناية أصحاب مالك، لأنه من أشهر تلاميذه والمناصرين له فوازروه، وأخذ الشّافعي في نشر مذهبه الجديد. ووضع الكتب في الرد على مالك ومعارضة أقواله.

قال الربيع: سمعت الشّافعي يقول: قدمت مصر ولا أعرف أن مالكاً يخالف من أحاديثه إلاّ ستة عشر حديثاً، فنظرته فإذا هو يقول بالأصل ويدع الفرع، ويقول بالفرع ويدع الأصل. ثم ذكر الشّافعي في رده على مالك، المسائل التي ترك الأخبار

---

(١) توالي التأسيس ص٧٧.

الصحيحة فيها بقول واحد من الصحابة، أو بقول واحد من التابعين أو لرأي نفسه.

وذكر الساجي: أن الشافعي إنما وضع الكتب على مالك بسبب أنه بلغه أن قلنسوة لمالك يستسقى بها، وكان يقال لهم: قال رسول الله. فيقولون: قال مالك. فقال الشافعي: إنما مالك بشر يخطىء. فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب في اختلافه معه، وكان يقول: استخرت الله في ذلك مدة سنة.

وقال أبو عمر: وتكلم في مالك أيضاً فيما ذكره الساجي في كتاب العلل، عبد العزيز بن أبي سلمة، وعبد الرحمٰن بن زيد، وعابوا أشياء من مذهبه. إلى أن يقول وتحامل عليه الشافعي وبعض أصحاب أبي حنيفة في شيء من رأيه حسداً لموضع إمامته[١]..

فهو قد جعل رد الشافعي على مالك تحاملاً عليه وحسداً له، ولما وضع الكتاب على مالك تعصب المالكية عليه وسعوا به عند السلطان وقالوا له: أخرجه وإلاّ افتتن به البلد. فأتاه الشافعي فكلمه فامتنع الوالي وقال: إن هؤلاء كرهوك وأخشى الفتنة. فقال له الشافعي: أجلني ثلاثة أيام. فمات الوالي فيها[٢].

وقال ياقوت: كان بمصر من أصحاب مالك رجل يقال له: فتيان، فيه حدة وطيش، وكان يناظر الشافعي كثيراً ويجتمع الناس عليهما، فتناظرا في مسألة بيع الحر ـ وهو العبد المرهون ـ إذا أعتقه الراهن ولا مال له غيره، فأجاب الشافعي بجواز بيعه على أحد أقواله، ومنع فتيان منه... فضاق فتيان بذلك ذرعاً، فشتم الشافعي شتماً قبيحاً. فلم يرد عليه الشافعي فرفع ذلك رافع إلى السري (الوالي) فدعا الشافعي وسأله عن ذلك وعزم عليه، فأخبره بما جرى وشهد الشهود على فتيان بذلك، فقال السري: لو شهد آخر مثل الشافعي على فتيان لضربت عنقه، وأمر بفتيان، فضُرب بالسياط وطيف به على جمل، وبين يديه منادٍ ينادي: هذا جزاء من سبّ آل رسول الله ﷺ.

ثم إن قوماً تعصبوا لفتيان، من سفهاء الناس، وقصدوا حلقة الشافعي حتى خلت من أصحابه وبقي وحده، فهجموا عليه وضربوه فحمل إلى منزله، فلم يزل فيه عليلاً حتى مات[٣].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله.
(٢) توالي التأسيس ص٨٤.
(٣) معجم الأدباء ج١٧ ص٢٢٣.

إن هذه الرواية تدل على أن سبب موت الشافعي هو ذلك الضرب المنبعث عن التعصب، وقد نصّ ابن حجر على أنهم ضربوه بمفتاح حديد فمات[1] بعد ذلك الضرب بقليل، كما جاء في رثاء الشافعي:

قال ابن حجر عند ذكره لهذا الحادث: وقد ضمن ذلك شيخ شيوخنا أبو حيان في قصيدته التي مدح بها الشافعي، ثم ذكر القصيدة. ونذكر منها محل الشاهد:

ولما أتى مصر انبرى لأذاته	أناس طووا كشحاً على بغضه طيا
أتى ناقداً ما حصلوه وهادماً	لما أصّلوا إذ كان بنيانهم وهيا
فدسّوا عليه عندما انفردوا به	شقياً لهم شل الإله له اليديا
فشج بمفتاح الحديد جبينه	فراح قتيلاً لا بواكٍ ولا نعيا
نعم قد نعاه الدين والعلم والحجا	وترداد صوت في الدجا يسرد الوحيا[2]

فالشافعي إذاً ذهب ضحية التعصب من المالكية، لأنه كان يعارض أقوال مالك ويرد عليه، وقد وضع كتاباً في ذلك، كما وضع كتاباً في الرد على أبي حنيفة[3].

مذهبه الجديد:

وكيف كان فقد جاء الشافعي بمذهبه الجديد، وكان قد درس المذهبين: مذهب أهل الرأي ومذهب أهل الحديث، وقد لاحظ ما فيهما من نقص، فبدا له أن يكمل ذلك النقص، وأخذ ينقض بعض التعريفات من ناحية خروجها من متابعة نظام متحد في طريقة الاستنباط، وذلك يشعر باتجاهه في الفقه اتجاهاً جديداً، الذي لا يكاد يعنى بالجزئيات والفروع.

ولعل خير ما يلخص مسلكه في منحاه الاجتهادي هو أنه قال: الأصل قرآن وسنّة، فإن لم يكن فقياس عليهما، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصح الإسناد عنه فهو سنّة، والإجماع أكبر من الخبر المفرد، والحديث على ظاهره، وما احتمل معاني فما اشتبه منها ظاهر أولاها به، وإذا تكافأت الأحاديث فأصحّها إسناداً أولاها، وليس المنقطع بشيء ما عدا منقطع ابن المسيب، ولا يقاس أصل على أصل،

(١) توالي التأسيس ص٨٦. (٢) توالي التأسيس ص٨٧.

(٣) أنكر بعضهم على الخزرجي قوله في الخلاصة ص٢٧٩ ـ: أن الشافعي مات شهيداً سنة ٢٠٤هـ. لعدم وقوفه على المصادر التي تنص على ذلك.

ولا يقال للأصل لِمَ وكيف. وإنما يقال للفرع لِم، فإذا صح قياسه صح وقامت به الحجة.

فهو بهذه الخطة الجديدة قد هاجم مالكاً، لتركه الأحاديث الصحيحة لقول واحد من الصحابة أو التابعين أو لرأي نفسه.

وهاجم أبا حنيفة وأصحابه، لأنهم يشترطون في الحديث أن يكون مشهوراً، ويقدمون القياس على خبر الأحاد وإن صح سنده، وأنكر عليهم تركهم لبعض السنن لأنّها غير مشهورة، وعملهم بأحاديث لم تصح عند علماء الحديث، بدعوى أنّها مشهورة، ووقف في القياس موقفاً وسطاً، فلم يتشدد فيه تشدد مالك، ولم يتوسع فيه توسع أبي حنيفة[1].

وقال إمام الحرمين: فمالك أفرط في مراعاة المصالح المطلقة المرسلة، غير المستندة إلى شواهد الشرع، وأبو حنيفة قصر نظره على الجزئيات والفروع والتفاصيل من غير مراعاة القواعد والأصول، والشافعي (رض) جمع بين القواعد والفروع، فكان مذهبه أقصد المذاهب، ومطلبه أسدى المطالب كما يقول إمام الحرمين.

هذا عرض موجز لما يتعلّق بحياة الشافعي وأخباره من حيث اتجاهه الفقهي، ومخالفته لأهل الرأي وأهل الحديث.

وتدلنا الحوادث بوضوح أنه لقي أذىً كثيراً في إظهار مخالفته لمالك ورده عليه، كما أنه لم يلق في مصر ذلك الإقبال المطلوب الذي كان يأمله رجل مثله، فقد جفاه الناس، ولم يجلس إليه أحد، فقال له بعض من قدم معه: لو قلت شيئاً يجتمع إليك الناس، فقال: إليك عني وأنشأ:

أأنثر دراً بين سارحة النعم   وأنظم منثوراً لراعية الغنم[2]. !

وكان يظهر التذمر والتألّم، ويدلّنا على ذلك قوله:

وأنزلني طول النوى دار غربة   إذا شئت لاقيت امرأً لا أشاكله

أحامقُهُ حتى تقال سجية   ولو كان ذا عقلٍ لكنت أعاقله[3]

---

(١) تمهيد لتأريخ الفلسفة الإسلامية للأستاذ مصطفى عبد الرازق ص٢٢٥. وضحى الإسلام ج٢ ص٢٢٤.

(٢) معجم الأدباء ج١٧ ص٣١٩. وتمام الأبيات ص٣٠٧.

(٣) المعجم ج١٧ ص٣١٠.

ويقول:

لعمري لئن ضيعت في شر بلدة ... فلست مضيعاً فيهمُ غُرر الكلم
لئن سهل الله العظيم بلطفه ... وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم
بثثت مفيداً واستفدت ودادهم ... وإلاَّ فمكنون لديّ ومكتتم
ومن منح الجهال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم[1]

وقال الكندي: لما دخل الشافعي مصر كان ابن المنكدر يصيح خلفه: يا كذا، . . . دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد، ورأينا واحد، ففرقت بيننا، وألقيت بيننا الشر، فرق الله بين روحك وجسمك[2].

وكان أشهب يدعو على الشافعي ويقول في سجوده: اللّهمّ أمت الشافعي وإلاَّ ذهب علم مالك بن أنس. فسمع الشافعي بذلك وأنشأ يقول:

تمنَّى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

ومما قال:

كل العداوات قد ترجى مودتها ... إلاَّ عداوة من عاداك عن حسد[3]

الطعون على الشافعي:

توجهت للشافعي طعون كثيرة في مختلف الأمور، من اعتقاد واستنباط وحديث، فقد رموه بالاعتزال مرة، والتشيع أخرى، أو أنه يروي عن الكذابين، وأنّه قليل الحديث. وألف بعض الحنفية كتاباً في الرد والطعن عليه.

سئل يحيى بن معين: الشافعي كان يكذب؟ قال: لا أحب حديثه، ولا أذكره. وفي قول آخر: أما الشافعي فلا أحب حديثه.

وروى الخطيب عن يحيى بن معين أنه قال: الشافعي ليس بثقة. وعن عبد اللّه بن وضاح أنّه قال في الشافعي: إنه ليس بثقة. وقد ساء هذا القول بعض الشافعية، فهجا ابن معين[4] بقوله:

---

(١) معجم الأدباء ج٧ ص٢٠٧.

(٢) القضاة للكندي ص٤٢٨.

(٣) مناقب الفخر ص١١٥.

(٤) يحيى بن معين بن عون الغطفاني أبو زكريا البغدادي المتوفى سنة ٢٣٣هـ أحد الحفاظ ومن رجال =

ولابن معين في الرجال وقيعة | سيُسأل عنها والمليك شهيد
فإن كان صدقاً فهو لا بدّ غيبة | وإن كان كذباً فالعذاب شديد[1]

وعلى أي حال فلا بد من إعطاء نموذج من تلك الطعون فيما يأتي:

١ ـ إن البخاري ومسلم لم يخرجا حديثه في صحيحيهما، ولولا أنه كان ضعيفاً في الرواية لرويا عنه كما رويا عن سائر المحدثين[2].

٢ ـ أنه كان لا يعرف صحاح الأخبار، فقد روى عن أحمد بن حنبل أنه قال: قال الشافعي هم أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه.

قالوا: وهذا إقرار منه بالتقصير. وعن أبي ثور أنه قال: الشافعي ما كان يعرف الحديث، وإنما كنا نوقفه عليه ونكتبه[3].

٣ ـ إن من مذهبه أن المراسيل ليست بحجّة، ثم أنه ملأ كتبه من قول: أخبرنا الثقة، أخبرني من لا أتهمه[4]. والجمع بين هذه الروايات وذلك المذهب عجيب[5].

٤ ـ أنه كان يروي عن الكذابين والبدعيين، فروى عن إبراهيم بن يحيى مع أنه كان قدرياً، وروى عن إسماعيل بن عليّة مع أنه قد طعن فيه.

٥ ـ أنه يذهب مذهب الشيعة، وأنّه كان يقول الأشعار المشعرة برغبته في ذلك المذهب، وقد نصّ ابن معين على تشيّعه. وروى المزني قال: قلت للشافعي: أنت توالي أهل البيت، فلو عملت في هذا الباب أبياتاً فقال:

وما زال كتمانيك حتى كأنني | برد جواب السائلين لأعجم
وأكتم ودي في صفاء مودتي | لتسلم من قول الوشاة وتسلم[6]

= الصحاح الستة أخذ عنه أحمد بن حنبل والبخاري ومسلم وخلق كثير. قال أحمد بن حنبل: كل حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث. ولما مات نودي بين يديه: هذا الذي كان يذب الكذب عن رسول الله ﷺ إلى آخر ما هو موجود في ترجمته من ثناء وإطراء بالنظر لعوامل الحب والكراهة.

(١) مناقب الفخر ص٥٠.
(٢) مناقب الرازي ص٨٤.
(٣) البداية والنهاية ج١ ص٣٢٧، وطبقات الحنابلة ج١ ص٢٨٢، وآداب الشافعي ص٩٥.
(٤) بيّنا سابقاً من يقصد الشافعي بذلك.
(٥) مناقب الشافعي للرازي ص٨٤.
(٦) الرازي ص٥٠.

هذه هي أهم الطعون الموجهة إلى الشافعي: وقد دافع الشافعية عن ذلك بما أمكنهم الدفاع عنه سواء وفقوا للنجاح أم لا. ولا بد لنا من إبداء الرأي في ذلك:

١ ـ إن عدم تخريج البخاري ومسلم لحديث الشافعي لم يكن دليلاً على الجرح في الشخص الذي لم يخرجا حديثه، إذ لم يكن ذلك دائراً مدار الواقع فيكون قولهما الفصل وحكمهما العدل، فإن الصحيح يكون صحيحاً في نظرهما لا يلزم منه أن يكون كذلك واقعاً، كما لا يلزم أن يأخذ ذلك بطريق التقليد والاتباع. لأن الحقيقة غير هذا، إذ المؤاخذات على البخاري كثيرة جداً، فمنها في رجاله كروايته عن قوم عرفوا بالكذب وقوم ضعفاء وخوارج. ومنها في نفس الأحاديث التي يصدق عليها بعض علامات الوضع.

وقد كان البخاري يروي بالمعنى، كما حدّث الخطيب البغدادي: أن البخاري قال يوماً: ربّ حديث سمعته بالبصرة كتبته بالشام، ورُبّ حديث سمعته بالشام كتبته بمصر!! فقيل له: يا أبا عبد الله بكماله؟!! فسكت[1]. ومهما يكن من شيء فإن ترك البخاري لحديث الشافعي لم يكن دليلاً قاطعاً على الوهن، وإن كان في ذلك شيء من الاستغراب، إذ لا مانع للبخاري من تخريج حديث الشافعي، لأن الخوف والحذر كان يحول بينه وبين تخريج أحاديث كثير من أعلام الأمة، نظراً لعوامل الظروف، وسياسة الوقت. والبخاري لا يستطيع أن يجتاز تلك العقبات، لفقدانه الجرأة والشجاعة.

هذا مع أن نزعة البخاري نحو الشافعي هي غير نزعته نحو أولئك الرجال الذين ترك حديثهم، إما لشيء في نفسه، أو خوفاً من سلطان عصره. أما تركه أحاديث أهل البيت وفضائلهم فلا يعترينا شك بانحراف البخاري عن أهل البيت. هذا والأمر يحتاج إلى تحليل نفسية البخاري على ضوء الحوادث التاريخية. وعسى أن تتاح لنا الفرصة في ذلك.

٢ ـ أما أخذه عن إبراهيم بن أبي يحيى، فقد كان الشافعي يوثقه ويطمئن إليه. وكان يقول: لئن يخر إبراهيم من بعد، أحبّ إليه من أن يكذب، وكان ثقة في الحديث[2].

---

(١) تاريخ البغدادي ج٢ ص١١.

(٢) تهذيب التهذيب ج١ ص١٥٩.

وكذلك ذهب بعض علماء الدين إلى تنزيه إبراهيم بن أبي يحيى عمّا رُمي به من الكذب. قال أبو أحمد بن عدي: سألت أحمد بن محمّد بن سعيد (يعني ابن عقدة): تعلم أحداً أحسن القول في إبراهيم غير الشّافعي؟ قال: نعم، إني أنظر في حديث إبراهيم كثيراً وليس بمنكر الحديث.

قال ابن عدي: وقد نظرت أنا كثيراً في حديثه فلم أجد فيه منكراً، إلاّ شيوخ يحتملون، وإنما يروي المنكر من قبل الراوي، أو من قبل شيخه، وهو (أي إبراهيم) في جملة من يكتب حديثه وله الموطأ أضعاف موطأ مالك.

وكان إبراهيم من تلامذة الإمام الصّادق، وله كتاب في مذهب أهل البيت، وقد روى الشّافعي عنه فأكثر، وكان مرة لا يذكر اسمه ويقول: روي عن جعفر بن محمّد (الصّادق) عن أبيه عن جده علي بن الحسين: أن مروان بن الحكم قال له: ما رأيت أحداً أكرم غلبة من أبيك، ما هو إلاّ أن ولينا يوم الجمل، فنادى مناديه: لا يقتل مدبر ولا يجهز على جريح.

وقد جاء في كتاب الأم كثير من روايات الشّافعي عن إبراهيم عن الإمام الصّادق عليه السلام ولعل هذا هو السبب في الطعن عليه نظراً لما تقتضيه سياسة الوقت.

الإمام الشّافعي والتشيّع:

الاتهام بالتشيع خطر عظيم، ومشكلة لا يقوى على تحمّلها كل أحد، وكيف وقد صوّر التشيع بعدسة الاتهامات الكاذبة في الابتعاد عن الدين، تلك التهم التي تثير في النفوس اشمئزازاً، وفي العواطف ثورة، حتى أصبح من اللازم التظاهر بالعداء لمن يعرف به. وقد أدّى الموقف السياسي إلى أن اتهام الرجل بالزندقة والإلحاد أهون عليه من الاتهام بالتشيع. فالزنديق آمن مع كفره، والشيعي مطارد على إيمانه.

وقد مر بيان الدور الأموي، وما اقترفوا فيه من الذنوب، وارتكبوا من وحشية في معاملة شيعة أهل البيت بالطرق السيئة: فمن دفن للناس وهم أحياء، إلى صلب على جذوع النخل، إلى حرق وحبس، ومنع الهواء والأكل والماء عن المحبوسين. حتى يقضي المسجون نحبه جوعاً وعطشاً. وكانوا يرتكبون من الآثام في وحشية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً، فيقطعون رأس الابن أو الزوج ويبعثون بهذا الرأس إلى الأم أو الزوجة ويلقونه في حجرها. وكانوا يصلبون الناس ويتركونها حتى تنبعث منهم

الروائح الكريهة، ثم يحرقونهم ويذرونهم في الهواء. ولا ذنب لهم إلاّ حب أهل البيت واتباعهم.

أما في الدور العباسي فالأمر أشد وأعظم. وقد تعرّضنا للبعض من ذلك في مطاوي الأبحاث، ونعود بعد هذا التمهيد إلى أسباب اتهام صاحبنا الشافعي بالتشيع، حتى جعل ذلك طعناً عليه، مما اضطر أتباعه إلى الدفاع عنه وإخراجه من قفص الاتهام. ولا بد لنا من أن نتعرّض لأسباب اتهام الشافعي بعرض موجز فنقول:

لقد توسع الناس في تطبيق لفظ الشيعي، فاستعملوه بغير ما وضع له، فهو بعد أن كان لا يطلق إلاّ على من يوالي علياً وأهل بيته عليهم السلام ويقدمه بالخلافة ويفضله على الأمة ـ كما هو رأي كثير من الصحابة والتابعين ـ أصبح يستعمل في معان كثيرة. وعلى سبيل المثال نضع بين يدي القراء صوراً من ذلك. في ذكر رجال اتهموا بالتشيع وليسوا هم من الشيعة في شيء، وهم كما يأتي:

١ ـ خيثمة بن سليمان العابد، ألّف في فضائل الصحابة وذكر فضائل علي عليه السلام فاتُهم بالتشيع لذلك. وشهد الخطيب البغدادي بأنّه ثقة، وأنه ألّف في مناقب الصحابة ولم يخص علياً[(١)].

٢ ـ الحاكم أبو عبد الله النيسابوري، اتُهم بالتشيّع لأنه ذكر في كتابه (المستدرك) أحاديث في فضل علي عليه السلام منها: حديث الطائر المشوي. وحديث (من كنت مولاه...)[(٢)]. وزاد الذهبي: إنه كان منحرفاً عن معاوية وآله[(٣)].

٣ ـ عبد الرزّاق بن همام المتوفى سنة ٢١١هـ الحافظ الكبير، ومن رجال الصحاح. قال الذهبي: إنه صاحب تصانيف، وثقه غير واحد، وحديثه مخرّج في الصحاح، وله ما ينفرد به. ونقموا عليه التشيع، وما كان يغلو به، بل كان يحب علياً ويبغض من قاتله[(٤)].

ويقول في ترجمة جعفر بن سليمان الضبعي: هو من ثقات الشيعة، حدّث عنه سيار بن حاتم، وعبد الرزّاق بن همام، وعنه أخذ بدعة التشيّع[(٥)].

---

(١) لسان الميزان ج٢ ص٤١١.

(٢) تاريخ بغداد ج٥ ص٤٧٤.

(٣) تذكرة الحفاظ ج٣ ص٢٣٣.

(٤) تذكرة الحفاظ ج١ ص٣٣١.

(٥) تذكرة الحفاظ ج١ ص٢٢٢.

فأنت ترى أنهم نقموا على ابن همام لتشيعه ـ وهو حب علي وبغض قاتله ـ وبهذا أصبح مبتدعاً كما يقولون!!

٤ ـ محمّد بن طلحة بن عثمان أبو الحسن النعالي، أتُهم بالتشيّع وتعرّض للخطر، لأن أبا القاسم نقل عنه: أنه شتم معاوية[١].

٥ ـ قاضي القضاة محيـي الدين الأموي المتوفى سنة ٢٦٨هـ يرجع بنسبه إلى عثمان، قال ابن العماد في ترجمته: وكان شيعياً يفضل علياً على عثمان، مع كونه أدعى نسباً إلى عثمان وهو القائل:

أديـن بـمـا دان الـوصـي ولا أرى ... سـواه وإن كـانـت أمـيـة مـحـتـدي

ولو شهدت صفين خيلي لأعذرت ... وساء بني حرب هنالك مشهدي[٢]

انظر كيف جعل مقياس تشيّعه أنه يفضّل علياً على عثمان فقط.

٦ ـ محمّد بن جرير الطبري المؤرخ الشهير المتوفى سنة ٣١٠هـ كان من علماء القرن الثالث، وله مذهب انفرد به، وله أتباع يعملون فيه، وقد غضب عليه الحنابلة انتصاراً لإمامهم أحمد بن حنبل، ورموه بالحجارة، ولما مات دفن ليلاً.

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٣١٠هـ: إنه دفن ليلاً بداره لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً، وادّعوا عليه الرفض والإلحاد.

قال: وقال علي بن عيسى: لو سئل هؤلاء عن معنى الرفض والإلحاد ما عرفوه ولا فهموه. وهذه التهمة وجهت إليه من الحنابلة، لأنه ألّف كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء، ولم يذكر فيه اختلاف أحمد بن حنبل، فقيل له في ذلك. قال: لم يكن من الفقهاء، فاشتد ذلك على الحنابلة، وكانوا لا يُحصون كثرة في بغداد[٣].

٧ ـ ابن حبون أبو عبد الله محمّد بن إبراهيم الأندلسي المتوفى سنة ٣٠٥هـ من علماء الأندلس وعظمائهم. قال ابن سعيد: لو كان الصدق إنساناً لكان ابن حبون. وكان (يُزَن) أي يتهم في التشيع لشيء كان يظهر منه في معاوية.

ومن أعجب الأمور أن ابن عبد البر قد اتهم بالتشيع على ما فيه من النصب

---

(١) تاريخ بغداد ج٥ ص٣٨٤.

(٢) شذرات الذهب ج٥ ص٣٢٦. ومرآة الجنان ج٤ ص١٦٩.

(٣) الكامل ج٨ ص٤٩.

والعداء لأهل البيت، فقد وصفه ابن كثير في تاريخه بأنّه شيعي لرواية نقلها تمس بكرامة الأمويين. وابن كثير من أهم الذين يحكّمون معيارهم الخاص بهم، وهو الموقف من الأمويين أو الرأي في معاوية، فكل من يقول الحق وينطق بالصواب ولا يخضع لآراء سابقة كوّنتها أغراض بني أمية لصيانة ملكهم وإرساء قواعد أمبراطوريتهم فهو يتشيع مهما كان واقع حال القائل بذلك القول، ومهما كانت حقيقة مذهبه، وابن كثير في كثير من أحواله يضارع أخس أهل النصب فمثلاً: في تعليقه على رواية: «لا يزال هذا الأمر قائماً حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش» فيعدد من يراهم مشمولين بهذه الرواية. ثم يقول: (وليس المراد الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة الذين أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا ـ وهو محمّد بن الحسن العسكري (كذا) فيما يزعمون ـ فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من علي وابنه الحسن بن علي حين ترك القتال، وسلّم لأمر معاوية، وأخمد نار الفتنة، وسكّن رحى الحرب بين المسلمين. والباقون من جملة الرعايا، لم يكن لهم حكم على الأمة في أمر من الأمور)[1]. وله من القول زيادة أعرِضُ عن ذكرها لهوسها. ولا بد من القول أنه نظر إلى صلح الحسن ليس من الناحية الإسلامية لأن الحديث عليها يتعلّق بمصلحة الرسالة ومصير أهل البيت الأطهار عليهم السلام ولكنه نظر إلى الصلح كتسليم للأمر إلى معاوية وإخماد للفتنة بمفهومها الذي أراه كالمفاهيم الأخرى التي توسّعوا في إطلاقها وتعميمها بغرض النيل من الجماعات التي تثور على الظالمين وتأبى ذل الجور.

ومن الغريب أيضاً خلط كتّاب العصر الحاضر بوصفهم ابن أبي الحديد المعتزلي أنه شيعي، إلى غير ذلك من الغرائب.

هذا ما ذكرناه على سبيل المثال والتمهيد للوصول إلى أسباب اتهام الشافعي بالتشيع. ولو أردنا أن نتوسع في ذلك لطال بنا الحديث في ذكر الحوادث التي وقعت من وراء ذلك.

وصفوة القول: إن الاتهام بالتشيع، ونسبة أناس كثيرين إلى الشيعة أصبح غير منوط بقاعدة ولا مربوط بدليل، حتى أن أبا حنيفة نسبوه إلى التشيع، لأنه كان يذهب

---

(١) قصص الأنبياء: قصة إبراهيم الخليل عليه السلام.

إلى تفضيل علي عليه السلام على عثمان. وقد امتحن كثير من العلماء وأوذوا في ذلك، مثل: النسائي صاحب «السنن الكبرى» لأنه ألّف في فضل علي كتاباً ولم يؤلف في فضائل معاوية. وأمثال هذا كثير لا يسع المقام حصره. ولنعد إلى الحديث عن أسباب اتهام صاحبنا بذلك. وهي أمور:

١ ـ كان الإمام الشّافعي يتظاهر في مدح أهل البيت عليهم السلام مما يدل على نزعته وميوله إلى التشيع ـ كما ذكروا ـ وإنها لتشعر بكل صراحة على ذلك، فهو يعلن تمسّكه بآل محمّد ويقول:

آل النبي ذريعتي ... وهمو إليه وسيلتي
أرجو بأن أعطى غداً ... بيدي اليمين صحيفتي

واشتهر عنه قوله:

يا آل بيت رسول الله حبكمو ... فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكمو من عظيم الذكر انكمو ... من لم يصل عليكم لا صلاة له

ويوضح لنا الإمام الشّافعي بواعث اتهامه بالرفض أو التشيّع فيقول:

قالوا ترفضت قلت كلا ... ما الرفض ديني ولا اعتقادي
لكن توليت دون شك ... خير إمام وخير هادي
إن كان حب الوصي رفضاً ... فإني أرفض العباد

فهو بإظهاره حب علي بن أبي طالب عليه السلام قد اتهم بالرفض، ولشدة تظاهره بحب علي عليه السلام فقد هجاه بعض الشعراء بقوله المشهور:

يموت الشافعي وليس يدري ... عليّ ربّه أم ربّه الله

وهو لم يقتصر بحبه لعلي فقط، بل كان يوالي أهل البيت عليهم السلام ويحبهم، ولا يبالي بأن يتهم بالتشيع الذي كان من أعظم التهم في عصره وقبل عصره فيقول:

يا راكباً قف بالمحصب من منى ... واهتف بقاعد خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حب آل محمّد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

٢ ـ إن الشّافعي قد صرّح بتشيعه، وجعل ذلك فخراً له فيقول:

أنا الشيعي في ديني وأصلي ... بمكة ثم داري عسقلة

بــأطــيــب مــولــد وأعــز فــخــر وأحسن مذهب سموا البرية[١]

فهو بهذه الصراحة يدل على أن تلك التهمة موجهة إليه لا محالة.

٣ ـ لقد نص على تشيع الشافعي جماعة من المؤرخين والمحدثين. فهذا يحيى بن معين المحدّث الكبير كان يقول: إن الشافعي كان شيعياً، فلما بلغ أحمد بن حنبل ذلك، وكان طبيعياً أن يسوءه هذا القول في الشافعي، فأحب أن يسأل من ابن معين عن الأدلة التي أدت إلى اتهام الشافعي بالتشيع، فقال أحمد لابن معين: كيف عرفت ذلك؟

فقال يحيى: نظرت في تصنيفه في قتال أهل البغي، فرأيته قد احتج من أوله لآخره بعلي بن أبي طالب[٢].

هذا هو سبب اتهام الشافعي أو الطعن عليه بأنه كان يحتج بعلي بن أبي طالب!!

وقال ابن النديم: وكان الشافعي شديداً في التشيع، واستدل على ذلك بما يلي:

١ ـ ذكر له رجل يوماً مسألة فأجاب فيها، فقال له الرجل: خالفت علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فقال الشافعي: أثبت لي هذا عن علي بن أبي طالب حتى أضع خدي على التراب وأقول قد أخطأت.

٢ ـ حضر الشافعي مجلساً فيه بعض الطالبيين فقال: لا أتكلم في مجلس أجدهم (أي الطالبيين) أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل[٣].

فالشافعي إذاً بمجموع هذه الأدلة قد تحققت في حقه تلك التهمة، وهي الانتساب إلى مذهب التشيع، الذي كانت الدولة وأذنابها تنظره بعين الغضب، لأن مذهب التشيع كابوس لصدور الدولة، وقذى في عيونها، لعدم امتزاجه بسياستها، فهو يستقي من ينبوع أهل البيت، ويأخذ بتعاليمهم. وناهيك ما لأهل البيت في قلوب المتعطشين على السيادة والاستبداد من بغض وعداء!! إذاً كيف نصنع بهذا الإمام

(١) الفخر الرازي في المناقب ص٥١.

(٢) الفخر الرازي في المناقب ص٥١.

(٣) فهرست ابن النديم ص٢٩٥.

العظيم، الذي اشتهر ذكره وكثرت أتباعه، مع أنه متّهم بانضمامه إلى جانب خصوم الدولة، فلا بد من الدفاع لتبرأته من ذلك.

نتيجة وحكم:

وقد نستخلص من هذا الاستطراد لاتهام الشافعي ولأقواله، سواء منها الصريحة أو المموهة النتيجة التالية:

إن تشيع الشافعي كان تشيعاً بالنسبة لمجتمعه الذي أخرجته السياسة عن عقيدة الاستقامة، حيث صيّرت أكثر مسلمي ذلك الزمن أناساً يحاربون أهل البيت باليد واللسان، وقديماً قيل: (الناس على دين ملوكهم) لذلك كانت شجاعة الشافعي في إظهار حبه لعلي وآله هي السبب في وصفه بالتشيع.

أما إذا جردنا ذلك المجتمع من سيطرة الدولة، وكشفنا الستار الذي تعمل من ورائه أيدي العابثين بصفو الأخوة الإسلامية، من قبل المتدخلين في الإسلام، فإنا لا نجد هناك إنساناً مسلماً يبغض أهل البيت فيما عدا الخوارج، ومن حذا حذوهم ممن لم يرفع الإسلام ترسبات الشرك والوثنية من قلبه، وما هو بمسلم بل مستسلم أو متحين لفرصة الانتقام بالمسلمين، طالما لم يكن في آل علي من يتصف بما يوجب كراهيته في المجتمع، فحبهم لا يكاد يخلو من قلب مسلم من السنّة أو الشيعة، غير أن الفرق الأساسي بين الطائفتين هو قول الشيعة بالإمامة لعلي والوصاية له، وقول السنّة بالشورى والخلافة وإنكار الوصاية. فالشافعي على هذا ليس شيعياً، وإنما هو مسلم يتمسك بحب أهل البيت ولا يناصبهم العداء، شأن أهل زمانه من السنّة.

وإن نظرة دقيقة من القارىء إلى قول الشافعي: (ما الرفض ديني ولا اعتقادي) مع ملاحظة أنّ سبب تسمية الشيعة هو رفضهم للخلفاء والخلافة توقفه بوضوح، على أنّ الشافعي نفسه ينكر الرفض والاعتقاد به، وأنه لم يزل يتمسك بمبدأ التسنن. غير أنّه ينكر على مجتمعه إطلاق (لفظ رافضي) على محب علي وآله، لعلمه بأن مجرد الحب لا يعني التشيع، طالما كان التشيع ملزوماً بالاعتراف لعلي بالوصاية وأحقيته بالخلافة وأهليته للإمامة ولزوم اتباعه. ولهذا قال على سبيل الفرض:

إن كان رفضاً حب آل محمّد فليشهد الثقلان أني رافضي

فالشّافعي لا يبالي بتلك التهمة التي وُجِّهت إليه، لأنه كان يرى أن حب آل محمّد فرض على الأمة الإسلامية. يدلّنا على ذلك قوله:

يـا آل بيـت رسـول الله حبـكـمـو   فـرض مـن الله فـي الـقـرآن أنـزلـه

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وبهذا قد اتضح لنا رأي الشّافعي وعرفنا نزعته، فهو محب لأهل البيت وليس بشيعي. ومما يؤيد ذلك أن الشيعة لم تدع هذه الدعوى ولم تدخله في قائمة علمائها، لأن أمره واضح ومبدأه بيّن.

إذاً، فالشّافعي بريء من هذه التهمة. هذا ما استخلصناه على سبيل الاستطراد والاختصار. وإلى القارىء صورة من دفاع الشّافعية عن هذه التهمة:

دفاع الشّافعية:

قال الفخر الرازي: أما دعوى الرفض فباطلة، لأنه قد اشتهر عنه أنه كان يقول بإمامة الخلفاء الراشدين، وكان كثير الطعن في الروافض، قال يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشّافعي يقول: أجيز شهادة أهل الأهواء كلهم إلاّ الرافضة فإنهم يشهدون بعضهم لبعض. وقال يونس: كان الشّافعي يعيب الروافض ويقول: هم شر عصابة.

وأما مدح علي وحبّه والميل إليه فذلك لا يوجب القدح، بل يوجب أعظم أنواع المدح.

وأما طعن يحيى بن معين فالجواب عنه، ما روى البيهقي عن أبي داود السجستاني. أنه قيل لأحمد بن حنبل: إن يحيى بن معين ينسب الشّافعي إلى الشيعة، فقال أحمد: كيف عرفت ذلك؟ فقال يحيى: نظرت في قتال أهل البغي فرأيته قد احتجّ من أوله إلى آخره بعلي بن أبي طالب.

فقال أحمد: يا عجباً لك!!! فيمن كان يحتج الشّافعي في قتال أهل البغي، فإن أول من ابتلي من هذه الأمة بقتال أهل البغي هو علي بن أبي طالب. قال: فخجل يحيى من كلامه. وأيضاً فإن يحيى بن معين كان شديد الحسد للشافعي، وكان يلوم أحمد بن حنبل على تعظيم الشّافعي.

ولما سمع الشّافعي أن بعض الناس رماه بالتشيع أنشد وقال:

إذا نـحـن فـضّـلـنـا عـلـيـاً فـإنـنـا   روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل
وفـضـل أبـي بـكـر إذا مـا ذكـرتـه   رميت بنصب عند ذكراي للفضل

فلا زلت ذا رفض ونصب كلاهما أدين به حتى أوسّد في الرمل[1]

مذهبه وانتشاره:

كانت مصر هي المكان الذي صدر عنه المذهب الشّافعي ومنه انتشر في الأقطار، وذلك بفضل جهود تلامذته المخلصين الذين شغلوا الناس عن دراسة المذهب المالكي والمذهب الحنفي. وكانا قد انتشرا هناك.

قال السبكي في الطبقات عن مصر والشام بالنسبة للمذهب الشّافعي: هذان الإقليمان مركز ملك الشّافعية، منذ ظهر المذهب الشّافعي، اليد العالية لأصحابه في هذه البلاد، لا يكون القضاء والخطابة في غيرهم، أما الشام فقد كان مذهب الأوزاعي حتى ولي القضاء أبو زرعة محمّد بن عثمان الدمشقي الشّافعي. ويقول: كان (محمّد بن عثمان) رجلاً رئيساً، يقال أنّه هو الذي أدخل مذهب الشّافعي إلى دمشق، وأنه كان يهب لمن يحفظ مختصر المزني منه مائة دينار.

وعلى أي حال، فإن المذهب الشّافعي كانت بذرته الأولى في مصر، ومنها انتشر بفضل جهود أصحاب الشّافعي، ولولاهم لكان أثراً بعد عين، ولكان مصيره مصير مذهب الليث بن سعد، الذي لم يتهيأ له أصحاب مخلصون يقومون بنشره. ولعل أهم العوامل التي هيأت للشافعي أسباب النجاح في مصر هي كما يلي:

١ ـ أنّه كان معروفاً بأنه تلميذ مالك وخريج مدرسته، وكان لمالك هناك ذكر ولمذهبه انتشار فقوبل بالعناية، وذلك قبل إظهاره المعارضة لمذهب مالك والرد عليه.

٢ ـ نشاط الشّافعي وعلو همته وتفوقه بالأدب ومعرفة اللغة، وإحاطته بأقوال مالك وأهل العراق. وما عرف عنه أنّه كان ينتصر لأهل الحديث، ويرد على أهل الرأي.

٣ ـ اشتهار قرشيته واعتصامه بالانتساب للنبي ﷺ وهذا له أثره في قلوب المصريين.

٤ ـ صلته بحاكم مصر الجديد عبد الله بن العباس بن موسى، ومعرفته به يوم

---

(١) مناقب الشافعي للرازي ص٥١ ـ ٥٢.

كان بمصر، وأنّه سافر معه عند تعيينه، أو أنه حمل له وصية من الخليفة في بغداد.

٥ ـ اختياره في النزول عند أقوى بيت في مصر وأعزهم جانباً، وهم بنو الحكم، والتفاف أعيان أصحاب مالك حوله، كأشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم.

تغلّب المذهب الشّافعي على المذهب المالكي بمصر بعد أن كان هو السائد وله السلطان هناك. وقد ذكرنا مقابلة أنصار المذهب المالكي لأصحاب الشّافعي: وتمت له الغلبة هناك أيام الدولة الأيوبية، لأنّهم كلهم شوافع إلاّ عيسى بن العادل(١) سلطان الشام، فإنّه كان حنفياً، ولم يكن في هذه الأسرة حنفي سواه، ثم تبعه أولاده، وكان شديد التعصّب لذلك المذهب، ويعده الحنفية من فقهائهم، وله شرح على الجامع الكبير في عدة مجلدات.

ولما خلفت دولة المماليك البحرية دولة الأيوبيين لم تنقص حظوة المذهب الشّافعي، فقد كان سلاطينها من الشّافعية إلاّ سيف الدين، الذي كان قبل بيبرس، فقد كان حنفياً، ولكن لم يكن له أثر في الدولة لقصر مدته.

---

(١) عيسى بن سيف الدين الملك العادل أبي بكر بن أيوب، ولد في القاهرة سنة ٥٧٦هـ وملك دمشق ثمان سنين وأشهر، ومات سنة ٦٢٤هـ وكان متغالياً في التعصب لمذهب أبي حنيفة. قال له والده: كيف اخترت مذهب أبي حنيفة وأهلك كلهم شوافع؟ فقال: أما ترغبون أن يكون فيكم رجل واحد مسلم. وهو قد صنّف كتباً كثيرة منها: السهم المصيب في الرد على الخطيب. ترجمته في الفوائد البهية ص١٥١.

تعقيب وتصويب

وبعد هذا العرض لأخبار الشّافعي وآثاره نود أن نسجل بعض الملاحظات إتماماً لتصوير الشّافعي الفقيه وعهده فنقول:

إن قضية ادعاء الأفضلية في العلم والتفرّد في الفقه لرؤساء المذاهب أو غيرهم أصبحت قضية متعلقة بروح التعصب والعداء تجري مجراها، ولو انعدمت هذه الروح ولم توجد الأعراض التي خلقت الفرقة والتعدد لما استخدمت أساليب الوضع واتخاذ البشائر والمقامات بدلاً من موازين العلم ومعاييره. فالعالم بآثاره وأعماله ومن صفاته العزوف عن التظاهر أو إعلان التفوق إنما يزداد العالم منزلة بزيادة علمه ويعلو شأنه بعلو كعبه في ميدان التصنيف وإحياء الآثار، ولا تتحقق الأفضلية بالادعاء أو الحجب عن الآخرين. ومما يجعل هذه القضية قضية غير موفقة أو غير ناجحة هو وضعها في جملة وسائل التحكم أو التأثير في معتقدات الناس أو أفكارهم، فالأمر العلمي يمضي بخصائصه من دون حاجة إلى دعوى لا برهان عليها. على أن العلماء أنفسهم يندر أن يصدر منهم شخصياً مثل ذلك، ولكن الأعوان أو مصالح الحكام هي التي تقف وراء مثل هذه الادعاءات ونموها لأن العالم الحق بقوة إيمانه وورعه وبتحصيله وعطائه تصان مكانته ويصون نفسه.

حول تمييز الشّافعي:

إن ما بأيدينا من أخبار الشّافعي وما وقفنا عليه من آثاره، وما يحكيه هو عن نفسه، لا يدل على ما يذهب إليه الشّافعية من القول: بأن الشافعي هو أعلم الأمة. أو فوق علمائها أجمع، وأنه أعلم قريش وأشهرهم ذكراً، بل العلم بالكتاب والسنّة له دون غيره، في عصره وقبل عصره، كما جاء في آداب الشّافعي لابن أبي حاتم الرازي

عن عبد الرَّحمٰن قال: سمعت دُبيساً يقول: جئت إلى حسين الكرابيسي فقلت له: ما تقول في الشّافعي؟

فقال: ما أقول في رجل ابتدأ في أفواه النّاس الكتاب والسنّة، نحن ولا الأولون حتى سمعنا من الشّافعي الكتاب والسنة والإجماع[١].

ويقول السبكي في وصفه إنه: الإمام الأعظم المطلبي، والعالم الأقوم ابن عم النبي ﷺ؛ فإنه عالم قريش الذي ملأ الله به طباق الأرض علماً، ورفع من طباقها إلى طباق السّما بذاته الطاهرة من هو أعلى من نجومها وأسمى، وأثبت باسمه في طباق أجزائها اسم من يسمع آذاناً حُما، ومن لو قالت بنو آدم: علمه الله الأسما: كما أبرز منه لكم أباً ومن تصانيفه أمّاً، والحبر الذي أسّس بعد الصحابة قواعد بيته ـ بيت النبوة ـ وأقامها، وشيّد مباني الإسلام بعدما جهل النّاس حلالها وحرامها وأيّد دعائم الدين[٢].

وأمثال هذا كثير، ونحن لا نثب معهم هذه الوثبة، بل نقف عند حدود الواقع ولا نأخذ هذا بعين الاعتبار بدون تثبّت، مع العلم بأن هذا بعيد عن الواقع. ولا نفهم من ذلك الاندفاع لتصوير شخصية الشّافعي إلاّ التعصّب.

ونحن حين نتعرّض لأمثال هذه الأمور إنما نقصد إعطاء صورة عن ذلك التدرج إلى إعلاء مكانة الشخص، طلباً للتفوق في ظروف التدافع والتقابل وتلاحي كل فريق مع منافسه. بدون التفات إلى مؤاخذة عند مخالفة الواقع.

واتخذ سبيل انتحال الأقوال ونسبة المديح إلى رجال معروفين لتحقيق التفوق. ولكن التدقيق والتمحيص يكشفان حقيقة الادعاء.

وإليك مثلاً من ذلك:

يروي ابن عبد البر بسنده عن سويد بن سعيد قال: كنا عند سفيان بن عيينة بمكة، فجاء رجل ينعي الشّافعي ويقول: إنه مات. فقال سفيان: إن مات محمّد بن إدريس، فقد مات أفضل أهل زمانه[٣].

---

(١) المناقب ص٥٧.
(٢) طبقات الشافعية ج١ ص٣٤٣.
(٣) الانتقاء ص٧٠.

هذا ما ورد في مناقب الشافعي، وإذا أردنا أن نقف وقفة قصيرة لاستجلاء الواقع فسيتضح لنا كذب هذا القول: لأن وفاة سفيان كانت سنة ١٩٨هـ في جمادى الآخرة أي قبل وفاة الشافعي بستة سنين وأشهر، مع أن سويد بن سعيد هو البورفي ـ راوي هذا القول ـ كان من أكذب الناس، وممن يضع الحديث، كما نص علماء الرجال على ذلك.

التناقض في التصوير:

وهناك أقوال لا بدّ لنا من عرض بعضها والنظر إليها بدقّة وتمحيص:

جاء عن أحمد بن حنبل أنّه كان يقول: إن هذا الذي ترون (أي العلم) كله أو عامته من الشّافعي. ويقول الميموني: قال لي أحمد بن حنبل: ما لك لا تنظر في كتب الشّافعي؟ ما من أحد وضع الكتب منذ ظهرت أتبع للسنة من الشّافعي.

وروى أبو نعيم في مناقب الشّافعي: أن أحمد قال ليحيى بن معين: إن أردت الفقه فالزم ذنب البغلة (أي بغلة الشافعي)[١].

هذا وأمثاله ترويه كتب الشّافعية. وحينما نطمئن إلى هذا النقل مدة قصيرة، لا نلبث أن نواجه ما يخالفه ويناقضه من الجانب الآخر.

قال أحمد بن الحسن الترمذي: سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل أأكتب كتب الشافعي؟ فقال: ما أقل ما يحتاج صاحب حديث إليها[٢].

وقال أبو بكر المروزي: قلت لأحمد بن حنبل: أترى الرجل يكتب كتب الشّافعي؟ قال: لا. قلت: أترى أن يكتب الرسالة؟ قال: لا تسألني عن شيء محدث... وقال أيضاً: قال أحمد: لا تكتب كلام مالك، ولا سفيان، ولا الشافعي[٣].

ونحن لا يدهشنا التناقض بعد وقوفنا على الأصل الذي أثر على الآراء والحقائق، وبعد ما سمعنا في مدح الشّافعي وغيره بما هو أكثر من هذا، وفي انتقاصه بما هو أعظم كالحديث الذي يرويه أحمد بن عبد الله الجويباري عن عبد بن معدان

(١) توالي التأسيس ص٥٧.
(٢) طبقات الحنابلة ج١ ص٣٨.
(٣) طبقات الحنابلة ج١ ص٥٧.

عن أنس عن النبي ﷺ: يكون في أمّتي رجل يقال له محمّد بن إدريس أضر على أمتي من إبليس، ويكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمّتي[١].

وأحمد بن عبد اللّه الجويباري أمره مشهور وحاله معروف في وضع الأحاديث. وقد استخدموه لصالح التعصب والتنافس.

فهذه التيارات من الجانبين تستدعي الوقوف والتريث. وبهذا لا نصغي لأقوال المندفعين وراء العاطفة كقول أحمد بن يسار: لولا الشّافعي لدرس الإسلام[٢].

وقول البرذعي: سمعت أبا زرعة يقول: ما أعلم أحداً أعظم منّة على أهل الإسلام من الشّافعي.

ويقول أحمد بن سنان: لولا الشّافعي لاندرس العلم[٣]. ولو أردنا أن نبحث بدقّة عن هذه الأقوال وغيرها لمعرفة نصيبها من الصحّة فالأمر لا يحتاج إلى تكلّف. بعد أن وقفنا على المبادىء الأساسية التي دعت إلى وضع هذه الأقوال، وأهمها ثورة العواطف وتيار التعصب.

وما لنا نستغرب أو نستكثر على أصحاب الشّافعي هذه المغالاة في مؤسّس فقههم ورئيس مذهبهم ونحن نرى أصحاب أبي حنيفة لم يقصروا عن هذه الخدمة في حق إمامهم؟! وبهذا استوت كفة الميزان في كل ما ورد من مبالغات معتنقي المذاهب، كالحنفية في حديث: أبو حنيفة محيي السنّة. والمالكية في حديث: عالم المدينة. والشافعية أيضاً في حديث: عالم قريش.

فجعلوا العلم وقفاً على شخصية الشّافعي دون غيره من قريش، وحصروه عليه بمعناه الكامل ـ إن صح الحديث ـ وإلاّ فهو موضوع من قبل المتعصبين كغيره من الأحاديث والمناقب التي كثيراً ما تبدو في مظهر جد برّاق خلابٍ، ومما يؤيد ذلك أن ذوي الاستقامة من علماء المذاهب لم يجعلوا لأكثرها وزناً كبيراً من الاعتماد والاحتجاج.

أما الحنابلة الذين لم يستطيعوا خلق حديث في إمامهم، فإنهم اعتمدوا على

---

(١) اللآلىء المصنوعة للسيوطي ج١ ص٢١٧.

(٢) توالي التأسيس ص٧١.

(٣) توالي التأسيس ص٦١.

الأطياف، فوضعوا عن النبي ﷺ كثيراً من ذلك وسيأتي بيانها، وهي أمور كان مبعثها احتدام النزاع الطائفي الذي أصبح ميداناً للخلاف ومحوراً للتخاصم آنذاك.

نقول هذا بدون طعن على أولئك الرجال، ولا حطّاً من كرامتهم، لأن الواقع الذي نلمسه من سيرتهم وما طبعوا عليه يقضي علينا ببراءتهم من ذلك الإدعاء الأجوف. وقد دلّت آثارهم على خلاف ما يذهب إليه المتعصّبون لهم. وقلنا إن العالم بآثاره وأسفاره ومن صفاته البحث في العلم وليس البحث عن التفوق، ولا ادعاء الأفضلية لأن العلم ما تشهد به الحقائق.

مذهبه الفقهي:

إذا أردنا أن نقف على مدى نشاط الشافعي في فقهه، فلا نستطيع تحديد ذلك بعد أن وقفنا على نشاط أصحابه وتلامذته الذين نما المذهب بجهودهم واجتهادهم بكثرة التخريج. ولهم آراء كثيرة وأقوال متعددة اجتهدوا فيها، ولم يؤثر عن الشافعي نص فيها، ونسبوا الجميع إليه وعُدّت من مذهبه، وهم وإن كانوا لا يقولون إنها أقوال الشافعي، لكنهم يقولون إنها أوجه بمذهبه.

وبفضل جهود أصحابه قد (اكتسب المذهب من البيئات المختلفة والأحوال الاجتماعية المتباينة والشؤون الاقتصادية المتخالفة الشيء الكثير، مما كان يتأثر به المجتهدون عند تخريجهم للمسائل، إذ كانوا بلا ريب متأثرين ببيئاتهم الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية، وإنك لو درست ذلك المذهب على ضوء هذا، وفحصت الآراء بين المختلفين على ذلك النور لعلمت أثر البيئات في أقوال المختلفين وآراء المتنازعين، وإن الذين يدرسون فروع ذلك المذهب بل فروع المذاهب المختلفة، درسوها منسوبة لأصحابها، وعرفوا البيئات المختلفة؛ فإنّهم حينئذ يرون تلك الآراء صوراً صادقة لعصورها، حاملة ألوانها ومنازعها الاجتماعية والاقتصادية وأعراف الناس فيها)[1].

وقد نشأ في عصور الاجتهاد وحرية الفكر رجال لهم الأثر العظيم في التخريج وسعة دائرة المذهب كالإسفرائيني الذين قالوا في حقه: إنه أنظر وأفقه من الشافعي؛

(1) الشافعي لمحمّد أبو زهرة ٢٦٤.

ومثل القفّال وأبو العباس وغيرهم ممن اشتهر بالاجتهاد المطلق ونسب إلى الشّافعي، ولهم الفضل في التخريج للمسائل.

ولما أغلق باب الاجتهاد أصبح المذهب مقصوراً على دراسة أقوال المتقدمين، والمحافظة على ما ورثوه عنهم، واستخراج الفتاوى والأحكام من بين الأقوال المختلفة والآراء المتنازعة. وبمجموعها قد تكوّن المذهب الشّافعي.

وعلى أي حال؛ فإنا لا نستطيع تحديد فقه الشّافعي من أقواله وآرائه بعد ما أصبح المذهب المنسوب إليه، مجموعة أقوال أئمة مختلفين متباعدة أوطانهم مختلفة آراؤهم، وضمن تلك الأقوال انضمت أقوال الشّافعي وآراؤه، ولا سيما أكثر المؤلّفين قد نسبوا ما ألّفوه للشافعي طلباً للقبول ودعاية للرواج.

نهيه عن مذهبه القديم:

إن من أهم الظواهر التي لاحظناها عند دراستنا لحياة الشّافعي هي نهيه عن الأخذ بمذهبه القديم الذي أفتى فيه ببغداد، فأصبح المعوّل على ما أفتاه في مصر، ومثل هذا التطور يوجد لنا إحجاماً عن تحقيق ذلك التكامل في تلك المدة القصيرة، التي لا تسمح لمثله من البشر أن يبلغ تلك الدرجة التي أدعيت له في بلوغ أعلى منزلة علمية، مع وجود شواغل وموانع تحول بينه وبين استخدام قوته واستعمال فطنته، لاستنتاج مسائل تكون شاملة لأحكام قرون متوالية.

لقد كان الشّافعي في مصر مشغولاً بمرضه الذي اعتوره مدة طويلة، مع وجود مشاحنات ومقابلات بين أصحابه وبين خصومهم من المالكية، بالإضافة إلى ما وصفوه به من طوْل العبادة والتهجد. يضاف إلى ذلك ما كان يعلوه من دين لعسر حاله، فيقال: إنه مات وعليه من الديون ستون ألف دينار. وهذا له أثره في الطبيعة البشرية، إذ هو بحكم الطبع الإنساني شاغل مجهد، مع أن الشّافعي معروف ببلاغته ومعرفته بلغة العرب وأشعارهم، وكان هو ينظم الشعر الرائق أيضاً، وقد التف حوله كثير من طلاّب مصر لمعرفة الآداب واكتسابها منه. إلى آخر الأمور التي وصفوه بها، وبطبيعة الحال إن ذلك يوجب التوقف عن إعطاء الحكم بما يدّعونه له، وكان اللازم أن نوفق بين تلك الروايات الدالة بمنطوقها على تكامله واستعداده وتفوقه الاجتهادي من صغر سنّه، وبين نهيه وتحريمه لمذهبه القديم، لأن هذا التطور الغريب يستلزم

الاستغراب في تحقيق ذلك التكامل. ونظراً لضيق المجال أرجأنا الكلام حول هذا الموضوع إلى محل آخر.

الخصومة المذهبية:

لقد أصبح الخلاف في المذاهب ميداناً للنزاع ومحوراً للتخاصم ومثاراً للفتن، وقد تعرضنا لكثير من ذلك، مما يوضح للقارىء النبيه أن الكثير منهم قد استساغ الوقيعة بمن يخالفه في المذهب، وكانت المعركة الجدلية بين الحنفية والشافعية أكثر منها بين سائر المذاهب، حتى خرج الأمر عن حدود الجدل إلى الحروب الدموية، مما أدى إلى خراب البلد من جراء هذا الخلاف. يقول ياقوت ـ عند الكلام على (أصفهان) بعد أن ذكر مجدها القديم ـ: وقد فشا فيها الخراب في هذا الوقت وقبله. وفي نواحيها، لكثرة الفتن والتعصّب بين الشّافعية والحنفية، والحروب المتصلة بين الحزبين. فكلما ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرى، وأحرقتها وخربتها، لا يأخذهم في ذلك إلّ ولا ذمة. ومع ذلك فقلّ أن تدوم بها دولة سلطان، أو يقيم بها فيصلح فاسدها. وكذلك الأمر في رساتيقها وقراها التي كل واحدة منها كالمدينة.

ويقول عند وصفه للرّي ووقوع العصبية بين الحنفية والشّافعية: ووقعت بينهم حروب كان الظفر في جميعها للشافعية، هذا مع قلة عدد الشّافعية، إلاّ أن الله نصرهم عليهم. وكان أهل الرستاق ـ وهم حنفية ـ يجيؤون إلى البلد بالسّلاح الشاك ويساعدون أهل نحلتهم، فلم يغنهم ذلك شيئاً حتى أفنوهم[1].

ولشدة الخلاف والجدل بينهم ألّفت الكتب في بيان الخلاف بين أبي حنيفة والشّافعي، ونشأ من ذلك علم يسمى (آداب البحث والمناظرة) يقصدون منه الشروط التي يتبعها المجادل في جدله، إذ أصبح الأمر فوضى. وقد ذكر الغزالي شروطاً ثمانية لا يسع المجال ذكرها.

وعلى أي حال، فإن ذلك التعصب كان من نتائجه ذلك الاندفاع والإغراق في المدح، بحق وبغير حق، إذ لم يضعوا الأمور في نصابها بالتجرد عن الأهواء والعاطفة، مما شوّه وجه الحقيقة، فأوجد صعوبة كبيرة في تمحيص الأخبار التي اشتملت عليها المناقب، وبالأخص كتب الشافعية والحنفية للأسباب المتقدمة، لأنها

(١) معجم البلدان ج٤ ص٣٥٦.

غير متناسقة ولا متماسكة، لذلك اقتصرنا في دراسة حياة الشافعي على العرض التأريخي. ونقف عند هذا الحد من البيان عن تاريخ حياته، وسنعود إن شاء الله تعالى إلى استعراض آرائه.

نتائج الخلافات المذهبية:

وقبل الختام أود الإشارة بإيجاز إلى أن تلك الخلافات المذهبية والنعرات الطائفية قد أوجدت الفرقة بين المسلمين، وكادت تكتسح صروح مجدهم المؤثل، لولا عناية الله تعالى ولطفه بالإسلام وأهله، ولم يكن منشأها سوى وجود الأيدي العابثة من الفئة الفاسدة أو من الذين دخلوا في الإسلام ـ لا رغبة ـ بل للوقيعة بأهله، فإذا بهم وقد فسحت السياسة لهم المجال ليحققوا سوياً الأهداف التي لا تتحقق مع وحدة الكلمة ولا تنال إلاّ بالفرقة، وتحكيم قانون (فرّق تَسد).

فكانت المؤامرات والدسائس تحاك من قبل خصوم الإسلام باتخاذهم شتى الأساليب في تفريق صفوف الأمة. وقد أفصح التأريخ عن كثير من تلك الحوادث المؤلمة والوقائع المفجعة، التي أثارها أعداء الوحدة الإسلامية في شتى الظروف السالفة.

ولقد مرت أحقاب من تلك الحياة المضطربة والأدوار المظلمة والمسلمون في نزاع وتخاصم، كلّ يريد أن يكيل صاع الانتقام للآخر، فكان من ذلك أن أريقت الدماء، ونهبت الأموال بدون مبرر. وبهذا وجدت الأمم المغلوبة غايتها المنشودة، فعملوا بكل إمكانياتهم في زيادة التوتر بين طوائف المسلمين، ولم يسعد المسلمون بيقظة في زمن ما، فيستقبلوا أمرهم بفكر ثاقب وحرية رأي وتجرد عن العواطف، ليرفعوا ذلك الستار الأسود ويقطعوا تلك الأيدي العابثة، التي حملت لهم معاول الهدم وأدوات التخريب أحقاباً وقروناً.

ولو رفع الستار لزال الخلاف، وأوقف ذلك الصراع الناتج من وراء التعصب الجنوني، والجهل بالأمر الواقع، ولكان باستطاعة المسلمين أن يوحدوا صفوفهم ليقفوا في وجه الخصم موقفاً مشرفاً في سبيل المحافظة على العقيدة والدين، ولهدأت تلك الضوضاء التي ذهبت فيها أصوات المصلحين مع الرياح. ولأصبحنا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ كما وصفنا القرآن الكريم.

قلت لو رفع الستار: لنظر بعضنا إلى بعض نظر مودة وأخوّة بدلاً من نظرة البغض والكراهية. ولزالت تلك الرواسب التي أوجدتها عصور التطاحن والتعصّب لتكون عقبة كؤوداً في طريق وحدة المسلمين.

هذا وقد مرّت العصور وذهبت الأيام بما فيها غير مأسوف عليها، ونحن أبناء اليوم، فهل لنا أن نشعر بوجود تيارات دولية تعمل في السر والعلن، وتتكالب على السيطرة والاستعمار؟! وإن خير طريق لمعالجة الوضع هو الشعور بالمسؤولية تجاه الدين والوطن، لندرك الحقيقة الناصعة ونقف على الأمر الواقع ونكون كما أمر الله تعالى دعاة خير موحدين ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ أو ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾؟.

* * *

وهذا ما تيسّر لنا ـ بعونه تعالى ـ بيانه، ونسأله تعالى أن يوفقنا لإكمال بقية الأجزاء إنه سميع مجيب.

وقد أرّخ نخبة من العلماء لكتابنا الإمام الصّادق والمذاهب الأربعة، ننشر منها ما وردنا من سماحة العلاّمة الشيخ علي السماوي:

تحفتك الغراء قد أصبحت ... بمفرق التأريخ إكليلا
ففقت أقرانك فيها بما ... أمليت إجمالاً وتفصيلا
سفر به حبلك قد صار في ... حبل رسول الله موصولا
وحزت خيراً فيه والخير ما ... قد كان عند الله مقبولا
فزت بمسعاك لتحقيق ما ... حق وأبطلت الأباطيلا
ومن سنى الصادق قد أشرقت ... به براهينك تدليلا
لو النصارى قرأته لما ... تلت بدنياها الأناجيلا
يا أسد الفضل ومن لم يزل ... يحلل الأبحاث تحليلا
تاريخك العذب بسلساله ... فاق الفرات العذب والنيلا
أيّدك العلم فدم سالماً ... عضباً بوجه الجهل مسلولا
حسبك من سفرك أني به ... أرتل الإطراء ترتيلا
حيث وجدت فيه ما أبتغي ... (وفوق ما قد كان مأمولا)
حق لك الإطراء فيه بما ... عانيت ـ ترحيباً وتبجيلا

وحق إعظامك فيه بما | أحسنت تحليلاً وتأويلا
نال الأماني الغر من قد غدا | بالعلم والتأريخ (مشغولا)

١٣٧٧ هـ

ومن صديقنا الأستاذ الكبير المؤرّخ السيد محمّد الحلي:

هذا كتاب قد حوى كنزه | مباحثاً نافعة ممتعه
أبحاثه جاءت لمن أنصفوا | دلائلاً واضحة مقنعه
نمّقها من أسد مزبر | لانَ مع الخصم لكي يقنعه
ويوضح الحق جلياً كما | لم يخط في تأليفه موضعه
فهنّه والثم وأرّخ فماً | (يحكي عن المذاهب الأربعه)

١٣٧٧هـ

ومن صديقنا الأستاذ الخطيب السيد عليّ الهاشمي:

خير سفر أظهر الحق لنا | (أسد) فيه وللزور محق
فتصفّحه وبالتاريخ (قل | مذهب الصّادق بالإسلام حقّ)

١٣٧٧هـ

* * *

(انتهى الجزء الثالث بحمده تعالى)

الإمـام الصـادق

و

المذاهب الأربعة

الجزء الرابع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا
وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ
ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ
حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ
صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

[صدق الله العلي العظيم]

تقديم وبيان

بسم الله الرحمن الرحيم

نوعية البحث:

يتضمن هذا الجزء، وهو الجزء الرابع من كتابنا الإمام الصّادق والمذاهب الأربعة، لمحة موجزة عن حياة الإمام الصّادق، ونبذاً من تعاليمه، وأخلاقه، وآدابه، ثم تاريخ حياة الإمام أحمد بن حنبل. وقد اقتصرت على ذكر نسبه وشيوخه، وأهم حوادث عصره: كمشكلة خلق القرآن وغيرها. وهذه الحادثة هي من أهم الحوادث التي أثارت صراعاً فكرياً، وجدلاً بين المسلمين أعقبه عداء بين الطوائف، ذهب ضحيته خلق كثير. وقد اكتفيت بالإشارة إليها في موجز من البيان في هذا الجزء. لكثرة ما كتب فيها وما ذكر عنها، لأنها كانت العامل الوحيد في شهرة أحمد وطلوع نجمه، وسنبحثها في الجزء السابع في جملة الأسباب والعوامل التي أثرت في المجتمع الإسلامي.

كما أني أشرت إلى أعيان مذهبه وناشريه، وحملة فقهه والمؤلفين فيه. ولم أهمل ذكر بعض القضايا الهامة التي تعطينا صورة لها علاقة بموضوع البحث عن الإمام أحمد ومذهبه، كما أهملت الكثير من القضايا التي نقلت عنه من مناقب ومآثر، وأشياء لا تصلح أن تكون تاريخاً نستمد منه معلومات خليقة بأن تكشف لنا عن نواحي شخصيته، لأننا نحاول أن نتعرّف عليه عن طريق الواقع، ومن ضوء الحوادث التأريخية التي لا صلة لها بالمؤثرات التقليدية والمنازعات الطائفية.

منهج البحث:

وقد نهجت في هذا الجزء ما نهجته في الأجزاء السابقة من الابتداء بذكر الإمام الصّادق، ثم ذكر واحد من أئمة المذاهب الأربعة.

فذكرت الإمام أبي حنيفة في الأول، ومالكاً في الثاني، والشافعي في الثالث، وأحمد بن حنبل في هذا الجزء.

وخصّصت الجزء الخامس لأهم المسائل الفقهية المتفق عليها، والمختلف فيها من المذاهب الأربعة، ومذهب الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام مع استدراك ما فاتنا بيانه في تلك الأجزاء المتقدمة عليه.

وقد نبهت بأن ترتيب ذكرهم بهذه الصورة إنما هو حسب الرتبة الزمنية لا الرتبة العلمية. فإن الحكم لواحد من الأربعة بالأعلمية هو من الصعوبة بمكان، لوجود الخلاف والاختلاف، فأتباع كل إمام يدّعون أن إمامهم هو الأعلم والأولى بالاتباع دون غيره، مستدلّين بالنقل والاعتبار. وساق كل فريق ـ عدا الحنابلة ـ أحاديث عن النبي جعلوها دليلاً على لزوم اتباع ذلك الإمام ومبشّرة به تصريحاً أو تلميحاً.

فالحنفية يروون في كتب مناقبهم أحاديث: يكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتي. وفي لفظ آخر: يكون في أمّتي رجل اسمه النعمان وكنيته أبو حنيفة. وفي لفظ ثالث: اسمه النعمان بن ثابت.

ونحن لا نقف هنا مع هذه المرويات موقف تمحيص وتدقيق بعد أن وقفنا معها في الجزء الأول، فأوضحنا هناك للقارىء نصيبها من الصحة. ولم نحجم عن التصريح بأنها مكذوبة وأنها من وضع رجال أجمع علماء الرجال على تجردهم من الصدق، كما نصّ الكثيرون من علماء الحنفية على كذب هذه الادعاءات ونفوها نفياً باتاً.

وادّعت المالكية انطباق حديث: يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة.

وقد أطال القاضي عياض في (ترتيب المدارك) القول في الحديث وروايته ورواته بانطباقه على مالك دون غيره، وأن السّلف فهموا ذلك. وعدّ هذا من معجزات النبي ﷺ وإخباره بالمغيبات.

وقد أصبح عند المالكية من المسلّمات، وأكثر حفّاظ الحديث قالوا: إن هذا الحديث من اختصاص المالكية دون غيرهم، ومنهم من وهّنه مرة، ونفى انطباقه على مالك مرة أخرى. لوجود علماء في عصر مالك كانت المدينة تزخر بهم، وهم أعلم منه بل هم أساتذته: كسعيد بن المسيب، وعبد العزيز العمري، ومحمّد بن مسلم

الزهري، وربيعة الرأي وغيرهم من شيوخ مالك الذين هم أعلم منه وأرقى درجة في الفقه، ولو سمحت الظروف القاسية للحقيقة الصامتة أن تنطق بالحق وتفوه بالواقع لما تخطت الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام الذي هو أستاذ مالك ومن شهد له مالك نفسه: بأن عينه ما رأت أعلم ولا أتقى من جعفر بن محمّد الصّادق.

وأما الشّافعية فدليلهم في النقل هو دعوى انطباق حديث عالم قريش: يملأ الأرض علماً. على الشّافعي وما ذلك إلاّ تخمينات مبهمة وفرضيات عقيمة، وقد تعرضنا له في الجزء الثالث في حديثنا عن الشّافعي.

أما الحنابلة فقد أهملوا طريق النقل وتمسكوا بالاعتبار، فلم يدّعوا وجود حديث في إمامهم يبشر به ويفيض على شخصيته قدسية تؤهله لأن يتفرد بالعلم ولزوم الاتباع، ولكنهم اعتمدوا على مبشرات الأحلام، فجعلوها محل اعتماد ومن المرجحات للمذهب، وأنها بمنزلة اليقظة فيقولون: إن ما قاله رسول الله ﷺ في نوم أو يقظة فهو حق، وقد ندب ﷺ إلى الاقتداء به - أي بأحمد - فلزمنا جميعاً امتثاله[1]. يشيرون بذلك إلى منامات يدّعى فيها أن سائلاً سأل رسول الله ﷺ في النوم: من تركت لنا في عصرنا هذا من أمتك نقتدي به يا رسول الله؟ فقال: عليك بأحمد بن حنبل. وبهذا استوت كفتا الميزان في طريق النقل كاستوائهما بين جميع المذاهب في طريق النقل والاعتبار. فإنّهم جميعاً قد عقدوا فصولاً مطولة في الأحلام لإثبات فضائل أئمتهم، وجعلوها مصدراً من مصادر تاريخ حياتهم، وميزاناً من موازين عظمة شخصيتهم وطريقاً لإثبات مفاخرهم.

كما أننا نلمح في مناقب الكثير منهم اشتراكاً في المفاخر التي أثبتوها، وأن طابعها واحد لا يتغيّر وإن تغيّر الزمن، وقد تجنّبنا الخوض في ذلك وذكر الكلام حولها، إلاّ ما يتعلّق به غرض من أطراف البحث.

وكثرت المنامات في فضل أحمد حتى كان لها الأثر في الأدب الحنبلي، فنظم الشعراء ذلك، يقول أبو الخطاب المتوفى سنة ٤٧٦هـ:

وعن مذهبي إن تسألوا فابن حنبل ... بـه أقـتـدي مـا دمـت حـيـاً أمـتـع
وذاك لأنـي فـي الـمـنـام رأيـتـه ... يروح ويغدو في الجنان ويرتع[2]

(١) ذيل طبقات الحنابلة ج١ ص١٣٧. (٢) طبقات الحنابلة ج١ ص٤٠٧.

فهذا الرجل قد جعل المرجح لمذهب أحمد والدليل على لزوم اتباعه هو حلم رآه، وهو: أنه رأى أحمد في الجنة. ومثل هذا كثير ستقف على البعض منه في ترجمة أحمد.

وعلى أي حال فإنا نقرأ في تأريخ حياة أولئك الأئمة صفحات غامضة، وألغازاً معقدة، وزوائداً تتضمن غلواً في المدح، وتجاوزاً في الإطراء، ومناقب حافلة بالغرائب والعجائب، يقف الباحث حيالها مدهوشاً، ولكنه بعد أن يتوصّل إلى معرفة الأسباب التي أوجدت تلك الأوهام، وسبّبت ذلك الغموض تتضح له الحقيقة التي تبطل الأوهام.

ولقد نهجنا في بحثنا عن أئمة المذاهب نهجاً وسطاً، فلم نندفع مع المتعصبين لهم فنستوحي معلوماتنا عنهم بما لا صلة له بالواقع، ولا يكشف عن طابعهم الذي طبعوا عليه، ونهجهم الذي ساروا به، كما أننا لم نتنكر للحقائق شأن المتعصبين عليهم في سلوك طرق ملتوية فراراً من الحقيقة وابتعاداً عن الواقع، فإن كلاً من هذا وذاك لا يكشف لنا عن الحقيقة التي نحاول الوقوف عليها في دراستنا هذه.

وقد التزمنا بأمانة النقل للحوادث التي أثرت في نتائج المقارنة والموازنة بينهم، فإنا لم نته بعد من إجراء تلك العملية، ولا يمكن لنا ذلك إلاّ بعد التدقيق والتمحيص.

وإني بهذا العرض التأريخي الموجز آمل من ورائه أن أقف على مقدمات صحيحة النتائج.

التعصّب للمذاهب:

وكما قلت إن مشكلة التعصّب للمذاهب هي من أعظم المشاكل التي حلّت في المجتمع الإسلامي فقد أدّت إلى تفرّق وتباعد في صفوف المسلمين، بانتشار العداء بين الطوائف، وإثارة القلق من جراء الخلافات التي كوّنتها تلك الظروف القاسية، عندما أصبح للآراء والأفكار عصبية تشبه العصبية الجاهلية، وكل يحسب أن مذهبه هو الإسلام، وأن ما عداه انحراف لا يؤخذ به، وضلال لا يلتفت إليه، وقد نهجوا نهجاً أبعدهم عن روح الإسلام، حتى بالغ بعضهم في طعنه لمن خالف مذهبه، كقول بعض الحنابلة: من لم يكن حنبلياً ليس بمسلم. وقول الآخر: لو كان لي من الأمر شيء لأخذت من الشافعية الجزية. ويقول آخر: لو كان لي من الأمر شيء لوضعت على الحنابلة الجزية. وكل هذه الأمور ترجع إلى عوامل سياسية، تحاول تفريق الصف

وجعل المسلمين فرقاً وأحزاباً، يشتم بعضهم بعضاً، وقد تحكم التعصّب الطائفي فألقى على العيون غشاوة التمويه والخداع. وبهذا فقد توالت الحوادث وتعددت الفتن. حتى أدّى ذلك التعصّب أن يجهل بعض الخطباء واجبهم الملقى على عواتقهم: من الدعوة إلى الإصلاح، والألفة والمحبة، واجتثاث جذور العداء والتشاحن. عندما سلكوا طريق الفرقة ونشر الشغب وبث روح العداء. بقيامهم على المنابر يلعنون من خالفهم في مذهبهم، مما أثر في نفوس العامة تأثيراً دفعهم إلى النهب والتخريب، وحرق المساجد والأسواق، كما حدث في كثير من البلدان الإسلامية في سنة ٥٥٤هـ وغيرها ومما عظمت به المصيبة وعرّض المجتمع إلى خطر ماحق، لأن صفة الخطباء محلها العلماء والأخيار الذين ينظر إليهم المجتمع باحترام وتجلّة، وعليهم أن يرعَوا رسالتهم الدينية لا أن ينحرفوا هذا الانحراف، وقد أشرنا لذلك بإلمامة موجزة في أبحاثنا السابقة.

إن هذه الأمور المؤلمة هي التي فتحت باب التدخل لأعداء الإسلام في صفوف الأمة ليحاولوا القضاء عليه والوقيعة بأهله. ويمزيد الأسف أننا نتوارث ذلك الخلاف الذي أوجد الانقسام بيننا، والفرقة في صفوفنا، فأفقدنا تلك القوة وسلبنا ذلك السلطان الذي انتشر في أرجاء المعمورة، عندما خفق علم التوحيد فحطّم هياكل الشرك ومعابد الوثنية، ونشر العدل على وجه البسيطة، وانبثق نور المحمدية يبدد سحب الظلام. وينير للإنسانية طريقها. فأشرق وسط حلك الدياجير المظلمة يزيح حواجز الطريق التي تعترض سير قافلة الإنسانية الصاعد، رامياً إيصالها إلى ربوع الخير وشاطىء النجاة، ليمرح المسلمون بذلك النعيم، فترفرف السعادة بدنياهم ويعم الرفاه في أرضهم. والمسلمون وسط هذا الرخاء صفاً متماسكاً.

فهل ندرك أثر ذلك الاختلاف؟ وهل يمكننا أن نعمل لإزالة ما خلّفه من أثر سيىء في المجتمع الإسلامي؟ فلنطوِ صفحات ذلك التاريخ الأسود، ونتمسّك بتعاليم ديننا، ونسير على منهاجه، تاركين وراءنا خرافات سلف مخدوع وجيل طائش وترسبات طائفية قذرة.

ولا بد أن تعلو كلمة الله ويظهر دين الإسلام على الدين كله ولو كره المشركون. بهذا وعدنا الله، وإن الله لا يخلف الميعاد.

التحامل على مذهب أهل البيت:

ولقد ذكرت في مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب، أن أهم الأسباب التي دعت إلى تأليفه، وتحمّل عناء البحث ومشقة التنقيب عن المذاهب. هو: تطرّف البعض بل تعصّبه على مذهب أهل البيت، فوصفهم بالشذوذ ومذهبهم بالبدعة. وهذا أمر لا مبرّر له ولا يذهب إليه عاقل. ولكن مؤثّرات التعصّب وعوامل السياسة العمياء قد وجهت الواقع إلى الوجهة المعاكسة، ودفعت المخدوعين وذوي الأطماع لمعاداة أهل البيت، ورمي أتباعهم بكل ما يروق لهم أن يتقولوه.

قال الرياشي: سمعت محمّد بن عبد الحميد قال: قلت لابن أبي حفصة ما أغراك ببني علي؟

قال: ما أحد أحب إليّ منهم، ولكن لم أجد شيئاً أنفع عند القوم منه: أي من بغضهم والتحامل عليهم[1].

كان ابن أبي حفصة يتحامل على آل علي ويكثر هجاءهم طمعاً بجوائز العباسيين، لأنّهم شجعوا الناس على التحامل والبغض لأهل البيت، وقد أنشد ابن أبي حفصة قصيدة أمام المهدي يتعرّض فيها لآل علي، فتزاحف المهدي من صدر مصلاه حتى صار على البساط، إعجاباً بما سمع، وقال له: كم بيتاً هي؟

قال: مائة بيت. فأمر له بمائة ألف درهم.

وهذا النهج الذي سار بنو العباس عليه كان بنو أمية ينتهجونه، وهو إثارة الشعور ضد آل علي، ومعاقبة المعروفين بالولاء لهم، ولو كان أقرب الناس إليهم.

يقول العبلي:

شرّدوا بي عند امتداحي علياً ... ورأوا ذاك فيّ داءً دويا
فوربي لا أبرح الدهر حتى ... تختلي مهجتي بحبي عليا
وبنيه لحب أحمد إني ... كنت أحببتهم لحب النبيا
حب دين لا حب دنيا وشرّ الـ ... ـحب حب يكون دنياويا
صاغني الله في الذؤابة منهم ... لا ذميماً ولا سنيداً دعيّا

وهذا الشاعر هو من بني أمية، ولكنه كان يحب أهل البيت، فشرّدوه وطاردوه، ونفوه من البلاد.

---

(١) عقد الفريد ج٣ ص٢٨٧.

وما أكثر الشواهد التي احتفظ بها التاريخ من تلك الأساليب التي استعملها حكام تلك العصور. لتوجيه الناس في طريق رغباتهم، وإثارة الشعور ضد أهل البيت عليهم السلام ونصب العداء لهم.

ولم يكن من الصعب على قوة الحكم وشدة الدعاية، أن تزرع بذور العداء وتنشر الكراهة لأهل البيت، ووصف أتباعهم بما يخالف الحقيقة والواقع.

فليس من الغريب إذا تجنى ذوو الأطماع والسائرين في ركاب الدولة أن يوصف مذهب أهل البيت بالبدعة.

وليس من الغريب أن يجعل التشيع عنوان الزندقة والشذوذ عن الدين، لأن الحقد لهم قام في نفوس الكثيرين وانتشر بطريقة لا شعورية، وقد صوّروا التشيع بصورة لا تقع العين منه إلاّ على منظر يثير الحقد والكراهة، عندما شوهته الدعاية الكاذبة، وأسدلت على محاسن هذا المبدأ أبراداً من نسيج الخيال، وفسّروا تاريخ الشيعة بتفسير خاطىء لا يتصل بالحقيقة.

إنهم فسّروا حب الشيعة لأهل البيت اعتقاداً بالتأليه، وأقاموا على ذلك شواهد من الأساطير المضحكة، كأسطورة ابن سبأ[(١)]، وأضافوا إليها قضايا المتدخلين في صفوف المسلمين من أعداء الدين، ليثيروا بينهم العداء، ولم يهتموا بالخطر الذي ينجم من وراء ذلك. لأن حكام ذلك العصر لا يهمهم شيء سوى نشر سلطانهم بكل وسيلة.

كما إنهم فسّروا اعتماد الشيعة على أحاديث أهل البيت وأخذ الأحكام عنهم: بأن الشيعة تدّعي نزول الوحي عليهم. وأقاموا شواهد وادعاءات باطلة، إلى غير ذلك من الأمور التي أخذها الكتّاب المعاندون، أو المقلّدون الذين يسيرون في طريق وعر يتعثّرون بالأوهام، فكتبوا بما شاءت الدعاية، لا بما شاء الحق والواقع.

---

(١) لقد ظهرت مسرحية عبد الله بن سبأ على مسرح الأوهام؛ لينظر إليها ضعفاء النفوس كأنها حقيقة لا تقبل النقاش، وما هي إلاّ من مهازل التاريخ، وعجائب الزمن، وخرافة يكذبها الوجدان، ويندى منها جبين الإنسانية.

إنها أسطورة مضحكة رتبتها أقلام مأجورة، وأخرجها إلى الوجود أبطال فتنة ودعاة شغب، ولقد تصدى الأستاذ الكبير السيد مرتضى العسكري لكشف حقيقة عبد الله بن سبأ، فألّف كتاباً قيماً صدر إلى الوجود منه جزء واحد، وهو يواصل نشر ما تبقى من بحثه القيّم.

نعم ليس من الغريب أن نقف على آلاف الغرائب، ولكن الغريب تجاهل أسباب وجودها، وبواعث انتشارها، على أيدي فئة مخربة عابثة.

إن تلك الأيدي قد رسمت للشيعة صورة مشوهة، ووصفوهم بصفات بعيدة عن الواقع، وما ذلك إلاّ خضوعاً للعاطفة وطمعاً لما في أيدي خصوم الشيعة من الحكام. وإني أبقى على منهجي في شجب هذه الفرقة والدعوة إلى تحكيم العقل والتنزّه عن الاستسلام والخضوع لتلك الأسباب التي باد دعاتها من الحكّام الذين انحرفوا بالخلافة واتخذوها ستاراً لمصالحهم وأغراضهم، وظهر اليوم حكام لكل منّا عندهم نصيب من الظلم والاضطهاد دون تمييز، فقد استخذى منهم من استخذى للقوى المعادية للإسلام، وقد استكبر منهم من استكبر، فبات فرعون هذا العصر. ولنْ تهدأ مني صرخة الاستنكار أو لهجة النقمة على كل من أيّد وأسهم على مدى تأريخنا ودعم الحكام في سياساتهم الرامية إلى تمزيق وحدة الصف وزرع الفتنة. كما أني آمل أن تتعدد البحوث وتكثر الكتابات التي تدعو إلى النزول عند حكم العقل والتزام المنطق في معرفة أسباب العداء المتأصّل في نفوس العتاة والجبارين لأهل البيت وشيعتهم، ومن يقبل من أبناء عصرنا أن يكون تبعاً لهم في المنهج؛ فقد خان الأمانة الملقاة على عاتقه. ويكفي طرح هذا التساؤل كل مرة ليكون الجواب مقنعاً.

البحث والزوائد:

وبدراستي هذه عن المذاهب أخذت نفسي بالابتعاد عن الزوائد قدر الإمكان، فلا أتعرّض إلاّ لما فيه صلة بالبحث، وعلاقة بالموضوع، كما أهملت جانب الهزل والمجون، الحاصل من جراء التعصّب المذهبي، فهناك أشعار كثيرة، وقضايا متعددة، ولذلك أشرت لصلاة القفال[1] إشارة عابرة في الجزء الأول التي ذكرها بعض المؤرخين، وأنّها هي صلاة أبي حنيفة بالصورة الصحيحة، كما تركت استقصاء أقوال الناقمين عليه، والناقدين له، وقد ذكرها الخطيب البغدادي وغيره.

وإني لم أستوف تاريخ حياة الإمام الصّادق عليه السلام ولم أتعرّض لترجمة الآباء

(١) لم أذكر هذه القضية بالتفصيل لما فيها من الأمور المخالفة للإسلام، وقد ذكرها ابن خلكان، وهو شافعي المذهب، ويقصد بذكرها الطعن على الحنفية في تجوزهم السجود على العذرة، والصلاة بجلد كلب وغير ذلك. كما نقلها كثير من المؤرخين.

والأجداد والأبناء والأحفاد، لأن ذلك يستدعي تعدد أجزاء هذا الكتاب زيادة على ما أعددناه[١]، وقد أفردت مجلداً ضخماً يتضمن ذلك تحت عنوان (حياة الإمام جعفر بن محمّد) وقد قضيت فيه وقتاً من الزّمن، فكان هو أحد الأسباب التي أدّت أن تطول الفترة بين صدور هذا الجزء وسابقه.

وكذلك لم أستوف جميع حكمياته ومواعظه، لأني قد جمعتها في جزئين على حدة تحت عنوان «الأسس التربوية» لتكون في متناول الجميع وسأنشر منها فصولاً في هذا الجزء، لأني لا أحب خلوه من تلك المآثر العظيمة، والفِكر الخوالد، ولا أقول بأني قد أحطت بجميع تراثه الفكري، فقد تعمدت ترك الكثير منه اختصاراً، وقد بقي الشيء الكثير مبعثراً في بطون الكتب هنا وهناك، ومن الله نسأل أن يهيىء لهذه الآثار القيمة من يجهد نفسه في جمعها من مظانها، ويتناولها بالشرح اللائق بها، والكاشف عن حقائقها، فإن في ذلك أكبر خدمة للأمة، وإحياء أعظم أثر من تراثها الفكري.

وإذا أمدنا الله بمعونته، ووفّقنا بعنايته، ووهب لنا فسحة من الأمل، وتأخيراً في الأجل، فسنقوم بهذه الخدمة، ونحقّق ما نطلب تحقيقه. ومن الله نطلب القوة، وبه نستعين وبيده التيسير.

كما نسأله تعالى أن يجمع كلمة المسلمين ويوفقهم لاتباع أوامره، وأن يهب لهم اليقظة والحذر مما يدبره لهم أعداء الدين، لإيجاد المشاكل والاختلاف فيما بينهم، واتساع الثغرة التي ينفذون منها إلى مآربهم الخبيثة، وغاياتهم الدنيئة، إذ لا أمل لهم بذلك مع جمع الكلمة ووحدة الصف.

فلنطوِ صحائف التاريخ الأسود، وننسى مآسي الماضي، ونزيل من نفوسنا آثار التعصب الطائفي، وترك الخصومة في الدّين فإننا أمام خصوم قد تفاقم خطرهم، واستفحل أمرهم.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

---

(١) أدخلنا في الجزء الثامن نبذاً قصيرة من تراجم أبناء الإمام عليه السلام لم نتوسع فيها كما يجب لأن الغرض من ذكرهم في سياق البحث وتسلسل الكتاب هو الإشارة إليهم والتنويه بمكانتهم.

الإمَام الصَّادق
لمَحَات مِنْ تاريخ حيَاتِهِ

بعد ثلاثة أجزاء مضت من كتابنا «الإمام الصَّادق والمذاهب الأربعة» وقد تضمن كل جزء جانباً من حياة الإمام الصَّادق، ونحن لم نوف شخصية الإمام حقها في أي جانب تناولناه، وهنا نحاول أن نستعرض بعجالة كيفية تميّز الإمام الصَّادق بهذه الشخصية العظيمة. وبكل اطمئنان فإن التاريخ احتفظ بصورته مجردة من آثار السلطان ونتائج سياسات الحكام، فلم تنجح تلك الحملات في دفع الناس عن أهل البيت وعميدهم، وفشلت في الإساءة إليه. وإن رجلاً يعاصر تلك المرحلة وعهودها وأحداثها السياسية وقد تباينت فيها واتّسعت واختلفت المجريات والنتائج، ويخرج منها بمبادئه نقية وبأهدافه نزيهة لهو من أعظم الرجال الذين يعجز القلم عن إيفائه حقّه من البيان والتقدير.

وببساطة، فإن صورة الحال أنه كان مع أبيه الباقر عليه السلام غاية بني أمية، ثم هدم الله ملكهم وثل عرشهم. وبدأت فترة اتجهت فيها الأنظار إليه، فاجتازها، فهو يعلم ماذا ستسفر عنه الأحداث وكيف ستكون السلطة، إذ علم من بني العباس ما جهله غيره، ولما قام حكمهم واستقر، لقي منهم بلاءً ومحناً حتى كتب الله له النجاة وحفظه. فهو ما بين حماية نفسه وأصحابه وبين رسالته الدينية وواجبه تجاه مجتمعه وأبناء دينه يشيد صرحاً دينياً وثقافياً خالداً ويشق طريقه بما يشق على غيره ويعجزه، لكنها خصائص أهل البيت سلام الله عليهم، فكم لأبي عبد الله الصَّادق من أعداء؟ وكم جَهد الحكام في الإساءة إليه وإلى أهله وشيعته؟ ولكن تلك الإساءات وذلك العداء فشلت جميعها، واحتفظ التاريخ بصورة متألقة لشخصية الإمام الصَّادق هي مصداق الأعلمية والأفضلية.

ولادته:

الإمام أبو عبد اللّه جعفر الصّادق، ابن محمّد الباقر، ابن علي زين العابدين، ابن الحسين سبط رسول الله، ابن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

وُلد بالمدينة المنورة يوم الجمعة، أو الاثنين عند طلوع الفجر ١٧ ربيع الأول سنة ٨٣هـ وقيل سنة ٨٠هـ. وقيل غرة رجب أو منتصفه، وقيل يوم الثلاثاء قبل طلوع الفجر غرة شهر رمضان. والمعتمد الأول وهو يوم ١٧ ربيع الأول يوم ولادة جدّه رسول الله ﷺ كما عليه عمل كثير من المسلمين.

وأمه أم فروة، وقيل أم القاسم واسمها قريبة، أو فاطمة بنت القاسم بن محمّد بن أبي بكر الصدّيق. أمّها أسماء بنت عبد الرّحمٰن بن أبي بكر، وكانت أم فروة قد ولدت للإمام الباقر ولدين هما: الإمام الصّادق عليه السلام وعبد اللّه أو عبيد اللّه، وقد قال الإمام الصّادق فيها: «إنها ممن آمنت واتّقت وأحسنت، والله يحب المحسنين».

وقد روت عن الإمام الباقر أحاديث كثيرة، وكانت لها مكانة علمية، وقد استقت العلم من ينبوع الوحي، ومعدن الرسالة، ومما يدلّنا على مكانتها العلمية، ما رواه عبد الأعلى قال: رأيت أم فروة تطوف بالكعبة عليها كساء متنكرة، فاستلمت الحجر بيدها اليسرى، فقال لها رجل ممن يطوفون: يا أمة الله أخطأت السنّة. فقالت: إنا لأغنياء عن علمك.

وكان أبوها القاسم بن محمّد بن أبي بكر من أعلام الأمة وكبار المحدّثين عن أهل البيت، وروى عن عمته عائشة وكثير من الصحابة، وكان من الفقهاء السبعة ومن رواة الحديث، وقد روى حديثه أصحاب الصحاح الستّة.

وقد استوفينا ترجمة أم فروة وأبيها القاسم وأبيه محمّد، في كتابنا الذي أفردناه في ترجمة الإمام جعفر بن محمّد الصّادق، ولذلك اكتفينا بهذه الإشارة الموجزة.

نشأته:

نشأ أبو عبد اللّه عليه السلام بالمدينة المنورة، وقد تولى جدّه الإمام زين العابدين تربيته في عهد طفولته، ودرج تحت كنفه ورعايته، وكان هو معلمه الأول.

قضى مع جده زين العابدين ما يقارب ١٨ سنة من عمره، وبعد وفاة جدّه سنة

٩٤هـ تولى أبوه الباقر تربيته، واستقل بتعليمه، وكان الإمام الصّادق مقدماً عند أبيه وملازماً له في حلّه وترحاله، ودخل معه الشام ومكة المكرّمة، وقد شاهد هناك ازدحام الفقهاء من مختلف الأقطار على أبيه الباقر لاستماع حديثه والسؤال منه، وكانت حلقة درسة تعقد بالمسجد، فتكون هي الحلقة الوحيدة لطلاّب العلم، ورجال الفكر، ورواة الحديث، فلا تعقد حلقة هناك إلاّ بعد انتهاء الإمام الباقر من إلقاء دروسه.

وكان الإمام الصّادق في طليعة تلامذة أبيه في مدرسته بالمدينة، وهي تضم عدداً وافراً من أعلام عصره: كعمر بن دينار الجمحي، وعبد الرّحمٰن الأوزاعي، وابن جريج، ومحمّد بن المنكدر، ويحيى بن كثير وغيرهم من رجال الحديث، وهم يسألونه عن أهم المسائل وأعظم المشاكل، ولم يحضر الإمام الصّادق حلقة أحد من فقهاء عصره، فهو غني عن ذلك. وما يدّعى أنه روى عن عروة بن الزبير والزهري وغيرهما فإنه إدعاء فارغ لا يدعمه دليل، لأنه عليه السلام استقى العلم من جده زين العابدين ومن أبيه الإمام محمّد الباقر عليه السلام حتى نشأ تلك النشأة الصالحة، ونال تلك الدرجة السامية، وعظم في أعين كبار الفقهاء، لما تحلى به من الخصال الحميدة، والأخلاق الفاضلة، والإحاطة التامة بشتى العلوم، وظهرت عليه علائم الفضل، وشرف المحتد، وعزة النفس، وصدق اللهجة. قال عمر بن المقدام: إذا نظرت إلى جعفر بن محمّد علمت أنه من سلالة النبيين.

وهكذا بقي مع أبيه عليه السلام بعد جدّه زين العابدين تسع عشرة سنة.

ولما توفي أبوه الباقر سنة ١١٤هـ تفرّد بالزعامة، وقام بأعباء الإمامة، بوصية من أبيه الباقر عليه السلام وكانت مدة إمامته ٣٤ سنة.

معاصرته للحكم الأموي:

أدرك الإمام الصّادق عليه السلام طرفاً كبيراً من العهد الأموي، وعاصر كثيراً من خلفائهم. فقد ولد عليه السلام في عهد عبد الملك بن مروان، وأدرك خلافته ثلاثة سنين أو ستة أي من سنة ٨٠هـ أو ٨٣هـ إلى سنة ٨٦هـ وهي السنة التي توفي فيها عبد الملك بن مروان. ومدة خلافته ثلاث عشرة سنة وأشهر.

ثم ملك الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦هـ وتوفي سنة ٩٦هـ وكانت مدة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر.

ثم ملك أخوه سليمان بن عبد الملك وتوفي سنة ٩٩هـ وكانت مدة خلافته سنتين وثمانية أشهر.

ثم ملك بعده عمر بن عبد العزيز بن مروان المتوفى سنة ١٠١هـ ومدة خلافته سنتين وستة أشهر.

وملك بعده يزيد بن عبد الملك بن مروان المتوفى سنة ١٠٥هـ وكانت مدة خلافته أربع سنين وشهراً.

وملك بعده هشام بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٥هـ وكانت مدة خلافته عشرين سنة إلاّ شهراً.

وملك بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٦هـ ومدة خلافته سنة وثلاثة أشهر.

وملك من بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٦هـ.

وملك بعده أخوه إبراهيم ولم تطل أيامه، وتنازل لمروان الحمار بن محمّد بن مروان بن الحكم سنة ١٢٧هـ وكان مروان آخر خلفاء بني أمية، وقتل سنة ١٣٢هـ. وكانت مدته خمس سنين وعشرة أشهر. ولم تكن مدة خلافة أو سلطان، بل أيام حروب متوالية، وثورات متتابعة، وبموته انتهى العهد الأموي، وانهارت دولتهم، وقامت على أطلالها الدولة العباسية.

كانت هذه المدة التي لا تقل عن ثمانية وأربعين سنة قضاها الإمام الصّادق عليه السلام في عهد الحكم الأموي، مليئة بأحداث تبعث آلاماً تنكد عليه عيشه، لما فيها من المحن وويلاتها.

إنه عليه السلام كان يرى المضطهدين من خيار الأمّة وصلحائها، تملأ بهم السجون، ويساقون إلى الموت زرافات ووحداناً، كما يرى بين آونة وأخرى رجال الطالبيين وأعيانهم مطاردين ومشردين، يلاقون حتفهم شهيداً بعد شهيد، فكانت مقاتلهم مآسي التاريخ الدامية، وكان كل من ملك الأمر من أولئك الحكام يراقب حركاتهم بعين ساهرة، وأذن سامعة، فإذا ضاقت عليهم الأرض وأنفوا الذل خرجوا بالسّيف، وهم يأملون مناصرة الأمّة ومؤازرتها، ولكن لم تسعد الأمّة بذلك، فكانت الشهادة وسامهم، والقتل نهايتهم.

لقد عاصر الإمام الصّادق عليه السلام ملوكاً استفحل ضررهم على جميع الطبقات، وقد انحطوا إلى مهاوي الرذيلة، فارتكبوا المنكرات التي يندى منها الجبين، ويتصدع لها قلب ذوي الأنفة والحمية على الدين، وهم يدعون الخلافة للمسلمين ولا يتصفون بأي صفة من صفاتها، فليس منهم أحد إلاّ وهو ظالم في حكم، جائر على الرعية، مستبد بأموال الأمة، ينفقها في شهواته، اللّهمّ إلاّ إذا استثنينا عمر بن عبد العزيز فهو نجيبهم، إذ أظهر الزهد والابتعاد عن الظلم. وبادر إلى محو السنة الأموية، ومنع سب الإمام علي عليه السلام بعد أن أدخل في مناهج التعليم، وأعلنوا به على المنابر، وفي الأندية والمجتمعات، لينشئوا جيلاً قد تركزت فيه فكرة البغض لعلي وأولاده، فكان سب الإمام علي هو علامة الولاء للدولة، والبراءة منه دليلاً على الإخلاص وعدم الخيانة، حتى تركزت في مخيلة كثير من الناس صور معاكسة للحقيقة، ونشأوا على التقليد الأعمى في اتباع ولاة أمورهم، وتصديق ما صدر عنهم.

قال أبو يحيى السكري: دخلت مسجد دمشق فقلت: هذا بلد دخله جماعة من الصحابة. فملت إلى حلقة فيها شيخ جالس. فجلست إليه، فقال له رجل جالس أمامه: من هو علي بن أبي طالب؟ فقال الشيخ: خفاق ـ يعني ضعيفاً ـ كان بالعراق اجتمعت عليه جماعة. فقصد أمير المؤمنين (يعني معاوية) أن يحاربه، فنصره الله عليه.

قال يحيى: فاستعظمت ذلك وقمت، فرأيت في جانب المسجد شيخاً يصلي إلى سارية، وهو حسن السمت والصلاة والهيئة، فقلت له: يا شيخ أنا رجل من أهل العراق، جلست إلى تلك الحلقة، ثم قصصت عليه القصّة.

فقال الشيخ: في هذا المسجد عجائب، بلغني أن بعضهم يطعن على أبي محمّد الحجاج بن يوسف، فعلي بن أبي طالب من هو[1]!؟.

هكذا أثرت قوة الدعاية في مجتمع يتقبل تلك الأباطيل والمفتريات، لضعف الإيمان. وكم للدعاية من أثر في توجيه الناس إلى ما تهدف إليه السياسة، من تحقيق أهداف وبلوغ مآرب، حتى حملوا السّذج على الاعتقاد بكل ما يوحى إليهم، حتى ارتبطت في نفوس بعض الناس ارتباطاً وثيقاً، فهي لا تقبل الرد والمعارضة. أما البعض الآخر فقد خضعوا لتلك الأوهام تحت ضغط الإرهاب وقوة الحكم الغاشم.

---

(١) المدخل إلى مذهب أحمد بن حنبل ص٥ نقلاً عن تاريخ ابن عساكر.

ولولا إسهام علماء القصور وفقهاء الملوك في هذه الحملة لكان أمرها سياسياً يتصل بمصالح السلطة وشؤون الحكم، لكن المؤلم أن الظلمة تحكموا بالناس بوسائل القوة الغاشمة من جهة، وبوسائل الدين من جهة أخرى.

يقول الشعبي: ماذا لقينا من آل علي إن أحببناهم قتلنا، وإن عاديناهم دخلنا النار.

وقد مرّت الإشارة إجمالاً ـ في الأجزاء السابقة ـ إلى تلك الدعايات وأساليبها، ومدى تأثر المجتمع فيها.

وعلى أي حال فإن الإمام الصادق عليه السلام قضى من عمره في الحكم الأموي ما يقارب نصف قرن، وقد شهد انتقال الدولة منهم إلى بني العباس، وشاهد ذلك النشاط السياسي الذي عصف بتلك الدولة فهدم أركانها، ومحاها من صفحة الوجود، كما عصف بأرواح الناس وأموالهم، وقد اتضح لنا رأيه وموقفه وسط ذلك المعترك، وسنرى فيما بعد رأيه في معالجة المشاكل وموقفه في إصلاح الوضع.

وخلاصة القول إن الإمام الصّادق عليه السلام قد شاهد في عصر أولئك الحكام أنواع الظلم وضروب المحن، من سوء السيرة في الأمة، وجور الحكم في الرعية.

وقد تراكمت المصائب على أهل البيت، وتوالت عليهم الحوادث من قتل وتشريد، وفرض مراقبة شديدة، ومنع الأمة من الاتصال بهم، والانتهال من نمير تعاليمهم. وشاهد جده الإمام زين العابدين عليه السلام على فراش الموت، متأثراً من السم الذي دسّه الأمويون له، فقضى نحبه صلوات الله عليه سنة ٩٤هـ.

وكذلك شاهد أباه الإمام الباقر عليه السلام على فراش الموت، ولفظ أنفاسه مسموماً بيد أولئك الطغاة، الذين صعب عليهم انتشار ذكره واتساع آفاق دعوته، ونشاط مدرسته وذلك في سنة ١١٤هـ.

ووافاه نبأ مقتل عمّه زيد بن علي عليه السلام الثائر على الظلم والمنتصر للعدالة الضائعة، في ظل حكم أولئك الطغاة في سنة ١٢٤هـ.

وحينما أخبر الإمام الصّادق عليه السلام عن مقتله وما جرى عليه، بكى بكاء شديداً، وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، عند الله أحتسب عمّي» ثم قال: «مضى والله شهيداً، كشهداء استشهدوا مع رسول الله وعلي والحسين».

وقال عليه السلام: «فلعن الله قاتله وخاذله، وإلى الله أشكو ما نزل بأهل بيت نبيه بعد موته، ونستعين الله على عدونا وهو المستعان».

ولم تمض على قتل زيد بن علي مدة من الزمن حتى وافته الأنباء بقتل ابن عمه يحيى بالجوزجان سنة ١٢٦هـ وصلب على باب المدينة، إلى أن ظهر أبو مسلم الخراساني فأنزله ودفنه.

وهكذا كان في كل آونة يقرع سمعه نبأ مفجع في أهل بيته وشيعته، فقد ملأوا بهم السجون، وصبغوا من دمائهم الأرض، واهتزت بأجسادهم المشانق. وقد تلقى تلك الفجائع بصبر وثبات، وعزيمة صادقة..

ولا يغيب عن الأذهان عظيم استياء الإمام ومحنته من جراء الانحراف العقائدي والسياسي، وبعد الأمة الإسلامية عن واقع الدين، وابتعادهم من الناحية العملية عن الإسلام، وهو المسؤول الأول عن التوجيه، وهداية الأمة.

وماذا يصنع وهو المحاط برقابة شديدة، والدولة لا تنفك عن مقابلته بالشدة، ومحاولة الفتك به بين آونة وأخرى. وقد نظر عليه السلام إلى واقع الأمر نظرة دقيقة، وسار على خطة محكمة وطريق سويّ في معالجة الأوضاع، وإصلاح المجتمع.

أما بقية حياته التي قضاها في العهد العباسي، وهي من سنة ١٣٢هـ إلى سنة ١٤٨هـ وهي سنة وفاته، وتكاد هذه المدة أن تكون في بدايتها خير عهد يشهده الإمام من حيث الحرية الكاملة، ورفع الرقابة المشدّدة، ولكن لم يطل الزمن حتى اشتد المنصور في معاملته، وعامله بقسوة لا مزيد عليها، حتى اغتاله بالسم في الخامس والعشرين من شهر شوال سنة ١٤٨هـ.

وخلاصة القول: إن الإمام عاش هذه المدة وسط معترك سياسي وفكري، وقد قام بواجبه الإصلاحي، ووجه الأمة إلى ما فيه سعادتها، ولم يخضع لتلك السلطات فيترك عمله، أو يتخلى عن المسؤولية في أداء الرسالة، فلم يتزلف لملوك عصره فيسايرهم، أو يبرّر أعمالهم، بل كان دائماً يسلك منهج آبائه في محاربة الظالمين، مظهراً سخطه عليهم، معلناً غضبه على أعمالهم، داعياً لمقاطعتهم، وكانت عليه من الله جنة واقية، فهو متسلح بإيمانه بالله، متحمّل الأذى في سبيل الدعوة إلى الله.

ولا بد لنا هنا ـ إتماماً للبحث عن حياته ـ من ذكر شيء من سيرته وبعض تعاليمه التي تتجلى فيها روح الصّلاح، وهو يضع في كل منها حجراً لأعظم الأُسس التربوية.

الإمام الصَّادق
قبس مِنْ سيرتِهِ وَتعَاليمه

تمهيد:

لقد كان الإمام الصّادق عليه السلام مثالاً كاملاً لدعاة الإصلاح، وعلماً من أعلام الصلاح، يأمر بالأخلاق الفاضلة والسجايا الحميدة، واكتساب الفضائل، والابتعاد عن الرذائل، لا يدخر النصح عن أحد.

كان يدعو الناس بلين ورفق، ويجادلهم بالتي هي أحسن، ولا يتشدّد على الشاك في الدّين، بل كان يوضح له ما أشكل، ويبيّن له ما أبهم، حتى يظهر له الحق ويجلو له السبيل.

وفي خضم عداوة الحكام لأهل البيت، وموجات الإرهاب التي يتعرّض لها الشيعة من قبل أصحاب السلطان وأذنابهم، كان الإمام عليه السلام حريصاً على إبعاد المؤمنين عن مواقع سيوف الظلمة، وكان من نتائج انحراف الحكام عن الدِّين وبعدهم عن روح الإسلام أن يصرّح في المجتمع بالنصب والعداء لأهل البيت، فسئل الإمام عن رجل سبّابة للإمام علي عليه السلام فقال عليه السلام: «حلال الدم واللّهِ، لولا أن تعمّ به بريئاً». قال السائل: لأي شيء يعم به بريئاً؟ قال: «يقتل مؤمن بكافر».

وسئل عليه السلام في قتل الناصبي؟ فقال: «حلال الدم، ولكني أتقي عليك، فإن قدرت أن تقلب عليه حائطاً أو تغرقه في ماء لكي لا يشهد به عليك فافعل».

وكان يتشدد على أصحابه المتشددين في معاملة المنحرفين عن الحق، ويأمرهم بأن يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويقول لهم: «لأحملن ذنوب سفهائكم على علمائكم، ما يمنعكم إذا بلغكم عن الرجل منكم ما تكرهون، وما يدخل به الأذى علينا، أن تأتوه فتؤنبوه وتعذلوه وتقولوا له قولاً بليغاً».

فقال له بعض أصحابه: إذاً لا يقبلون منا.

قال: «اهجروهم واجتنبوا مجالسهم».

فهو يوجب على العالِم أن لا يتخلى عن تعليم الجاهل الذي يتردّى بجهالته، فيرتكب ما يخالف الدِّين، ويدخل به الأذى على دعاة الإصلاح وحماة المسلمين، ولا يصح لهم هجره إلاّ بعد اليأس من إصلاحه، وإزالة الغشاوة التي أعمت بصره، ففي هذه الحالة تكون مواصلته تشجيعاً، ومجالسته إغراء.

وكان عليه السلام يبذل جهده في توجيه الناس وتقويم أخلاقهم، وإصلاح شؤونهم ما استطاع، ويريد منهم أن يلتزموا الجوهر ويتركوا العرض، ويأمرهم بالعمل، ويدعو ذوي اليسر إلى الإنفاق على ذوي العسرة، وأن يوسعوا على المضيق منهم حتى يمنعوهم من ذلّ السؤال، وكان ينفق حتى لا يبقي شيئاً لعياله[1] كما يحدّث عنه الهياج بن بسطام.

يقول شعيب بن ميثم: قال لي الصّادق: «يا شعيب أحسن إلى نفسك وصل قرابتك، وتعاهد إخوانك، ولا تستبد بالشيء فتقول: ذا لنفسي وعيالي، إن الذي خلقهم هو يرزقهم».

إلى غير ذلك من أقواله وأفعاله، التي كان يبعث فيها الشعور لسامعيه على لزوم التخلّق بالسجايا الحسنة اقتداءً به، لأنه عليه السلام كان حريصاً على توجيه المجتمع، والتحلّي بآداب الإسلام، فهو يدعو الأغنياء لمواساة الفقراء والإحسان إليهم، لنزول عوامل العداء والحسد والبغضاء، ويكون الجميع إخوة، كل يحب الخير لأخيه، فلا أثرة ولا بخل، ولا إهانة بعض لبعض، ولا خصومة ولا مشاحنة، إلى غير ذلك مما دعا الإسلام كل مسلم أن يتصف به.

ولحرصه عليه السلام على تأليف القلوب وإزالة الشحناء، وإطفاء نار العداوة والبغضاء، كان يدفع إلى بعض أصحابه من ماله ليصلح به بين المتخاصمين على شيء من حطام الدنيا تسوية للخلاف، ودفعاً للتقاطع والتهاجر. ومنعاً من الترافع لحكام الجور.

نهيه عن المنازعات وفض الخصومة لدى حكام الجور:

قال أبو حنيفة واسمه سعيد بن بيان: مرّ بنا المفضل بن عمرو أنا وختن لي

(١) القرماني ص١٢٨. وكشف الغمة للاربلي ج١ ص٢٢٣.

نتشاجر في ميراث، فوقف علينا ساعة، ثم قال لنا: تعالوا إلى المنزل. فأتيناه وأصلح بيننا بأربعمائة درهم، فدفعها إلينا حتى إذا استوثق كل واحد منا صاحبه قال المفضل: أما إنها ليست من مالي، ولكن أبا عبد اللّه الصّادق أمرني: إذا تنازع رجلان من أصحابنا أن أصلح بينهما، وأفتديهما من ماله، فهذا مال أبي عبد اللّه الصّادق.

وهكذا يكشف لنا عظيم اهتمامه بجمع الكلمة، وعدم الفرقة أولاً، وإنهاء الخصومات على يد من أقامه من قبله لذلك ثانياً.

لأنه عليه السلام منع عن المرافعة إلى حكام الجور، وأمر بمقاطعتهم. وقد أقام جماعة من كبار أصحابه حكاماً من قبله، ينظرون في الخصومات، ويحكمون بحكم الله عزّ وجل، وقد أمر الإمام الصّادق بالرجوع إليهم، والمرافعة عندهم وقال:

«أيما رجل كانت بينه وبين أخ له مماراة في حق، فدعاه إلى رجل من إخوانكم ليحكم بينه وبينه، فأبى إلاّ أن يرفعه إلى هؤلاء، كان بمنزلة الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾».

وكان يعلن عليه السلام بأن المرافعة إلى أولئك الحكام إثم، وأن حكمهم غيرنافذ، لأن الحكومة للإمام العادل بالحكم، العالِم بالقضاء، كنبي أو وصي نبي؛ وهو عليه السلام أحق بالحكم، وأمر بالرجوع لمن جعله من قبله للحكم بين المتنازعين.

وقد ورد عنه عليه السلام أنه قال:

«إيّاكم أن يخاصم بعضكم بعضاً إلى أهل الجور، وأيما مؤمن قدم مؤمناً في خصومة إلى قاض أو سلطان جائر، فقضى عليه بغير حكم الله فقد شركه في الإثم».

والمراد بقوله عليه السلام: «بغير حكم الله» مطلق ما يحكمون به، سواء كان الحكم بالحق أم بالباطل، لأنهم حكام جور، وليس لهم حق الحكومة بأحكام الله، فحكمهم غير حكم الله.

وكما كان ينهى عن المرافعة إليهم، كان ينهى عن معاونتهم والعمل لهم، حتى في البناء وكراية الأنهر، وقال في جواب من سأله عن ذلك: «ما أحب أن أعقد لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاء، إن الظلمة وأعوان الظلمة في سرادق من نار، حتى يحكم الله بين العباد».

نهيه عن الولاية للظالمين:

وطلب منه مولى من موال جده علي بن الحسين عليه السلام أن يكلّم والي المدينة ـ وهو داود بن علي ـ أن يدخل في بعض الولايات.

فقال عليه السلام: «ما كنت لأفعل».

فظن الرجل أن امتناع الإمام عليه السلام كان خوفاً من أن يظلم أحداً؛ فحلف له بالأيمان المغلّظة أنه يعدل ولا يجور، فكان جواب الإمام عليه السلام أن قال له: «تناول السماء أيسر عليك من ذلك». وقد أشرنا من قبل إلى مواقفه ضد الحكام وأحكامهم، وإعلانه المقاطعة لهم. وعلى هذا النهج سار أتباعه، وطبعت مدرسته بهذا الطابع، فكانت عرضة للخطر من قبل حكام الجور، ولكنها واصلت كفاحها في سبيل ترسيخ مبادئها وإعلاء كلمة الحق. وكان يحرص الحرص الشديد على إزالة الشحناء من القلوب، وبث روح الأخوة، فهو ينهى عن التهاجر والمقاطعة.

قال المفضل: سمعت أبا عبد الله الصّادق عليه السلام يقول:

«لا يفترق رجلان على الهجران إلاّ استوجب أحدهما البراءة واللعنة، وربما استوجب ذلك كلاهما».

فقال له معتب: جعلت فداك هذا حال الظالم، فما بال المظلوم؟!

قال عليه السلام: «لأنه لا يدعو أخاه إلى صلته، ولا يتغافل عن كلامه. سمعت أبي يقول: إذا تنازع اثنان فعاد أحدهما الآخر، فليرجع المظلوم إلى صاحبه حتى يقول له: أي أخي أنا الظالم. حتى يقطع الهجران بينه وبين صاحبه، فإن الله حكم وعدل يأخذ للمظلوم من الظالم».

وقال جابر بن عون: إن رجلاً قال لجعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام: إنّ بيني وبين قوم منازعة في أمر، وإني أريد أن أتركه، فيقال لي: إن تركك له ذلة.

فقال عليه السلام: «إن الذليل هو الظالم».

حثّه على صلة الرّحم:

فهو عليه السلام يحاول أن يزيل من القلوب ضغائن الأحقاد التي تبعث على الكراهة والفرقة، وكان هو عليه السلام من حسن سيرته ومكارم أخلاقه أنه يصل من قطعه، ويعفو عمّن أساء إليه، كما ورد أنه وقع بينه وبين عبد الله بن الحسن كلام، فأغلظ عبد الله

في القول، ثم افترقا وذهبا إلى المسجد، فالتقيا على الباب، فقال الصّادق عليه السلام لعبد الله بن الحسن: «كيف أمسيت يا أبا محمّد؟».

فقال عبد الله: بخير ـ كما يقول المغضب ـ.

قال الصّادق عليه السلام: «يا أبا محمّد أما علمت أن صلة الرحم تخفف الحساب؟» ثم تلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

فقال عبد الله: فلا تراني بعدها قاطعاً رحماً.

وكان يقول: «قال رسول الله ﷺ: لا تقطع رحمك وإن قطعتك».

وجاء إليه رجل فشكا أقاربه، فقال عليه السلام: «إكظم غيظهم». فقال الرجل: إنهم يفعلون ويفعلون. فقال عليه السلام: «أتريد أن تكون مثلهم فلا ينظر الله إليكم!!».

وقال عليه السلام: «إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنّ لي أهلاً قد كنت أصلهم وهم يؤذوني، وقد أردت رفضهم. فقال له رسول الله ﷺ: إن الله يرفضكم جميعاً».

قال الرجل: وكيف أصنع؟

قال عليه السلام: «تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمّن ظلمك، فإذا فعلت ذلك كان الله عزّ وجل لك عليهم ظهيراً».

فكان عليه السلام يصل رحمه، ويبذل لهم النصح، ويدعوهم إلى ما فيه صلاح أنفسهم، وإصلاح الأوضاع التي اضطرب حبل استقامتها في عصرهم، وكان يصل فقراءهم بالليل سراً وهم لا يعرفونه، كما كان عليه السلام يبذل النصح لجميع المسلمين، ويدعوهم إلى الالتزام بأوامر الدّين.

وكان يحث في كثير من تعاليمه على مساعدة الضعفاء ومعاونة المعوزين، وصلة الفقراء والمساكين، ويقوم هو بنفسه بصلتهم ومعاونتهم، ويوزع عليهم من ماله. وإذا جن الليل قام بصدقة السّرّ، يطوف على بيوت الفقراء.

قال هشام بن الحكم رحمه الله: كان أبو عبد الله الصّادق عليه السلام إذا اعتم وذهب من الليل شطره، أخذ جراباً فيه خبز ولحم ودراهم فيحمله، ثم يذهب فيه إلى

أهل الحاجة من أهل المدينة، فيقسمه فيهم، وهم لا يعرفونه، فلما مضى أبو عبد الله فقدوا ذلك، فعلموا أنّه كان هو أبو عبد الله الصّادق عليه السلام.

حثّه على مساعدة الضعفاء وأبناء السبيل:

وقال له رجل من أصحابه: جعلت فداك. بلغني أنك تفعل في عين زياد (اسم ضيعة له) شيئاً أحب أن أسمعه منك.

فقال عليه السلام: «نعم كنت آمر إذا أدركت الثمرة أن يثلم في حيطانها الثلم، ليدخل الناس ويأكلوا، وكنت آمر أن يوضع عشر بنيات يقعد على كل بنية عرة، كلما أكل عشرة جاء عشرة أخرى، يلقى لكل نفس منهم مد من رطب، وكنت آمر لجيران الضيعة كلهم: الشيخ والعجوز والمريض والصبي والمرأة، ومن لا يقدر، أن يجيء فيكون لكل إنساناً مداً، فإذا أوفيت القوام والوكلاء أجرتهم؛ أحمل الباقي إلى المدينة، ففرقت في أهل البيوت والمستحقين على قدر استحقاقهم، وحصل لي بعد ذلك أربعمائة ديناراً، وكانت غلتها أربعة آلاف».

وقال مصادف: كنت مع أبي عبد الله عليه السلام ما بين مكة والمدينة، فمررنا على رجل في أصل شجرة، وقد ألقى بنفسه، فقال عليه السلام: «مل بنا إلى هذا الرجل، فإني أخاف أن يكون قد أصابه العطش». فملنا إليه فإذا هو رجل من النصارى طويل الشعر، فسأله الإمام: «أعطشان أنت؟» فقال: نعم.

فقال الإمام: «انزل يا مصادف فاسقه». فنزلت وسقيته ثم ركب وسرنا.

فقلت له: هذا نصراني، أفتصدق على نصراني؟

فقال: «نعم. إذا كانوا بمثل هذه الحالة».

ولشدة اهتمامه بمساعدة الضعفاء، وقضاء حوائج المؤمنين، كان يرى عليه السلام أن الإعراض عن المؤمن المحتاج للمساعدة استخفاف به، والاستخفاف بالمؤمن استخفاف بهم عليهم السلام. وجاء ذلك موضحاً في قوله ـ وقد كان عنده جماعة من أصحابه ـ: «ما لكم تستخفون بنا؟» فقام إليه رجل من أهل خراسان فقال: معاذ الله أن نستخف بك أو بشيء من أمرك.

فقال عليه السلام: «إنك أحد من استخف بي».

فقال الرجل: معاذ الله أن أستخف بك!!

فقال له عليه السلام: «ويحك ألم تسمع فلاناً ونحن بقرب الجحفة، وهو يقول لك: احملني قدر ميل فقد والله أعييت. فوالله ما رفعت له رأساً، لقد استخففت به، ومن استخف بمؤمن فبنا استخف، وضيع حرمة الله عزّ وجلّ».

وقال صفوان الجمال: دخلت على أبي عبد اللّه الصّادق عليه السلام فدخل عليه رجل من أهل مكّة ـ يقال له ميمون ـ فشكى إليه تعذّر الكراء عليه.

فقال عليه السلام: «قم فأعن أخاك». فقمت معه فيسّر الله كراه، فرجعت إلى مجلسي، فقال أبو عبد اللّه: «ما صنعت في حاجة أخيك؟».

فقلت: قضاها الله: بأبي أنت وأمّي.

فقال عليه السلام: «أما إنك إن تُعِن أخاك المسلم أحب إليّ من طواف أسبوع في البيت».

ودخل عليه عمار الساباطي، فقال له: «يا عمار إنك ربّ مال كثير، فتؤدي ما افترض الله عليك من الزكاة؟»

قال: نعم.

قال عليه السلام: «فتخرج الحق المعلوم من مالك؟»

قال: نعم.

قال عليه السلام: «فتصل قرابتك؟»

قال: نعم.

قال: «فتصل إخوانك؟»

قال: نعم.

قال عليه السلام: «يا عمار إن المال يفنى، والبدن يبلى، والعمل يبقى، والديّان حي لا يموت يا عمار ما قدمت فلم يسبقك، وما أخرّت فلن يلحقك».

وقال المفضل بن قيس: دخلت على أبي عبد الله الصّادق عليه السلام فشكوت إليه بعض حالي، وسألته الدعاء فقال: «يا جارية هاتي الكيس»، فجاءت بكيس. فقال: «هذا كيس فيه أربعمائة دينار، فاستعن به».

قال المفضل: فقلت لا والله ما أردت هذا، ولكن أردت الدعاء لي.

فقال لي عليه السلام: «ولا أدع الدعاء، ولكن لا تخبر الناس بكل ما أنت فيه فتهون عليهم».

وقال الشقراني ـ مولى رسول الله ـ: خرج العطاء أيامَ المنصور، فوقفت على الباب متحيراً، وإذا بجعفر بن محمّد قد أقبل، فذكرت له حاجتي، فدخل ثم خرج وإذا بعطائي في كمه وناولني إيّاه وقال: «إن الحسن من كل أحد حسن، وإنه منك أحسن، وإن القبيح من كل أحد قبيح، وإنه منك أقبح لمكانك منا».

قال ابن الجوزي: وإنما قال له جعفر ذلك لأن الشقراني كان يشرب الشراب، فمن مكارم أخلاق جعفر أنه رحب به وقضى حاجته مع علمه بحاله ووعظه على وجه التعريض، وهذا من أخلاق الأنبياء.

وقال يوماً لبعض أصحابه: «ما بال أخيك يشكوك؟!»

فقال: يشكوني إذ استقصيت عليه حقي.

فجلس الإمام مغضباً وقال: «كأنّك إذا استقصيت عليه حقك لم تسيء؟ أرأيت ما حكى الله عن قوم يخافون سوء الحساب؟ أخافوا أن يجور عليهم؟ لا. ولكن خافوا الاستقصاء، فسمّاه الله سوء الحساب. فمن استقصى فقد أساء».

قال زرارة: قلت لأبي عبد اللّه: إن لي على رجل ديناً وقد أراد أن يبيع داره فيعطيني.

فقال الصّادق عليه السلام: «أعيذك بالله أن تخرجه من ظل رأسه، أعيذك بالله أن تخرجه من ظل رأسه».

وكان يسأل القادمين عليه من أصحابه عن معاونة بعضهم بعضاً. قال محمّد بن زيد الشحام: رآني أبو عبد اللّه وأنا أصلي، فأرسل ودعاني، فقال لي: «من أين أنت؟» قلت: من الكوفة. فقال: «من تعرف من الكوفة». فذكرت له رجلين.

قال: «وكيف صنيعهما إليك». قلت: وما أحسن صنيعهما إليّ. فقال عليه السلام: «خير المسلمين من وصل وأعان ونفع. ما بت ليلة قط وفي مالي حق يسألنيه الله تعالى» ثم قال: «أي شيء معك من النفقة»، قلت: عندي مائتا درهم. قال: «أرنيها». فأتيته، فزاد فيها ثلاثين درهماً ودينارين، ثم قال عليه السلام: «تعشّ عندي». فتعشيت عنده.

قال زيد: فلما كان من السنة القابلة لم أذهب إليه، فأرسل إليّ فدعاني، فقال عليه السلام: «ما لك لم تأتني البارحة؟»

قلت: لم يأتني رسولك. فقال عليه السلام: «فأنا رسول نفسي إليك ما دمت مقيماً في هذه المدة».

قال زيد: فقلت له علمني دعاء. قال: «أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، يا من أرجوه لكل خير، وآمن سخطه عند كل عثرة، يا من يعطي الكثير بالقليل، ويا من يعطي من سأله تحنناً منه ورحمة، ويا من أعطى من لم يسأله ومن لم يعرفه، صَلّ على محمّد وأهل بيته، وأعطني بمسألتي إياك خير الدنيا وجميع خير الآخرة، فإنه غير منقوص ما أعطيت وزدني من سعة فضلك يا كريم».

ثم رفع يده فقال: «يا ذا المن والطول، يا ذا الجلال والإكرام ،يا ذا النعماء والجود، إرحم شيبتيَ من النار».

ثم وضع يديه على لحيته، ولم يرفعهما، حتى امتلأ كفه دموعاً.

وقال مصادف: كنت عند أبي عبد اللّه الصّادق، فدخل رجل فسلم عليه، فسأله الإمام: «كيف من خلفت من إخوانك؟» فأجاب الرجل وأحسن الثناء وأطراهم. فسأله الإمام: «كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم!؟»

فقال الرجل: قليلة.

قال الإمام: «كيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم؟»

فقال الرجل: قليلة.

قال الإمام: «كيف صلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم؟»

فقال الرجل: إنك تذكر أخلاقاً قلّ ما هي فيمن عندنا.

قال الإمام: «فكيف يزعم هؤلاء أنهم شيعتنا؟!»

وقال إسحاق بن عمار: دخلت على أبي عبد اللّه الصّادق. فنظر إليّ بوجه قاطب، فقلت: ما الذي غيّرك لي؟.

قال عليه السلام: «الذي غيّرك لإخوانك، بلغني يا إسحاق أنك أقعدت ببابك بواباً يردّ عنك الفقراء».

فقلت: جعلت فداك إني خفت الشهرة.

فقال عليه السلام: «ألا خفت البلية».

قال إسحاق بن إبراهيم: كنت عند أبي عبد الله الصّادق عليه السلام إذ دخل عليه رجل من خراسان فقال: يا ابن رسول الله أنا من مواليكم، وبيني وبينكم شقة بعيدة، وقد قلّ ذات يدي، ولا أقدر أن أتوجه إلى أهلي إلاّ أن تعينوني، فنظر أبو عبد الله وقال: «أما تسمعون ما يقول أخوكم؟ إنما المعروف ابتداء، فأما ما أعطيت بعد ما سأل إنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه، أفيبيت ليلته متأرقاً متململاً بين اليأس والرجاء، لا يدري أين يتوجه بحاجته، فيعزم على القصد إليك، فأتاك وقلبه يجب، وفرائصه ترتعد، وقد نزل دمه في وجهه، وبعد هذا فلا يدري أينصرف من عندك بكآبة الرد، أم بسرور النجح، فإن أعطيته رأيت أنك قد وصلته، وقد قال رسول الله ﷺ: والّذي فلق الحب، وبرأ النسمة، وبعثني بالحق نبياً، لمّا يتشجم من مسألته إياك أعظم مما ناله من معروفك».

قال إسحاق: فجمعوا له خمسمائة درهم، ودفعوها إليه.

وكان عليه السلام يوجه المجتمع بتعاليمه إلى جميع مهمات الحياة، ويحث الإنسان على عزة النفس وعدم الإهانة لها فيقول: «إن الله فوّض إلى المؤمن أموره كلها، ولم يفوض إليه أن يكون ذليلاً، أما تسمع قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً، إن المؤمن أعز من الجبل، الجبل يستقل منه بالمعاول، والمؤمن لا يستقل من دينه شيء».

حثّه على العمل وطلب الرزق الحلال:

وقد حث عليه السلام في جملة من تعاليمه على طلب المال من حلّه، ويدعو أصحابه إلى التكسب في الأسواق، ويجعل ذلك عزاً للإنسان.

يقول المعلى بن خنيس: رآني أبو عبد الله عليه السلام وقد تأخرت عن السوق، فقال لي: «اغدو إلى عزّك».

وقال لآخر ـ وقد ترك غدوّه إلى السوق ـ: «ما لي أراك وقد تركت غدوّك إلى عزك؟!!»

فهو عليه السلام يدعو لكسب المال من حلّه، لينال المرء عزّة في نفسه، ولا يكون كلاً على الناس فيهان.

ولقد أخبر عن رجل قال: لأقعدن ولأصلين، ولأصومن ولأعبدن الله، فأما رزقي فيأتيني.

قال عليه السلام: «هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم».

وقال له رجل: إنا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها.

قال عليه السلام: «ماذا تحب أن تصنع بها».

فقال الرجل: أوسع بها على نفسي وعيالي، وأصل بها قرابتي، وأتصدّق وأحجّ، وأعتمر.

فقال أبو عبد اللّه عليه السلام: «ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة».

وكان هو بنفسه يطلب الرزق الحلال.

قال أبو عمر الشيباني: رأيت أبا عبد اللّه الصّادق وبيده مسحاة يعمل في حائط له والعرق يتصبب، فقلت: جعلت فداك أعطني أكفك.

فقال لي: «إني أحب أن يتأذى الرجل بحرّ الشمس في طلب المعيشة».

وقال المفضل بن قرة: دخلنا على أبي عبد اللّه في حائط له (أي بستان) وبيده مسحاة يفتح بها الماء وعليه قميص، وكان يقول: «إني لأعمل في بعض ضياعي، وإن لي من يكفيني، ليعلم الله أني أطلب الرزق الحلال».

وخرج عليه السلام في يوم صائف شديد الحر، فاستقبله عبد الأعلى ـ مولى آل سام ـ في بعض طرق المدينة، فقال له: يا ابن رسول الله حالك عند الله عزّ وجلّ وقرابتك من رسول الله ﷺ وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم!!

فقال عليه السلام: «يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك».

نبذ من أعماله وأقواله:

فهو عليه السلام يعلّم الناس قولاً وعملاً لأنه ناصح مرشد بأقواله وأفعاله يدعو إلى الخير ويهدي إلى سبيل الرشاد. بلغه عن رجل من أصحابه أنّه وقع بينه وبين أمه كلام، فأغلظ لها، فلما دخل عليه من الغد ابتدأه قائلاً:

«يا مهزم ما لك وخالدة (اسم أمه) أغلظت في كلامها البارحة، أما علمت أن بطنها منزل قد سكنته، وأن حجرها مهد قد عمرته، وأن ثديها وعاء قد شربته؟» فقال: بلى. قال عليه السلام: «فلا تغلظ لها».

ودخل عليه صالح بن سهل ـ وكان يذهب مذهب الغلاة ـ فلما نظر إليه قال: «يا صالح إنا والله عبيد مخلوقون، لنا رب نعبده. وإن لم نعبده عذّبنا». فترك صالح ما كان يذهب إليه.

وكان عبد العزيز القزار ممن يذهب لهذا المذهب، فلما دخل على الإمام عليه السلام قال له: «يا عبد العزيز ضع لي ماء أتوضأ به».

قال عبد العزيز: ففعلت. فلما دخل، قلت في نفسي هذا الذي قلت فيه ما قلت؟!!

فلما خرج قال عليه السلام: «يا عبد العزيز لا تحمل البناء فوق ما لا يطيق. إنّا عبيد مخلوقون».

وهكذا كان عليه السلام يرشد للحق، ويدعو إلى سبيل الرشاد، ويعظ جلساءه. ويوجه بأقواله وأعماله من شذّ عن الطريق السويّ، ويعلن براءته مما يدّعى فيهم من الغلو، ويقول أمام الملأ: «إنا عبيد مخلوقون لربّ إن عصيناه عذّبنا».

وكان مجلسه يكتظ بمختلف الطبقات، من علماء الفرق وأهل الآراء، فهو يُلقي عليهم دروساً توجيهية بأقواله وأفعاله.

قال سدير الصيرفي: كنت أنا وأبو بصير ويحيى البزاز في مجلس أبي عبد الله، إذ خرج إلينا وهو مغضب، فلما أخذ مجلسه قال:

«يا عجباً لأقوام يزعمون أنا نعلم الغيب، ما يعلم الغيب إلاّ الله عزّ وجل، لقد هممت بضرب جاريتي فلانة، فهربت مني، فما علمت في أي بيت من الدار هي».

فهو بهذا يردّ مزاعم أولئك المنحرفين عن منهج أهل البيت عليهم السلام ويدّعون حبهم، ويزعمون أنّهم يوحى إليهم، وأنهم يعلمون الغيب الذي هو لله وحده، فأوضح عليه السلام لجلسائه بطلان هذه المزاعم ليحملوا ذلك عنه، وينشروه في البلاد النائية، لأنه شديد الاهتمام بأمر الغلاة، وإعلان الحرب عليهم، وهم ليسوا من شيعته، وإنما هم أعداء له، يريدون الإساءة له والوقيعة في أتباعه.

وسأله رجل من جلسائه فقال: إن قوماً من مواليكم يلمون بالمعاصي ويقولون: نرجو.

فقال عليه السلام: «كذبوا ليسوا لنا بموالٍ، أولئك قوم ترجحت بهم الأماني. من رجا شيئاً عمل له، ومن خاف شيئاً هرب منه».

وكما قلنا إن مجلسه كان مكتظاً بمختلف الطبقات من رواد العلم وحملة الحديث، وكان سفيان الثوري وهو أحد أعلام الأمة ومن رؤساء المذاهب البائدة، يكثر الترداد عليه، ويطلب منه الموعظة والتوجيه.

ويحدّثنا سفيان: أنه دخل على الإمام الصّادق عليه السلام وكان عليه جبة خز دكناء قال سفيان: فجعلت أنظر إليها متعجباً.

فقال لي: «يا ثوري، ما لك تنظر إلينا، لعلك مما رأيت؟»

قال فقلت: يا ابن رسول الله ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك! فقال لي: «يا ثوري، كان ذلك الزمان مقفراً مقتراً» ثم حسر عن ردن جبته، وإذا تحتها جبة صوف بيضاء، وقال: «يا ثوري لبسنا هذا لله (وأشار إلى جبة الصوف) وهذا لكم (وأشار إلى الخزّ) فما كان لله أخفيناه، وما كان لكم أبديناه».

وكان عليه السلام يؤوي الضيف، ويدعو الغرباء إلى ضيافته ويكرمهم، ومن حسن أخلاقه لا يود أن يسارع الضيف في رحلته، ويمنع خدمه من المعاونة لهم في رحلتهم، وهذا من مفاخر العرب، ولهم فيه أشعار كثيرة. وعندما يسأله ضيوفه عن سبب ذلك يقول: «إنّا أهل بيت لا نعين أضيافنا على الرحلة من عندنا».

كما أنه يبذل الطعام ويدعو إلى بذله. وسأله محمّد بن قيس فقال: إني لا أتغدى ولا أتعشى إلاّ ومعي اثنان أو ثلاث أو أكثر.

فقال عليه السلام: «فضلهم عليك أكثر من فضلك عليهم».

فقال محمّد: جعلت فداك كيف؟!! وأنا أطعمهم طعامي، وأنفق عليهم، ويخدمهم خادمي.

فقال عليه السلام: «إذا دخلوا عليك دخلوا بالرّزق الكثير، وإذا خرجوا خرجوا بالمغفرة».

وقال رجل من الجالسين عنده: إن المنصور مذ صارت الخلافة إليه لا يلبس إلاّ الخشن، ولا يأكل إلاّ الجشب.

فقال عليه السلام: «يا ويحه مع ما مكن الله له من سلطان!!»

فقيل: إنما يفعل ذلك بخلاً وجمعاً للأموال.

فقال عليه السلام: «الحمد لله الذي حرمه من دنياه ماله مع دينه». ولما أحضره المنصور في مجلسه، وقع الذباب على وجه المنصور حتى ضجر، فقال المنصور: يا أبا عبد الله لم خلق الله الذباب؟

فقال عليه السلام: «ليذل به الجبارين». فوجم لقوله.

وقد أدّب أصحابه بآداب الإسلام، في جمع الكلمة وعدم الفرقة، وحسن الصحبة لمن يصحبونه.

قال أبو بصير: سمع أبا عبد الله الصّادق يقول: «اتّقوا الله، وعليكم بالطاعة لأئمتكم، قولوا ما يقولون، واصمتوا عمّا صمتوا، فإنّكم في سلطان من قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ فاتقوا الله فإنكم في هدنة، صلوا في عشائرهم، واشهدوا جنائزهم، وأدّوا الأمانة إليهم، وعليكم بحجّ البيت، فإن في إدمانكم الحجّ دفع مكاره الدنيا عنكم. وأهوال يوم القيامة».

وقال أبو ربيع الشامي: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام والبيت غاص، فيه الخراساني والشامي ومن أهل الآفاق، فلم أجد موضعاً أقعد فيه، فجلس أبو عبد الله وكان متكئاً، ثم قال: «يا شيعة آل محمّد إنه ليس منا من لم يملك نفسه عند غضبه، ومن لم يحسن صحبة من صحبه، ومخالقة من خالقه، ومرافقة من رافقه، يا شيعة آل محمّد اتّقوا الله ما استطعتم، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العظيم».

وقال عليه السلام للمفضل: «من صحبك؟» قال رجل من إخواني. قال عليه السلام: «فما فعل؟» قال المفضل: منذ دخلت المدينة لم أعرف مكانه. فقال عليه السلام: «أما علمت أن من صحب مؤمناً أربعين خطوة سأله الله عنه يوم القيامة».

وبعث الإمام الصّادق عليه السلام غلاماً له في حاجة، فأبطأ الغلام، فخرج على أثره فوجده نائماً، فجلس عند رأسه يروّحه فانتبه، فقال له الإمام عليه السلام: «والله ما ذلك لك، تنام الليل والنهار! لك الليل ولنا منك النهار».

ودخل عليه رجل فقال: يا ابن رسول الله أخبرني بمكارم الأخلاق. فقال عليه السلام: «هي العفو عمن ظلمك، وصلة من قطعك، وإعطاء من حرمك».

وقال يوماً لأصحابه: «إنا لنحب من كان عاقلاً، فهماً، حليماً، مدارياً،

صبوراً، صدوقاً، وفياً. إن الله عزّ وجل خصّ الأنبياء بمكارم الأخلاق، فمن كانت فيه فليحمد الله على ذلك، ومن لم تكن فيه فليتضرع إلى الله عزّ وجل، وليسأله إياها».

فقال له ابن بكير: جعلت فداك وما هن؟

قال عليه السلام: «هنّ الورع والقناعة والصبر والشكر والحلم والحياء والسخاء والشجاعة والغيرة، والبرء وأداء الأمانة».

وهكذا كان عليه السلام يلقي على الناس نصائحه، ويغتنم الفرص في التوجيه والإرشاد، لما فيه صلاح أنفسهم، وبذلك يصلح المجتمع. فهو عليه السلام طول حياته يهدي إلى الخير، ويدعو إلى سبيل الرشاد، في امتثال أوامر الله، والوقوف عند نواهيه.

وقد بذل جهده عليه السلام في بذل النصح لجميع المسلمين لينتصر المجتمع الإسلامي على ميوله ونزعاته، عندما تهذب النفوس من أدران الرذائل، وتتحول عن شهواتها.

ولم يترك طريقاً للنصح إلاّ سلكه في أقواله وأفعاله، ولم يدع باباً للتوجيه إلاّ طرقه، ويدفع بالناس إلى التحلي بفضائل الأعمال، ويحث على الورع والتقوى، والاجتهاد في الطاعة، والإلفة والمحبة والتعاون، ومناصرة المظلوم والوقوف في وجه الظالم، وأخذ الحق للضعيف من القوي، وقال غير مرة:

«ما قدست أمة لم تأخذ لضعيفها من قويها بحقه».

كما أنه عليه السلام كان يوصي من يريد السفر من أصحابه، أو الوفود القادمين عليه من البلاد النائية بالمروّة، ثم يشرحها لهم بقوله: «هي كثرة الزاد وطيبه، وبذله لمن كان معك، وكتمانك على القوم بعد مفارقتك إيّاهم، وكثرة المزاح في غير ما يسخط الله». ثم يقول: «والذي بعث جدي رسول الله صلى الله عليه وآله بالحق نبياً، إن الله عزّ وجل يرزق العبد على قدر المروة، وإن المعونة تنزل على قدر المؤونة، وإن الصبر ينزل على قدر شدة البلاء».

ويوصيهم بعد ذلك بما أوصى لقمان ابنه إذ يقول: «إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك وأمورهم، وأكثر التبسّم في وجوههم، وكن كريماً على زادك بينهم، وإذا دعوك فأجبهم، وإذا استعانوا بك فأعنهم، واستعمل طول الصّمت، وكثرة الصّلاة وسخاء النفس بما معك من دابة أو ماء أو زاد، وإذا استشهدت على الحق

فاشهد لهم، وأجهد رأيك إذا استشاروك، ولا تجب في مشورة حتى تقوم بها، فإن من لم يمحض النصيحة لمن استشاره سلبه الله رأيه ونزع عنه الأمانة.

وإذا رأيت أصحابك يمشون فامشِ معهم، وإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم، وإن تصدقوا أو أعطوا قرضاً فاعطِ معهم، واسمع لمن هو أكبر منك سناً، وإذا أمروك بأمر أو سألوك شيئاً فقل نعم ولا تقل لا، فإن لا عيّ ولؤم؛ وإذا تحيرتم في الطريق فانزلوا، وإذا شككتم في الأمر فقفوا وتوامروا، وإذا رأيتم شخصاً واحداً فلا تسألوه ولا تسترشدوه، فإن الشخص الواحد في الفلاة مريب، لعله أن يكون عين اللّصوص». إلخ...

حول أخطاء بعض الكتّاب:

هذه لمحة موجزة ونظرة خاطفة لبعض سيرته في حياته التي قضاها في الدعوة إلى سبيل الخير، قائداً روحياً يوجه المجتمع إلى ما يسعده، وقد رأينا كيف كان في منهجه مع ولاة عصره، فهو لم يكن مسالماً لهم، ولا مبرراً أعمالهم. ومن الخطأ في الرأي ما يذهب إليه بعض الكتّاب من أن الصّادق عليه السلام كان مسالماً يقعد عن نصرة أبناء عمه، كما يقول الأستاذ أمين الخولي:

(إن الصّادق ـ كما تشهد حياته ـ مسالم أو مسرف في المسالمة، يقعد عن نصرة أبناء عمّه، فقد خرج ابن عمه محمّد بن عبد الله بن حسين بالمدينة، فهرب هو حتى قتل محمّد، فلما قتل واطمأن الناس وأمنوا، رجع إلى المدينة، وذلك أقصى المسالمة، أو هو يصل إلى شيء وراء المسالمة قد ينتقد)[1].

هذا ما يقوله الأستاذ الخولي. ولم يكن هو أول من يسهم في تجاهل الحقائق والحكم على الشيء قبل معرفته، فهناك الكثير ممن حاولوا أن يلصقوا بأهل البيت وصمات الانتقاد نتيجة للتعصّب، أو لضيق أفق المعرفة أمامهم، فتاهوا في بيداء التخبط والتعثّر، عندما ركضوا في طريق الانحراف عن الواقع.

وإن مثل هذا القول يرينا إلى أي حد بلغ التأثر بأفكار المنحرفين عن الواقع، فلم يتجاوزوا في كتاباتهم عن أهل البيت حدود الخطة التي رسمتها لهم أقلام منحرفة، وآراء شاذة.

---

(١) مالك بن أنس لأمين الخولي. ص٩٢.

الدعوة العباسية:

أشرنا سابقاً إلى سوء معاملة الأمويين، وإجحافهم بحق الرعية، وظلمهم الذي لم يسلم منه أحد حتى الشيخ في محرابه، والطفل في مهده، فعم الاستياء جميع الطبقات، وساد الاضطراب جميع أنحاء المملكة، وقد وصف الشاعر الجعدي تلك الحالة السيئة بقوله:

والناس في كربة يكاد لها   تنبذ أولادها حواملها

فكان الوضع السيىء يفسح المجال للثورة، وأي دعوة إلى الخلاص من تلك المحن وويلاتها تلقى قبولاً، وقد قامت الجمعيات السرية للدعوة إلى الرضا من آل محمّد، ونالت النجاح بسرعة مدهشة حتى قضي على الدولة الأموية، وقامت على أطلالها الدولة العباسية.

وإذا أردنا أن نستنطق الحوادث، ونبحث عن العوامل التي أدت إلى نجاحهم، فإنا لم نجد لهم في أول الأمر أي نشاط يذكر، ولا يؤمل لهم النجاح بالدعوة والفوز في ميدان الكفاح السياسي.

إذاً كيف بدأت الدعوة وما هي أسباب طمعهم بالخلافة؟ وأي أسلوب اتخذوه لجلب القلوب؟ هذه أسئلة تجيب عليها الحوادث فلنعرض ذلك بموجز من البيان.

كان محمّد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية[1] يعتقد بعض الناس فيه أنّه هو الإمام بعد أخيه الحسين بن علي عليه السلام وأنّه صاحب الدولة المبشّر بها.

فلما مات محمّد بن علي أوصى إلى ابنه أبي هاشم، وكان أبو هاشم، واسمه عبد الله، من رجالات أهل البيت البارزين، فاتفق أنه قصد هشام بن عبد الملك وافداً فوصله هشام، ثم رأى من فصاحته ورئاسته ما حسده عليه، وخاف منه، فبعث إليه من سمّه في الطريق، فلما علم أبو هاشم بذلك، عدل إلى محمّد بن علي بن عبد الله بن العباس، فأعلمه أنه ميت، وأوصى إليه، وكان معه جماعة من أصحابه فأوصاه فيهم، وذلك سنة ٩٩هـ.

---

(١) هو أبو القاسم محمّد بن علي بن أبي طالب، كان من سادات قريش وشجعانهم المشهورين وأقويائهم المعروفين، أمه خولة بنت جعفر بن قيس من بني حنيفة، روى الحديث عن أبيه علي، وخرج حديثه أصحاب الصحاح الستة، المتوفى سنة ٨٠هـ أو ٨١، ودفن بالبقيع.

وكانت هذه الوصية بذرة طمع وبارقة أمل (فهوس محمّد بن علي بن عبد الله منذ يومئذ بالخلافة، وشرع في بث الدعاة سراً، وما زال الأمر كذلك حتى مات سنة ١٢٥هـ وخلف أولاده وهم جماعة، منهم: إبراهيم المعروف بالإمام والسّفّاح والمنصور)[(١)].

فقام إبراهيم بالدعوة، وأخذ يتحدّث مع المنكوبين في آلامهم، ويشاركهم في التأثر، ويعطف على المظلومين، ويلعن الظالمين، والناس يندفعون وراء من يشاركهم آلامهم، ويميلون لمن يأملون الخلاص على يده من الظالمين.

انتشر دعاة إبراهيم في بلاد خراسان، وهم من الرجال الذين لهم الأثر هناك، منهم: زياد مولى همدان، وحرب بن قيس، وسليمان بن كثير، ومالك بن الهيثم وغيرهم، فبعضهم قتلوا في سبيل الدعوة، ومثّل ببعضهم، وحبس البعض الآخر[(٢)] وما زال الأمر يتفاقم والناس تتقبل هذه الدعوة.

والجدير بالذكر أن الدعوة كانت على جانب كبير من الغموض والتكتم باسم الخليفة، وأن الشخص الذي يبايعه الناس لا يعرفه إلاّ الدعاة، والعامة تبايع إلى (الرضا من آل محمّد).

وكان في طليعة الدعاة نشاطاً وقوة ودهاء أبو مسلم الخراساني، وقد ولاه إبراهيم الإمام على خراسان، وجعله قائداً لتلك الحركة وذلك سنة ١٢٨هـ.

وقد عرف أبو مسلم الخراساني بالدهاء والمهارة الحربية، وكان يبذر بذور الشقاق بين جنود الأمويين؛ ليحصل الانقسام بينهم، وقد استفاد بذلك ونجح في مهمته، فقد انجفل الناس من هرات، والطالقان، ومرو، وبلخ، وتوافروا جميعاً مسودين الثياب، وأنصاف الخشب التي كانت معهم[(٣)].

وكان السواد هو شعار الدعوة العباسية، جعلوه علامة حزن لما نال أهل البيت عليهم السلام في العهد الأموي من القتل والتشريد.

أساليب الدعوة:

تولى الدعاة نشر الدعوة بكل نشاط، وتجاوب الناس لقبولها، وكانت الأساليب

---

(١) الآداب السلطانية ص١٢٧.

(٢) تاريخ ابن الساعي ص٣.

(٣) الدينوري ص٣٦٠.

تستهوي النفوس وتثير الشعور، وأهمّها أن الثورة إنما تقوم على التنظيم ورعاية مصالح الأمة، والانتصار للعدالة المفقودة والحق الضائع، وأن الخليفة هو من أهل البيت ومن عترة محمّد وورثته، وناهيك ما لأهل البيت من أثر في النفوس، ووقع في القلوب، لأنهم أهل العدل وحماة الدين.

كان الدعاة يلقون على الناس العبارات التالية:

هل فيكم أحد يشك أن الله عزّ وجل بعث محمّداً واصطفاه؟ قالوا: لا.

أفتشكّون أن الله أنزل عليه كتابه فيه حلاله وحرامه وشرائعه؟ قالوا: لا.

أفتظنونه خلّفه عند غير عترته وأهل بيته؟ قالوا: لا.

أفتشكّون أنّ أهل البيت معدن العلم وأصحاب ميراث رسول الله الذي علّمه الله؟ قالوا: لا[1].

وعندما يسمع الناس هذه العبارات المعبّرة عن أمانيهم في تحقيق سعادتهم تحت ظل دولة تكفل لهم القضاء على آلامهم، وتضمن تحقيق آمالهم بالعمل على إزالة كابوس ذلك الحكم الجائر. يزداد نشاطهم ويكثر حماسهم.

ومن الأساليب التي اتخذت لنجاح الدعوة هو الشعار الأسود الذي يعبّر عن محاربة الضلالة، أو إظهار الحزن والحداد على أهل البيت، الذين قامت الدعوة باسمهم للانتقام من الأمويين على ما ارتكبوه منهم، بدون مراقبة لله ولا احترام لرسوله. وقد أرسل إبراهيم الإمام لواء يدعى الظل أو السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً، وكتب إلى أبي مسلم إني قد بعثت إليك براية النصر[2]. وقد تأولوا الظل أو السحاب: أن السحاب يطبق الأرض، وكما أن الأرض لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسي[3]. وإن ذلك اللواء يمثّل لواء رسول الله، لأنهم ذكروا أن لواءه في حروبه وغزواته كان أسوداً.

على أن للتنبؤات وكشف حجب الغيب عن المستقبل أثر في نشاط الدعوة، واندفاع المنظمين إليها، وقد جرى على الألسن من تلك النبوءات: (ع) بن (ع) بن

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٥ ص١٧.

(٢) الطبري ج٩ ص٨٢.

(٣) الكامل لابن الأثير ج٥ ص١٧٠. والطبري ج٩ ص٨٥.

(ع) سيقتل (م) بن (م) بن (م) وتأوّلوا أن المراد بالأول هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس، والثاني هو مروان بن محمّد بن مروان. كما ادّعوا أيضاً أن النبي ﷺ كان يبشّر بدولة هاشمية، وزعموا أنّه قال لعمه العباس: إنها تكون في ولدك.

قال محمّد بن الأسود: بينما عبد الله بن علي، يساير أخاه داود بن علي ومعهما عبد الله بن الحسن، فقال داود لعبد الله: لِم لم تأمر ابنيك بالظهور؟

فقال عبد الله بن الحسن: هيهات، لم يأن لهما بعد. فالتفت إليه عبد الله بن علي فقال: كأنّك تحسب أن ابنيك هما قاتلا مروان.

فقال عبد الله: إن ذلك كذلك. فقال عبد الله: هيهات وتمثّل:

سيكفيك المقالة مستميت خفيف اللحم من أولاد حام

أنا والله قاتله[1].

وغير ذلك من التنبؤات التي كان يروّج لها بنو العباس، ويدخلونها في أذهان الأفراد الذين اعتمدوهم في التنظيم، وبثّوهم في الأقطار للدعوة ولكن تحت شعار: الرضا من آل محمّد.

ولما اتصل أبو مسلم الخراساني بإبراهيم الإمام فسأله عن اسمه، فقال: اسمي إبراهيم بن عثمان. فقال له الإمام: غيّر اسمك فإنه لا يتم لنا الأمر إلاّ بتغيير اسمك. على ما وجدته في الكتب. فسمّى نفسه عبد الرّحمٰن بن مسلم، وكنيته أبو مسلم.

وهذا يكشف لنا أن الدعوة كانت محفوفة بدعايات غيبية، وادعاء وجود كتب تنطق بانتقال الخلافة إلى بني العباس، ولكنهم تكتموا في إظهار ذلك للناس ولم يطلعوا عليها إلاّ النقباء من خواصهم، وكان التكتم باسم الخليفة هو عامل جوهري في نجاح الدعوة، حتى يتم الأمر، وينتهي كل شيء، عندما يزول سلطان الأمويين، وهناك يعلن باسم الخليفة الذي يعرفه القواد والنقباء. وقد احتفظوا لأنفسهم بتنازل أبي هاشم بن محمّد بن الحنفية عن الإمامة لهم، وهي دعوى غير معتبرة لأن الإمامة لم تكن ولن تكون لغير أصحابها والقائمين بها بالحق.

وعلى أي حال فإن الدعوة كانت تدعو إلى تحريك الشعور الديني بالانتصار

---

(١) المسعودي ج٣ ص١٨٨.

لأهل البيت، الذين أريقت دماؤهم في سبيل الانتصار للحق، وقدّموا أنفسهم إلى الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ولم يجرؤا على كشف مخططهم ونواياهم.

وبهذه الآمال انبعث في نفوس المسلمين الأمل بانبثاق فجر العدل الإسلامي الذي يضمن للناس سعادتهم، على يد رجل من أهل بيت النبي ﷺ وهم أئمة العدل وهداة الخلق، ولا سيما في الولايات التي كان الولاة والعمال يستغلونها لأنفسهم، مدفوعين بعوامل الجشع، وقد أذاقوا الناس أنواع الأذى وضروب المحن، فاستأثروا بالأموال وضاعفوا الضرائب، وأخذوا الجزية على المسلمين.

وكذلك انبعث الأمل في نفوس غير المسلمين ممن لم يعرفوا عن الإسلام في العهد الأموي سوى الاضطهاد، ودفع الجزية، وجباية الضرائب على اختلاف أنواعها، فاندفع كثير من الدهاقين من المجوس إلى اتباع أبي مسلم وأظهروا الإسلام.

كما استجاب كثير من أهل الآراء والعقائد الخارجة عن الإسلام، وغرضهم التخلّص من الحكم الأموي، عندما رأوا العطف من أبي مسلم على مذاهبهم وعقائدهم، وكان الكثير منهم يعتبرونه وحده الإمام، واعتقدوا فيه أنه أحد أعقاب زرادشت الذي ينتظر المجوس ظهوره، حتى أنّهم لم يعتقدوا بموت أبي مسلم، بل كانوا ينتظرون رجعته.

وصفوة القول أن العباسيين قد وجدوا الفرصة سانحة للقيام بدعوة الناس إلى الثورة ضد الأمويين، لوجود العوامل الكثيرة التي يأملون بها نجاح دعوتهم لأنفسهم، وقد تستروا بالدعوة لآل بيت النبي ﷺ وعترته، وهم يخفون من ورائها الآمال والمطامع لأنفسهم.

ولهذا التجأوا إلى مجاراة أبناء علي عليه السلام ليهيؤوا جواً تسوده مشاعر المحبة والوئام، حتى يتم لهم ما يريدونه، بدون عرقلة من جانب أهل البيت الذين هتفت الجماهير بالانتصار لهم، لذلك عقدوا في بادىء الأمر مؤتمراً بالأبواء يضم العلويين، والعباسيين، ليبايعوا رجلاً منهم، يكون هو الخليفة عندما يفتح الله عليهم في نجاح الثورة، وأرسلوا إلى الإمام الصادق عليه السلام وقد علموا إباءه في قبول البيعة من قبل.

وانتهى المؤتمر بعد مداولة فيما بينهم إلى مبايعة محمّد بن عبد اللّه بن الحسن وقد جاء في كلام المنصور يخاطب به الحاضرين:

لأي شيء تخدعون أنفسكم؟ والله لقد علمتم ما الناس إلى أحد أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى (يعني محمّد بن عبد اللّه بن الحسن).

فقالوا: قد والله صدقت، فبايعوا جميعاً محمّداً، ومسحوا على يده. وبعد ذلك حضر الإمام الصّادق عليه السلام وقال لعبد اللّه بن الحسن: «والله ما هي إليك (أي الخلافة) ولا لابنيك، وإنهما لمقتولان» ثم نهض[1].

ويمكننا أن نعتبر هذا المؤتمر من أهم الوسائل التي اتخذها العباسيون لإيقاف أي عرقلة تقف في طريق سريان الدعوة من جانب أهل البيت وأنصارهم المدفوعين بدافع الولاء، والانتصار للحق والعدالة، لأن أهل البيت لهم فضيلة السبق إلى الإيمان، وقوة التمسك بالدين، والتضحية في سبيل الله، وهم أعدل الناس في الحكم وأولاهم برعاية المصالح العامة، وفي تطبيق نظام الإسلام.

ولا يغرب عن البال ما حاوله العباسيون أيضاً في زج أبناء علي في ذلك المعترك السياسي، وهم يعلمون بالخطة التي اختطها الإمام الصّادق لنفسه، ولأبناء عمومته، من الانعزال عن تلك الاتجاهات والاحتفاظ بمركزهم الديني، لأن الظروف غير مواتية للثورة، وكل شيء يقع قبل أوانه فنتيجته الفشل، ولكن العباسيين استطاعوا صدع الصف العلوي بجلب البعض إليهم من بني الحسن في مبايعة محمّد بن عبد اللّه المحض.

والخلاصة: أن الدعوة استمرت في طريقها، وقام دعاة العباسيين بنشاطهم، وأظهروا حماساً شديداً في الولايات الإسلامية، فكانوا يجوبون بلاد خراسان لبثها، ولا يدعون لشخص معين، وإنما يذيعون بين الناس أنّه لا خلاص لكم إلاّ إذا ولي أمركم آل البيت.

وهكذا سار كل ما دبّره العباسيون بنجاح مدهش، فقد غلب أبو مسلم على خراسان، واستولى على كورها، وقامت الحروب هناك، وتجمعت الجنود يقاتلون ويبذلون نفوسهم وأموالهم في سبيل الانتصار، وهم يمتثلون الأوامر من قواد يدعون لخليفة لا يعرفه الناس، ولم ينفق عليهم مالاً ولم يعط أحدهم دابة، ولا سلاحاً، بل كانوا هم يجبون إليه الأموال، ويحملون إليه الخراج في كل سنة، وهو متستر بعبادته،

---

(١) مقاتل الطالبيين ص١٤٤.

وإصلاح شأنه حتى ظهر أمره لمروان، فقبض عليه سنة ١٣١هـ وحبسه بحران، ثم قتله، فخاف أخواه السفاح والمنصور وجماعة من بني العباس، وقصدوا الكوفة ولهم بها شيعة ودعاة، وفي طليعتهم أبو سلمة الخلال المعروف بوزير آل محمَّد، فأخلى لهم داراً، وتولى خدمتهم بنفسه، وكتم أمرهم لأنه أراد صرف الخلافة عنهم لآل علي.

ولكنه غلب على أمره، ووصلت جند أبي مسلم إلى الكوفة، وظهر أمر بني العباس، فأخرجوا السفاح إلى المسجد وبايعوه ولقّبوه المهدي، وخطب في الناس أول يوم من خلافته بخطبة استهلها بالتنويه عن الآمال التي بعثها الدعاة في النفوس بتلك الأساليب الخداعة، أو الكذب المنظم.

وعلى أي حال: فقد فاز العباسيون واعتلى أبو العباس السفاح عرش الخلافة، وتم لهم ما أرادوا، وقد خابت آمال المندفعين بدافع الإيمان الصحيح، والولاء لأهل البيت في إسناد الحكم إليهم لتحقيق العدل الإسلامي، والتكافل الاجتماعي، وتطهير الأرض من آلام الظلم وويلات الحروب، كما خابت آمال أبي سلمة الخلال في تحويل الأمر لآل علي، وعدوله عن الدعوة للعباسيين، وقد احتجزهم بالكوفة مدة من الزمن، ليكشف رأي العلويين في قبول البيعة لأنفسهم، ولكنه غلب على أمره، وانتهى كل شيء ببيعة السفاح.

ومهما تكن البواعث التي دعت أبا سلمة الخلال إلى تحويله عن فكرة الدعوة لبني العباس إلى آل علي، كما نص عليه كثير من المؤرخين[١] فلا يهمنا البحث عن ذلك، ولكن المهم هو الرد من قبل الإمام الصَّادق وعدم إجابته له، ففي ذلك دلالة واضحة على نظره الصائب وحدسه الثاقب، وعلمه بما وراء الحوادث. فلم يخدع بتلك المغريات، فيعرّض نفسه وأهل بيته، بل المجتمع الإسلامي كله لخطر لا قِبل لهم على دفعه.

دعوة الإمام الصَّادق للخلافة:

ذكر كثير من المؤرخين أن أبا سلمة[٢] كاتب ثلاثة من أعيان العلويين وهم: جعفر بن محمَّد الصَّادق، وعمر الأشرف بن زين العابدين، وعبد اللّه بن

---

(١) الطبري ج٩ ص١٢٤. وابن قتيبة ص١٢٨. والطقطقي ص١٢٧ وغيرهم.

(٢) أبو سلمة: حفص بن سليمان، كان مولى بني الحارث بن كعب، وقد نشأ بالكوفة، ولعب دوراً هاماً في الدعوة العباسية لما اتصف به من فصاحة وعلم بالأخبار والسير وقوة البديهة وحضور =

المحض[1]. وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم يسمى محمّد بن عبد الرّحمٰن بن أسلم مولى لرسول الله ﷺ وقال أبو سلمة للرّسول: العجل العجل فلا تكونن كوافد عاد. وقال له: اقصد أولاً جعفر بن محمّد الصّادق، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين. وإن لم يجب فالق عبد الله المحض، فإن أجاب فأبطل كتاب عمر، وإن لم يجب فالق عمراً.

فذهب الرّسول إلى جعفر بن محمّد أولاً، ودفع إليه كتاب أبي سلمة، فقال الإمام عليه السلام: «ما لي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري؟». فقال له الرجل: إقرأ الكتاب. فقال عليه السلام لخادمه: «ادن السراج مني» فأدناه. فوضع الكتاب على النار حتى احترق. فقال الرّسول: ألا تجيبه؟ قال عليه السلام: «قد رأيت الجواب. عرّف صاحبك بما رأيت».

فخرج الرّسول من عنده، وأتى عبد الله بن الحسن، ودفع إليه الكتاب، وقرأه وابتهج، فلما كان غد ذلك اليوم الذي وصل إليه فيه الكتاب، ركب عبد الله حتى أتى منزل أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصّادق، فلما رآه أبو عبد الله أكبر مجيئه، وقال: «يا أبا محمّد (كنية عبد الله المحض) أمر ما أتى بك؟» قال: نعم، هو أجل من أن يوصف. فقال له: «وما هو يا أبا محمّد؟» قال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني إلى الخلافة، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان. فقال له أبو عبد الله: «يا أبا محمّد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان، وأنت أمرتهم بلبس السواد، وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم، أو وجهت فيهم، وهل تعرف منهم أحداً؟» فنازعه عبد الله بن الحسن الكلام، إلى أن قال: إنما يريد القوم ابني محمّد لأنه مهدي هذه الأمة، فقال أبو عبد الله جعفر

= الحجة؛ وكان ذا ثروة طائلة ينفق من ماله على رجال الدعوة، وقد اتصل بإبراهيم الإمام بواسطة بكر بن ماهان، أحد أبطال الدعوة المختصين بإبراهيم الإمام، فلما أدركته الوفاة قال لإبراهيم الإمام: إن لي صهراً بالكوفة يقال له أبو سلمة الخلال قد جعلته عوضي في القيام بأمر دعوتكم، فلما مات كتب إبراهيم إلى أبي سلمة يأمره بالقيام بالدعوة، فقام بها خير قيام، وتركزت في الكوفة بجهوده، وقتله السفاح لعلمه بانحرافه وميله للعلويين بعد أن استوزره مدة.

(1) هو أبو محمّد عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب. لقب بالمحض لأنه أول من جمع ولادة الحسن والحسين من الحَسَنية. مات في حبس المنصور سنة ١٤٥هـ وقد تجرع الآلام والويلات هو وأهله كما أشرنا.

الصّادق: «ما هو مهدي هذه الأمة ولئن شهر سيفه ليقتلن».

فقال عبد الله: كان هذا الكلام منك لشيء. فقال الصّادق: «قد علم الله أني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم، فكيف أدخره عنك، فلا تمنّ نفسك الأباطيل، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء، وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك»[1].

وعلى ضوء ما تقدم نستطيع أن نكشف كثيراً من الحقائق الناصعة، فإن امتناع الإمام عن إجابة أبي سلمة دليل قاطع على أن خطته الحكيمة ومنهجه السديد في عدم امتزاجه بذلك المعترك الذي لا يؤمل من ورائه نجاح تلك المهمة قد أصاب كبد الحقيقة بتلك النظرة الصائبة والحدس الثاقب وعلمه بما وراء الحوادث، فقد فشل أبو سلمة فشلاً ذريعاً في تلك المحاولة التي جاءت متأخرة عن وقتها.

ولقد ابتعد الإمام الصّادق عن ذلك المعترك، وبذل لأبناء عمّه النصح بأن لا يزجّوا أنفسهم في ذلك الصراع، وحذّرهم عاقبة الأمر التي لا تعود عليهم إلاّ بالخيبة، وقد لقي منهم استنكاراً، وربما اتهموه، ولكنه يرى ما لا يرونه ويعلم ما لا يعلمون. إذ الأمر جاء قبل أوانه، وهو عليه السلام يرى التريث إلى حين إعداد العدة وإحكام الأمور وحلول الوقت المناسب.

ولم يكن أبو سلمة وحده يتحول عن رأيه في الدعوة لبني العباس، فقد سبقه أبو مسلم الخراساني لذلك، فإنه تحول عن رأيه، وحاول أن يستميل الإمام الصّادق في إسناد الحكم إليه. فكتب إلى الإمام الصّادق عليه السلام كتاباً يقول فيه:

إني قد أظهرت الكلمة، ودعوت الناس عن موالاة بني أمية إلى موالاة أهل البيت، فإن رغبت فلا مزيد عليك.

فكتب إليه الإمام عليه السلام: «ما أنت من رجالي، ولا الزمان زماني»[2].

وها نحن أولاء نترك تقدير هذا الجواب إلى القارىء النبيه، ليلمس فيه الحقائق التي تدل على الروح المشبعة بالإيمان، والشخصية المستعصمة بالفكر الثاقب، والنظر الدقيق لعواقب الأمور، ومراعاة المصلحة العامة، والسير على الخطط المحكمة والآراء السديدة، في تقدير الظروف ومناسباتها، فلم يندفع وراء تيار الأقوال البرّاقة،

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج٣ ص٢٦٨ و٢٦٩. والآداب السلطانية ص١٣٧.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص٢٤١.

ولم يجر في ميدان السياسة عندما حاول الكثيرون إثارة حفيظته، وتحريك عواطفه نحو الثورة وإعلان الحرب على أولئك الحكام الذين استشرى داؤهم وعظم خطرهم.

ولقد أراد بعض أصحابه حمله على الخروج وإعلان الثورة لما يعرفونه من كثرة محبيه وأنصاره، ولكنهم كانوا ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية، فتغلب عليهم سلامة الصدر، وسرعة التصديق.

دخل عليه سهل بن الحسن الخراساني فسلم عليه وقال له: يا ابن رسول الله لكم الرأفة والرحمة، وأنتم أهل بيت الإمامة، ما الذي يمنعك أن يكون لك حق تقعد عنه؟! وأنت تجد من شيعتك مائة ألف يضربون بين يديك بالسيف.

ودخل عليه سدير الصيرفي، فقال: يا أبا عبد الله ما يسعك القعود. فقال عليه السلام: «ولم يا سدير؟» قال: لكثرة مواليك وشيعتك وأنصارك. فقال: «يا سدير وكم عسى أن يكونوا؟» قال: مائة ألف. فقال الصّادق عليه السلام: «مائة ألف؟» قال: نعم[1].

فأجابه عليه السلام بما حاصله: أن تلك الكثرة المزعومة، وذلك العدد الكبير لا يوجد فيهم من الرجال المخلصين الذين تمكنت العقيدة في نفوسهم إلاّ نفر قليل، فلا يمكنه أن يخوض معركة كما يريد سدير وغيره، مع عدم وجود العدة الكافية من المخلصين الذين يمكنه الركون إليهم والتعويل عليهم. فإن التسرّع في مثل تلك الظروف عديم النفع، وإن أنجع وسيلة أن يواصل دعوته لإيجاد التكامل الخلقي، والتكافل الذي يربط أجزاء المجتمع، ويصل الأفراد إلى نقطة الإدراك لكيفية الانتفاضة ضد الحكم القائم، ويحصل وعي عام من جراء أعمال ولاة الأمر، المخالفة لنظم الإسلام، فتكون الثورة للعدالة الضائعة ولتحقيق نظم الدين. ولا جدال بأن الإمام الصّادق كان يفكر ويقلب وجوه الرأي، ليجد المدخل الذي يدخل منه لإصلاح ما فسد من أمور المسلمين، ويحاول أن يسلك أقرب الطرق للوصول إلى حل تلك المشاكل، وإنقاذ المجتمع من براثن الظلم ونير الاستعباد، عندما ولي الحكم أناس انحدروا مع شهواتهم انحدار البهائم، وتناحروا تناحر الوحوش، وتهافت الناس لاتباعهم كتهافت الفراش على النار، فلا يمكنه أن يخوض ذلك المعترك المضطرب

---

(١) الكافي ج٢ ص٢٤٣.

الهائج، لأن في ذلك ضياع المصلحة التي يحرص عليها، وإهدار للدماء من غير نتيجة مرضية. ولقد عاش عليه السلام وهو غير بعيد عن مجتمعه الذي يعيش فيه، وقد عرف مقدرتهم الحربية فلا يمكنه الركون إليهم والاعتماد عليهم لأنّهم لا ينتصر بهم في حرب، ولا يثبتون في شدة. وأهل الثبات والصدق قلّة في مواجهة قوة الحكام الغاشمة، ولكل دم من آل بيت محمّد ﷺ رسالة، فلولا دم الحسين جدّه لتمكنت أمية من تحقيق ردّتها وتغليب جاهليتها، وها هم آل الرّسول يحامون عن وجودهم من دون إعلان للثورة، فلماذا يقدم نفسه وشيعته طعمة سهلة ولقمة سائغة. وسعي الناس إلى الرضا من آل محمّد لا يكف، وثوراتهم لا تتوقف، ولكن ما وهبه الله من محبة في النفوس وانقياد إليه لا يبرر التعرّض لأهل القوة والسلطان، كما لا يكفي الهياج في الأحاسيس والمشاعر. وحدها خطة الإصلاح والدعوة إلى التمسّك بأهداب الإسلام هي التي تكفل للمؤمنين النجاح والبقاء.

ولم يكن أبو سلمة معروفاً بولائه الصحيح، وعقيدته الصادقة فيكون محل ثقة الإمام ليستجيب له، ولو استجاب لكانت العاقبة أدهى وأمرّ، كما اتضحت الحالة وظهرت الحقائق.

وصفوة القول إن الإمام الصّادق عليه السلام قد اعتزل ذلك المعترك السياسي، لا عن خضوع وتسليم، بل كان انعزال ثورة وتصميم، فقرّر أن يدعو إلى الله، لتوجيه الوعي الإسلامي بالقوة الروحية التي جعلها الإسلام هي الأساس الوحيد للحياة الدنيا، وهو أقوى أثراً في اندفاع الإنسان إلى العمل. والشعور بالمسؤولية، وأن يقوم المصلحون بالدعوة الصامتة، فهي أنجح الوسائل في التبليغ، وأقرب الطرق لهداية الناس.

إذاً ما هي الدعوة الصامتة؟..

الإمام الصَّادق
الدَّعْوة الصَّامِتة

قال الإمام الصَّادق لأصحابه:

«أوصيكم بتقوى الله واجتناب معاصيه، وأداء الأمانة لمن ائتمنكم، وحسن الصحابة لمن صحبتموه، وأن تكونوا لنا دعاة صامتين».

موقف الإمام الصادق واتجاهه للإصلاح:

تقدمت الإشارة في الأبحاث السابقة عن موقف الإمام الصَّادق وسط ذلك المعترك السياسي المائج بالفتن والهائج بالأهواء، فلم يساهم عليه السلام في تلك الحوادث أو يمد يده أنملة للاشتراك فيها، لعلمه بعواقب الأمر، وأن الدعاة لهم أهداف وغايات. فاختط لنفسه ولأهل بيته خطة الاعتزال عن تلك التيارات والأعاصير السياسية، واتجه إلى الاحتفاظ بمركزه العلمي، لأداء رسالة الإسلام على أكمل وجه، فذلك وحده كفيل بسعادة المجتمع. فابتعد عن المغامرة رغم إلحاح الكثيرين ممن ينظرون إلى الأمور نظراً سطحياً، ولا يعلمون بعواقب الأمور. فهم يظنون أن الزمن قد حان لإقامة حكومة عادلة تسير على نظام الإسلام وقوانينه، وهو المؤهل لتلك المنزلة لأنه زعيم أهل البيت وسيدهم، وله المكانة المرموقة في المجتمع بشخصيته الفذّة، التي كانت تزعج الفئة الحاكمة، وتثير كل مخاوفها، الأمر الذي جعل الكثير من الناس يرمقونه بعين الإكبار، ويعدّونه الرجل المنقذ الذي تتحقّق بشخصه آمالهم بالقضاء على ذلك الحكم الذي أذاق الناس أنواع المحن والظلم.

فكان عليه السلام على جانب كبير من رصانة التفكير، وبُعد النظر في العواقب،

وخبرة فائقة بأحوال الناس ونزعاتهم وميولهم، وعلماً بالظّروف ومقتضيات الزمن، فلم يستجب لتلك المحاولات، ولم يتحول عن منهجه فيغامر بنفسه وبأهل بيته مغامرة عقيمة النتائج، تعود على المجتمع بأخطار جسيمة؛ لذلك كان ينهى أبناء عمه عن القيام بكل نشاط ثوري، لثقته بفشل كل محاولة في ذلك الوقت. فلم يتجاوز في نشاطه الحد الذي يهدم جهوده التعليمية، أو يحول دون متابعة دعوته الإصلاحية، ولو أنه أجاب أبا سلمة أو أبا مسلم لما ندباه إليه كما تقدم، لكان عرضةً لتلك الأخطار التي حلت بغيره ممن عرف بنشاطه الثوري. فكان لتلك الأحداث أثر سيىء في نفوس الناس.

ولا بد لداعي الإصلاح من أنصار ينصهرون بمبادىء الدعوة وأهدافها يشاركونه بذلك الشعور عن نية صادقة وعزيمة ثابتة، لينتصر بهم ويركن إليهم، ويكونوا أعواناً مخلصين يأمنهم في كل خطوة يخطوها بطريق الإصلاح. وكم من إنسان يأمل النصر من أناس، ولكنهم يخذلونه عند حاجته إلى النصر، لعدم اختباره لهم وعدم علمه بأحوالهم، لذلك كان من المحزن تحسّس ذلك النوع من الأنصار كما فعل الإمام الصّادق، ويظهر أثره في جوابه لأبي مسلم[1] بقوله: «ما أنت من رجالي ولا الزمان زماني». وكذلك قوله لرسول أبي سلمة: «ما أنا ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري» فلا

(١) أبو مسلم الخراساني: هو عبد الرّحمٰن بن مسلم. اتصل بإبراهيم الإمام وهو غلام، فنشأ في خدمته وتربى في نعمته، وكان ذكياً فطناً قوي النفس، فأرسله إبراهيم إلى خراسان داعياً للدولة وهو ابن ثمان وعشرين سنة، وقال لهم: إنه منا أهل البيت. فكان يسمّى أمين آل رسول الله، وقام بدوره في الدعوة حتى أظهرها سنة ١٢٩هـ وكان شديد البطش سفاكاً للدماء حتى أحصي من قتلهم في أيامه فكانوا ستمائة ألف.

ذكر ابن عساكر أن رجلاً قام لأبي مسلم وهو يخطب، فقال له: ما هذا السواد الذي عليك؟ قال: حدّثني أبو الزبير عن جابر أن رسول الله دخل مكة وعليه عمامة سوداء، يا غلام اضرب عنقه فضربت عنق الرجل السائل.

وقد استقل أبو مسلم بالحكم والناس له تبع، حتى قال بعضهم بإمامته، ولما خشي المنصور من بطشه احتال عليه فقتله سنة ١٣٧هـ فلم تصدق طائفة من تابعيه بموته، وقالوا إنه حي، وذهبت أخرى إلى التصديق بموته، وقالوا بإمامة ابنه من بعده. والتاريخ حافل بأخباره وسيرته من بطش وفتك وتقلب في الرأي وفساد في العقيدة.

سأل بعضهم عبد الله بن المبارك عن أبي مسلم: أهو خير أم الحجاج؟ فقال: لا أقول أن أبا مسلم خير من أحد، ولكن الحجاج شرّ منه.

يمكنه القيام بثورة دموية وقد عرف عواقبها، واتضح للجميع نتائج القيام بها مع علمه بذلك المجتمع الذي أنهكت قواه الحروب المتتالية والثورات المتتابعة.

وقد وجد عليه السّلام أن الأمر يدعو إلى الحزم والتريث، وأن يتحيّن الفرص المؤاتية، إذ القيام بأمر في غير أوانه لا بد وأن يفشل وينهار، فصمّم على الاحتفاظ بالاتجاه العلمي، والوقوف موقف المصلح المتسلّح بالإيمان بالله، ونشر تعاليمه، وبعث الوعي الإسلامي بالقوة الروحية، التي هي أقوى العوامل في الالتزام الديني والسعي إلى الخير، وقد جعلها الإسلام هي الأساس الوحيد للحياة الكريمة والمجتمع الأمثل، لأن المجتمع الإسلامي حسب تعاليمه ونُظُمه لا يقوم إلاّ على الإيمان بالله بعقيدة راسخة، ومنه تنبعث القوة الروحية، لأداء الواجب والشعور بالمسؤولية والتضامن بين الأفراد والتكافل الاجتماعي، وبذلك يسعد المجتمع وينعم أفراده.

فكان الإمام الصّادق عليه السلام خير داعية للإصلاح لما اتصف به من صدق القول ومثابرة العمل، ولم يقعد به عن ذلك ما لقيه من الأذى وما نزل به من مصائب، فلم تهن عزيمته ولم تفتر همّته، بل ثبت في نشر دعوته، وواصل أداء رسالته بالدعوة إلى العمل الصالح، وهو دليل رسوخ العقيدة والإيمان بالله. وكلما ازداد الإيمان بالله ازداد العمل الصالح، وبذلك تهون المخاطر التي تحوط دعوة المصلح وتهددها، ويكسبها قوة الصمود، وقدرة اجتياز العراقيل والعقبات.

وكيف ينجو المصلح من مجابهة الشدائد؟ ومهمته أن يحول بين نفوس الناس وشهواتها، ويباعد بينها وبين ما ألفته من العادات، فمن العسير أن يخلعوا أنفسهم مما هم فيه، وأن يمدّوا أعناقهم للحق الذي ابتعدوا عنه.

والمصلح يحتاج إلى ثبات، فلا يتسرب اليأس إلى نفسه، ولا تهن عزيمته عندما يصطدم بعقبة تعترض سبيل دعوته. ولا يحصل ذلك الثبات إلاّ بقوة الإيمان بالله. وهناك يستطيع أن يوجد أمة تصرخ بوجه الطغاة الذين استبدوا بالحكم، وظلموا العباد وخربوا البلاد ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فالذين آمنوا بالله حق الإيمان يجاهدون في الله حق جهاده، لتكون كلمة الله هي العليا، ولا تأخذهم في الحق لومة لائم.

أسس الدعوة إلى الإصلاح:

اتجه عليه السلام منذ تفرّده بالزعامة واستقلاله بمهمة الإمامة إلى الدعوة لله، وقد ألزم دعاة الخير وقادة الصّلاح بأن يدعوا الناس بأعمالهم قبل الدعوة لهم بأقوالهم، لأن الناس من شأنهم أن ينظروا في أعمال من يدعونهم إلى الخير، فإن رأوا منهم العمل بما يدعونهم إليه والوقوف عند حدوده اتبعوهم، وإن رأوا عملهم يخالف قولهم نبذوهم. ولذلك قالوا: إن تأثير العمل على الناس فوق تأثير القول.

وإن أمثل قاعدة يسترشد بها في اصطفاء من يتخذه الناس زعيماً لهم وقدوة هي أعماله، فهي التي تجعله أهلاً لأن يسلم إليه الناس قيادهم، ويأتمنوه على عقولهم يثقفها ويغذيها، وعلى أخلاقهم يقوّمها ويزكّيها، وإن أثر الحكمة الخلقية تسمع من أفواه الوعاظ أو الدعاة إلى الخير ليس بأكثر منها وهي مسطورة في الكتب، أو منقوشة في الجدار، إذ الأقوال الخالية عن العمل من قبل قائلها تدعو الناس إلى عدم الاعتداد بها؛ لأنهم لا يرون أثراً منها على من يأمر بامتثالها. فلهم الحق إذا نفروا عنه. وكان ذلك من جملة العوامل التي دعت الإمام إلى تقرير القيام بالدعوة الصامتة كما جاء في وصيته لأصحابه بقوله: «أوصيكم بتقوى الله، وأداء الأمانة لمن ائتمنكم، وحسن الصحابة لمن صحبتموه، وأن تكونوا لنا دعاة صامتين».

فوقع هذا القول عندهم موقع الاستغراب. أجل، كيف يكون الداعي للخير صامتاً؟ وكيف يقومون بهذه المهمة وهم لا يتكلمون؟ فطلبوا منه إيضاح الأمر وإزالة الاشتباه ليزول الاستغراب فقالوا: يا ابن رسول الله وكيف ندعو ونحن صامتون؟

قال عليه السلام: «تعملون بما أمرناكم به من العمل بطاعة الله، وتعاملون الناس بالصّدق والعدل، وتؤدّون الأمانة، وتأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، ولا يطّلع الناس منكم إلاّ على خير، فإذا رأوا ما أنتم عليه علموا فضل ما عندنا، فتنازعوا إليه». وبذلك أراد أن تكون الواسطة بينه وبين المجتمع تعكس واقع تعاليمه، وتحبذ منهجه ومبادئه، فركّز على أن ينهج أصحابه منهج العمل الصحيح والقول الصادق.

ولم يزل يكرّر هذه القاعدة، ويلزم أصحابه بها، ويحثّهم على العمل بما أمرهم به، وقد ورد عنه كثير من الأقوال بهذا المضمون.

قال أبو أسامة: سمعت أبا عبد اللّه الصّادق يقول: «عليكم بتقوى الله، والورع

والاجتهاد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الخلق، وحسن الجوار، وكونوا دعاة لأنفسكم بغير ألسنتكم وكونوا زيناً، ولا تكونوا شيناً».

وقال ابن أبي يعفور: سمعت الصّادق يقول: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم. ليروا منكم الاجتهاد، والصدق، والورع».

فالإمام الصّادق عليه السلام كان يحاول أن يكون أساس الدعوة هو العمل الصالح والخلق الطيب، فهي أنجع وسيلة لخوض معركة صامتة، تكافح المظالم بكافة أنواعها، وتقف إلى جنب المظلومين، ليظهر بذلك خطأ أولئك الذين اغتصبوا حقوق الأمة، وترأسوا على المسلمين، وقد انحرفوا كل الانحراف عن مبادىء الإسلام وتعاليمه.

فالمسلم الذي يتحلى بصفات الإسلام لا يمكنه النفاق ولا المسايرة لذلك الركب المنحرف عن طريق الحق والرشاد.

نعم إنه عليه السلام يرى أن الدعوة الإصلاحية بالأقوال والمواعظ الخلقية والاجتماعية لا يتحقّق أثرها إلاّ إذا كانت الأعمال مظاهر لها، وأن الاتصاف بتقوى الله واجتناب معاصيه، ومعاملة الناس بعاطفة نبيلة وخلق رفيع، وأداء الأمانة وحسن الصحبة والجوار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل صفة من صفات الخير والصلاح كما جاء في وصيته، لجدير بأن يكون صاحبها مقبولاً قوله، مؤثراً بدعوته، لأنه يملك مشاعر أبناء جنسه، فهم يحبونه ويخلصون له بالمودة، وناهيك بما وراء الحب من أثر في تغيير الطباع لاتباع المحبوب.

وقد قرّر علماء الاجتماع: أنه لا يتم إصلاح لأمة من الأمم أو لشعب من الشعوب إلاّ إذا أفعمت القلوب حباً للمصلح وطاعة لأوامره.

وإن الاتصاف بالأخلاق الفاضلة والانتصار على النفس ما هو إلاّ خطوة نحو الثورة الشاملة لجلب قلوب الناس، لمن اتصف بتلك الصفات، وإن المرء إذا استطاع ضبط نفسه وتنظيمها، لجدير بأن تنقاد الناس إلى دعوته.

مهمة الداعي:

إن مهمة الداعي إلى الله مهمة عظيمة، وعليه مسؤولية كبرى، ولا يستطيع أن يقوم بهذه المهمّة من ترمي بهم المصادفات، لأنه ليس كل فرد صالحاً لهذا العمل الشاق، ولا كل فرد قادراً على تحمّل أعبائه، فيجب أن تتوفر في الداعي صفات عقلية

وأخلاقية تخوّله أداء واجبه على الوجه المطلوب، إذاً فلا بد لمن يقوم بالنصح أن يتصف بالصبر ومحامده، ويتحمل الأذى وشدائده، فلا يبالي بما يلاقيه من أذى في سبيل أداء رسالته ونشر عقيدته، وأن تكون له برسول الله أسوة حسنة. وكل هذا إنما يتفرع عن الإيمان بالله والعمل بطاعته.

وقد تضمنت فقرات تلك الوصية المتضمنة لهذه القاعدة الإصلاحية (الدعوة الصامتة) كل نواحي الخير في الإنسان الدالة على كماله النفساني وهي ثلاثة:

١ ـ الناحية الاعتقادية التي تكمن وراءها القوة الروحية، وعليها تبتنى صحة أعماله، وهي تتمثل في إدراكه بصلته بالله، وامتثال أوامره، وتلك القوة هي أعظم أثراً في قيام الإنسان بالعمل. وهذا الإدراك العقلي، أو الشعور الوجداني بصلة الإنسان بالله يجعل الإنسان مدفوعاً إلى العمل بطاعته.

٢ ـ ناحية خلقه الفردي وتهذيب نفسه بالأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة، لأن بناء المجتمع الصالح إنما هو بصلاح أفراده، وإعدادهم لأن يكونوا أعضاء صالحين، وتزويد كل فرد منهم بما يجب عليه للأسرة وللمجتمع، فإذا صلح الفرد وتهذبت الأسرة صلحت الأمّة، واتجهت لسبيل الصّلاح.

٣ ـ الناحية الاجتماعية التي تنشأ عن مخالطة الناس ومعاشرته لهم من حسن الصحبة، وحسن الجوار، وأداء الأمانة وغيرها، فإذا كملت في الشخص هذه النواحي الثلاثة، كان هو الإنسان الذي يصلح لأن يدعو إلى الخير وسواء السبيل. وعلى هذا فليست العبرة بالصلاح هي المظاهر التي يكون مرجعها القلب، وما قد نواه في ذلك، ولكل امرىء ما نوى، فربما يكون الداعي مظهراً للدعوى بطول السجود وكثرة التسبيح، ولكن باطنه غير ظاهره، بل العبرة بالاستقامة ظاهراً وباطناً، وإتيان الأعمال الصالحة التي تنبعث عن النية الصادقة والإيمان، بما يعود على المجتمع بالسعادة في حسن المعاملة مع الناس، ولذلك يقول الإمام الصّادق عليه السلام:

«لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإن ذلك ربما يكون شيء قد اعتاده، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء الأمانة».

والغرض أنه عليه السّلام كان حريصاً على توجيه الأمّة توجيهاً صحيحاً لتسير إلى المثل الأعلى في الحياة، وأن تسعى ما أمكنها السعي إلى تطبيق نظم الإسلام وتعاليمه. ففي ذلك صلاح المجتمع وسعادته، وأي إصلاح أعظم من نشر دين يهدي الناس إلى المحبة والتعاون والأخوة الصادقة.

الإسلام هو دين الله الذي أنزله رحمة بالإنسانية المعذبة، فهو دين شامل بتعاليمه، يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الظلم والفحشاء، ويجعل المجتمع كنفس واحدة، لأنه يبعث في نفس كل فرد شعوراً يلزمه احترام جميع الأفراد، كما يشعر بأضرار أبناء جنسه وآلامهم، كشعوره بأضرار نفسه وآلامها، ويحس بمنافع أبناء مجتمعه كإحساسه بمنافع نفسه، طبقاً للتعاليم التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ومنها: «أحب لأخيك المسلم ما تحب لنفسك».

ويقول الإمام الصّادق: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إذا اشتكى شيئاً منه وجد ذلك في سائر جسده، إن المؤمن أخو المؤمن هو عينه ودليله، لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشّه ولا يعده عدة فيخلفه».

الإسلام يتناول الحياة كلها بجميع ما تشتمل عليه من تنظيم، وهو يرسم للبشر صورة كاملة لما ينبغي أن تكون عليه حياتهم في هذه الأرض.

الإسلام يتناول الإنسان فرداً في جميع أحواله يوجهه ويهذبه، ويتناوله وهو يعيش في مجتمعه مع غيره من الأفراد، فأعطى للمجتمع دروساً يبيّن له كيف تكون الصِّلات بين أفراده، وكيف تكون العلاقات وتنشأ المودة والإخاء والحب والتكافل والتعاون، ولو نفذ المسلمون دستور دينهم، وساروا على منهاجه وتعاليمه، لكانوا المثل الأعلى للإنسانية الراقية، ولسادوا العالم بأسره ولأصبح كل فرد منهم مثالاً للفضيلة ورمزاً للكمال.

شخصية الداعي:

وصفوة القول إنه عليه السلام اتجه إلى الإصلاح بالدعوة للعمل الصالح، لأن العمل الصالح من شأنه أن يحول بين الناس وبين ظلمهم بعضهم بعضاً، وهو أعظم حاجز بينهم وبين الشرور، ومن شأنه أن يهذب النفوس ويطهرها من الخبث، لأنه يربط الإنسان بربه بصِلَة الإيمان به، فهو يخشاه في سرّه وعلانيته، ومن كان كذلك فلا يُخشى ضرره، ولا يقع منه ظلم، ولا يصبح أسير شهواته، وصريع أهوائه. ومن كان يدعو الناس إلى دعوة هذا أساسها، فجدير به أن يتحمل الأذى، ويصبر على ما يلاقيه من أعداء الحق وأنصار الباطل، فلا يهون لشدة، ولا يضعف لاضطهاد، بل يقابلها بالحزم والعزم، وبقلب لا يعرف الضعف إليه سبيلاً، ولا يجد الخوف من الناس فيه مكاناً.

فلقد كان عليه السلام قوياً في دينه لا يهن لشدة، ولا يضعف عند النكبة، بل يتلقى كل ذلك بقلب لا يتسرّب إليه الضعف، وفؤاد لا يتزلزل عند النوازل، وهو قوي الثقة بربّه وخالقه، كثير الرجوع إليه في حاجاته ومهماته، يلجأ إليه في كل شدة، ويتنصر به على أعدائه، ويرد بالالتجاء إليه كيدهم، وما يريدونه به من سوء وما يدبّرون له من مكائد.

ولقد مرّت عليه أيام مختلفة تبدلت فيها سياسات، وتقلّبت فيها أمور، وشاهد أنواعاً من الحكم، وكانت الأيام تبسم له مرة وتعبس أخرى، ويقسو عليه الحكم تارة، ويلين تارة أخرى، وهو يتحمّل الأذى ويصبر على المحن، وكيف لا يكون كذلك وهو يحمل رسالة الإصلاح وأعظم مصلح عرفه التأريخ في عصره وبعد عصره. كان هدفه تقويم المعوج وإرشاد الضال وتوجيه الشاذ، ليسير بالقافلة في طريق الخير مرحلة إثر مرحلة، ولا تحول دونه ودون عزيمته المخاطر والأهوال، ولا يخشى انفجار مشاعر أعدائه المكبوتة. وغيظهم المتوقد، وقد مرّ غير مرة محاولة أعدائه للفتك به، والقضاء عليه، وترويج التهم حوله، ولكن الله عصمه ورد كيدهم عنه، ولما حل قضاءه ولا راد لقضائه نفذ ما أرادوه، وتم ما حاولوه من المكيدة. فمضى بعد أن ترك للأجيال دروساً وعبراً لم تكن مقصورة على أتباعه فحسب، بل كانت عامة لجميع الأمة.

ملاحظات حول دعوته الإصلاحية:

١ ـ إن قوله عليه السلام: «كونوا دعاة صامتين». لم يكن المقصود منه كون الداعي للعمل الصالح صامتاً مطلقاً، لأن ذلك ينافي قوله عليه السلام: «تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر». والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكونان مع الصمت، ولكن المقصود بأن يكون القول مقروناً بالعمل، إذ هو بدونه لغو كما تقدم بيانه، فجعل عليه السلام الدعوة بالعمل الصالح قبل الدعوة بالقول.

٢ ـ إنه كان يأمر بالإقدام على النصح، وأن لا يحول بين الداعي وبين نشر دعوته خوف ظالم؛ لأن الأمر بالمعروف من أهم فروض الإسلام وأكبر واجباته، إذ هو أساس نشر الحق، وإعلان المبادىء السامية. فيقول في الحث عليه: «أأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يقربا أجلاً ولم يبعدا رزقاً». ويقول: «ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

٣ ـ يتجلى لنا أن هذه الدعوة قد وقفت في طريقها عقبات وحواجز، لأن في انتشارها انتشار لمبادىء الإسلام ونظمه وتعاليمه، ولم يبق من وراء ذلك لظالم طمع بالحكم، ولا لمعادي الإسلام من وسيلة يحاربه بها انتصاراً لمبادئه، لذلك فقد أحست العناصر المعادية للإسلام بخطر هذه الدعوة، وإنها بدون شك ستقضي على مآربهم التي من أجلها اندسوا في صفوف المسلمين، وتهدم آمالهم المعقودة على ذلك التدخّل، من إثارة الفتنة وتشويه محاسن الإسلام، عندما يغيرون الحقائق ويقلبون الأوضاع، ولهذا أطلقوا دعاتهم ضد تحقيق هذه الدعوة الإصلاحية، فانتحلوا لأنفسهم حب أهل البيت، وأظهروا ولاءهم للإمام الصّادق، الذي انفرد بزعامة ذلك البيت الطاهر. وقد تبرأ منهم وأمر بهجرهم. لأن تلك الفئة المعادية للإسلام انطلقت بكل قوة، فاستغلت جهالة العامة ممن لم تساعدهم ظروفهم على الاتصال بأهل البيت، فصدقوا بما ادعاه أولئك المندسون في صفوف الأمة من الغلو في أهل البيت.

٤ ـ إن الناس في مقابلة الدعوة الإصلاحية ثلاثة طوائف: فطائفة تتقبل الدعوة وتناصرها ظاهراً وباطناً ويضحون في سبيل مناصرتها، وهم ذوو العقول الراجحة الذين لم تستطع العاطفة أن تسيطر على عقولهم، بل غايتهم اتباع الحق، والحق أحق أن يتبع.

وطائفة أخرى تعادي تلك الدعوة ظاهراً وباطناً، مع اتضاح صدق الداعي وظهور حجته، ووضوح برهانه، وهم المعاندون، والمعاند لا يقنع بشيء، لأنه لا يطلب حقاً ولا يحيد عن باطل، وإنما هو متعنت يخالف الواقع، ويبعد عن سنن الطريق لخبث في نفسه وفساد في طويته.

وطائفة ثالثة تعادي في الباطن وتناصر في الظاهر وهم المنافقون[1] وهؤلاء أشد ضرراً على الدعوة من الفئة الثانية، وهم المعادون لها ظاهراً وباطناً، لأنهم شاركوهم بتلك الصفات الخبيثة، وقد امتازوا عليهم بالجبن والخور وضعف القلب، فلا

(١) المنافق مشتق من النافقاء، وهو جحر الضبأ أو اليربوع، فالمنافق هو مثل ذلك الحيوان الخبيث يعمل له جحراً في الأرض يسمى النافقاء، له بابان إذا أراد أن يدخل إليه من أحد البابين لوح له بذنبه أنه مقبل عليه ليطمعه، ثم يخرج من الباب الآخر، أو هو كجحرة اليربوع التي يعملها في الأرض ظاهرة يراها الناس، فإذا ذهبوا إليها إذا به قد أعد جحراً آخر قد أخفاها عن الناس. ونافق اليربوع إذا أتى النافقاء.

يستطيعون أن يصارحوا المصلح بأنهم أعداء له، إذ ليست لهم قابلية الجرأة الأدبية، ولا تسمح نفوسهم بأن يظهروا بالمظهر الواقعي، ويتقبّلوا تلك الدعوة بقبول حسن عندما يصطدمون بالواقع، لخبث نفوسهم وفساد نيتهم.

٥ ـ نظراً لأهمية هذا الموضوع وما يتعلّق به، فإن المجال لا يتسع للإحاطة بجميع أطراف البحث، وإن للإمام الصّادق أقوالاً كثيرة ومواقف متعددة حول الدعوة بالعمل الصالح، فلذلك اخترنا الوقوف عند هذا الحد من البحث حول الدعوة الصامتة التي قام بها عليه السلام في عصر انطلاق الفكر، وازدهار العلم، وهو رئيس أعظم مدرسة إسلامية، وزعيم تلك الحركة العلمية، وكان خير قدوة صالحة في العلم والعمل الصالح، لا يفتر عن تعليم الناس وتوجيههم إلى الخير والفضيلة، كما لا يفتر عن عبادة الله والعمل بطاعته ويخشاه في سرّه وعلنه.

وقد أشرنا سابقاً إلى موقفه تجاه حكام الجور ومقاطعته لهم، وقد أمر الناس بالابتعاد عنهم، كما أبعد عنه المتقرب منهم إليه، وحرم الولاية لهم، لأنه عليه السلام يرى أن ولاية الجائر دروس الحق كله وإحياء الباطل كله.

وكان يحرم معاونتهم حتى في بناء المساجد، لأنهم لا يملكون هذه الأموال، فلا يقبل منهم العمل فيها حتى في وجوه الخير، والإمام عليه السلام يهدف بهذه المقاطعة وعدم التعاون مع حكام الجور، الذين ادعوا الخلافة الإسلامية، أن يضيق دائرة نفوذهم، ويوقظ الناس من غفلة اتباع أناس لا يليقون بهذا المنصب؛ لأن المقاطعة لحكام الجور ترغمهم على الاعتدال، أو التخلي عن الحكم بدون إراقة دماء، وقد أمر الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

فكانت مهمة الإمام الصّادق عليه السلام تطبيق هذا الأمر، لأنه أنجع وسيلة تنتصر بها الأمم على حكام الجور، الذين يسيرون بغير صواب ويحكمون بغير العدل.

* * *

الإمـــام الصَّـــادق
انطباعات عن شخصيَّته

تمهيد:

للإمام الصّادق شخصية قوية، ومكانة مرموقة، ومركز ملحوظ عند سائر الطوائف وجميع الفرق. شخصية أقر لها العدو بالفضل. شخصية هي مثال للصفات الكاملة والمزايا الحميدة، فهو الصادق في لهجته، والمنزه عما لا يليق بمنزلته، وهو زعيم أهل البيت وسيدهم في عصره.

لقب بالصّادق لأنه عرف بصدق الحديث حتى أصبح مضرب المثل في عصره وبعد عصره. قال ابن الحجاج وهو الشاعر المشهور:

يا سيداً أروي أحاديثه　　　رواية المستبصر الحاذق
كأنني أروي حديث النبي　　　محمَّد عن جعفر الصَّادق

لقد كان عليه السلام مفخرة من مفاخر المسلمين لم تذهب قط، وإنما بقي منها حتى القيامة صوت صارخ يعلم الزهاد زهداً، ويكسب العلماء علماً.

لقد كانت له هيبة يخضع لها جليسه، وصدق لهجة يطمئن إليه من يحدثه، وحسن بيان ينفذ إلى قلوب سامعيه، وقد أعطي من قوة البيان ووضوح الحجّة ما جعل المعاندين يصغون لحسن بيانه، ويخضعون لبرهانه.

وكان من السابقين بالخيرات رغبة بما وعد الله، ومن دعاة الخير الذين لا يدخرون نصحاً عن المسلمين، حتى انطبع في قلوب معاصريه من العلماء تعظيمه وتبجيله. فكانوا يقصدونه من كل الأطراف لاستماع مواعظه والاستفادة من علومه، وكان مجلسه مكتظاً بوجوه الناس من أطراف البلاد النائية، يغتنمون فرصة الاتصال به والانتهال من نمير تعاليمه، ويطلبون المزيد من وصاياه وحكمه النافعة.

وهنا نورد بعض الأقوال المجموعة من رجال عصره، وهي تبيّن انطباعاتهم عنه، لا على سبيل الحصر، لأن حصر الأقوال وجمع الانطباعات مما يضيق به وسع الكتاب. وقد تقدم في ثنايا الأجزاء المتقدمة شيء منها أيضاً.

والغرض أنه كان وحيد زمانه، لا يلحق أثره ولا يبلغ شأوه، وهو المصلح الذي عرف الناس عنه حبه للإصلاح وبذله النصح لعباد الله، لذلك قصده رجال العلم في عصره من الأقطار النائية، للانتفاع بوفير علمه ومواعظه وحكمه، وقد كان أبو حنيفة يغتنم الحضور عنده للاستماع منه عندما دخل الإمام الكوفة كما نصّت على ذلك كتب مناقب أبي حنيفة وسيرته. وكذلك حضر عنده في المدينة سنتين حتى اشتهر عنه قوله: لولا السنتان لهلك النعمان.

انطباعات مالك بن أنس:

وكان مالك بن أنس يحضر عند الإمام الصّادق ويتأدب بآدابه ويهتدي بهديه، فكانت له انطباعات في نفسه يحدّثنا عنها بقوله: ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمّد الصّادق علماً وعبادة وورعاً.

انطباعات سفيان الثوري:

قال سفيان الثوري: دخلت على الصّادق فقلت له: أوصني بوصية أحفظها من بعدك. قال: «وتحفظ يا سفيان؟» قلت: أجل يا ابن رسول الله. قال: «يا سفيان لا مروة لكذوب، ولا راحة لحسود، ولا أخاً لملول، ولا سؤدد لسيىء الخلق»، ثم أمسك. فقلت: يا ابن رسول الله زدني. فقال: «يا سفيان ثق بالله تكن عارفاً مؤمناً، وارض بما قسمه لك تكن غنياً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً، وصاحب بمثل ما يصاحبونك به تزدد إيماناً، ولا تصاحب الفاجر فيعلمك من فجوره، وشاور في أمرك الذين يخشون الله». قال سفيان: ثم أمسك الإمام فقلت: يا ابن رسول الله زدني. فقال: «يا سفيان من أراد عزاً بلا عشيرة، وغنى بلا مال، وهيبة بلا سلطان، فلينتقل من ذلّ معاصي الله إلى عز طاعته». ثم أمسك. فقلت: يا ابن رسول الله زدني.

فقال: «يا سفيان أدّبني أبي بثلاث، ونهاني عن ثلاث، فأما اللواتي أدّبني بهن فإنّه قال لي: يا بني من يصحب صاحب السوء لا يسلم، ومن لا يملك لسانه يندم، ومن يدخل مداخل السوء يتهم». قلت: يا ابن رسول الله فما الثلاث اللواتي نهاك عنهن؟

قال: «نهاني أن لا أصاحب حاسد نعمة، وشامتاً بمصيبة، وحامل نميمة» ثم أنشد:

عوّد لسانك قول الخير تحظ به ... إن اللسان لما عوّدت معتاد
موكل بتقاضي ما سننت له ... في الخير والشر فانظر كيف تعتاد

ودخل عليه مرة أخرى يطلب المزيد من تعاليمه ووصاياه فقال عليه السلام: «يا سفيان الوقوف عند كل شبهة خير من الاقتحام في الهلكة، وترك حديث لم تروه أفضل من روايتك حديثاً لم تحصه، إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً، ما وافق كتاب الله فخذوه وما خالفه فدعوه».

وقال نصر بن كثير: دخلت أنا وسفيان الثوري على جعفر بن محمّد الصّادق فقلت له: يا ابن رسول الله إني أريد البيت، فعلمني شيئاً أدعو به، فقال عليه السلام: «إذا بلغت البيت فضع يدك على الحائط ثم قل: يا سابق الفوت، يا سامع الصوت، يا كاسي العظام لحماً بعد الموت، ثم ادع بما شئت». فقال له سفيان شيئاً لم أفهمه.

فالتفت إليه عليه السلام فقال: «يا سفيان إذا جاءك ما تحب فأكثر من الحمد لله، وإذا جاءك ما تكره فأكثر من لا حول ولا قوة إلاّ بالله؛ وإذا استبطأت الرّزق فأكثر من الاستغفار».

ودخل عليه حفص بن غياث، وهو أحد أعلام عصره، والمحدثين في وقته، فطلب منه أن يوصيه وصية ينتفع بها فقال عليه السلام: «إن قدرتم أن لا تعرفوا فافعلوا، وما عليك إن لم يثن الناس عليك». إلى أن قال: «إن قدرت أن لا تخرج من بيتك فافعل، فإن عليك في خروجك أن لا تغتاب، ولا تكذب ولا تحسد، ولا ترائي، ولا تداهن».

انطباعات زيد بن عليّ:

قال زيد بن علي: في كل زمان رجل منا أهل البيت يحتج الله به على خلقه، وحجة زماننا ابن أخي جعفر لا يضل من تبعه ولا يهتدي من خالفه[1].

هذا قول رجل من سادات بني هاشم، وعلم من أعلام الأمة، وفقيه من فقهاء

(١) المناقب لابن شهراشوب ج٢ ص١٤٧.

الإسلام، وبطل من أبطال الثورة على الظلم، ومن أباة الضيم، إنه يكشف عن منزلة الإمام في نفسه، واعتقاده فيه، وهو معاصره، وأكبر منه سناً، وكذلك يكشف للناس ويبين لهم منزلة الإمام الصّادق، فهو يرى أنّه حجة الله في ذلك الزمان، وأن الهداية في اتباعه والضلال في خلافه، وأن الله لا يحتج إلاّ بمن بلغ درجة الكمال النفساني، وارتقى أعلى منزلة من طاعة الله وامتثال أوامره، فابتعد عن الدنيا وزينتها، وصدف عن زخارفها، وأخلص لله فاستخلصه وطهره من دنس العيوب وكدر الذنوب.

انطباعات مالك بن أنس:

ويقول مالك بن أنس: اختلفت إلى جعفر بن محمّد زماناً فما كنت أراه إلاّ على إحدى ثلاث خصال: إما مصلياً وإما صائماً وإما يقرأ القرآن، وما رأيته قط يحدّث عن رسول الله إلاّ على طهارة، ولا يتكلّم بما لا يعنيه، وكان من العلماء العبّاد والزهّاد الذين يخشون الله[١].

هذه شهادة مالك وانطباعاته عن شخصية الإمام، ومالك هو رئيس مذهب من مذاهب الإسلام المعمول بها حتى الآن، وكان معاصراً للإمام الصّادق ومن تلامذته. والذي يعنينا من هذه الكلمة قوله: إنه كان من العلماء العباد والزهّاد، الذين يخشون الله. فالعلم وحده غير نافع بدون عمل، فالإمام الصّادق عالم عامل زاهد في الدنيا يخشى الله ويتبع أوامره، وإنما يخشى الله من عباده العلماءُ، ولم يمنعه زهده وتبتله عن الكسب وطلب المعاش من وجوهه المشروعة مع الإجمال في الطلب والاعتدال في الإنفاق وأداء الحقوق، كما أنه ينهى عن الكسل والبطالة، ويمقت صاحبها ويفضل رجل العمل ويشجعه عليه. كما دلّت سيرته على ذلك.

فالإمام مالك يكشف لنا انطباعاته عن الإمام الصادق، وما عرفه عنه وما اعتقده فيه، بأنّه لا ينفك عن عبادة الله وتلاوة كتابه، ولا يتكلم بما لا يعنيه، وكان من العلماء العبّاد والزهّاد الذين يخشون الله، وناهيك بما وراء الخشية من الله والعمل بطاعته، فهي أعظم درجة وأرقى منزلة لدعاة الخير وأئمة الهدى، وهو فرع من الشجرة النبوية التي طاب غرسها وزكى ثمرها، قد التقى فيه شرف النسب وشرف النفس، وعزة

(١) مالك بن أنس، للخولي ص٩٤. وكتاب مالك لمحمّد أبو زهرة ص٢٨ نقلاً عن المدارك للقاضي عياض ص٢١٢.

الإيمان وقوة الحق، وهو من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهّرهم تطهيراً. نعم إنّه من السابقين إلى الخير والداعين إليه رغبة بما وعد الله، فهو لم يألُ جهداً في التوجيه الصحيح، وحرصه على هداية الأمة إلى سواء السبيل.

انطباعات أبي حنيفة:

وقد كشف لنا أبو حنيفة قبله انطباعاته عن الإمام الصّادق، وما عرفه عنه، وأنّه ما رأى أفقه منه بقوله:

ما رأيت أفقه من جعفر بن محمّد، لما أقدمه المنصور بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمّد فهيىء له من المسائل الشداد. فهيأت له أربعين مسألة، ثم بعث إليّ أبو جعفر المنصور وهو بالحيرة، فدخلت عليه وجعفر بن محمّد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر ما لم يدخلني لأبي جعفر المنصور، فسلمت وأومأ فجلست، ثم التفت إليه قائلاً: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة. فقال عليه السّلام: «نعم أعرفه». ثم التفت المنصور فقال: يا أبا حنيفة الق على أبي عبد الله مسائلك. فجعلت ألقي عليه، فيجيبني فيقول: «أنتم تقولون كذا، وهم يقولون كذا، ونحن نقول كذا» فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا، حتى أتيت على الأربعين مسألة، ما أخل منها مسألة واحدة، ثم قال أبو حنيفة: أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس[1].

وهذه القضية تبيّن لنا انطباعات أبي حنيفة عن الإمام الصّادق، وما عرفه عنه، وأنّه ما رأى أفقه منه، وهو أعلم الناس لعلمه باختلاف الناس، ونحن نستظهر من هذه القضية ثلاثة أمور:

١ ـ اهتمام المنصور بشأن الإمام الصّادق، لأن الناس افتتنوا به على حد تعبيره، عندما اشتهر ذكره، حتى سارت به الركبان، والمنصور يعدّ هذا خطراً على دولته، لأنه لا يريد أن يلتف الناس حول الإمام الصّادق، فذلك يثير مخاوفه منه ويجعله حذراً، ولا يروق له تعلّقهم بالإمام الصّادق، وانتشار علمه الذي بلغ كل بقعة أنارها الإسلام، كما تنبىء عنه معاملته معه وتشدّده عليه، وترقّبه فرصة الفتك به والقضاء عليه.

---

(١) مناقب أبي حنيفة للمكي ج١ ص١٧٣. وجامع مسانيد أبي حنيفة ج١ ص٢٥٢. وتذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص١٥٧.

٢ ـ وصف أَبي حنيفة لهيبة الإمام، وما داخله منها عند رؤيته له، وهو لا سلطان له، ولكنها هيبة منحه الله إياها، تخضع لها جبابرة الأرض وتذل لها ملوكها.

هيبة العلم وجلالة الإمامة وعظمة التقوى، هيبة اندكّت أمامها هيبة الإمرة وعظمة السلطان، ورهبة البطش.

يحدِّثنا ابن أَبي العوجاء عندما ناظره الإمام الصَّادق فسكت ابن أَبي العوجاء. قال: فقال لي: «ما يمنعك من الكلام؟»

قلت: إجلالاً لك ومهابة منك، ما ينطق لساني بين يديك، فإني شاهدت العلماء وناظرت المتكلمين، فما تداخلني من هيبة أحد منهم مثلما تداخلني من هيبتك.

ويقول المفضل بن عمر: إن المنصور قد همّ بقتل أَبي عبد الله غير مرة، فكان إذا بعث إليه ليقتله، فإذا نظر إليه هابه[1].

فالمنصور صاحب الدولة والسلطة، والجيش والحرس، ومن عرف بالشدة والتجبّر، تندك هيبته أمام هيبة الإمام عليه السلام وعظمته، لأنّها لم تكن مصطنعة، بل هي التي يفيضها الله تعالى على من يشاء من عباده.

ولا تختلف هذه الهيبة باختلاف الناس معه، فإن كل واحد كان يشعر في نفسه بتلك الهيبة له، سواء الولي والعدو والموالف والمخالف.

على أنه عليه السلام كان بين أصحابه وجلسائه كواحد منهم، ينبسط لهم بالكلام ويؤنسهم بالحديث، ويجلس معهم على المائدة.

٣ ـ نستطيع أن نلحظ من وراء هذه الرواية أسباب تقرب المنصور للعلماء وتظاهره بمناصرة العلم، وبالأخص من كانت له شهرة في محيطه كأبي حنيفة وقد نوّهنا عن هذه الأسباب في الأبحاث السابقة.

انطباعات المنصور الدوانيقي:

وقد شهد المنصور ـ وهو أشد الناس خصومة له، وأعظمهم عداوة وتألّباً عليه ـ

---

(١) حياة الإمام الصّادق، للسبيتي ص٢٥.

بأن الإمام الصّادق كان من السابقين بالخيرات، ومن الذين اصطفاهم الله من عباده، وأورثهم الكتاب.

قال إسماعيل بن علي بن عبد الله بن العباس: دخلت على أَبي جعفر المنصور يوماً فرأيته وقد اخضلّت لحيته بالدموع وقال لي: ما علمت ما نزل بأهلك؟

فقلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟

قال: فإن سيدهم وعالمهم، وبقية الأخيار منهم توفي.

قلت: ومن هو يا أمير المؤمنين؟

قال: هو جعفر بن محمّد.

فقلت: عظم الله أجر أمير المؤمنين وأطال لنا بقاه.

فقال لي المنصور: إن جعفر بن محمّد كان ممن قال الله فيه ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وكان ممن اصطفى الله وكان من السابقين بالخيرات[1].

وللمنصور كلمة أخرى تعبر عن انطباعاته وما عرفه عن الإمام الصّادق وهي قوله لابن المهاجر: إعلم أنه ليس من أهل بيت إلاّ وفيهم محدث، وإن جعفر بن محمّد محدّثنا اليوم.

ولهذه الكلمة قصة: وهي أن المنصور قال لمحمّد بن الأشعث: يا محمّد ابغ لي رجلاً له عقل يؤدي عني. فقال له محمّد: إني قد أصبته لك، هذا ابن المهاجر خالي.

قال: فأتني به، فلما أتاه، قال له أبو جعفر: يا ابن المهاجر خذ هذا المال، واتي المدينة، واتي عبد الله بن الحسن، وجعفر بن محمّد، وجماعة، وادفع إليهم هذا المال، وقل لهم: هذا من شيعتكم بخراسان، فإذا قبضوا المال فقل: إني رسول وأحب أن يكون معي خطوطكم بقبضكم ما قبضتم، فأخذ المال وأتى المدينة، ثم رجع إلى أبي جعفر المنصور، فقال له: ما وراءك؟

قال: أتيت القوم وهذه خطوطهم بقبضهم المال، خلا جعفر بن محمّد، فإني أتيته وهو يصلي في مسجد النبي، فجلست خلفه وقلت: ينصرف فأذكر له ما ذكرت

(١) تاريخ ابن واضح ج٣ ص١٧.

لأصحابه، فتعجّل وانصرف، وتبعته فالتفت إليّ وقال: «يا هذا اتق الله، ولا تغري أهل بيت محمّد، فإنهم قريبو العهد من دولة بني مروان، وكلهم محتاج». قلت: وما ذاك أصلحك الله؟ فأدنى رأسه منيّ فأخبرني بما جرى بيني وبينك. فقال المنصور: يا ابن المهاجر إعلم أنه ليس من أهل بيت نبوة إلاّ وفيهم محدّث، وإن جعفر بن محمّد محدّثنا اليوم.

فالمنصور مع شدة عدائه للإمام الصّادق، وبغضه له، فهو يقول الحق في عدة مناسبات، ويصرح بما يخالف أفعاله، فمرة يصفه بأنّه من السابقين في الخيرات الذين اصطفاهم الله من عباده وبأنّه محدث، فكأنه ثاب إليه رشده أو نزع نفسه من مقتضيات السلطان والإمارة، ومرات يهدد بقتله ويستعد لتنفيذ ما يمليه عليه حقده.

ويقول ـ عندما يتحدث الناس عن علم الصّادق ـ: هذا الشجى المعترض في حلقي، من أعلم الناس في زمانه. فيجمع بين الحقيقة وبين بغيه وحقده.

ويقول: إنه ممن يريد الآخرة لا الدنيا.

ويقول مخاطباً الإمام الصّادق عليه السلام: لا نزال من بحرك نغترف وإليك نزدلف، تبصر من العمى، وتجلو بنورك الطخيا (الليلة المظلمة) فنحن نعوم في سحاب قدسك، وطامي بحرك.

وقال لحاجبه الربيع: وهؤلاء من بني فاطمة لا يجهل حقّهم إلاّ جاهل، لا حظ له في الشريعة.

ومع هذه الاعترافات في حق الإمام الصّادق فهو لا يستطيع أن يتغلّب على هواه أو ينتصر على نفسه، فينطلق من عقال حقده، ويعرف للإمام منزلته، ويرعى حقه ويحفظ قرابته من رسول الله ﷺ.

ولكن المنصور كان خصماً لا يلين، وجباراً لا يرعوي، ومتعنّت لا يخضع لحق، ولا يرتدع عن باطل، فقد كان يثقل عليه انتشار ذكر جعفر بن محمّد في أندية العلم وحلقات الدرس، والعلماء يستدلّون بروايته ويستشهدون بقوله، فيكون قوله الفصل وحكمه العدل.

ولذلك فقد وقف للإمام بالمرصاد، يحاول الفتك به والقضاء عليه، مع معرفته بمنزلته، قد أخذته العزّة بالإثم، والطمع في الملك، فهو دائماً مع شهواته، وأسير هواه وأطماعه.

وتكاد تكون سياسة المنصور تجاه الإمام الصّادق أهم وجوه الحكم، فقد كان الإمام الصّادق شغل المنصور الشاغل، وقد سلك معه كل السبل حتى كأنّه بات يواجه ثورة على وشك الاشتعال بفعل نشاط الإمام الصادق ومكانته، فنرى المنصور يتذرع إما بالحج ليأتي المدينة، ويتحرى أخبار الإمام ويبعث إليه ليأتيه، أو يوجه إليه إلى العراق، وفي كل مرة يفقد توازنه ويكشّر عن أنياب حقده فيهدد بقتل الإمام، أو يترك نفسه على سجيتها فيسيء الأدب معه، أو يحاول أن يوقع بالإمام الصّادق حيث يوهمه حقده أن بإمكانه أن يجد من هو أعلم من الإمام عليه السلام.

وسيأتيك في الأجزاء القادمة تفاصيل العلاقة بين رأس النظام المنصور وبين الإمام الصّادق عليه السلام وترى وجوه العناية الربانية التي حفظت الإمام من مكائد هذا الطاغية.

انطباعات ابن أبي ليلى:

قال نوح بن دراج: قلت لابن أبي ليلى(1): أكنت تاركاً قولاً قلته وقضاء قضيته لقول أحد؟.

قال: لا إلاّ لرجل واحد. قلت: من هو؟ قال: هو جعفر بن محمّد الصّادق.

هذا قول فقيه من فقهاء ذلك العصر، وقاضٍ من قضاة الدولتين الأموية والعباسية، وقد وصفوه بأنّه أفقه أهل الدنيا، كما وصفوه بأنّه صاحب قرآن وسنّة، وأنّه صدوق، وجائز الحديث، وخرّج حديثه الأربعة، وقد أقام قاضياً ثلاث وثلاثين سنة.

ومهما تكن حاله فهو بكلمته هذه يكشف لنا عن انطباعاته بعلم الإمام الصّادق

---

(1) ابن أبي ليلى: هو عبد الرّحمٰن بن أبي ليلى الأنصاري، المتوفى سنة ١٤٨هـ. روى الحديث عن أخيه عيسى والشعبي وعطاء ونافع، وروى عنه شعبة والسفيانان ووكيع. والشيء الذي نريد أن نوضحه هنا هو أن عبد الرّحمٰن بن أبي ليلى ابو محمّد، هو غير عبد الرّحمٰن بن أبي ليلى الأوسي الكوفي المعروف بابن أبي ليلى؛ فإن الأخير من أصحاب الإمام علي وشهد مشاهده كلها، وهو من التابعين، وقد ضربه الحجاج بن يوسف بالسياط حتى اسودت كتفاه، وذلك عندما أمره أن يشتم علياً وينتقصه، فامتنع ابن أبي ليلى، فأقامه الحجاج في المسجد وأمر بضربه، وأخذ ابن أبي ليلى يحدّث الناس بفضائل علي، ولم يعبأ بتعذيب الحجاج وتهديده، وقد خرج على الحجاج في وقعة دير الجماجم سنة ١٨٣هـ استنكاراً على الحجاج لتأخيره الصلاة حتى يفوت وقتها، وقيل أن الحجاج قبض عليه مرة أخرى وقتله، وقيل أنه غرق في النهر هو ومحمّد بن الأشعث وذلك في سنة ١٨٣هـ.

وعظيم منزلته، وما عرفه عنه من قدم راسخ في العلم، فهو لا يرى أحداً يترك قوله لقوله أو قضاء قضاه لأي أحد إلاّ لمن هو أعلم منه، ولا يعتقد بهذه المنزلة لأي رجل في عصره، إلاّ للإمام الصّادق عليه السلام.

انطباعات عمرو بن عبيد:

دخل عمرو بن عبيد(*) على الإمام الصّادق، فطلب من الإمام أن يعدّد له الكبائر وقال: أحب أن أعرفها من كتاب الله، أو سنّة رسوله؛ لأن الخلاف قد تعاظم بين المسلمين، في مسألة مرتكب الكبيرة، واحتدم النزاع في ذلك العصر، وعقدت المجالس للمناظرة فيها.

فقال له الإمام: «نعم يا عمرو» وفصّلها له:

١ ـ الشرك بالله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾(١).

٢ ـ عقوق الوالدين: لأن العاق جبار شقي ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾(٢).

٣ ـ قذف المحصنات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾(٣).

٤ ـ أكل مال اليتيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾(٤).

٥ ـ الفرار من الزحف ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾(٥).

٦ ـ قتل النفس ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾(٦).

(*) عمرو بن عبيد بن باب. ولد سنة ٨٠هـ وتوفي سنة ١٤٣هـ سكن البصرة وجالس الحسن البصري ثم اعتزله، وهو من رؤساء المعتزلة، لقي الإمام الصّادق عليه السلام وروى عنه.

(١) سورة النساء آية ١١٦.

(٢) سورة مريم آية ٣٢.

(٣) سورة النور آية ٢٣.

(٤) سورة النساء آية ١٠.

(٥) سورة الأنفال آية ١٦.

(٦) سورة النساء آية ٩٣.

٧ ـ نقض العهد وقطيعة الرحم ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(١).

ويستمر الإمام عليه السلام في تعداد الكبائر بأوضح بيان، ويستشهد على كل واحدة منها بآية من كتاب الله أو سنّة من رسوله، حتى أتى على آخرها، وعمرو بن عبيد يصغي لبيانه، فلما انتهى الإمام عليه السلام قال عمرو بن عبيد:

هلك من سلبكم تراثكم ونازعكم في الفضل والعلم(٢).

وهذه الكلمة من عمرو بن عبيد، وهو رئيس من رؤساء المعتزلة وعالم من علماء الأمة، قالها بعد أن عرف ما عند الناس حول هذه المشكلة، وهي فعل الكبيرة، وقد ناظر وجادل، وجاء للإمام الصّادق ليكون قوله الفصل وحكمه العدل، فهو يرى أن الإمام عليه السلام معدن العلم والفضل، ومن حاول أن يتقدّم عليه في هذه المنزلة فهو هالك.

وخلاصة القول في هذه الأقوال أنها صدرت عن أناس لا يتّهمون بالتحيز، فإن كلمة كل واحد منهم إنما تنطبق على الواقع، وليس فيها ميل ولا تحيّز.

فمالك بن أنس كان لا يعرف بموالاة أهل البيت، ولا بالدعاية لهم، ولم تكن نزعته نزعة شيعية فيتهم، بل كانت نزعته أقرب ما تكون إلى النزعة الأموية، فإنّه يميل إليهم، فانطباعاته عن شخصية الإمام بأنه من العلماء الزهّاد الذين يخشون الله، وأنه لا يفتر عن طاعة الله، في سرّه وفي علنه، كل ذلك صادر عن واقع لا تحيّز فيه، ولا ميل، بل هو الحق الذي لا شبهة فيه ولا غبار عليه، وقد لازمه مدة من الزمن، وحضر مجالس درسه ووعظه، ورافقه في سفره للحج، فلم يجد فيه إلاّ العالم الزاهد، الذي خالف هواه وعمل بما علم، واتّقى الله حق تقاته، فكان من الصادقين الذين يهتدى بهديهم ويقتدى بهم.

وكذلك أبو حنيفة واعترافه بأن الإمام الصّادق كان أعلم الناس وأفقههم، فهو قول صادر عن واقع بل عن خبرة ودراية، فهو لا يتهم في قوله، وهو بعيد عن أسباب الاتهام، لأنه لم يعرف بميله للتشيع.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧.

(٢) كتاب الإمام الصّادق للأستاذ رمضان لاوند ص٢٠ ـ ٢٢.

وأما المنصور فناهيك به من عدو لدود، وخصم شديد، إذ يشهد بما تقدم فإنما ذلك من باب:

ومناقب شهد العدو بفضلها والفضل ما شهدت به الأعداء

وكما أن هؤلاء لا يتهمون بتصريحهم عما يعتقدونه في نفوسهم عن شخصية الإمام، كذلك لا يتهم عبد اللّه بن المبارك في مدح الإمام الصّادق وتصريحه عن اعتقاده فيه عندما استقبله في بعض الأيام فقال:

أنت يا جعفر فوق الـ ـمدح والمدح عناء
إنما الأشراف أرض ولهم أنت سماء
جاز حد المدح من قد ولدته الأنبياء

ويقول أيضاً:

الله أظهر دينه وأعزه بمحمّد
والله أكرم بالـ ـخلافة جعفر بن محمّد

وعلى أي حال فإن استيفاء هذا البحث بالبيان عن جميع ما يلم به من ذكر انطباعات العلماء والأدباء عن شخصية الإمام في عصره وبعد عصره أمر يطول شرحه، وقد أشرنا للبعض منه في الجزء الأول.

وللمزيد من الوقوف على نواحي عظمته والسير على أضواء تعاليمه، نود هنا ذكر فصول من حكمه وفكره الخوالد، التي أرسلها عبر الدهور معلماً للأجيال، وهو يضع في كل منها حجر الأساس لأعظم الأسس التربوية التي يتجلى فيها روح الصلاح وحب الإصلاح.

الإمَــام الصَّــــادق
فصُولٌ مِن حِكَمِهِ

تمهيد:

إن للحكم والأقوال التي ينطق بها كبار الرجال والمصلحون، أهمية كبرى في حياة الأمم التي تنشد الرقي، لتمهد لنفسها الطريق إلى السعادة، فالحِكم التي يوجهها المصلحون بما يتعلّق بمقتضيات الأمور الاجتماعية، والاقتصادية، وبكل شيء يمتّ إلى حياتهم التي يحيونها بصِلَة، إنّما هي سجل خالد تتلخّص فيه الشخصية، وتتبلور فيه الأخلاق والخصائص الفردية والاجتماعية.

إن أولئك المصلحون والمرشدون في كل أمة وفي كل عصر يدلون بحكمهم وإرشاداتهم لا يرومون من ورائها إلا سعادة المجتمع الذي يعيشون فيه، فهم ينيرون الطريق بشعلة من الأفكار؛ ليوجهوا الناس إلى مناهج الحياة الصحيحة، والابتعاد عن مهاوي الجهل، ومخاطر الفساد.

وقد خلّدت آثارهم عبر القرون تتلقاها الأجيال فتلقي عليهم دروساً نافعة، وتلقي أضواء تكشف عن شخصياتهم فتبعث إلى الوجود من جديد، وتمرّ العصور وهم أحياء بتلك الذكريات الخالدة.

وكان أهل بيت النبي ﷺ وخلفاؤه من بعده هم خير من أوجب النصح للمسلمين على أنفسهم، جاعلين نصب أعينهم خدمة الأمة في التوجيه الصحيح، والسير بهم في طريق الهدى والرشاد، فكانت سيرتهم وحكمهم تدل على مدى اهتمامهم في أداء رسالتهم، وقد خاضوا غمرات المحن في سبيل تحقيق ذلك، فكانوا خير قادة للرشاد وأئمة للهدى. جربوا الحياة ومارسوها، وكل منهم واجه ظروفاً خاصة، وخاضوا معترك الحياة، فكانت أقوالهم وحكمهم خلاصة تجارب، وثمرة كفاح عانوه.

وكان للإمام الصَّادق عليه السلام تراث فكري وثروة كبيرة من الحكم الأخلاقية تعد في الواقع أعظم أثر من آثار دعاة الإصلاح، وقادة الخير والرشاد فهو عليه السلام لا يهدأ لحظة عن الإرشاد إلى طاعة الله، ولا تفوته فرصة يرجو فيها تنظيم العلاقات الاجتماعية وتهذيب النفوس من كل ما يؤدي إلى قطع تلك الروابط بين أفراد المجتمع، فكانت أقواله عليه السلام في كل مناسبة توجيهاً، ووصاياه في كل حين إرشاداً. أما إذا استخلص التعاليم واستصفى النظرات فإنه عليه السلام يأتي بموجز من البيان وينطق بعبارات يسيرة ترقى إلى أعلى مراتب الحكمة، وتسمو إلى أرفع منازل الإيمان، ويتخلل منهجه عليه السلام في الدعوة والإرشاد بيان مشرق ويضمه سياق محكم.

ولقد قدّمنا في أبحاثنا السابقة من هذا الكتاب بعض تلك الحكم، ونجد لزاماً علينا أن نزين هذا الجزء ببعض جواهر حِكمه التي تضمنت أهم النقاط الاجتماعية والخلقية، وكل ما يتعلق بأمور الفرد والمجتمع، فهو عليه السلام يعالج الأمور بأسلوب يعجز القلم عن وصفه، وحكمة يتلعثم اللسان عن بيانها.

لقد عرف عليه السلام بين الناس بكرم الأخلاق وصدق الحديث، وحسن المجالسة. وقد منحه الله سلامة الفطرة، وصفاء الحس، ونفاذ البصيرة وحسن البيان، فكان خير داعية للخير، ومرشد للهدى، يزدحم مجلسه بمختلف الطبقات والطوائف وينتهلون من تعاليمه، ويتزوّدون من حكمه وأخلاقه، وقد وجدوا فيه المصلح الاجتماعي العظيم، والمرشد الديني الكبير.

إنهم وجدوا فيه عالماً وإنساناً كاملاً، يهدي إلى الرشاد، ويدعو إلى سواء السبيل، وقد خرّجت مدرسته علماء أعلاماً ورجال إصلاح خدموا الإنسانية جمعاء خدمة لا تنكر.

إنه عليه السلام لم يدخر نصحاً عن أحد، ولم يأل جهداً في توجيه النصح لكل أحد، فتجد له في كل مناسبة قولاً، وفي كل مجال حكمة، ولكل مشكلة حلاً، وإن منهجه القويم وطابعه الأخلاقي ليظهران على كل كلمة نقلت عنه، وعلى كل أثر نسب إليه.

إن تلك الفكر الخوالد تتصف بصفة الشمول لجميع نواحي الحياة الإنسانية وتوضح للمسلم تعاليم دينه الصحيح، وهي تمتّ إلى واقع المسلمين في كل عصر، وهي الدواء لأمراض المجتمع، والحل الصحيح لمشكلاته.

وها نحن نذكر هنا بعض حكمه ومواعظه، في أمور متفرقة اقتبسناها من تلك الثروة العلمية، بدون شرح وتعليق، لأننا عزمنا على إبراز ما جمعناه من حكمه وتراثه الفكري على حدة، مع شرح يكشف معانيها، ويبيِّن مرادها، ومن الله نستمد العون وهو ولي التوفيق.

حِكمِهِ وأقواله:

* «اتّقوا الله واعدلوا، فإنكم تعيبون على قوم لا يعدلون».

* «إياكم والخصومة فإنّها تشغل القلب، وتورث النفاق، وتكسب الضغائن، قال النبي ﷺ: ما كاد جبرائيل يأتيني إلاّ قال: يا محمّد اتق شحناء الرجال، وعداوتهم».

* «أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من دونه، ومن لم يصفح عمن اعتذر إليه».

* «إن من حقيقة الإيمان أن تؤثر الحق وإن ضرّك، على الباطل وإن نفعك».

* «احفظ لسانك تعز، ولا تمكن الناس من قيادك فتذل رقبتك».

* «إياكم وسؤال الناس فإنّه ذل في الدنيا وفقر تعجلونه، وحساب طويل يوم القيامة».

* «اطلبوا العلم ولو بخوض اللجج، وشق المهج».

* «إذا أردت أن تختبر عقل الرجل في مجلس واحد فحدّثه في خلال حديثك بما لا يكون، فإن أنكره فهو عاقل، وإن صدقه فهو أحمق».

* «إن هذا العلم عليه قفل، ومفتاحه السؤال».

* «إن يسلم الناس من ثلاثة أشياء كانت سلامة شاملة: لسان السوء، ويد السوء، وفعل السوء».

* «العاقل من كان ذلولاً عند إجابة الحق، منصفاً بقوله جموحاً عند الباطل، يترك دنياه ولا يترك دينه. ودليل العاقل شيئان: صدق القول وصواب الفعل. والعاقل لا يتحدّث بما ينكره العقل، ولا يتعرّض للتهمة، ولا يدع مداراة من ابتلي به، ويكون العلم دليله في أعماله، والحلم رفيقه في أحواله، والمعرفة تعينه في مذاهبه. والهوى عدو العقل، ومخالف الحق، وقرين الباطل. وقوة الهوى من الشهوة. وأصل علامات الشهوة: أكل الحرام والغفلة عن الفرائض والاستهانة بالسنن والخوض في الملاهي».

* «أحسنوا النظر فيما لا يسعكم جهله، وانصحوا لأنفسكم، وجاهدوا في طلب معرفة ما لا عذر لكم في جهله، فإن لدين الله أركاناً لا ينفع من جهلها بشدة اجتهاده في طلب ظاهر عبادته، ولا يضر من عرفها فدانَ بها حسن اقتصاده، ولا سبيل لأحد إلى ذلك إلاّ بعون الله عزّ وجل».

* «إن السرف يورث الفقر، وإن القصد يورث الغنى».

* «إذا بلغك عن أخيك ما تكرهه فاطلب له من عذر واحد إلى سبعين عذراً، فإن لم تجد له عذراً فقل: لعل له عذراً لا أعرفه».

* «إن الله ارتضى لكم الإسلام ديناً، فأحسنوا صحبته بالسخاء وحسن الخلق».

* «إن العمل الدائم القليل على يقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين».

* «أحب إخواني إليّ من أهدى إليّ عيوبي».

* «إن سرعة ائتلاف قلوب الأبرار إذا التقوا وإن لم يظهروا التودد بألسنتهم، كسرعة اختلاف ماء السماء بماء الأنهار، وإن بعد ائتلاف قلوب الفجار إذا التقوا، وإن أظهروا التودد بألسنتهم كبعد البهائم من التعاطف، وإن طال ائتلافها على مذود واحد».

* «إياك ومخالطة السفلة، فإن مخالطة السفلة لا تؤدي إلى خير».

* «إن مثل الدنيا كمثل ماء البحر، كلما شرب العطشان منه ازداد عطشاً».

* «إن عيال الرجل أسراؤه، فمن أنعم عليه الله فليوسع على أسرائه، فإن لم يفعل يوشك أن تزول تلك النعمة عنه».

* «اتقوا الله وصونوا دينكم بالورع».

* «انظر إلى من هو دونك في المقدرة، ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإن ذلك أقنع لك بما قسم الله لك، وأحرى أن تستوجب الزيادة منه عزّ وجل، واعلم إن العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين، واعلم أنّه لا ورع أنفع من تجنّب محارم الله، والكفّ عن أذى المؤمن، ولا مال أفضل من القناعة باليسير المجزي، ولا جهل أضر من العجب».

* «إن الغنى والعزّ يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطناه».

* «ألا وإن أحب المؤمنين إلى الله من أعان المؤمن الفقير من الفقر في دنياه، ومعاشه، ومن أعان ونفع ودفع المكروه عن المؤمنين».

* «إن صلة الرحم والبرّ ليهوّنان الحساب، ويعصمان من الذنب، فصلوا أرحامكم، وبرّوا إخوانكم، ولو بحسن الجواب وردّ السلام».

* «احذروا سطوات الله بالليل والنهار» فقيل له: وما سطوات الله؟ فقال: «أخذه بالمعاصي».

* «إياك وخصلتين: الضجر والكسل، فإنك إن ضجرت لم تصبر على حق، وإن كسلت لم تؤدِ حقه».

* «إياك والرياء فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى من عمل له».

* «باشر كبار أمورك بنفسك وكل ما صغر منها لغيرك».

* «البركة أسرع إلى البيت الذي يمتاز فيه المعروف من الشفرة إلى سنام البعير والسيل إلى منتهاه».

* «إياكم والخصومة في الدين؛ فإنها تشغل القلب عن ذكر الله. وتورث النفاق، وتكسب الضغائن، وتستجيز الكذب».

* «إنما أعطاكم الله هذه الفضول من الأموال لتوجهوها حيث وجهها الله عزّ وجلّ ولم يعطكموها لتكنزوها».

* «إذا بلغك عن أخيك شيء فلا تغتم، فإن كان كما يقول كانت عقوبة عجلت، وإن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها».

* «إن أبغض خلق الله تعالى عبد اتقى الناس لسانه».

* «أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق، فقد وسع الله عليهم في الرزق، والرفق في تقدير المعيشة خير من سعة المال، والرفق لا يعجز عن شيء، والتبذير لا يبقى معه شيء، إن الله عزّ وجلّ رفيق يحب الرفق».

* «اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس هو أهله، فإن لم يكن هو من أهله فكن أنت من أهله».

* «إن من عرف نعمة الله بقلبه استوجب المزيد من الله قبل أن يظهر شكرها على لسانه».

* «تدخل يدك في فم التنين إلى المرفق خير لك من طلب الحوائج إلى من لم يكن له ثم كان».

* «ثلاثة لم يجعل الله لأحد من الناس فيهنّ رخصة: برّ الوالدين، برّين كانا أو فاجرين، والوفاء بالعهد للبر والفاجر، وأداء الأمانة للبر والفاجر».

* «تأخير التوبة اغترار، وطول التسويف حيرة، والاعتدال على الله هلكة، والإصرار على الذنب أمن من مكر الله، ولا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون».

* «ثلاثة من لم تكن فيه فلا يجري خيره أبداً: من لم يخش الله في الغيب، ولم يرعوِ عند الشيب، ولم يستحِ من العيب».

* «تحتاج الأخوة فيما بينكم إلى ثلاثة أشياء فإن استعملتموها وإلاّ تباينتم وهي: التناصف، والتراحم، ونفي الحسد».

* «ثلاثة من استعملها أفسد دينه ودنياه: من أساء ظنه، وأمكن من سمعه، وأعطى قياده حليلته».

* «ثلاثة تجب على السلطان للخاصة والعامة: مكافأة المحسن بالإحسان ليزدادوا رغبة فيه، وتغمد ذنوب المسيئين ليتوب ويرجع عن غيه، وتألفهم جميعاً بالإحسان والإنصاف».

* «ثلاثة تدل على كرم المرء: حسن الخلق، وكظم الغيظ، وغض الطرف».

* «الجهل في ثلاث: الكبر والمراء والجهل بالله فأولئك هم الخاسرون».

* «حسن الظن بالله أن لا ترجو إلاّ الله ولا تخاف إلاّ ذنبك».

* «الحزم في ثلاث: الاستخدام للسلطان، والطاعة للوالد، والخضوع للمولى».

* «الحياء والإيمان مقرونان، فإذا ذهب أحدهما اتبعه الآخر».

* «خلّوا سبيل المعسر كما خلاه الله» إشارة لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾.

* «خفِ الله كأنك تراه، وإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم بدرت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك».

* «خذ من حسن الخلق بطرف تروح به أمرك، وتروح به قلبك».

* «خير السادة أرحبهم ذراعاً عند الضيق، وأعدلهم حلماً عند الغضب، وأبسطهم وجهاً عند المسألة، وأرحمهم قلباً إذا سلط، وأكثرهم صفحاً إذا قدر».

* «الدَّين غم في الليل وذلّ في النهار».

* «داووا مرضاكم بالصدقة، وادفعوا البلاء بالدعاء».

* «دراسة العلم لقاح المعرفة، وطول التجارب زيادة في العقل، والشرف والتقوى والقنوع راحة الأبدان».

* «رأيت المعروف لا يصلح إلاّ بثلاث خصال: تصغيره، وستره، وتعجيله. فإنك إن صغرته عظمته عند من تصنعه إليه، وإذا سترته تممته، وإذا عجلته هنأته، فإذا فعلت غير ذلك فإنّك سخفته ونكدته».

* «رأيت المعروف كاسمه، وليس شيء أفضل من المعروف إلاّ ثوابه، وذلك يراد منه، وليس كل من يحب إلى الناس يصنعه، وليس كل من يرغب فيه يقدر عليه، ولا كل من يقدر عليه يؤذن له فيه، فإذا اجتمعت الرغبة والقدرة؛ فهناك تمت السعادة للطالب والمطلوب».

* «الرجال ثلاثة: عاقل وأحمق وفاجر. فالعاقل إن كلّم أجاب، وإن نطق أصاب، وإن سمع وعى. والأحمق إن تكلّم عجّل، وإن حمل على القبيح فعل. والفاجر إن ائتمنته خانك، وإن حدّثته شانك».

* «سرّك من دمك، فلا تجره في غير أوداجك».

* «ستة لا تفارقهم الكآبة: الحقود، والحسود، وفقير قريب العهد بالغنى وغني يخشى الفقر، وطالب رتبة يقصر عنها قدره، وجليس أهل الأدب وليس منهم».

* «سيد الأعمال ثلاثة: إنصاف الناس من نفسك، حتى لا ترضى بشيء إلاّ رضيت لهم مثله، ومواساة الأخ بالمال، وذكر الله على كل حال» ثم قال: «ليس هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر فقط، ولكن إذا ورد عليك ما أمر الله به أخذت به، وإذا ورد عليك شيء نهى الله عنه تركته».

* «الصفح الجميل أن لا تعاقب على الذنب، والصبر الجميل الذي ليس فيه شكوى».

* «صلة الأرحام تحسن الخلق وتطيب النفس، وتزيد في الرزق، وتنسي الأجل».

* «صدرك أوسع لسرّك».

* «الصلاة قربان كل تقي، والحج جهاد كل ضعيف، وزكاة البدن الصيام، والداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر، واستنزلوا الرزق بالصدقة، وحصّنوا أموالكم بالزكاة، وما عال من اقتصد، والتدبير نصف العيش، والتودد نصف العقل، وقلة العيال أحد اليسارين، ومن أحزن والديه فقد عقّهما، ومن ضرب يده على فخذه عند مصيبة فقد حبط أجره، والصنيعة لا تكون صنيعة إلاّ عند ذي حسب ودين، والله تعالى منزل الصبر على قدر المصيبة، ومنزل الرزق على قدر المؤنة، ومن قدر معيشته رزقه الله، ومن بذّر معيشته حرمه الله».

* «صلة الرحم تهوّن الحساب يوم القيامة، وهي منسأة في العمر، وتقي مصارع السوء».

* «صدقة يحبها الله: إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا وتقارب إذا تباعدوا».

* «صلاح حال التعايش والتعاشر على مكيال، ثلثاه فطنة وثلث تغافل».

* «ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر».

* «احذروا عواقب العثرات».

* «إن المؤمن أخو المؤمن، عينه ودليله، لا يخونه ولا يظلمه، ولا يغشه، ولا يعده عدة فيخلفه».

* «طلب الحوائج إلى الناس استلاب للعزّ ومذهبة للحياء، واليأس مما في أيدي الناس عز للمؤمن في دينه، والطمع هو الفقر الحاضر».

* «الطيرة على ما تجعلها إن هونتها تهونت، وإن شددتها تشددت، وإن لم تجعلها شيئاً لم تكن».

* «ما من أحد يتيه إلاّ لذلة يجدها في نفسه».

* «ما من أحد تكبّر أو تجبّر إلاّ لذلة وجدها في نفسه».

* «ما أقبح بالمؤمن من أن تكون له رغبة تذلّه».

* «إن المشورة لا تكون إلاّ بحدودها، فمن عرفها بحدودها وإلاّ كانت مضرتها على المستشير أكبر من نفعها:

فأولها: أن يكون الذي تشاوره عاقلاً.

والثانية: أن يكون حراً متديناً.

والثالثة: أن يكون صديقاً مواخياً.

الرابعة: أن تطلعه على سرّك، فيكون علمه به كعلمك بنفسك، ثم يسر لك ويكتمه، فإنه إذا كان عاقلاً انتفعت بمشورته، وإن كان حراً متديناً أجهد في النصيحة لك، وإذا كان صديقاً مواخياً كتم سرك إذا أطلعته عليه، وإذا أطلعته على سرك فكان علمه به كعلمك به، فهناك تمت المشورة وكملت النصيحة».

* «الصداقة محدودة، فمن لم تكن فيه تلك الحدود فلا تنسبه إلى كمال الصداقة، ومن لم يكن فيه شيء من تلك الحدود فلا تنسبه إلى شيء من الصداقة:

أولها: أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدة.

الثانية: أن يزينك زينه ويشينك شينه.

الثالثة: أن لا يغيره مال ولا ولاية.

الرابعة: أن لا يمنعك شيئاً مما تصل إليه مقدرته.

الخامسة: أن لا يسلمك عند النكبات».

* «طلبة العلم على ثلاثة أصناف: فاعرفهم بأعيانهم وصفاتهم: صنف يطلبه للجهل والمراء، وصنف يطلبه للاستطالة والختل، وصنف يطلبه للفقه والعقل.

فصاحب الجهل والمراء متعرض للمقال في أندية الرجال يتذاكر العلم، وصفة الحلم، قد تسربل بالخشوع، وتخلّى عن الورع، فدق الله من هذه خيشومه.

وصاحب الاستطالة والختل: ذو خب وملق، يستطيل على مثله من أشباهه، ويتواضع للأغنياء من دونه.

وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن، يعمل ويخشى، وجلا داعياً مشفقاً على شأنه، عارفاً بأهل زمانه، مستوحشاً من أوثق إخوانه».

* «طلبت الجنة فوجدتها في السخاء، وطلبت العافية فوجدتها في العزلة،

وطلبت ثقل الميزان فوجدته في شهادة أن لا إله إلاَّ الله محمَّد رسول الله. وطلبت سرعة الدخول إلى الجنّة فوجدتها في العمل لله، وطلبت حب الموت فوجدته في تقديم المال لوجه الله، وطلبت حلاوة العبادة فوجدتها في ترك المعصية، وطلبت رقة القلب فوجدتها في الجوع والعطش، وطلبت نور القلب فوجدته في التفكر والبكاء، وطلبت الجواز على الصراط فوجدته في الصدقة، وطلبت نور الوجه فوجدته في صلاة الليل، وطلبت فضل الجهاد فوجدته في الكسب للعيال، وطلبت حب الله فوجدته في بغض أهل المعاصي، وطلبت الرياسة فوجدتها في النصيحة لعباد الله، وطلبت فراغ القلب فوجدته في قلة المال، وطلبت عزائم الأمور فوجدتها في الصبر، وطلبت الشرف فوجدته في العلم، وطلبت العبادة فوجدتها في الورع، وطلبت الراحة فوجدتها في الزهد، وطلبت الرفعة فوجدتها في التواضع، وطلبت العز فوجدته في الصدق، وطلبت الغنى فوجدته في القناعة، وطلبت الأنس فوجدته في قراءة القرآن، وطلبت رضا الله فوجدته في بر الوالدين».

* «إذا كان الله قد تكفل بالرزق فاهتمامك لماذا؟ وإن كان الرزق مقسوماً فالحرص لماذا؟ وإذا كان الحساب حقاً فالجمع لماذا؟ وإن كان الخلف من الله عز وجل حقاً فالبخل لماذا؟ وإن كانت العقوبة من الله عزّ وجل النار فالمعصية لماذا؟ وإن كان الموت حقاً فالفرح لماذا؟ وإن كان العرض على الله حقاً فالمكر لماذا؟ وإن كان الشيطان عدواً فالغفلة لماذا؟ وإن كان كل شيء بقضاء وقدر فالحزن لماذا؟ وإن كانت الدنيا فانية فالطمأنينة لماذا؟»

* «إن أحق الناس بأن يتمنى للناس الغنى البخلاء؛ لأن الناس إذا استغنوا كفوا عن أموالهم، وإن أحق الناس بأن يتمنى للناس الصلاح أهل العيوب، لأن الناس إذا صلحوا كفوا عن تتبع عيوبهم.

وإن أحق الناس بأن يتمنى للناس الحلم أهل السفه الذين يحتاجون أن يعفى عن سفههم، فأصبح أهل البخل يتمنون فقر الناس، وأصبح أهل العيوب يتمنون معائب الناس، وأصبح أهل السفه يتمنون سفه الناس. وفي الفقر الحاجة إلى البخيل، وفي الفساد طلب عورة أهل العيوب، وفي السفه المكافأة بالذنوب».

* «العاقل لا يستخف بأحد، وأحق من لا يستخف به ثلاثة: العلماء،

والسلطان، والإخوان. لأنه من استخف بالعلماء أفسد دينه، ومن استخف بالسلطان أفسد دنياه، ومن استخف بالإخوان أفسد مروءته».

* «العافية نعمة خفية إذا وجدت نسيت وإذا عدمت ذكرت».

* «العدل أحلى من الماء يصيبه الظمآن».

* «العجب يُكلِم المحاسن، والحسد للصديق من سقم المودة، ولن تمنع الناس من عرضك إلاّ بما تنشر عليهم من فضلك».

* «العز أن تذلّ للحق إذا لزمك».

* «العادة على كل شيء سلطان».

* «عليك بالنصح لله في خلقه فإنك لن تلقاه بعمل أفضل منه».

* «ويل لقوم لا يدينون الله بالمعروف والنهي عن المنكر».

* «الغضب ممحقة لقلب الحليم، ومن لم يملك غضبه لم يملك عقله».

* «الغضب مفتاح كل شر».

* «فوت الحاجة خير من طلبها من غير أهلها، وأشد من المصيبة سوء الخلف منها».

* «من استشاره أخوه فلم يمحضه النصح؛ سلبه الله رأيه».

* «لا تبد الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويصيّرها بك».

* «لو يعلم السائل ما عليه من الوزر ما سأل أحدٌ أحداً، ولو يعلم المسؤول إذا منع ما منع أحد أحداً».

* «لا تتبع أخاك بعد القطيعة وقيعة فيه، فتسد عليه طريق الرجوع إليك، ولعل التجارب أن ترده إليك».

* «لو علم سيء الخلق أنه يعذب نفسه لتسمح في خلقه».

* «لا تكن أول مشير، وإيّاك والرأي الفطير، وتجنب ارتجال الكلام، ولا تشر على مستبد برأيه، ولا على وغد، ولا على متلون، ولا على لجوج».

* «لا يزال العز قلقاً حتى يدخل داراً قد أيس أهلها من أيدي الناس».

* «ليس منّا من لم يحسن مجاورة من جاوره».

* «البر وحسن الخلق يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار»، فقيل له: ما حد حسن الخلق؟

قال عليه السلام: «تلين جانبك، وتطيب كلامك، وتلقى أخاك ببشر حسن».

وقال عليه السلام للمفضل بن عمر: «أوصيك بست خصال». قال المفضل: وما هي يا سيدي؟

قال عليه السلام: «أداء الأمانة إلى من ائتمنك، وأن ترضى لأخيك ما ترضاه لنفسك، واعلم بأن للأمور أواخر فاحذر العواقب، وإن للأمور بغتات فكن على حذر، وإيّاك ومرتقى جبل سهل إذا كان المنحدر وعراً، ولا تعدنّ أخاك وعداً ليس في يدك وفاؤه».

* «ثلاثة لا يصيبون إلاّ خيراً: أولو الصمت، وتاركو الشر، والمكثرون من ذكر الله، ورأس الحزم التواضع».

فقيل له: وما التواضع؟

قال عليه السلام: «أن ترضى من المجلس بدون شرفك، وأن تسلّم على من لقيت، وأن تترك المراء وإن كنت محقاً».

* «خمس خصال من فقد منهنّ واحدة لم يزل ناقص العيش مشغول القلب: فأولها صحة البدن، والثانية الأمن، والثالثة السعة في الرّزق، والرابعة الأنيس الموافق، والخامسة وهي تجمع هذه الخصال: الدعة» فقيل له: وما الأنيس الموافق؟ قال: «الزوجة الصالحة، والولد الصالح».

* «الكلام ثلاثة: صدق، وكذب، وإصلاح بين الناس».

فقيل له: ما الإصلاح بين الناس؟

قال عليه السلام: «تسمع في الرجل كلاماً إن يبلغه فيخبث نفسه، فتلقاه وتقول: قد سمعت من فلان فيك من الخير كذا وكذا خلاف ما سمعته منه».

* «إن الخمر رأس كل إثم ومفتاح كل شر، وما عصي الله بشيء أشد من شرب المسكر».

فقال له الرجل: أصلحك الله؛ أشرب الخمر شر أم ترك الصلاة؟

قال عليه السلام: «شرب الخمر». ثم قال له: «أو تدري لم ذاك؟» قال: لا.

قال عليه السلام: «لأنه ـ أي شارب الخمر ـ يصير في حال لا يعرف ربه».

* وسئل عليه السلام: هل يكون المؤمن بغيضاً؟

قال: «لا ولا يكون ثقيلاً».

* «لعن الله قاطعي سبيل المعروف». قيل له: ومن قاطعو سبيل المعروف؟ قال عليه السلام: «الرجل يصنع إليه المعروف فيكفره، فيمتنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره».

* «لا يطعمن ذو الكبر في الثناء الحسن، ولا الخب في كثرة الصديق، ولا السيء الأدب في الشرف، ولا البخيل في صلة الرحم، ولا المستهزىء بالناس في صدق المودة، ولا القليل الفقه في القضاء، ولا المغتاب في السّلامة، ولا الحسود في راحة القلب، ولا المعاقب على الذنب الصغير في السؤدد، ولا القليل التجربة المعجب برأيه في الرياسة».

* «لا يصلح من لا يعقل، ولا يعقل من لا يعلم، والصدق عز، والجهل ذل، والفهم مجد، والجود نجح، وحسن الخلق مجلبة للمودة، والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس، والحزم مشكاة الظن، والعاقل غفور والجاهل ختور؛ وإن شئت أن تهان فأخشن، ومن كرم أصله لان قلبه، ومن خشن عنصره غلظ كبده، ومن فرط تورط، ومن خاف العاقبة تثبت».

* «لا غنى بالزوج عن ثلاثة فيما بينه وبين زوجته: الموافقة ليجتلب بها موافقتها ومحبتها وهواها وحسن خلقه معها، واستعماله استمالة قلبها بالهيئة الحسنة في عينها، وتوسعته عليها.

ولا غنى للزوجة فيما بينها وبين زوجها عن ثلاث خصال وهن: صيانة نفسها من كل دنس حتى يطمئن قلبه إلى الثقة في حال المحبوب والمكروه.

وحياطته ليكون ذلك عاطفاً عليها عند زلة تكون منها.

وإظهار العشق له بالخلابة والهيئة الحسنة لها في عينه».

* «لا تتكلم فيما لا يعنيك، ودع كثيراً من الكلام فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً، فربّ متكلم تكلم بالحق بما يعنيه في غير موضعه فتعب، ولا تمارين سفيهاً ولا حليماً فإن الحليم يغلبك والسفيه يرديك، واذكر أخاك إذا تغيب بأحسن ما تحب أن يذكرك به إذا تغيبت عنه، واعمل عمل من يعلم أنه مجزي بالإحسان، مأخوذ بالإجرام».

* «ليس من أحد، وإن ساعدته الدنيا بمستخلص غضارة عيش إلاّ من خلال مكروه، ومن انتصر بمعاجلة الفرصة مواجلة سلبته الأيام فرصته، لأن من شأن الأيام السلب، وسبيل الزمن الفوت، ولا تحدث من تخاف أن يكذبك، ولا تسأل من تخاف أن يمنعك، ولا تأمن من تخاف أن يغدر بك، ومن لم يواخي من لا عيب فيه قل صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلاّ بإيثاره إياه على نفسه دام سخطه، ومن عاتب على كل ذنب كثر تعبه».

* «لا تغرنك الناس من نفسك فإن الأمر يصل إليك دونهم، ولا تقطع النهار عنك بكذا وكذا، فإن معك من يحصي عليك، ولا تستصغرنّ حسنة تعملها فإنك تراها حيث تسرك، ولا تستصغرنّ سيئة تعملها فإنك تراها حيث تسوؤك، وأحسن فإني لم أر شيئاً أشد طلباً ولا أسرع دركاً من حسنة محدثة لذنب قديم».

* «لا تعتد بمودة أحد حتى تغضبه ثلاث مرات».

* «لا تثقن بأخيك كل الثقة، فإن سرعة الاسترسال لا تقال».

* «ليس لك أن تأمن الخائن وقد جربته، وليس لك أن تتهم من ائتمنت».

* «ليس لملول صديق، ولا لحسود غنى، وكثرة النظر في الحكمة تلقح العقل».

* «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن الإيمان ما خلص في القلوب وصدقته الأعمال».

* «ليس فيما أصلح البدن إسراف».

* «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول فيه».

* «كفارة عمل السلطان قضاء حاجات الإخوان».

* «كفى بالحلم ناصراً».

* «كسب الحرام يبين في الذرية».

* «من سعادة الرجل أن يكون القيّم على عياله».

* «من أمل أحداً هابه، ومن قصر عن شيء عابه».

* «من صدق لسانه زكى عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن بره بأهل بيته مد في عمره».

* «من حق أخيك أن تحمل له الظلم في ثلاث مواقف: عند الغضب، وعند الذلة، وعند السهو».

* «لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى تكون فيه خصال ثلاث: الفقه في الدين، وحسن التقدير في المعيشة، والصبر على الرزايا».

* «لا يبلغ أحَدكم حقيقة الإيمان حتى يحب أبعد الخلق منه في الله، ويبغض أقرب الخلق منه في الله».

* «لا تكون مؤمناً حتى تكون خائفاً راجياً، ولا تكون خائفاً راجياً حتى تكون شاملاً لما تخاف وترجو».

* «لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه فيعلم من أين مطعمه، ومن أين ملبسه أمن حلال أم من حرام؟».

* «من أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله، وتعطي في الله وتمنع في الله».

* «من صحة يقين المرء المسلم أن لا يرضي الناس بسخط الله، ولا يحسدهم على ما آتاهم الله، ولا يلومهم على ما لم يؤته الله، فإن رزقه لا يسوقه حرص حريص، ولا يردّه كره كاره. ولو أن أحدكم فرّ من رزقه كما يفرّ من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت».

* «من لم يحب على الدين ولا يبغض على الدين فلا دين له».

* «ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثمان خصال: وقور عند الهزاهز، صبور عند البلاء، شكور عند الرخاء، قانع بما رزقه الله، لا يظلم الأعداء ولا يتحمل الأصدقاء، بدنه منه في تعب، والناس منه في راحة».

* «يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل، والتعاون، والتعاطف، والمواساة لأهل الحاجة، وتعاطف بعضهم على بعض».

* «يا شيعة آل محمّد إنه ليس منا من لم يملك نفسه عند الغضب، ولم يحسن صحبة من صحبه، ومرافقة من رافقه، ومصالحة من صالحه، ومخالفة من خالفه. يا شيعة آل محمّد اتقوا الله ما استطعتم، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم».

* «المغرور في الدنيا مسكين وفي الآخرة مغبون، لأنه باع الأفضل بالأدنى، ولا تعجب من نفسك فربما اغتررت بمالك وصحة جسدك لعلك تبقى، وربما اغتررت بطول عمرك وأولادك وأصحابك لعلك تنجو بهم، وربما اغتررت بجمالك وإصابتك مأمولك وهواك فظننت أنك صادق ومصيب، وربما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة ولعل الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك، وربما أقمت نفسك على العبادة متكلفاً والله يريد الإخلاص، وربما توهمت أنك تدعو الله وأنت تدعو سواه، وربما حسبت أنك ناصح للخلق وأنت تريدهم لنفسك، وربما ذممت نفسك وأنت تمدحها على الحقيقة».

* «إن الله خبأ ثلاثاً في ثلاث: رضاه في طاعته فلا تحتقروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه، وغضبه في معاصيه فلا تحتقروا شيئاً فلعل غضبه فيه، وخبأ ولايته في عباده فلا تحتقروا منهم أحداً فلعله ولي الله».

* «إذا استقبلت القبلة فآيس من الدنيا وما فيها، والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن ذكر الله، وعاين بسرك عظمة الله عزّ وجل، واذكر وقوفك بين يديه قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ وقف على قدم الخوف والرجاء».

* «لا ينبغي للمؤمن أن يجالس مجلساً يعصى الله فيه ولا يقدر على تغييره، ومن ابتلي بحضور طعام ظالم إكراهاً وتقية، فليقلل الأكل ولا يأكل أطايب الأطعمة».

* «المؤمن هو الذي إذا غضب لم يخرجه غضبه من حق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، والذي لم يأخذ أكثر مما له».

* «الصمت كنز وافر وزين الحليم وستر الجاهل».

* «قلة الصبر فضيحة».

* «كل ذي صناعة مضطر إلى ثلاث خلال يجتلب بها المكسب: أن يكون

حاذقاً بعمله، مؤدياً للأمانة فيه، مستميلاً لمن استعمله».

* «كم من مغرور بما أنعم الله عليه، وكم من مستدرج يستر الله عليه، وكم من مفتون بثناء الناس عليه».

* «من ائتمن خائناً على أمانة لم يكن له على الله ضمان».

* «من دعا الناس إلى نفسه وفيهم من هو أعلم منه فهو مبتدع ضال».

* «من زرع العداوة حصد ما بذر».

* «من أخلاق الجاهل: الإجابة قبل أن يسمع، والمعارضة قبل أن يفهم، والحكم بما لم يعلم».

* «من سأل مَن غير حاجة فكأنما يأكل الجمر».

* «إياك وملاحات الشعراء، فإنهم يضنّون بالمدح ويجودون بالهجاء».

* «الأدب عند الأحمق كالماء العذب في أصول الحنظل، كلما ازداد رياً ازداد مرارةً».

* «من عظمت نعمة الله عليه اشتدت مؤونة الناس إليه».

* «إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفاسفها».

* «دعامة الإنسان العقل، وبالعقل يكمل، وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره».

* «ثلاثة يجب على كل إنسان تجنبها: مقارنة الأشرار، ومحادثة النساء، ومجالسة أهل البدع».

* «القضاة أربعة: قاض قضى بالحق وهو لا يعلم أنه الحق فهو في النار، وقاض قضى بالباطل وهو لا يعلم أنه باطل فهو في النار، وقاض قضى بالباطل وهو يعلم أنه باطل فهو في النار، وقاض قضى بالحق وهو يعلم أنه الحق فهو في الجنة».

* «ما من مظلمة أشد من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عوناً إلاّ الله».

* «من عذر ظالماً بظلمه سلّط الله عليه من يظلمه، وإن دعا لم يستجب له، ولم يؤجره الله على ظلامته».

* «من يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فعل به».

* «من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله».

* «من ولّي شيئاً من أمور المسلمين وضيّعه ضيّعه الله».

* «من ظلم مظلمة أخذ بها في نفسه أو في ماله أو في ولده».

* «من كان الحزم حارسه والصدق جليسه عظمت بهجته وتمت مروّته. ومن كان الهوى مالكه والعجز راحلته عاقاه عن السلامة وأسلماه إلى الهلكة».

* «ثلاثة يحتاج إليها الناس طراً: الأمن، والعدل، والخصب».

* «ثلاثة تكدر العيش: السلطان الجائر، وجار السوء، والمرأة البذية».

* «إذا أراد الله برعية خيراً، جعل لهم سلطاناً رحيماً ووزيراً عادلاً».

* «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس بمسلم. إن رسول الله ﷺ قال: من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم».

* «إياكم وظلم من لا يجد عليكم ناصراً إلاّ الله».

* «العامل بالظلم والمعين له والراضي به كلهم شركاء».

* «اتقوا الظلم فإن دعوة المظلوم تصعد إلى السماء».

* «إن الإمامة لا تصلح إلاّ لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن المحارم، وحلم يملك به غضبه، وحسن الخلافة على من ولي حتى يكون له كالوالد الرحيم».

* «وجدنا بطانة السلطان ثلاث طبقات:

طبقة موافقة للخير وهي بركة عليها وعلى الرعية.

وطبقة غايتها المحاماة على ما في أيديها فتلك لا محمودة ولا مذمومة، بل هي إلى الذم أقرب.

وطبقة موافقة للشر وهي مشؤومة مذمومة عليها وعلى السلطان».

* «نجوى العارفين تدور على ثلاثة: الخوف، والرجاء، والحب.

فالخوف فرع العلم، والرجاء فرع اليقين، والحب فرع المعرفة، فدليل الخوف الهرب، ودليل الرجاء الطلب، ودليل الحب إيثار المحبوب على ما سواه، فإذا تحقق العلم بالصدر خاف، وإذا صح الخوف هرب، وإذا هرب نجا».

* «المعروف زكاة النعم، والشفاعة زكاة الجاه، والعلل زكاة الأبدان، والعفو زكاة الظفر، وما أديت زكاته فهو مأمون السلب».

* «لو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً».

* «إن من بقاء المسلمين والإسلام أن تصير الأموال عند من يعرف حقها، ويصنع فيها المعروف. وإن من فناء الإسلام والمسلمين أن تصير الأموال في أيدي من لا يعرف فيها الحق، ولا يصنع فيها المعروف».

* «إنما أعطاكم الله هذه الفضول من الأموال لتوجهوها حيث وجهها الله، ولم يعطكموها لتكنزوها».

* «إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء، ومعونة للفقراء، ولو أن الناس أدّوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً، ولا مستغن بما فرض الله عزّ وجل عليه.

وإن الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا إلاّ بذنوب الأغنياء، وحقيق على الله عزّ وجل أن يمنع رحمته ممن منع حق الله في ماله، وأقسم بالله الذي خلق الخلق وبسط الرزق، أنه ما ضاع مال في بر ولا في بحر إلاّ بترك الزكاة، وإن أحب الناس إلى الله عزّ وجل أسخاهم كفاً، وأسخى الناس من أدّى زكاة ماله، ولم يبخل على المؤمن بما افترض الله عزّ وجل لهم في ماله».

* «من وقف نفسه موقف التهمة فلا يلومن من أساء الظن به، ومن كتم سرّه كانت الخيرة بيده، وكل حديث جاوز اثنين فاشٍ، وضع أمر أخيك على أحسنه، ولا تطلبنّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد في الخير لها محملاً، وعليك بإخوان الصدق فإنهم عدة عند الرخاء، وجُنة عند البلاء، وشاور في حديثك الذين يخافون الله وأحب الإخوان على قدر التقوى، واتق خيار النساء وكن من شرارهنّ على حذر، وإن أمرن بكم في المعروف فخالفوهنّ حتى لا يطمعن منكم في المنكر».

هذا عرض موجز لحكميات الإمام أبي عبد اللّه جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام انتزعناها من الكتاب الذي أعددناه لجمع تراثه الفكري، وأسميناه (بالأُسس التربوية).

حكمه تعاليم إسلامية:

ومن المؤسف أن هذه الحِكَم لا تزال مبعثرة في بطون الكتب، هنا وهناك، ولم نجد من تصدّى لجمعها وشرح غوامضها، فهي غذاء روحي، ورصيد ضخم من

الأخلاق، والثقافة، والآداب، ولا بد لكل منصف أن يعترف بأهمية ذلك، وعسى أن يأتي اليوم الذي تبرز فيه هذه الآثار، بالصورة المطلوبة لتكون منهجاً أخلاقياً، يعتز المسلمون به، وتكون موضع اهتمام وتقدير.

وهذه الفصول التي أوردناها هي بعض من ذلك الرصيد الضخم، وجزء من ذلك التراث القيّم، فإنا ذكرناها لا على سبيل الحصر بل في معرض التمثيل عما يكشف لنا وجهة نظره في كثير من قضايا الإنسان والمجتمع.

وقد رأينا كيف كان حرصه على معالجة المشاكل الاجتماعية، وبأي طريقة يحاول أن يصلح النفوس، ويحارب العادات المضرة ويدعو إلى اعتناق الفضائل.

إنه عليه السلام يصور لنا أحوال النفس الإنسانية في جميع حالاتها ويكشف لنا ما يكمن فيها من عقد وانفعالات، ويجعل لها حدوداً ومقاييس، في حالة اطمئنانها وقلقها، ورضاها، وغضبها، وخوفها، وأمنها. فإصلاحها صعب إذا لم تتخذ الطرق الناجحة لذلك، وقد بيّنها في كثير من تعاليمه.

وعلى كل حال فإن هذه الحكم التي يقرّها العقل، ويرتاح لها الضمير الحر، ويعترف بها الوجدان، ويشهد لها الواقع. هي خلاصة تعاليم إسلامية تهدف إلى سعادة الإنسان في حياته، وبعد مماته. والإمام الصّادق يرسل هذه النصائح لجميع المسلمين، ويضعها بين يدي الأحفاد، كما وضعها بين يدي الآباء والأجداد، فهو ناصح يرسل عظاته عبر الدهور معلماً وفيصلاً بين الحق والباطل.

إنه عليه السلام من أعظم الشخصيات التي أدّت واجبها ومثّلت دورها في الدعوة إلى الله، فبرزت في معترك الحياة ببطولة تبعث في نفوس الأمة قوة الإيمان، وصحة العقيدة، والإقدام على التضحية.

إنه عليه السلام يريد أن يعالج تلك المشاكل التي كان يموج بها العالم الإسلامي في عصره على ضوء ما جاء في الإسلام من مبادئه القويمة، وتعاليمه السمحة.

فكان يدعو الناس إلى التسلح بالقوى المعنوية، التي لا تقف أمامها أي قوة، إن الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، أعظم قوة تضمن للأمة النصر والنجاح، فإن المؤمن قوي القلب قوي الإرادة، واثق بنصر الله وتأييده، فهو الذي يذلل له كل صعب، ويهون عليه كل خطب، وبه يستطيع الإنسان أن يتغلب على شهواته وميوله

ونزعاته، وينشأ عن ذلك: الإيثار والمحبة، والتضحية، ونكران الذات، والتفاني في صالح المجتمع وكل فضيلة يتحلى بها الفرد المسلم.

والإيمان بالله يجعل في نفوس المؤمنين وعياً، يبعثهم على محاولة الرذيلة بشتى أنواعها، وبالوعي الإسلامي يزول خطر العابثين بمقدرات الأمة، كما أن فقدانه يعرضها لكل خطر، ويجعلها فريسة لكل طامع وخاضعة لكل متسلط، ومدفوعة في أمواج الفتن وتيارات الآراء، فلا تمييز بين الحق والباطل والضار والنافع.

جهاده ودفاعه عن الإسلام:

وعلى أي حال: فإن الإمام الصّادق عليه السلام كان من أعظم الشخصيات الإسلامية التي خدَمت الأمة بنشر العلم، وبث روح الفضيلة، وحثّ الناس على التمسّك بمبادىء الإسلام التي تكفل للإنسانية سعادتها، وتحريرها من قيود الاستغلال والعبودية.

وإن الظروف التي تحيط بالشّخصيات التاريخية هي الشاهد على ما تتمتع به وما تمتاز، ولقد كانت الأحداث التي واجهها الإمام الصّادق، والظروف التي مرّ بها صعبة ومُرّة تمكن عليه السلام من اجتيازها بمنهج ثابت وخطة قويمة حفظت للأمة جوهر مبادئها ولباب عقائدها.

وقد حارب الخرافات والأوهام، والمعتقدات الخبيثة، وحفر لها قبوراً بمعاول الحق.

كان الناس ينظرون إليه نظرة إجلال وإكبار، لما منحه الله من فضل القربى، وشرف المحتد، وطهارة النفس، وقوة الإدراك، وصدق الحديث، والفقه في الدّين، والعمل بطاعة الله، والدعوة إلى الحق، ومجانبة الباطل، ومحاربة الظالمين. وكانت مدرسته أعظم جامعة إسلامية، يقصدها طلاّب العلم من مختلف الجهات، وقد أخذ على عاتقه أداء الرسالة الملقاة على كاهله، في توجيه الناس توجيهاً صحيحاً، وسلك بهم طريق الاستقامة والتماسك، ونحى ناحية الأخلاق والتهذيب، على ضوء تعاليم الإسلام، فكانت له شهرة علمية تتحدث بها الركبان، ونفوذ روحي يخضع له العدو والصّديق.

ولقد عظم ذلك على الحكام الذين أرادوا إخماد الشعور بجرائمهم، والسكوت عن معارضتهم، بما ارتكبوه من العبث بكرامة الإنسانية، وإهدار القيم الرفيعة، ولا

يريدون أن يرتفع صوت الاستنكار على أعمالهم، لأنهم يدّعون أنّهم أئمة عدل، وأنصار حق، ولهم أهلية وراثة النبي، والاختصاص بسلطانه. والواقع أنهم على خلاف ما يدّعون، ولكنهم يريدون إغراء البسطاء من الناس.

لقد عظم عليهم مركز الإمام الصّادق، وكانت شخصيته تثير مخاوفهم، ولم يستطيعوا أن يؤاخذوه بما يبرّر لهم الانتقام منه، والانتفاضة عليه، وقد التجأ المنصور إلى خلق اتهامات وتزوير كتب، يحاول من ورائها أن يفسح له المجال في الوقيعة فيه، ولكن محاولته باءت بالفشل وسعيه بالخسران.

وهكذا بقي عليه السلام عرضة للخطر، ولكنه مؤمن بالله فلا يخشى من دونه أحداً.

وفي ذلك العصر المضطرب بدأ التنازع بين الدِّين والفلسفة، وبين الإسلام والعقائد التي جاء الإسلام لمحاربتها، وظهرت بوادر الجدل العقلي وعلم الكلام، فكان موقفه من تلك التيارات وسط ذلك النزاع والجدل موقف العالم المناضل عن الدِّين، والمدافع القوي بحجته ووضوح برهانه، الراجح في عقله واستدلاله يدافع عن الإسلام بما يقرّه العلم الصحيح، ويخضع له العقل السليم، ويرتاح له الضمير، ويدلي بآرائه على خصومه، بمنطق يدخل إلى آذان سامعيه، فينفذ إلى قلوبهم فلا يجدون بدأ من التسليم لقوله الحق ومنطقه الصائب.

فكان عليه السلام لا يجارى في استدلال، ولا يغلب في برهان، بل كان هو المتفوق والسابق في كل مضمار.

وقد شعر دعاة الإلحاد بخطر موقفه لرد كل شبهة، ومحاربة كل فكرة من طريق العلم والمنطق فعظم عليهم ذلك، ونظروا إليه نظرة ملؤها غضب وحقد، وحاولوا أن يقفوا في طريق دعوته الإصلاحية كما وقف هو عليه السلام في طريق نشر مبادئهم الإلحادية، وتوصلوا إلى حل ناجح وهو انضمام بعض دعاة الإلحاد إلى مدرسته، وادعاء حب أهل البيت لكي يفسدوا بذلك بعض الأمور بروايتهم عنه وكذبهم عليه، وارتكابهم أموراً لا تتفق مع مبادىء الإسلام.

وبهذا يلزمنا أن نشير إلى مشكلة الغلاة في عصره.

ونود هنا أن نستعرض حركة الغلاة ونشأتها، وتطورها، لنقف على العوامل التي جعلت الكثير من المؤرخين والكتّاب، يذهبون إلى وجود العلاقة بينهم وبين شيعة أهل البيت، بل ذهب البعض إلى وصف الشيعة بالغلو، وكل ذلك ناشىء عن التجني

على الحقائق، والبعد عن للواقع. فليس بين الشيعة وبين الغلاة رابطة تجمعهم، وما تلك التهم إلاّ من أغراض السياسة العمياء، التي تريد تشويه الحقائق، وقلب الأوضاع، واتهام الأبرياء.

وقد التجأت هنا إلى ذكر مشكلة الغلاة ودوافع حملها على المذهب الشيعي بعد أن أشرت لها في الجزء الأول، لأني وقفت على عبارات لبعض المؤلفين وقد وصفوا الشيعة بأوصاف يندى لها الجبين، ويحترق لها قلب المسلم الحريص على جمع كلمة الإسلام، في عصر يجب أن تتوحد الكلمة فيه وتزول الضغائن والأحقاد التي خلقتها النعرات الطائفية الأولى، والتي يقدح زنادها أعداء الإسلام، الذين يريدون أن يفرّقوا الصفوف، لتحقيق آمالهم عندما اندسوا في صفوف المسلمين.

ومن العجب أن يبدو هذا التهجم الشائن ممن يدعي المعرفة، ويتزيا بزي العلم، وقد دلت أقواله على ما تنطوي عليه نفسه من الخبث والجشع، وقلة المعرفة بالأمور، إنه العار وإنه الدمار. أن تبتلى الأمة الإسلامية بأمثال هؤلاء الذين قدموا أنفسهم لخدمة أعداء الدين.

وعلى كل حال فإنا نحاول بهذه الدراسة السريعة عن حركة الغلاة في عصر الإمام الصّادق، أن نوفق لإقناع من استساغ الطعن على الشيعة، بوصفهم في الغلو ودعوى التأليه لأهل البيت، وما ذلك إلاّ تخرّصاً وتقوّلاً وافتراء وتزويراً، وسيقف القارىء الكريم على موقف أهل البيت وشيعتهم من الغلاة وبراءتهم منهم مما لا يدع مجالاً لمتقول، ولا طريقاً لمفرق.

والله نسأل أن يمدّنا بالتوفيق وعليه الاتكال.

مُشكلة الغُلاة

المؤرّخون ومشكلة الغلاة:

يأبى كثير من المؤرخين إلاّ أن يتأثروا بالدعايات الكاذبة، ويأخذوا بأقوال المنحرفين عن الحق، الذين أصبحوا آلة طيّعة بيد حكام دفعتهم شهواتهم وحرصهم على سلطان الاستبداد بأمور الأمة، ألا يروا فضيلة لأهل البيت إلاّ ضيّعوها، ولا مكرمة إلاّ أخفوها، حسداً منهم، وخوفاً على سلطانهم.

نعم يأبى كثير من المؤرّخين إلاّ أن يسيروا مع التيار الجارف من آراء قوم يصعب عليهم وحدة الصف، ويثقل على أنفسهم جمع الكلمة، فتعمدوا إثارة الفتن، وتشويه الحقائق بالدس والافتراء والتقول بالباطل، وهدفهم في ذلك أنّهم لا يريدون أن يحصل صفاء بين المسلمين، فربطوا تأريخ الغلاة بتاريخ الشيعة، وعقائدهم بعقائد الشيعة. رغم الحقائق الدالة على خلاف ما يذهبون إليه من التجني على الشيعة.

إن من الواجب على المؤرخ أن يتصدّى للتمييز بين الأشياء التي يدوّنها، وأن يضع كل شيء في مكانه، لئلا يحصل الخلط الشنيع بين الأمور المتناقضة.

وإني لا أستطيع أن أتصور بعداً عن الحق، ومكابرة للواقع، مثل مكابرة من يصف الشيعة بالغلو، لأن البعض منهم نسبوه إليهم، وما ذلك إلاّ خطلاً في الرأي وابتعاداً عن الحق.

إن مشكلة الغلاة هي أعظم مشكلة أوقعها خصوم الإسلام بين أهله، ولم تعالج هذه المشكلة بحل صحيح، على ضوء الواقع من حيث هو، بل استمرت تعمل عملها، وتؤثر أثرها في شق وحدة الصف، وبث روح العداء بين المسلمين.

وإن مشكلة الغلاة توقع الباحث في صعوبة لا يذلّلها إلاّ حرية رأيه وإنصافه.

وابتعاده في البحث عن التقليد الأعمى، والتعصّب الطائفي الذي جرّ على هذه الأمة، بلاء الفرقة ومحن البغضاء والتطاحن.

إن أكثر المؤرخين لم يدرسوا الظروف التي نشأت فيها طوائف الغلاة، ولم يعرفوا أسباب ذلك، كما أنّهم لم يقفوا على العوامل التي بعثت النشاط في دعوتهم فأثرت أثرها في تفريق الصفوف، وإيقاد نار البغضاء في القلوب، وإثارة الفتن في المجتمع، ولو أن أولئك المؤرخين الذين ربطوا تاريخ الغلاة بتاريخ الشيعة واستعملوا الأقيسة المعكوسة، ودرسوا ظروف نشأة تلك الأفكار، وأسباب ذلك الاعتقاد، وبواعث ذلك النشاط، لوجدوا أنفسهم خاطئين في سلوكهم، بعيدين عن الواقع، ولاتضح لهم البون الشاسع، بين الغلاة وبين الشيعة، وبذلك تظهر الحقيقة في البحث ـ إن كانوا يطلبونها ـ وإذا ظهرت الحقيقة بطلت الأوهام.

وقد قلت سابقاً إن خصوم الإسلام في عصر الإمام الصّادق عليه السلام قد عظم عليهم موقفه في نشر الدعوة الإسلامية، عندما نشطت الحركة العلمية، حيث اتجه الناس إلى التدوين والبحث، وظهر علم الكلام والفلسفة، وبرزت مدرسة الإمام الصّادق عليه السلام في نشر العلم وبث تعاليم الإسلام، وكثر المنتمون إليها، وانتشر ذكرها في جميع الأقطار الإسلامية، وقام أصحابه بأداء الرسالة، وكان للكوفة النصيب الأوفى من حملة العلم، ورجال الإصلاح، المنتسبين لتلك المدرسة، فكان عددهم يربو على الألف، منهم تسعمائة محدّث في مسجد الكوفة، كل يقول: حدّثني جعفر بن محمّد.

وحيث كانت الكوفة مركزاً هامّاً للتجارة والصناعة ملحوظاً في حياة المجتمع الإسلامي في القرن الأول الهجري، وازدهرت فيها المنسوجات الحريرية وهي ما سموها عمل الوشي والخز، وكانت هذه المصنوعات تلقى رواجاً في الأقطار الإسلامية(١) وكانت محاطة بقرى كثيرة، وفيها من غير المسلمين عدد كبير كالنصرانية في الحيرة وغيرها، ووفد عليها أربعة آلاف من رعايا الفرس عرفوا بحمراء الديلم(٢) كما كثرت الهجرة إليها من الأقطار النائية من ذوي العقائد الفاسدة والآراء الشاذة،

---

(١) الأغاني ج٢ ص١٧٢.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص٢٨٩.

واختلطوا بمجتمع الكوفة، فكان نشاطهم محسوساً في استغلال الفرصة لبثّ آرائهم ونشر عقائدهم، وربطها بالعقائد الإسلامية عن طريق الخداع والتضليل حقداً على الإسلام وأهله، واندس البعض منهم في حلقات العلم مدّعياً انتماءه لمدرسة الإمام الصّادق، وهم يكذبون عليه فيما ينسبونه إليه، وغرضهم في ذلك هو الطعن على أهل البيت، وتشويه سمعة أوليائهم، لكي ينفروا القلوب، ويثيروا البغضاء، لتقع الفرقة بين صفوف المسلمين.

فكان الأجدر بالمؤرخين والكتّاب أن يتحرّوا حقيقة الأشخاص الذين بثوا تلك الأفكار ودعوا إلى تلك العقائد، ويخضعوا أقوالهم وأفعالهم للنقد والتمحيص حتى يتبيّنوا الدوافع والأغراض التي تكمن وراء نشاطهم. وإن استعصى عليهم ذلك فما أسهل الإصغاء إلى مواقف أئمة الشيعة وآراء رجالهم في دحض تلك الآراء وفضح تلك العقائد.

أسباب نشأة الغلاة:

ويجب أن لا يغيب عن بالنا سبق هذا العداء للإسلام وقدمه قبل عصر الإمام الصّادق عليه السلام فهو متأصل منذ فجر الدعوة الإسلامية يتوارثه الأبناء والأحفاد، وذلك لأن دعوة النبي ﷺ منذ البداية موجهة إلى الناس كافة، سواء منهم العرب وغير العرب، وثنيون أو يهود، نصارى أو مجوس، فهي لم تختص بطائفة دون أخرى، ولا بقوم دون قوم، ولا بقطر دون آخر، بل هي رسالة عامة، ولا بد أن تجابه دعوته ﷺ بأقوى عدة وبأكثر عدد من المعارضين الذين قضى الإسلام على عقائدهم الفاسدة، وهدم هياكل عبادتهم التي يعبدونها من دون الله، كما هدم صروح الكبرياء والأنانية وأزال عروش الظلم والاستبداد، وأذلّ قوماً اعتزوا بسلطانهم فاستذلّوا الآخرين. إلى آخر ما جاء به الإسلام من الإصلاح للعالم، الذي كان يموج بالفتن وتسوده نزعات مختلفة ونحل متنوعة، وكان الناس يتخبّطون في ظلام حالك كله شر ومخاوف، إذ يتغلب القوي على الضعيف، فتشن الغارات لنهب الأموال وانتهاك الحرمات في التكالب على السيادة، والاثرة والاستغلال.

فلم يخضع لهذه الدعوة جبابرة قريش الذين ملكت الأنانية قلوبهم، واستولى حب الذات والأثرة على مشاعرهم، وجعلوا من عبادة الأصنام قواماً لحياتهم.

ولأن محمّداً ﷺ يدعو إلى عبادة رب واحد لا شريك له، كما جاء بنظام العدل

والمساواة الشاملة، وهدم الفروق الظالمة بين الناس، وسوى بينهم في الحقوق والواجبات، وقرّر أن أصل الإنسان واحد والجميع أخوة في الإنسانية، فلا فضل لأحد على أحد إلاّ بالتقوى، وجاء بأحكام شاملة لم يستثنِ منها إنساناً ولا طائفة، بل الكل سواء في تطبيقها، وكان طبيعياً أن تصطدم تلك المبادىء بعادات العرب القديمة التي ورثوها عن الآباء والأجداد شأن كل دعوة ناشئة، كما أزعجتهم سرعة انتشار الدعوة في قلوب الناس.

وقد أحست العناصر الأخرى بخطر دعوة النبي ﷺ فرمقت ما كسبه الإسلام من تقدم وانتشار بعين الحقد والحسد، وكانت للنصرانية قوة في الشمال ولها أتباع منبثّون في مهد الدعوة، ولليهود عدة قوية في بلد الهجرة، وللمجوس دولة ومعابد، وكل هذه العناصر لا يروق لها انتشار هذا الدين وظهوره، فتظاهر الكل بالعداء للإسلام، وانتظم عقدهم وتكتلوا لحرب محمّد ﷺ ومعارضة دعوته، وبذلوا جهودهم، وعملوا أقصى ما يمكن أن يعملوه، فكانت هناك حروب دامية وغزوات متوالية بينه ﷺ وبين المشركين ومن انتظم في عقدهم، حتى نصر الله النبي ﷺ فتيقنوا أن لا أمل لهم مطلقاً في القضاء على الإسلام، فهو يزداد قوة وثباتاً رغم المعارضة في الحروب الدامية.

ودخل البعض منهم في الإسلام اعترافاً بعجزهم عن مقاومته، وآخرون اعتقدوا صدق نبوة محمّد ﷺ فاستجابوا له، وفئة ثالثة دخلوا نفاقاً وخداعاً فأظهروا الإسلام وأضمروا الكفر، وبقي الحقد يأكل قلوبهم والغيظ يحز في نفوسهم، فهم يتحيّنون الفرص ويتأهّبون للوثبة، ويعملون من وراء الستار، وينتظرون اليوم الذي ينتقمون فيه من الإسلام وأهله.

وبعد أن عجزوا عن مقابلة الإسلام وجهاً لوجه راحوا يعملون من وراء الستار بأيد عابثة، ولعل أول عهد حقق آمالهم هو العهد الأموي، لأن ملوكهم قد رفضوا الخضوع لقوانين الإسلام، ولم يلتزموا بتعاليمه، كما أنّهم من المغلوبين على أمرهم يوم أعلنوا الحرب على النبي ﷺ. وكانت قيادة تلك العناصر المختلفة بيد زعيمهم أبي سفيان[1] وبهذا لا يمكننا أن نجزم بزوال تلك الأحقاد عن قلوبهم، وإن أعمالهم

(١) يقول الدكتور علي سامي النشّار: (ولا شك أن الأمويين كانوا في أعماقهم جزءاً من مؤامرة كبرى على الإسلام، ولم يذهب على الإطلاق حقد جدهم الغنوصي القائم، ولم يكن أبو سفيان وثنياً بل كان مانوياً وزرع الحقد الدفين في عقولهم وقلوبهم).

شاهدة على وجودها وما كانت مجزرة الحرَّة إلاّ جولة من جولات المواجهة بين الإسلام وبقايا الشرك. وما مأساة كربلاء إلاّ صفحة أخرى من صفحات الحرب بين أئمة الإسلام وبين المتلبسين بلبوس الدين لإخفاء وثنيتهم وشركهم، فكان دورهم فتحاً لتلك العناصر المعادية للإسلام، فقد سنحت الفرصة وكان لهم في الأمر متسعاً، وقد قرّب الأمويون إليهم بعض المتدخلين في صفوف المسلمين، وجعلوا منهم أداة سياسية يستعينون بها على ترويج دعاياتهم، وإظهار مقاصدهم، كما أقام معاوية بن أبي سفيان كعب الأحبار ـ وهو يهودي أسلم في عهد عمر ـ قصاصاً. فغيّر مجرى الحوادث والتاريخ وأدخل الإسرائيليات في تاريخ الإسلام.

وعلى كل حال فلا تعنينا حركة خصوم الإسلام في العهد الأموي، الذي كان مسرحاً تظهر على لوحته الأمور المتناقضة للإسلام، والمخالفة لمبادئه، وإنما الأمر الذي يهمّنا هو التعرّض لحركتهم في عصر الإمام الصّادق عليه السلام وأثر براءته منهم، وإعلان ذلك للملأ، وكيف أثر ذلك في إبادتهم ومحوهم من صفحة الوجود، ولم يبق منهم إلاّ صوراً خيالية ينظر إليها من أكل الغيظ قلبه.

الدعوة الإسلامية وخصومها:

تبيّن مما قدّمناه في هذه الأبحاث أن الدعوة الإسلامية قد ثقلت على كثير من ذوي النفوس المريضة من مختلف العناصر وشتى الطوائف، وقد قابلوا ذلك بالعداء السافر والحرب الدموية، ولما عجزوا عن المقابلة للإسلام وجهاً لوجه، التجأوا إلى الحرب السرية، وحمل معاول الهدم والتخريب، واستعمال الوسائل التي تدعو إلى إثارة الفتنة بين المسلمين، وقد وجدوا أن أقرب طريق يوصلهم إلى غاياتهم وتحصيل أمنيتهم هو التدخّل في صفوف المسلمين، والعمل على تفريق الكلمة وبث روح العداء، وتفرّقوا لهذا الغرض فرقاً وأحزاباً، فمن مستجلب ود السلطة لينال مركزاً هاماً في الدولة يستطيع بواسطته أن يفسد بعض الأمور ويغيّر بعض الحقائق.

ومنهم من سلك طريق إظهار المحافظة على الإسلام، والانتصار له، والرد على ما يلصقه به إخوانه، الذين سلكوا سبيله في تشويه سمعة الإسلام.

ومنهم من ضرب على وتر حسّاس يستطيع به أن يستميل القلوب، ويحرك الشعور، وهو إظهار حب أهل البيت عليهم السلام الذين تألّبت جميع الفئات الحاكمة على ظلمهم من دون مراقبة لله ولا مراعاة لحرمة رسوله ﷺ.

وصفوة القول إنهم توزعوا على جميع الطوائف الإسلامية، فاندسوا في صفوفهم وامتزجوا في مجتمعهم.

هذا سوسن النصراني كان أول من نطق بالقدر وقد أظهر الإسلام، وعنه أخذ معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد[1] ثم عاد سوسن إلى نصرانيته بعد أن بثّ فكرته.

وهذا ابن كلاّب من بابية الحشوية، وكان عباد بن سليمان يقول إنه نصراني.

قال أبو عباس البغوي: دخلنا على فيثون النصراني وكان في دار الروم بالجانب الغربي، فجرى الحديث إلى أن سألته عن ابن كلاّب فقال فيثون: رحم الله عبد الله (اسم ابن كلاّب) كان يجيئني فيجلس إلى تلك الزاوية ـ وأشار إلى ناحية من البيعة ـ وعني أخذ هذا القول، ولو عاش لنصّرنا المسلمين[2] ـ أي لجعلناهم نصارى ـ.

ذكرنا هذا على سبيل المثال لما يفعله أصحاب الديانات الأخرى الذين كانوا يستغلّون الفرص للتدخل في صفوف المسلمين، فلم يتحد غرضهم في الدخول بطائفة أو الانضمام إلى جماعة، بل كانوا متفرقين في أهل الحديث والفقهاء والمؤرخين، وأهل الكلام والفلسفة، وسائر العلوم، وما أكثر الوسائل التي يتبعونها والأثواب التي يتنكّرون بها لحماية أنفسهم وتحقيق أهدافهم.

فقد يتنكر اليهودي في ثوب الإسلام ويدعي لنفسه أهداف المسلمين وأساليبهم، فيندس وسط جماعات وهيئات وهو أبعد ما يكون أن يؤمن بمبادئها ومثلها، ويأخذ على عاتقه هدم هذه المبادىء والمثل والتشكيك في قِيَمها وجدواها، فهو إذ يتظاهر في الانضمام إلى طائفة معينة، ويكون حريصاً على تحقيق مبادئها ونشر تعاليمها، إنما يفعل ذلك لينجح في مهمته، وهي تحقيق أهدافه الدنيئة عن طريق آخر، وكذلك غير اليهودي من نصراني ومجوسي ووثني ومشرك، وكل من في قلوبهم حقد على الإسلام وأهله.

فهم يدعون الإسلام من جهة، ويعملون على هدمه من جهة أخرى، ولهم أساليب كثيرة يتوسّلون بها لتحقيق أهدافهم وتحصيل أمانيهم. وقبل أن نأتي على استقصاء أساليبهم في المكر والخداع والتضليل، نود أن نشير إلى إبطال حركة الغلاة

---

(١) انظر الفرق للبغدادي ص٧٠.

(٢) الفهرست لابن النديم ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

في عصر الإمام الصّادق عليه السلام ومعارضة دعوته الإصلاحية، التي قام بها في عصر ازدهار العلم واتساع نطاق النهضة الفكرية.

رؤساء الغلاة ومواقف الإمام ضدهم:

أبو الخطاب الأسدي:

وهو محمّد بن مقلاص الأسدي الكوفي، كان رجلاً من الموالي اشتهر بكنيته دون اسمه؛ فالشهرستاني يذكره على أنه محمّد بن زينب الأسدي الأجدع. والمقريزي يثبته: محمّد بن أبي ثور، ويذكر أنه قيل في اسمه محمّد بن يزيد الأجدع. وأبو جعفرِ بن بابويه يذكر أن اسم أبي الخطاب زيد، إلى آخر ما فيه من الاختلاف.

ظهر هذا الرجل في الكوفة، وكان المجتمع يموج بالتيارات السياسية، والدعوة العباسية تشق طريقها إلى النجاح بسرعة، فاستغل ذلك الظرف الذي يأمل فيه نجاح مهمته في نشر دعوته الإلحادية، فدعى إلى عقيدة عرف أتباعها بالخطابية، وساعدته الظروف المواتية أن يجمع حوله تلاميذ يلقنهم تعاليمه، ويرسم لهم خطط الدعوة والتجمّع والظهور، وكانت حركتهم سرية محكمة وهي حركة سياسية من جهة وعقائدية من جهة أخرى، وتلتقيان في نقطة العداء للإسلام.

ولم تدون عقائد أبي الخطاب في كتاب سطرتها أقلام أتباعه، وإنما أخذت من غيرهم، وهذا ما يجعلنا نتردّد في بعض ما نسب إليه. وقد أجمعت الشيعة على لعن أبي الخطاب وتكفيره والبراءة منه، وإنه غال ملعون كما هو مذكور في كتب الرجال والحديث والتاريخ.

قد اتسعت حركة أبي الخطاب في ذلك الجو المضطرب، واستغل فرصة الدعوة لأهل البيت، والانتقام من أعدائهم، فأعلن مبدأه وأظهر عقيدته المخالفة لروح الإسلام، والتي لا تتصل بأهل البيت بأي صلة، ولما بلغ ذلك إلى الإمام الصّادق عليه السلام اهتم غاية الاهتمام بفتنة أبي الخطاب، وخاف عاقبتها السيئة التي تعود على صفوف المسلمين بالفرقة وعلى جمعهم بالشتات، وهو عليه السلام في ذلك العصر يبذل جهده في التوجيه إلى الالتزام بتعاليم الدين لتجتمع كلمة المسلمين، فيكونوا صفاً واحداً يردّون كل خطر يهدد المجتمع الإسلامي.

ووقف الإمام الصَّادق تجاه هذه الدعوة الإلحادية موقفاً مهمّاً، وأعلن استنكاره على أبي الخطاب، فكان موقفه عليه السلام صدمة لموجة الغلو الجامحة، وقضاء مبرماً على مزاعم الملحدين، ويتجلى عظيم اهتمامه من أقواله، وأمره للناس بالابتعاد عنهم.

قال عيسى بن أَبي منصور: سمعت أبا عبد اللّه الصَّادق يقول ـ وذكر أبا الخطاب ـ: «اللهم إلعن أبا الخطاب، فإنّه خوّفني قائماً وقاعداً وعلى فراشي، اللّهم أذقه حر الحديد».

وعن عنبسة بن مصعب قال: قال لي أبو عبد اللّه: «أي شيء سمعت من أبي الخطاب؟» قلت: سمعته يقول: إنك وضعت يدك على صدره وقلت له: عه ولا تنس. وأنت تعلم الغيب، وأنك قلت: هو عيبة علمنا وموضع سرنا، أمين على أحيائنا وأمواتنا.

فقال الإمام الصَّادق: «لا والله ما مسّ شيء من جسدي جسده، وأما قوله إني قلت: إني أعلم الغيب فوالله الذي لا إله إلاّ هو ما أعلم الغيب. ولا أجرني الله في أمواتي، ولا بارك لي في أحيائي إن كنت قلت له؛ وأما قوله إني قلت: هو عيبة علمنا وموضع سرّنا وأمين أحيائنا وأمواتنا، فلا آجرني الله في أمواتي ولا بارك لي في أحيائي إن كنت قلت له من هذا شيئاً».

وقال المفضل بن يزيد قال لي أبو عبد اللّه الصَّادق عليه السلام وذكر أصحاب أَبي الخطاب والغلاة: «يا مفضل لا تقاعدوهم ولا تواكلوهم ولا تشاوروهم، ولا تصافحوهم ولا توارثوهم».

وقال مرازم: قال لي أبو عبد اللّه: «قل للغالية تولوا إِلى الله، فإنكم فساق مشركون».

وقال أبو بصير: قال لي أبو عبد اللّه: «يا أبا محمّد أبرأ ممن يزعم أنا أرباب»، قلت: بريء منه. قال عليه السلام: «ابرأ ممن يزعم أنا أنبياء». قلت: بريء منه.

وعن أَبي بصير قال: قلت لأَبي عبد الله: إنهم (أي الخطابية) يقولون: إنك تعلم قطر المطر وعدد النجوم وورق الشجر ووزن ما في البحر، وعدد ما في التراب. فرفع الإمام الصَّادق يده وقال: «سبحان الله، سبحان الله، والله ما يعلم هذا إِلاّ الله».

وعن سدير عن أبيه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن قوماً يزعمون أنكم آلهة يتلون علينا بذلك قرآنا ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ قال عليه السلام: «يا سدير سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء براء، برأ الله منهم ورسوله، ما هؤلاء على ديني ودين آبائي، والله لا يجمعني وإياهم يوم إلاّ وهو عليهم ساخط».

وقال ميسرة: ذكرت أبا الخطاب عند أبي عبد الله عليه السلام وكان متكئاً فرفع إصبعه إلى السماء ثم قال: «على أبي الخطاب لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فأشهد بالله أنه كافر فاسق مشرك، وأنه يحشر مع فرعون في أشد العذاب غدواً وعشياً»، ثم قال: «والله والله إني لأنفس على أجساد أصيبت معه النار».

إننا نلحظ في الفقرة الأخيرة تأسفه على أولئك القوم الذين غرر بهم دعاة الإلحاد، فأوردوهم موارد الهلكة، عندما انضموا تحت لواء تلك الدعوة الباطلة، ولذلك وقف عليه السلام في أداء واجبه لشل ذلك النشاط المعادي للإسلام، فرفع صوته باستنكار مذهب الغلاة، فكان إعلان براءته صدمة للإلحاد، وقام رجال الشيعة في شل تلك الحركة ومعارضة ذلك التيار، وأبعدوهم عن مجتمعهم، وكشفوا الستار الذي كانوا يعملون من ورائه، فأحدث ذلك صدعاً في صفوف الغلاة، أدى إلى فرقتهم وإبادتهم بسرعة.

وقد وقف أبو الخطاب موقف المتصلّب تجاه براءة الإمام الصّادق منه، وتمكن من إغراء البسطاء من أصحابه بأن يعلن نفسه أنه نبي رسول، وأن كلمة الرسل واجب إطاعتها، ويذهب بعض نقلة العقائد أنه أعلن عن نفسه أنه إله[1]، وطفق أبو الخطاب يدعو لعقيدته، وقد أحاط به الفشل لأن موقف الإمام الصّادق عليه السلام وتكذيبه لما يدعيه أبو الخطاب كان له الأثر العظيم في شل تلك الحركات التي جاءت لإغواء المسلمين، ومحاربة الدعوة الإسلامية وتشويه سمعة أتباع أهل البيت، فكانت معارضة الإمام الصّادق ضربة قاضية، وخاب أمل أبي الخطاب، وتفرّق أصحابه بعد براءة الإمام الصّادق عليه السلام منه، وقد أسف أبو الخطاب أن يتفرق الآخرون عنه فتمحى دعوته، وأراد أن يخاطر بهم في الكريهة، وأن يوردهم حياض المنية، وهم على غير

---

(١) حركات الشيعة المتطرفين ص٧٧.

دين الإسلام، فحاول الخروج على الدولة بتلك القلة، وأغراهم بقوله: قاتلوهم فإن قصبكم يعمل فيهم عمل الرماح، ورماحهم وسيوفهم وسلاحهم لا تضركم ولا تعمل فيكم، وخرج بهم إلى مسجد الكوفة ودعا الناس إلى نبوته. وفي المسجد لزموا الأساطين كأنهم يُرُوْن الناس أنهم قد لزموها للعبادة. وكان عيسى بن موسى قائد المنصور المشهور والياً، ولم يكد يسمع حتى أرسل إليهم قوة من جيشه العباسي للقضاء عليهم، فحاربوا عيسى محاربة شديدة بالحجارة والسكاكين، وهم يعتقدون صدق أبي الخطاب بأن السلاح لا يضرهم، فلما قتل منهم نحو ثلاثين رجلاً قالوا: ما ترى ما يحل بنا من القوم؟

فقال لعنه الله: إن كان قد بدا لله فيكم فما ذنبي؟ وأسر أبو الخطاب، فأُتي به إلى عيسى بن موسى فقتله في دار الرزق، وصلبه مع جماعة من أصحابه، وذلك سنة ١٣٨هـ. وبهذا انتهى دور أبي الخطاب وأصحابه، إذ لم يبق من جماعته سوى سالم بن مكرم الجمّال الملقب بأبي خديجة الذي سقط بين القتلى، فلما جنّه الليل خرج ثم تاب، وكنّاه الإمام الصّادق بأبي سلمة، وصلح أمره.

بزيع بن موسى:

وهو أحد أبطال الدعوة الإلحادية، وإليه تنسب الفرقة البزيعية، وقد أقروا بنبوته كما زعموا أنّهم كلهم أنبياء، وأنّهم لا يموتون، وأنّهم يرفعون، وزعم بزيع أنه صعد إلى السماء، وأن الله مسح على رأسه، ومج في فيه، وأن الحكمة تنبت في صدره، إلى آخر خرافاته وأكاذيبه.

وزعم جماعة من أصحابه أنه الإمام بعد أَبي الخطاب، ولهذا عُدت فرقة البزيعية من فرق الخطابية، مع أن لكل منهما بدعة مستقلة وآراء على حدة[1].

ولما بلغت مقالته للإمام الصّادق عليه السلام أعلن للملأ لعنه، والبراءة منه ومن أضرابه وقال: «لعن الله بزيعاً، والسري، ومعمراً، وبشار الشعيري، وحمزة الزيدي، وصائد النهدي».

وقال عليه السلام: «إن بناناً والسري وبزيعاً لعنهم الله قد تراءىٰ لهم الشيطان».

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص٣٠١.

وقال عليه السلام عند ذكر هؤلاء: «لعنهم الله، فإنا لا نخلو من كذاب يكذب علينا، أو عاجز الرأي، كفانا الله مؤنة كل كذاب، وأذاقهم حر الحديد».

ولا زال الإمام يرسل كتبه ويوجه رسله للأقطار، في التحذير من هؤلاء الذين أقضّوا مضجعه، في بث سمومهم في المجتمع الإسلامي.

بشار الشعيري:

وكان بشار الشعيري من أهل الكوفة من دعاة الإلحاد، وممن يقول بمقالة العلياوية، وهم الذين قالوا إن علياً رب، وظهر بالعلوية الهاشمية، وقالوا بالتناسخ والتعطيل، وكان لبشار جماعة يتبعوه على أضاليله وأباطيله.

قال مرازم: قال أبو عبد اللّه: «يا مرازم من بشار؟» قلت: الشعيري. قال عليه السلام: «لعن الله بشاراً. يا مرازم قل لهم: ويلكم توبوا إلى الله، فإنكم كافرون مشركون».

وكان بشار جاراً لمرازم، فقال له الصّادق عليه السلام: «يا مرازم إن اليهود قالوا وحّدوا الله، وإن النصارى قالوا وحّدوا الله، وإن بشاراً قال قولاً عظيماً، فإذا قدمت الكوفة فأته وقل له يقول لك جعفر: يا فاسق، يا كافر، يا مشرك، أنا بريء منك».

قال مرازم: فلما قدمت الكوفة، فوضعت متاعي وجئت إليه، ودعوت الجارية، وقلت قولي لأبي إسماعيل، هذا مرازم، فخرج إليّ. فقلت له: يقول لك جعفر بن محمّد: «يا كافر، يا فاسق، يا مشرك، أنا بريء منك». فقال بشار: وقد ذكرني سيدي. قال: قلت نعم ذكرك بهذا الذي قلت لك. فقال: جزاك الله خيراً، وجعل يدعو لي.

ومن هذا يتجلى لنا أن هؤلاء الناس كانوا يخفون أغراضهم وراء حب آل البيت، فمن عدم اكتراث بشّار ببراءة الإمام منه ولعنه له، ندرك أنهم يحملون عقائد غرضها الإساءة إلى الإسلام، وليس الأمر حب أهل البيت. لأن الحب يؤدي إلى اتباع تقاليدهم وأوامرهم، والمودة تعني عدم مخالفتهم، وإنما الأمر يتعلّق بجذور دفينة وبذور كامنة حالت دون إيمانهم الصحيح.

وقال إسحاق بن عمار: قال أبو عبد اللّه لبشار الشعيري: «اخرج عني لعنك الله. لا والله لا يظلني وإياك سقف أبداً»، فلما خرج قال أبو عبد اللّه: «ويله ألا قال بما قالت اليهود؟ ألا قال بما قالت النصارى؟ ألا قال بما قالت المجوس؟ أو بما قالت الصابئة؟ والله ما صغّر الله تصغير هذا الفاجر أحد، إنه شيطان إبن شيطان، خرج من

البحر ليغوي أصحابي فاحذروه، وليبلّغ الشاهد الغائب، أني عبد اللّه بن عبد اللّه، ضمّتني الأصلاب والأرحام، وإني لميت ويمعوث، ثم مسؤول، والله لأسألن عما قال فيّ هذا الكذاب وادعاه، ما له غمّه الله، فلقد أمن على فراشه، وأفزعني وأقلقني عن رقادي».

وخلاصة القول إن بشاراً تزعم حركة إلحادية، وقد اهتم الإمام الصّادق بهم أعظم اهتمام كما تدل عليه أقواله في ذلك، لأن هؤلاء الملحدين أرادوا الوقيعة في أهل البيت، ومعارضة الدعوة التي قام بها الإمام الصّادق، في إصلاح ما أفسدته الظروف القاسية، التي مرّت بالمسلمين.

أما الذين ذكرهم عليه السلام مع بشار ولعنهم، وتبرأ منهم، وهم: بزيع وتقدمت الإشارة إليه، ومعمر، والسري، وحمزة الزيدي، وصائد النهدي وبيان، فكانوا من دعاة الإلحاد، وأبطال إثارة الفتنة بين صفوف المسلمين، والكذب على أهل البيت. وكان لكل واحد من هؤلاء دور هام في إثارة الفتن، وإشغال مجتمع الشيعة في مقاومتهم، لأن أولئك النفر من الغلاة قد أجهدوا أنفسهم في التلفيق والكذب، وإيجاد سلسلة أفكار تنافي واقع الإسلام، فلم تنجح تلك الخطط، لأن أهل البيت أمروا أتباعهم بمقاومتهم.

معمر النهدي:

فأما معمر فهو زعيم الفرقة المعمرية التي ألفت بعد قتل أبي الخطاب، وقد ألفوا لهم عقيدة مستقلة، على نحو ما فعل بزيع، وخرج ابن (اللبان) يدعو إلى معمر، وقال إنه الله، وصلّى له وصام، وأحل الشهوات كلها، ما حل منها وما حرم، كشرب الخمر، والزنا، والسرقة، والميتة، ولحم الخنزير، وغيرها. وقالوا بالتناسخ، وإنهم لا يموتون، ولكن يرفعون بأبدانهم إلى الملكوت، وتوضع للناس أجساد شبه أجسادهم[١].

إلى آخر ما هنالك من أقوالهم الفاسدة ودعاواهم الإلحادية.

وأما السري: فهو الذي قال فيه أصحابه: إنه رسول مثل أبي الخطاب: وقالوا: إنه قوي أمين، وهو موسى القوي الأمين، وفيه تلك الروح إلخ.

---

(١) انظر فِرَق النوبختي ص٤٤.

حمزة الزيدي:

وأمّا حمزة الزيدي فكان يكذب على أبي جعفر الباقر عليه السلام وقد أعلن عليه السلام للناس لعنه وكذبه.

وكان حمزة يقول لأصحابه: إن أبا جعفر يأتيني في كل ليلة، وقد وصفه الإمام الصّادق بأنه شيطان ولعنه، وحذّر الناس من كذبه، والذي يظهر أن الرجل استعمل سلاح الافتراء والكذب على أهل البيت، ولا شك أن أثره عظم في الإغراء والتضليل، ولـم توجد له آثار تدل على ادعائه بعقيدة خاصة، أو مبدأ مرسوم، أو تأليف جماعة معينة، وإنما كان داعية ضلال وعدواً لأهل البيت يذيع عنهم ما لا يقولونه.

صائد النهدي:

وكذلك صائد النهدي، فالذي يظهر أنه كان من الكذابين، ولـم نقف على ترجمة وافية له نستمد منها آراءه ونزعاته[1]، وكان من جملة من لعنهم الإمام الصّادق وقال عليه السلام لأصحابه في قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ قال: «هم سبعة: المغيرة بن سعيد، وبيان، وصائد، والحارث الشامي، وعبد الله بن الحارث، وحمزة بن عمارة الزيدي».

وقد أظهر الإمام الصّادق عليه السلام نوايا هؤلاء الذين اتخذوا الكذب على أهل البيت سلاحاً يفتكون به.

قال عليه السلام: «إنّا أهل بيت صادقون، لا نخلو من كذّاب يكذب علينا ليسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس».

بيان التبان:

وأما بيان فالذي يظهر أنه كان من الكذابين أيضاً، لأن الإمام كان يقول: «لعن بيان التبان، وإن بياناً كان يكذب على أبي». ولا بد هنا من التنبيه إلى شيء، وهو: أن هذا الاسم يشتبه مع بيان بن سمعان التميمي أو النهدي الذي قام بحركة إلحادية في عصر الإمام الباقر والصّادق، وإليه تنسب الفرقة البيانية، وقالوا بنبوة بيان وقالوا في ذلك قول الله عزّ وجل: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى﴾.

وادعى بيان النبوة بعد أبي هاشم بن محمّد بن الحنفية، وكتب إلى الإمام أبي

---

(١) النوبختي ص٣٨.

جعفر الباقر عليه السلام يدعوه إلى نفسه والإقرار له؛ ويقول في رسالته للإمام الباقر عليه السلام: أسلم تسلم وترتقي في سلم، وتنج وتغنم، فإنك لا تدري أين يجعل الله النبوة والرسالة وقد أعذر من أنذر.

وحاول بيان أن تكون له شخصية لتركيز دعوته ونشر مبادئه، فكان يظهر قدرته على السحر، وأن عنده الاسم الأعظم، وبه يهزم العساكر، ويدعو به الزهرة فتجيبه، وادّعى بنفسه الربوبية، وقال: أنا البيان، وأنا الهدى، وأنا الموعظة. واختلف أصحابه في عقيدتهم فيه:

فمنهم من زعم أنّه كان نبياً نسخ بعض شريعة محمّد ﷺ ومنهم من زعم أنه كان إلهاً[1].

ويقول النوبختي: إن بياناً كان تباناً يتبن التبن بالكوفة، ثم ادعى أن محمّد بن علي بن الحسين أوصى إليه، وأخذه خالد بن عبد الله القسري هو وخمسة عشر رجلاً من أصحابه، فشدّهم في أطنان القصب، وصب عليهم النفط في مسجد الكوفة، وألهب فيهم النار، فأفلت منهم رجل فخرج بنفسه، ثم التفت فرأى أصحابه تأخذهم النار، فكر راجعاً إلى أن ألقى نفسه في النار فاحترق معهم[2].

المغيرة بن سعيد:

وهو مولى بجيلة، خرج في أيام أبي جعفر الباقر عليه السلام وقتل في أيام الإمام الصّادق عليه السلام سنة ١١٩هـ.

وقد استطاع أن يموه على كثير من المتطرفين، وأن يخدع جملة من الناس، وكان ماهراً في دسّ الأحاديث ووضعها على أهل البيت عليهم السلام.

وقد نسبت إليه عقيدة تأليه علي عليه السلام ولم يثبت ذلك لأن الثابت أنّه قال: بأن علياً مخلوق (ويبدو أن المغيرية ألّهوا علياً متأثرين بالخطابية)[3].

وذكر عنه الرواة: أنّه ذهب إلى أن ماء الفرات محرم، وأن كل نهر أو عين أو بئر وقعت فيه نجاسة فهو أيضاً محرم.

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي ص١٤٥.
(٢) الفرق للنوبختي ص٢٨.
(٣) الملل والنحل ج١ ص٢٩٤.

ويقول الشهرستاني: إن المغيرة ادعى لنفسه الإمامة بعد محمّد المعروف بالباقر بن علي بن الحسين، وبعد ذلك ادعى النبوة لنفسه وغلا في حق علي[1].

ويقول الطبري: كان المغيرة يخرج إلى المقبرة فيتكلم، فيرى مثل الجراد على القبور.

ويقول الأشعري: إنه زعم أنه يحيي الموتى بالاسم الأعظم، وأراهم أشياء من اليزنجات والمخاريق[2].

وقال جرير بن عبد الحميد: كان المغيرة بن سعيد كذاباً ساحراً.

وقال الجوزجاني: قتل المغيرة على ادعاء النبوة، كان أسعر النيران بالكوفة على التمويه والشعبذة حتى أجابه خلق كثير.

وقال معاوية: أول من سمعته يتنقص أبا بكر وعمر المغيرة المصلوب.

وقد كانت حركة المغيرة حركة قوية، وكان لخروجه منادياً لعقيدته دوي أزعج خالد القسري والي الكوفة وأذهله، وقد سمع به وهو على المنبر، فنادى أن أطعموني ماء، يريد أن يشرب، فهجاه يحيى بن نوفل بقوله:

تقول من النواكه أطعموني ... شراباً ثم بلت على السرير
لأعلاج ثمانية وشيخ ... كليل الحد ذي بصر ضرير[3]

وكان المغيرة أعمى، وقول الشاعر: لأعلاج ثمانية: هو أن أصحاب المغيرة الذين خرج بهم ويدعون الوصفاء كانوا ثمانية، وقيل: سبعة.

براءة الإمامين الباقر والصّادق من المغيرة:

ومهما يكن من حديث هذا الرجل، فإنا نود أن نكشف واقعه على أضواء أقوال أهل البيت فيه، وفي أضرابه الذين تنكروا للمسلمين، وتآمروا عليهم قصد الوقيعة فيهم.

قال كثير النواء: سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول «برىء الله ورسوله من المغيرة بن سعيد، وبنان بن سمعان، فإنهما كذبا علينا أهل البيت»[3].

---

(١) الملل والنحل ج١ ص٢٩٤.

(٢) المقالات الإسلامية للأشعري ج١ ص٧ ـ ٨.

(٣) لسان الميزان ج٦ ص٧٦.

وقال محمّد بن عيسى بن عبيد: إن بعض أصحابنا سأل يونس بن عبد الرّحمٰن[1] وأنا حاضر: وقال له يا أبا محمّد ما أشدك في الحديث؟ وأشد إنكارك لما يرويه أصحابنا! فما الذي يحملك على رد الأحاديث؟

فقال يونس: حدّثني هشام بن الحكم أنّه سمع أبا عبد الله الصّادق عليه السلام يقول: «لا تقبلوا علينا حديثاً إلاّ ما وافق القرآن والسنّة، وتجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدّث بها، فاتقوا الله، ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا، وسنّة نبينا ﷺ».

وفي رواية أخرى: عن يونس عن هشام بن الحكم أنّه سمع أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: «كان المغيرة بن سعيد يتعمد الكذب على أبي، ويأخذ كتب أصحابه، وكان أصحابه المستترون بأصحاب أبي يأخذون الكتب، فيدفعونها إلى المغيرة، وكان يدس فيها الكفر والزندقة، ويسندها إلى أبي، ثم يدفعها إلى أصحابه، ثم يأمرهم أن يبثوها في الشيعة، فكل ما كان في كتب أبي من الغلو فذاك مما دسّه المغيرة بن سعيد في كتبهم».

وعن عبد الرّحمٰن بن كثير قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام يوماً لأصحابه: «لعن الله المغيرة بن سعيد، ولعن الله يهودية كان يختلف إليها، يتعلّم منها السحر والشعبذة والمخاريق، إن المغيرة كذب على أبي فسلبه الله الإيمان، وإن قوماً كذبوا عليّ ما لهم؟ أذاقهم الله حر الحديد. فوالله ما نحن إلاّ عبيد خَلقنا واصطفانا، ما نقدر على ضر ولا نفع، إن رحمنا فبرحمته، وإن عذبنا فبذنوبنا، والله ما بنا على الله من حجة، ولا معنا من الله براءة، وإنا لميتون، ومقبورون، ومنشورون، ومبعوثون، وموقفون،

---

(١) يونس بن عبد الرّحمٰن، أبو محمّد مولى علي بن يقطين، المتوفى سنة ٢٠٨هـ كان من تلامذة الإمام موسى بن جعفر وعلي بن موسى الرضا عليه السلام وكان الإمام الرضا يشير إليه في العلم والفتيا، وكان من خاصة الإمام الرضا ووكيله، وله تصانيف كثيرة منها: كتاب الأرث، كتاب الزكاة، كتاب جوامع الآثار، كتاب الشرائع، كتاب الصلاة، كتاب العلل الكبير، كتاب علل الحديث، كتاب الجامع الكبير في الفقه؛ كتاب تفسير القرآن، كتاب الرد على الغلاة. وغيرها يبلغ عددها الثلاثين كتاباً. قال أبو جعفر البصري: دخلت مع يونس بن عبد الرّحمٰن على الرضا عليه السلام فشكى إليه ما يلقى من أصحابه: فقال عليه السلام: «دارهم فإن عقولهم لا تبلغ»، توفي يونس بالمدينة المنورة سنة ٢٢٨هـ.

ومسؤولون، ما لهم لعنهم الله، فلقد آذوا الله، وآذوا رسول الله في قبره، وأمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن، والحسين، وها أنا ذا بين أظهركم، أبيت على فراشي خائفاً، يأمنون وأفزع، وينامون على فراشهم وأنا خائف. ساهر وجل، أبرأ إلى الله مما قال فيّ الأجدع، وعبد بني أسد أبو الخطاب لعنه الله، والله لو ابتلوا بنا وأمرناهم بذلك لكان الواجب أن لا يتقبلوه، فكيف وهم يروني خائفاً وجلاً أستعدي الله عليهم، وأبرأ إلى الله منهم!! وإني امرؤ ولدني رسول الله ﷺ وما معي براءة من الله، إن أطعته رحمني، وإن عصيته عذبني عذاباً شديداً».

وعلى أي حال فهو عليه السلام كان مهتماً غاية الاهتمام بأضرار هؤلاء المندسين بين صفوف الأمّة، فكان قلقاً منهم، ويعلن للناس براءته منهم، ويبين لهم كذب ما يدعيه أولئك المخربون، الذين أرادوا أن يفسدوا المجتمع وأن يثيروا الفتنة، بادعاء التأليه لأهل البيت مع أنه عليه السلام يعترف بأنه عبد من عبيد اللّه، وأنه ميت ومبعوث.

كما يتجلى لنا عظيم اهتمامه بفتنة هؤلاء، وألمه مما يقومون به من الحال التي بات عليها. فهو خائف وجل يبيت على فراشه قلقاً، لا يقر به قرار، خشية اتساع هذه الفتنة، وتطاير شررها، فلا يعود ذلك على المسلمين إلاّ بأوخم العواقب.

هذا وقد نشط المغيرة في دعوته الإلحادية، كما قدمنا، وأمر أصحابه بإظهار الدعوة والانتقال من السر إلى العلن، وكانوا سبعة نفر يدعون الوصفاء، وكان خروجهم بظهر الكوفة. فأخبر خالد القسري بخروجهم وهو على المنبر، فقال: «أطعموني ماء». لانزعاجه وخوفه، فهجاه ابن نوفل كما تقدم.

ولما ظفر به خالد أتي به مع سبعة نفر، ثم أمر بسريره فأخرج إلى المسجد، وأمر بأطنان القصب ونفط فأحضروا، ثم أمر المغيرة أن يتناول، فكع عنه، وتأنى. فصبت عليه السياط، فتناول طناً فاحتضنه فشد عليه، ثم صب عليه وعلى الطن نفط، ثم ألهبت فيهما النار فاحترقا، ثم أمر الرهط ففعلوا[1].

وقال أبو بكر بن عياش: رأيت خالد بن عبد اللّه القسري حين أتى بالمغيرة بن سعيد وأتباعه، فقتل منهم رجلاً، ثم قال للمغيرة: أحيه ـ وكان يريهم أنه يحيي الموتى ـ فقال: والله ما أحيي الموتى. فأمر خالد بطن قصب، فأضرم ناراً، ثم قال

(١) الطبري ج٨ حوادث سنة ١١٩هـ ص٢٤١.

للمغيرة: اعتنقه. فأبى، فعدا رجل من أصحابه فاعتنقه والنار تأكله. فقال خالد: هذا والله أحق منك بالرياسة، ثم قتله وقتل أصحابه، وذلك حدود سنة ١١٩هـ.

أبو منصور العجلي:

وهو أبو منصور مشهور بكنيته، نشأ في البادية ثم استوطن الكوفة، وله بها داراً، وكان عربياً من عبد القيس.

جاء هذا الرجل ببدع، ودخل في ميدان ذلك الصراع العنيف، وادعى أن الله عزّ وجل عرج به إليه، فأدناه منه وكلّمه، ومسح على رأسه، وقال له: أي بني. وادعى أيضاً أنّه نبي ورسول، وأن جبرائيل عليه السلام يأتيه بالوحي من عند الله عزّ وجل، وأن الله بعث محمّداً ﷺ بالتنزيل، وبعثه هو «يعني نفسه» بالتأويل. وكان يرى وجوب قتل من خالف دعوته، لأنهم مشركون فيقول لأصحابه: من خالفكم فهو مشرك كافر فاقتلوه. فإن هذا جهاد خفي.

قام هذا الرجل بنشاط، وعلم أصحابه الثبات والشجاعة، وراح يطلب الوسائل التي ينجح بها في تقوية حركته، وتركيز زعامته، وأعلن أولاً أنّه من أتباع أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين، ولكن أمله لم يتحقق، فإن الإمام أبو جعفر عندما بلغه أمره أظهر لعنه، والبراءة منه، وطرده من حظيرة أتباعه. ولما فشل في حيلته هذه ادعى أنه إمام وحده، ودعى الناس إلى اتباعه، وأنّه الإمام الشرعي المستقل، ثم ترائى له الأمر فأصبح نبياً، وقال: إن الرسالة لا تنقطع أبداً. بمعنى أن الأنبياء يظهرون في جميع العصور والأوقات. وهذه المقالة تبرر ادعاءه بالنبوة، وكذلك ادعى أن النبوة في ستة من ولده.

وقد تنبأ ابنه من بعده، وادعى مرتبة أبيه، وتابعه على رأيه بعض السفلة، وكان مصيره القتل.

واستمر أبو منصور ببدعته وغوايته، وقد لقبه الإمام الصّادق عليه السلام بأنّه رسول إبليس عندما أعلن للناس خبث سريرته، وعظم خطره، وقد حذر الناس منه وأمرهم بالابتعاد عنه، ولعنه ثلاثاً[1] ودعا عليه، ولم يكد يوسف ابن عمر الوالي زمن هشام بن عبد الملك يقف على أمرهم، حتى تصدّى له ولأصحابه، فقتلهم صلباً،

---

(١) الكشي ص١٩٦.

وتزعم ولده فيمن لقي من أصحاب أبيه، وادعى النبوة أيضاً، فأخذه المهدي، وقتله وتتبع أصحابه.

وهكذا ينتهي آخر دور يلعبه دعاة الفرقة من أعداء الإسلام، الذين أرادوا أن يفتكوا بأهله، انتصاراً لمبادئهم، وحباً للسلطة والنفوذ، فاستعملوا شتى الوسائل في تحقيق ذلك، ولكن محاولتهم فشلت، لقيام دعاة الإصلاح في إيضاح مفاسدهم، وبيان خطرهم، وسوء نواياهم، حتى زالوا من صفحة الوجود.

وقد أخطأ الأستاذ محمّد جابر عبد العال مؤلف كتاب (حركات الشيعة المتطرفين)، حيث يذهب إلى بقاء تلك الحركة، وأن جابر الجعفي تزعمها بقوله: قتل المغيرة وصلب بجوار بيان بواسط، كما قتل أصحابه، ولكن حركته لم تخمد، إذ تزعمها من بعده جابر الجعفي، وأنزله أصحاب المغيرة بمنزلة المغيرة نفسه[١].

وهذا القول خارج عن حدود الصحة، وبعيد كل البعد عن الواقع، وهو تهجم شنيع، وافتراء فاضح، فإن علماء الحديث هم أدرى بجابر وأعرف بمنزلته، وليعرني الأستاذ سمعه لأنقل له شهادة علماء الرجال الأعلام:

يقول ابن المهدي: ما رأيت في الحديث أورع من جابر.

وقال ابن عليه: جابر صدوق في الحديث.

وقال شعبة: إذا قال جابر حدثنا وسمعت فهو من أوثق الناس.

وقال وكيع: مهما شككتم فلا تشكوا في أن جابراً ثقة.

وقال ابن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول قال سفيان الثوري لشعبة: لإن تكلمت في جابر لأتكلمن فيك[٢].

ولا نطيل الكلام حول منزلة جابر العلمية، فقد روى عنه خلق كثير، منهم: شعبة، والثوري، وإسرائيل، والحسن بن حي، وشريك، ومسعر، وأبو عوانة، وغيرهم. وخرّج حديثه الترمذي في صحيحه وأبو داود في سننه وابن ماجه.

هذا وإن مدحه والثناء عليه من أهل البيت ثابت متواتر، ولا أدري من أين جاء الأستاذ بهذه الفكرة الخاطئة، ولعله اعتمد على البغدادي في الفرق إذ يقول عند ذكره

(١) حركات الشيعة المتطرفين ص٤١.

(٢) تهذيب التهذيب ج٢ ص٤٨.

لمن ذهب إلى رجعة محمّد بن عبد الله بن الحسن، ويقال لهم المحمدية لانتظارهم محمّد بن عبد الله؛ وكان جابر على هذا المذهب، وكان يقول برجعة الأموات إلى الدنيا قبل القيامة[1] اهـ. والبغدادي معروف بتقوله وكذبه في نقله، فقد أورد في كتابه أموراً لا صحة لها. ولنفترق هنا تاركين الحديث عن كثير من الأخطاء التي وقفنا عليها في مؤلّفه، ونقله أموراً لا صحة لها، وحكمه على أشياء بدون تثبت، وإن الأستاذ عبد العال قد خالف الحقيقة، فلقد غرب وشرق، وتقول وتأول، والكتاب بمجموعه نقد لاذع، وكذب فظيع، ولقد مثل في كثير من آرائه أفكاره الضيقة، ونظرته القاصرة، لأنه أثبت أشياء على غير تأمل للواقع، بل إعراضاً عن الحق، وتجاوزاً عن الحقيقة، واستسلاماً للهدف الذي من أجله يقصده في تأليفه.

ولقد مررت على تلك الأخطاء المتراكمة مر كرام، وعسانا نلتقي به مرة أخرى، وهو واحد من مجموعة كبيرة من الكتّاب، الذين يقولون بدون تدبر، وأكثرهم يتقول انتصاراً لمذهبه، أو خضوعاً لعاطفته.

دراسة حركة الغلاة ناقصة:

وعلى أي حال فإن حركة الغلاة هي من أخطر العوامل التي لعبت دوراً هاماً في المجتمع الإسلامي، وإن دراستها لا تزال حتى اليوم ناقصة بل غامضة، لوجود الكثير من التشويه واللبس، فالوقوف عليها ببيان ووضوح من المشقة بمكان، إذ لم تدون آراء أولئك القوم بأقلام دعاتهم، فلم تكن لهم مؤلّفات تدون بها عقائدهم، وذلك لأن حركتهم كانت قصيرة العمر سريعة الزوال، لما قام به أهل البيت عليهم السلام في تفريق صفوفهم، وصدع شملهم عندما أعلنوا البراءة منهم، ولعنوهم، وحذروا المجتمع الإسلامي من نواياهم الخبيثة، فكانت عاقبتهم إلى الزوال، وجمعهم إلى الشتات.

وإن كثيراً ممن كتب في هذا الموضوع وتناوله بالبحث، لم يقصد جلاء الغامض، وإظهار الحقيقة، وإنما القصد من ذلك هو التشويه، والتضليل، ونشر ما يساعد أعداء الدين الإسلامي على الوقيعة بأهله، لأن أولئك الذين تناولوا حركة الغلاة بالبحث لم يتحرّوا الدقة في إيراد ما جاء في كثير من الروايات، ولم يدرسوا الظروف التي ساعدت على نشر تلك الأفكار الخاطئة والعقائد الفاسدة، التي حاولوا نشرها في

---

(١) الفرق بين الفرق ص٣٧.

المجتمع الإسلامي، وإن أولئك الكتاب يجهلون العوامل التي أدت إلى قيام تلك الحركة، أو أنهم يتعصّبون فيحيدون عن الواقع ويتنكرون للحقيقة، وإن الجهل والتعصّب هما اللذان يجعلان كثيراً من الكتاب والمؤرّخين يتجاهلون قيمة إظهار الحقيقة وبيان الواقع. وأنهم يكتبون لا للتاريخ والحقيقة، وإنما يكتبون للمغالطة والوقيعة، ولم يدركوا خطر أخطائهم وعظيم جنايتهم على الإسلام، في فتح باب التدخل لأعداء الإسلام.

الغلاة والشيعة:

وكيف كان فقد ظهر لنا أن حركة الغلاة كانت ضد أهل البيت عليهم السلام بصورة خاصة، وضد الإسلام بصورة عامة، فإن ما يدعون إليه إنما هو ضد ما دعى إليه الإسلام، وأهل البيت هم أقطاب الإسلام ودعاته، والذين بذلوا أنفسهم في سبيل إعلاء كلمته، والمحافظة على مبادئه، ونشر تعاليمه، وإن التشيع بمفهومه الواقعي هو اتباع الإمام علي عليه السلام ومشايعته، مع أن بعض الفئات من الغلاة كانوا يكفّرون علياً عليه السلام كالكاملية فكيف يصح عدّهم في عداد الشيعة.

وقد علمنا من أقوال الإمام الصّادق كيف كانت حالته وهو يواجه هذه الحركة حتى وصف قلقه بما يعطينا صورة عن اهتمام الإمام بخطرها واعتبارها من المحن التي أرّقته.

وكيف يصح أن تجعل البيانية من فرق الشيعة، وهذا زعيمهم (بيان) يحاول أن يكون الإمام الباقر من أتباعه، عندما يكتب إليه يدعوه لنفسه، والإقرار له، فيقول في رسالته للإمام الباقر: أسلم تسلم، وتنج وتغنم، فإنك لا تدري أين يجعل الله النبوة والرسالة، وقد أعذر من أنذر.

فهل بعد هذا من مجال لمتقول أو زاعم، بأن تجعل هذه الحركة من حركات الشيعة، ولكن الخصومة توجد من لا شيء شيئاً، وتفسّر الحوادث بما تشتهي.

والمغيرية وأتباعها يذهبون إلى تكفير أهل البيت والشيعة أجمع، لأنهم يرون كفر من خالفهم، ووجوب قتله، وهل وجدت دعوتهم معارضة من قبل فئة كما وجدت من قبل الأئمة وشيعتهم، فكيف يصح عدّهم في سجل الشيعة؟ وهكذا إلى آخر ما وقفنا عليه.

والشيء الذي نريد أن نقوله هو: إن حركة الغلاة قد شلت في تلك المعارضة التي صدرت عن الإمام الصّادق وزالت آثارهم بسرعة. ولكن الأغراض السياسية العمياء عندما حاولت الحط من كرامة أهل البيت قد جعلت حركة الزنادقة مرتبطة بالتشيع (وأنه كانت هناك رابطة بين الزندقة والشيعة، إذ رأينا كيف كان الانتساب إلى الشيعة الرافضة دليلاً على الزندقة، وداعياً إلى الاتهام بها)(١).

وقد قامت الدولة في أيام المهدي بمطاردة من يتهم بالزندقة والقضاء عليه، فقتل بتلك التهمة خلق كثير، ولم يكن كل هؤلاء الذين يتهمون بالزندقة زنادقة حقاً، وإنما كان منهم من يتهم بالزندقة لأسباب سياسية، فقد اتخذ الخلفاء من هذا الاتهام وسيلة للقضاء على خصومهم، ممن لم يساير ركبهم أو يتحسسون فيه عدم الميل إليهم، كما كانوا يتهمون بذلك بعض الهاشميين الذين يريدون القضاء عليهم، فقد اتهم ابن من أبناء داود بن علي العباسي، ثم يعقوب بن الفضل وأُتي بهما إلى الخليفة المهدي.

وعلى هذا النحو فقد فتح باب التشفي والانتقام بتهمة الزندقة، ليكون ذلك مبرراً لقتلهم، ولم يقتصر الأمر على الخلفاء في اتهامهم الخصوم بالزندقة، بل كان هناك من الوزراء من يتخذون الاتهام ـ الباطل غالباً ـ بالزندقة سبيلاً للكيد والوقيعة بنظرائهم، أو خصومهم الذين يحقدون عليهم(٢).

وبهذا فتحت أبواب التهم على الشيعة لأنهم الحزب المعارض للدولة والخصوم لحكام الجور، فكان ما كان من تهم وتقول وافتراء.

حركة الغلاة ضد الإسلام:

عرفنا أن هذه الفئة الضالة، تكمن وراء قوة الدس والوقيعة والتفرقة، وبعث الشك والريبة في النفوس، ولو طال بها الزمن لاستطاعت أن تؤثر، بطريق مباشر أو غير مباشر، على ذوي العقول الضعيفة، وتجرفهم بتيارها، ولكن لم يثبت التاريخ أنهم أثروا على أحد ممن له صلة بأهل البيت، فمال إلى أقوالهم.

---

(١) تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد الرّحمٰن بدوي ص٣٩.

(٢) الطبري. والجهشياري ص٨٩ ـ ٩٠.

وليس في مقدور أي أحد أن يغفل حقيقة هامة، وهي أن هؤلاء المتدخلين في صفوف الأمة، قد دفعهم بغضهم للإسلام على أي لون كان، وأن الذين انتحلوا حب أهل البيت منهم إنما كان الباعث لهم هو العداء لأهل البيت، وبغض دعوتهم الإصلاحية، وهم يعلمون ما لأهل البيت من أثر في نفوس المسلمين، وإن اتساع شهرة الإمام الصّادق العلمية، وكثرة الوفود على مدرسته لانتهال العلم، إنما هو دليل قاطع على قوة تمسك المسلمين بمبادئهم، وهذا أمر لا يروق لفئة تحاول محو تلك المبادىء، وتضليل الناس. وإنهم اتخذوا الكوفة مقراً لنشر الدعوة الإلحادية، لأن في الكوفة نشاطاً شيعياً، وحركة فكرية، وفيها ما يزيد على ألف محدث، يحدّث عن الإمام الصّادق، وفيها من العناصر المختلفة، من غير المسلمين، ولكن الكوفة، بصفتها العامة، عربية مسلمة، توالي أهل البيت.

لهذا جعلت الدعوة في مركز من المراكز الحساسة، لكي يبثوا سمومهم، وينشروا آراءهم وعقائدهم الفاسدة، فيتناقلها الناس ومصدرها الكوفة. والكوفة. شيعية فتسجل تلك العقائد على سجل الشيعة، الذين هم شوكة في عيون السلطة، التي يحلو لها أن توسع هذه الشقة وتؤيد هذه الدعاية.

ولقد راح أولئك الخصوم يشيعون الأكاذيب ويتقولون الأقاويل على أهل البيت، طبقاً للمخطط الذي رسموه في محاربة الدعوة الإصلاحية، التي قام بها الإمام الصّادق عليه السلام ـ كما تقدم ذكرها ـ وقد وجدوا العون والحماية، من قوم يروق لهم ذلك، وتحلو لهم الوقيعة لشيعة علي عليه السلام عندما ترتبط الزمرة الملحدة بعجلة التشيع، فيكون ذلك دليلاً على ما يتقولونه في ذم الشيعة، وشل نشاط حركتهم، في عصر تحرر الفكر وازدهار العلم.

ولا يفوتنا أن نقول بأن هذا التعاون مع خصوم أهل البيت قد بقي إلى العصور المتأخرة، فهم ينشرون تلك الافتراءات البالية، ويلبسونها ثوباً جديداً، تضليلاً للناس وحباً في إثارة الشغب، فكلما أراد المصلحون حل مشكلة الفرقة والدعوة إلى التقارب، ذهب الكثيرون ـ ممن لا يروق لهم الصفاء والتقارب ـ إلى زيادة التعقيد، واتساع شقة الخلاف، في نشر دفائن السلف، وعرض الأفكار البالية، وهو أسلوب يتخذونه لشل كل محاولة ساعية نحو الإصلاح، بحيث يجعلون من المستحيل على القوى المتخاصمة أن تتفق أو تتعاون.

إنهم يريدون أن نبقى متخاصمين إلى أن يحطم أحدنا الآخر، وهذا هو ما يصبو إليه أعداء الإسلام ويسعون بكل جهدهم لتحقيقه.

إنهم يريدون أن يبقى المسلم لا يطمئن إلى أخيه المسلم ولا يتعاون معه.

إننا في أيامنا هذه يتهددنا عدو قد تزايد خطره، عدو قد سطى على مبادئنا ومجتمعنا، يبث سمومه ويتستر بمختلف الأثواب، ويستعمل شتّى الأساليب، فجرف بعض شبابنا بدعايته الكاذبة، وأقواله الفارغة.

إننا أمام موجة إلحادية عارمة[1] تسندها أمة ذات قوة وعدة، تحاول أن تفصل بيننا وبين قوتنا الروحية، وعقيدتنا الإسلامية.

إنها قوة تنذر بالخطر، وتدعو إلى الاهتمام، واتخاذ التدابير في ردها ودفع خطرها، ولا يمكننا ذلك ونحن يكفر بعضنا بعضاً، ويبتعد بعضنا عن بعض، ويتهم بعضنا الآخر، بأمور أكل الدهر عليها وشرب، تلك أشياء وجدت لغاية التفرقة بين المسلمين، لأن في اتحادهم هدماً لمعاقل الحكم الجائر، ولا يمكن لحكام الاستبداد أن يعيشوا في مجتمع تسوده مشاعر المحبة والوئام.

إننا أمام تيارات دولية، وأطماع استعمارية، وأعاصير فكرية، فهل ننتبه لهذه الأخطار المحيطة بنا، ويكفينا ما حل بنا من وراء المنازعات الطائفية، التي اتخذها المتعطشون على السيادة أقوى وسيلة لتحقيق أهدافهم وإشباع رغباتهم.

يجب علينا أن ندرس الظروف القاسية التي حلّت بالمسلمين فأدّت بهم إلى هذا التأخر والانحطاط، فكل ذلك ناجم عن التفرقة والخصومة والتعصّب.

يجب علينا أن نتفاهم وأن نسعى لإزالة الحواجز التي تحول بيننا وبين تقاربنا، إننا على حق والحق يعلو ولا يعلى عليه، والإسلام فوق كلّ شيء، وتحت رايته تتحقق السعادة، وفي مبادئه تسعد الإنسانية.

نحن أبناء اليوم والمطلوب منا أن نحتفظ بأمانة الإسلام، وأن ندافع عنه بكل ما نتمكن، فإن أمامنا أخطار المبادىء الهدامة، التي تحارب التوحيد، وتنصر الإلحاد،

---

(1) قلنا ذلك ونحن في خضم مواجهة مد إلحادي وموجة غربية قذفت إلينا بالسوء وأساءت إلى مجتمعنا وقيَمنا، وإذ هدأت فإن من الإلحاد ألواناً تهدد مجتمعنا الإسلامي في الصميم بتهالك الحكام وكثير من الناس على أدواتها ووسائلها بوعي أو بدون وعي.

وقد أعدت العدة وأكملت القوة ونحن نبقى عاكفين على نبش الدفائن، وإثارة الضغائن بأفكار بالية وآراء شاذة.

إن تلك الخرافات والأوهام قد أصبحت في خبر كان، وقد زالت على أيدي دعاة هدى وأئمة رشاد، إذ حفروا لها قبوراً بمعاول الحق، فزال أثرها ونسي خبرها.

دعونا من فتح سجلات الماضي، وليقف كل واحد منا إلى جانب أخيه المسلم، يشد أزره، فإن الأمة الإسلامية أحوج إلى وحدة الصف أكثر من أي وقت مضى، لأنها تمر بنفس المراحل الأولى التي تعرّضت فيها لحملات دعاة الفرقة.

حوار وتصويب:

ويطول بنا المقام إن أردنا أن نطيل الحديث عن الأساليب التي اتخذت لاتهام الشيعة بأمور هي أبعد ما تكون عن الواقع، وقد دعانا إلى استعراض هذا البحث، ما وقفنا عليه من الشذوذ عند بعض الكتّاب الذين انحرفت أقلامهم عن تسجيل الحقائق العلمية وجرت في ميدان التعصّب، ولم تجعل للواقع أي قيمة، ونحن لم نحاسبهم على ذلك الانحراف والانعطاف نحو جهة معينة، لا الجهة التي يقتضيها الحق ويدعو إليها البحث العلمي.

وليس في استطاعتي الآن تعداد أولئك الكتّاب ومناقشتهم، ولكني أود أن أناقش بعضاً منهم ممن صدرت كتبهم في العهد القريب، ففيها من التعصب والتحيّز، ونكران الحق، ما يدعونا إلى الأسف الشديد أن يصدر هذا من علماء مثقفين.

وعلى أي حال فإنا نقف معهم وقفة قصيرة، ونلتقي بهم لقاء ودياً، ونعاتبهم عتاباً أخوياً، ونطلب منهم التثبت فيما ينقلونه، وأن يتحروا الصدق فيما ينقلونه، فإن وراءهم حساب الأجيال، وحساب الله أعظم.

وها نحن نلتقي بالأستاذ الشيخ علي الغرابي، وهو أستاذ في كلية الشريعة بمكة المكرمة، ومؤلف كتاب (الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين).

يتحدث هذا الشيخ عن تاريخ العقيدة، وعن نشأة علم الكلام، ثم يتحدث عن الفرق، ويطيل الحديث عن المعتزلة، ولا نود أن نطيل الوقوف معه، فالوقت أثمن من ذلك، ولكنا نريد أن نتعرّض لهفواته في ذكر فرق الشيعة، وبذلك نعرف مدى تأثر الأفكار بالإيحاءات الكاذبة، كما نلمس تراكم الترسبات الطائفية، التي لم يستطع

الواقع إزالتها من بعض القلوب، وإن التنور وانكشاف الأمور لم يزدها إلاّ زيفاً وضلالاً.

يقول الشيخ: (ب) الشيعة:

١ ـ نبذة عن فرقهم وبعض آرائهم:

أصناف الشيعة وعلة تسميتهم:

إنما سموا شيعة لأنهم شايعوا علياً وقدّموه على أصحاب رسول الله ﷺ وهم ثلاثة أصناف:

(١) الغالية وسبب تسميتهم:

وإنما سموا غالية لأنهم غالوا في علي، وقالوا فيه قولاً عظيماً، وهم خمس عشرة فرقة.

ثم يعدّد الفرق بأسمائها، وهي أسماء بلا مسميات، مع أن أكثر هذه الفرق لا ينطبق على تعريفه الأول، فهم يغالون في علي ولم يدّعوا ألوهيته، ولكن الشيخ لم يكن باحثاً متثبتاً.

ثم ينتقل الشيخ بحديثه إلى الصنف الثاني من أصناف الشيعة، وهم الرافضة، فيقول: وإنما سموا رافضة برفضهم أبا بكر وعمر إلى أن يقول: والرافضة أربع وعشرون فرقة سوى الكاملية، ويسمون الإمامية كقولهم بالنص على علي بن أبي طالب.

ثم يقول: الفرقة الأولى من الرافضة (القطعية):

وإنما سموا قطعية لأنهم قطعوا على موت (موسى بن محمّد بن علي) وهم جمهور الشيعة، وهم يقولون بالنص على إمامة علي بن أبي طالب، وإن علياً نص على إمامة ابنه الحسن، وإن الحسن نص على إمامة أخيه الحسين، وهكذا يقولون بانتقال الإمامة بالنص في أبناء الحسين إلى (محمّد بن الحسن بن علي) وهو الغائب المنتظر عندهم وإنه سيظهر فيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

ثم يذكر الكيسانية وإن فرقهم إحدى عشرة فرقة.

ويتحول الشيخ إلى ذكر فرقة الزيدية ويذكر بعض آرائهم. ولا يهمنا حديثه عن ذلك، والمهم أن ننبهه على بعض أخطائه وما أكثرها، ولا نريد أن نشدد الحساب

عليه فهو مقلد لغيره أو متعصب، وكلا الأمرين يحولان دون إظهار الحقيقة وبيان الواقع.

ونحن أولاء نترك إطالة الوقوف معه لنناقشه على آرائه التي استمدها من مصادر غير موثوق بها إن كان ينقل عن مصدر، وإلاّ فهو جاهل بحقيقة الحال.

إن الشيخ يريد أن يتحف المسلمين بهذا العصر المكفهر بسحب العداء لهم، والمزدحم بأفواج النقمة منهم والسخط عليهم من قبل خصوم يريدون أن يفرقوا الشمل ويثيروا الفتنة.

نعم لا نريد نقاشه، ولكنا نود أن ننبهه لبعض الأخطاء التاريخية عساه أن يتقبل ذلك فيرجع عن طريق الانحراف:

إنه يقول في القطعية: إنهم قطعوا على موت (موسى بن محمّد بن علي).

وهذا خطأ من عدة جهات:

١ ـ أنه لا يوجد إمام من أئمة أهل البيت اسمه موسى بن محمّد بن علي، ولا نعرفه ولا يعرفه كل أحد، فمن أين جاء الشيخ بهذا الاسم؟! فهل كان يقصد به الإمام موسى بن جعفر، فإن كان كذلك ولكنه يجهله ولم يتعرف عليه، ولا يدري من هو، فكيف يرجى الصواب من باحث يجهل إماماً له منزلة عظيمة، ومكانة اجتماعية، وشخصية أخافت الدولة، وأقضت مضاجعها، وهي في عظمتها وأيام عزتها. فكان الرشيد أيام عظمته وقوة سلطانه يخشى صولة الإمام موسى بن جعفر وهو في محرابه ومجلس علمه. إذاً فلا يصح وصف القطعية بأنهم قطعوا على موت الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لأن القطعية هم الذين قالوا بأن الإمامة انقطعت على الإمام جعفر الصّادق في حياته، وصارت في ولده إسماعيل.

فقول الشيخ إن القطعية قطعوا على موت موسى أمر مقطوع بكذبه وبطلانه.

٢ ـ مع التنزل من أنهم قطعوا على موت موسى، فما معنى قوله في وصفهم بأنهم يقولون بانتقال الإمامة بالنص في أبناء الحسين إلى محمّد بن الحسن بن علي، وهو الغائب المنتظر.

وعلى هذا فلا يصح القول بالقطع على موت الإمام موسى، بل ساقوا الإمامة إلى ولده الرضا عليه السلام ومن بعده بولده الهادي، ثم إلى الإمام العسكري ثم إلى

الغائب المنتظر عليه السلام فهم على هذا يعدّون من الشيعة الاثني عشرية لا القطعية، فكيف يحصل الاتفاق في قوله الأول بأنهم قطعوا الإمامة على موت موسى؟؟

٣ ـ يقول: وهم ـ أي القطعية ـ جمهور الشيعة.

ونحن نسائله هل وقف على مؤلفات الشيعة فوجد أثراً يذكر للقطعية، وهل عرف منهم جماعة حتى يصبح له أن يعبر عنهم بأنهم جمهور الشيعة، نعم جمهور الشيعة هم الاثني عشرية، ولعل الشيخ لم يفرّق بين قوله بالقطع على موت الإمام موسى، وبين القول بسوق الإمامة إلى من بعده من أولاده وأحفاده.

موقف مع شيخ أزهري:

وهذا عالم آخر من علماء الأزهر الشريف وأستاذ بكلية أصول الدين وهو الشيخ محمّد أبو زهو نلتقي معه في كتابه (الحديث والمحدّثون. المطبوع سنة ١٣٧٨هـ. ١٩٥٩م).

تعرض الأستاذ في كتابه إلى ذكر الشيعة، وننقل بعض ما قاله ودوّنه يقول: كانت الفكرة الأولى في التشيّع: أن جماعة من الصحابة يرون بعد موت رسول الله ﷺ أن الخلافة ميراث أدبي لعلي بن أبي طالب، وأنّه أولى بها بعدة أمور منها: إنه أقرب عاصب لرسول الله ﷺ بعد عمه العباس.

ثم يعدد مزايا أمير المؤمنين إلى أن يقول:

رأينا أن فكرة التشيع لعلي تلبس ثوباً جديداً وينضم إليها كثير من الزنادقة، وأرباب الأهواء والمنافقين بقصد الإفساد في الدين.

ثم يقول: وعلى الجملة فقد افترقت الشيعة ثلاث فرق: (الكيسانية) وتولوا محمّد بن الحنفية، والإمامية (الجعفرية) وتولوا جعفر الصّادق (والإمامية) الزيدية وتولوا زيد بن علي بن الحسين.

ويذكر بعد ذلك عقائد الشيعة ويعددها:

١ ـ الرجعة.

٢ ـ النبوة: ادعى بعض الشيعة النبوة لعلي.

٣ ـ الألوهية: ذهبت فرقة من الشيعة إلى تأليه علي.

إلى أن يقول فضيلته تحت عنوان التشيع ستار لأعداء الإسلام: ويقيني أن

التشيع كان ستاراً احتجب وراءه كثير من أعداء الإسلام من الفرس، واليهود، والروم، وغيرهم، ليكيدوا لهذا الدين، ويقلبوا نظام هذه الدولة الإسلامية، فقد كان الفرس يزعمون أنهم الأحرار والسادة، وكانت لهم الدولة من قديم الزمان، فلما بدل الله عزهم ذلاً، وصيّر ملكهم نهباً، على يد العرب الذين كانوا في نظرهم أقل الأمم خطراً .. إلخ.

ثم يقول: أخذوا ـ أي الفرس ـ يتحسّسون أبواب الضعف عند المسلمين **فلم** يجدوا باباً أنجع لهم من الحيلة والخداع، فأظهر جماعة منهم الإسلام، وانضموا إلى أهل التشيع، مظهرين محبة أهل البيت، وسخطهم على من ظلم علياً رضي الله عنه.

ثم يستمر أبو زهو فيذكر صفات الشيعة بما يروق له وما يوحيه إليه وهمه، إلى أن يقول ـ وما أعظم ما يقول ـ: كان من وراء الشيعة والخوارج ومن على شاكلتهم الجمهور الأعظم من المسلمين الذين لم يتدنسوا بالتشيع ولا بالخروج وتمسكوا بالسنن.

نضع هذه الفقرات التي اقتطفناها من حديث الشيخ بين يدي كل منصف متجرد عن التعصب والتحيّز.

إننا نذكر هذه الأقوال والألم يحز بنفوسنا، والاستغراب يستولي على مشاعرنا، عجيب ـ وكم أرانا الدهر من عجب ـ أن يصدر مثل هذا التعبير النابي! والقول الشائن، من رجل ينتمي لأكبر مؤسسة إسلامية، لها مكانتها في المجتمع الإسلامي، وقد خدمت الأمة على ممر العصور، ولا شك أنها تحرص على جمع الكلمة، ومحاربة الفرقة، إنها مؤسسة الأزهر الشريف، التي قطعت شوطاً بعيداً في خدمة الإسلام. ونشر مآثره.

عجيب أن تصدر مثل هذه الهفوات، من رجل يعد من كبار علمائها، إذ أنيط به تدريس أصول الدين، وتلك أكبر مهمة ينحو الأزهر بتحقيقها.

عذرنا تجاهل الشيخ بنص حديث الغدير الذي هو من أهم الأحداث الإسلامية، والوقائع التاريخية التي لا يمكن جحودها، ومن الصعب إنكارها.

فلا نريد أن نذكر الشيخ بالمصادر التي ذكرت هذا النص الجلي، ولا نريد أن نقدم له قائمة بأسماء الصحابة الذين شهدوا بسماعهم من رسول الله ﷺ يوم قام بذلك الحفل الرهيب، والجمع الحاشد، وفي ذلك الهجير المضطرم، في غدير خم حيث

مفترق المدنيين والمصريين، والعراقيين، وعدد الجمع لا يقل عن مائة ألف، وأعلن للملأ الحاشد بخطبته العظيمة، التي قال فيها: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه».

نعم لا نريد أن ننبه الشيخ لمراجعة الصحاح التي روت ذلك، كصحيح مسلم، والترمذي، والحاكم وغيرها، أو نرشده إلى مراجعة الكتب التي ذكر فيها هذا الحديث، وعددها يربو على ستمائة مؤلف وكتاب.

إن حديث الغدير هو نص صريح ولم يستطع أحد إنكاره، وإن كان الكثيرون قد وقعوا في كثير من التمحلات والتأويلات في المعنى اللغوي للفظ المولى، ولكن ذلك لم يصل بهم إلى نتيجة مرضية.

نحن نترك هذا للباحث الحر المتجرد عن العاطفة والتحيّز، ولا نطيل الحديث مع الشيخ في هذا الموضوع، كما أننا لا نطيل الحديث في قوله: ويقيني أن التشيع كان ستاراً احتجب وراءه أعداء الإسلام من الفرس واليهود والروم وغيرهم إلى آخره[1].

لأن هذه العبارة قد مرّت على أسماعنا من كثير ممن يريد أن يثير الفتنة، وينشر الشغب، وقد رددها المستشرقون الذين يريدون في أبحاثهم الوقيعة بين المسلمين، وإن فضيلة الشيخ لكثرة اتباعه لأولئك الكتّاب، واقتباسه في تعبيره من عباراتهم، وضع هذه الآراء الشاذة في إطار اليقين، كما أن يقيني فيه أنّه قاصر عن إثبات ما يدعم دعواه من الطرق العلمية. ويحق لنا أن نسأل فضيلة الشيخ فنقول: لأي شيء لا يكون التدخل من قبل أعداء الدين في صفوف سائر الطوائف هدماً للدين، وتآمراً على أهله؟

أليست فرق الكرامية التي يبلغ عددها اثني عشر فرقة وأصولها ستة وهم: العابدية، والنونية، والزربنية، والإسحاقية، والواحدية، وأقربهم الهيصمية وهم منتسبون لأهل السنّة[2].

وهؤلاء قد ابتدعوا في الدين، وأضلّوا خلقاً كثيراً، وقد اندسوا في الحنابلة، وانتسبوا لأحمد بن حنبل.

وكان مؤسس هذه الفرقة (الكرامية) هو محمّد بن كرام السجستاني المتوفى سنة

---

(١) الحديث والمحدثون ص٩١.

(٢) الملل والنحل ج١ ص١٥٩.

٢٥٥هـ كان أصله من زرنج، ونشأ بسجستان، ثم دخل بلاد خراسان، وجاور بمكة خمس سنين، ثم أظهر بدعته، وتبعه خلق كثير، وشاع ذكره، حتى قال الشاعر في مدحه:

الفقه فقه أبي حنيفة وحده — والدين دين محمّد بن كرام
إن الذين لجهلهم لم يقتدوا — في الدين بابن كرام غير كرام[1]

ذهب محمّد بن كرام إلى أن الإيمان قول باللسان، وإن اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن.

وزعم ابن كرام وأتباعه: أن معبودهم محل الحوادث ووصفوه ـ تعالى الله عما يصفون ـ بالثقل وذلك أن ابن كرام قال في كتاب عذاب القبر في تفسير قوله ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ إنها انفطرت من ثقل الرحمن عليها، ولهم مزاعم كثيرة وآراء باطلة[2] ولهم في الفقه أقوال.

منها: صلاة المسافر يكفيه تكبيرتان من غير ركوع ولا سجود، ولا قيام ولا قعود، ولا تشهّد ولا سلام.

ومنها: صحة الصلاة في ثوب كله نجس، وعلى أرض نجسة، ونجاسة ظاهر البدن، وإنما أوجب الطهارة عن الأحداث دون الأنجاس.

ومنها: أن غسل الميت والصلاة عليه سنّة غير مفروضة، وإنما الواجب كفنه، ودفنه.

ومنها: القول بصحة الصلاة المفروضة، والحج المفروض بلا نية.

قال الشيخ زاهد الكوثري: وكثير من الكرامية قالوا بحلول الحوادث في الله تعالى وحلوله في الحوادث، اندسوا بين الحنابلة، فأضلوا خلائق، ولله في خلقه شؤون، وكذلك فعل البربهارية والسالمية[3].

ونحن لا نريد أن نتناول بالبحث جميع الفرق التي نسبت لأهل السنّة وتزعمها رجال من الدخلاء، كالمشبهة والمجسمة والمريسية وغيرهم، لأنا لا نود أن نتبع

---

(١) لسان الميزان ج٥ ص٣٥٤.
(٢) الفرق للبغدادي ص١٣٠ ـ ١٣٧.
(٣) الفرق بين الفرق ص١٢١.

طريقة من يسطو على القديم من الشبه والآراء، ويطلوه بطلاء حديث، تغريراً للبسطاء، واستمالة للدهماء، فجمعوا بين جريمتين: جريمة الخيانة وجريمة الخداع، فوق ما اقترفوا من جريمة الطعن في سيرة أهل البيت المنزهين من كل عيب والمطهرين من كل دنس، وهم حماة الدين وأعلام المسلمين.

عذرنا من ذهب لذلك من السلف، وعفى الله عما سلف، ولكن ما عذر أبناء العصر الحاضر الذين وقفوا على بواعث تلك الاتهامات الموجهة إلى الشيعة، وعرفوا أهداف السياسة في ذلك؟ وهم يتجاهلون حقيقة لا يمكنهم جهلها.

وعلى أي حال فإنا لا نريد إطالة الوقوف مع الشيخ (أبو زهو) في هذا الموضوع، إذ الأمر يدعونا إلى إطالة البحث، وتقديم قوائم بأسماء رجال من أبناء فارس، دخلوا في صفوف فرق المسلمين من غير الشيعة، ونشروا كثيراً من المذاهب، ولو أنه أطل ببحثه على تراجم رجال المذهب الحنفي وأعيانه، لوجدهم من أبناء فارس، فقد قاموا بنشر المذهب الحنفي، وساندوا حركته بكل عصر، ولعل ذلك يكفي لإقناع الشيخ في بطلان قوله.

نعم لا نريد إطالة النقاش فيما تقوّله على الشيعة، ولم يكن هو أول من يسهم في تجاهل الحقائق، فكم رأينا كثيراً من أمثاله وأعرضنا عن نقاشه.

والشيء الذي يلزمنا أن نقف عليه وقفة أسف وتألم وهو قوله بالمبحث الرابع إذ يقول: كان من وراء الشيعة، والخوارج ومن على شاكلتهم، الجمهور الأعظم ممن لم يتدنسوا بالتشيع[1] . . .

هكذا يقول وما أعظم ما يقول. إنه يرى أن الانتساب إلى التشيع دنس، ونحن لا نقول في رده أي شيء، إلاّ أننا نطلب ممن قرظوا الكتاب ومدحوه، أن يراجعوا ضمائرهم في صحة هذا القول وهل ارتضوا ذلك؟ ومن العجيب أن يكون كذلك!!

أيكون التشيع دنس وقد انتمى إليه كبار الصحابة وخيار التابعين؟!

أيكون التشيع دنس وهو اتباع علي وحبه وبغض أعدائه، وقد دعى رسول الله ﷺ لذلك في بدء دعوته؟!

(١) الحديث والمحدثون ص٩٨.

غريب وأيم الحق أن تصدر كلمة كهذه من إنسان يدعي العلم والمعرفة، ويتصدر للتدريس في أصول الدين.

إنها كلمة خرجت من قلب يحترق غيظاً عندما يبلغه تقارب المسلمين، في عصر يلزمهم ذلك، إنه يفقد معنوية لا ينالها إلاّ بالتفرقة، وإثارة الفتنة.

أي قلم استطاع أن يسطر هذه الحروف لكلمة عظيم وقعها على المنصفين من المسلمين، الذين يسوؤهم ما حل بمجتمعهم، من شحناء وبغضاء، جرتهما عليهم طائفية رعناء وعصبية عمياء.

فلنترك حساب هذا الشيخ على ما تجناه في كتابه، وما افتعله في أبحاثه، ولنا معه عودة إن شاء الله.

كما أننا نترك الوقوف مع غيره من أمثاله، ومن على شاكلته، ممن تجردوا للكذب والافتراء، ونظروا إلى الشيعة من زاوية التعصب الطائفي أو غير ذلك، فسلّوا عليهم سيوف النقمة. ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

الناقمون على الإسلام وأهل البيت:

وعلى أي حال إننا إذا أردنا أن نحاسب الناقمين على الشيعة طبقاً للمنطق الصحيح، على مواقع الخطأ في اتهام الشيعة بأمور لا صلة لها بالواقع، ولا نصيب لها من الصحة، فإن الأرقام تقف عن مسايرتنا، وربما تقف عن الإحصاء، ولا نريد ذلك، ولكننا نريد منهم التوسع في التفكير الحر، وترك المغالطات، والتثبت في النقل، فقد مرّت العصور التي تدعوهم إلى إثارة الفتن، وإيقاد نار البغضاء بين المسلمين.

لقد رأينا كيف نشأت تلك الفئات، وعرفنا الأسباب التي دعتهم إلى الادعاء بالتقرّب من أهل البيت.

إن العداء المتأصل في قلوب أولئك المنهزمين أمام قوة الإسلام الذاتية، حملهم على مقابلته من طريق غير مباشر، وإن انتحال البعض منهم حب أهل البيت، والتظاهر بالولاء لهم إنما كان هدفهم في ذلك تغرير البسطاء، وتضليل العامة، ممن ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية، مع أنهم لمسوا رغبة السلطة الحاكمة في تشويه سمعة أتباع أهل

البيت، ليحملوا الناس على الابتعاد عنهم، وأن يحرموا أغلبية الأمة من الأخذ بتعاليم آل محمّد، لما يدسونه في أحاديثهم، وما يشوهونه من أقوالهم، وقد أدرك الأئمة عليهم السلام هذا الخطر العظيم، فقاموا بمحاربة تلك الفئة الضالة والزمرة الملحدة، وقد وقف الشيعة إلى جنب أهل البيت في إعلان الحرب على تلك الفئة، والبراءة منهم، وحكموا بنجاستهم وعدم الامتزاج معهم، فكان نصيب تلك الحركة التي قام بها الملحدون ضد الإسلام بصورة عامة، وضد أهل البيت بصورة خاصة، الفشل والانهيار، وإن نالت الفوز الموقت، وأثرت في عقول لم يكن لها نصيب من الرجحان، فذلك أمر يعود للظروف، ومقتضيات الزمان، وأنه يدور على تلك القوة الغاشمة، قوة السلطة المتعسفة، التي قضت على الأفكار بالجمود لكي يشغل المسلمون فيما بينهم بالتناحر والتطاحن، ويسكتوا عما هو أخطر وأجدر بالمقاومة والمحاربة، وهو نظام حكمهم الذي وضعوه حسب أهوائهم الجائرة، ورغباتهم الجشعة، ونزعاتهم المتعسفة، والذي جعلوه مرتبطاً بالإسلام، وإنه النظام الذي لا يمكن مخالفته، لأنهم انتحلوا لأنفسهم حق وراثة الحكم، وحماية الدين وصيانة الإسلام.

وفي النهاية ينبغي أن نضع أمام أعيننا الغاية التي من أجلها التحق أولئك الغلاة بركب الشيعة في نظر الكثير من الكتّاب والمؤرخين، مع بعد المسافة وعدم التقارب، فإن ذلك لا يعدو نظرة التعصّب والانتقاص، نظراً لمقتضيات الزمن وعوامل السياسة، كما هو ملموس لمن يطلب الحقيقة، ويحاول الوقوف على الواقع، ويجعل نفسه حراً في ميدان البحث، ولا يعتمد على أقوال من يحاولون بنشر تلك الدعايات الكاذبة غرضاً معيناً، ويدبّرون أمراً مرسوماً، وهم يلتقون جميعاً على هدف واحد، ويجتمعون على غرض واحد، وينسون في سبيل ذلك كل ما يقتضيه العلم ويتطلبه الحق والإنصاف، من عدم التحيّز وترك التعصّب، والبعد عن المغالطة ليبدو وجه الحقيقة سافراً ويتضح الحق (والحق أحق أن يتبع).

ولكن بمزيد من الأسف أن يستولي سلطان التعصّب على بعض الناس، فيسلبهم حرية الرأي، ونزاهة النقل، فيقعون في مأساة الجمود الفكري، بفقد المرونة والصراحة وخدمة الحقيقة، لأنهم يتحرّكون وسط غيرهم من الناس، ويتنكرون للحقائق، ويبتعدون عن الواقع، الأمر الذي أدى إلى عواقب وخيمة لا يحمد عقباها.

المنحرفون عن الحق والشيعة:

ونعود إلى أولئك المنحرفين عن الصواب، الذين جعلوا من التشيع ستاراً لأعداء الدين، بل زاد بعضهم فجعل التشيع مبدأ تفرق هذه الأمة، لأن أصول التشيع من ابتداع اليهود، كما يقول السيد رشيد رضا: (كان التشيع للخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه مبدأ ترق هذه الأمّة في دينها وفي سياستها:

وكان مبتدع أصوله يهودي اسمه عبد الله بن سبأ، أظهر الإسلام خداعاً. ودعا إلى الغلو في علي كرّم الله وجهه، لأجل تفريق هذه الأمّة وإفساد دينها ودنياها)[1].

نعم نعود فنسائلهم عن هذا التجنّي الفاضح هل أخذوه من مصدر يوثق به؟ أم هل وقفوا على شيء من ذلك في كتب الشيعة مما يؤيّد ما ذهبوا إليه؟

ما ذنب الشيعة عندما اقتضت الظروف القاسية أن تحمل أعداءهم على التدخل في صفوفهم، لتشويه السمعة وفتح باب المواخذة؟

وهل كل من يدعي الانتساب لقوم يؤخذون بجرمه مع بيان الفارق، وعدم العلاقة وإظهار البراءة منه والابتعاد عنه.

أي علاقة بين الشيعة وبين الغلاة، وهل يوجد ربط في العقائد بين الفئتين؟ اللّهم إلاّ من باب المغالطة والتجاهل، فما هذا التجني يا أيها الكتّاب؟ لقد أبيتم إلاّ أن تجعلوا حب أهل البيت غلواً، وثبوت الوصاية لعلي خروجاً عن الإسلام.

انظروا إلى عواقب هذا التطرّف والشذوذ، وكيف أدّى إلى تفريق الصفّ وتشتيت الشمل، وتغلّب أعداء الإسلام عليهم، وحكمهم لبلادهم واستغلالهم لثرواتهم.

وإن تلك الافتراءات التي يصوغها المتحاملون، ويحوكها المتعصّبون، لا تقوى على مقابلة الحق، بل تذوب أمام أضوائه، وتتحطم تحت ضرباته، والذين يصرّون

---

(١) كتاب السنة والشيعة أو الوهابية والرافضة ص ٤ ـ ٦ طبع مصر سنة ١٣٦٦هـ ١٩٤٧ والكتاب يقع في ٢٨١ صفحة وكله سباب وتهجم وتقول بالباطل على رجال الشيعة وأعيانهم، وقد وضع له (الشيخ أحمد حامد الفقي) خاتمة، وأي خاتمة هي أنه قد تكلم بلسان لا عهد له بالآداب، ولا صلة له بالصدق، وقد أعرضنا عن مناقشته تهاوناً واحتقاراً.

على مثل هذه الأمور، ويأبون التورع عن مثل هذا الانحدار، إنما هم أعداء الأمة الإسلامية جمعاء، وجعلوا من الشيعة هدفاً لأغراضهم، ليثيروا الفتنة والبغضاء بين صفوف المسلمين، فتحققت بذلك أغراضهم السيئة.

أما قضية ابن سبأ فهي أسطورة قديمة ولعبة سياسية، وتهمة اتهم بها كبار الصحابة من حملة لواء التشيع، كأبي ذر وعمّارٍ وغيرهم.

يقول الدكتور أحمد أمين في فجر الإسلام بعد ذكر «مزدك[1] ومذهبه الثنوي: وقد اعتنق مذهبه آلاف من الناس، ولكن قبّاذ نكل به وبقومه، ودبّر لهم مذبحة سنة ٥٢٣هـ كاد يستأصلهم بها.

ومع هذا فقد ظل قوم يتبعون مذهبه، حتى إلى ما بعد الإسلام، إلى أن يقول: ونلمح وجه شبه بين رأي أبي ذر الغفاري، وبين رأي مزدك في الناحية المالية فقط، فالطبري يحدّثنا أن أبا ذر؛ (قام بالشام وجعل يقول: يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، بشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوي بها جباههم وظهورهم)[2].

من هذه الدعوة التي قام بها أبو ذر الغفاري يستنتج الأستاذ أحمد أمين أن أبا ذر أخذ هذا الرأي من مزدك أو قريب من رأيه. وبعد ذلك يتساءل الأستاذ عن كيفية أخذ أبي ذر لهذا الرأي، فيستدل بما رواه الطبري: أن ابن السوداء لقي أبا ذر فأوعز إليه بذلك ثم يقول: ونحن نعلم أن ابن السوداء هذا لقب به عبد الله بن سبأ، وكان يهودياً من صنعاء، أظهر الإسلام في عهد عثمان، وأنّه حاول أن يفسد على المسلمين دينهم، وبث في البلاد عقائد كثيرة ضارة، قد نتعرّض لها فيما بعد، وكان قد طوّف في بلاد كثيرة: في الحجاز والبصرة، والكوفة، والشام ومصر، فمن المحتمل القريب

---

(١) ظهر مزدك في فارس سنة ٤٨٧هـ وهو من أهل نيسابور، ودعا إلى مذهب ثنوي جديد، وكان يقول بالنور والظلمة، وامتاز بتعاليمه الاشتراكية، وأحل النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ، فقوي أمره وعظمت شوكته، واتبعه السفلة، واغتنموا دعوته فرصة، فابتلي الناس بهم وقوي أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله...

(٢) فجر الإسلام ص١١٠.

أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق أو اليمن، واعتنقها أبو ذر حَسَن النية، وصبغها بصبغة الزهد التي كانت تجنح إليها نفسه. . .

ويقول الدكتور حسن إبراهيم في كتابه (تاريخ الإسلام السياسي) بعد أن ذكر بيان الحالة التي كان عليها المسلمون في أخريات خلافة عثمان: فكان الجو ملائماً تمام الملاءمة، ومهيئاً لقبول دعوة عبد الله بن سبأ، والتأثر بها إلى أبعد حد.

وقد أذكى نيران هذه الثورة صحابي قديم، اشتهر بالورع والتقوى، وكان من كبار أئمة الحديث، وهو أبو ذر الغفاري[1] الذي تحدّى سياسة عثمان، ومعاوية واليه على الشام، بتحريض رجل من أهل صنعاء هو عبد الله بن سبأ، وكان يهودياً فأسلم، ثم تنقل في البلاد الإسلامية، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، فالكوفة، والشام ومصر.

فأنت ترى أن هذا الصحابي الجليل، الذي امتاز بصدق اللهجة، ووضوح الحجة، فاستحق أن يقول الرسول ﷺ عن أخلاقه: «ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر»[2] قد تجني عليه بما نسبوه إليه من التأثر بآراء مزدك بواسطة ابن السوداء عبد الله بن سبأ، كما يزعم هؤلاء الأساتذة الذين لا خبرة لهم بالتاريخ ولا معرفة بأحوال الرجال.

ونحن إذ نستعرض مثل هذه الآراء، لا نريد من ورائها إلاّ إعطاء صورة عن الشذوذ الفكري، والخروج عن قواعد الاستنتاج.

كيف يصح القول بأن أبا ذر قد اعتنق رأي (مزدك)؟؟ وهو خريج مدرسة

---

(١) أبو ذر هو جندب بن جنادة الغفاري، المتوفى سنة ٣١هـ أمه أم رملة بنت الوقيعة الغفارية، وهو رابع أربعة سبقوا إلى الإسلام، وكان من المتألهين في الجاهلية الذين عبدوا الله وتركوا الأصنام، ولما أسلم أجهر في إسلامه في البيت الحرام بمكة، فضربه رجال من قريش حتى ضرجوه بدمه، وأغمي عليه فتركوه ظناً منهم أنّه مات، وقد ورد عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في مدحه، ورحل إلى الشام في خلافة عثمان، فأنكر على معاوية سيرته وسوء عمله، وأعلن بالإنكار عليه، فشكاه معاوية إلى الخليفة، وأخرجه من الشام ونفاه إلى الربذة حيث توفي بها وحده، فكان كما قال فيه النبي ﷺ: «رحم الله أبا ذر يعيش وحده ويموت وحده ويبعث وحده».
ولما انتقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربه كان أبو ذر غائباً فعاد وقد ولي أبو بكر، فقال: أصبتم قناعة وتركتم قرابة، لو جعلتم هذا الأمر في أهل بيت نبيكم ما اختلف عليكم اثنان.

(٢) الاستيعاب بهامش الإصابة ج١ ص٢١٦. والإصابة ج١ ص٦٤.

(٣) الإصابة ج٤ ص٦٤.

محمّد ﷺ والمنتهل من علومه، والممتثل لتعاليمه، وقد وصفه ﷺ بما سمعت آنفاً كما وصفه الإمام علي عليه السلام بقوله: «أبو ذر وعاء مُلىء علماً ثم أوكيء عليه»[1].

ومن كان كذلك أيحتاج بآرائه وأقواله إلى يهودي، فيتأثر بأقواله وآرائه؟ فتكون أساساً لدعوته التي قام بها.

ولكن عوامل السياسة، ومؤثرات الدعاية قلبت المفاهيم وغيّرت من نظرة الناس إلى الحقائق، إذ اقتضت الظروف تبرير عمل معاوية، وحمله على الصحة، وأن إنكار أبي ذر عليه كان بدافع عن اعتقاد خارج عن الإسلام، ولهذا فقد التجأ أنصار معاوية والمدافعون عنه إلى أن يصبغوا دعوة أبي ذر بصبغة التأثر بآراء غير المسلمين. ليسلم معاوية من الطعن، وإن أصاب الطعن صميم تعاليم الإسلام.

هذا ومع التنزل في صحة قصة ابن سبأ الذي جعلوا منه بطلاً لجميع الحركات في ذلك العهد، فهو الذي رفع صوته بالكوفة إنكاراً على عثمان، فاستجابت له الجماهير، ورحل إلى مصر فغير القلوب، وجهز الجيوش لحرب عثمان، وأقام في المدينة، فحوّل الأمور عن مجراها وأغرى بعض الصحابة، أمثال أبي ذر، وعمار بن ياسر[2] ومحمّد بن حذيفة[3] وعبد الرّحمٰن بن عديس[4] ومحمّد بن أبي بكر[5]

---

(١) هو أبو اليقظان عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن قيس من بني ثعلبة وأمه سمية، وهو سابع سبعة أظهروا الإسلام وجاهروا به، وقد قال فيه رسول الله ﷺ: «إن عماراً ملىء إيماناً إلى مشاشه».
وكان من المعذبين في الله هو وأبوه وأمه، وقد مات والده متأثراً من تعذيب قريش إياه على إسلامه، وكان عمار مع علي في حرب الجمل وصفين؛ وقتل بصفين مساء الخميس ٩ صفر سنة ٣٧هـ قتله أهل الشام، فكان قتله مصداقاً لقول رسول الله ﷺ: «يا عمار تقتلك الفئة الباغية».

(٢) هو أبو القاسم محمّد بن حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمه سهلة بنت سهيل بن عمر العامرية، ولد بأرض الحبشة على عهد رسول الله ﷺ، وكان من أشد الناس إنكاراً على عثمان، وذهب إلى مصر، فأخرج نائبه عبد الله بن أبي سرح من مصر، وبايعه أهل مصر، ولما ولي علي (ع) أقر محمّد بن حذيفة على مصر، وبقي على إمارته، وقد غدر به معاوية وسجنه بدمشق وقتله.

(٣) عبد الرحمن بن عديس البلوي المقتول سنة ٣٦هـ كان ممن شهد الحديبية، وبايع تحت الشجرة، وكان ممن أظهر الإنكار على عثمان، وقاد جيش المصريين لحربه يوم الدار، وقد سجنه معاوية، وغدر به بعد المهادنة وقتله.

(٤) محمّد بن أبي بكر وأمه أسماء بنت عميس، نشأ في حجر علي، وشهد معه حروبه، ثم ولاه مصر سنة ٣٧هـ فجهز إليه معاوية جيشاً وقتل صبراً، وادخلوا جسده في بطن حمار ميت فأحرقوه، وذلك في سنة ٣٨هـ.

وصعصعة بن صوحان العبدي[١] ومالك الأشتر[٢]: وغيرهم من صلحاء الصحابة وكبار التابعين.

إلى آخر ما نسبوه إليه من أعمال، وكل ذلك لا يمتّ إلى الواقع بصلة، لأن قصة ابن سبأ هي من القصص الخرافية، وقد تفرد الطبري بذكرها مستنداً إلى سيف بن عمرو التميمي البرجمي الكوفي، وإذا رجعنا إلى ترجمته لنقف على قيمة ما يرويه، فإنا نجدهم يصفونه بالواضع للحديث، ساقط الرواية، يروي الموضوعات عن غير الثقاة، عامة أحاديثه منكرة، متهم بالوضع والزندقة[٣] إلى آخر ما ورد في وصفه عن علماء الرجال كابن معين، وأبي حاتم، وأبي داود، والدارقطني، وابن عدي، وابن يحيى، وابن حبان وغيرهم. وذلك لا يدع مجالاً للشك بأن هذا الرجل قد وضع هذه القصة، ولا يقصد من ورائها إلاّ الوقيعة في رجال المسلمين، وإثارة الفتنة فيما بينهم، طبقاً للخطط التي وضعها الزنادقة في ذلك العصر، وقد نجح هذا المخطط، فأصبح ابن سبأ بطلاً مشهوراً يردده الكتاب والمؤرخون.

وتجدر الإشارة هنا إلى ارتباط هذا الاتهام بذلك التحسّس الديني الذي أثارته سياسة عثمان، والتي كانت أول البوادر للتحكم والاستبداد، وأول ظاهرة في الحكم الإسلامي، ومن أجل ذلك قام أولئك الصحابة الذين تخرجوا من مدرسة الرسول الأعظم ﷺ فأنكروا تلك الأفعال، وعارضوا تلك السياسة، فعظم ذلك على الأمويين، وقابلوا أعمالهم بالعنف من جهة، وبالحط من كرامتهم من جهة أخرى.

وإن نظرة بسيطة إلى واقع الأمر، فإنا نجد اتهام الصحابة بتلك الأمور إنما هو من أعمال أنصار الأمويين، لتشويه سيرة أولئك العظماء الذين نقموا على عثمان، وأنكروا عليه سياسته التي جرّت عليه نقد الصحابة وإعلان الثورة.

---

(١) صعصعة بن صوحان بن حجير بن الهجرس العبدي، أسلم على عهد رسول الله ﷺ وكان خطيباً فصيحاً، شهد مع علي (ع) ولما استولى معاوية بعد الصلح نفاه إلى البحرين فمات بها.

(٢) هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن الحرث بن جذيمة بن مالك النخعي، أدرك رسول الله ﷺ، وكان رئيس قومه، شهد اليرموك فشترت عينه بها؛ ولقب بالأشتر، صحب علياً وشهد الجمل وصفين، وأرسله علي والياً على مصر، فدس معاوية إليه السم في العسل على يد رجل صحبه في الطريق، أرسله معاوية لهذا الغرض، وتوفي متأثراً من السم وذلك سنة ٣٨هـ.

(٣) ميزان الاعتدال للذهبي ج١ ص ٤٣٨. وتهذيب التهذيب ج٤ ص٢٩٧. وفهرست ابن النديم ص١٣٧.

والحاصل أن وضع أسطورة ابن سبأ هي لغرض الحط من كرامة المنكرين على عثمان، ولكن المنصفين من الباحثين لم يستطيعوا السكوت عن هذه الخرافة البالية، والأسطورة المضحكة، والفرية الباطلة، فصرحوا بما هو الحق، وأظهروا للناس بطلانها، وناقشوا نقاط الضعف التي تحوط بها، فنحن نشكر للمنصفين انتباههم، كما أننا نأسف لأولئك المخدوعين لانزلاقهم في هوة التعصب، وانقيادهم للهوى واستجابتهم لداعية التفرقة، فنحن نمر بلغوهم مر الكرام، ولنسدل الستار عن فضائح جناياتهم على الحقيقة، ونَكِل أمرهم لذوي العقول الراجحة، والأفكار الثاقبة الذين يقيسون الأمور بمقياس العلم، وتقترن أقوالهم بالواقع، ولا يقيمون للخرافات وزناً ولا يجعلون للتقليد الأعمى قيمة، على غرار ما يفعل الشيعة وهم يتلقون هذه التهم وكأنهم لا تعنيهم لأنها معروفة المنشأ ومكشوفة الغرض، وإنما تناقش من باب الغيرة على العلم الذي راح البعض ممن لا علاقة له به إلاّ بالألقاب والمراكز يستسلمون هذا الاستسلام الشنيع، وقد أشرنا في كل مرة إلى أقوال ممن هم من بني جلدتنا، أو تجمعنا وإياهم روابط العقيدة ـ إن شاؤوا ـ ولم نقم وزناً للأصل الذي اعتمده أحمد أمين وغيره مما تجنى به المستشرقون على تاريخ الإسلام وأهل الإيمان والولاء للنبي ﷺ وعترته الطاهرة.

إن الشيعة يقصدون للغلاة، ويقوم أئمتهم بحملة مضادة لوأد حركتهم والقضاء عليها، وقد أقضّ مضجعهم نشاط هؤلاء ولم يستقرّوا حتى هدم وجودهم، ولكن غيرهم يستمد معلوماته من كتّاب لا تجمعهم بالإسلام جامعة ولا تربطهم رابطة، ويتقبلون ما يفعله هؤلاء المستشرقون بوقائع التاريخ وتدخّلهم في أحداث الأمة الإسلامية.

فإذا أخذنا الألماني يوليوس فلهوزن في كتابه: (الخوارج والشيعة)، لرأيناه كيف يستنتج ويربط الأحداث وفق غرض ظاهر لا يخفى على ذي نظر، فهو يسمح لنفسه أن يرجح ما بين الأكاذيب والافتراءات، وأن مذهب الشيعة يرجع إلى اليهود أقرب من أن يرجع إلى الفرس، ولو كان لي غير البيان بأبلغ من هذا لعبّرت عن الاستخفاف والاستهزاء العميقين لمثل هذه الأقوال، وليتها صدرت من مسلم. ثم يؤخذ قول فلهوزن مصدراً ـ وما أبعده عن الحقيقة. وسنأتي في الجزء الخامس على مناقشة آراء المستشرقين. ولقد بحثنا فيما مضى موقف أئمة الشيعة من الغلاة بما لا مزيد عليه من

الوضوح والواقعية وبما يجعل قول فلهوزن أضحوكة عندما يقول: (إن عبادة الشيعة لله كانت عبادة لبني الإنسان، والنتيجة لذلك قيصرية بابوية معاً. كانوا يعترضون على إمامة السلطة القائمة، ولكن إمامتهم الشرعية القائمة على دم الرسول (ذرية آل البيت) لم تكن أفضل منها إذ كانت تفضي إلى إهدار لقانون وكسر لشريعة).

ولا نناقش أمراً هو من مفاخرنا ورموز مسيرتنا حتى يظهر صاحب الأمر، والذي قدّم الأئمة الأطهار أنفسهم من أجله، فأكدوا سياسة محاربة الظلم ومقاطعة الظالمين. ولا التقاء بين إمامة الدين التي هي صلة الرسالة ومنهج النبوة وبين سلطة الظالمين والقتلة:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾.

الإمام الصَّادق
أجوبة ومُناظرات

تمهيد:

تقدم القول أن عصر الإمام الصَّادق عليه السلام كان عصر مجادلات ونظر، إذ اتسعت فيه دائرة الخلافات العقائدية، وانتشرت فيه المقالات المختلفة، وظهرت هناك عقائد ومذاهب لا تتمشى مع روح الإسلام، كما أن شبه الزنادقة والملحدين قد ظهرت بصورة علنية، ووجد يومئذ من ينكر وجود الله، مستعيناً على إثبات وجهة نظره بالمنطق اليوناني، إذ ظهرت نتائج التفاعل الفكري بين المسلمين وحضارة اليونان، وانتشرت مبادىء المنطق اليوناني والفكر الإغريقي.

ودار الجدل والنقاش حول مسائل أهمّها مسألة التشبيه والتجسيم والصفات ومسألة تحمل الإنسان مسؤولية عمله، أو رفع كل مسؤولية عنه، وبراءته من كل إثم، إلى غير ذلك من المسائل: كقدم العالم وحدوثه، وفكرة العدل، والكبائر، مما هو مذكور في أمهات الكتب من الخلافات عندما ظهرت التيارات المختلفة، التي ارتسمت في آفاق الفكر الإسلامي.

وقد رأينا فيما سبق موقف الإمام في ردّ تلك المزاعم، ودفع تلك الشبهات، وأول ما كان يسعى إليه هو إثبات وجود الله ووحدانيته، وعلاقة صفاته به، بأدلة عقلية مبتنية على أسس منطقية صحيحة، يحاول فيها إظهار الحق، وكشف الحقيقة بما أوتي من مواهب غزيرة، ومقدرة على البيان، فمرة يأتي بأوجز بيان في برهانه مع الوفاء بالقصد، وأخرى يطنب في الدليل ويوضح الحجة، ويسترسل في البيان كما في توحيد المفضل وغيره، فمن إيجازه حينما يسأل عن الدليل على الخالق يقول عليه السلام: «ما بالناس من حاجة».

فما أوجزها من كلمة وأكبرها من حجة، فإنا نجد الناس في حاجة مستمرة في كل شأن من شؤون الحياة، وهذه الحاجة تدل على وجود مآل لهم في حوائجهم، غني عنهم بذاته، وأن ذلك المآل واحد، وإلاّ لاختلف السير والنظام.

ويسأله مرة هشام بن الحكم بقوله: ما الدليل على أن الله واحد؟ فيقول عليه السلام: «اتصال التدبير، وتمام الصنع»[1].

وكان ما يوحيه وجود الإمام الصّادق من ثقة في النفوس، وما يبعثه من اطمئنان من أكبر عوامل التماسك والاحتفاظ بالارتباط بالأصول وفهم المبادىء الكبرى في العقيدة الإسلامية. ومع ما يتمتع به أفراد مدرسة الإمام الصّادق وتلامذته من قدرة على الحجاج والمناظرة، فإن أصالة المنهج وبناء الأسلوب جعلا من تلك التيارات ـ التي غمرت الآخرين وراحوا معها متأثرين بها أو مقلدين لها في منهجها مع الاحتفاظ بالمضمون الإسلامي ـ ضعيفة أمام قوة برهانها، غير قادرة على زحزحة المناظرين والمنافحين عن الفكر الإسلامي، بل إن طريقة الإمام الصّادق تمكنت من التحكم في تأثير تلك التيارات وردّها.

موقف الإمام من الزنادقة والشبه الفكرية:

وإن موقف الإمام الصّادق في الدفاع عن الإسلام في رد شبه الزنادقة والدهرية، وخصومه من أهل الأديان الأخرى ـ وقد دبجت فيه آلاف الصفحات في مئات الكتب ـ وهي ثروة فكرية لا غنى لأي أحد من المسلمين عنها، كما أنه عليه السلام قد وجه أصحابه على قدر كفاءتهم ومقدرتهم، ليخوضوا تلك المعارك الفكرية، ويقفوا في صد تلك التيارات والأعاصير، فكانوا خير معين على حل المشاكل الفكرية وما يتبعها من مشاكل اجتماعية كان الإمام يهتم بها غاية الاهتمام، يقومون بتنفيذ الخطط التي يرسمها لهم، وتحت إشرافه يكون القيام بها والسير عليها، فهو المصدر الأول والمنتهى الأخير لتلك التعاليم التي تقوم بها النخبة الصالحة من أصحابه.

فكانت لهم اليد الطولى في خوض تلك المعارك ومحاربة أهل الإلحاد والزندقة ومناظرة أهل العقائد الفاسدة والفرق الشاذة. وكان عليه السلام ينهى عن الكلام في ذات

---

(١) الإمام الصّادق للشيخ المظفر نقلاً عن توحيد الصدوق.

الله فيقول: «تكلموا في خلق الله، ولا تتكلموا في الله؛ فإن الكلام في الله لا يزيد صاحبه إلاّ تحيراً».

ويقول عليه السلام لمحمّد بن مسلم: «يا محمّد إن الناس لا يزال بهم المنطق حتى يتكلموا في الله، فإذا سمعتم ذلك فقولوا لا إله إلاّ الله».

ويقول عليه السلام: «تكلموا في كل شيء، ولا تتكلموا في ذات الله».

ويقول عليه السلام: «إياكم والتفكر في الله، ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه».

وأشرف عليه السلام بنفسه على ما يدور بين أصحابه، فأخضع الجدل والمناقشة لأسس تجعل ما يدور عنده مختلفاً ومتميزاً حتى إنه كان لا يتردد في النهي عن علم الكلام الذي يجري على الأهواء والرغبات، ففي رواية يونس بن يعقوب قلت: جعلت فداك سمعتك تنهى عن الكلام وتقول: ويل لأصحاب الكلام، يقولون هذا ينقاد وهذا لا ينقاد، وهذا ينساق وهذا لا ينساق، وهذا نعقله وهذا لا نعقله، فقال عليه السلام: «إنما قلت: ويل لقوم تركوا قولي وذهبوا إلى ما يريدون به»[1].

فهو عليه السلام يقصد بالنهي: النهي عن الكلام الجدلي الذي تاه به كثير من الناس، لاعتمادهم فيه على خواطر توحيها إليهم نفوس ساقها إلى الكلام حب الغلبة دون أن يستندوا إلى ركن وثيق، أو يأخذوا هذا العلم من معدنه الصحيح.

لقد كان الإمام الصّادق محط آمال الأمة ومعقد أمانيها، وكانت مدرسته يؤمّها كبار العلماء ورجال الفلسفة وطلاّب العلوم على اختلاف أنواعها، فهو لم يختص بعلم دون آخر، ولم يقتصر على منهج واحد، فكان كل وارد يجد عنده ما يطلبه، وكل سائل يأخذ عنه أحسن الجواب، لذلك أصبحت الوفود تنهال على مدرسته من جميع الأقطار؛ لأنهم وجدوا فيه المعلّم الصادق والإنسان الكامل.

يقول الأستاذ رمضان لاوند:

إن الإمام الصّادق أبا عبد الله هو نموذج لإنسانية المعرفة في العصر الإسلامي الذهبي، بل بداية رائعة له، هيأت له أسباب هذه الأمة، بالإضافة إلى ذكائه الوقاد وجهوده البالغة في البحث والتأمّل والدراسة، كان من أولئك الملهمين الذين لا يجود

(١) الإرشاد للمفيد ص٢٤١.

التاريخ الإنساني بهم، إلاّ في فترات متباعدة، يضاف إلى هذا أيضاً أنه ثمرة من ثمرات أهل البيت النبوي الشريف، ممن كانوا في الذروة من قادة العرب وأئمتهم.

والحق أن إمامته العلمية لم تكن مقصورة على أتباعه كما ذكرت آنفاً، فلقد رأينا في مجموعة الأخبار الواردة في الفصول السابقة أن عمرو بن عبيد، وهو من رجال السنّة، قد أتاه يسأله عن أمر دينه ويستفتيه في شؤون مختلفة، من الأوامر والنواهي الواردة في القرآن والسنة، كما أثبتت الأخبار التي أصبحت لها صفة التواتر، وأن أبا حنيفة النعمان، وهو صاحب أحد مذاهب السنّة الأربعة، قد لازمه مدة سنتين من حياته الدراسية، وأن سفيان الثوري، وهو صاحب مذهب من مذاهب السنّة، قد لازمه وناقشه وجاوره، وكان منه كما يكون التلميذ من أستاذه. ولئن كان سواه من علماء العصر العباسي الذين تميزوا بالثقافة الإنسانية الشاملة، قد برز في علم دون آخر، فإن الإمام الصّادق لم يكن في علم من هذه العلوم مقصراً به عن الآخر أبداً، لقد كانت الركائب تحمل إليه طلاّب الحكمة، وأصحاب الفقه والفلسفة، وعلم الكلام، والعلوم الطبيعية، واللغة، والنحو، والصرف، والبيان والآداب في شعرها ونثرها، والتفسير والسنّة النبوية، وأيام عرب الجاهلية والإسلام.

يضاف إلى هذا كله وقار وهيبة واستقامة، وصدق وصراحة، وحسن بيان، وتصرّف وقيادة حازمة لأتباعه، وسياسة ماهرة لأنصاره[1].

وعلى أي حال فإن الإمام الصّادق عليه السلام كان وحيد عصره في مختلف العلوم والفنون، وظهرت في شخصيته آثار الوراثة بأجلى صورها، وأبرز معانيها، إذ هو رضيع ثدي الإيمان، ووليد بيت الوحي ووارث علم النبي، وحافظ تراثه.

لقد كان عليه السلام علماً من أعلام الهدى ودعاة الرشاد، يدعو للخير ليوجد قوة فعالة تتجه نحو الخير، ليحيى المسلمون حياة طيبة.

ومهما تكن العوامل التي اتخذها أعداؤه في صرف الناس عنه، فإنّها لم تؤثر الأثر الذي يطلبونه في تحويل الناس عنه، إذ العقيدة أكبر مؤثر في تكوين العقل الإنساني ـ رقياً وانحطاطاً ـ فإن الناس لا يجهلون ما لأهل البيت من الأثر العظيم في المجتمع الإسلامي، وقد منحهم النبي ﷺ صفة لا يشاركهم فيها أحد: وهي الاقتران

---

(١) الإمام الصّادق لرمضان لاوند.

بالكتاب، وعدم افتراقهما إلى يوم القيامة، وقد مرّت الإشارة لذلك. ولقد انهال الناس على مدرسة الإمام الصّادق من كل قطر على اختلاف نزعاتهم وآرائهم، فكان هو المعلم الأول، والمرشد الناصح، والمحدّث الصادق.

وليس بالإمكان حصر أجوبته عن المسائل التي وجهت إليه من طلاّب العلم، ولا بيان مناظراته التي ناظر بها أهل الأديان المختلفة والفرق المتفرقة. ونحن هنا نشير للبعض منها لئلا يخلو هذا الكتاب عن إثبات شيء منها:

سأله أبو حمزة عما يقال من أن الله جسم.

فقال عليه السلام: «سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلاّ هو، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لا يحد، ولا يحس، ولا تدركه الحواس، ولا يحيط به شيء ولا جسم ولا تخطيط ولا تحديد».

ودخل عليه نافع بن الأزرق فقال: يا أبا عبد الله أخبرني متى كان الله؟

فقال عليه السلام: «متى لم يكن حتى أخبرك متى كان، سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً».

وقال ابن أبي يعفور سألت أبا عبد الله عن قول الله: هو الأول والآخر، فقلت أما الأول فقد عرفناه، وأما الآخر فبيّن لنا تفسيره..

فقال عليه السلام: «إنه ليس شيء يبيد أو يتغير ويدخل التغيير والزوال والانتقال من لون إلى لون، ومن هيئة إلى هيئة، ومن صفة إلى صفة، ومن زيادة إلى نقصان، ومن نقصان إلى زيادة، إلاّ رب العالمين، فإنه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة، وهو الأول قبل كل شيء على ما لم يزل، لا تختلف عليه الصفات والأسماء» الحديث....[1].

وقال محمّد بن مارد لأبي عبد الله عليه السلام: حديث روي لنا أنك قلت: (إذا عرفت فاعمل ما شئت).

فقال عليه السلام: «قد قلت ذلك».

قال محمّد: وإن زنوا وإن سرقوا أو شربوا الخمر.

فقال عليه السلام: «إنا لله وإنا إليه راجعون، والله ما أنصفونا أن نكون أخذنا بالعمل ووضع عنهم، إنما قلت: إذا عرفت فاعمل ما شئت من قليل الخير وكثيره».

---

(١) الفصول المهمة للحر العاملي ص٥٦.

ومثله عن فضيل بن عثمان: قال: سئل أبو عبد الله الصّادق عليه السلام عما روي عن أبيه: (إذا عرفت فاعمل ما شئت) وإن بعضهم يستحل بعد ذلك كل محرم.

فقال عليه السلام: «ما لهم لعنهم الله؟ إنما قال أبي إذا عرفت الحق فاعمل ما شئت من خير يقبل منك»[1].

وقد كان لإشاعة هذا الحديث من قبل أعداء أهل البيت أثر كبير في نفس الإمام الصّادق، فإن أولئك القوم الذين يريدون الوقيعة والتشويه قد تأوّلوا هذا الحديث، وقلبوا حقيقته، وأذاعوا بين العامة أن معرفة الإمام كافية عن العمل، وقالوا: إنما الدين المعرفة، فإذا عرفت الإمام فاعمل ما شئت.

وقد اهتم الإمام الصّادق عليه السلام لهذه الإشاعة الكاذبة، والتأويل الباطل، فأعلن البراءة ممن ذهب لذلك، ولعنهم على رؤوس الأشهاد، وبسط القول في معنى هذا الحديث ومدلوله، وقال عدة مرات: «إنا لله وإنا إليه راجعون، تأول الكفرة ما لا يعلمون، وإنما قلت: أعرف واعمل ما شئت من الطاعة، فإنه مقبول منك، لأنه لا يقبل الله عملاً من عامل بغير معرفة، لو أن رجلاً عمل أعمال البر كلها، وصام دهره، وقام ليله، وأنفق ماله في سبيل الله، وعمل بجميع طاعة الله، ولم يعرف نبيه الذي جاء بتلك الفرائض، فيؤمن به ويصدقه، وإمام عصره الذي افترض الله طاعته فيطيعه، لم ينفعه الله بشيء من عمله، قال الله عزّ وجلّ في مثل هؤلاء: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾».

وكتب إلى الآفاق بذلك كتاباً قال فيه: «وإنما يقبل الله العمل من العباد بالفرائض التي افترضها عليهم، بعد معرفة من جاء بها من عنده، ودعاهم إليه: فأول ذلك معرفة من دعى إليه، وهو الله الذي لا إله إلاّ هو، وتوحيده، والإقرار بربوبيته، ومعرفة الرّسول الذي بلغ عنه، وقبول ما جاء به، ثم معرفة الأئمة بعد الرّسول الذين افترض طاعتهم في كل عصر وزمان على أهله، والإيمان والتصديق بجميع الرسل والأئمة، ثم العمل بما افترض الله عزّ وجلّ على العباد من الطاعات، ظاهراً وباطناً، واجتناب ما حرّم الله عزّ وجلّ عليهم ظاهراً وباطناً» الخبر[2].

---

(١) الوسائل ج١ ص١١٦، ص١١٧.

(٢) الوسائل ج١ ص١٣٩.

وقال سليمان بن مهران: سألت أبا عبد الله الصّادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾؟

فقال عليه السلام: «يعني ملكه لا يملكها معه أحد» والقبض من الله تعالى في موضع آخر المنع، والبسط منه الإعطاء والتوسع، كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني يعطي ويوسع ويمنع، والقبض منه عزّ وجلّ في وجه آخر الأخذ، والأخذ في وجه القبول منه كما قال تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي يقبلها من أهلها ويثيب عليها».

قال سليمان فقلت: فقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾؟.

قال عليه السلام: «اليمين اليد، واليد القدرة والقوة، فقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي بقدرته وعونه، سبحانه وتعالى عما يشركون».

وسأله هشام بن الحكم بقوله: ما الدليل على أن الله واحد؟

فقال عليه السلام: «اتصال التدبير وتمام الصنع».

وسأله أبو شاكر الديصاني بقوله: ما الدليل على أن لك صانعاً؟

فقال عليه السلام: «وجدت نفسي لا تخلو من إحدى جهتين: إما أكون صنعتها أنا أو صنعها غيري، فإن كنت صنعتها فلا أخلو من أحد معنيين، إما أن أكون صنعتها وكانت موجودة، فقد استغنيت عن صنعتها، وإن كانت معدومة فإنك تعلم أن المعدوم لا يحدث شيئاً، فقد ثبت المعنى الثالث أن لي صانعاً، وهو رب العالمين». فقال الديصاني وما أحار جواباً.

وعنه عليه السلام في جواب من سأله عن معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ قال: «استوى من كل شيء، فليس شيء أقرب إليه من شيء، لم يبعد منه بعيد، ولم يقرب منه قريب»، ثم قال: «من زعم أن الله عزّ وجلّ من شيء أو في شيء أو على شيء فقد كفر».

فقال له السائل: فسّر لي ذلك.

فقال عليه السلام: «من زعم أن الله من شيء فقد جعله محدَثاً، ومن زعم أنّه في شيء فقد جعله محصوراً، ومن زعم أنّه على شيء فقد جعله محمولاً».

وسئل عن شبهة المجسمة فقال عليه السلام:

«إن الجسم محدود متناه، والصورة محدودة متناهية، فإذا احتمل الحد احتمل الزيادة والنقصان، وإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً».

فقال السائل: فما أقول؟

فقال عليه السلام: «لا جسم ولا صورة، وهو مجسّم الأجسام، ومصوّر الصور، لم يتجزأ، ولم يتناه، ولم يتزايد، ولم يتناقص، لو كان كما يقولون لم يكن بين الخالق والمخلوق فرق ولا بين المنشىء والمنشأ»[1].

وقال عليه السلام: «فمن زعم أن الله في شيء أو على شيء، أو يحول من شيء إلى شيء، أو يخلو منه شيء، أو يشتغل به شيء؛ فقد وصفه بصفة المخلوقين، والله خالق كل شيء لا يقاس بالقياس، ولا يشبه الناس، لا يخلو منه مكان، ولا يشغل به مكان، قريب في بعده، بعيد في قربه، ذلك الله ربنا لا إله غيره»[2].

وسأله سليمان بن مهران الأعمش: هل يجوز أن نقول أن الله عزّ وجلّ في مكان؟

فقال عليه السلام: «سبحان الله وتعالى عن ذلك، إنه لو كان في مكان لكان محدَثاً، لأن الكائن في مكان محتاج إلى المكان، والاحتياج من صفات المحدَث لا من صفات القديم».

وسئل عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال عليه السلام: «يعني أرشدنا إلى الطريق المؤدي إلى محبتك، والمبلغ إلى دينك، والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب، أو نأخذ بآرائنا فنهلك»[3].

قال هشام بن الحكم: كنت عند الإمام الصادق عليه السلام إذ دخل عليه معاوية بن وهب، وعبد الملك بن أعين، فقال له معاوية: يا ابن رسول الله ﷺ ما تقول في الخبر الذي روي أن رسول الله رأى ربّه؟ على أي صورة رآه؟ وعن الحديث الذي رووه أن المؤمنين يرون ربهم في الجنّة، على أي صورة يرونه؟ فتبسم عليه السلام ثم قال: «يا معاوية ما أقبح بالرجل يأتي عليه سبعون سنة أو ثمانون سنة يعيش في ملك الله ويأكل من نعمه، ثم لا يعرف الله حق معرفته!!»

(١) الكافي باب النهي عن الجسم والصورة.
(٢) البحار ج٣ ص٩٠.
(٣) الإمام الصادق لرمضان لاوند ص٦٣.

ثم قال: «يا معاوية إن محمّداً لم ير الرب تبارك وتعالى بمشاهدة العيان، وإن الرؤية على وجهين: رؤية القلب ورؤية البصر، فمن عنى برؤية القلب فهو مصيب، ومن عنى برؤية البصر فقد كفر بالله وآياته، لقول رسول الله ﷺ: من شبّه الله بخلقه فقد كفر. ولقد حدّثني أبي عن أبيه عن الحسين بن علي عليهما السّلام: سئل أمير المؤمنين عليه السلام فقيل له: يا أخا رسول الله هل رأيت ربك؟

فقال: وكيف أعبد من لم أره؟ لم تره العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، فإذا كان المؤمن يرى ربه بمشاهدة البصر فإن كل من جاز عليه البصر فهو مخلوق، ولا بد للمخلوق من الخالق. فقد جعلته إذن محدَثاً مخلوقاً، ومن شبهه بخلقه فقد اتخذ مع الله شريكاً. ويلهم أو لم يسمعوا بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وقوله: ﴿لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ وإنما طلع من نوره على الجبل كضوء يخرج من سم الخياط، فدُكّت الأرض، وصعقت الجبال، فخرّ موسى صعقاً، فلما أفاق قال: سبحانك تبت إليك من قول من زعم أنك تُرى، ورجعت إلى معرفتي بك، إن الأبصار لا تدركك، وأنا أول المؤمنين وأول المقرين بأنك ترى ولا تُرى وأنت بالمنظر الأعلى».

ثم قال عليه السلام: «إن أفضل الفرائض وأوجبها معرفة الرب، والإقرار له بالعبودية، وحد المعرفة أن يعرف أنه لا إله غيره، ولا شبيه له ولا نظير، وأن يعرف أنه قديم مثبت موجود غير مفقود، موصوف من غير شبيه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وبعده معرفة الرسول والشهادة بالنبوة».

وله عليه السلام كثير من الحجج في الرد على من جوّزوا الرؤية لله في البصر سواء في الدنيا أو في الآخرة، لأنهم اختلفوا في ذلك، إذ جوّزها قوم في الدنيا والآخرة، ومنعها آخرون في الدنيا وأجازوها في الآخرة، كما هو مذهب الشافعي.

وذهب أهل البيت عليهم السلام إلى استحالة الرؤية في الدنيا والآخرة، وعدم إمكانها مطلقاً لأنه تعالى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(1). لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلاً أو تابعاً، كالأجسام والهيئات، وعلل

---

(1) سورة الأنعام: ١٠٢.

ذلك بأن الباصرة لا تكون في حيز الممكنات ما لم تتصل أشعة البصر بالمرئي ويمتنع اتصال شيء بذاته جلّ وعلا.

ولما اشتهرت مقالة المفوضة: وهم الذين يقولون بتفويض الأفعال إلى المخلوقين، ورفعوا عنها قدرة الله وقضاءه، عكس المجبرة الذين أسندوا الأفعال إليه تعالى، وأنه أجبر الناس على فعل المعاصي، وأجبرهم على فعل الطاعات، وأن أفعالهم في الحقيقة أفعاله، فكان أثر هاتين الفكرتين سيئاً في المجتمع الإسلامي. فتصدى الإمام عليه السلام لرد هؤلاء، وأعلن العقيدة الصحيحة في جوابه البليغ ورده الشهير وهو قوله: «لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين».

وخلاصته: أن أفعالنا ـ من جهة ـ هي أفعالنا وتحت قدرتنا واختيارنا، ومن جهة أخرى هي مقدورة لله تعالى، داخلة تحت سلطانه فلم يجبرنا على أفعالنا، حتى يكون قد ظلمنا في عقابنا على المعاصي، لأن لنا القدرة على الاختيار في ما نفعل، ولم يفوض إلينا خلق أفعالنا حتى يكون قد أخرجها عن سلطانه، بل له الخلق والأمر وهو قادر على كل شيء ومحيط بالعباد.

وبهذا تعتقد الشيعة، ومذهبهم وسط بين المذهبين كما بيّنه أئمة الهدى ودلت عليه كلمة الإمام الصّادق عليه السلام في جوابه هذا.

وقال محمّد بن عجلان: قلت لأبي عبد اللّه الصّادق: فوض الله الأمر إلى العباد؟

فقال عليه السلام: «الله أكرم من أن يفوض إليهم».

قلت: فأجبر العباد على أفعالهم؟

فقال عليه السلام: «الله أعدل من أن يجبر عبداً على فعل، ثم يعذبه عليه».

وبلغه عليه السلام مقالة الجعد بن درهم[1] وهي أنه جعل في قارورة تراباً وماء، فاستحال دوداً وهواماً، فقال الجعد: أنا خلقت هذا لأني سبب كونه.

---

(١) الجعد بن درهم: أصله من خراسان، ويقال أنه من موالي بني مروان، سكن دمشق وكانت له بها دار، وإليه ينسب مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية، لأنه كان معه أو مؤدبه، فيقال: مروان الجعدي؛ والجعد هو أول من أظهر القول بخلق القرآن، وقد غضب عليه بنو أمية فتطلبوه وهرب إلى الكوفة، فقبض عليه خالد القسري فقتله يوم الأضحى سنة ١٢٤هـ وقال للناس: ضحوا يقبل الله منكم فإني مضح بالجعد. فنزل إليه وذبحه تحت المنبر.

فقال الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام: «ليقل كم هي وكم الذكران والإناث إن كان خلقها، وكم وزن كل واحدة منهنّ، وليأمر الذي سعى إلى هذا الوجه أن يرجع إلى غيره»[1]!!.

قال ابن حجر: فبلغه ذلك ـ أي قول الإمام الصّادق ـ فانقطع ورجع.

وسأله سدير الصيرفي عن معرفة الله تعالى.

فأجابه عليه السلام عن المعرفة بالوهم، والمعرفة بالاسم، والمعرفة بالصفة، وفصّل له جميع هذه الأنواع، وذكر له المعرفة الصحيحة.

ثم ذكر صفة الإيمان الصحيح، وكيف يصبح الرجل مؤمناً حقاً، وأن ذلك لا يحصل إلاّ بالإقرار والخضوع لله والتقرّب إليه، والأداء له بما فرض من صغير وكبير. ثمّ أخذ في التفصيل والبيان، وذكر بعد ذلك صفات الإسلام العامة، والأشياء التي يستحق الإنسان بها إطلاق الإسلام عليه.

ثم ذكر أسباب الخروج من الإيمان، وذكر معنى الفسق، وبيّن الكبائر التي يكون بها فساد الإيمان إلى آخر ما ذكر في الجواب عن ذلك تفصيلاً[2].

طرق معيشة العباد:

وسأله سائل فقال: كم جهات معائش العباد التي فيها الاكتساب والتعامل ووجوه النفقات؟

فقال عليه السلام: «جميع المعائش كلها من وجوه المعاملات فيما بينهم مما يكون لهم فيها المكاسب أربع جهات من المعاملات».

فقال السائل: أكلّ هذه الأربع جهات حلال، أو كلها حرام، أو بعضها حلال وبعضها حرام؟

فقال عليه السلام: «في هذه الأجناس الأربعة حلال من جهة، وحرام من جهة، وهذه الأجناس معروفات، فأول هذه الجهات الأربع: الولاية وتولية بعضهم على بعض.

(١) لسان الميزان لابن حجر ج٢ ص١٠٥.

(٢) تحف العقول ص٣٢٥ ـ ٣٢٩.

ثم التجارة في جميع البيع والشراء بعضهم من بعض، ثم الصناعات من جميع صنوفها.

ثم الإجارات، وكل هذه تكون حلالاً من جهة وحراماً من جهة، والفرض من الله على العباد في هذه المعاملات: الدخول في جهات الحلال منها، والعمل بذلك الحلال واجتناب جهة الحرام منها».

ثم أخذ عليه السلام في التفصيل: فذكر الولاية وقسمها إلى حلال، وهي ولاية ولاة العدل الذين أمر الله بولايتهم وتوليتهم على الناس.

وأما الحرام منها، فهي الولاية لأئمة الجور والعمل لهم، والكسب معهم بجهة الولاية لهم، فهو حرام ومحرم، معذب من فعل ذلك قليلاً أو كثيراً.

وعلل ذلك عليه السلام بأن ولاية الوالي الجائر دروس للحق كله، وإحياء الباطل كله، وإظهار الظلم والفساد، وإبطال الكتب، وهدم المساجد، وتبديل سنة الله وشرائعه، ولذلك حرم العمل معهم ومعونتهم، والكسب معهم إلاّ بجهة الضرورة، نظير الضرورة إلى الدم والميتة.

ثم ذكر التجارة وما يحل من البيع وما يحرم منه، فالحلال ما هو غذاء العباد وقوامهم في أمورهم، في وجوه الصلاح الذي لا يقيمهم غيره إلى آخر بيانه في ذلك.

والحرام منه هو كل أمر يكون فيه الفساد مما هو منهي عنه من جهة أكله وشربه، أو كسبه أو نكاحه، أو ملكه، أو إمساكه، أو هبته أو عاريته.

ثم ذكر عليه السلام بقية الجهات من الصناعة والإجارة، ووجوه إخراج الأموال وإنفاقها وما يحل للإنسان أكله وما لا يحل، وما يجوز من اللباس وما لا يجوز، إلى آخر بيانه وتفصيله في جوابه لسائله.

سلوك الوالي مع الرعية:

وسأله عبد الله النجاشي[1]: عمّا يقربه إلى الله تعالى وإلى رسوله بما يعمله في ولايته مع الرعية.

---

(١) هو أبو بجير عبد الله بن غنيم بن سمعان الأسدي البصري. كان والياً للمنصور على الأهواز، وكان يرى رأي الزيدية، وقدم المدينة ودخل على الإمام الصّادق، وسأله بمسائل عديدة فخرج منه وقد عدل عن رأيه وقال: هذا عالم آل محمّد ﷺ ولا زال يراسل الإمام ويسأله عن أهم الأمور.

فأجابه عليه السلام بجواب طويل ورسالة مفصلة منها قوله: «فإني ملخص لك جميع ما سألت منه، إن أنت عملت به ولم تجاوزه رجوت أن تنجو إن شاء الله تعالى؛ أخبرني أبي عن آبائه عن رسول الله ﷺ أنه قال: من استشاره أخوه المؤمن فلم يمحضه النصيحة سلبه الله لبه، واعلم أني سأشير عليك برأي إن أنت عملت به تخلصت مما أنت متخوفه، واعلم أن خلاصك ونجاتك في حقن الدماء، وكفّ الأذى عن أولياء الله، والرفق بالرعية، والتأني وحسن المعاشرة، مع لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، ومداراة صاحبك ومن يرد عليك من رسله، وارتق فتق رعيتك بأن توافقهم على ما وافق الحق والعدل إن شاء الله.

وإياك والسعاةِ وأهل النمائم، فلا يلتزقنّ منهم بك أحد، ولا يراك الله يوماً وليلة وأنت تقبل منهم صرفاً ولا عدلاً فيسخط الله عليك...».

ومنها: «ولا تستصغرنّ من حلو أو فضل طعام تصرفه في بطون خالية، ليسكن بها غضب الله تبارك وتعالى، واعلم أني سمعت من أبي يحدث عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سمع النبي ﷺ يقول: ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعاناً وجاره جائع. فقالوا: هكلنا يا رسول الله. فقال ﷺ: من فضل طعامكم ومن فضل تمركم ورزقكم تطفون بها غضب الرب....

يا عبد الله إياك أن تخيف مؤمناً، فإن أبي محمّد حدّثني عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب أنه كان يقول: من نظر إلى مؤمن نظرة ليخيفه بها، أخافه الله يوم لا ظل إلاّ ظلّه».

ثم أخذ عليه السلام يوجه له نصائحه، ويذكر له مكارم الأخلاق وما يلزم أن يتحلى بها كل مسلم، ويروي له أحاديث رسول الله ﷺ في ذلك، ويختم جوابه بقوله: «أوصيك بتقوى الله، وإيثار طاعته، والاعتصام بحبله، فإنه من اعتصم بحبل الله فقد هدي إلى صراط مستقيم، فاتق الله ولا تؤثر أحداً على رضاه، واعلم بأن الخلائق لم يوكلوا بشيء أعظم من التقوى، وأنه وصيتنا أهل البيت، فإن استطعت ألا تنال شيئاً من الدنيا تسأل عنه غداً فافعل».

وذكر الحلواني في نزهة الناظر أن كاتب المهدي المعروف بأبي عبد الله سأل الإمام الصّادق عما يستطيع به مداراة السلطان وتدبير أمره، فأجابه الإمام عليه السلام بما يرشده لذلك، وشرح له طرق السلوك في مداراة السلطان، وأوصاه بأمور هامة،

ونصحه في أشياء كثيرة، ولا يخفى أن السائل كان كاتباً للمهدي وهو في ولاية عهده، وكان ممن يوالي أهل البيت شأنه شأن كثير من القواد والأمراء والكتّاب، الذين دخلوا في سلطان بني العباس لمساعدة الضعفاء، ودفع الظلم عنهم قدر استطاعتهم.

التوحيد في أجوبة الإمام للمفضل بن عمر:

وهو جوابه للمفضل بن عمر(١) حينما سمع كلام ابن أبي العوجاء وإنكاره للصانع، فناظره المفضل، ثم بادر إلى الصادق عليه السلام وطلب منه أن يملي عليه ما يقوى به على مناظرة الزنادقة، فأجابه بتلك الدروس القيمة، والحكم النافعة، التي تحتوي على دلائل التوحيد، ومحكم البراهين على وجود الصانع الحكيم، من بيان هيئة العالم، وتأليف أجزائه، مما يلزم الكل رفض فكرة المصادفة في تجمع هذه الكائنات، وفكرة خلود المادة التي يقول بها الدهرية والملحدون.

وبعد ذلك ذكر كيفية خلق الإنسان وتكوينه، وكيفية ولادته وتغذيته، وغرائزه، وطبائعه، وبيان الدماغ وعظمته، وما فيه من سائر الأعضاء من عجيب الصنع، وعظيم القدرة، إلى آخر ما يتعلّق بالحلقة الأولى من حديثه، وهو المجلس الأول.

وفي الحلقة الثانية تحدث عن الحيوان وأنواعه، والحكمة في خلقه مفصلاً موضحاً، مفنداً أقوال الخصوم، ثم ربط تفصيله لخصائص الكائنات الحية، أنواعها وطبقاتها بفكرة الله ووجود الخالق والمخلوق.

وفي اليوم الثالث بدأ يملي حلقته الثالثة فتحدث مطولاً عن نظام الكواكب العجيب، وعقلانية تنظيم الأجواء، وعلاقة الإنسان بهذه وتلك، رابطاً هذا كله أيضاً بفكرة الوجود الإلهي ووحدانية الله.

وفي اليوم الرابع تحدّث عن الأوبئة والأمراض، والآفات المختلفة التي تصيب الإنسان، والحيوان والنبات، وعقلانية علاقتها بخالق الوجود ووحدانيته أيضاً.

---

(١) هو أبو عبد الله المفضل بن عمر الجعفي الكوفي، ولد في الكوفة في نهاية القرن الأول أيام الإمام الباقر عليه السلام وتوفي في أواخر القرن الثاني عن عمر يناهز الثمانين سنة، وقد أدرك أربعة من أئمة أهل البيت، وهم: الباقر، والصّادق، والكاظم، والرضا عليهم السلام. ولم يرو عن الباقر لأنه كان صغيراً في أيامه، واتصل بالإمام الصّادق اتصالاً وثيقاً، وكان من ثقة أصحابه، وكان وكيلاً على أمواله بعد موت عبد الله بن أبي يعفور.

ونرى من اللازم الإشارة لذلك اختصاراً إذ لا سبيل لنقل النصوص كاملة كما وردت لطولها، ولذلك نكتفي بذكر البعض من آيات علم الإمام الصادق التي تحوي خصائص منطقه ومزايا أسلوبه في بحث دلائل التوحيد من خلال عرض الدقائق التي ليس بمقدور الآخرين التعرّف عليها، فضلاً عن التدليل وجعلها مادة في المناظرة، ولا بد لهذه الأجوبة أن تجد حظها من البحث والبيان فهي من آثار الإمام التي يجدر بالباحثين تناول مضامينها ومنهجها الذي قامت عليه.

المجلس الأوّل في خلق الإنسان:

قال عليه السلام بعد أن ذكر الملحدين وأسباب شكهم وتهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه: «نبتدي يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به، فأول ذلك ما يدبر به الجنين في الرحم، وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء ولا دفع أذى، ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة، فإنه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات، فلا يزال ذلك غذاءه حتى إذا كمل خلقه، واستحكم بدنه، وقوي أديمه على مباشرة الهواء، وبصره على ملاقات الضياء، هاج الطلق بأمّه، فأزعجه أشد إزعاج وأعنفه حتى يولد، وإذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم أمه إلى ثدييها، فانقلب ذلك الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء، وهو أشد موافقة للمولود من الدم، فيوافيه في وقت حاجته إليه، فحين يولد تلمظ وحرك شفتيه طلباً للرضاع، فهو يجد ثدي أمه كإداوتين لحاجته إليه، فلا يزال يغتذي باللبن ما دام رطب البدن رقيق الأمعاء لين الأعضاء، حتى إذا تحرك واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتد ويقوى بدنه، طلعت له الطواحن من الأسنان والأضراس، ليمضغ بها الطعام ويسهل له إساغته، فلا يزال كذلك حتى يدرك...».

ثم قال عليه السلام: «اعتبر يا مفضل فيما يدبر الإنسان في هذه الأحوال المختلفة، هل يمكن أن تكون بالإهمال؟». إلى أن يقول عليه السلام: «فمن هذا الذي يرصده حتى يوافيه بكل شيء من هذه المآب؟ إلاّ الذي أنشأه خلقاً بعد أن لم يكن، ثم توكل له بمصلحته بعد أن كان، فإن كان الإهمال يأتي بمثل هذا التدبير فقد كان يجب أن يكون العمد والتقدير يأتيان بالخطأ والمحال، لأنهما ضد الإهمال، وهذا فظيع من القول،

وجهل من قائله، لأن الإهمال لا يأتي بالصواب، والتضاد لا يأتي بالنظام، تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً».

ثم قال عليه السلام: «ولو كان المولود يولد فاهماً عاقلاً لأنكر العالم عند ولادته، ولبقي حيران تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف، وورد عليه ما لم ير مثله، من اختلاف صور العالم من البهائم والطير، إلى غير ذلك مما يشاهده ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم.

ثم لو ولد عاقلاً كان يجد غضاضة إذا رأى نفسه محمولاً مرضعاً، معصباً بالخرق مسجى في المهد لأنه لا يستغني عن هذا كله لرقة بدنه ورطوبته حين يولد، ثم لا يوجد له من الحلاوة والوقع من القلوب ما يوجد للطفل، فصار يخرج إلى الدنيا غبياً غافلاً عما فيه أهله، يتلقى الأشياء بذهن ضعيف، ومعرفة ناقصة، ثم لا يزال يتزايد في المعرفة قليلاً قليلاً، وشيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال، حتى يألف الأشياء ويتمرن ويستمر عليها، فيخرج من حد التأمل لها والحيرة فيها إلى التصرّف والاضطرار إلى المعاش بعقله وحيلته، وإلى الاعتبار والطاعة، والسهو والغفلة والمعصية، وفي هذا أيضاً وجوه أخر: فإنه لو كان يولد أتم العقل مستقلاً بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، وما قدر أن يكون للوالد في الاشتغال بالولد من المصلحة، وما يوجب التربية للآباء على الأبناء من المكافأة بالبر، والعطف عليهم عند حاجتهم إلى ذلك منهم، ثم كان الأولاد لا يألفون آباءهم، ولا يألف الآباء أبناءهم، لأن الأبناء إذا كانوا يستغنون عن تربية الآباء وحياطتهم، فيتفرقون عنهم حين يولدون، فلا يعرف الرجل أباه وأمّه». ثم ذكر عليه السلام فوائد البكاء للطفل، وساق البيان إلى ذكر أعضاء البدن على الشكل الموجود.

فقال المفضل: يا مولاي إن قوماً يزعمون أن هذا من فعل الطبيعة.

فأجابه الإمام عليه السلام: «سلهم عن هذه الطبيعة أهي شيء له علم وقدرة على هذه الأفعال؟ أم ليست كذلك؟ فإن أوجبوا لها العلم والقدرة، فما يمنعهم من إثبات الخالق، فإن هذه صفته، وإن زعموا أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عمد، وكان في أفعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة، علم أن هذا الفعل للخالق الحكيم، وأن الذي سموه طبيعة هو سنته في خلقه الجارية على ما أجراه عليه».

ويستمر عليه السلام في بيان وصول الغذاء إلى البدن، وكيفية انتقال صفوه من

المعدة إلى الكبد، في عروق رقاق، ثم كيفية تقسيمه في البدن، وبروز الفضلة منه، وذكر نشوء الأبدان ونموها، والحواس التي خصّ الله بها الإنسان. إلى أن يقول: «لو رأيت تمثال الإنسان مصوراً على حائط فقال لك قائل: إن هذا ظهر ههنا من تلقاء نفسه، لم يصنعه صانع. أكنت تقبل ذلك؟ بل كنت تستهزىء به، فكيف تنكر هذا في تمثال مصور جماد، ولا تنكر في الإنسان الحي الناطق؟» ثم أخذ في البيان عن خلقة الإنسان وعجيب صنعه وما أودع فيه من القوى.

المجلس الثاني في ذكر الحيوان:

قال عليه السلام: «ابتدي لك بذكر الحيوان ليتضح لك من أمره ما وضح لك من غيره، فكر في أبنية الحيوان وتهيأتها على ما هي عليه، فلا هي في صلابة كالحجارة، ولو كانت كذلك لا تنثني ولا تتصرف في الأعمال، ولا هي على غاية اللين والرخاوة، فكانت لا تتحامل ولا تستقل بأنفسها، فجعلت من لحم رخو ينثني، تتداخله عظام صلاب، يمسكه عصب، وعروق تشده، وتضم بعضه إلى بعض، غلفت فوق ذلك بجلد يشمل على البدن كله». إلى أن يقول عليه السلام:

«وفكر بعد هذا في أجساد الأنعام، فإنها خلقت على أبدان الإنس من اللحم، والعظم والعصب، وأعطيت السمع والبصر، ليبلغ الإنسان حاجياته منها، ولو كانت عمياً صماً لما انتفع بها الإنسان، ولا تصرفت في شيء من مآربه، ثم منعت الذهن والعقل لتذل للإنسان فلا تمتنع عليه إذا كدّها الكدّ الشديد».

ثم أخذ عليه السلام يذكر مميزات كل نوع من أنواع الحيوان الثلاثة وهي: الإنسان، وآكلات اللحوم، وآكلات النبات، وما يقتضي كل نوع منها حاجته، من كيفية الأعضاء والجوارح، فيأتيك بلطائف الحكمة وبدائع القدرة.

ثم يستمر عليه السلام في كلامه للذرة، والنملة، والليث.

واستطرد ذكر الطائر وكيف خفف جسمه، وأدمج خلقه، وجعل له جؤجؤاً ليسهل عليه أن يخرق الهواء، إلى غير ذلك من خصوصيات خلقته، وهكذا في خلق تلك الخصوصيات، ويستطرد الحكمة في خصوصيات خلقة الدجاجة، ثم العصفور، ثم الخفاش، ثم النحل وغيرها من صغار الطيور، وما جعل الله فيها من الطبائع، والفطن، والهداية لطلب الرزق.

ثم استعرض خلق السمك ومشاكلته للأمر الذي قدر أن يكون عليه فيقول: «فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق، وقصر علم المخلوقين، فانظر إلى ما في البحار من ضروب السمك، ودواب الماء، والأصداف، والأصناف، التي لا تحصى منافعها إلاّ الشيء بعد الشيء، يدركه الناس بأسباب تحدث».

ثم ينهي كلامه على وحدانية واجب الوجود.

المجلس الثالث في ذكر السماء:

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن تحدث عن السماء ولونها، وما فيها من صواب التدبير وعظم الحكمة: «فكر يا مفضل في طلوع الشمس وغروبها، لإقامة دولتي الليل والنهار، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله، فلم يكن الناس يسعون في معاشهم ويتصرّفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم، ولم يكن يتهنأون مع فقدهم لذة النور وروحه، والإرب في طلوعها ظاهر، مستغن بظهوره عن الاطناب في ذكره والزيادة في شرحه، بل تأمل المنفعة في غروبها، فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار، مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة، لسكون أبدانهم ووجوم حواسهم، وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء، ثم كان الحرص يستحملهم من مداومة العمل ومطاولته، على ما يعظم نكايته في أبدانهم، فإن كثيراً من الناس لولا جثوم هذا الليل لظلمته عليهم لم يكن لهم هدوء ولا قرار، حرصاً على الكسب والجمع والادخار، ثم كانت الأرض تستحمي بدوام الشمس، وتحمي كل ما عليها من حيوان ونبات، فقدّرها الله بحكمته وتدبيره، تطلع وقتاً وتغرب وقتاً».

ثم تعرض لبعض العقاقير وخواصها ومنافعها إلى آخر الفصل.

المجلس الرابع في ذكر آفات الدهر:

تحدث فيه عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الآفات الحادثة في بعض الأزمان التي اتخذها الناس من الجهال ذريعة إلى جحود الخالق والخلق، وأنكرت المعطلة والمانوية من المكاره والمصائب وما أنكروه من الموت والفناء، إلى أن انتهى في البيان إلى الخالق في شُبه الملحدين، إلى آخر بيانه ونير برهانه، وقال في آخر كلامه للمفضل: «خذ ما آتيتك وكن لله من الشاكرين، فقد شرحت لك من الأدلة على الخلق، والشواهد على صواب التدبير، قليلاً من كثير، وجزءاً من كل، فتدبره وفكر فيه واعتبر به».

ولهذه الأجوبة ـ الموجزة والمطولة منها ـ أمثال كثيرة منثورة في كثير من الكتب بمختلف العلوم من تفسير وفقه، وحكمة وكلام وطب، وغير ذلك، وقد اقتصرنا على هذا القدر في ناحية واحدة وهي ناحية التوحيد، وما يتعلّق بصفاته تعالى مما هو مذكور في محله بكثرة، وقد تركنا الكثير منها نظراً لما ألزمنا أنفسنا من الاختصار.

مناظرات الإمام حول الإسلام ومبادئه:

أما مناظراته واحتجاجه على كثير من أهل الأديان المختلفة؛ والفرق المتعددة، فهي كذلك في الكثرة والتعدد بمختلف العلوم وشتى المواضيع، فقد ناظر عليه السلام علماء الأديان الأخرى حول الإسلام ونبيه، بأسلوب الإقناع والحجة الدامغة.

وكذلك ناظَر المرتابين وأهل الزيغ والضلال والملحدين والزنادقة، بمناظرات عديدة يدعوهم فيها إلى سبيل الله وتوحيده، ونبذ الخضوع لغير الله، وعدم الشرك به، ليخرجهم بذلك من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط مستقيم، والاستقامة عليه، بأسلوب قوي نافذ للعقول والقلوب معاً، مراعياً في ذلك قابلية المخاطب واستعداده.

وله مناظرات كثيرة مع رؤساء الفرق الإسلامية، من معتزلة ومجسمة، وقدرية وجبرية، ومفوضة، وغيرهم. وهو يحاول بذلك نبذ الآراء المختلفة، وترك الهوى والانقسام في الدين، والتفرّق فيه، فكان له عليه السلام من الحجج البوالغ ما رفع به العذر، وأزال الريب، وعلى سبيل المثال نذكر بعضاً من مناظراته، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتب العقائد والكلام والحديث، فقد تضمنت الشيء الكثير منها.

جاء أحد الزنادقة ممن يبثون الشبهات حول الدين إلى الإمام الصّادق وهو في البيت الحرام، وبعد أن قابله وتبادلا حديثاً قصيراً قال له الإمام عليه السلام «انتظر حتى أفرغ من الطواف، ثم ائتنا نحدثك فنرى ما عندك».

ولما فرغ أبو عبد اللّه من طوافه وصلاته، أتاه الرجل وجلس وتلامذة الإمام ـ ومنهم هشام بن الحكم ـ مجتمعين عنده.

فقال أبو عبد اللّه عليه السلام : «أتعلم أن للأرض فوقاً وتحتاً؟»

قال: نعم.

قال أبو عبد اللّه: «فهل دخلت تحتها؟»

قال: لا.

قال الإمام عليه السلام: «ما يدريك ما تحتها؟»

قال: لا أدري إلاّ أني أظن أن ليس تحتها شيء.

قال أبو عبد الله: «فالظن عجز، فلم لا تستيقن؟»

ثم أردف الإمام الصّادق يقول: «أفصعدت إلى السماء؟»

قال: لا.

قال: «أفتدري ما فيها؟»

قال: لا.

قال الإمام عليه السلام: «عجباً لك لم تبلغ المشرق ولم تبلغ المغرب، ولم تصعد إلى السماء ولم تجز هناك، فلم تعرف ما خلفهنّ وأنت مع ذلك جاحد بما فيهن؟؟»

ثم قال عليه السلام: «أيها الرجل ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم، ولا حجة للجاهل، فيا عبد الملك ـ وهو اسم الرجل ـ إفهم عنّا فإنّا لا نشك في الله أبداً، أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان فلا يشتبهان، ويرجعان واضطرا ليس لهما مكان إلاّ مكانهما؟ فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلم لا يصير الليل نهاراً والنهار ليلاً؟ لقد اضطرا إلى دوامهما، والذي اضطرّهما هو أعظم منهما وأكبر».

ثم أخذ عليه السلام يناظره في أمور كثيرة حتى أدّى به الأمر إلى الاعتراف بخطئه ورجع عن مقالته، فأمر الإمام عليه السلام هشام بن الحكم أن يتولى توجيهه[1].

وله مناظرات مع ابن أبي العوجاء[2] في التوحيد وغيره، وكان ابن أبي العوجاء

---

(١) كتاب الإمام الصّادق للأستاذ رمضان لاوند ص١٨٣ ـ ١٨٥. وكتاب حياة الإمام الصّادق للسبيتي ص٧٧ ـ ٧٩. وكتاب الإمام الصّادق للشيخ المظفر ج١ ص٢١١ ـ ٢١٢.

(٢) ابن أبي العوجاء: هو عبد الكريم بن أبي العوجاء، خال معن بن زائدة، وكان من الزنادقة المشهورين، يقول جرير بن حازم: كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام: واصل بن عطاء، وعمر بن عبيد، وبشار بن برد، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، ورجل من الأزد. فكانوا يجتمعون في مجلس الأزد، فأما عمرو وواصل فقد صارا إلى الاعتزال، وأما عبد الكريم وصالح فصححا الثنوية، وأما بشار فبقي متحيراً، وكان عبد الكريم يفسد الأحداث، فتهدده عمر بن عبيد، فلحق بالكوفة، فدل عليه محمّد بن سليمان، فقتله وصلبه وذلك سنة ١٦١هـ ولما أخذ لتضرب عنقه قال: لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرّم فيها الحلال وأحلّ الحرام. لسان الميزان ج٤ ص٥١ ـ ٥٢.

من الزنادقة المشهورين، وقتل على الزندقة، واعترف عند قتله بدسّه الأحاديث الكاذبة في أحاديث النبي ﷺ.

فمن تلك المناظرات: أنّه كان هو وابن المقفع[1] في المسجد الحرام يلاحظان الجمع الذي كان يقوم بالطواف حول الكعبة، فقال ابن المقفع لأصحابه: لا واحد من هؤلاء يستحق اسم الإنسانية إلاّ هذا الشيخ الجالس (وأشار إلى جعفر بن محمّد الصّادق) أما الباقون فرعاع وبهائم، فقام ابن أبي العوجاء إلى الشيخ وتحدث معه ثم رجع وقال: ما هذا ببشر! وإن كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ظاهراً، ويتروح إذا شاء باطناً فهو هذا.

وحينما اقتربَ من الإمام وأصبحا منفردين قال له الإمام الصّادق: «لو كان الأمر كما يقول هؤلاء (وأشار إلى الجمع القائم بالطواف) ـ وهو حق كما يقولون ـ نجا هؤلاء وعطبتم، أما إذا انعكس الحال وكان على ما تقولون ـ وهو ليس كما تقولون ـ فأنتم وإياهم سواء».

فسأله ابن أبي العوجاء: رحمك الله أيها الشيخ أي شيء نقوله نحن، وأي شيء يقولونه هم؟

فأجابه الإمام جعفر: «أنى لما تقولون أن يكون كما يقولون!؟ هم يقولون بالمعاد، والوعد والوعيد، وأن للسماء إلهاً، وبها عمراناً، بينما تزعمون أن السماء خراب وليس بها أحد».

فقال ابن أَبي العوجاء: لو كان الأمر كما تقول، فما منع الله من الظهور لجميع خلقه، ودعوتهم إلى عبادته حتى لا يصبح اثنان فيهم على خلاف؟ لماذا اختفى عنهم، ومع ذلك أرسل إليهم رسلاً؟ لو كان قد ظهر بذاته لهم، لكان ذلك أسهل إلى الاعتقاد به.

(١) هو عبد الله بن المقفع، وُلد سنة ١٠٦ أو ١٠٧هـ في قرية من قرى فارس اسمها (جور) وموضعها فيروزآباد، ويقول ابن النديم: أنه اسمه بالفارسية (روزبه) ومعناه (المبارك) واسم أبيه (داذويه) فلما أسلم تسمى بعبد الله وتكنى بأبي محمّد، وكان حسن الأدب، واسع العلم، حاد الذكاء، ويعد في طليعة الكتّاب الحاذقين، وقد استعمله بعض الولاة والأمراء للكتابة في دواوينهم. رمي بالزندقة والإلحاد، وحقد عليه المنصور لأمور كثيرة، وقد قتله سفيان بن يزيد قتلة شنيعة، وذلك أنه أمر بتنور فاسجر، ثم أمر بابن المقفع فقطع وألقي في التنور وأطبق عليه.

فأجابه الإمام جعفر: «كيف اختفى عنك من أظهر قدرته في نفسك أنت، وفي نمائك؟!!» وكان جواباً بليغاً حتى قال ابن أبي العوجاء لأصحابه: وظل يحصي لي قدرة الله التي في نفسي، والتي لم أستطع رفضها حتى ظننت أن الله قد نزل بينه وبيني[1].

وله مناظرة أخرى:

كان ابن أبي العوجاء وابن طالوت وابن المقفع في نفر من الزنادقة مجتمعين في الموسم بالمسجد الحرام، وأبو عبد اللّه جعفر بن محمّد عليه السلام فيه إذ ذاك يفتي الناس ويفسّر لهم القرآن، ويجيب عن المسائل بالحجج والبينات، فقال القوم لابن أبي العوجاء: هل لك في تغليط هذا الجالس وسؤاله عما يفضحه عند هؤلاء المحيطين به، فقد ترى فتنة الناس به وهو علاّمة زمانه؟

فقال لهم ابن أبي العوجاء: نعم. ثم تقدم ففرق الناس فقال: يا أبا عبد اللّه أفتأذن لي في السؤال؟ فقال له أبو عبد اللّه: «سل إن شئت». فقال ابن أبي العوجاء: إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر؟ من فكّر في هذا وقدّر علم أنه فعل غير حكيم ولا ذي نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه، وأبوك أسسه ونظامه.

فقال له الإمام الصّادق عليه السلام: «إن من أظله الله وأعمى قلبه، استوخم الحق فلم يستعذبه، وصار الشيطان وليه، يورده مناهل الهلكة وثم لا يصدره. وهذا بيت استعبد الله به عباده ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته، وجعله محل أنبيائه وقبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، ومجتمع العظمة والجلال، خلقه الله قبل دحو الأرض بألفي عام، فأحق من أطيع فيما أمر، والنهي عما نهىٰ عنه وزجر، هو الله المنشىء للأرواح والصور».

فقال له ابن أبي العوجاء: ذكرت يا أبا عبد اللّه فأحلت على غائب.

فقال الإمام الصّادق عليه السلام: «كيف يكون غائباً من هو مع خلقه شاهد، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، يسمع كلامهم، ويعلم أسرارهم، لا يخلو منه مكان ولا

(١) من تاريخ الإلحاد للأستاذ عبد الرّحمٰن بدوي ص٦٩.

يشغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان، تشهد بذلك آثاره، وتدل عليه أفعاله، والذي بعث بالآيات المحكمة والبراهين الواضحة محمّد ﷺ الذي جاءنا بهذه العبادة، فإن شككت في شيء من أمره فاسأل عنه أوضحه لك».

فأبلس ابن أبي العوجاء ولم يدر ما يقول، فانصرف من بين يديه، فقال لأصحابه: سألتكم أن تلتمسوا لي خمرة فألقيتموني على جمرة. فقالوا له: اسكت فوالله لقد فضحتنا بحيرتك وانقطاعك، وما رأينا أحقر منك اليوم في مجلسه. فقال: ألي تقولون هذا؟ إنه ابن من حلق رؤوس من ترون، وأومأ بيده إلى أهل الموسم.

هذا أنموذج من أجوبته عليه السلام ومناظراته في باب التوحيد، وقد اقتصرنا على هذا البعض ولا يسعنا ذِكر أكثر منه لضيق المجال ورعاية للاختصار.

خلاصة الصراع بين دعوة الإمام الإصلاحية ودولة المنصور العباسية

رأينا فيما مضى من الأبحاث السابقة عن حياة الإمام الصّادق عليه السلام كيف كانت دعوته الإصلاحية في ذلك العصر الذي سادت فيه موجة عاتية من الفتن، عندما انطلقت الأفكار، وعصفت الآراء، واختلف الناس فيما بينهم، فتكالبوا على حب الذات والظفر، وتطاحنوا على الغلبة والتفوق، فانتشرت البدع والخرافات، وظهرت الفرق التي تتشح بثوب الإسلام، ولكنها تتجافى عن تعاليمه وتتنكر لمبادئه، والتي هي في الواقع أشد ضرراً على الإسلام من سائر الملل والديانات الأخرى، وكان أعظمها عليه أولئك المندسين في صفوف المسلمين، وفيهم من يدّعي حب أهل البيت، والانتماء إليهم، ولكنهم خصوم لهم وأعداء لدعوتهم، لذلك كان اهتمامه عليه السلام في أمرهم عظيماً، وموقفه تجاههم حاسماً، فحاربهم حتى استأصل شأفتهم ومحى صفحتهم، وقد أشرنا لذلك فيما سبق.

ولكن المغرضين من خصوم الشيعة اتخذوا ذلك وسيلة للتحامل عليهم والوقيعة بهم، ووصفهم بكل ما هو شائن. وبمزيد الأسف أن يتأثر بتلك الدعاية كثير من ذوي الثقافة، فوقعوا في إثم الاتهام الكاذب، وتلبسوا بجريمة مخالفة الواقع.

وعلى أي حال: فقد كان الإمام الصّادق يدعو إلى الإصلاح بين الناس والتمسك بتعاليم الدين، والأخذ بمبادىء الإسلام لحياتهم الفردية والاجتماعية

والاقتصادية، ونبذ الآراء المختلفة، وترك الهوى والانقسام في الدين، والتفرق فيه، لتتكون وحدة إسلامية تجمع المسلمين تحت راية القرآن. وتعاليم الرسول ﷺ ولتحصل الأخوة العامة، والمساواة التامة، والتضامن الاجتماعي، وما يقوم عليه من تعاون وتعاطف، وتراحم وعدل وإحسان، وصدق وصبر، وبر وخير، إذ أن الدين الإسلامي قد وضع نظام المعاونة والمساعدة بين أفراده لتحصل بينهم روابط الإلفة والمحبة، وقد سبق جميع الأمم إلى هذا النظام.

كما قد رأينا فيما سبق كيف اعتزل الإمام الصّادق عليه السلام السياسة، ونهج منهج التماسك، واحتفظ بمكانته العلمية، وهو الشخصية التي كانت الأنظار متجهة إليه، والناس ينظرون إليه نظرة إجلال وإكبار، لما منحه الله تعالى من طهارة النفس، وشرف المحتد، وفضل القربى، وقوة العقل والإدراك، والفقه في الدين، مما جعل مدرسته يؤمّها طلاب العلم من مختلف الأقطار، على اختلافهم في النزعات والآراء، فكان يعلم الجاهل، ويرشد الضال، ويهدي إلى سواء السبيل.

وحسبنا دلالة على ذلك انتماء العلماء المبرزين لمدرسته من الذين أصبحوا رؤساء مذاهب، وأئمة فرق، وكلٌ معترف بفضله ومقرّ بعلمه، ومفتخر بانتمائه لمدرسته. حتى كان أهل العلم الذين سمعوا منه إذا رووا عنه قالوا: أخبرنا العالم(١).

سار الإمام الصّادق في طريق الدعوة الإصلاحية، وترك الجانب السياسي، ولم يزجّ نفسه في المعترك الذي عظم خطره، لأنه كان يرى أن الوقت غير ملائم. ولم يكن له من العدة والعدد ما يستطيع أن يخوض تلك المعركة، فأراد عليه السلام أن يخوض معركة علمية عن طريق التوجيه والإصلاح الاجتماعي، ليهذّب النفوس من نزعات الشر والفساد، وقد رأينا كيف كانت دعوته، وكيف أنه ألزم الدعاة إلى العمل بما يدعون إليه، كما عبر عن ذلك عليه السلام بالدعوة الصامتة.

وقد كان أثر هذه الدعوة إلى الإصلاح الذي كان ينشده الإمام الصّادق عظيماً على المنصور، فلم ترق في عينه، ولم تقع منه موقعاً حسناً، بل كان يظهر غضبه مرة ويكتمه أخرى، لأنه يعتبر إقبال الناس على الإمام الصّادق عليه السلام وانتشار دعوته إلى الإصلاح الاجتماعي، منهاج ثورة يستفحل خطرها، وليس في إمكانه إخمادها.

---

(١) تأريخ ابن واضح ج٣ ص١١٥.

لذلك بقي المنصور متخوفاً من آل علي بصورة عامة، ومن الإمام الصّادق بصورة خاصة، وكان يعبر عنه (بالشجى المعترض بحلقه) فلم يزل يقلّب وجوه الرأي ويدبر المكيدة وينصب له حبال الحيل، لكي يقع الإمام الصّادق في قبضته، فزوّر الكتب، وأرسل إليه من يستميله إلى الثورة، ولكنه عليه السلام كان أمنع من عقاب الجو، فحلّق بسداد رأيه وصفاء تفكيره، وعلمه بما وراء الحوادث، وكشف القناع عن تلك الدسائس، وفشل المنصور بما افتعله من تهم ليدين الإمام بذلك فيأخذه بحجة الخروج على الدولة التي ادعى أنها دولة شرعية، والخروج عليها خروج على سلطان الله.

ولقد استعمل المنصور تلك الخطط مع زعماء آل علي، فكانت هناك ثورات دموية استطاع المنصور أن يقضي بواسطتها على البقية من آل علي والظفر بهم، وقتلهم بصورة بشعة، بعد أن أذاقهم أنواع الأذى وضروب التنكيل والمحن، وهذا ما كان يخشاه الصّادق عليهم عندما أمرهم بالتريث وعدم الاستجابة للدعاة في الثورة. فلقد كان الإمام الصّادق يدفع عن نفسه سيف المنصور بكل السبل، ويحذر أن يصدر منه ما يتذرع به ذلك الطاغية للقضاء عليه، فكان يلح عليه بالطلب. ولولا معرفة المنصور ويقينه بأنه عليه السلام كان يتحاشى أن يجعل للسلطان سبيلاً عليه ويحذر ذلك كل الحذر لما كانت استدعاءاته التي قاربت العشرة لاستفزازه وإثارة حفيظته حتى لجأ إلى إساءة الأدب والتطاول عسى أن يبدر من الإمام ما يعتذر به المنصور لقتله. فهذا حال الإمام مع المنصور، وهو على هذا الاحتراز والاحتياط، فكيف يفعل المنصور بمن يشهر السيف؟ وكان المنصور يحج ولا يهمّه إلاّ أمر الإمام ووجوده، فرواية الربيع صاحب أبي جعفر: حججت مع أبي جعفر المنصور، فلما صرت في بعض الطريق قال لي المنصور: يا ربيع، إذا نزلت المدينة فاذكر لي جعفر بن محمّد، فوالله العظيم لا يقتله أحد غيري، احذر أن تدع أن تذكرني به. وفي إحدى المرات كان المنصور ينتضي سيفه شيئاً فشيئاً وهو يخاطب الإمام الصّادق[1].

وكانت الدولة العباسية منذ نشأتها الأولى تنتحل وراثة النبي، وأنهم أولى الناس بأمر الأمة، وهم الذين يمثلون الخلافة الراشدة، من العدل في الحكم، والاستقامة في

---

(1) مهج الدعوات للسيد ابن طاووس ص١٨٤ ـ ١٩٤ ـ ١٩٥.

الأمر، والمحافظة على الإسلام، لأنهم حاولوا أن يصبغوا دولتهم بصبغة الدين، وأن يظهروا أمام الناس بمظهر المحافظة على مبادئه، وأن سلطانهم هو سلطان الله، ويحكمون بأمره، ويسيرون على هدى الرسول، فمنحوا أنفسهم ألقاب الحماية عن الدين، وإمامة المسلمين، بدعوى احتفظوا بها لأنفسهم وأنهم يسيرون بالعدل، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأنهم أهل بيت النبي وورثته، إلى غير ذلك من الألفاظ الفارغة التي يحاولون من ورائها الاستئثار بالحكم، وعدم السماح لأي أحد أن يصيح في وجوههم مطالباً بحق، أو يرفع صوته استنكاراً لسوء السيرة التي ساروا عليها في حكمهم، لأنهم يريدون أن يبقى الناس مسخّرين لإرادتهم، وأداة طيّعة لهم، إذ يزعمون أن الله أوجب حقهم، وأن سلطانهم هو سلطان الله، وأنهم جاءوا لخير الناس ولا يعملون إلاّ الصالح، ويتجنّبون الضار.

فالخليفة عندهم ليس ملكاً على دولة سياسية فقط، بل هو ملك على دولة دينية تحيط به رسوم دينية، ويريد أن يعتبر إماماً للمسلمين، وأنه خليفة رسول الله ﷺ في قيادة الأمة قيادة روحية، وأن الله منحه منزلة خاصة، فبينما كان الأمويون يتقلّدون الصولجان ويلبسون الخاتم رمزاً على الحكم، وعلى أنهم ورثوا ذلك عن أسلافهم، ترى العباسيين يتقلدون البردة، التي كان الرسول ﷺ منحها لكعب بن زهير، عندما مدحه بقصيدة (بانت سعاد) وكان الخليفة العباسي الأول هو أول من سن هذا التقليد، ثم ورثها الخلفاء من بعده، فكانوا يلبسون هذه البردة في حفلات البيعة وغيرها، حتى في الحفلات الحربية، وكثيراً ما كانوا يلبسونها في صلاة الجماعة. يقول هلال الصّابي عند كلامه عن جلوس الخلفاء وما يلبسونه في المواكب: الذي جرت به العادة أن جلوس الخليفة على كرسي مرتفع، ويكون لباسه السواد، ويجعل على رأسه عمامة سوداء رصافية، ويتقلد سيف النبي ﷺ ويلبس خفاً أحمراً، ويضع بين يديه مصحف عثمان رحمه الله، الموجودة في الخزائن، وعلى كتفيه بردة النبي ﷺ[1].

وبهذه الصفة والمظاهر الخلاّبة استطاعوا التأثير على مشاعر الكثير من الناس، لينظروا إليهم نظرة التقديس والاعتقاد بأنّهم ورثة النبي وهم أحق بالأمر، وهنا يعتبر كل من أنكر أعمالهم أو خرج عليهم خارجاً على المسلمين، متعدٍ لحدود الله.

---

(١) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص١٩٣.

وسرى هذا الاعتقاد في نفوس البسطاء منذ نشأة الدولة، يحدثنا الطبري: أن وفداً دخل على أبي العباس السفاح يقدمهم غيلان بن عبد الله الخزاعي، فقال للسفاح: أشهد أنك أمير المؤمنين وأنك حبل الله المتين، وأنك إمام المتقين. فقال السفاح: حاجتك يا غيلان. قال: أستغفرك. قال السفاح: غفر الله لك.

والواقع أن نجاح العباسيين في مهمة هذه الإدعاءات كان بحاجة إلى بذل الجهد وإلى دعاية قوية، لتركيز هذه العقيدة، ووضع كثير من الأساطير حولها، وادعاء البشارة بالدولة الجديدة التي تكفل للناس سعادتهم، وتقضي على الشقاء الذي عاناه الناس في العهد الأموي، وقد قام علماء السوء في الدولة ـ وهم الذين تمكن الضعف من نفوسهم وأخذ الطمع بزمام عقولهم ـ بنشر تلك الدعوة الكاذبة، وحياكة الأساطير وخلق الأحاديث، حتى استمر الاعتقاد يعمل عمله في نفوس كثير من الناس، فأصبح من لا يؤمن بشرعية السلطان العباسي زنديقاً، وهذا ما نعبر عنه بالزندقة السياسية التي وسم بها كثير من الناس الذين استنكروا على العباسيين سوء سيرتهم، وأدركوا على مرور الأيام وتكرر الحوادث زيف ما يدّعونه من العدل الشامل والحكم العادل، وأنهم ورثة النبي وأهل بيته، وهم أحق الناس بالأمر وأولاهم بالحكم، فكان المنكرون لتلك الأوضاع يتهمون بالزندقة، ويكون نصيبهم القتل، لأنهم عارضوا سلطان الله وخليفة رسوله، مع تظاهره بما يخالف ذلك، وأنهم أبعد ما يكون عن اتباع أوامر الإسلام، ففي عهد السفاح سفكت دماء بريئة، وهدمت قرى آمنة، واستبيحت حرمات وهتكت أعراض.

وكان القواد يستعملون مادة الفناء والإبادة اتباعاً لأمر الخليفة العباسي وهي: من اتهمته فاقتله[1]. ولمّا ولّي يحيى بن محمّد العباسي على الموصل من قبل أخيه السفاح، بعد أن أنكروا أعمال عامله السابق وهو محمّد بن صول، فلما دخل يحيى بلد الموصل لم يظهر لأهله شيئاً ينكرونه، ولم يعترضهم فيما يفعلونه، ثم دعاهم فقتل منهم اثني عشر رجلاً، فنفر أهل البلد وحملوا السّلاح فأعطاهم الأمان، وأمر فنودي من دخل الجامع فهو آمن، فأتاه الناس يهرعون إليه، فأقام يحيى الرجال على أبواب الجامع، فقتلوا الناس قتلاً ذريعاً أسرفوا فيه، فقيل أنه قتل عشرين ألفاً ممن لهم

---

(١) الطبري ج٩ ص١٤٢ حوادث سنة ١٣٢هـ.

خواتيم، فلما كان الليل سمع يحيى صراخ النساء اللاتي قتل رجالهنّ فسأل عن ذلك فأخبر به، فقال: إذا كان الغد فاقتلوا النساء والصبيان. ففعلوا ذلك واستباح الزنوج نساء البلد، فلما فرغ يحيى من قتل أهل الموصل ركب في اليوم الرابع وبين يديه الحراب والسيوف المسلولة، فاعترضته امرأة وأخذت بعنان دابته فأراد أصحابه قتلها فنهاهم عن ذلك فقالت له: ألست ابن عم رسول الله؟ أما تأنف للعربيات المسلمات!. فأمسك عن جوابها، وسيّر معها من يبلغها مأمنها، فلما كان من الغد جمع الزنوج للعطاء وكان عددهم أربعة آلاف فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم[1] إلى غير ذلك من الأمور التي جرت في عهده على قلة أيامه.

أما في عهد المنصور فكان الأمر أدهى وأمر، فقد واجه الناس في عهده ألواناً من الظلم، مما لا عهد لهم به من قبل، كما صبّ جام نقمته على العلويين، فعاملهم معاملة لم يشهد التاريخ مثلها، وطاردهم وضيّق عليهم الدنيا، وأذاقهم أنواع الأذى وضروب المحن، فلم يرحم كبيراً، ولم يعطف على صغير، ولم ينكسر لصوت ثاكل ونياح امرأة.

ومع هذا كله فقد كان يسبغ على أعماله أبراد القداسة، وينتحل السلطان الشرعي، وأن ما يفعله بإرادة الله وإذنه، فقد صرح بذلك على المنبر في عدة مواطن، وكما جاء في بعض خطبه يوم عرفة بقوله:

أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فيئه أعمل بمشيئته، وأعطيكم بإذنه، فقد جعلني الله عليه قفلاً، إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم فيئكم فتحني، وإذا شاء أن يقفلني أقفلني، فارغبوا إلى الله أيها الناس، وسلوه في هذا اليوم الشريف أن يوفقني للصواب، ويسددني للرشاد، ويلهمني الرأفة فيكم، والإحسان إليكم[2].

فأنت ترى أن المنصور يحاول أو يوجه الناس إلى الاعتقاد بشخصيته، اعتقاداً يجعلهم يؤمنون بصحة أعماله، لأنها تصدر بمشيئة الله، إذ جعله والياً للأمر، حاكماً للأمة، ليركز بذلك عرشه الذي بات يضطرب فوق تيارات المؤاخذات، بل الثورات

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٥ ص٢١٢ حوادث سنة ١٣٥هـ.

(٢) الطبري ج٩ ص٣١٠.

المتلاحقة، لسوء سيرته التي لا تتناسب مع واقع ادعائه، ومع علمه بأن قلوب أكثر الناس مع أهل البيت، كما أزعجه موقف الإمام الصّادق وانتشار ذكره.

ويمكننا أن نعتبر ما يصدر منه من تقريب العلماء والتظاهر بالزهد، والإصغاء للوعظ، إنما هي أساليب يستعين بها على تحقيق أهدافه، وليجعل في شخصيته ثقة للناس الذين تخدعهم المظاهر، وتسحرهم الألفاظ، كما يحاول أن يهدم ثقة الناس بمن هو أولى به من أهل البيت.

فنراه يصغي لوعظ عمرو بن عبيد، ويبكي أمامه من خشية الله كأنه لم يرتكب جريمة، خشية من الله وخوفاً من عقابه. ويحاول أن يؤثر على عمرو بن عبيد فلا يميل إلى ما يدعوه محمّد بن عبد اللّه الثائر الذي هزّت ثورته أركان سلطانه وجعلت المنصور لا يهدأ ليلاً ولا نهاراً. فقد بلغه أن محمّد بن عبد اللّه، النفس الزكية، كتب إلى عمرو بن عبيد ـ رئيس المعتزلة ـ يستميله، فضاق المنصور بذلك ذرعاً وأرسل إلى عمرو بن عبيد، فلما وصله أكرمه وشرّفه، وقال: بلغني أن محمّد بن عبد اللّه كتب إليك كتاباً، قال عمرو: قد جاءني كتاب يشبه أن يكون كتابه، فقال المنصور: فبم أجبته؟

قال عمرو: لم أجبه إلى ما أراد. ثم قال المنصور لعمرو: عظنا يا أبا عثمان.

فقال عمرو: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ، إرم ذات العماد... إلى آخرها.

فبكى المنصور بكاءً شديداً كأنه لم يسمع تلك الآيات إلاّ الساعة.

ثم قال عمرو: اتق الله قد أعطاك الدنيا بأسرها، فافتد نفسك ببعضها، واعلم أن الأمر الذي صار إليك إنما كان بيد غيرك ممن كان قبلك، ثم أفضى إليك. إلخ.

فعاد المنصور إلى بكائه حتى كادت نفسه تفيض[1].

هكذا أظهر المنصور نفسه أمام رجل من العلماء، وزعيم من زعماء الطوائف بمظهر السلطان الخائف من الله، الباكي من خشيته، لتنطبع في ذهنه صورة عن إمام المسلمين، فيبلغها أصحابه حتى تبرد عزائمهم عن مؤاخذته، والإنكار على أعماله، وقد نجحت حيلة المنصور، فلم يلتحق عمرو بثورة النفس الزكية، كما أن المعتزلة لم

---

(١) حور العين لأحمد بن فارس ص٢١٠.

يخرجوا عليه ولم يستنكروا أعماله حتى مات عمرو بن عبيد.

وعلى أي حال: فالمنصور لم يزل يقلّب وجوه الرأي، ويدبر الحيل في القضاء على الإمام الصّادق، ولا تروق له تلك الشهرة العلمية التي اكتسبتها مدرسته، ولذلك حاول أن يحصر الفتوى بمالك بن أنس عندما رفع منزلته، ونوه باسمه، ونادى مناديه (أن لا يفتين إلاّ مالك) كما طلب من مالك أن يضع كتاباً يكون هو المرجع في الفقه رسمياً، فلا يمكن الرجوع لغيره، أو الأخذ عن أحد سواه.

وإنما خص مالكاً بذلك دون غيره من علماء المدينة لعلمه بانحرافه عن آل علي، وأن نزعته نزعة أموية.

واستمر المنصور في تقديم العلماء ليسند عرشه الذي أصبح مهدداً من خطر الدعوة لأهل البيت، وعدم الاعتراف له بأهلية الخلافة، لما اتصف به من العسف والجور، ومخالفة أحكام الإسلام.

وقد اشتهرت كلمة الإمام الصّادق عندما سُئل عمن يصلح للخلافة فأجاب عليه السلام:

«إن الإمامة لا تصلح إلاّ لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن المحارم، وحلم يملك به غضبه، وحسن الخلافة على من ولّي حتى يكون له كالوالد الرحيم».

وهذه الكلمة تجرّد المنصور من أهلية الخلافة، لعدم اتصافه بواحدة منها، فلا يمكن الاعتراف له بذلك.

كما أنه عليه السلام منع الناس من الترافع إلى الحكام، ووصفهم بأنهم حكام جور وأئمة ضلال، فحكمهم غير نافذ، وطاعتهم غير لازمة، وأن الركون إليهم، والعمل لهم ضياع للحق ومعاونة على الظلم.

وكان يؤنب أصحابه الذين يتعاملون مع رجال الدولة، وينهاهم عن ذلك. قال لعذافر: «بلغني أنك تعامل أبا أيوب والربيع[1] فما حالك إذا نودي بك في أعوان الظلمة».

---

(١) أبو أيوب هو سليمان بن مخلد كاتب المنصور والمقرب عنده، ثم قلّده الدواوين والوزارة وأصبحت له عند المنصور منزلة عظيمة دون سائر الناس، حتى قالت العامة إنه قد سحر أبا جعفر، وبعد ذلك غضب عليه ونكبه وصادر أمواله، وذلك في سنة ١٥٣هـ.

أما الربيع بن يونس: فهو الربيع بن يونس بن أبي فروة مولى كيسان، كان من أعيان الدولة وتولى نفقات المنصور، ثم قلّده الوزارة وقلّد ابنه الفضل بن الربيع الحجابة.

ونهى عن العمل لهم حتى في بناء المساجد وكراية الانهر، وعندما سئل عن ذلك أجاب بقوله: «ما أحب أن أعقد لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاء».

ويقول عليه السلام: «العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء».

ويقول عليه السلام: «من أعان ظالماً على مظلوم لم يزل الله عليه ساخطاً حتى ينزع عن معونته».

ولم يهن على الدولة كل هذه الأمور التي تقف في سبيل تحقيق أهدافها، كما عظم عليها اختصاص مدرسة الإمام بطابع الانفصال عن الدولة، فلم يمكنهم التدخل في شؤونها، أو تكون لهم يد في توجيهها، وتطبيق نظامها، ولم تكن بينها وبين الدولة رابطة من روابط الإلفة والانسجام، ومعنى ذلك عدم الاعتراف بشرعية الدولة، وأنها دولة جائرة لا يمكن الركون إليها، وإن تظاهر الحكام بالمحافظة على المبادىء الإسلامية، فتلك أمور سياسية لا واقع لها في نفس الواقع.

وكما قدمنا بأن الصراع بين مدرسة الإمام وبين الدولة يشتد على مر الأيام، وقد اتخذت أنواع الأساليب، واستعملت شتى الحيل لإخضاع تلك المدرسة لأوامر الدولة، والسير في ركابها، فلم تنجح الوسائل ولم تنفع الأساليب. وهكذا يستمر هذا الصراع عبر الدهور ومدرسة الإمام الصادق عرضة لأخطار النقمة، وهدفاً لسهام الاتهام، وقد رمي المنتمون إليها بالزندقة والإلحاد والخروج على سلطان الله، وذلك طبقاً لمنطق السياسة.

ولعل الرجوع إلى ما كتبناه سابقاً عن هذا الصراع، يغني عن الإسهاب في ذلك، فإنا قد ذكرنا هناك عوامل انتشار المذاهب، ومقومات شخصيات رؤسائها، وأن العامل الوحيد هو قوة السلطان ومناصرة الدولة، كما أشرنا إليه في البحث عن عوامل المذهب الحنفي، والمالكي، والشافعي. والآن نشرع في ذكر المذهب الرابع، وهو الحنبلي، فلننتقل بك أيها القارىء الكريم إلى دراسة صحيحة عن حياة رئيس المذهب الحنبلي ـ الإمام أحمد بن حنبل ـ لنرى على ضوء المعلومات التاريخية، مقومات شخصيته، وعوامل انتشار مذهبه، والله المسدد للصواب.

الإمام أحمد بن حَنبَل
نسَبُه وَنشأتُه

تمهيد:

نحن الآن مع الإمام أحمد بن حنبل، الإمام الرابع من أئمة المذاهب الإسلامية، وقد حاولنا قدر الجهد والإمكان التعرف على كل واحد من أئمة المذاهب الأربعة، في دراسة مجردة عن التحيز، كما أهملنا الكثير من الزوائد التي لا نلمس من ورائها شيئاً جوهرياً عن شخصية كل واحد منها، فهناك كثير من الأساطير التي وضعت في ظروف خاصة، حول تكوين تلك الشخصية، وإبرازها في إطار الإعجاب، والخروج عن حدود الواقع.

وقد ظهر لنا فيما سبق أسباب إيجاد تلك الأمور، كما وقفنا على عوامل انتشار مذاهبهم، دون غيرهم، ولنا فيما سبق من البحث في الأجزاء السابقة كفاية عن الإطالة، وقد بقيت أمور تتعلق في البحث عنهم ستأتي في الأجزاء القادمة إن شاء الله.

أما الإمام أحمد فإن دراسة حياته لا تخلو من الأساطير والحكايات والأطياف، التي جعلت في جدول تكوين شخصيته، مما لا تتفق مع الواقع، ولا يمكن قبولها من دون تمحيص، ولا بدّ لنا من الوقوف على الحقيقة من طريق البحث العلمي، لا التخمين والوهم.

كما أن هناك آراء وعقائد نسبها الحنابلة إلى أحمد بن حنبل، وهي بعيدة عن الاعتقاد الصحيح، وقد عدّ هذا من ابتلاء أحمد في أصحابه، لأن نسبتها إليه مما يثير الشك والريب في أمره.

وفي عصر أحمد ماجت المدن الإسلامية بعناصر مختلفة، من أمم متباينة الأرومة، وترجمت العلوم الفلسفية من اللغة السريانية واليونانية وغيرهما، وامتزجت مدنيات وتصادمت حضارات.

ومن طبيعة العصر الذي تكثر فيه المنازعات، ويضطرم باحتكاك المدنيات المختلفة بعضها ببعض، أن تظهر فيه آراء وأخلاق منحرفة، ويكثر الشذوذ الفكري والشذوذ الاجتماعي، حتى يصبح الشاذ هو الكثير، والغريب هو المألوف.

فالبحث عن شخصية علمية عاشت في ذلك العصر، المائج بالاختلاف وشذوذ الآراء، لا بد من أن يتصف بصعوبة أمام الباحث الذي يتجرد عن العاطفة، والغلو والتحيز.

ونحن الآن ندرس حياة الإمام أحمد على ضوء الواقع، تاركين وراءنا كثيراً من زوائد المغالين، لأنها لا تكشف عن ناحية من نواحي تلك الشخصية التي يتطلبها البحث المتجرد عن العاطفة.

نسبه:

هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن قصي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار.

هكذا ساق ابن الجوزي هذا النسب في مناقب أحمد[1] وكذلك ذكره القاضي ابن أبي يعلى في الطبقات[2].

وقد اختلف في مازن بن ذهل بن شيبان، فبعضهم يقول: مازن بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة. وبعضهم يقول: مازن بن شيبان بن ثعلبة. ولا يهمنا هذا الاختلاف فقد ورد نسبه بهذه الصورة، ولكن المهم في ذكر هذا النسب على طوله، والاختلاف فيه، أنه جعل من مناقب أحمد ومن مؤهلاته العلمية.

يقول ابن رجب بعد ذكر هذه السلسلة: وهذا النسب فيه منقبة عميمة، ورتبة من وجهين: أحدهما حيث تلاقى في نسب رسول الله ﷺ: لأن نزاراً (وهو الجد السابع والعشرين لأحمد) كان له ابنان أحدهما مضر ـ ونبينا من ولده ـ والآخر ربيعة وإمامنا أحمد من ولده.

---

(١) المناقب ص١٦.

(٢) طبقات الحنابلة ج١ ص٤.

والوجه الثاني أنه عربي صحيح النسب، وقد قال رسول الله ﷺ: أحب العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي.

فهذا النسب على ما ذكروه هو أول مناقب أحمد، لأن الاتصال برسول الله ﷺ وإن بعدت الواسطة، واتسعت الدائرة، هو منقبة عظيمة، ولعل ذلك هو أحد المرجحات عندهم لمذهبه، ولزوم اتباعه، ونحن لا ننكر أن الاتصال برسول الله شرف عظيم، ولكننا نستغرب هذا التمحل في الاستدلال والتكلف في الإثبات، لأن هذا أمر لا يختص به أحمد بن حنبل، فهو شامل لملايين من البشر، فلا يمكن جعله مرجحاً لمذهبه، وعدّه في مناقبه.

وأما الوجه الثاني وهو كونه عربياً ليكون الحديث المذكور كالبشارة بأحمد ولزوم محبته، مع أن هذا الحديث قد نص كثير من الحفاظ على وضعه، ومع صحته فليس من الصحيح الاستدلال به، وجعله من مقومات شخصية الإمام أحمد.

ولادته ونشأته:

ولد أحمد في المشهور في ربيع الأول من سنة ١٦٤ من الهجرة النبوية، وقد ذكر ذلك ابنه صالح وحكاه ابنه عبد الله أيضاً، قال: سمعت أبي يقول: ولدت في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة، وذلك في عهد المهدي. واختلفت الروايات في محل ولادته، فقيل أنه ولد ببغداد، إذ جاءت به أمه حملاً من مرو، وقيل إنها ولدته في مرو، والأول أشهر كما تضافرت الروايات في ذلك، وقد روي عنه أنه قال: قدمت بي أمي حملاً من خراسان، وولدت سنة ١٦٤هـ.

وفي رواية أخرى أنه قال: قدم بي من خراسان وأنا حمل، ولم أر جدّي ولا أبي.

وروى صالح العجلي عن أبيه: أن أحمد بن حنبل سدوسي بصري، من أهل خراسان، ولد ببغداد ونشأ بها.

وقول العجلي إنه بصري: لأن شيبان كانت منازلها بالبصرة وباديتها، وكان أحمد إذا جاء إلى البصرة صلى في مسجد مازن، وهم من بني شيبان، فقيل له في ذلك، فقال: مسجد آبائي[1].

---

(١) المناقب لابن الجوزي ص٢١.

أما أمه فيقال أنها شيبانية أيضاً، واسمها صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيباني، وقيل أنها ليست بشيبانية.

وعلى الجملة فقد نشأ أحمد يتيماً في حجر أمه، وهي التي تولت تربيته، لأنها دخلت به بغداد حملاً فولدته، وليس له كافل غيرها. وما يقال من أنه كان يعيش على عقار أبيه في بغداد، فهو قول بغير مستند.

ولا نعلم هل أن عمه تولى شؤونه لأنه كان حياً عندما قدمت أم أحمد من خراسان، وكان عمله إيصال الأخبار إلى الولاة بأحوال بغداد، ليعلم بها الخليفة إذا كان غائباً عنها، وكان أحمد يتورع عن حملها، وإيصالها إلى الولاة.

ونشأ أحمد ببغداد وتربى بها تربيته الأولى، وكانت بغداد حاضرة العالم الإسلامي، وعاصمة دولته، وهي تموج بأناس اختلفت مشاربهم، وتخالفت مدربهم، وزخرت بأنواع المعارف والفنون، وكانت تموج برجال العلم وحملة الحديث، ففيها القراء والفقهاء والمتصوفة، وعلماء اللغة، والفلاسفة، والمحدثون، وقد توجه إلى علم الحديث، بعد أن قرأ القرآن وتعلّم اللغة والكتابة، ولقد قال هو في ذلك: كنت وأنا غلام أختلف إلى الكتّاب، ثم اختلفت إلى الديوان وأنا ابن عشرة سنين.

ثم اتجه إلى طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة، وبعد ذلك رحل إلى الأقطار، وكتب عن شيوخها، وأخذ عن الشافعي واتصل به اتصالاً وثيقاً، وقويت بينهم عرى المودة، ولازمه مدة إقامته في بغداد، وكان يعترف للشافعي بعلو المنزلة ويقول: ما من أحد مس بيده محبرة وقلماً إلاّ وللشافعي في عنقه منة. وقال: إنه لم يبت مدة ثلاثين سنة إلاّ ويدعو للشافعي ويستغفر له.

وكان أول تلقيه العلم على القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة المتوفى سنة ١٨٢هـ فقد قال: أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف(١).

وابتدأ رحلاته لتلقي الحديث في سنة ١٨٦هـ فرحل إلى الحجاز، والبصرة واليمن، والكوفة، وكان يود أن يرحل إلى الري ليستمع إلى جرير بن عبد الحميد، ولم يكن قد رآه في بغداد، ولكن أقعده عن الرحلة إليه عظيم النفقة عليه في هذا السبيل، وكان يقول: لو كان عندي تسعون درهماً لخرجت إلى جرير بن عبد الحميد

(١) المناقب لابن الجوزي ص٢٢.

لأنه كان في ضنك عيش، يتحمل في سبيل ذلك المتاعب، إذ لم يكن له كافل من أسرته كما تقدم بيانه. كما أنه لم يتمكن من الرحلة إلى الشافعي في مصر إذ وعده بذلك.

نبوغه وشهرته:

ونبغ أحمد في مجتمعه، وعرف بين أقرانه، ولكن شهرته لم تكن تبلغ حدها الذي بلغت إليه في آخر حياته إلاّ بعد وقوع المحنة، فهو في ذلك المجتمع الذي كان يزخر برجال العلم وحملة الحديث لم يكن مبرزاً، أو له شهرة تفوق غيره، لذلك لم يكن في أول الأمر معدوداً في قائمة الرجال من أهل العلم الذين تهتم الدولة في موافقتهم بمشكلة خلق القرآن، أو يسوؤها مخالفتهم، فقد جاء في كتاب المأمون الأول ذكر جماعة من العلماء، ولم يكن أحمد فيهم، ولكنه ورد بعد ذلك.

ومهما يكن من أثر الأسباب في شهرة أحمد فإن ذلك لا يتعدى حدود صموده في الامتناع عن القول بخلق القرآن، وكما سيأتي أنه لم يكن الوحيد في ذلك، فإن جماعة من العلماء، قد وقفوا موقفاً مشهوداً، وقد تحملوا في سبيل ذلك الأذى، وقد تجرعوا الغصص؛ وكانت خاتمة المطاف أن لقوا حتفهم في السجون، وتحت ضرب السياط وحد السيوف.

وبطبيعة الحال أن يكون ذلك الصراع العقائدي قد فسح المجال لمعرفة الأشخاص الذين يبرزون في هذا الميدان، ومن حسن الحظ أن يبقى أحمد إلى عهد المتوكل، الذي غير مجرى الحوادث بمحاولته جلب الرأي العام الذي كان مستاءً من تصرفات المعتزلة، وشدة سطوتهم، وتنكيلهم بمن يخالف عقيدتهم، فكان انتصار المتوكل للمحدثين قد أحدث انقلاباً في سياسة الدولة وتوجيه الرأي العام، فانهزم المعتزلة، وانتصر المحدثون، وسطع نجم أحمد في ذلك الأفق المتلبّد بسحب الخلافات والمنازعات العقائدية، واتجه الرأي العام إلى تعظيمه، والالتفاف حوله، وقد أبدى المتوكل عنايته التامة في احترام أحمد وتعظيمه، وأصبحت له منزلة سامية، وظهر أتباعه بمظهر العظمة. كما ظهر المتوكل بمظهر محيي السنة، وراحوا يمجّدون عرشه ويبالغون في مدحه، ولم يقصّر هو في رعايتهم والاعتماد عليهم، فبدأت موجة من الكبت والاضطهاد كانت رد فعل لما وقع فيه المعتزلة الذين كانوا يدعون إلى حرية

الرأي واحترام العقل، لكن السلطة عدلت بهم إلى السياسة التي كانوا يستنكرونها، وكان بطل هذا الدور القاضي أحمد بن أبي دؤاد.

وكان المتوكل يصل أحمد بصلات سنية، ويعطف عليه، وعين له في كل شهر أربعة آلاف درهم[١] وطلبه إلى سامراء ليتبرك برؤياه، وينتفع بعلمه، فامتنع أحمد ولكنه أجبر على الموافقة.

وكان الأمراء يدخلون عليه ويبلغونه سلام الخليفة، ولا يدخلون عليه حتى ينزعون ما عليهم من الزينة، وقد بلغ من تقدير المتوكل لأحمد واحترامه أنه أصبح لا يسمع عليه وشاية، ولا يصغي لقول خصم فيه، إلاّ الاتهام بالميل للعلويين، فإن المتوكل كان يأخذ في ذلك على الظنة والتهمة، وقد تمكن الوشاة بأن يبلغوا المتوكل عن أحمد بالميل للعلويين، وأنه يبايع لرجل منهم سرّاً، فكبست داره وفتشت أدق تفتيش[٢]. فلم يجدوا ما يدل على ذلك.

وبهذا برأت ساحته من هذه التهمة، التي كادت أن تطيح بكيانه، وتعود عليه بالعذاب والنكال، شأنه شأن غيره من العلماء، الذين أخذوا بهذا الاتهام الذي ليس من ورائه إلاّ القتل بدون رحمة.

صلته بالمتوكل:

وكان المتوكل يوصي الأمراء باحترام أحمد وتقديره، ولما مرض أحمد كان المتوكل يبعث إليه برسله يستعلم أخباره، ويسأل عن حاله، ولما مات اهتم أمير البلد بأمره، وتولت رجال الدولة القيام بواجب تجهيزه، وحضر من بني العباس نحو مائة رجل مع سائر القواد والأعيان والوزراء، فكان يوماً مشهوداً.

والذي يظهر من سيرة أحمد أنه كان منكمشاً من المتوكل، غير مرتاح إلى مودته، فهو لا يقبل هديته إلاّ خوفاً، ويقال أنه كان يفرّقها سراً على المحتاجين، ولا يجلس على بساطه، ولم يظهر عليه ذلك أو يتظاهر بالمخالفة، ولكنه كان يذهب إلى صحة خلافته وإمامته ولزوم طاعته.

---

(١) تاريخ ابن كثير ج١٠ ص٢٣٩.

(٢) مناقب أحمد لابن الجوزي ص٣٦.

لم تكن عناية المتوكل هذه بالإمام أحمد لدافع ديني، فهو أبعد الناس عن تعاليم الدين، ولكنها أمور سياسية دعت لذلك، وظروف خاصة اقتضت إظهار هذه المودة، لأن العامة أصبح لهم تعلق بشخصية أحمد، الأمر الذي جعل الدولة تلحظ ذلك، وتقيم له وزناً، كما أنه كان يساير الدولة.

ولقد كانت سياسة الدولة العباسية إبان قوتها تؤكد طابعها الديني، فقربت إليها العلماء والفقهاء والمشتغلين بالعلوم الإسلامية، وكانت ترقب أيضاً حركات فريق منهم، ممن يؤدي اشتهارهم بالعلم والورع إلى تعلق الجماهير بهم، إذ قد يؤثر ذلك في مركز الخلفاء، وقد يزعزع ولاء المسلمين لهم، فكان الخلفاء يهتمون بما يجري في حلقات الفقهاء والمحدثين، ويراقبون من يتعرّض منهم بالنقد للنظام القائم، وقد يبطشون به، كما رأينا في اهتمام المنصور بأمر الإمام الصادق ومحاولة القضاء عليه عندما وقف عليه السلام موقف المعارضة لحكمهم، ووصفهم بحكام جور، وأئمة ضلال، وأمر بمقاطعتهم والابتعاد عنهم.

وكذلك فعل الرشيد مع الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فقد اهتم بأمره وسجنه وعذّبه، حتى مات في السجن مسموماً.

وقد رأينا ما لقيه أحمد نفسه من تعذيب وتنكيل عندما خالف رأي الدولة، وأنه امتحن ونكل به، كما ستقف عليه قريباً، وبعد أن اتحد الرأي وتغير الوضع، فلم يكن من أمر أحمد ما يخشى منه على الدولة، بل كان يؤيد موقفها ويشد أزرها، فقد جاء في إحدى رسائله: والسمع والطاعة للأئمة، وأمير المؤمنين، البر والفاجر، ومن ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه، ورضوا به، ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة، وسمي أمير المؤمنين، والغزو ماضٍ مع الأمراء إلى يوم القيامة، البر والفاجر، وقسمة الفيء، وإقامة الحدود إلى الأئمة ماضٍ ليس لأحد أن يطعن عليهم ولا ينازعهم، ودفع الصدقات إليهم جائزة نافذة، من دفعها إليهم أجزأت عنه، براً كان أو فاجراً، وصلاة الجمعة خلفه، وخلف كل من ولّي، جائزة إمامته، ومن أعادها فهو مبتدع تارك للآثار، مخالف للسنة، ليس له من فضل الجماعة شيء، إذ لم ير الصلاة خلف الأئمة من كانوا، برّهم وفاجرهم، فالسنة أن تصلي معهم ركعتين، وتدين بأنها تامة، لا يكن في صدرك شك، ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين، وقد كان الناس اجتمعوا عليه، وأقرّوا له بالخلافة بأي وجه كان بالرضا أو بالغلبة، فقد شق عصى

المسلمين، وخالف الآثار عن رسول الله ﷺ فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية[1].

فأقوال أحمد ناطقة نطقاً صريحاً بأنه يرى لزوم الطاعة لمن يتولى الأمر، لا فرق بين البر والفاجر، فطاعة الكل لازمة حتى في أمر محض للمعصية، ولكن يؤخذ من أفعاله الخاصة كما أسندوا إليه ذلك، أنه لا يرى الطاعة في المعصية، أما أقواله فهي عامة لا تخصيص فيها، ولم يكن له موقف معارضة أو دعوة إلى مخالفة.

ويقول محمَّد أبو زهرة: لم يؤثر عنه أنه عمد إلى دعوة الأمراء والحكام إلى الامتناع عن الظلم وإلى توجيههم إلى إقامة السنة، بل كان موقفه سلبياً، لا يسايرهم فيما هم فيه، ولا يدعوهم بالقول إلى غيره، فهل كان ناشئاً من أنه كان يمتنع عن الخوض في السياسة، ومعالجة شؤونها، وترك الأمر والدعوة إلى السياسة الصالحة للصالحين من أهل الخبرة فيها[2].

وقد عرض القضاء على أحمد بن حنبل، فرفض قبوله، وذلك أن الشافعي رشحه للقضاء في اليمن عندما سافر أحمد إليها، للاستماع من عبد الرزّاق بن همام، وكان الشافعي هناك يتولى بعض وظائف الدولة، فامتنع أحمد عن القبول، ولم يكن امتناعه لعدم شرعية الدولة، فهو يرى أن الخلافة في ذلك الوقت صحيحة، ويجب الطاعة لمن يتولى الأمر براً كان أم فاجراً، وذلك بخلاف امتناع الإمام أبي حنيفة عن تولي القضاء في عهد الدولة الأموية، وقد ضربه ابن هبيرة ليرضخه على قبول هذه الوظيفة فامتنع؛ وفي أيام المنصور عرض عليه القضاء فرفضه حتى سجنه المنصور وضربه بالسياط، وكان ذلك سبب موته كما يقال لأن أبا حنيفة لا يرى صحة خلافة العباسيين والأمويين، وكان رأيه عدم المعاونة معهم.

ولكن الإمام أحمد يرى لزوم المعاونة ووجوب الطاعة، فامتناعه عن قبول القضاء يبعث على التساؤل، ولعل هذه القضية لا أصل لها.

---

(١) مناقب أحمد لابن الجوزي ص٧٥ ـ ٧٦. وانظر رسالة أخرى برواية الأصطخري. طبقات الحنابلة ج١ ص٢٦ و٢٧.

(٢) مالك ص١٥٢.

الإمام أحمد بن حَنبَل في محنته

المحنة:

ظهرت مقالة القول بخلق القرآن في بداية القرن الثاني للهجرة، فقد أعلن بها الجعد بن درهم، وقتل من أجلها. قتله خالد بن عبد الله القسري حاكم العراق.

وبقيت هذه الفكرة في طي الكتمان، ولم يكن لها أي أثر أو تطور في التأريخ، إلى زمن هارون الرشيد عندما نبغت المعتزلة، ونشطت الحركة الفكرية، وثاروا على الجمود، ولم يستطيعوا أن يجاهروا في ذلك، لأن هارون الرشيد كان يحارب هذه الفكرة، حتى أنّه قال يوماً: بلغني أن بشر المريسي يقول: القرآن مخلوق. والله والله لئن أظفرني الله به لأقتلنه قتلة ما قتلها أحد. ولمّا علم بشر بذلك ظل متوارياً أيام الرشيد[1].

وقال بعضهم: دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق، والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المقتول، فقال الرشيد: قتلته لأنه قال: القرآن مخلوق[2].

واستمرت المسألة في دور الكتمان والتستر إلى زمن المأمون، ولما ظهرت الفلسفة. وأثيرت مسائل حول صفات الله من المتكلمين والمعتزلة، كان أهمها مسألة كلام الله، وخلق القرآن، وهي أبرز شيء في تأريخ المعتزلة، لما اتصل بها من أحداث تاريخية وسياسية.

وكما قلنا أن المسألة وجدت في آخر الدولة الأموية، وبقيت تنمو ويدور حولها الجدل، وتتسع فيها المناظرة، وتؤلّف فيها الكتب، حتى جاء عصر المأمون فإنه كان

---

(١) النجوم الزاهرة ج١ ص٦٤٧.

(٢) تاريخ ابن كثير ج١ ص٢١٥.

يميل إلى حرية الفكر، وبذلك استطاع المعتزلة أن يواصلوا نشاطهم، فقد كانوا يتحرّقون إلى نشر أصولهم، فوجدوا في المأمون بغيتهم، ونظروا إليه بعين الإكبار؛ لأن الإصلاح الذي يرومونه يتحقق على يديه، فالتفوا حوله، إذ وجدوا فيه ركناً شديداً.

فكان مذهبهم أقرب المذاهب إلى نفس المأمون، فقربهم وأصبحوا ذوي نفوذ في القصر، وكان من أظهرهم ثمامة بن الأشرس، وأحمد بن أبي دؤاد، وكان هو حامل لوائهم إذ رجحت كفته وتولى القضاء، وبقيت هذه المسألة من سنة ٢١٨هـ إلى ٢٣٤هـ وسميت في التاريخ بالمحنة، وهي في الأصل الخبرة.

واستغل المعتزلة الموقف، واغتنموا فرصة استمالة المأمون والمعتصم والواثق لهم، فأطلقوا أيديهم في السياسة، فنكلوا بخصومهم، وأذاقوا الناس العذاب، إذ هم لم يقولوا بخلق القرآن، وأقاموا ضجة ليس لها مثيل من محاكم تقام، ويعرض فيها على العلماء والقضاء القول بخلق القرآن، فمن لم يقل عذب وأهين، وسمى المؤرخون هذه الفترة بمحنة خلق القرآن، وكانت سطوتهم ـ أي المعتزلة ـ في ذلك بلغت الذروة، فلما بلغوها أخذوا ينحدرون عنها.

وجاء المتوكل فرأى ناراً تقد في كل مكان، وامتحانات ومحاكمات، وضرباً، ونفياً، وتشريداً، والرأي العام ساخط على هذه الحالة، ومن لم يقل بخلق القرآن وتحمّل العذاب عدّ بطلاً.

فأراد الخليفة المتوكل أن يحتضن الرأي العام، وأن يكتسب تأييده، فأبطل القول بخلق القرآن، وأبطل الامتحانات والمحاكمات، ونصر المحدثين(١).

اتسع الأفق أمام المعتزلة، وواصلوا نشاطهم العلمي والسياسي، عندما عزل يحيى بن أكثم عن منصب قاضي القضاة سنة ٢١٧هـ وتولى مكانه ابن أبي دؤاد، وهو كبير المعتزلة وفي رعيلهم الأول، وفي سنة ٢٠٦هـ مات يزيد بن هارون، وكان هو ويحيى بن أكثم يحولان بين المأمون وبين إظهار القول بخلق القرآن، فقد جاء في تصريح للمأمون قال فيه: (لولا يزيد بن هارون(٢) لأظهرت القول بخلق القرآن).

---

(١) ظهر الإسلام ج٤ ص٨.

(٢) يزيد بن هارون أبو خالد الواسطي، المتوفى سنة ٢٠٦هـ كان من الحفاظ والعلماء المشهورين، قال علي بن المديني: ما رأيت رجلاً قط أشهر من يزيد بن هارون. وكان له مكانة في المجتمع وأثر في قلوب الناس.

فقال له بعض جلسائه: ومن يزيد بن هارون حتى يتقيه أمير المؤمنين؟

فقال المأمون: إني أخاف إن أظهرته يردّ عليّ، فيختلف الناس، فتكون فتنة، وأنا أكره الفتنة.

وبهذا يظهر أن الفكرة أخذت من المأمون مكانها من قديم، ولكنه كان يمانع من قبل خواصه، وهو يحذر الفرقة ويخشى الفتنة، وبعد أن وجد الطريق قد مهد لذلك أعلن رأيه، وحمل الناس بالقوة إلى تأييده واتباع رأيه، وبدأ بذلك في سنة ٢١٨هـ.

وعلى أي حال: فإن المأمون قد اشتد في امتحان الناس، ولزوم إقرار الفقهاء بما يراه، فجعل يرسل لعامله الكتب، وكانت تزداد شدة وعنفاً وتهديداً وتوعيداً، وكان من نتائج هذا الامتحان أن أجاب جميع الفقهاء لذلك، ولم يمتنع منهم إلاّ نفر قليل، منهم: أحمد بن حنبل، ومحمّد بن نوح، وأحمد بن نصر الخزاعي، وأبو يعقوب البويطي، ونعيم بن حماد. وهؤلاء قد ذاقوا حتفهم لامتناعهم عن الإجابة، وبقي أحمد ولم يكن حظه كحظهم من السجن والقتل، فتركزت شخصية أحمد، فكانت أنظار المحدثين تتجه إليه، بعد أن غلبوا على أمرهم، وأصبحوا مضطهدين أمام ذلك التيار الذي يحاول القضاء على الجمود الفكري، وإعطاء العقل حرية التصرّف في نصوص الشريعة، إن لم تكن مؤيدة بالكتاب أو صحيحة السند من السنّة.

أدوار المحنة:

كانت الخطوة الأولى التي خطاها المأمون ليضمن انصياع رعيته بالنحلة التي انتحلها، والرأي الذي ارتآه، أن دعى الفقهاء والمحدثين إلى أن يقولوا بمقالته في خلق القرآن، فيقولون إن القرآن محدث، كما يقول المعتزلة الذين اختار منهم وزراءه وصفوته، وجعلهم بمنزلة نفسه، فأرسل كتاباً إلى عامله على بغداد: إسحاق بن إبراهيم، وهو ابن عم طاهر بن الحسين، وقد أمره فيه أن يشخص لديه القضاة والمحدثين، وأن يمتحنهم في موضوع خلق القرآن. كما أرسل كتبه إلى الأقطار لحمل الناس على ذلك، وإرغامهم على الأخذ بهذه الآراء، واتباع الأمر الذي يدعو فيه إلى التفكير الحر، واستخدام العقل في فهم العقائد الدينية، كما تشير لذلك كتبه، وخاصة كتابه الأول الذي أطال فيه بذكر السبب الذي ألجأه إلى حمل الناس على القول بخلق القرآن، حيث قال فيه:

(إن خليفة المسلمين واجب عليه حفظ الدين وإقامته، والعمل بالحق في الرعية، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية، وسفلة العامة، ممن لا نظر له ولا روية، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاء بنور العلم وبرهانه، في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده، والإيمان به، ونكوب عن واضحات أعلامه، وواجب سبيله، وقصور عن أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفونه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكر والتذكّر، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين على أنه (أي القرآن) قديم أزلي لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه.

وقد قال الله عزّ وجلّ في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء، وللمؤمنين رحمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ فكل ما جعله الله فقد خلقه.

وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.

وقال عز وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾.

فأخبر أنه قصص لأمور قد أحدثها، وتلا به متقدمها، فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ وكل محكم مفصل، والله محكم كتابه ومفصله، فهو خالقه ومبتدعه، ثم همّ الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته، مبطل قولهم ومكذب دعواهم، يرد عليهم قولهم ونحلتهم، ثم أظهروا ذلك أنّهم أهل الحق والدين والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك على الناس، وغرّوا بهم الجهال، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب، والتخشع لغير الله، والتقشف لغير الدين، إلى موافقتهم عليه، ومواطأتهم على سيء آرائهم، تزيناً بذلك عندهم، وتصنعاً للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم).

ثم ذكر أن هؤلاء قد زكوا أمثالهم، وقبلت شهادتهم، ونفذت الأحكام بهم، مع دغل دينهم وفساد عقيدتهم:

(وأولئك شرّ الأمة، ورؤوس الضلالة المنقرضون من التوحيد، وأحق من يتهم

في صدقه وتطرح شهادته، ولا يوثق بقوله ولا عمله، فإنه لا عمل إلاّ بعد يقين، ولا يقين إلاّ بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد).

ثم قال: (فاجمع من بحضرتك من القضاة، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، وخلوص توحيده ويقينه، فإذا أقروا بذلك... فمرهم ومن بحضرتهم من الشهود على الناس، ومسألتهم من علمهم في القرآن وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث... واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله).

فكان هذا الكتاب خطوة أولى لامتحان الرعية في انصياعهم وتسليمهم لما ينتحله من هذه المقالة، التي يرى القيام بها واجباً عليه، لأن ذلك يستلزم تصحيح عقائد الناس، ولا سيما إذا تغلغل الفساد إلى أصل من أصول الدين، كالإشراك مع الله شيئاً آخر وهو القرآن، وبهذا لا يصح أن يستقضى من ضعفت عقيدته، ولا تقبل شهادته، إذ لا يوثق بمن ضعف إيمانه، ولا سلطان لمن لا تصح عقيدته وإشراك في توحيده، فهو غير مأمون من الظلم والحيف على الرعية والسلطان مسؤول عنه أمام الله.

وهذه الخطوة مقصورة على التوعيد والعزل عن القضاء، وعدم قبول شهادة من لا يتبع رأي الخليفة، فلا تعذيب ولا تنكيل، فهو يحاول الإصلاح بهذه الأمور، وإن تعذر ذلك فإنه يستعمل القوة.

وأرسل نسخة من الكتاب إلى مصر، وكان قاضيها يومئذ هارون بن عبد الله الزهري، فأجاب لذلك، كما أجاب الشهود المعتمدون، ومن توقف منهم أسقطت عدالته، وأبطلت شهادته.

وقد أصدر المأمون أمراً عاماً يأخذ الناس بالمحنة في كافة أرجاء المملكة الإسلامية، ففي سنة ٢١٨هـ ذهب المأمون بنفسه إلى دمشق، وربما كان في طريقه وهو ذاهب إلى حملته الأخيرة على آسيا الصغرى. وهناك في دمشق أشرف بنفسه على امتحان الفقهاء والعلماء، في مسائل حرية الإرادة، ووحدانية الذات الإلهية، أي العدل والتوحيد، وعنده أن عقيدة التوحيد تعد اختباراً يؤدي إلى القول بخلق القرآن، وبذلك سمى المعتزلة أنفسهم أهل التوحيد والعدل.

وسارع إسحاق بن إبراهيم والي بغداد إلى تنفيذ رغبة المأمون، فأحضر المحدثين والفقهاء والمفتين، وأنذرهم بالعقوبة الصارمة والعذاب العتيد إن لم يقروا بما يطلب منهم، وينطقوا بما سئلوا أن ينطقوا به، ويحكموا بالحكم الذي ارتآه المأمون من غير تردد أو مراجعة، فنطقوا جميعاً بما طلب منهم، وأعلنوا اعتناق ذلك المذهب.

ويعلل ابن كثير: أن إجابتهم كانت مصانعة، لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه، وإن كان له رزق على بيت المال قطع، وإن كان مفتياً منع من الإفتاء، وإن كان شيخ حديث ردع عن الاستماع[1].

وإليك ثبتاً في أسماء بعض من أجاب من العلماء منهم: يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٢هـ وهو من شيوخ أحمد بن حنبل والبخاري وغيرهم، وقال فيه أحمد: حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث.

وإسماعيل بن أبي مسعود البصري المتوفى سنة ٢٤٨هـ.

وعلي بن الجعد الهاشمي مولاهم أبو الحسن الجوهري المتوفى سنة ٢٣٠هـ وأبو حسان الزيادي المتوفى سنة ٢٤٢هـ وعلي بن مقاتل، وأبو معمر القطيفي المتوفى سنة ٢٣٦هـ وأحمد بن الجواري المتوفى سنة ٢٤٦هـ ومحمّد بن سعد كاتب الواقدي مؤلف الطبقات المتوفى سنة ٢٣٠هـ وأبو خيثمة زهير بن حرب المتوفى سنة ٢٣٤هـ وأبو مسلم المستملي، وأحمد بن الدورقي المتوفى سنة ٢٤٦هـ وقتيبة بن سعيد المتوفى سنة ٢٤٠هـ وبشر بن الوليد الكندي المتوفى سنة ٢٣٨هـ وأبو علي بن عاصم، وأبو شجاع، وإسحاق بن إسرائيل المتوفى سنة ٢٢٥هـ وسعدويه الواسطي المتوفى سنة ٢٢٥هـ ومحمّد بن حاتم بن ميمون المتوفى سنة ٢٣٥هـ وغيرهم: كابن العوام، ويحيى بن حميد العمري، وأبو نصر التمار. وقد ذكر ابن كثير منهم: النضر بن شميل. وهذا خطأ لأن ابتداء الدعوة إلى القول بخلق القرآن كانت في سنة ٢١٨هـ وكانت وفاة النضر في سنة ٢٠٣ أي قبل المحنة بخمس عشرة سنة.

---

(١) تاريخ ابن كثير ج١٠ ص٢٧٣.

امتحان أحمد بن حنبل:

جاء في كتاب المأمون الرابع لعامله إسحاق يأمره بأن يستدعي بشر بن الوليد، فإن أصر على الامتناع تضرب عنقه، وكذلك أمره في إبراهيم بن المهدي، وأما الباقون يعيد عليهم الكرة، فمن أبى منهم يحمل موثقاً إلى عسكر المأمون مع من يقوم بحفظهم.

فجمعهم إسحاق، وقرأ عليهم كتاب المأمون، فأجاب كافة الفقهاء ما عدا أحمد بن حنبل، وسجادة، والقواريري، ومحمّد بن نوح. فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم، فشدوا في الحديد، فلما أصبحوا أعاد امتحانهم، فاعترف سجادة بخلق القرآن فأطلقه. وبعد يوم آخر أجاب القواريري بأن القرآن مخلوق فأخلى سبيله، ولم يبق إلاّ أحمد بن حنبل ومحمّد بن نوح.

فكتب حاكم بغداد إلى المأمون بذلك، فأمره بأن يشخص إليه أحمد بن حنبل، ومحمّد بن نوح موثقين في الأغلال، ولما وصلا في طريقهما إلى قرب الأنبار، وفي أثناء الطريق جاءهم نعي المأمون.

فأما محمّد بن نوح فقد مات وهو عائد إلى بغداد بعد موت المأمون، ففك قيده وصلّى عليه أحمد بن حنبل، وبهذا ينتهي دور أحمد في عصر المأمون.

في عهد المعتصم:

لم تنقطع المحنة عن العلماء بوفاة المأمون، بل اتسع نطاقها، وزادت ويلاتها، وكانت شراً مستطيراً، فقد بلغ البلاء أشده، والمحنة أقصاها في عهد المعتصم، ثم في عهد الواثق.

لقد أوصى المأمون قبل وفاته أخاه المعتصم بالاستمساك بمذهبه في القرآن، ودعوة الناس إليه بقوة السلطة، وكأنه فهم أن تلك الفكرة دين واجب الاتباع، لا يبرأ عنقه منها من غير أن يوصي خلفه به فوصاه، فقد جاء في مطلع وصيته: هذا ما أشهد عليه عبد الله بن هارون الرشيد. أمير المؤمنين بحضرة من حضره، أشهدهم جميعاً على نفسه. أنه يشهد هو ومن حضره، أن الله عزّ وجلّ وحده لا شريك له في ملكه، ولا مدبر لأمره غيره، وأنّه خالق، وما سواه مخلوق، ولا يخلو القرآن أن يكون شيئاً له مثل كل شيء، ولا شيء مثله تبارك وتعالى. وجاء في وسط الوصية: يا أبا إسحاق

أدن مني (كنية المعتصم) واتعظ بما يرى، وخذ بسيرة أخيك في خلق القرآن[1].

فاشتد المعتصم في امتحان الناس، اتباعاً لسيرة أخيه وجرياً على نهجه الذي لم يتصف بصفة الرأفة، ولا يحول بينه وبين إيقاع المكروه بمن يريد أي حائل، مع ما فيه من النشاط العسكري، وقوة الإرادة والشجاعة التي امتاز بها، لم يكن رجل علم، بل رجل سيف لا يضعه عن عاتقه.

ولا حاجة لنا بذكر جميع أطراف المحنة، والمؤاخذة، ولكننا نشير لما يخص صاحبنا ـ أحمد بن حنبل ـ في ذلك، وموقفه في مجابهة تلك الشدة، وكيف نجا من سطوة المعتصم، وشدّه ابن أبي دؤاد، وهو كبير المعتزلة، وبطل هذه المعركة، فهل أجاب أحمد لما أراد الخليفة فخلى سبيله؟ أم أن المعتصم خشي وقوع الفتنة عندما يقتله إن أصر على الامتناع؟ أم أنه رق عليه وأعجب بشجاعته وثباته؟ وقد ذكر بعض المؤرخين أن أحمد أجاب في المحنة، وانقطع عن المناظرة كما سنبينه قريباً.

وعلى وجه الإجمال فإن المعتصم اشتد في امتحان الناس، وكان أحمد سجيناً عنده فأمر بحمله إليه، وقال حاكم البلد: إن الخليفة قد أقسم إلا أن يقتله بالسيف، وأنه سوف يضربه ضرباً بعد ضرب، وأنه سيزجّه في مكان مظلم لا يرى فيه النور. وسار أحمد إلى المعتصم، فلما دخل عليه وابن أبي دؤاد وأصحابه في حضرته، والدار غاصة بأهلها وبالقضاة والفقهاء من أتباع الدولة، ناظروه ولم يستطيعوا إخضاعه.

فقال ابن أبي دؤاد: يا أمير المؤمنين إنه ضال مضل مبتدع.

وبقي أحمد ثلاثة أيام يؤتى به كل يوم للمناظرة، عسى أن يرضخ لحكم السلطة، ولكنه استعصم ولم يجب، فلما يئس المعتصم منه أمر بضربه بالسياط، وقد اختلف في عددها، فقيل ثمانية وثلاثين، وقيل أقل من ذلك.

وعلى أي حال: فإن تعذيب أحمد لم يدم، بل أن المعتصم أطلق سراحه، وخلع عليه، وقد ذكر بعضهم أن السبب هو أن العامة قد تجمعوا على دار السلطان أو

---

(١) ابن حنبل لمحمّد أبو زهرة ص٤٧.

(٢) مقدمة كتاب أحمد بن حنبل والمحنة ص١٤ نقلاً عن هامش الكامل ج٣ ص١٣١ ـ ١٣٩.

همّوا بالهجوم، فأمر المعتصم بإطلاقه، وهذا لا يتمشى مع واقع الأمر، فإن المعتصم لم يعرف بضعف الإرادة، وكانت دولته في إبان عظمتها وقوة سلطانها، فلا يؤثر فيها استنكار عدد قليل من الناس، على ما يفعله من الأمور.

وذهب بعض إلى أن أحمد أجاب الخليفة، فأطلق سراحه كما جاء في رسالة الجاحظ التي تمثل وجهة نظر المعتزلة تمثيلاً صادقاً، فهي تنسب لأحمد انقطاعه عندما ناقشه أحمد بن أبي دؤاد بمحضر المعتصم، وأقام عليه أدلة من الكتاب وأدلة عقلية.

قال الجاحظ في رسالته مخاطباً أهل الحديث بعد أن ذكر المحنة والامتحان:

وقد كان صاحبكم هذا (أي الإمام أحمد) يقول: لا تقية إلاّ في دار الشرك، فلو كان ما أقر به من خلق القرآن، كان منه على وجه التقية، فلقد أعملها في دار الإسلام. وقد أكذب نفسه، وإن كان ما أقر به على الصحة والحقيقة، فلستم منه وليس منكم، على أنّه لم ير سيفاً مشهوراً، ولا ضرب ضرباً كثيراً، ولا ضرب إلاّ بثلاثين سوطاً مقطوعة الثمار، مشبعة الأطراف، حتى أفصح بالإقرار مراراً، ولا كان في مجلس ضيق، ولا كانت حاله مؤيسة، ولا كان مثقلاً بالحديد، ولا خلع قلبه بشدة الوعيد.

ولقد كان ينازع بألين الكلام ويجيب بأغلظ الجواب، ويرزنون ويخف، ويحلمون ويطيش[1].

هذا ما أردنا إثباته من هذه الرسالة التي تعتبر وثيقة معاصرة نجت مما أتلفه أهل السنّة من مؤلفات المعتزلة، وهي تدلنا على إقرار أحمد واعترافه بأن القرآن مخلوق، مؤيدة بما ذكره اليعقوبي في تاريخه.

وامتحن المعتصم أحمد بن حنبل في خلق القرآن، فقال أحمد: أنا رجل علمت علماً ولم أعلم فيه بهذا، فأحضر له الفقهاء وناظره عبد الرّحمٰن بن إسحاق وغيره، فامتنع أن يقول أن القرآن مخلوق، فضرب عدة سياط، فقال إسحاق بن إبراهيم: ولني يا أمير المؤمنين مناظرته. فقال: شأنك به.

فقال إسحاق: هذا العلم الذي علمته نزل به عليك ملك أو علمته من الرجال؟

فقال أحمد: بل علمته من الرجال.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٣ ص١٩٨.

فقال (إسحاق): شيئاً بعد شيء أو جملة؟

قال: علمته شيئاً بعد شيء.

قال (إسحاق): فبقي عليك شيء لم تعلمه؟

قال أحمد: بقي علي شيء لم أعلمه.

قال إسحاق: فهذا مما لم تعلمه، وعلمكه أمير المؤمنين.

قال أحمد: فإني أقول بقول أمير المؤمنين.

قال إسحاق: في خلق القرآن؟

قال أحمد: في خلق القرآن. فأشهد عليه وخلع عليه، وأطلقه إلى منزله.

هذا ما يستدل به على إجابة أحمد للمعتصم، من أقوال رجال هم أقرب الناس من عهده، وأطلعهم على حوادثه.

وبدون شك أن امتحان أحمد كان من أكبر العوامل لانتشار ذكره واتجاه الناس إليه، وأنه بعد أن استقر في بيته بعدما عفى عنه المعتصم، التف حوله جماعة للسماع منه في المسجد يدرس مدة بقاء المعتصم، وبعد وفاة المعتصم تقلد ولده الواثق الخلافة، وصار أحمد محدّثاً مشهوراً، فعظم ذلك على قاضي بغداد الحسن بن علي بن الجعد، فكتب إلى ابن أبي دؤاد[1] بذلك، فلما سمع أحمد امتنع من تلقاء نفسه.

ولما قام الواثق بالأمر، أعاد امتحان أحمد، ولكنه لم يتناوله بأذى، كما فعل المعتصم، واكتفى بمنعه من الاجتماع بالناس، فأقام أحمد مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق.

---

(١) أحمد بن أبي دؤاد بن جرير القاضي الايادي، المتوفى سنة ٢٤٠هـ كان من أقوى شخصيات عصره، وله الأثر الكبير في المجتمع، وكان من أصحاب واصل بن عطاء، فصار إلى الاعتزال.

وهو بطل الثورة الفكرية أيام المحنة، لمكانته في الدولة ونفوذه، وقد اتصل بالمأمون فأعجب به لعقله وحسن منطقه؛ فقربه وأصبح ذا نفوذ كبير في قصره، وكان من وصية المأمون للمعتصم: (وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك، فإنه موضع ذلك).

فلما ولي المعتصم جعل بن أبي دؤاد قاضي القضاة مكان يحيى بن أكثم، وكان كذلك قاضي القضاة في أيام الواثق، فلما ولي المتوكل أصيب بالفالج وأفل نجمه، فكانت مدة عظمة بن أبي دؤاد ونفوذه نحواً من ثمان وعشرين سنة، أي من سنة ٢٠٤هـ إلى سنة ٢٣٢هـ. وقد تابع ابن أبي دؤاد بنفسه معاقبة الناس المخالفين للمعتزلة، وأشرف على إنزال الأذى بهم.

ومن الحق والإنصاف أن نقول أن المحنة لم تكن مقصورة على أحمد بن حنبل، وإن كان تصوير موقفه قد أخذ يتسع ويتطور، وحيكت حوله أساطير وأقوال، فإن هناك من فقهاء ذلك العصر من كان موقفهم أشد من موقف أحمد في الامتناع، ومواجهة الخطر، ومكابدة المحنة، فقد استشهد الكثير منهم في سبيل معتقده، وقاوم حتى لقي حتفه، كما رأينا في موقف محمّد بن نوح وموته وهو مثقل بالحديد، وإليك ذكر البعض منهم:

شركاء في المحنة:

١ ـ أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي المقتول سنة ٢٣١هـ وهو مروزي من مدينة مرو، ينتمي لإحدى العشائر الكبيرة في قبيلة خزاعة، ومن تلامذة مالك بن أنس، روى عنه ابن معين ومحمّد بن يوسف الطباع.

وكان من أهل العلم، صلباً في عقيدته، قوياً في معارضته، وقال أحمد بن حنبل فيه بعد أن قتل: (لقد جاد بنفسه) كما أن له مكانة في المجتمع، فقد شغل أبوه وجدّه المناصب العالية في عهد الخلفاء العباسيين، كما اشتهر هو في الوقت نفسه بالأمانة، والعدالة بين المحدثين من أهل السنّة.

قبض عليه والي بغداد، وامتحنه الواثق وسأله: ما تقول في القرآن؟

قال: كلام الله ليس بمخلوق. فحمله أن يقول إنه مخلوق، فأبى.

وسأله عن رؤية الله يوم القيامة (والمعتزلة ينكرونها) فقال بها، وروى له الحديث في ذلك.

فقال الواثق: ويحك هل يُرى كما يُرى المحدود المتجسم، ويحويه مكان، ويحصره الناظر، إنما كفرتُ برب هذه صفته.

ولما أصر أحمد الخزاعي على رأيه، دعا الخليفة بالسيف المسمى الصمصامة وقال: إني احتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد رباً لا نعبده، ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها. ثم مشى إليه بنفسه، فضرب عنقه، وأمر به فحمل رأسه إلى بغداد، فنصب بالجانب الشرقي أياماً، ثم بالجانب الغربي أياماً، ولما صلب كتب الواثق ورقة وعلقت في رأسه: (هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك دعاه عبد اللّه الإمام هارون ـ وهو الواثق ـ إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه، فأبى إلاّ المعاندة، فعجل الله به إلى ناره).

ووكل بالرأس من يحفظه ويصرفه عن القبلة[1] وقد تنوقلت قصة خرافية فحواها: أن الرأس منذ أن نصب إلى أن دفن كان يتلو القرآن، وتضاهيها قصة أخرى تحكى: أنه بعد مقتل أحمد بن نصر بسنين طويلة وجد رأس أحمد بن نصر وجسده مطمورين في الرمال، لم يلحقهما أي أثر[2].

وقتل أحمد بن نصر في آخر شعبان سنة ٢٣١هـ وظل رأسه والجذع الذي نصب عليه معروضين للأنظار طيلة ست سنوات، ولا يعقل ترك رأس قتل لجريمة الكفر في نظر الدولة، يتلو القرآن طيلة هذه المدة، مما يدل على فضيحة تلك الدعوى، واستنكار الناس، ولكن الاندفاع العاطفي خلق حول كثير من الأشخاص أساطير وخرافات يكذبها الوجدان.

٢ ـ يوسف بن يحيى البويطي تلميذ الشافعي وخليفته على حلقة درسه، حمل من مصر إلى بغداد، مثقلاً بأربعين رطل من الحديد، وامتحن فأبى أن يقول إن القرآن مخلوق، وقال: والله لأموتن في حديدي هذا، حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم، ولئن دخلت عليه ـ يعني الواثق ـ لأصدقنه، ومضى على امتناعه حتى مات في سجنه سنة ٢٣٢هـ.

وكان وهو في الحبس يغتسل كل جمعة، ثم يخرج إلى باب السجن إذا سمع النداء، فيردّه السجان ويقول له: ارجع رحمك الله. فيقول البويطي: اللّهمّ إني أجبت داعيك فمنعوني[3].

٣ ـ عمرو بن حماد بن زهير التيمي مولى آل طلحة الكوفي، المتوفى سنة ٢١٩هـ وهو من شيوخ أحمد والبخاري ويحيى بن معين، وقد امتحن وعذّب لأجل امتناعه عن القول بخلق القرآن، لما بلغ كتاب المأمون إلى الكوفة، سئل عن فحواه فقال: إنما هو ضرب الأسواط، ثم أمسكهم بزر ثوبه، وقال: رأسي أهون عليّ من هذا. ولم يزل مصرّاً على امتناعه حتى مات سنة ٢١٩هـ.

٤ ـ نعيم بن حماد بن معاوية بن الحرث الخزاعي أبو عبد اللّه المروزي،

---

(١) تاريخ بغداد ج ٥ ص١٧٧. وطبقات الشافعية ج١ ص٢٧٠.

(٢) أحمد بن حنبل والمحنة ص١٦٦.

(٣) طبقات الشافعية ج١ ص٢٧٦. أحمد بن حنبل والمحنة ص٣٦٧.

المتوفى سنة ٢٢٨هـ كان من الذين ثبتوا في المحنة، ولم يجب إلى ما طلب منه عندما أمر الواثق بحمله من مصر، وامتحن في القول بخلق القرآن، فلم يقل أن القرآن مخلوق، وأصرّ على التمسّك بعقيدته، فزج في السجن إلى أن مات فيه.

ونعيم هذا هو الذي ألّف كتاباً في الرد على أبي حنيفة، وكان يعرف بوضع الحديث في تقوية السنّة في مقابل المعتزلة وغيرهم(١).

٥ ـ عفان بن مسلم بن عبد الله الأنصاري أبو عثمان البصري الصفار، أحد الأئمة الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة، وعنه أخذ أحمد بن حنبل والبخاري، وابن معين، وابن المديني، قال أبو حاتم: هو إمام ثقة متقن متين. وقال ابن عدي: عفان أوثق من أن يقال فيه شيء(٢).

نزل عفان بغداد، ونشر بها علمه، وحدّث عن شعبة وأقرانه، قال يحيى بن معين: أصحاب الحديث خمسة: ابن جريج، ومالك، والثوري، وشعبة.

قال حنبل: كتب المأمون إلى متولي بغداد يمتحن الناس، فامتحن عفان. وقال المأمون: فإن لم يجب عفان فاقطع رزقه. وكان له في الشهر خمسمائة درهم، فلم يجبهم عفان لذلك وقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾(٣).

فقطع المأمون رزقه الذي كان يتقاضاه منه، وثبت على عقيدته في المحنة، وقد غضب عليه أهل بيته، لأنه حرمهم بامتناعه مما يقيم أودهم، إذ كان يعول أربعين نفساً، ولكن ذلك لم يقع عنده موقع الاهتمام، وأصرّ على امتناعه، إلى أن مات سنة ٢٢٠هـ.

٦ ـ عبد الأعلى بن مسهر الغساني أبو مسهر الدمشقي، المتوفى سنة ٢١٨هـ عالم الشام وعظيم القدر عند أهلها، ولعظيم مكانته عندهم أنه كان إذا خرج اصطف الناس يقبّلون يده، وهو من رجال الصحاح الستة، ومن شيوخ أحمد بن حنبل، وابن معين. قال أحمد: ما كان أثبته. وقال ابن معين: منذ خرجت من باب الأنبار إلى أن رجعت لم أر مثل أبي مسهر. وقال أبو حاتم: ما رأيت أفصح منه وما رأيت أحداً في

---

(١) شذرات الذهب ج٢ ص٦٧.

(٢) الخلاصة للخزرجي ص١٣٧.

(٣) الشذرات ج٢ ص٤٧.

كورة من الكور، أعظم قدراً ولا أجل عند أهلها من أبي مسهر بدمشق، إذا خرج اصطف الناس يقبّلون يديه.

وقد ثبت عبد الأعلى ولم يجب في المحنة، فحبسه المأمون ببغداد في شهر رجب لمحنة القول بخلق القرآن، ومات في الحبس سنة ٢١٨هـ[1] وأما قول ابن سعيد أنه مات سنة ٢١٠هـ فهو خطأ، لأن المحنة ابتدأت في سنة ٢١٨هـ.

* * *

هؤلاء الرجال هم أشهر من وقف في ذلك المعترك العقائدي، الذي أثارته الدولة، وحملت الناس على الخضوع لإرادتها بالتهديد والتوعيد، والضرب بالسياط، والقتل والسجن. وإن من ظلامة التاريخ أن تخص هذه المحنة بأحمد بن حنبل فيكون فارسها المحنّك، وبطلها الأول، وموقفه الوحيد في نصرة الإسلام منذ بزوغ شمسه في الجزيرة العربية، ونحن لا ننكر موقفه ولا نبخس حقه، ولكنا نقول: أن هناك زوائد يجب أن تهمل، وأطياق وأساطير لا تزيد البحث إلاّ تعقيداً كما نشير إليها في المناقب.

أوضاع المحنة في عصر الإمام أحمد:

إن ما يمتاز به عصر أحمد هو وجود معسكرين متخاصمين كل يحاول أن ينال السبق والتغلب، ويحاول القضاء على الطرف الآخر، وهم: المعتزلة، وأهل الحديث. ولقد بلغ الصراع أشده، وقامت ثورة فكرية، وعاطفية، والسياسة من وراء ذلك تلعب دورها، وكان كل من المعسكرين، يأمل آمالاً واسعة، فالمعتزلة كانوا يأملون أن يصبح الاعتزال مذهب الدولة الرسمي، كما أن الإسلام دينها الرسمي، فإذا تم ذلك، انتشر الاعتزال تحت حماية الدولة، وأصبح أكثر المسلمين معتزلة، فوحدوا الله كما يوحدون، واعتنقوا أصول الاعتزال كما يعتنقون، وتحرر المسلمون في أفكارهم، فأصبح المشرّعون لا يتقيدون بالحديث تقيد المحدثين، وإنما يستعملون العقل، ويزنون الأمور بالمصالح العامة، ولا يرجعون إلى نص إلاّ أن يكون قرآناً أو حديثاً مجمعاً عليه، وتحرر عقول المؤرخين من المسلمين، فيتعرضون للأحداث الإسلامية، بعقل صريح، ونقل حر، فيشرحون أعمال الصحابة والتابعين، ويضعونها

(١) الخلاصة للخزرجي ص١٨٧. وشذرات الذهب ج٢ ص٤٤.

في نفس الميزان الذي توزن به أعمال غيرهم من الناس[1].

ولقد تدخلت الحكومة في مناصرة الد عتزلة، وأخذوا الناس إلى اتباع آرائهم بالقوة. ومر المعتزلة في نشاطهم أيام المأمون والمعتصم والواثق، وكان المحدثون يقفون أمام هذا الرأي بشتى الأساليب، وظهر القول بخلق القرآن وقدمه، فكانت هناك محنة عامة، فأجاب من أجاب وامتنع من امتنع، حتى جاء عهد المتوكل فأراد أن يستجلب الرأي العام، لأن المسألة بلغت إلى أقصى حد من العنف والشدّة، فأعلن إبطال ذلك في سنة ٢٣٤هـ وهدد من أثار هذه المسألة، وأظهر الميل للمحدثين، ووقف بجانبهم، فكانت لأصحابهم الغلبة، وفي ذلك العهد طلع نجم أحمد بن حنبل، وظهر اسمه لأنه بقية الرجال المبرزين الذين امتنعوا من الإجابة كما هو المشهور.

وانتصر المحدثون وشملهم المتوكل بعطفه ورعايته، وأشخص منهم مائتين، وكان فيهم: مصعب الزبيري، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وإبراهيم بن عبد الله الهروي، وعبد الله وعثمان ابنا أبي شيبة. فقسمت بينهم الجوائز، وأجريت عليهم، وأمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس، وأن يحدثوا بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية، وأن يحدثوا بالأحاديث في الرؤية. فجلس عثمان بن أبي شيبة في مدينة المنصور، ووضع له منبر واجتمع عليه الناس. وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في مسجد الرصافة، وقام القصاصون بنشاط واسع، ووضعت الأحاديث عن صاحب الرسالة ﷺ ونسبوا له زوراً أنه ﷺ قال: ما قيل من قول حسن فأنا قلته.

والتف الناس حول أنصار الدولة من المحدثين، واستمعوا إلى القصاص الآمنين من المؤاخذات، لأن الدولة لهم تحرسهم والظروف تساعدهم، وقد أنكر أحمد بن حنبل على ابن أبي شيبة، وعلى مصعب والهروي وضعّفهم، وكان انتصار المتوكل للمحدثين حدثاً هاماً، فقد أفل نجم المعتزلة، وسقطت دولتهم، وقام أهل الحديث باغتنام هذه الفرصة، فارتفع لواؤهم وتبوؤوا المكانة الرفيعة، وانتقموا من خصومهم المعتزلة، بل من كل من يتهم بالميل إليهم، وحدثت حوادث انتقامية بدون تدبر وترو، وهكذا شأن من انتصر بعد ظلم، واعتز بعد ذلة، فأوقع الحنابلة نقمتهم على كثير ممن لم يشارك المعتزلة في سلطانهم.

---

(١) ضحى الإسلام ج٣ ص١٩٦.

أما الإمام أحمد فقد علت منزلته عند المتوكل وقربه إليه وطلب منه أن يتولى تعليم ولي العهد، كما كان يتعاهده بالإكرام ويشيد بذكره ويتشوق لرؤيته، وطلب أن يزوره في عاصمة ملكه ليراه ويتبرّك بقربه.

وعندما لمس الناس هذا العطف من المتوكل الذي عُرف بقساوة القلب، والظلم والاستبداد وسفك الدماء، والانهماك في الشهوات، انهال الناس على أحمد من مناصريه وغيرهم، وازدحموا على بابه، وتهافت رجال الدولة وأعيانها عليه، فكان الطريق إلى بيته مزدحماً بالناس، وإذا سار في الطريق احتشدوا خلفه، وتحدثوا في الأندية والمجتمعات عن عظمته وعلو مكانته، ويأتون إليه بالمنامات المبشرة والحوادث الدالة على عظمته، فهذا يقول: إن أمي كانت مقعدة فأقسمت على الله باسم أحمد بن حنبل فعوفيت.

وهذا يقول: إن الجندي المسلم في غزو الروم أيام أحمد إذا رمى وذكر اسم أحمد أصاب، وإن الفارس الرومي المتحصن بدرعه وترسه وخوذته لا يصيبه السهم إلاّ إذا ذكر اسم أحمد.

ومن الغرائب: أنه زار تلميذه (بقي بن مخلد) في خان بأطراف بغداد، فازدحم الناس عليه، وبعد أن رجع أحمد تهافت الناس على ذلك الخان للتبرك بالمكان الذي جلس فيه، والمكان الذي وقف فيه، فربح صاحب الخان لكثرة الوفود وكتب ألواحاً وعلقها وفيها: هنا جلس أحمد، وهنا تكلم، وهنا وقف[1] إلى غير ذلك من الأمور التي شاعت في بغداد.

(١) الدولة العباسية لحسن خليفة ص١٤٧.

الإمام أحمد بن حنبل

حياته العلمية

مناقبه:

تقدم الكلام حول المناقب، والمؤلفين فيها، وأنهم جاءوا بأشياء لا واقع لها، وأنها من نسيج الوهم وتصوير الخيال، وأن أكثرهم اندفع وراء العاطفة العمياء، فحال بينهم وبين التفكير الحر والوصول إلى الواقع، حتى جعلوا من لا شيء شيئاً، ووضعوا أحاديث تدل بمنطوقها على عظمة الشخصية التي يحاولون إبرازها في إطار العظمة التي خرجت بهم عن نطاق البشرية، وارتفعت بها إلى أسمى رتبة من الكمال النفساني.

وقد تعرضنا في الأجزاء السابقة إلى ذكر بعض المناقب لرؤساء المذاهب الثلاثة بصورة إجمالية، وأنهم أوردوا أحاديث مبشرات عن النبي ﷺ كل ذلك نتيجة التطاحن الطائفي والصراع العقائدي.

أما الحنابلة فلم يأتوا بشيء من تلك المبشرات تصريحاً، لتكون في قائمة المرجحات للأتباع، ولكنهم استندوا إلى البعض منها تلميحاً، أو على وجه العموم دون تخصيص، ولكنهم امتازوا بوضع المنامات، وكثرة الأطياف، ولعل الكثير منهم جعلها هي المرجحة لاتباع أحمد واعتناق مذهبه، ويشهد لذلك قول أبي الخطاب المتوفى سنة ٤٧٦هـ:

وعن مذهبي إن تسألوا فابن حنبل به اقتدي ما دمت حياً أمتع
وذاك لأني في المنام رأيته يروح ويغدو في الجنان ويرتع[١]

---

(١) طبقات الحنابلة ج١ ص٤٧.

ويقول بعضهم: رأيت أبا الخطاب في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ فأنشد:

أتيت ربي بمثل هذا　　فقال ذا المذهب السديد
محفوظ ثم في الجنان حتى　　ينقلك السائق الشهيد

ومحفوظ هو اسمه وهو من كلواذ، وكان من شيوخ الحنابلة وأعيانهم، لما مات دفن إلى جنب قبر أحمد.

وكثرت المنامات التي تعطي بمؤداها صورة عن عظمة شخصية أحمد، وتعلق العامة به.

نقل ابن الجوزي عن علي بن إسماعيل أنه قال: رأيت أن القيامة قد قامت وكأن الناس قد جاءوا إلى موضع عند قنطرة، لا يترك أحد يجوز حتى يجيء بخاتم، ورجل ناحية يختم للناس ويعطيهم، فمن جاء بخاتم جاز، فقلت: من هذا الذي يعطي الخواتيم؟ فقالوا: هذا أحمد بن حنبل[(١)].

وقد سبقتهم الحنفية لهذه المنقبة في الاختراع، فقد ذكر المكي في المناقب أن أبا حنيفة رؤي على سرير في بستان، ومعه رق يكتب جوائز قوم، فسئل عن ذلك فقال: إن الله قبل عملي ومذهبي وشفعني في أمّتي، وأنا أكتب جوائزهم. فقيل له: إلى أي غاية يكون علمه حتى تكتب جائزته؟

فقال أبو حنيفة: إذا علم أن التيمم لا يجوز بالرماد[(٢)]. وناهيك ما لهذه الأمور من أثر في توجيه شعور العامة. وتعلق قلوبهم بمن يكون اتباعه نجاة من عذاب يوم القيامة، وما أكثر هذه الترغيبات في كتب المناقب، والتساهل في نقلها، كما أن المالكية يدّعون أن مالكاً يمنع منكراً ونكيراً عن مساءلة أصحابه في القبر. ونحن لا نطيل الحديث عن هذه الأمور، ولكننا نشير للبعض منها مما جُعل كالبشارة بأحمد وترجيح اتباعه.

ويقول الأسود بن سالم: أتاني آت وقال لي: يا أسود الله يقرأ عليك السّلام ويقول لك هذا أحمد بن حنبل يردّ الأمة عن الضلالة فما أنت فاعل؟ وإلا هلكت.

---

(١) ابن الجوزي ص٤٤٦.
(٢) مناقب أبي حنيفة للموفق ج٢ ص٢٠٧.

ويقول الحسن الصواف: رأيت رب العزة في المنام فقال لي يا حسن من خالف أحمد بن حنبل عذّب.

ويقول أبو عبد الله السجستاني: رأيت رسول الله في المنام، فقلت: يا رسول الله من تركت لنا في عصرنا هذا من أمتك نقتدي به في ديننا؟ قال: عليك بأحمد بن حنبل.

إلى غير ذلك من المنامات والأطياف التي وضعها أنصار المذهب الحنبلي، ليوجهوا الناس إليه في عصر طغى فيه تيار التعصب، وجعلت الطائفية أداة لأغراض الولاة، وستاراً تعمل من ورائه الأيدي العابثة التي تحمل معول الهدم وأداة التخريب.

وقد حبذوا القصّاصين في استخدام هذه الوسائل تحقيقاً للهدف، ونيلاً للغرض الذي يحصل من وراء ذلك. فتراهم يقومون في الأندية، والمساجد والطرقات، يحدثون بما يعضد المذهب وانتشاره، فهذا يقص عمن لا يعرفه: بأنه رأى في المنام بعض الصالحين في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي.

قيل: من وجدت أكثر أهل الجنة؟ قال: أصحاب الشافعي: فقال له: فأين أصحاب أحمد بن حنبل؛ فأجابه: إنك سألتني عن أكثر أهل الجنّة، وما سألتني عن أعلى عليين، أصحاب أحمد في أعلى أهل الجنة، وأصحاب الشافعي أكثر أهل الجنة.

ويقول الحسين بن أحمد الحربي: رأيت في المنام كأني في جماعة، وكأنا قد اعتقلنا، وكأني مكروب من الاعتقال، فإذا بقائل يقول: أي شيء أنتم؟ فقلت: حنابلة. فقال: قوموا فإن الحنابلة لا يعتقلون، وكأن قائلاً يقول: ما من أحد اشتمل على هذا المذهب فحوسب.

وعن يحيى الحماني قال: رأيت في المنام كأني في صفة لي إذ جاء النبي ﷺ فأخذ بعضادتي الباب، ثم أذن وأقام، وقال: نجا الناجون وهلك الهالكون. فقلت: من الناجون؟ قال: أحمد بن حنبل وأصحابه(١).

وبهذا النشاط استغل كثير من الكذابين وضع منامات لجلب قلوب العامة، كما

---

(١) المناقب لابن الجوزي ص٥٠٤.

تری من رواية الحماني، وهو المعروف بالوضع، والمشهور بالكذب، كما نص الحفاظ على ذلك.

وعلى وجه الإجمال فقد كثرت المنامات في شخصية أحمد مرة، وفي مذهبه أخرى، وفي قبره وفضل زيارته ثالثة. وبذلك انتشر لأحمد ذكر، ورفعه عن مستوى البشر.

قال أحمد بن حسين: سمعت رجلاً من خراسان يقول: عندنا أحمد بن حنبل يرونه أنه لا يشبه البشر، يظنون أنه من الملائكة. وقال رجل: نظرة عندنا من أحمد تعدل عبادة سنة.

وقال بعضهم: ما كنت أحب أن أقتل في سبيل الله ولم أصل على الإمام أحمد[1]. وآخر يقول يوم دفنه: دفن اليوم سادس خمسة وهم: أبو بكر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز، وأحمد بن حنبل.

إلى كثير من الأقوال التي صدرت عن أناس تأثروا بدعايات دعاة المذهب عندما سنحت الفرصة، ورجحت الكفة وانتصر أهل السنة على خصومهم، وفسح الطريق أمامهم لمناصرة السلطة لهم بكل شيء.

يحدثنا ابن الجوزي: أنه ذكر عند المتوكل بعد موت أحمد أن أصحاب أحمد يكون بينهم وبين أهل البدع (وهم غيرهم من الطوائف) الشر، فقال لصاحب الخبر: لا ترفع إليّ من أخبارهم، وشد على أيديهم، فإنهم وصاحبهم من سادة أمة محمد.

وكذلك كان لا يصغي لقول أي أحد في أحمد عندما رفع منزلته وقرّبه، يحدثنا ابن كثير أن بعض الأمراء أخبر المتوكل أن أحمد لا يأكل لك طعاماً، ولا يشرب لك شراباً، ولا يجلس لك على فراش، ويحرّم ما تشربه.

فقال المتوكل: والله لو نشر المعتصم، وكلمني في أحمد ما قبلت منه.

وكتب رجل للمتوكل: إن أحمد يشتم آبائك ويرميهم بالزندقة. فكتب المتوكل جواباً يتضمن عدم الاعتناء، وأمر أن يضرب الرجل الذي رفع إليه الرقعة مائتي سوط، فأخذه عبد الله بن إسحاق فضربه خمسمائة سوط. فقال له المتوكل: لم ضربته خمسمائة سوط؟

---

(١) المرجع السابق.

فقال: مائتين لطاعتك وثلثمائة لكونه قذف هذا الشيخ الصالح أحمد بن حنبل[1].

وكما ذكرنا أن المتوكل أمر القصاصين وبعض الفقهاء بالحديث عن الرؤية وما يتعلق بذم المعتزلة والجهمية، فلا غرابة أن يتقولوا على الشافعي أنه قال: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر. فقيل له: تطلق عليه اسم الكفر؟ فقال: نعم من أبغض أحمد بن حنبل عاند السنة، ومن عاند السنة، قصد الصحابة، ومن قصد الصحابة، أبغض النبي، ومن أبغض النبي ﷺ كفر بالله العظيم[2].

فيكون الناتج: من أبغض أحمد كفر بالله العظيم.

وبعد وفاته حدثوا عن رؤيتهم أحمد بن حنبل في النوم، عن إسحاق بن إبراهيم: رأيت أحمد بن حنبل في النوم فقلت: يا أبا عبد الله أليس قد مُتّ؟ قال: بلى. قلت: فما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ولكل من صلّى عليّ. قلت: يا أبا عبد الله فقد كان فيهم أصحاب بدع؟ قال: أولئك أجروا[3].

ولسنا نريد هنا استقصاء ما وضع في تلك الفترة حول شخصيته، ولا نطيل الحديث في ذلك بعد أن أظهر لنا التحقيق مدى ذلك النشاط الذي سار عليه كثير من رواة المناقب، فهي لا تعطي لنا صورة واقعية.

إننا نريد التعرف على تلك الشخصيات من طريق الواقع، وستقف على أقوال العلماء في الإمام أحمد كما وقفت على أقوالهم في غيره.

شيوخه:

ابتدأ أحمد في طلب العلم في سنة ١٧٩هـ أي بعد مضي خمس عشرة سنة، وأول شيخ تلقى عليه العلم هو: هشيم بن بشير السلمي المتوفى سنة ١٨٣هـ أبو معاوية الواسطي نزل بغداد وكان مدلساً.

استغرقت دراسة أحمد على هشيم ثلاث سنوات أو أكثر، وقد كتب من إملاء هشيم كتاب الحج نحو ألف حديث، وجانباً من التفسير والقضاء وكتباً صغاراً.

---

(١) البداية والنهاية ج١٠ ص٣٤٠.

(٢) طبقات الحنابلة ج١ ص١٣.

(٣) طبقات الحنابلة ج١ ص١١٠. وانظر مناقب أحمد لابن الجوزي ترى سيلاً من الأحلام والمنامات.

وقد رحل أحمد في طلب الحديث إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والعراق، وممن تلقى عليهم: سفيان بن عيينة، وإبراهيم بن سعيد، ويحيى بن سعيد القطان المتوفى سنة ١٩٨هـ ووكيع المتوفى سنة ١٩٦هـ وابن علية المتوفى سنة ١٩٣هـ وابن مهدي المتوفى سنة ١٩٨هـ وعبد الرزّاق بن همام المتوفى سنة ٢١١هـ وجرير بن عبد الحميد المتوفى سنة ١٨٨هـ وعلي بن هشام بن البريد، ومعمر بن سليمان المتوفى سنة ١٨٧هـ ويحيى بن أبي زائدة، وأبو يوسف القاضي المتوفى سنة ١٨٢هـ وابن نمير المتوفى سنة ٢٠٦هـ والحسن بن موسى الأشيب المتوفى سنة ٢٠٩هـ وإسحاق بن راهوية المتوفى سنة ٢٣٨هـ وعلي بن المديني المتوفى سنة ٢٣٤هـ ويحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣هـ.

واجتمع أحمد بالشافعي، وأخذ عنه الفقه وأصوله، وبدأت علاقته بالشافعي في سنة ١٩٥هـ حين قدم الشافعي بغداد، ودام هذا الاتصال إلى سنة ١٩٧هـ وهي السنة التي توجه فيها الشافعي إلى مكة.

ولما كان أكثر هؤلاء المشايخ قد تعرضنا لترجمتهم في أبحاثنا المتقدمة في الأجزاء السابقة، فقد رأينا أن لا نتعرض لترجمتهم هنا.

أما الشخصية الأولى التي استقبلته ووجهته ونمّت نزوعه. وجعلت منه طالب سنّة، دؤوباً في طلبها، يجوب الأقطار، وهي شخصية هشيم بن بشير بن حازم المتولد سنة ١٠٤هـ والمتوفى سنة ١٨٣هـ.

كان هشيم بخاري الأصل، أقام أبوه في واسط، وكان طباخاً للحجاج بن يوسف، ولما انتقلت أسرته إلى بغداد كان يصطنع هذه الصناعة، وقد اشتهر بإعداد بعض أنواع السمك وإجادته، فلما نزع ابنه منزع العلم لم يكن ذلك مألوفاً في أسرته. وقد تلقى هشيم على بعض التابعين كعمر بن دينار والزهري، ومغيرة بن مقسم، وغيرهم.

وروى عنه شعبة وأحمد وعلي بن المثنى الموصلي وابن معين وخلق آخرون. وقد اختص به أحمد، مدة طويلة قبل أن يتصل بالشافعي، وبعد وفاة هشيم اتصل بالشافعي عندما التقى به في مكة، وأثار إعجابه به، فهو يعدّ الموجّه الثاني لأحمد بن حنبل، وكانت بينهما صلة ومودة.

وقد ذكرنا أن أول شخصية تلقى أحمد عنه العلم. هو أبو يوسف القاضي، ولكن لم تطل ملازمته له كما لازم هشيم والشافعي، فهما في طليعة شيوخه والموجهين له.

ولكن الغريب من الحنابلة هو جعل المشايخ تلاميذ، فقد ذكروا أن الشافعي وعبد الرزّاق بن همام وابن مهدي، ويزيد بن هارون، والحسن بن موسى الأشيب، وهم من شيوخ أحمد، كانوا من تلامذته.

وذكروا أن البخاري من تلامذة أحمد، وأنه روى عنه الحديث، مع أن البخاري لم يروِ له إلاَّ حديثاً واحداً في آخر كتاب الصدقات تعليقاً، وروى له مسلم وأبو داود في صحيحيهما، والباقون لم يخرجوا حديثه.

تلامذته:

كان لأحمد بن حنبل أصحاب كثيرون: منهم من روى الحديث عنه، ومنهم من روى الحديث والفقه، ومنهم من اشتهر برواية الفقه، وقد أحصاهم صاحب (المنهج الأحمد) في عدد كبير، ولعل الحنابلة يبالغون العدد، وأنه إذا ذهب قدر المبالغة يبقى بعد كثيراً ولا يكون قليلاً(١).

ويجب أن نلحظ هنا أمراً هاماً وهو:

أنه لا خلاف بين العلماء في عد الإمام أحمد من المحدثين، لكن الخلاف في عدّه من الفقهاء، فإن أكثرهم لم يذكره في عداد الفقهاء، فابن جرير الطبري لم يعد مذهبه في الخلاف بين الفقهاء، وكان يقول: إنما هو رجل حديث لا رجل فقه. وثارت عليه الحنابلة من أجل ذلك، ولم يذكره ابن قتيبة في كتابه (المعارف من الفقهاء)، وذكره المقدسي في المحدثين لا في الفقهاء، واقتصر ابن عبد البر في كتاب الانتقاء على الأئمة الثلاثة: أبي حنيفة ومالك والشافعي.

ومن هذا يتبين أن مدرسته الفقهية لم تكن ذات أثر في عصره، فمن الصعب تحديد نشاطها، وإعطاء صورة عن رجالها في عصره، وإنما اتسعت بعد مدة من وفاته. ولذلك كان موضوع درجه مع المحدثين، وتردد بعض الأعلام في عده من

(١) ابن حنبل لمحمّد أبو زهرة ص١٧٦.

الفقهاء، فأَحمد اعتنى جلّ العناية بالحديث، وصرف همّه إلى الاهتمام بالرواية والحفظ. فكان مسنده حصيلة عمره، حرر على يد غيره من تلامذته، ولقد كان شياع ذكره واحتلاله مكانته في بغداد لملابسات المحنة وأحداث القول بخلق القرآن.

وعلى أي حال: فإن أشهر أصحاب أحمد ورواة حديثه هم:

أحمد بن محمّد بن هاني المعروف بالأثرم:

المتوفى سنة ٢٦١ ـ ٢٦٢هـ الإسكافي، كان جليل القدر عظيماً عند الحنابلة، قال سعد بن عتاب: سمعت يحيى بن معين يقول: كان أحد أبوي الأثرم جنياً[1].

وقال إبراهيم بن الأصبهاني: أحفظ من أبي زرعة وأتقن.

وقد نقل الأثرم عن أحمد بن حنبل مسائل كثيرة، كجواز المسح على العمامة، وإغنائه عن المسح على الرأس، وأن قراءة القرآن بالألحان بدعة لا تستحسن، وأن المضمضة والاستنشاق ركنان من أركان الوضوء، وغير ذلك من المسائل كما ذكر ابن أبي يعلى.

أحمد بن محمّد بن الحجاج بن عبد العزيز المروزي:

المتوفى سنة ٢٧٥هـ وكان أخص أصحاب أحمد به وأقربهم إليه، وأدناهم منه، وهو الذي تولى غسله لما مات، وكان عنده أثيراً، وهو الذي روى كتاب الورع عن أحمد، ونقل الخطيب البغدادي تكذيب رواية كتاب الورع عن غيره.

وكان أحمد يثق بورعه وعقله، حتى أنّه كان يقول: كل ما قلتَ على لساني، فأنا قلته.

قال المروزي: قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: أترى أن يكتب الرجل كتب الشافعي؟ قال: لا. قلت: أترى أن يكتب الرسالة؟ ـ أي رسالةَ الشافعي ـ قال: لا تسألني عن شيء محدث. قلت: كتبتها؟ قال: معاذ الله.

وقال أيضاً: قال أحمد: لا تكتب كلام مالك، ولا سفيان، ولا الشافعي، ولا إسحاق بن راهويه، ولا أبي عبيد.

توفي المروزي في جمادى أولى سنة ٢٧٥هـ.

---

(١) طبقات الحنابلة ج١ ص٧٣.

إبراهيم بن إسحاق الحربي:

المتوفى سنة ٢٨٥هـ كان من أعيان تلامذة أحمد والمختص به، وقد لازمه مدة عشرين سنة، وأخذ عنه الحديث والفقه.

وصنف كتباً كثيرة منها: غريب الحديث، ودلائل النبوة، وكتاب الحمام، وسجود القرآن، وذم الغيبة، والنهي عن الكذب وغير ذلك.

صالح بن أحمد بن حنبل:

وهو أكبر أولاده، وقد تلقى الفقه والحديث عن أبيه، وعن غيره من معاصريه، ونقل إلى الناس كثيراً من مسائل الفقه التي أفتى فيها أبوه، وكان الناس يكتبون إليه من خراسان ليسأل أباه عن مسائل، فكان يرسل إليهم الأجوبة التي يتلقاها عنه، وكان قد تولى القضاء بأصبهان وطرسوس، ومات بأصبهان سنة ٢٦٦هـ.

عبد الله بن أحمد بن حنبل:

المتوفى سنة ٢٩٠هـ روى الحديث عن أبيه وعن كثيرين غيره، كعبد الأعلى بن حماد، وكامل بن طلحة، ويحيى بن معين، وأبي الربيع وغيرهم.

وهو الذي روى المسند وتممه كما سيأتي بيانه، وقد روى عن أبيه مسائل كثيرة، ومن غريب ما رواه عنه أنه قال: قبور أهل السنّة من أهل الكبائر روضة، وقبور أهل البدعة من الزهّاد حفرة. فساق أهل السنة أولياء الله، وزهاد أهل البدعة أعداء الله[1].

وهذا القول لا يمكن أن يصدر من رجل كأحمد بن حنبل واتصافه بالورع والتقوى، فإن مؤدى هذا القول إبطال العمل، وترك الواجبات، والتحلل من كل شيء، فإذا كان مرتكب الكبيرة هو ولي الله لأنه من أهل السنّة، فما معنى السنّة هنا، وكيف يصح ذلك؟ والعهدة على الرواة.

ولنكتفي بذكر هؤلاء من أصحاب أحمد الذين نقلوا فقهه كأنموذج. وسنتعرض لذكر آخرين عند حديثنا عن رجال المذهب والمؤلّفين فيه.

---

(١) طبقات الحنابلة ج١ ص١٨٤.

كتبه وآثاره:

لم يصنف أحمد بن حنبل كتاباً في الفقه يعد أصلاً يؤخذ من مذهبه أو يعتبر موجعه، ولم يكتب إلاّ الحديث، وقد ذكر العلماء أن له بعض كتابات في موضوعات فقهية منها: المناسك الكبير، والمناسك الصغير، ورسالة صغيرة في الصلاة قصيرة، ظهرت في عدة طبعات في القاهرة.

وهذه الكتابة هي أبواب قد توافر فيها الأثر، وليس فيها رأي أو قياس أو استنباط فقهي، بل اتباع لعمل، وفهم للنصوص.

فرسالته في الصلاة، والمناسك الصغير والكبير وهي كتب حديث، وإن كانت في موضوعات مما تناولها بالبسط والشرح(١).

وعلى الجملة فإن المشهور عن أحمد أنه كان يكره وضع الكتب التي تشتمل على التفريع والرأي. فقد قال يوماً لعثمان بن سعيد: لا تنظر إلى ما في كتب أبي عبيد، ولا فيما وضع إسحاق، ولا في ما وضع سفيان ولا الشافعي ولا مالك وعليك بالأصل.

قال ابن بدران الدمشقي: وحيث أن الإمام أحمد كان يحب توفر الالتفات إلى النقل، ويختار التواضع، استغل أوقاته في جمع السنّة والأثر وتفسير كتاب الله، ولم يؤلّف كتاباً في الفقه، غاية ما كتب فيه رسالة في الصلاة، كتبها إلى إمام صلى وراءه فأساء في صلاته، وهي رسالة قد طبعت ونشرت في أيامنا هذه، فعلم الله من حسن نيته وقصده فكتب عنه أصحابه من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سفراً انتشرت كلها في الآفاق.

ثم جاء أحمد بن هارون الخلال المتوفى سنة ٣٣١هـ فصرف عنايته إلى جمع علوم أحمد وإلى كتابة ما روي عنه، وطاف لأجل ذلك البلاد، وسافر للاجتماع بأصحاب أحمد، وكتب ما روي عنه بالإسناد وصنف كتباً في ذلك(٢).

والغرض أن أحمد كان ينهى عن التدوين لأقواله وآرائه، وقد صرح بذلك مراراً.

---

(١) أحمد بن حنبل ص١٦٨.

(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ص٤٦ ـ ٤٧.

روى ابن أبي يعلى: أن رجلاً قال لأبي عبد الله: أريد أن أكتب هذه المسائل. فقال له أحمد: لا تكتب شيئاً فإني أكره أن أكتب رأيي. وأحس مرة بإنسان يكتب ومعه ألواح في كمه. فقال أحمد: لا تكتب رأيي، لعلي أقول الساعة بمسألة، ثم أرجع غداً عنها. وقال: إنما كانوا يحفظون ويكتبون السنن إلاّ الواحد بعد الواحد الشيء اليسير منه، فأما هذه المسائل تدون وتكتب من ديوان الدفاتر فلست أعرف فيها شيئاً، وإنما هو رأي لعله قد يدعه غداً، وينتقل عنه إلى غيره... انظر إلى سفيان ومالك حين أخرجا ووضعا الكتب والمسائل كم فيها من الخطأ؟ وإنما هو رأي يرى اليوم شيئاً وينتقل عنه غداً والرأي قد يخطىء[1]. هذا ما علل به من كراهيته، ومرة أخرى أنه كان يرى أن كتابة الرأي محدثة أو بدعة.

مسند الإمام أحمد:

والمسند هو مجموعة كبيرة من جملة أصول السنّة يشتمل على أربعين ألف حديث تكرر منها عشرة آلاف، ومنها ثلثمائة حديث ثلاثية الإسناد (أي بين رواتها والرسول ثلاثة رواة).

وقد سئل أحمد عن حديث فقال: انظروه فإن كان في المسند، وإلاّ فليس بحجّة.

وكان أحمد قد شرع في جمع المسند فكتبه في أوراق منفردة، وفرقه في أجزاء متفرقة، فمات قبل تنقيحه وتهذيبه، فبقي على حاله. ثم أن ابنه عبد الله ألحق به ما يشاكله، وضم إليه من مسموعاته ما يشابهه ويماثله.

وكثر الخلاف حول المسند وأحاديثه، وجمعه وترتيبه، ورتبته من كتب الأسانيد.

وحكم ابن الجوزي على عدة أحاديث بالوضع، وقال الذهبي في سيرة النبلاء: فيه ـ أي مسند أحمد ـ جملة من الأحاديث الضعيفة مما لا يسوغ نقلها ولا يجب الاحتجاج بها، وفيه أحاديث معدودة شبيهة بالموضوعة، لكنها قطرة في بحر.

واعتذر ابن تيمية: بأن عبد الله بن أحمد قد زاد على مسند أحمد زيادات، وزاد

(١) الطبقات لابن أبي يعلى ج١ ص٣٩ و٢١٤.

أبو بكر القطيعي زيادات، وفي زيادات القطيعي أحاديث كثيرة موضوعة، فظن الجهال أنه من رواية أحمد، رواها في المسند وهذا خطأ قبيح.

وخالفه العراقي وادعى أن في مسند أحمد موضوعات وصنّف جزءاً مستقلاً.

وصنّف الحافظ ابن حجر كتاب: القول المسدد في الذب عن مسند أحمد، نقل فيه جزء شيخه العراقي حرفاً حرفاً، وأجاب عنه حديثاً حديثاً.

ورتبة مسند أحمد في الطبقة الثانية من كتب الأسانيد، ولا يلحق بالصحيحين وموطأ مالك، وقيل بعد الصحاح الخمسة، وبعد موطأ مالك، وصرح الخطيب وغيره بأن الموطأ مقدم على كل كتاب من الجوامع والمسانيد.

وقال ابن حزم: أولى الكتب الصحيحان، ثم صحيح سعيد بن السكن، والمنتقى لابن الجارود، ثم بعد هذه الكتب كتاب أبي داود، وكتاب النسائي، ومصنف الطحاوي، ومسانيد أحمد والبزار[1].

ونرى من المناسب نقل بعض ما ذكره الأستاذ محمود أبو رية في كتابه (أضواء على السنة المحمدية) بعد ذكره لرتبة بقية المسانيد: أما مسند أحمد خاصة فإننا ننقل بعض كلام أئمة المحدثين فيه مبتدئين بقول شيخ الإسلام وإمام الحنابلة بعد أحمد، ابن تيمية، وليس علينا بعد أن ننقل ما ننقل أن يغضب أحد ممن يدّعون في عصرنا أنهم من رجال الحديث، لأن الحق أحق أن يتبع، وما سوينا هذا الكتاب إلاّ لنرضي الحق وحده، فإذا ما غضب غاضب فليكن غضبه من الحق لا منّا.

قال ابن تيمية رحمه الله من كلام له عن أبي نعيم: أنه روى (أي أبو نعيم) كثيراً من الأحاديث التي هي ضعيفة، بل موضوعة باتفاق العلماء المحدثين أمثاله، يروون جميع ما في الباب لأجل المعرفة بذلك، وإن كان لا يحتج من ذلك إلاّ ببعضه، والناس في مصنفاتهم، منهم من لا يروي عمن يعلم أنه يكذب، مثل: مالك وشعبة وأحمد بن حنبل. فإن هؤلاء لا يروون عن شخص ليس بثقة عندهم، ولا يروون حديثاً يعلمون أنه عن كذاب، من الذين يعرفون بتعمد الكذب، لكن قد يتفق فيما يرونه ما يكون صاحبه أخطأ فيه، وقد يروي الإمام أحمد وإسحاق وغيرهما أحاديث تكون ضعيفة عندهم لاتهام رواتها بسوء الحفظ ونحو ذلك ليعتبر بها ويستشهد بها،

---

(١) قواعد التحديث للقاسمي ص٢٣٧.

فإنه قد يكون لذلك الحديث ما يشهد له أنه محفوظ، وقد يكون له ما يشهد بأنه خطأ، وقد يكون صاحبه كذاباً في الباطن، ليس مشهوراً بالكذب، بل يروي كثيراً من الصدق فيروى حديثه، وكثيراً من المصنفين يعز عليه ذلك على وجهه، بل يعجز عن ذلك. فيروي ما سمعه كما سمعه، والدرك على غيره لا عليه[1] وقال رحمه الله: وليس كل ما رواه أحمد في المسند وغيره يكون حجة عنده، بل يروي ما رواه أهل العلم، وشرطه في المسند أن لا يروي عن (المعروفين بالكذب عنده) وإن كان في ذلك ما هو ضعيف... وأما كتب الفضائل فإنه لم يقصد أن لا يروي في ذلك إلاّ ما ثبت عنده. ثم زاد ابن أحمد زيادات، وزاد أبو بكر القطيعي زيادات، وفي زيادات القطيعي أحاديث كثيرة موضوعة[2].

ويقول رحمه الله، أي ابن تيمية، يرد على من استشهد بحديث رواه أحمد وهو كذب: وبتقدير أن يكون أحمد روى الحديث، فمجرد رواية أحمد لا توجب أن يكون صحيحاً يجب العمل به، بل الإمام أحمد روى أحاديث كثيرة لتعرف ويبيِّن للناس ضعفها... وهذا الكتاب (مسند أحمد) زاد فيه ابنه عبد اللّه زيادات، ثم أن القطيعي الذي روى عن ابنه عبد اللّه (أي ابن أحمد) زاد عن شيوخه زيادات فيها أحاديث موضوعة باتفاق أهل المعرفة[3].

ثم ذكر بقية كلام ابن تيمية في كتاب التوسّل والوسيلة، وذكر قول ابن كثير في كتاب اختصار علوم الحديث ثم قال:

وأما قول الحافظ بن موسى محمّد بن أبي بكر المديني في مسند أحمد أنه صحيح فقول ضعيف، فإن فيه أحاديث ضعيفة بل موضوعة كأحاديث فضائل مرو، وعسقلان، والبرث الأحمر عند حمص، وغير ذلك، كما نبه عليه طائفة من الحفّاظ. ثم إن الإمام أحمد قد فاته في كتابه أحاديث كثيرة جداً، بل قد قيل إنه لم يقع له جماعة من الصحابة الذين في الصحيحين إلاّ قريباً من مئتين.

ثم قال: وقال بعض الناظرين في مسند أحمد: الحق أن في المسند أحاديث كثيرة ضعيفة، وقد بلغ بعضها في الضعف إلى أن أدخلت في الموضوعات.

---

(١) منهاج السنة ج١ ص١٥.

(٢) منهاج السنة ج٤ ص٢٧.

(٣) نفس المصدر ص٦١.

ولما قال الإمام أحمد: هذا الكتاب جمعته وانتقيته من ٧٥٠ ألف حديث، فما اختلف المسلمون من حديث رسول الله ﷺ فارجعوا إليه، فإن وجدتموه وإلاّ فليس بحجة. قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي: هذا القول منه على غالب الأمر، وإلاّ قلنا أحاديث قوية في الصحيحين والسنن والأجزاء ما هي في المسند! وقدر الله تعالى أن الإمام قطع الرواية قبل تهذيب المسند، وقبل وفاته بثلاث عشرة سنة، فنجد في الكتاب أشياء مكررة ودخول مسند في مسند، وسند في سند وهو نادر[١].

وللحافظ ابن الجوزي كلمة في كتابه (صيد الخاطر) بشأن المسند ننقلها بحروفها عن مقدمة الجزء الأول من المسند طبع دار المعارف. قال:

فصل: كان قد سألني بعض أصحاب الحديث هل في مسند أحمد ما ليس بصحيح؟ فقلت: نعم. فعظم ذلك على جماعة ينسبون إلى المذهب، فحملت أمرهم على أنهم عوام! وأهملت فكر ذلك، وإذا بهم قد كتبوا فتاوى، فكتب فيها جماعة من أهل خراسان منهم أبو العلاء الهمداني، يعظمون هذا القول ويردونه ويقبحون قول من قاله! فبقيت دهشاً متعجباً. وقلت في نفسي: واعجباً صار المنتسبون إلى العلم عامة أيضاً! وما ذاك إلاّ أنهم سمعوا الحديث ولم يبحثوا عن صحيحه وسقيمه، وظنوا أن من قال ما قلته قد تعرّض للطعن فيما أخرجه أحمد وليس كذلك؛ فإن الإمام أحمد روى المشهور والجيد والرديء، ثم هو قد رد كثيراً مما روى ولم يقل به، ولم يجعله مذهباً له. أليس هو القائل في حديث الوضوء بالنبيذ: مجهول! ومن نظر في كتاب العلل الذي صنفه أبو بكر الخلال رأى أحاديث كثيرة كلها في المسند، وقد طعن فيها أحمد.

قال القاضي: وقد أخبر عن نفسه كيف طريقه في المسند، فمن جعله أصلاً للصحة فقد خالفه وترك مقصده.

قلت: (القول لابن الجوزي) قد غمني في هذا الزمان[٢] أن العلماء لتقصدهم في العلم صاروا كالعامة، وإذا مر بهم حديث موضوع قالوا: قد روي[٣]، والبكاء ينبغي أن يكون على خساسة الهمم ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

---

(١) ص٣٠ و٣١ مقدمة مسند أحمد.

(٢) ولد ابن الجوزي سنة ٥١٠هـ ومات سنة ٥٩٧هـ.

(٣) مقدمة المسند ص٥٦ ـ ٥٧.

هذا ما رأينا نقله مما قال الأئمة الكبار في مسند أحمد، وهو كاف في التعريف به وبيان قيمته في نفسه لا فيما هو مشهور عنه، وأنه من المصادر التي لا يعول عليها أو يحتج بها شأنه شأن سائر المسانيد(١).

وأحاديث المسند تنقسم إلى ستة أقسام:

١ ـ قسم رواه عبد الله عن أبيه سماعاً، وهو المسمى بمسند الإمام أحمد.

٢ ـ وقسم سمعه عبد الله من أبيه ومن غيره.

٣ ـ وقسم رواه عن غير أبيه وهو المسمى عند المحدثين بزوائد عبد الله وهو كثير بالنسبة للأقسام كلها عدا القسم الأول.

٤ ـ وقسم قرأه عبد الله على أبيه ولم يسمعه منه وهو قليل.

٥ ـ وقسم لم يقرأه ولم يسمعه، ولكنه وجده في كتاب أبيه بخطه.

٦ ـ وقسم رواه أبو بكر القطيعي من غير عبد الله وأبيه، وكل هذه الأقسام من المسند إلاّ الثالث والسادس فإنهما من زوائد عبد الله والقطيعي.

وقد تولى شرحه واختصاره جماعة من العلماء منهم: أبو الحسن بن عبد الهادي السندي، المتوفى سنة ١١٢٩هـ نزيل المدينة المنورة.

واختصره زين الدين عمر بن أحمد السماع الحلبي، وسمى مختصره (در المنتقد من مسند أحمد) ولذلك اختصره سراج الدين عمر بن علي المعروف بابن الملقني الشافعي المتوفى سنة ٨٠٥هـ.

---

(١) أضواء على السنة المحمّدية للأستاذ محمود أبو ريه ص٢٩٣ ـ ٢٩٨.

الإمام أحمد بن حنبل
عَصْرُه وَحَوَادِثُه

عصره:

يمتد عصر الإمام أحمد من عهد المهدي العباسي إلى عهد المتوكل، أي من سنة ١٦٤هـ إلى سنة ٢٤١هـ.

وكان عصره عصر ازدهار، فقد أخذت الدولة العباسية مكانتها في المجتمع، وثبتت قواعدها على عهد الرشيد، والمأمون، والمعتصم، فعظم شأنها وامتد سلطانها.

وفي عهده كانت حادثة الخلاف بين الأمين والمأمون سنة ١٩٥هـ وقيام حرب طاحنة بينهما على الملك، فسالت الدماء في العراق وخراسان، واستقر الأمر للمأمون بعد ذلك. وفي أيامه ابتدأت محنة القول في خلق القرآن سنة ٢١٨هـ التي كانت من أعظم عوامل شهرة أحمد، كما قلنا أنه لم يكن لأحمد نشاط يذكر في أيامه الأولى، أو اشتهر ذكره ونشر اسمه، وإنما شهرته كانت في أيام المحنة بعد عهد المأمون.

وقد كان عصره أزهر العصور لقوة الدولة، وامتداد سلطانها، ، وقد فاضت الثروة، وامتلأت خزائن الدولة، وزاد العمران، وامتدت الحضارة، وتنعم أرباب المناصب والمقرّبون للسلطان بمباهج الحياة، ونعموا بخيرات البلاد وكانت لهم الثروات الطائلة، وعمرت مجالس العلم والأدب، وأمست دور الكبراء مدارس يغشاها أرباب الفكر وحملة الآثار والأشعار، وقادة الفكر، وأمراء البلاغة والبيان. كما وقد تفنن أرباب النعيم وذوي الثراء في اتخاذ مجالس اللهو، وتباروا في اقتناء المغنيات، وتنافسوا في شرائها بأغلى الأثمان، كما كانت بيوت الخلفاء مجالس للغناء والشراب، يتبارى فيها المغنون في إطراب الخلفاء، وفي إتحافهم بكل صوت.

وقد احتفظت كتب الأدب بكثير من أخبارهم، فهم يتذوقون الغناء ويطربون عليه، ويجيزون المغنين ويصلونهم بأسنى الصلات، وكان معظمهم يحسن الغناء ويعرف أصوله، ويصنع أصواتاً يغنيها هو أو يلقيها على جواريه أو على المغنين ليغنوها، كما كان هارون الرشيد والواثق أكثر ما كان في حاشيتهما من المغنين.

وكان إبراهيم بن المهدي أخو الرشيد قد بلغ منزلة في الغناء وعرف بشيخ المغنين، وكانت علية بنت المهدي تغني أحسن غناء، وكان أخوها يعقوب يزمر لها على الغناء[1] وكان الرشيد يعلم ذلك، وقد غنت جارية ذات يوم:

يا موري الزند قد أعيت قوادحه | اقبس إذا شئت من قلبي بمقباس
ما أقبح الناس في عيني واسمجهم | إذا نظرت فلم أبصرك في الناس

فأراد الرشيد أن يعرف لمن الصوت، فأسرّت إليه الجارية أنه لعلية أخته.

وروى أبو الفرج عن أحمد بن زيد قال حدثني أبي قال: كنا عند المنتصر فغناه منان لحناً من الرمل الثاني:

يا ربة المنزل بالبرك | وربة السلطان والملك
تحرجي بالله من قتلنا | لسنا من الديلم والترك

فضحكت، فقال لي: مم ضحكت؟ قلت: من شرف قائل هذا الشعر، وشرف من عمل اللحن فيه وشرف مستمعه.

قال: وما ذاك؟ قلت: الشعر فيه للرشيد، والغناء لعلية بنت المهدي، وأمير المؤمنين مستمعه[2].

وكان اهتمام الرشيد بالغناء والمغنين عظيماً، فقد قرب منهم عدداً وافراً،

---

(١) الأغاني ج٩ ص٨٤.

(٢) الأغاني ج٩ ص٨١. ورحم الله أبا فراس الحمداني إذ يقول مقارناً بينهم وبين بني علي:

تنشى التلاوة في أبياتهم سحراً | وفي بيوتكم الأوتار والنغم
منكم علية أم منهم وكان لكم | شيخ المغنين إبراهيم أم لهم
إذا تلوا سورة غنى أمامكم | قف بالطلول التي لم يعفها القدم
ما في بيوتهم للخمر معتصر | وفي بيوتكم للسوء معتصم
الركن والبيت والأستار منزلهم | وزمزم والصفا والحجر والحرم

وأجزل العطاء عليهم، وكان يجمعهم في مجلس واحد ويقترح عليهم في الأصوات ليطرب، فمن أطربه نال أسنى الجوائز وأعظم الصلات(١) وقد اختار له إسحاق الموصلي من الغناء مائة صوت، وقد عرفت بالأصوات المائة المختارة، التي وضع أبو الفرج الأصبهاني فيها كتاب الأغاني(٢).

كما كانت في بغداد نوادٍ للغناء واللهو، فيها القيان اللاتي يُحسنَّ الغناء، ويقصدهنَّ الفتيان الظرفاء يتغازلون ويشربون ويلهون.

وكان الأمين شديد الطرب إلى الغناء، واسع العطاء إذا طرب، وقد وصفه إسحاق الموصلي فقال: ما كان (أي الأمين) يبالي أين قعد ومع من قعد، ولو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب خرقها كلها، وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا، وكان من أعطى الخلق لذهب وفضة، وأوهبهم للأموال إذا طرب أو لهى، وقد رأيته أمر لبعض أهل بيته بحمل زورق ذهباً، وأمر لي ذات ليلة بأربعين ألف دينار.

وحتى في أعسر ساعات حياته عندما أحيط به كان يستمع إلى الغناء. فبينما كانت حجارة المنجنيق تصل بساطه كانت إحدى الجواري تغنيه(٣).

وقد كان البذخ والإسراف وتبذير الأموال في وجوه الملذات أمر يبعث على الدهشة والاستغراب، وبلغ الترف إلى أقصى حد. ولم يكن هذا الترف والبذخ يعم طبقات الناس، بل كان هناك ملايين من أبناء الأمة يعانون الحرمان، ويقاسون ألم الفاقة، ومنهم المظلومون الذين جار عليهم جباة الأموال فسلبوهم ما يسدّون به الحاجة، ومنهم من غصبهم السلطان وأعوانه أموالهم وضياعهم، ولا يجدون من يسمع أصواتهم إذا رفعوها بالتظلم، كما ليس لهم طمع في رد ظلاماتهم.

وسار العمال في إرهاق الرعية على الوجه الذي يخالف نظام الإسلام، فأصبحت الأموال تجبى بأقسى وسائل الظلم، وتصرف في ضروب من الإسراف وأنواع من الترف.

أحداث عصره:

وظهرت في عصر أحمد العصبية العنصرية، فاشتد النزاع بين العرب والفرس

---

(١) مروج الذهب ج٣ ص٢٧٨.

(٢) الأغاني ج١ ص١ وما بعدها.

(٣) التاج ص٤٢ ـ ٤٣.

والترك (وكان العرب قد ضعف أمرهم في نزاع مع الفرس، فجاءت قوة الترك ضغثاً على إبالة).

واستولى الأتراك على الأمور عندما كثر جمعهم وعظمت شوكتهم، وبدأت العصبية ضد الأتراك من عهد دخولهم بغداد في عهد المعتصم، وشكى إليه الناس من جورهم وسوء تصرفهم، وقد هجاه دعبل الخزاعي بقوله:

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم — وصيف واشناس وقد عظم الخطب
وإني لأرجو أن ترى من مغيبها — مطالع شمس قد يغص بها الشرب
وهمك تركي عليه مهانة — فأنت له أم وأنت له أب

واشتدت محنة أهل بغداد من عبث الأتراك وتعسفهم، وكانوا لا يستطيعون مقابلتهم، لأن السلطان قد لحظهم بالعناية وجعلهم محل ثقته، حتى بلغ الأمر بالمعتصم أنه كتب إلى واليه على مصر، وهو كيدر ـ واسمه نصر بن عبد الله ـ يأمره بإسقاط من في الديوان من العرب وقطع أعطياتهم.

وعلى أي حال: فقد أصبحت الأمور في يد الأتراك، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب، فهم يكرهون العرب، وهم أنفسهم ليسوا في وفاق بعضهم مع بعض، وهم لا ينقطعون عن المؤامرات والدسائس، وتعصب كل فريق لقائد منهم، وبهذا أصبحت دار السلام وما حولها ليست دار سلام، إذ غلبت على ذوي السلطة شهواتهم الآثمة، فلا تطرق سمعهم صرخات المفجوعين ولا استغاثة المتظلمين، ولا ينفذ بصرهم إلى ما يعانيه ذلك المجتمع المنكوب الذي دب في جسمه داء الجهل والفوضى وحب الشهوات، وهم ساهون يعدّون أنفسهم سعداء في شقاء الأمة وأغنياء بافتقارها.

وقد ثارت في عصر الإمام أحمد عاصفة العداء بين الطوائف، واشتدت الخصومة بينها. مما أدت إلى حلول الكراهية ووقوع الشر بين أفراد وطبقات المجتمع آنذاك.

وكان المحدثون يغذون روح الكراهية تجاه أعدائهم وخصومهم، فذهبوا إلى تكفير المعتزلة وكل من يقول بخلق القرآن. إذ يقول أبو عبد الله الذهلي المتوفى سنة ٢٥٥هـ: من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر وبانت منه امرأته، فإن تاب وإلاّ ضربت عنقه، ولا يدفن في مقابر المسلمين. ومن وقف وقال: لا أقول مخلوق أو غير

مخلوق فقد ضاهى الكفر، ومن زعم أن لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يدفن في مقابر المسلمين.

وعلى أي حال: فقد قويت. روح الكراهية بين أفراد المجتمع فاشتدت المنازعات وكثرت الخصومة، وتطور الأمر وازدادت الحوادث، وسارت العامة من أبناء الأمة على هذا النهج، حتى أن امرأة تقدمت إلى قاضي الشرقية عبد اللّه بن محمّد الحنفي فقالت: إن زوجي لا يقول بمقالة أمير المؤمنين، ففرق بيني وبينه[١].

ومن تلك الحوادث: أن الواثق لما استفك من الروم أربعة آلاف من الأسارى اشترط فيهم أن من قال: القرآن مخلوق يخلص من الأسر ويعطى دينارين، ومن امتنع عن ذلك فيترك في الأسر ولا يفك[٢].

وهذا محمّد بن الليث قاضي مصر كان حنفياً، فانتهز محنة خلق القرآن فأوقع بأصحاب الإمام مالك والشافعي، ومنع فقهاءهم من الجلوس في المسجد، وقال شاعر مصر الحسين بن عبد السّلام الجمل يخاطبه:

وليت حكم المسلمين فلم تكن	بـرم الـلـقـاء ولا بـفـظ أزور
ولقد بجست العلم في طلابه	وفجرت منه ينابعاً لم تفجر
فحميت قول أبي حنيفة بالهدى	ومحمّد واليوسفي الأذكر
وحطمت قول الشافعي وصحبه	ومقالة ابن علية لم تضجر
والمالكية بعد ذكر شائع	أخملتها فكأنها لم تذكر[٣]

ومما تقدم يتبين أن مشكلة خلق القرآن قد زادت من إحداث الفرقة في المجتمع الإسلامي، ومن جراء هذه الحوادث التي صاحبت هذه المحنة العامة والمشكلة الاجتماعية فتح باب التدخل من قبل أعداء الإسلام، وكانت الخصومة والفرقة التي مني بها المسلمون آنذاك، هي الدافع الرئيسي الذي نشط القوى المعادية للإسلام، فقد عملوا على توسيع رقعة الخلاف بين أفراد المجتمع وطبقاته، لإيقاع الفتنة تحقيقاً لأهدافهم.

---

(١) تاريخ بغداد ج١٠ ص٧٤.

(٢) طبقات الشافعية ج٣ ص٢٢. وتاريخ اليعقوبي ج٣ ص١٩٤.

(٣) القضاة للكندي ص٣٧١.

وقد نجحت أساليبهم التي اتبعوها، والوسائل التي اتخذوها، لأنها كانت تحمل طابع الحرص على الإسلام، لتجتذب إلى صفوفهم أناس دفعتهم سلامة ضمائرهم إلى الدفاع عنها وكأنها دفاع عن الإسلام، ولم تقتصر فئاتهم على هذه الطائفة فقط، بل انضم في سلكهم انتهازيون وجدوا بذلك خير فرصة لتحقيق أغراضهم، ونيل مآربهم للوقيعة بخصومهم، إذ خرجت المنازعات عن حدودها، فتجنى كل فريق على الآخر، وأخذ كل أحد يرمي الآخر بالكفر.

وفي وسط ذلك التيار الجارف من الخصومة والعداء، استطاعت الأغراض والأهواء أن تنفذ إلى الأحاديث النبوية، وهي إحدى الدعائم التي يقوم عليها الدستور الإسلامي، ليتم لهم آنذاك التلاعب بمقدرات الإسلام وتوجيهها صوب تحقيق أغراضهم وأهدافهم.

فلقد وضع الوضاعون أحاديث تتفق مع هذه النزعة، ونسبوها لرسول الله ﷺ وهم يدعون أن ذلك نصرة للدين، وتقوية للمسلمين، فإذا ما حوججوا وأمروا بالكف عن ذلك قالوا: إنما نقول له لا عليه.

وناهيك بما قام به الدعاة على المنابر، لتوجيه الرأي العام نحو جهة معينة، وحصر الإسلام عليها، وتخصيصها به، فلم يكن فيه نصيب لغيرهم، ولا في الجنة مكان لسواهم، وقد غرق الناس في تلك المنازعات الدينية والسياسية مدة طويلة، حتى امتدت جذور تلك الفتنة إلى عصور متأخرة عن عصر الإمام أحمد، فاشتد الموقف حراجة، ووقف كل يتربص بالآخر، مما أدى إلى نشوب حروب دموية ووقوع الخراب في كثير من البلاد الإسلامية، فأحرقت جوامع، وهدمت مساجد، ونهبت أموال، وأريقت دماء. إلى غير ذلك من الأمور التي خلفت أوضاعاً سيئة، ومع كل هذا والمجال يتسع أمام المتدخلين في صفوف المسلمين للعمل على تمزيق وحدة الصف واتساع دائرة الخلاف.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الصف آية ٨ و٩.

وبقي شيء يتعلق بعصر أحمد، وهو ترجمة الملوك الذين جرت المحنة على أيديهم، فلا بأس أن نلم بذلك إلماماً وإن كان خارجاً عما رسمناه.

المامون:

هو عبد الله بن هارون الرشيد، كنيته أبو جعفر أو أبو العباس، وأمّه أم ولد، يقال لها مراجل الباذغيسية، ولد في ربيع الأول سنة ١٧٠هـ وتوفي سنة ٢١٨هـ وكان أديباً شجاعاً، له ولع ومشاركة في كثير من العلوم، متعطشاً للآداب، محباً للنقاش والجدل، وكان المعتزلة معروفين بالفلسفة والأدب، مما أدى إلى تقريبهم والأنس بمحادثتهم.

وكان يجلس للمناظرة يوم الثلاثاء، فإذا حضر الفقهاء من سائر أهل المقالات ادخلوا حجرة مفروشة، وقيل لهم انزعوا أخفافكم، ثم أحضرت الموائد(١).

وكان المأمون يتّهم بالتشيع مرة، وبالاعتزال أخرى، وسيرته تدل على ذلك.

أما تشيعه فقد كان يحب علياً ويفضّله على جميع الصحابة، وقد أمر مناديه أن ينادي بأن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وأن لا يذكر معاوية بخير.

وروى ابن عساكر عن النضر بن شميل قال: دخلت على المأمون فقال: كيف أصبحت يا نضر؟

فقلت: بخير يا أمير المؤمنين.

فقال: ما الإرجاء؟ فقلت: دين يوافق الملوك، يصيبون به من دنياهم، وينقصون به من دينهم.

قال: صدقت. ثم قال: يا نضر أتدري ما قلت في صبيحة هذا اليوم؟ قلت: إني من علم الغيب لبعيد.

فقال: قلت أبياتاً وهي:

أصبح ديني الذي أدين به ... ولست منه الغداة معتذراً
حب علي بعد النبي ولا أشـ ... ـتم صدّيقاً ولا عمراً

---

(١) مروج الذهب ج٣ ص١٩.

ثم ابن عفان في الجنان مع الأ ... برار ذاك القتيل مصطبرا
ألا ولا أشتم الزبير ولا ... طلحة إن قال قائل غدرا
وعائش الأم لست أشتمها ... من يفتريها فنحن منه برا

قال ابن كثير في تاريخه: وهذا المذهب ثاني مراتب الشيعة، وفيه تفضيل علي على الصحابة. وقال بشر المريسي يمدح المأمون بما أظهره من تفضيل علي عليه السلام:

قد قال مأموننا وسيدنا ... قولا له في الكتب تصديق
أن علياً أعني أبا حسن ... أفضل من قد أقلت النوق
بعد نبي الهدى وإن لنا ... أعمالنا والقرآن مخلوق[1]

وفي سنة ٢٠١هـ بايع بولاية العهد من بعده للإمام علي الرضا الإمام الثامن من الأئمة الإثني عشر، ابن الإمام موسى الكاظم عليه السلام وأمر بخلع السواد الذي كان شعار الدولة العباسية، وأمر بلبس الخضرة.

ولقد أقدم المأمون على هذا العمل مع شدة امتناع الإمام الرضا عليه السلام عن ذلك. ولكنه ألزمه بالقبول، فشرط الإمام شروطاً على ذلك.

ولا بد من طرح التساؤل أولاً عن الأسباب التي حملت المأمون على القيام بهذا العمل، الذي يعد من أعظم الأعمال التي قام بها. فهل أن حبه لأهل البيت دفعه إلى ذلك لأنه يعتقد أنهم أولى بهذا الأمر؟ أو أنه فكّر في أمر الأمة ـ وهو المعروف بقوة الفكر وحريته ـ وأراد أن يجعلها تحت رعاية رجل يصلح لذلك، ولم ير أفضل من الإمام الرضا عليه السلام؟ أم أنها فكرة سياسية أراد بها جلب قلوب ملايين من الناس يدينون بالاعتراف للإمام الرضا عليه السلام بالولاية؟ وهم أولو قوة وبأس، رغم الدعايات الكاذبة ضدهم، واتخاذ شتى الوسائل في القضاء عليهم، وبهذا يحاول أن يكسر شوكة بني العباس، وينتقم منهم في نقل الملك من بيتهم إلى البيت العلوي، وهم خصوم لا هوادة بينهم، وبذلك يستطيع أن يضرب المأمون ضربته، ويحقق سياسته في تحقيق الغرض الذي من أجله قام بهذا الأمر، وبالفعل تحققت أهدافه ـ إن كان يقصد ذلك ـ فقد خضع له كثير من الناس وأحبّوه لهذا العمل. كما أعلن العباسيون وأنصارهم

---

(١) البداية والنهاية ج١٠ ص٢٧٦ ـ ٢٧٧ ـ ٢٧٩.

غضبهم عليه، ونقضوا بيعته، وبايعوا شيخ المغنين إبراهيم بن المهدي، وقامت بعد ذلك حرب قضى المأمون عليها بالقوة، لضعف خصومه وكثرة أنصاره.

والذي يظهر أنّه أراد جلب الرأي العام ضد بني العباس، وأن الأمر سياسي يقصد به توسيع قاعدة حكمه وجذب الشيعة إليه، فإن أهل البيت لهم مكانة وهم المعنيون بإسناد الخلافة إليهم عندما قامت الثورة ضد الأمويين، وقد نص كثير من المؤرخين على تشيع المأمون وميله إلى آل علي عليه السلام.

وقد أجاب المأمون عن أسباب بيعته للإمام الرضا عليه السلام وذلك أنّه عندما دخل بغداد ظافراً، اجتمعت به زينب بنت سليمان، وكانت من طبقة المنصور، وكان بنو العباس يعظمونها، فقالت: يا أمير المؤمنين ما الذي دعاك إلى نقل الخلافة من بيتك إلى بيت علي؟

قال: يا عمة إني رأيت علياً حين ولي الخلافة أحسن إلى بني العباس، فولى عبد الله البصرة، وعبيد الله اليمن، وقثم سمرقند، وما رأيت أحداً من أهل بيتي حين أفضى إليهم كافوه على فعله في ولده، فأحببت أن أكافيه إحسانه.

فقالت: يا أمير المؤمنين إنك على برّ بني علي والأمر فيك أقدر منه على برّهم والأمر فيهم.

وأنت ترى أن هذا الجواب لا يتمشى مع الواقع، لعلم المأمون بأن علياً لم يكن من أولئك الحكام الذين يولون أمر الأمة أناساً لا أهلية لهم، إلاّ لأنهم أقرباء وذوو رحم، بل كان ينظر للكفاءة والمقدرة، والناس عنده سواء.

وقضية جعل الإمام الرضا ولياً للعهد ينكشف باعثها السياسي من خلال تردد الإمام الرضا عليه السلام في القبول ومحاولته رفض ذلك، ولما وجد إصرار المأمون اشترط الرضا شروطاً تنأى عن مشاركة المأمون في سياسته وحكمه، وتجعل ولاية العهد اسمية، كما أن المأمون غلبت عليه طبيعة الحاكم وترك تطبعه ذاك، فمات الإمام الرضا مسموماً. وسنأتي على بيان ذلك في الأجزاء القادمة.

وعلى أي حال: فقد أظهر المأمون إحسانه إلى آل علي، وقد ثار في أيامه محمّد ابن الإمام جعفر الصّادق عليه السلام فأرسل المأمون إليه جيشاً، فكانت الغلبة للمأمون، فظفر به وعفى عنه مستمراً على سياسته من الميل إلى العلويين.

قال أبو العباس أحمد بن عمار: كان المأمون شديد الميل إلى العلويين

والإحسان إليهم، وخبره مشهور معهم، وكان يفعل ذلك طبعاً لا تكلفاً، فمن ذلك أنه توفي يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين العلوي، فحضر الصّلاة عليه بنفسه، ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ما تعجبوا، ثم إن ولداً لزينب بنت سليمان وهي عمة المنصور توفي بعده فأرسل له المأمون كفناً، وسيّر أخاه صالحاً ليصلي عليه ويعزي أمه، فإنها كانت عند بني العباس بمنزلة عظيمة، فأتاه وعزاها عنه، واعتذر عن تخلفه (أي المأمون) عن الصلاة عليه، فظهر غضبها وقالت لابن ابنها: تقدم فصلي على أبيك. وتمثلت:

سكبناه ونحسبه لجيناً فأبدى الكير عن خبث الحديد

ثم قالت لصالح: قل له يا ابن مراجل أما لو كان يحيى بن الحسين لوضعت ذيلك على فيك وعدوت خلف جنازته[1].

وفي سنة ٢١٠هـ أمر المأمون بردّ فدك إلى أولاد فاطمة عليها السلام وكتب بذلك إلى قثم بن جعفر عامله على المدينة كتاباً يقول فيه:

أما بعد فإن أمير المؤمنين بمكانته من دين الله وخلافة رسول الله، والقرابة به أولى من استنّ ونفذ أمره وسلم لمن منحه منحة وتصدق عليه بصدقة؛ ومنحته وصدقته بالله توفيق أمير المؤمنين وعصمته واليه في العمل بما يقربه إليه رغبته، وقد كان رسول الله ﷺ أعطى فاطمة بنت رسول الله فدكاً وتصدّق بها عليها، وكان ذلك أمراً ظاهراً معروفاً لا اختلاف فيه بين آل رسول الله ﷺ ولم تدّعي منه ما هو أولى به من صدق عليه، فرأى أمير المؤمنين أن يردّها إلى ورثتها، ويسلمها إليهم تقرباً إلى الله بإقامة حقه وعدله؛ وإلى رسول الله بتنفيذ أمره وصدقته، فأمر بإثبات ذلك في دواوينه والكتاب به إلى عماله، فلئن كان ينادي في كل موسم بعد أن قبض الله نبيه أن يذكر كل من كانت له صدقة أو هبة أو عدة فيقبل قوله وتنفد عدته.

إن فاطمة لأولى بأن يصدّق قولها فيما جعل رسول الله لها، وقد كتب أمير المؤمنين (أي المأمون) إلى المبارك الطبري مولاه بردّ فدك على ورثة فاطمة بنت رسول الله بحدودها وجميع حقوقها المنسوبة إليها من الرقيق والغلاة... إلخ[2].

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٦ ص١٧٩.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص٤٦.

وفي سنة ٢٠١هـ أحصى المأمون جميع العباسيين، فبلغوا ثلاثة وثلاثين إلفاً بين ذكور وإناث.

وكان المأمون يتحرى العدل، ويتولى بنفسه الحكم بين الناس والفصل. جاءته امرأة ضعيفة قد تظلمت على ابنه العباس وهو قائم على رأسه، فأمر الحاجب فأخذه بيده فأجلسه معها بين يديه، فادّعت بأنه أخذ ضيعة لها واستحوذ عليها، فتناظرا ساعة، فجعل صوتها يعلو على صوته، فزجرها بعض الحاضرين. فقال المأمون: اسكت فإن الحق أنطقها والباطل أسكته. ثم حكم لها بحقها، وأغرم ابنه لها عشرة آلاف درهم[1].

واشتهر عنه أنّه كان يقول: لو يعلم الناس ما أجد في العفو من لذة لتقرّبوا إليّ بالذنوب. وحدّث المرزباني: أن دعبل الخزاعي هجا المأمون بقوله:

أيسومني المأمون خطة عاجزٍ ... أو ما رأى بالأمس رأس محمّد

إني من القوم الذين هم هم ... قتلوا أخاك وشرفوك بمقعد

فطلبه المأمون فاستتر منه، إلى أن بلغه أنّه هجا إبراهيم بن المهدي بقوله:

إن كان إبراهيم مضطلعاً بها ... فلتصلحنّ من بعده لمخارق

فضحك المأمون وقال: قد وهبته ذنبه فليظهر. فسار إليه، فكان أول داخل عليه.

ولما قدم على المأمون وأمنه استنشده القصيدة الكبيرة، وهي الرائية وعدد أبياتها ٢٤ بيتاً ومطلعها:

تأسفت جارتي لما رأت زوري ... وعدّت الحلم ذنباً غير مغتفر

فأنكرها، فقال المأمون: لك الأمان أيضاً على إنشادها فأنشدها، حتى إذا بلغ إلى قوله:

يا أمة السوء ما جانيت أحمد عن ... حسن البلاء على التنزيل والسور

خلفتموه على الأبناء حين مضى ... خلافة الذئب في أبقار ذي بقر

قتل وأسر وتحريق ومنهبة ... فعل الغزاة بأرض الروم والخزر

(١) تاريخ ابن كثير ج١٠ ص٢٧٧.

أرى أمية معذورين إن قتلوا | ولا أرى لبني العباس من عذر
قوم قتلتم على الإسلام أولهم | حتى إذا استمكنوا جازوا على الكفر
قبران في طوس خير الناس كلهم | وقبر شرّهم هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قبر الزكي ولا | على الزكي بقبر الرجس من ضرر
هيهات كلُ امرئٍ رهن بما كسبت | يداه فخذ ما شئت أو فَذَرِ

قال: فضرب المأمون بعمامته إلى الأرض وقال: صدقت يا دعبل.

ولما أنشد قصيدته التائية الشهيرة أمام الإمام الرضا عليه السلام والمأمون حاضر يسمع استحسنها، فأمر له الإمام الرضا بخمسين ألف درهم، وأمر له المأمون بمثلها[1]. ومهما يكن من أمر فإن المأمون قد أثرت فيه ثقافة عصره، فمال إلى الفلسفة وحرية الرأي حتى جهر بأمور هي من عقائد الشيعة كان أسلافه وأخلافه يرونها كفراً أو زندقة، ويظهر أنه التزم الحقيقة. أما بيعته للإمام الرضا فهي خطوة سياسية عرف الإمام الرضا الغرض منها وقبلها مشترطاً. وقد ختم المأمون علاقته بالإمام الرضا بخاتمة عاد بها إلى سنة أهله وسياستهم العدائية.

المعتصم:

هو أبو إسحاق محمّد المعتصم ابن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور، المتوفى سنة ٢٢٧هـ كان موصوفاً بالشجاعة وقوة البدن، وسداد الرأي، وكان إذا غضب لا يبالي من قتل، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب.

ذكر الخطيب أن ملك الروم كتب إلى المعتصم كتاباً يهدّده فيه فقال للكاتب: أكتب: قد قرأت كتابك وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار. وغزا بلاد الروم في سنة ٢٢٣هـ فأنكى نكاية عظيمة في العدو، وهو الذي فتح عمورية وقتل من أهلها ثلاثين ألفاً وسبى منهم، وكان في سبيه ستون بطريقاً، قال الخطيب: وجاء بباب عمورية وهو منصوب حتى الآن على أبواب دار الخلافة مما يلي المسجد الجامع في القصر. وكان له من المماليك الترك ٥٠ ألف، وهو الذي بنى سامراء، وسبب ذلك أنه لما كثرت عساكره من الترك في بغداد وزاحموا أهلها، وعاثوا فيها فساداً، فكان في كل يوم ربما قتلوا جماعة، فركب

(١) المرزباني شعراء الشيعة ص٩٣ ـ ١٠٤.

المعتصم يوماً، فلقيه رجل شيخ فقال للمعتصم: يا أبا إسحاق. فأراد الجند ضربه، فمنعهم المعتصم وقال له: ما لك يا شيخ؟ قال: لا جزاك الله خيراً عن الجوار جاورتنا مدة فرأيناك شرّ جار، جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا، فأيتمت بهم صبياننا، وأرملت نساءنا، والله لنقاتلنك بسهام السحر (الدعاء). هذا والمعتصم يسمع ذلك، فدخل منزله ولم ير راكباً في يوم مثل ذلك اليوم، ثم ركب وصلى بالناس العيد، وسار إلى موضع سامراء فبناها وكان في سنة ٢٢١هـ.

ولم يكن المعتصم كأخيه المأمون. أو كولده الواثق في العطف على العلويين، ولم يكن كالرشيد في تشدده، بل كان معتدلاً وسطاً.

والذي يظهر أن اعتداله كان بوصية من المأمون، فقد جاء فيها:

وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأحسن صحبهم وتجاوز عن مسيئهم، وأقبل من محسنهم، وصِلاتهم فلا تغلها في كل سِنة، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى[1].

وحدث أحمد بن سليمان بن أبي شبح قال: قدم الزبير بن بكار العراق هارباً من العلويين لأنه كان ينال منهم فهددوه فهرب منهم، وقدم على عمه مصعب بن عبد الله بن الزبير، وشكى إليه حاله وخوفه من العلويين، وسأله إنهاء حاله إلى المعتصم، فلم يجد عنده (أي عند عمه) وأنكر عليه حاله ولامه.

قال أحمد: فشكى ذلك إليّ وسألني مخاطبة عمّه في أمره، فقلت له في ذلك، وأنكرت عليه إعراضه فقال لي: إن الزبير فيه جهل وتسرّع فأشر عليه أن يستعطف العلويين، ويزيل ما في نفوسهم منه، أما رأيت المأمون ورفقه بهم، وعفوه عنهم، وميله إليهم؟ قلت: بلى. قال: فهذا أمير المؤمنين (أي المعتصم) مثل ذلك أو فوقه، ولا أقدر أن أذكرهم عنده بقبيح، فقل له ذلك حتى ينتهي عن الذي هو عليه في ذمهم[2].

ولما حضرت المعتصم الوفاة جعل يردد هذه الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

---

(١) الطبري ج١٠ ص٢٩٥.

(٢) الكامل لابن الأثير ج٧.

وقال: لو علمت أن عمري قصير ما فعلت ما فعلت. وقال: ذهبت الحيل فلا حيلة. وقال: اللّهم إني أخافك من قبلي ولا أخافك من قبلك، وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلي. وقال: إني أخذت من بين هذا الخلق[(١)].

ومن أغرب الأمور في سيرة المعتصم أنه قد فوّض أمر الدولة إلى أخوين مسيحيين وهما: سلمويه وإبراهيم. وكان سلمويه يشغل منصباً قريب الشبه من منصب الوزارة في العصر الحديث، وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ إلاّ بعد توقيعه عليها، وقد عهد المعتصم إلى أخيه إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة كما عهد إليه بخزانة بيوت الأموال في البلاد، وكان المنتظر من طبيعة هذه الأموال وتصريفها أن يوكل أمر الإشراف عليها إلى رجل من المسلمين، وقد بلغ من ميل الخليفة إلى سلمويه أن عاده في مرضه فغمره الحزن عند وفاته، حيث أقيمت الطقوس المسيحية في خشوع مهيب[(٢)].

الواثق:

أبو جعفر هارون بن المعتصم بن الرشيد المتوفى سنة ٢٣٢هـ كان شاعراً فطناً يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته، وكان حسن السيرة مع أبناء عمه آل أبي طالب. قال يحيى بن أكثم: ما أحدث أحسن من خلفاء بني العباس إلى آل أبي طالب ما أحسن إليهم الواثق، ما مات وفيهم فقير[(٣)].

وكان شديد القول بخلق القرآن، حتى بلغ الأمر به أنه لما وقع الفداء بين المسلمين والروم في الأسرى أمر الواثق أن يمتحنوا أسرى المسلمين، فمن قال القرآن مخلوق وأن الله لا يُرى في الآخرة، فودي به وأعطي دينارين، ومن لم ينل ذلك ترك في أيدي الروم.

ولما حضرته الوفاة أمر بالبسط فطويت، وألصق خده على الأرض، وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه، وكان يردد هذين البيتين:

الموت فيه جميع الخلق مشترك　　　لا سوقة منهم يبقى ولا ملك

---

(١) الطبري ج١١ ص٧.

(٢) الدعوة إلى الإسلام ص٨١. وابن أبي أصيبعة ج٢ ص١٦٤.

(٣) ابن كثير ج١٠ ص٣١٠.

مـا ضرّ أهـل قـلـيـل فـي تـفـارقـهـم　　ولـيـس يـغـنـي عـن الـمـلاك مـا مـلـكـوا[1]

قال أحمد بن محمَّد الواثقي، وكان فيمن يمرض الواثق: فتقدمت إليه فلما صرت عند رأسه فتح عينيه، فكدت أموت من خوفي، فرجعت إلى خلف، فتعلقت قائمة سيفي بشيء فكدت أهلك، فما كان عن قريب حتى مات، وأغلق عليه الباب، وبقي وحده، فسمعت حركة من داخل البيت.، فدخلت فإذا جرذ قد أكل عينيه ـ التي لحظ إليّ بها ـ وما كان حولها من الخدين[2].

المتوكل:

جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن محمَّد المهدي بن المنصور العباسي، المتوفى سنة ٢٤٧هـ وأمه أم ولد يقال لها شجاع، وكانت ولادته بفم الصلح سنة ٢٠٧هـ وبويع بالخلافة بعد أخيه الواثق، وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة، وكان مولعاً بالشراب وباقتناء الجواري، وكان بمكانة من الترف والبذخ ربما لا يمتاز بكثير عن جده الرشيد.

عرف المتوكل ببغضه لأهل البيت ومطاردته لمحبيهم، وقتل زعمائهم، وكان لا تأخذه في ذلك رحمة، ولا يمنعه خوف من الله، ومن يتهم بميله للعلويين فإن مصيره القتل أو السجن المؤبد، حتى ظهر النصب في عصره، وانتشر بغض أهل البيت في أيامه، وتقرب الكثير إليه بذم أهل البيت أو محبيهم، طلباً لرفده وطمعاً في صلته.

مدحه أبو السمط مروان بن أبي الجنوب بأبيات يذم فيها العلويين منها:

يـرجـو الـتـراث بـنـو الـبـنـا　　ت ومـا لـهـم فـيـهـا قـلامـة

مـا لـلـذيـن تـنـحـلـوا مـيـرا　　ثـكـم إلأ الـنـدامـة

فخلع عليه المتوكل أربع حلل، وأمر له بثلاثة آلاف دينار، فنثرت على رأسه، وعقد له على البحرين واليمامة.

وتقدم إليه هذا الشاعر مرة أخرى بشعرٍ يذم فيه آل محمَّد وشيعتهم، فنثر عليه عشرة آلاف درهم[3].

---

(١) تاريخ ابن الساعي ص٦٠.
(٢) الكامل لابن الأثير ج٧ ص١٢.
(٣) الكامل لابن الأثير ج٧ ص٣٨.

وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى علياً وأهله بأخذ المال والدم. حتى عم الاستياء، وواجه الناس موجة تعصب فاحش، وعذب الموالون لأهل البيت أشد العذاب، ومنع الناس من زيارة قبر الحسين، كما أمر بهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يبذر ويسقى موضع قبره، ونادى في الناس: من وجدناه عند قبر الحسين بعد ثلاث حبسناه في المطبق[1] حتى هجاه الشعراء، ومما قيل فيه:

تالله إن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوماً

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبره مهدوماً

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبعوه رميماً

ويقول ابن الوردي:

وكم قد محي خير بشر كما انمحت ... ببغض علي سيرة المتوكل

تعمق في عدل ولما جنى على ... مقام علي «حطه السيل من عل»

وكان واليه على مصر يزيد بن عبد الله التركي يتتبع الموالين لأهل البيت بكل أذى، كما حمل جماعة منهم إلى العراق.

قال الكندي في كتاب الولاة والقضاة: إن يزيد التركي أمر بضرب جندي ـ في شيء وجب عليه ـ عشرة درر، فتوسل الجندي إلى يزيد بحق الحسن والحسين أن يعفو عنه فزاده ثلاثين درة، ورفع أمره إلى المتوكل في العراق، فورد أمر المتوكل بضرب الجندي مائة سوط وحمله إلى العراق، وذلك في سنة ٢٤٣هـ وفي سنة ٢٤٨هـ أخرج جماعة من العلويين من مصر إلى العراق.

وكان أخص الناس به وأقربهم عنده من اشتهر بالنصب، وعرف بالعداء لأهل البيت أمثال: علي بن الجهم الشاعر الشامي (من بني شامه بن لوي) وعمر بن فرخ الرحجي، وأبو السمط من ولد مروان بن أبي حفص من موالي بني أمية، وغيرهم وسيأتي ذكرهم في القائمة السوداء التي ستتضمن أسماء من عرفوا بالنصب لأهل البيت عليهم السلام.

قال المسعودي: ولم يكن المتوكل من يوصف في عطائه وبذله في الجود، ولا بتركه وإمساكه بالبخل، ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس، ظهر في

---

(١) نفس المصدر ج٧ ص٢٤.

مجلسه اللعب والمضاحك والهزل، مما استفاض في الناس تركه إلاّ المتوكل، فإنه السابق إلى ذلك والمحدث له، وأحدث أشياء من خواصه، فلم يكن من كتابه وقواده من يوصف بجود ولا إفضال، أو يتعالى ـ ن مجون وطرب[1] وكان منهمكاً في اللذات والشراب انهماكاً كبيراً[2] وكان بنان وزنان لا يفارقانه، هذا يضرب وذاك يزمر[3]. ولم يفارق لذاته وشرابه حتى في آخر لحظة من حياته، فقد قتل بين الناي والعود.

ولقي الناس في عهده أنواع البلاء والامتحان، وزلزلت الأرض وتناثرت الكواكب كالجراد، وكان أمر مزعجاً، واهتزت الأرض بتونس وأعمالها، والري وخراسان ونيسابور وأصبهان، وشققت الأرض بقدر ما يدخل الرجل في الشق، وضربت المدن والقلاع والقناطر، وسقط من أنطاكية جبل في البحر، ورجمت قرية بناحية مصر بحجارة من السماء وزن الواحدة منها عشرة أرطال، وهبت ريح بالعراق شديدة السموم لم يعهد مثلها أحرقت زرع الكوفة والبصرة وبغداد، وقتلت المسافرين، ودامت خمسين يوماً، ومنعت الناس من طلب المعاش في الأسواق، والمشي في الطرقات، وزلزلت دمشق، والجزيرة والموصل وقوس ونيسابور وغيرها[4] في جميع أنحاء المملكة الإسلامية حتى ذهب ضحية ذلك خلق كثير، والخليفة المتوكل يتنعم في بذخه، ويمرح في أنسه، بين رقص جواريه وغلمانه، ونغم عيدانه ومجونه بل جنونه، ومجلسه عامر بالهزل والطرب، وقد نشط الروم في عهده فهجموا على دمياط، ونهبوا وأحرقوا وسبوا ستمائة امرأة.

وكان يبذل الأموال الطائلة على القصور والعمارات، وقد أنفق ألف ألف وسبعمائة ألف دينار على بناء قصر البرج وحده.

ولما عزم على المسير إلى دمشق أمر باتخاذ القصور، وإعداد المنازل، وإصلاح الطريق، وإقامة المرافد[5].

---

(١) مروج الذهب ج٤ ص٤٧.

(٢) السيوطي تاريخ الخلفاء ص١٣٧.

(٣) ثمار القلوب للثعالبي ص١٣٤.

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص١٣٨. والشذرات لابن العماد ج٢ ص٩٦. وتاريخ اليعقوبي ج٣ ص٢١٥. والطبري في حوادث سنة ٢٤١ و٢٤٢ وغيرها.

(٥) اليعقوبي ج٣ ص٢١٥.

ومع هذا فقد وصفوه بالصلاح ونصرة الدين، وإحياء السنّة، وإماتة البدعة. وقد مدحه ابن الخبازة بقوله:

أطال لنا رب العباد بقاءه ... سليماً من الأهوال غير مبدل

وجامع شمل الدين بعد تشتت ... وفاري رؤوس المارقين بمنصل

ولما مات وضعت المنامات والأطياف في عظمته، وعلو درجته في الجنة، وقام القصاصون والوعاظ بذلك يقصون أحلامهم لتحقيق أحلامهم.

ومما لا ريب فيه فإن الفرق بين المتوكل ومن سبقه من الخلفاء بيّن: فالمأمون لم يكن بالخليفة المستضعف، والمعتصم كان على جانب عظيم من القوة وحسن التدبير، وكرم الخلق، وكذلك ابنه الواثق، فقد كان يجالس العلويين ويحسن إليهم وإلى أهل الحرمين، حتى لم يبق منهم من يسأل الصدقة.

وفي أيام المعتصم والواثق لم يقتطع شيء من جسم الدولة العباسية، ولم يظهر بها أي ضعف، ولكن عهد المتوكل فتح باب الفرقة، وتقلصت أيام العز في بني العباس.

الدولة العباسية وبداية الضعف:

وعلى كل حال فقد بدأ الضعف في جسم الدولة العباسية في أيام المتوكل، لضعفه في التدبير والسياسة، وإساءته لكثير من طبقات المجتمع، وبالأخص العلويين، ومن عرف بموالاتهم، فكانت الرقابة عليهم شديدة، والحساب عسيراً، فالشيعي في نظر الخليفة وأعوانه مصدر خطر دائم، وتهديد للدولة لا ينقطع.

وقام أنصاره وأعوانه بدور البطولة في القضاء على المذهب الشيعي، وبذلوا كل جهد، واستعملوا كل وسيلة لحصول ذلك الغرض، فراحوا يهولون في انحراف المذهب عن الحق ليغضوا من قيمته، ويشوهوا من جماله، ويستنزلوه من مستواه الرفيع، وليس من الميسور عليهم حصول ذلك إلاّ بعد بذل جهود ومواصلة ودعاية التهويل، ليقربوا ذلك إلى العقول ولطالما سلبت أهواء السياسة من ذوي الفضل فضلهم ومن أجلها جردهم أرباب اللؤم عن محامدهم، وقد استطاع المذهب الشيعي أن يتغلّب بقوته الروحية على تلك المقاومات العنيفة، وجاهد جهاداً متصلاً، فتخطى الحواجز واجتاز العقبات بتلك القوة، فلا سلطان يعضده، ولا

سيف ينشره، وفشل المتوكل وأعوانه، فكان ضحية نصبه وتعصبه، حتى قتل بيد ولده وقواده، وهو أول خليفة قتل جهرة من بني العباس، وكثر بعد ذلك القتل في المستخلفين من بعده.

وكان المتوكل لشدة نصبه وعدائه لعلي عليه السلام أن ندماءه في مجلسه يفيضون في ثلب علي عليه السلام فينكر ولده المنتصر ذلك ـ وكان ولي عهده ـ ويتهددهم ويقول للمتوكل: إن علياً هو كبير بيتنا، وشيخ بني هاشم، فإن كنت لا بد ثالبه فتول ذلك بنفسك ولا تجعل لهؤلاء سبيلاً إلى ذلك، فيستخف المتوكل به ويشتمه ويأمر وزيره عبيد الله بصفعه، ويتهدده بالقتل ويصرح بخلعه عن ولاية العهد، فأعدّ المنتصر جماعة من الأتراكِ وبعث معهم ولده صالح وأحمد وعبد الله ونصر، فدخلوا على المتوكل وهو بين ندمانه وكؤوس شربه، فأخرجوا الندمان حتى لم يبق مع المتوكل إلاّ أربعة من الخاصة وأغلقوا الأبواب إلاّ باب دجلة، وقتلوا المتوكل وألقى الفتح بن خاقان نفسه عليه ليقيه، فقتلوه(١).

ورثاه البحتري في قصيدة يقول فيها:

هكذا فلتكن منايا الكرام ... بين ناي ومزهر ومدام
بين كاسين أورثاه جميعاً ... كأس لذاته وكاس الحمام
لم يُذل نفسه رسول المنايا ... بصنوف الأوجاع والأسقام
هابه معلناً فدب إليه ... في كسور الدجى بحد الحسام(٢)

وعلى أي حال: فقد كان المتوكل في جانب المحدثين، وأصبحت لهم الصولة والنفوذ، استغل العوام هذه الفرصة فأوقعوا برجال الفكر، ونشروا الخرافات، أما أصحاب أحمد بصورة خاصة، فلهم المنزلة السامية، والمقام الرفيع لأنه رفع منزلة الإمام أحمد وقرّب أصحابه، واتسع المجال أمامهم في الانتقام من خصومهم والانتصار لمبادئهم، وكما رأينا كيف كان المتوكل يعظم أحمد ويجله، ويشيد بذكره ويصله بهداياه، حتى بلغ به الأمر أنه كان يستشيره في تعيين القضاة، وقد بعث إليه مرة يسأله في تولية ابن الثلجي القضاء. فقال أحمد: لا ولا على حارس. لأن أحمد كان

---

(١) العبر لابن خلدون ج٣ ص٥٩٢.

(٢) ابن الساعي في تاريخه ص٦٤.

يرى أن ابن الثلجي ـ وهو من كبار أصحاب أبي حنيفة ـ مبتدع صاحب هوى[1].

اتهام أحمد بالميل للعلويين:

ومع اتصاف المتوكل بالتودد لأحمد بن حنبل، وإظهار فضله، وعدم سماع أي وشاية عليه، فإن أحمد لم يسلم من الاتهام بالميل للعلويين، فقد ارتأى خصومه أن يسلكوا طريقاً يمكنهم أن يغيروا قلب المتوكل بتهمة لا يغفرها المتوكل، ولا يقف دون عقابه لمن اتهم بها أي حاجز، وهي الاتهام بالتشيع أو الميل للعلويين، فاخترعوا من عند أنفسهم أن أحمد يبايع لعلوي، أو أنه أخفى علوياً في بيته، لينالوا منه ويحولوا قلب المتوكل منه، فأخذ المتوكل بالتحري على أحمد بشدة، وطوقت المحلة التي كان يسكنها، وأحاط الجند بداره ودخلوها، فقال أحمد: ما أعرف من هذا شيئاً، وإني لأرى طاعته في العسر واليسر، والمنشط، والمكره، والأثرة، وإني أتأسف على تخلفي عن الصلاة في جماعة، وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين.

فقال له ابن الكلبي: قد أمرني أمير المؤمنين (أي المتوكل) أن احلفك أن ما عندك طلبته فتحلف؟

قال: إن استحلفتموني حلفت. فأحلفه بالله وبالطلاق أن ما عنده طلبة أمير المؤمنين. ثم قال له: أريد أن أفتش منزلك ومنزل ابنك. فقام ابن مظفر وابن الكلبي وامرأتان معهما فدخلا، ففتشا البيت، ثم فتش الامرأتان النساء، ثم دخلوا منزل ولده صالح ففتشوه، ودلوا شمعة في البئر ونظروا ووجهوا النسوة، ففتشوا الحرم ثم خرجوا[2].

وإن الناظر في سيرة أحمد يجد أنه لا يستبعد اتهامه بما يسوء العباسيين عامة والمتوكل خاصة، فقد كان جريئاً في رواية مناقب أهل البيت، وقد روى في مسنده ما لم يروه كثير من أهل المسانيد والصحاح، كما كان يظهر فضائل علي ويحدث بها.

قال عبد الله بن أحمد سمعت أبي يقول: ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما لعلي رضي الله عنه.

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ج٥ ص٥٧.

(٢) مناقب أحمد لابن الجوزي ص٣٦٠ ـ ٣٦٢.

وقال عبد الله: قلت لأبي (أحمد بن حنبل) ما تقول في التفضيل؟ قال: في الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان.

فقلت: فعلي؟

قال: يا بُنَيّ، علي بن أبي طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد[1].

وقال محمَّد بن منصور: كنا عند أحمد بن حنبل فقال له رجل: يا أبا عبد الله ما تقول في هذا الحديث الذي يروى: أن علياً قال: «أنا قسيم النار»؟

فقال أحمد: وما تنكرون من ذا؟ أليس روينا أن النبي ﷺ قال لعلي: «لا يحبك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق»؟ قلنا: بلى.

قال: فأين المؤمن؟ قلنا: في الجنة. قال: وأين المنافق؟ قلنا: في النار. قال أحمد: فعلي قسيم النار[2].

وقال عبد الله بن أحمد: كنت بين يدي أبي جالساً ذات يوم، فجاءت طائفة من الكرخية. فذكروا خلافة أبي بكر، وخلافة عمر، وخلافة عثمان، وخلافة علي بن أبي طالب، فزادوا وأطالوا، فرفع أبي رأسه إليهم فقال: يا هؤلاء قد أكثرتم القول في علي والخلافة، إن الخلافة لم تزين علياً، بل علي زينها[3].

قال ابن أبي الحديد: وهذا الكلام دال بفحواه ومفهومه على أن غيره ازدان بالخلافة، وتممت نقيصته، وإن علياً لم يكن فيه نقص يحتاج إلى أن يتمم بالخلافة، والخلافة ذات نقص في نفسها، فتمم نقصها في ولايته إياها[4].

ولما سأله إسحاق بن إبراهيم ـ عن القرآن وأنه ليس بمخلوق ـ عمن تحكي أنه ليس بمخلوق؟ فقال: جعفر بن محمَّد الصَّادق قال: ليس بخالق ولا مخلوق. فسكت إسحاق[5].

على أن حال الأخبار عن أحمد لا تمضي على هذا المنوال، بل نجد بينها أخباراً ربما يصعب معها الجزم أو الترجيح، ولكنا آثرنا ما هو أقرب إلى الحق وأليق

---

(١) المناقب ص١٦٣. وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ج٢ ص١٢٠.
(٢) طبقات الحنابلة ج١ ص٣٢٠.
(٣) مناقب أحمد ص١٦٣.
(٤) شرح نهج البلاغة ج١ ص١٧.
(٥) مناقب أحمد ص٣٥٩.

برجل عالم كأحمد، وقد تكون صحيحة لتأثره بأجواء المتوكل، أو قد تكون من صنع آخرين. سنشير إليها في محلها.

شيوخ الإمام أحمد من الشيعة:

كما أن لأحمد صلة برجال الشيعة، وقد أخذ العلم عن كثير منهم، فكانوا في عداد شيوخه وأساتذته، وكذلك أخذ عن عدد وافر من العلماء الذين انتموا إلى مدرسة الإمام الصادق عليه السلام.

وربما لامه بعض من تأثر بدعاية خصوم الشيعة على اتصاله بمن عرف بالتشيع.

يحدثنا الخطيب البغدادي: أن عبد الرحمٰن بن صالح الشيعي(١) كان يغشى أحمد بن حنبل، فيقربه أحمد ويدنيه، فقيل له: يا أبا عبد الله عبد الرحمٰن رافضي. فقال: سبحان الله؟! رجل أحب قوماً من أهل بيت النبي ﷺ نقول له لا تحبهم: هو ثقة(٢).

أما العلماء الذين أخذ عنهم أحمد فقد ذكر علماء الرجال كثيراً من الشيعة أنهم كانوا من شيوخ أحمد، وكذلك ذكرهم ابن الجوزي في مناقب أحمد، منهم:

١ ـ إسماعيل بن أبان الأزدي أبو إسحاق الكوفي، المتوفى سنة ٢١٦هـ وهو من شيوخ البخاري وابن معين أيضاً.

٢ ـ إسحاق بن منصور السلوي أبو عبد الرحمٰن الكوفي، المتوفى سنة ٢٠٥هـ وقد خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

٣ ـ تليد بن سليمان المحاربي أبو سليمان الكوفي، المتوفى سنة ١٩٠هـ روى له الترمذي في صحيحه وقال فيه أحمد: إن مذهبه التشيع ولم أرَ به بأساً.

٤ ـ الحسين بن الحسن الفزاري أبو عبد الله الأشقر الكوفي، المتوفى سنة ٢٠٨هـ خرج حديثه النسائي.

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن صالح أبو محمد الأزدي، المتوفى سنة ٢٣٠هـ كان من أهل العلم سكن بغداد، وكتب عنه أهلها. قال محمد بن موسى: رأيت يحيى بن معين جالساً في دهليز عبد الرحمٰن غير مرة، يخرج إليه أجزاء يكتب منها عنه. وقال فيه يحيى: عبد الرحمٰن بن صالح ثقة صدوق شيعي، لأن يخرّ من السماء أحب إليه من أن يكذب في نصف حرف.

(٢) تاريخ بغداد ج١٠ ص٢٦١.

٥ ـ خالد بن مخلد القطواني أبو الهيثم، المتوفى سنة ٢١٣هـ كان من كبار شيوخ البخاري وخرّج حديثه في صحيحه، ومسلم والنسائي ومالك بن أنس في مسنده.

٦ ـ سعيد بن خيثم بن رشد الهلالي أبو معمر الكوفي، المتوفى سنة ١٨٠هـ خرّج حديثه الترمذي والنسائي وابن ماجة.

٧ ـ عبد اللّٰه بن داود أبو عبد الرَّحمٰن الهمداني، المتوفى سنة ٢١٢هـ خرّج حديثه البخاري وأبو داود والترمذي وقال فيه أحمد: هو أثبت من شريك. وقال ابن سعد: كان ثقة يرحل إليه.

٨ ـ عبيد اللّٰه بن موسى العبسي أبو محمَّد الكوفي، المتوفى سنة ٢١٣هـ صاحب المسند. خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

٩ ـ عبد الرزّاق بن همام الصنعاني المتوفى سنة ٢١١هـ من كبار شيوخ أحمد والبخاري. خرّج حديثه أصحاب الصحاح.

١٠ ـ عباد بن العوام بن عمر بن عبد اللّٰه بن المنذر الواسطي، المتوفى سنة ١٨٥هـ قال ابن سعد: كان يتشيع، وكان من نبلاء الرجال.

وقد حبسه الرشيد زماناً ثم خلى عنه، وأقام ببغداد وسمع منه البغداديون، وهو من رجال الصحاح الستة.

١١ ـ محمَّد بن فضيل بن غزوان الضبي، أبو عبد الرَّحمٰن الكوفي، المتوفى سنة ١٩٥هـ وهو مصنف كتاب الزهد والدعاء، قال أحمد بن حنبل: محمَّد بن فضيل: حسن الحديث، شيعي. وخرّج حديثه أصحاب الصحاح.

١٢ ـ عائذ بن حبيب الملاح الكوفي، المتوفى سنة ١٩٠هـ بياع الأقمشة الهروي، خرّج له النسائي وابن ماجة.

١٣ ـ علي بن غراب الفزاري أبو الحسن الكوفي، المتوفى سنة ١٨٤هـ سئل عنه أحمد بن حنبل فقال: حديثه حديث أهل الصدق. وخرّج حديثه النسائي وابن ماجة.

١٤ ـ علي بن هاشم بن البريد العايذي مولاهم أبو الحسن الكوفي، المتوفى سنة ١٨٠هـ خرّج حديثه البخاري في الأدب المفرد. ومسلم في صحيحه، والترمذي والنسائي، وابن ماجة، وأبو داود.

١٥ ـ علي بن الجعد أبو الحسن الهاشمي مولاهم البغدادي الجوهري، المتوفى سنة ٢٣٠هـ روى له البخاري وغيره.

١٦ ـ الفضل بن دكين المعروف بأبي نعيم، المتوفى سنة ٢١٩هـ من رجال الصحاح الستة، وهو شيخ البخاري وأحمد وابن معين وإسحاق. قال فيه أحمد: الفضل ثقة يقظان عارف بالحديث.

١٧ ـ محمّد بن عبد الله بن الزبير بن عمر أبو أحمد الأسدي الزبيري مولاهم المكي، المتوفى سنة ٢٠٢هـ.

وقد نص ابن قتيبة في معارفه على تشيع جماعة هم من كبار شيوخ أحمد أمثال: يحيى بن سعيد القطان المتوفى سنة ١٩٨هـ ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧هـ وحميد بن عبد الرَّحمٰن الرواسي المتوفى سنة ١٩٠هـ وهشيم بن بشير الواسطي المتوفى سنة ١٨٣هـ[١] وغيرهم.

كما أن الإمام أحمد أخذ العلم عن جماعة من تلامذة الإمام الصّادق عليه السلام. والمنتمين لمدرسته، أمثال: إبراهيم بن سعد بن عبد الرَّحمٰن الزهري المتوفى سنة ١٨٣هـ وإبراهيم بن زياد المتوفى سنة ٢٢٨هـ وجرير بن عبد الحميد المتوفى سنة ١٨٨هـ ومكي بن إبراهيم المتوفى سنة ٢١٥هـ والضحاك بن مخلد الشيباني أبو عاصم النبيل المتوفى سنة ١٣١هـ وغير هؤلاء عدد كبير من الذين عرفوا بالتشيع وانتسبوا لمدرسة أهل البيت. والغرض أن الإمام أحمد لم يسلم من التصاق التهمة به بالميل للعلويين، والجنوح للشيعة وهم خصوم الدولة، وأعداء ذلك المجتمع الذي سادت به موجة من الفوضى والإرهاب. لأنه أظهر ما يدل على اتهامه من تفضيله للإمام علي ورواية مناقبه، واتصاله برجال الشيعة وأخذه عنهم، كما أنه وضع كتاباً خاصاً في فضائل علي ومناقبه، خرّج أحاديثه بالطرق الصحاح، وروى عنه جمع غفير.

أقوال العلماء:

رأينا كيف امتاز أحمد من بين أقرانه، فهل كان هو المنفرد بمنزلة لا يدانيه فيها

---

(١) المعارف لابن قتيبة ص٣٢٥.

أحد؟ أم أن الظروف رفعته دونهم وقدّمته على من هو أعلم منه، ولعل فيما نقدمه من أقوال معاصريه جواباً عن ذلك:

قيل لأبي داود: أحمد أعلم أم علي بن المديني؟ قال: علي أعلم باختلاف الحديث من أحمد.

وقال أحمد بن حامد: سمعت رجاء بن جابر المرجي يقول: رأيت ابن حنبل وإسحاق، وابن المديني والشاذكوني، فما رأيت أحفظ من عبد اللّه، يعني عبد اللّه بن عبد الرَّحمٰن الدارمي المتوفى سنة ٢٥٠هـ والذي كان يسميه أحمد بالسيد. وقال فيه ابن أبي حاتم إنه إمام أهل زمانه[١].

وقال أحمد: يحيى بن معين أعلمنا بالرجال. وقال ابن المديني: لا نعلم أحداً كتب من الحديث ما كتب يحيى بن معين[٢].

وقال ابن سلام: انتهى الحديث إلى أربعة: إلى أبي بكر بن شيبة، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني.

وقال الدارقطني في إبراهيم الحربي: إنه ثقة يقاس بأحمد في زهده وعلمه وورعه، وهو إمام مصنف عالم بكل شيء، بارع بكل علم صدوق[٣].

وقال أبو زرعة: ما رأيت أحفظ من أبي بكر بن شيبة. فقال له ابن خداش: يا أبا زرعة فأصحابنا البغداديون؟ قال: دع أصحابك إنهم أصحاب مخاريق، ما رأيت أحفظ من أبي بكر[٤].

وفي ترجمة عبد اللّه بن أحمد بن حنبل أن بعضهم قدمه على أبيه في الحفظ والسماع وعلل الحديث[٥].

وقال ابن المديني غير مرة: والله لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت بالله أني لم أر أحداً قط أعلم بالحديث من عبد الرَّحمٰن[٦].

---

(١) تاريخ بغداد ج١٠ ص٣١.
(٢) تذكرة الحفاظ ج٢ ص١٧.
(٣) معجم الأدباء ج١ ص١٢٥.
(٤) تذكرة الحفاظ ج٢ ص١٩.
(٥) تاريخ بغداد ج١ ص١٢٥.
(٦) تذكرة الحفاظ ج٢ ص١٩.

وقال ابن المديني: أعلم الناس لقول الفقهاء السبعة: الزهري ثم بعده مالك ثم بعده ابن مهدي(١).

وقال أحمد في أبي الوليد الطيالسي: أبو الوليد اليوم شيخ الإسلام ما أقدّم عليه من المحدثين أحداً.

وقال أبو عمران الطرسوسي في أبي مسعود الرازي: ما تحت أديم السماء أحفظ لأخبار رسول الله من أبي مسعود الرازي(٢).

وقال أبو الخصيب في البخاري: أنه أفقه وأبصر من ابن حنبل. وقال أبو عمر الخفاق: هو (أي البخاري) أعلم بالحديث من إسحاق وأحمد وغيرهما بعشرين درجة(٣).

وقال صالح بن محمّد: أعلم من أدركت بالحديث وعلله: علي بن المديني، وأعلمهم بتصحيف المشايخ: يحيى بن معين، وأحفظهم عند المذاكرة: أبو بكر بن شيبة(٤).

وقال إسحاق بن إبراهيم: إن الله لا يستحي من الحق؛ أبو عبيد أعلم مني، ومن أحمد والشافعي!

وأبو عبيد هذا من طبقة أحمد وأقرانه، فإن وفاته سنة ٢٢٤هـ وأما إسحاق فهو المعروف بابن راهويه المتولد سنة ١٦٤هـ والمتوفى سنة ٢٣٨هـ وهو في سن أحمد ومن أقرانه. وسئل أحمد عنه فقال: من مثل إسحاق. وقال النسائي: ابن راهويه أحد الأئمة. وقال ابن خزيمة: لو أن إسحاق بن إبراهيم كان في التابعين لأقرّوا له بحفظه وعلمه وفقهه. وقال محمّد بن يحيى الذهلي: إن إسحاق اجتمع بالرصافة مع أعلام الحديث منهم أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وغيرهما فكان صدر المجلس لإسحاق(٥).

---

(١) تذكرة الحفاظ ج١ ص٣٠٣.

(٢) طبقات الحنابلة ج١ ص٥٣.

(٣) تهذيب التهذيب ج٩ ص٦٧.

(٤) تاريخ بغداد ج١٠ ص٧٠.

(٥) تاريخ بغداد ج٦ ص٣٥٣.

وقال إبراهيم بن أبي طالب سألت أبا قدامة عن الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد فقال: الشافعي أفهمهم إلاّ أنه قليل الحديث، وأحمد أورعهم وإسحاق أحفظهم، وأبو عبيد أعلمهم بلغات العرب(١).

وقال محمّد بن أسلم الطوسي لما بلغه موت إسحاق بن راهويه: ما أعلم أحداً كان أخشى لله من إسحاق يقول الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ وكان أعلم الناس، ولو كان الحمادان والثوري في الحياة لاحتاجوا إليه.

وقال أحمد بن حنبل: لا أعلم لإسحاق بالعراق نظيراً(٢).

مذهبه وانتشاره:

لم ينل المذهب الحنبلي شهرة كغيره من المذاهب، وكانت خطى انتشاره قصيرة جداً، أما في بغداد فلم تكن له شهرة إلاّ بين طبقة عرفوا بالعنف والشدة في سيرتهم، وتحاملهم على غيرهم من المذاهب، أما خارج بغداد فهو غير معروف ولا منتشر، وكان يعتنقه في مصر أفراد معدودون، وذلك في القرن السابع. ولما ولي القضاء موفق الدين عبد الله بن محمّد بن عبد الملك الحجازي المتوفى سنة ٧٦٩هـ انتشر المذهب بواسطته، وقرب فقهاء الحنابلة وأصبح لهم شأن يذكر.

وفي سائر الأقطار الإسلامية كانت الغلبة للمذهب الحنفي والشافعي، وفي المغرب ساد مذهب مالك، وكان في الري عدد قليل من الحنابلة، وكذلك في الشام.

وقد علل ابن خلدون أسباب قلة أتباع أحمد بقوله:

أما أحمد فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد، وإصالته في معاضدة الرواية، وللأخبار بعضها ببعض، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها(٣).

ويذهب غيره إلى أن السبب يعود لعدم تقلد الحنابلة للقضاء، لأن ذلك هو سبب انتشار مذهب أبي حنيفة ومالك.

ومهما تكن الأسباب فإن المذهب الحنبلي انتشر في بغداد، وكانت الغلبة فيها

---

(١) تهذيب التهذيب ج٨ ص٣١٦.
(٢) تذكرة الحفاظ ج٢ ص٢٠.
(٣) مقدمة ابن خلدون.

للمذهب الشيعي[1] وقد قام الحنابلة بدور صراع عنيف مع الشيعة، ولكن لم يستطيعوا التغلّب عليه.

وفي سنة ٣٢٣هـ عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون دور القواد والعامة، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها فأرهجوا بغداد، وأقلقوا بال الحكومة، كما استظهروا بالعميان الذين يأوون إلى المساجد، فإذا مرّ بهم شافعي ضربوه بعصيهم حتى يموت[2].

فخرج توقيع الخليفة الراضي ينكر على الحنابلة فعلهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره، فمنه: (تارة إنكم تزعمون صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين، وهيئتكم الرذيلة على هيئته، وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين والمذهبين... والصعود إلى السماء، والنزول إلى الدنيا: تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً، ثم طعنكم على خيار الأمة، ونسبتكم شيعة آل محمّد ﷺ إلى الكفر والضلال، ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة، والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن، وإنكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع، وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذي شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله وتأمرون بزيارته، وتدّعون له معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، فلعن الله شيطاناً زين لكم هذه المنكرات وما غواه.

«وأمير المؤمنين (أي الراضي) يقسم بالله قسماً جهداً إليه يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم، ومعوج طريقتكم، ليوسعنكم ضرباً وتشريداً، وقتلاً وتبديداً، وليستعملنّ السيف في رقابكم والنار في منازلكم ومحالكم).

ومن هذا نستظهر أن أفكار المجسمة والحشوية كان انتشارها في الحنابلة مشهوراً، وهذا مما يؤدي إلى نفرة كثيرة من النفوس على ما في الحنابلة من شدة في الدعاية لنشر مذهبهم وإثارة الفتن، وغلظة المعاملة والعنف.

كما أن وقوع الفتن بين الحنابلة والشافعية أدت إلى تقلصه، ووقفت دون انتشاره، وخصوصاً أن العامة من الحنابلة قد اشتهروا في الأمر الذي يعتقدونه،

---

(١) انظر أحسن التقاسيم لشمس الدين محمّد بن أحمد المعروف بالشاري.

(٢) الكامل لابن الأثير ج٨ ص١١٧.

واتخذوا العنف ذريعة لإظهار ذلك التشدد، وأن مقابلتهم للشيعة ونسبتهم لهم إلى أمور لا تليق بهم قد أثر أثره في انتكاس الحنابلة وعدم انتشار مذهبهم، لأن أغلبية بغداد هم شيعة والحنابلة قلّة اتخذوا العنف وسيلة لانتصار مذهبهم.

ولما قامت الدولة الأيوبية، كان ملوكها شديدي التعصب للمذهب الشافعي، فحاربوا غيره من المذاهب، ولم يسمحوا لغيره من المذاهب إلاّ ما كان له من العامة كالمذهب المالكي.

وعندما أخذ نفوذ الدولة الأيوبية يضعف، أخذ ذلك المذهب ينتشر في مصر، ولقد جاء في الخطط للمقريزي أنه لم يكن له وللمذهب الحنفي كبير ذكر بمصر في الدولة الأيوبية ولم يشتهر إلاّ في آخرها.

ولما امتد سلطان العثمانيين أصاب المذهب الحنبلي ضربة قاضية (لأن العثمانيين كانوا حنفية) وأخذ ذلك يتضاءل شيئاً فشيئاً. أما في مصر فلم يكن له أي شهرة هناك، فقد كان في العصور المتأخرة عدد شيوخ الأزهر ٣١٢ شيخاً من جميع المذاهب، وعدد طلابه ٩٠٦٩، وكان من بينهم ٢٨ طالباً من الحنابلة و٣ شيوخ منهم فقط، ولكن ظهر في القرن الثامن عشر ميلادية بصورة قوية جديدة، بظهور الوهابيين الذين يتبين في مذهبهم أثر تعاليم ابن تيمية، وقد تطرّفوا في ذلك إلى حد بعيد.

الفقه الحنبلي:

قلنا سابقاً إن الإمام أحمد لم يدوّن كتاباً فقهياً يأخذ أتباعه عنه مذهبه، وهو محدث أكثر منه فقيه، وكان ينهى عن تدوين أقواله وآرائه، ولكن أصحابه أخذوا آراءه الفقهية من أقواله وأفعاله وأجوبته ورواياته، فكانوا إذا وجدوا عنه في مسألة قولين عدلوا أولاً إلى الجمع بينهما بطريقة من طرق الأصول، إما بحمل خاص على عام، أو مطلق على مقيّد، فإذا أمكن ذلك كان القولان مذهبه، وإن تعذر الجمع بينهما وعلم التاريخ فقد اختلف أصحابه في ذلك، فقال قوم: الثاني مذهبه. وقال آخرون: الثاني والأول. وقالت طائفة: الأول وإن رجع عنه.

ومن أجل هذا كانت المجموعة الفقهية المنسوبة لأحمد قد اختلفت فيها الأقوال والروايات عن أحمد بكثرة عظيمة، فإنهم قد يستنبطون من فعل أحمد أو أجوبته قولاً لا يدل عليه الجواب أو الفعل، وقد يحكي آخر خلافه، لأنه سمع من أحمد ما يناقض

استنباطه الأول، وهكذا تكثر الروايات وتختلف الأقوال المنسوبة إلى أحمد.

وكذلك اختلفوا في تعبير عبارات جاءت على لسان أحمد في إجابته عن مسائل سئل عنها، فكانت عباراته ليست صريحة في إثبات الحرمة، أو في بيان أن الحكم هو الطلب على سبيل الوجوب أو على سبيل الندب، فمثلاً كلمة (لا ينبغي) في كثير من إجاباته، فقد ذكروا أنه يستحب فراق غير العفيفة واحتجوا بقول أحمد: لا ينبغي أن يمسكها، فحملوا ذلك على الكراهة.

وسأله أبو طالب: عن الرجل يصلي إلى القبر والحمام والحش. قال أحمد: لا ينبغي. قال أبو طالب: فإن كان؟ قال: يجزيه.

وسأله أبو طالب فيمن يقرأ في الأربع كلها بالحمد وسورة؟ قال: لا ينبغي أن يفعل. فحملوا هذا على الكراهة، وكذلك قوله: أكره، أو لا يعجبني، أو لا أحبه، أو لا أستحسنه، حملوا ذلك كله على الكراهة.

ومنهم من يحمله على الحرمة، وقد نقل ابن القيم الجوزية روايات كثيرة عن أحمد جاءت بلفظ الكراهة، والمقصود التحريم.

وإذا جاءت رواية عن أحمد بلفظ: أحب، ويعجبني، أو أعجب إليّ، فعند الأكثر من الحنابلة يكون ذلك محمولاً على الندب، وقيل يحمل على الوجوب. وكذا إذا قال: هذا حسن أو أحسن. أما إذا قال أحمد: أخشى أو أخاف أو يكون أو لا يجوز، أو أجبن عنه فقيل: يحمل على التوقف لتعارض الأدلة، وقيل: هو على ظاهره.

وإن أجاب عن شيء، ثم قال عن غيره: أهون، أو أشد، أو أشنع فقيل هما سواء، إلى آخر ما لديهم من الاصطلاحات في تفسير أقوال أحمد إذ هي عمدة المذهب، وعليها ابتني التخريج والعمل، فهي بمثابة ما يروى عن النبي ﷺ.

قال ابن أبي يعلى: وليست جوابات إمامنا في الأزمنة والأعصار إلا بمثابة ما يروى عن النبي ﷺ من الآثار، لا يسقط نهايتها موجبات بدايتها إلا بأمر صريح بالنسخ أو التخيف، فإذا عدم ذلك كان على موجبات رعايته، فكذلك في جواباته إذ العلماء أنكروا على أصحاب الشافعي من حيث الجديد والعتيق، وإنه إذا ثبت القول فلا يرد إلا باليقين، فكذلك في جوابات إمامنا[1].

---

(١) طبقات الحنابلة ج٢ ص١٧٦.

وعلى أي حال فقد وردت في أجوبة أحمد ألفاظ حملها بعضهم على الكراهة، وبعضهم على الحرمة، فمثلاً أنه قال: أكره لحم الحية والعقرب، لأن الحية لها ناب والعقرب لها حمة. فحملوا ذلك على الحرمة.

وقوله: ويكره أن يتوضأ الرجل في آنية الذهب والفضة، وقوله في الجمع بين الأختين بملك اليمين: أكرهه ولا أقول هو حرام. قالوا: إن مذهبه الحرمة.

ومثل لفظ أكره قوله: لا يعجبني. وقد ساق ابن قيم الجوزية أمثلة كثيرة لحمل ذلك على الحرمة، ومن ذلك: أنه سئل عن رجل أكثر ماله حرام أيؤكل ماله ويغصب منه؟ فقال: إذا كان أكثر مال الرجل حراماً فلا يعجبني أن يؤكل ماله.

وسئل عن الخمر يتخذ ليكون خلاً فقال: لا يعجبني. إلى آخر ما ورد من تعبير هذه الألفاظ وحملها على أحد الوجهين، استناداً للقرائن.

وقد ثبت عن أحمد أنه كان يجيب عن بعض المسائل بلا أدري، نقل أبو داود أنه سئل عن المرأة تعدم الماء، ويكون مجتمع الفساق، فتخاف أن تخرج أتتيمم؟ قال: لا أدري[1].

كتب الفقه الحنبلي:

وقد ألف رجال المذهب الحنبلي كتباً في تدوين أقوال أحمد والروايات عنه، والتخريج عليها، ومن مجموع ذلك تكونت مجموعة فقهية نسبت إليه شأنه شأن غيره من المذاهب كما تقدم.

ومن أشهر الكتب التي تعد أصلاً من أصول الفقه الحنبلي: هو مختصر الخرقي، وهو عبد الله بن أبي بكر بن البدر الخرقي المتوفى سنة ٦٢٠هـ وقال فيه: أنه لم يخدم كتاب في المذهب مثل ما خدم هذا المختصر، وقد توافر عليه علماء الحنابلة بالشرح والتعليق، وأعظم شروحه المغني لموفق الدين المقدسي، قال الشيخ عبد القادر الدمشقي المعروف بابن بدران: وقد اطلعنا له (أي للمختصر) ما يقرب من عشرين شرحاً، وسمعت من شيوخنا وغيرهم أن من قرأه حصل له ثلاث خصال: إما أن يملك مائة دينار، أو يلي القضاء، أو يصير صالحاً.

---

(١) الطبقات ج١ ص٨٣.

ومنها: المستوعب، تأليف محمّد بن عبد اللّه بن الحسين السامري المتوفى سنة ٦١٠هـ. والكافي للشيخ موفق الدين المقدسي صاحب المغني. والعمدة له أيضاً، والهداية لأبي الخطاب الكوذاني، وقد تقدمت ترجمته. والمحرر لابن تيمية. والمقنع لموفق الدين المقدسي، وغيرها من كتب المذهب.

أصول الفقه الحنبلي:

وقد ذكر ابن قيّم الجوزية: أن الأصول التي بنى عليها الإمام أحمد فتاويه خمسة:

أحدها: النصوص، فإذا وجد النص أفتى بموجبه ولم يلتفت إلى ما خلفه، ولذلك قدم النص على فتاوى الصحابة.

الثاني: ما أفتى به الصحابة، ولا يعلم مخالفاً فيه، فإذا وجد لبعضهم فتوى، ولم يعرف مخالفاً لها لم يعدها إلى غيرها، ولم يقل إن ذلك إجماع، بل يقول من ورعه في التعبير: لا أعلم شيئاً يدفعه.

الثالث: أنه إذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم أقربها إلى الكتاب والسنّة، ولم يخرج عن أقوالهم، فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف ولم يجزم بقول.

الرابع: الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه، وهو الذي رجحه على القياس.

الأصل الخامس: إذا لم يكن عند الإمام أحمد في المسألة نص، ولا قول الصحابة أو واحد منهم، ولا أثر مرسل أو ضعيف، ذهب إلى القياس فاستعمله للضرورة، وقد نقل الخلال عن أحمد أنه قال: سألت الشافعي عن القياس فقال: إنما يصار إليه عند الضرورة[1].

ولكن كتب الأصول عند الحنابلة قد زادت على هذه الأصول، فذكروا الاستصحاب والمصالح والذرائع، وربما ذكروا الإجماع، وقبل الختام نعود إلى إيضاح الموقف بين المعسكرين، المعتزلة والمحدثين.

---

(١) أعلام الموقعين لابن قيم ج٢ ص٢٢ ـ ٢٦.

بين معسكرين:

كان النزاع بين المحدّثين والمعتزلة شديداً، وقد استطاع المعتزلة أن يتغلبوا على خصومهم، وأصبحت أمور الدولة بأيديهم، فمنهم الأمراء والقضاة، وهم أهل الحل والعقد، عندما وقع المأمون تحت سيطرتهم، وخضع لنفوذهم، وارتاح لأحاديثهم، لأنه كان متعطشاً إلى العلم والفلسفة وحرية العقل، ومشغوفاً بالمناقشة والجدال، والمعتزلة في وقته هم أقطاب الأدب، وأرباب الجدل، وطلاّب العلم والفلسفة.

قال الدميري: كان المأمون نجماً لبني العباس في العلم، والحكمة، وقد أخذ من العلوم بقسط وافر، وضرب فيها بسهم، وهو الذي استخرج كتاب أقليدس، وأمر بترجمته وتفصيله، وعقد في خلافته للمناظرة في الأديان والمقالات، وكان أستاذه أبو الهذيل العلاف[1].

وكان لأحمد بن أبي داود أكبر الأثر في تحقيق مآرب المعتزلة وأهدافهم، فهو قاضي الدولة، وصاحب السلطة التشريعية، وله عند المأمون مكانة لا يزاحمه بها غيره، فاستطاع بلباقته وغزارة علمه، وذلاقة لسانه، أن يحمل المأمون على القول بخلق القرآن. وإظهار ما يذهب إليه المعتزلة من آراء.

وكان المعتزلة يرون أن القول بقدم القرآن فكرة مسيحية، دست بين الجماهير الإسلامية، فيما كان يدس فيهم من أفكار، وقد تلقاها الجمهور بالقبول لما فيها من تقديس للقرآن الكريم، كما جاء في رسالة النصارى للجاحظ المعتزلي: إن الكائدين للإسلام يرتضون ويرحبون بمقالة الفقهاء والمحدثين الذين يروجونها عند العامة، لأنهم يتخذون من الحكم بأن كل كلام الله قديم، سبيلاً لأن يقيموا الحجة على أن المسيح قديم، وتكون تلك الحجة من الكتاب الكريم، إذ فيه أن المسيح كلمة الله، وكل كلام الله قديم، وكلمة الله قديمة فالمسيح قديم.

وإن الأخبار الصادقة تثبت أن النصارى الذين كانوا يعيشون بين المسلمين، يؤلمهم أن يدخل المسيحيون في دين الله أفواجاً، وكانوا يثيرون أفكاراً بين المسلمين، ويتخذون من هذه الأفكار حججاً لهم يجادلون بها عن دينهم.

وقد جاء في كتاب تراث الإسلام عن يوحنا الدمشقي الذي كان في خدمة

---

(١) حياة الحيوان ج١ ص٧٢.

الأمويين إلى عهد هشام بن عبد الملك: أنه كان يلقن بعض المسيحيين ما يجادلون به المسلمين فيقول: (إذا سألك العربي: ما تقول في المسيح؟ فقل إنه كلمة الله، ثم ليسأل النصراني المسلم: بم سمي المسيح في القرآن؟ وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم، فإنه سيضطر إلى القول إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه. فإذا أجاب بذلك، فاسأله عن كلمة الله وروحه، أوَ مخلوقة أم غير مخلوقة؟ فإن قال مخلوقة، فليرد عليه بأن الله كان ولم تكن كلمة ولا روح، فإن قلت ذلك فسيفحم العربي، لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين).

فالمعتزلة يرون أن من يقول إن القرآن قديم يمد النصارى بحجة يجادلون بها، وأن من الواجب ألاّ يقال ذلك، لأنه يعطي للخصوم حجة على الإسلام، ويفتح الثغرة لمن ينالون منه، وليس هو الحق، ومن قاله فقد ضاهى قول النصارى في المسيح، وحكم بتعدد القدماء، وجعل القرآن الذي ينطق به الناس قديماً كشأن الله سبحانه وتعالى[1].

وكان المحدثون يرون ألا يخوضوا في شيء لم يخض فيه السلف، كما أنهم يمنعون عن الفلسفة والكلام، لأنهم يرون أن العامة إذا تفلسفوا ألحدوا. وإذا قيل لهم إن القرآن مخلوق فذلك يساوي أنه يصح الرد عليه، يجوز الإتيان بمثله؛ أو أنه يؤدي إلى الاستهانة به، إلى غير ذلك مما توحيه إليهم عواطفهم وما يرونه لازماً عليهم.

وهذه المسألة في الواقع مسألة علمية يجب أن تبحث وتناقش نقاشاً منطقياً، ليظهر للملأ أحقية أي الحزبين.

وكذلك الخلاف في رؤية الله سبحانه وتعالى وصفاته، ينبغي أن تناقش بعلمية ويترك الأمر للبراهين والحجج ليتضح الحق.

وقد سلك المعتزلة في تأييد مذاهبهم طريق القوة، واستعملوا الشدة وأخذوا الناس بالمحنة، وجاؤوا بالعلماء من أطراف البلاد، ليحاكموهم، ويمتحنوهم في عقائدهم، ويتحكمون في ضمائرهم. فمالوا عن توجههم الفكري، ووقعوا في تناقض عملي صريح.

---

(١) ابن حنبل لمحمّد أبو زهرة ص٦٤.

فأصبح الناس لا يرون أن ذلك يرجع إلى قواعد علمية، أو أنها مسألة تنزيه الله سبحانه وتعالى، أو مغالبة رأي برأي، بل جعلوا ذلك محنة نزلت في الإسلام والمسلمين، فهم يرون السجون قد ملئت برجال المحدثين، والولاة في كل مكان يمتحنون الناس بقوة السلطان، فالجنود يسوقون الناس بسياطهم وسيوفهم إلى مجالس الامتحان، بل إلى محاكمات المعتزلة، وبهذا فقد كره الناس الاعتزال لأن الحكومة احتضنته، وأرادت فرضه بالقوة، والعقائد لا ينشرها التعذيب والإرهاب، وإنما ينشرها الإقناع والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. وقد وقع المعتزلة في سلوك يجافي ما ادعوه.

وبهذا استغل المشنعون على المعتزلة الفرصة، فأساؤوا إلى سمعتهم، وشوهوا دعوتهم، ودخلوا على أذهان العامة من الباب التي يتفق وعقليتهم.

كما أنهم التفوا حول المعارضين لهذه الدعوة، والثابتين في المحنة، وكلما ازدادت المحنة ازدادت العامة إيماناً بعقيدتهم، وتأييداً للرجال الذين لم يجيبوا إلى ما طلب منهم.

وكان امتحان أحمد بن حنبل لم يصل إلى حد السيف كغيره من العلماء الذين كانت نهايتهم القتل، والتأبيد في السجن، فقد نجا من ذلك وكان هو بقية الفئة التي ثبتت من المحدثين على الامتناع ـ بأي صورة كان ـ فكانت العامة تنظر إليه كبطل قارع خصمه وثبت على إيمانه.

فأصبح بعد رفع المحنة شخصية لها أثرها، لا سيما وأن السلطة قد لحظته بالعناية أيام المتوكل، عندما رفع المحنة، فكان محل ثقة الجماهير، واحترام العلماء من المحدثين، حتى أصبح حبه علامة الإيمان، وبغضه علامة الكفر. وأن من وثقه ابن حنبل وثق، ومن ضعفه ضعف. وانتصرت العامة أيام المتوكل بانتصار المحدثين.

انتصار المحدثين:

انتصر المحدثون بعد أن أفل نجم المعتزلة بانحراف المتوكل عنهم، وبذلك انفجر بركان غيظهم وظهر حقدهم الدفين، وانطلقت حركة الانتقام جامحة، فجاهروا بلعن المعتزلة ووصفوهم بكل قبيح، بل تجاوزوا الحد إلى سواهم ممن لم يكونوا على رأي أصحاب ابن حنبل.

واتخذوا تشييع الجنائز كمظاهرات لإظهار الشعور، والتظاهر بالسبّ لمن خالفهم، كما صنعوا في تشييع جنازة أحمد بن نصر التي مشى فيها جماهير العامة في بغداد، وصاروا يتمسّحون بالنعش حتى أن المتوكل تخوف من اجتماع العامة وتجمهرهم على ذلك النحو، فكتب إلى عامله يأمره بمنعهم من الاجتماع والحركة في مثل هذا وشبهه.

وكذلك فعلوا في جنازة ابن حنبل، فإنه يقال أن خلقاً كثيراً مشوا فيها، وحدّث أحد الذين شهدوها قال: إنه مكث طوال الأسبوع رجاء أن يصل إلى القبر فلم يتمكن إلاّ بشق النفس لكثرة ازدحام الناس عليه.

وهكذا تحولت تلك الجنازة إلى مظاهرة عظيمة، أظهر القوم فيها التفجع على الإمام الراحل، وطعنوا في أهل البدع (كما يرون) ولعنوهم (كما يشاؤون) ولزم بعضهم القبر وباتوا عنده، وجعل النساء يأتين إليه، فاضطرت السلطة إلى أن أرسلت حامية إلى ذلك الموضع منعاً لوقوع الفتنة[١].

وعلى أي حال: فقد كان المحدثون يصبون جام غضبهم على أعدائهم لعناً وقتلاً وتكفيراً، وتمادوا في مهاجمة المعتزلة حتى قالوا: إن المعتزلي لا تجوز الصلاة عليه، وإن دماءهم وأموالهم حلال للمسلمين، وفيه الخمس، وليس على قاتل الواحد منهم قود ولا دية ولا كفارة، بل لقاتله عند الله القربة والزلفى[٢].

وقد وضع بعضهم من الأحاديث ما شاؤوا، ومن المنامات ما أرادوا، وقام القصاصون في نشرها على ذلك المجتمع الذي سادت فيه روح النقمة بعد نشوة الانتصار.

كما حكموا على من لم يقل بمقالتهم في خلق القرآن بالكفر والخروج عن الدين، وكان أحمد نفسه يرى ذلك، فقد حكم على جماعة ممن أجاب في المحنة بالكفر.

وكان لا يرى إجزاء تحرير رقبة عبد يقول بخلق القرآن.

---

(١) المعتزلة لزهدي حسن جار الله ص١٨٥ ـ ١٨٦.

(٢) الفرق بين الفرق ص١٥١.

روى عبد الله بن أحمد قال: سئل أبي عن رجل وجب عليه تحرير رقبة مؤمنة فكان عنده مملوك لقنه أن يقول بخلق القرآن.

فقال أحمد: لا يجزي عنه عتقه، لأن الله تبارك وتعالى أمره بتحرير رقبة مؤمنة وليس هذا بمؤمن، هذا كافر(١).

وسئل عمن قال لفظي بالقرآن مخلوق، فقال: هذا لا يكلم، ولا يصلى خلفه، وإن صلى أعاد.

وبلغ أحمد أن القواريري سلم على ابن رياح، فلما أراد القواريري أن يزور ابن حنبل قال له: ألم يكفِ ما كان من الإجابة حتى سلّمت على ابن رياح؟ ورد الباب في وجهه، ونهى الشهود عن أن يشهدوا أمام قاضٍ جهمي (يريد معتزلياً) ولو استعدى عليه.

وقال في إحدى رسائله: إنهم يكفرون بالذنب. . . . وحكمهم ألاّ يكلّموا ولا يناكحوا ولا تؤكل ذبائحهم ولا تقبل شهادتهم حتى يتوبوا(٢). وكان يتهم من يتعرض لأصحاب الحديث بالزندقة(٣).

وكان أحمد لا يشيع جنازة من يقول بخلق القرآن، ولا يصلي عليه، ويرتب عليه أحكام الكفار.

كما أن أنصاره حكموا على من بغض أحمد بالكفر والبدعة. يقول قتيبة بن سعيد: أحمد بن حنبل إمامنا، من لم يرض به فهو مبتدع(٤).

وراحوا يرفعون من شأن المتوكل على ما فيه من مخالفة الدين، وبالغوا في الثناء عليه حتى قال قائلهم: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر يوم الردة، وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم، والمتوكل في إحياء السنة(٥).

ومدحوه بأشعار كثيرة، واغتفروا له سوء فعله، لرفعه المحنة، ورأى كثير من المحدثين رؤى في المنام تذكر أن الله غفر له.

---

(١) طبقات الحنابلة ج١ ص١٣١.
(٢) المدخل إلى مذهب ابن حنبل ص١٠.
(٣) الطبقات ج١ ص١٣٨.
(٤) طبقات الحنابلة ج١ ص١٥.
(٥) المناقب ص٣٥٦.

وكذا نشط الحنابلة نشاطاً عظيماً في نظم الشعر الذي يرفع من شأن إمامهم ويقوي دعائم مذهبهم، ويحط من شأن أعدائهم، يقول مزاحم الخاقاني في مدح أحمد:

لقد صار في الآفاق أحمد محنة وأمر الورى فيها فليس بمشكل
ترى ذا الهوى جهلاً لأحمد مبغضاً وتعرف ذا التقوى بحب ابن حنبل

ويقول ابن أعين:

أضحى ابن حنبل محنة مأمونة ويحب أحمد يعرف المتنسك
وإذا رأيت لأحمد متنقضاً فاعلم بأن ستوره ستهتك(١)

وقال محمّد بن أحمد بن الحسين الموصلي قصيدة طويلة منها:

وانظر بعين الاعتبار ولا تكن ذا غفلة عن طاعة الديّان
واقصد لمذهب أحمد بن محمّد أعني ابن حنبل الفتى الشيباني
فهو الإمام مقيم دين المصطفى من بعد درس معالم الإيمان

إلى أن يقول:

فعلى ابن حنبل السّلام وصحبه ما ناحت الورقاء بالأغصان
إنـي لأرجو أن أفوز بحبه وأنال في بعثي رضى الرّحمن(٢)

ويقول عبد الله بن محمّد الأنصاري في قصيدة يرثي أحمد:

وإمامي القوام لله الذي دفنوا حميد الشأن في بغدان
أنا حنبلي ما حييت وإن أمت فوصيتي ذاكم إلى إخواني

ويقول جعفر بن أحمد السراج:

لله رب الناس مذهب أحمد فإن عليه ما حييت معولي(٣)

ويقول أبو علي بن المتوكل على الله:

يا ذا الذي أضحى يصول ببدعة وتشيّع وتمشعر وتمعزل

---

(١) جلاء العينين للألوسي ص١١٥.
(٢) طبقات الحنابلة ج١ ص٢٥٧.
(٣) المناقب لابن الجوزي ص٣٣٢ ـ ٣٣٣.

لا تنكرن تحنبلي وتسنني   فعليهما يوم المعاد معولي
إن كان ذنبي حب مذهب أحمد   فليشهد الثقلان أني حنبلي(١)

وهكذا يستمر الحنابلة في نصرة المذهب بالأقوال والأفعال، فهم يبثون فضائل أحمد ومزاياه، ووجوب تفضيل مذهبه على غيره، بشتى الوسائل والطرق.

ولما قويت شوكة المحدثين ـ وعلى رأسهم الحنابلة ـ وتعالت سلطتهم حتى كانوا حكومة داخل حكومة، أخذوا ينشرون المذهب بكل نشاط وقوة، ويوقعون الشر بمن يخالفهم بالرأي حتى ذكروا: أن محمّد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ ألّف كتاباً في اختلاف الفقهاء لم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فسئل عن ذلك. فقال: لم يكن أحمد فقيهاً إنما كان محدثاً، وما رأيت له أصحاباً يعول عليهم. فأساء ذلك الحنابلة، وقالوا: إنه رافضي. وسألوه عن حديث الجلوس على العرش؟ فقال: إنه محال وأنشد:

سبحان من ليس له أنيس   ولا له في عرشه جليس

فمنعوا الناس من الجلوس إليه، ومن الدخول عليه، ورموه بمحابرهم. فلما لزم داره، رموه بالحجارة حتى تكدست، وحتى ركب صاحب الشرطة، ومعه ألوف من الجند لمنع العامة عنه، ورفع الحجارة.

وهذا مما يدل على تعصب الحنابلة وشذوذهم في نشر مذهبهم، وما أكثر الحوادث التاريخية التي دلت على أن حركتهم في غالب الأحوال حركة جماهيرية وهي لا شعورية. وكانت نشوة الانتصار على خصومهم قد جعلتهم يتشددون ويتعصبون، وقد استمسكوا بألفاظ لا يفهمون معانيها. وكان موضوع مناقشتهم مسألة خلق القرآن، فخاضوا في هذه المسألة على غير علم، ولقد كان يكفي أن يقول الرجل القرآن غير مخلوق حتى يستجاز قوله، وإن تردد ولو للتروي والتفكير نبذ ورد(٢).

ولقد استنكر المفكرون من الأمة تلك الحال، حتى لقد ألف ابن قتيبة ـ الذي كان يعيش في ذلك العصر ـ رسالة وصف فيها كيف كانت الاختلافات تجري بحدة وعنف، بين الذين لا يعلمون في هذه المسألة، ويتكلمون من غير بينة، وكيف كان

---

(١) طبقات الحنابلة ج١ ص٢٣٥.
(٢) ابن حنبل لمحمّد أبو زهرة ص٣٩٤.

المحدثون وعلى رأسهم الحنابلة يكفرون أو يحكمون من غير بينة على كل من لم ينطق بكلمة قديم، مضافة إلى أي شيء يتصل بالقرآن.

وقال في وصف المحدثين، ثم الحنابلة:

كان آخر ما وقع من الاختلاق أمر أخص بأصحاب الحديث، الذين لم يزالوا بالسنة ظاهرين، وبالاتباع قاهرين، يداجون بكل بلد ولا يداجون، ويستتر منهم بالنحل ولا يستترون، ويصدعون بحقهم الناس ولا يستغشون لا يرتفع بالعلم إلاّ من رفعوا، ولا يتضع فيه إلاّ من وضعوا، ولا تسير الركبان إلاّ بذكر من ذكروا، إلى أن كادهم الشيطان بمسألة لم يجعلها الله تعالى أصلاً في الدين، ولا فرعاً في جهلها سعة، وفي العلم بها فضيلة، فنمىٰ شرها، وعظم شأنها. حتى فرقت جماعتهم، وشتت كلمتهم، ووهنت أمورهم، واشمتت حاسديهم.

وهذه المسألة التي كانت بهذه الشدة واللجاجة في الخصومة والعداوة، فإنها كانت محنة لأحمد في حياته من الأمراء والخلفاء، ثم كانت محنة الفكر من بعده، فالعامة لا يقبلون قولاً من أحد إلاّ إذا قدمه بوصف القدم لما يتصل بكتاب الله تعالى.

ويقول ابن قتيبة: ربما ورد الشيخ المصر فقعد للحديث، فيبدؤونه قبل الكتابة بالمحنة، فالويل له إن تلعثم أو تمكث، أو سعل أو تنحنح قبل أن يعطيهم ما يريدون، فيحمله الخوف من قدحهم فيه، وإسقاطهم له، على أن يعطيهم الرضا، فيتكلم بغير علم، ويقول بغير فهم، فيتباعد من الله في المجلس الذي أمل أن يتقرب فيه، وإن كان ممن يعقد على مخالفتهم سام نفسه إظهار ما يحبون ليكتبوا عنه.

وإن رأوا حدثاً مسترشداً، أو كهلاً متعلماً سألوه، فإن قال: أنا أطلب حقيقة هذا الأمر، وأسأل عنه، ولم يصح لي شيء بعد، وإنما صدقهم عن نفسه، واعتذر بعذره والله يعلم صدقه، كذبوه وآذوه، وقالوا خبيث فاهجروه[١].

ومن هذا يظهر أن للعوام سلطة لا يمكن لأحد من ذوي الفهم أن يقف أمامها، وليس للعلماء رأي في ذلك الصراع، ومما يؤيد ذلك:

إن شيخ الحنابلة أبو جعفر عبد الخالق بن عيسى، توفي وأراد العوام أن ينبشوا قبر أحمد ويدفنوه معه، ولم يستطع أحد أن يقول للعوام لا تنبشوا قبر أحمد وادفنوه

(١) نفس المصدر.

بجنبه، فقال أبو محمّد التميمي من بين الجماعة: كيف تدفنونه في قبر الإمام أحمد وبنت أحمد مدفونة معه!! فإن جاز دفنه مع الإمام فلا يجوز دفنه مع بنته؟ فقال بعض العوام: اسكت فقد زوجنا بنت أحمد من الشريف (أي أبو جعفر) فسكت التميمي[١] ودفنوه مع أحمد في قبره!

وهكذا تسير الأمور على غير تروٍ وتدبر ويبتلى المسلمون بهذا البلاء، وتقع تلك الحوادث المؤلمة التي صدعت وحدة الصف، وفرقت الكلمة، وفسحت المجال لخصوم الإسلام للتدخّل في ذلك المعترك، لبثّ أفكارهم المسمومة ونشر آرائهم الفاسدة.

لقد كان هذان المعسكران في صراع فكري ونزاع عقائدي، وكان الأولى ألا يتعدى ذلك حدود المنطق والنقاش العلمي، وأن يقتصر ذلك على العلماء المفكرين، ومن الخطأ أن يفرض تقبّل الآراء الفلسفية على العوام، ويراد منهم أن يعرفوا الجوهر والعرض، والكمية والكيفية، والمحدود واللامحدود، والمكان والجهة...

فالمعتزلة ـ وهم قادة تلك الحملة ـ كانوا الداعين إلى حرية الفكر، والقائلين بسلطة العقل، قد خالفوا دعوتهم فعاملوا الناس بالشدة، وقوة السلطة، والتعذيب والتنكيل والإهانة، مما حمل العامة على التذمّر والالتفاف حول من يعهد به مقاومة تلك الشدة، ومخالفة السلطة حتى كان ما كان من تعلّق الجماهير بشخصية أحمد وجعلها في هالة القداسة والعظمة، وازداد نشاطهم في المنامات كثرة هائلة، حتى توصلوا إلى تأييد قولهم في خلق القرآن إلى إيجاد منام أشبه بمحاكمة، وتكون النتيجة أن الله سبحانه وتعالى يصدق قول أحمد، ويصوّب رأيه.

وجعلوا جنة عدن وقفاً على الحنابلة لا يدخلها إلاّ من أحب أحمد[٢] إلى غير ذلك مما نشط فيه العوام، وتلقوه من القصاصين في لزوم التمسك بمذهب أحمد، واعتبار غيرهم مبتدعة كفرة، وبهذا الاندفاع فقد تغيرت الأحوال، وانعكست المفاهيم، وحدث من وراء ذلك ما لا تحمد عقباه.

فعمل المعتزلة وتشددهم يعد في الواقع هو السبب في إثارة تلك الأعاصير،

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٣ ص٣٣٧.

(٢) مناقب أحمد لابن الجوزي ص٤٤٧ ـ ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

وهم مسؤولون عن انتكاسهم بعد ذلك النشاط، وهزيمتهم أمام قوة المحدثين، ورجوع الأكثرية إلى الجمود، والتسليم خضوعاً للعاطفة، وامتثالاً لأمر السلطة، يقول المسعودي: لما أفضت الخلافة للمتوكل أمر بترك النظر، والمباحثة في الجدال، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق، وأمر الناس بالتسليم والتقليد، وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنّة والجماعة.

وقال الدكتور أحمد أمين: ولما ذهب ضوء المعتزلة، وقع الناس تحت سلطان المحدثين وأمثالهم من الفقهاء، وظلوا تحت هذا السلطان من عهد المتوكل إلى ما قبل اليوم بقليل، فكانت النتيجة جموداً بحتاً، وعلم العالم أن يحفظ الأحاديث ويرويها كما سمعها ويفسّرها تفسيراً لغوياً، ويشرح رجال السند كما شرحه الأقدمون: هذا ثقة، وهذا ضعيف. من غير نقد عقلي؛ وفقه الفقيه أن يروي أقوال الأئمة قبله، فإذا عرضت مسألة جديدة لم تكن، فقصارى جهد المجتهد أن يخرجها على أصول إمامه، فهذه طبائع العلماء من عهد المتوكل، تسليم بالقضاء والقدر، وتسليم بما كان ويكون، وتقليد للسابقين، وتقليد في الفتاوى والآراء، ومن ثمة تكاد تكون الكتب المؤلّفة في الحديث والفقه والتفسير، بل والنحو واللغة من عهد المتوكل صورة واحدة، وإن اختلفت في شيء فاختلاف في الإطناب والإيجاز، والبسط والاختصار، أما الترتيب فواحد وأما الأمثلة فواحدة، وأما العبارة الغامضة في الكتاب الأول فغامضة في الكتاب الأخير، كلها خضعت لأمر المتوكل بالتسليم والتقليد، وانعدمت فيها كلها الشخصية. لأن الشخصية عدوة التسليم والتقليد، ولو بقي الاعتزال لتلون المسلمون بلون آخر أجمل من لونهم الذي تلونوا به[1].

ملاحظات حول انتصار الحنابلة:

وعلى ضوء ما تقدم يجب أن نلحظ الأمور التالية:

١ ـ إن ذلك الضغط الذي فرضه المعتزلة كان سبباً في زيادة النتائج السيئة التي أدت إلى أفول نجمهم وهدم كيانهم. كما وأن المحدثين قد نفعهم ذلك بالتفاف الجماهير حولهم، حتى اكتسبوا النصر ورجحت كفتهم، فقابلوا المعتزلة بالمثل؛ بل زادوا على ما فعل أولئك من الانتقام من خصومهم، وازدياد نشاطهم إلى إيجاد أمور

(١) ضحى الإسلام، أحمد أمين ج٣ ص٢٠٣ ـ ٢٠٤.

لا تتمشى مع روح الإسلام، من التهجم على من لم يوافقهم في الرأي، والطعن على كثير من الشخصيات وإكفار من شاؤوا تكفيره، بدون ميزان شرعي.

ولو سار المعتزلة في غير طريق الشدة، ولم يجعلوا للقوة دخلاً في نشر مبادئهم في دعوة الناس إلى حرية الفكر، وإعمال العقل، لكان أولى وأجدر، ولم يحدث ما حدث من تلك الانتكاسة الفظيعة، التي كان من ورائها انطلاق الأحقاد، وانفجار الضغائن الكامنة.

وكذلك المحدثون بعد انتصارهم لو أنهم نهجوا نهجهم الذي كانوا يسيرون عليه من المحافظة على العادات والتقاليد الموروثة، وعدم الخوض في شيء لم يخض فيه السلف، لكان ذلك أجدر وأنفع، وبهذا يكون كل معسكر قد أدى واجبه وحقق أهدافه على ضوء المنطق.

ولكن ذلك الصراع الذي أوجد تلك الثورة العقائدية، وانتصار طائفة على طائفة، واستعمال القوة في تطبيق المبادىء، كل ذلك أوجد تلك العوامل التي حلّت بالمجتمع الإسلامي مما أدى إلى العداء والاتهام بالباطل، والخروج عن الموازين العلمية، والحدود الشرعية.

٢ ـ لم يكن المذهب الحنبلي من المذاهب المنتشرة أو ذات الأهمية، وكاد يُمحى أسوة بغيره من المذاهب، لولا قيام ابن تيمية وانتصاره لمذهب أحمد، وربطه بعقائد السلف الذين لا يرون تأويل ما ورد في الصفات، ومبالغته في الإنكار على الأشاعرة، فافترق الناس فيه إلى فرقتين، فريق يقتدي به، ويقول بأقواله، ويعمل برأيه، ويرى أنه شيخ الإسلام، وأجلّ حفّاظ الأمة الإسلامية، وفريق يبدعه ويضلّله، ويزري عليه بإثبات الصفات، وينتقد عليه مسائل ما له فيها سلف.

وفي القرن الثاني عشر ظهر الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب[1] المتولد سنة

---

(١) ولد محمّد بن عبد الوهاب في بلدة العيينة بنجد سنة ١١١٥هـ ١٧٠٣م ودرس الفقه الحنبلي، واقتدى بابن تيمية، ورحل إلى المدينة والبصرة، وبغداد، وكردستان، وهمذان، وأصفهان وعاد إلى بلاده وأظهر طريقته وأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحارب البدع، واستعان بمحمّد بن سعود في تأييد دعوته إلى أن توفي سنة ١٢٠٦هـ ١٧٩١م واعتنق آل سعود هذه الدعوة، وحاربتهم الدولة العثمانية وهزمهم والي مصر محمّد علي باشا، ولم يتمكن من القضاء على هذه الحركة وبقيت لها السيادة في نجد وفي أصقاع المملكة العربية السعودية إلى اليوم.

١١١٥هـ والمتوفى سنة ١٢٠٦هـ فأنكر على الناس استغاثتهم بالنبي ﷺ عند قبره، وأظهر أنه يأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان قد درس الفقه على أبيه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان على المذهب الحنبلي، فأهل نجد حنابلة لأنهم وهابية. قد اعتنقوا في العقائد مذهب ابن عبد الوهّاب، وهو يعتنق فيه مذهب ابن تيمية في العقائد والفقه، وابن تيمية لم يكن مقلداً، بل كانت له مسائل ينفرد بها، ويفتي على رأيه، ولكنه معدود من الحنابلة، مع أن له أقوالاً وفتاوى يخالف بها المذاهب الأربعة، أو يخالف المشهور منها فمن ذلك:

القول بقصر الصلاة في كل ما يسمى سفراً طويلاً كان أو قصيراً، كما هو مذهب الظاهرية.

القول بأن سجود التلاوة لا يشترط له وضوء كما يشترط للصلاة.

وأن من أكل في شهر رمضان معتقداً أنه ليل، فبان نهاراً لا قضاء عليه.

وجواز الوضوء بكل ما يسمى ماء مطلقاً كان أو مضافاً، وأن المائع لا ينجس بوقوع النجاسة فيه، إلاّ أن يتغير قليلاً كان أو كثيراً.

وكان يذهب إلى التكفير بالحلف بالطلاق، وأن الطلاق الثلاث لا يقع إلاّ واحدة، وأن الطلاق المحرم لا يقع[1].

وقد امتحن بسبب فتواه بالطلاق وسجن، ومن هذا يظهر أن ابن تيمية لم يكن مقيداً بمذهب معين، فقد كان يفتي في بعض الأحكام بما أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، وفي بعضها يفتي بخلافهم أو بخلاف المشهور من مذاهبهم، كما كان ينهى عن التقليد، أو الالتزام بقول واحد من الأئمة[2] كأنه لم يكن حنبلياً إذا قسناه برجال المذاهب الأخرى في التزامهم وتقيدهم، وإنما كان يلتقي معهم في مسائل الصفات وعدم تأويلها.

٣ ـ ولا يفوتنا أن نلحظ نشاط الوضّاعين للأحاديث على رسول الله ﷺ ويقصدون بذلك تأييد السنة والانتصار على المبتدعة ـ وهم كل من خالفهم في الرأي ـ فهذا أحمد بن عبد الله الأنصاري يحدّث عن نافع عن ابن عمر في قول الله تعالى:

---

(١) العقود الدرية في مناقب ابن تيمية ص٣٣٢.

(٢) جلاء العينين للألوسي ص١٠٧.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ فأما الذين ابيضت وجوههم أهل السنّة والجماعة، وأما الذين اسودت وجوههم أهل الأهواء والبدع.

وهذا أحمد بن حرب الملحمي كان من الكاذبين، وقد وضع حديثاً على رأي الحنابلة بسند عن أبي هريرة مرفوعاً: (من قال إن القرآن مخلوق فهو كافر)[1].

ومثله أحمد بن عمر بن مصعب بن بشر بن فضالة المروزي فقيه كذاب. قال الدارقطني: كان حافظاً عذب اللسان في السنّة والردّ على المبتدعة، لكنه يضع الحديث. وقال ابن حيان: كان ممن يضع الحديث ويقلب الأسانيد، لعله قد قلب على الثقاة أكثر من عشرة آلاف حديث[2].

ومن أبطال الوضّاعين لنصرة المبادىء وحب الغلبة: أحمد بن عبد اللّه الجويباري، ويقال: الجوباري، وجوبار من عمل هرات، نقل الحاكم عن الحافظ سهل بن السري: أن أحمد الجويباري، ومحمّد بن عكاشة وضعوا على رسول الله ﷺ عشرة آلاف حديثاً. ومن آفاته أنه روى أن حضور مجلس عالم خير من حضور ألف جنازة، ومن ألف ركعة، ومن ألف حجة، ومن ألف غزوة.

وروى أيضاً مرفوعاً: أن السنّة تقضي على القرآن. قال أبو سعيد: لا نعرف أحداً أكثر وضعاً للأحاديث منه. وكان يضع الحديث لمحمّد بن كرام ـ رئيس فرقة الكرامية من الحنابلة ـ على ما يريد، فكان ابن كرام يخرجها في كتبه، ويسميه أحمد بن عبد اللّه الشيباني[3].

ومنهم أبو بشر الحافظ أحمد بن محمّد الكندي، المتوفى سنة ٣٢٤هـ وكان أحد الوضاعين ومشهوراً بالكذب، وكان إماماً في السنّة والرد على المبتدعة[4] كما يقولون.

وغير هؤلاء ممن يضعون الأحاديث انتصاراً لمبادئهم والوقيعة في خصومهم. وقد سئل أحمد بن محمّد المعروف بغلام خليل، فأجاب بأننا نضعها لنرقق بها قلوب

---

(١) لسان الميزان ج١ ص٢٠٢ ـ ٢٥٩.

(٢) انظر تذكرة الحفاظ ج٣ ـ ٢٣. وتاريخ بغداد ج٥ ص٧٢.

(٣) لسان الميزان ج١ ص٢٩٣.

(٤) مرآة الجنان ج٢ ص٢٨٧.

العامة. وقد وضع هؤلاء أكثر من أربعين ألف حديث، أكثرها يعود لنصرة المبدأ والتغلّب على الخصم.

٤ ـ إن ذلك التهجم والاتهام بالباطل لم يقتصر على الفئتين المتخاصمتين، بل تعداه إلى كل من لم يشاركهم في الرأي حول الرؤية وخلق القرآن من جميع الطوائف، وكان للشيعة النصيب الأوفى من ذلك التهجم، والرمي بالباطل، وإلصاق التهم زيادة على ما هم عليه من معاداة السلطة لهم، ومطاردتهم في جميع الأدوار، لأنهم يحملون فكرة مقاطعة الدولة، إذ لا يعترفون بشرعية سلطان يتركز على الجور ويحكم بغير ما أنزل الله.

وكان دور المتوكل هو أعظم الأدوار، لأنه كان يبغض أهل البيت ويتبع الشيعة بكل أذى، حتى ملأ بهم السجون، وصبغ الأرض من دمائهم. ولم يخضعوا لآرائه أو يقفوا عن مقاومته.

وقد أمر عامله على مصر، وهو يزيد بن عبد الله، أن يطاردهم. فكانت سيرته معهم قاسية، فعاقبهم أشد العقاب، وقتل أكابرهم، وحمل منهم جماعة على أخشن مركب، وسيّرهم إلى بغداد. ولم يزدهم ذلك إلاّ ثباتاً في العقيدة وتمسكاً في المبدأ. ومعارضة لسلطة المتوكل وإعلان الغضب عليه.

كما أنه التفت إلى العلويين، فجرت عليهم منه شدائد من الضيق، وأخرجهم من مصر وذلك في سنة ٢٤٢هـ[١].

وقد أشرنا إلى الحوادث المؤلمة بين السنة والشيعة، أو بين الشيعة والحنابلة على الأخص، لأن الحنابلة هم أعداء المعتزلة بصورة عامة قد ربطوا بين الاعتزال والتشيع، ولم يجعلوا فارقاً بينهم على ما بين المعتزلة والشيعة من خلاف، ولكنه لم يتعد حدود المنطق والموازين العلمية، وكان أبطال الشيعة يقابلونهم بحجج واضحة وبراهين قاطعة، وكان هشام بن الحكم يناظر علماءهم فيفحمهم.

وإن كان المعتزلة يلتقون مع الشيعة ويشاركونهم في كثير من المسائل، وأهمها مسألة خلق القرآن والرؤية والتفضيل، فجعلوا من ذلك روابط تصلح لأن يتخذ أساساً للتفاهم بين التشيع والاعتزال، أو أنهم كانت تجمعهم المصالح المشتركة، وبهذا

(١) النجوم الزاهرة ج٢ ص٢٠٨.

نظروا إلى الشيعة والمعتزلة بمنظار واحد، ولم يفرقوا بينهم حتى قال الذهبي: إن الرفض والاعتزال تصادقاً وتواخياً.

ولما ضعف الاعتزال وزالت قوته بقي المذهب الشيعي يتمتع بقوته الروحية وصفاته المعنوية منفصلاً عن السلطة، ولم يخضع لها منذ نشأته، ولم تصدّع الدعايات كيانه، ولم يهبط عن مستواه بما قوبل به من كتل معادية، تحاول نزوله عن المستوى الذي هو فيه، وبقي يصارع الحوادث، ويتلقى الصدمات، من أجل الحق.

وقد اتجه الحنابلة بكل ما لديهم من قوة لمحاربة الشيعة وإلصاق التهم بهم، ووصفهم بما لا يليق بهم، فترى المؤرخين وعلماء الرجال منهم إذا أرادوا أن يؤرّخوا لِرِجَالِ الشيعة من أهل العلم والأدب، تجد هناك تقوّلاً بالباطل، ولعل الوقوف على ما كتبه ابن الجوزي وابن كثير وغيرهم شاهد على ما نقول. وقد أفتى البعض منهم بكفر الشيعة ووجوب قتلهم وإبادتهم، كابن تيمية وغيره[1].

وقد توارثت الأجيال تلك النعرة، وسرت تلك الفكرة في الأدمغة التي تحكّم فيها الجمود، ووجد أعداء الإسلام في ذلك أكبر عون لحلول الفرقة، وزيادة العداء والتباعد. وبمزيد الأسف أن بعض المؤلّفين في العصر الحاضر لم ينظروا لتلك الظروف التي نشأت فيها الخلافات، فتقبّلوا كل ما وجدوه مكتوباً عن تاريخ الشيعة من طعون وتقوّلات، ولو أنهم وقفوا وقفة مؤرخ منصف لبان لهم الحق.

٥ ـ كان بودي أن أشرح كثيراً من الأمور التي نجمت عن مشكلة خلق القرآن، ولكني خشيت أن يطول الموضوع وتتسع أطراف البحث.

كما كنت أرغب في الحديث عن قبر أحمد وتاريخ غرقه في دجلة، والإشارة إلى تعظيمه، ونقل رفات الموتى إليه، ولكني أرجأت ذلك إلى الأجزاء القادمة إن شاء الله.

نظرة عامّة:

ونعود والعود أحمد، نعود لنلقي نظرة حول المذاهب وانتشارها، بعد دراسة طويلة، وبحث واسع مجهد، وترويض للنفس على تحمّل الصعوبات، واجتياز العقبات، التي تحول بين الباحث وبين الوصول إلى الغاية.

---

(١) الدرر البهية في مناقب ابن تيمية ص١٨٢ ـ ١٩١.

وإن الناظر إلى تأريخ المذاهب يلزمه أن يروّض نفسه على أن يسير وفق الأمور التي يقتنع بصحتها، فإن هناك عاطفة وتعصباً، وهناك سياسة وتدخلاً، وهناك عداء وتحزباً، فلا بد إذاً من الوقوف وقفة المتبصر الطالب للحقيقة، المتجرد عن التحيّز والتعصّب، ليسهل عليه أن يقتطف زهرة الحقيقة من بين تلك الأشواك، ويعرف وجه الصواب، وتتضح له الأغراض التي كمنت وراء ستار شفاف من المظاهر.

لذلك ينبغي أن أشير إلى الصعوبة التي يلقاها الباحث عن المذاهب لوجود عقبات التعصّب، وترسبات الطائفية، وأن أكثر من كتب في هذا الموضوع لم يساعده التوفيق على ترويض نفسه لتحمل الصعوبات، وقد استعرضنا في أبحاثنا هذه إلى كشف الحقيقة وإظهار الواقع، وإن كنا قد تعمدنا ترك أشياء كثيرة ربما يكون بذكرها احتمال تحامل أو طعن، ونحن نبرأ إلى الله من ذلك، فلم نقصد إلاّ الخدمة للمصلحة العامة، ومحاربة تلك النعرات التي من ورائها خصومات وتشاجر، وفرقة وتباعد، واتهام بالباطل وهضم للحقائق وظلم للتاريخ.

وقد رأينا كيف انقسم العلماء في القرن الثاني إلى قسمين: أهل حديث وأهل رأي. وكان أهل المدينة يمثّلون القسم الأول، وأهل العراق يمثّلون القسم الثاني، وأصبح لكل جانب أنصار ومتعصبّون، واشتهر أبو حنيفة بالقياس وقلة الحديث.

سئل رقبة بن مسقلة عن أبي حنيفة فقال: هو أعلم الناس بما لم يكن، وأجهلهم بما كان. وقد روى هذا القول عن حفص بن غياث. يريد أنّه لم يكن له علم بآثار من مضى[1].

وأصبح أهل الحديث ينقمون على أهل الرأي، حتى خرج ذلك النزاع عن حدود المقاييس العلمية، وبلغ إلى التهاجي والتعصّب، فكان كل فريق يحاول الانتصار على الآخر، فهذا يهجو خصمه بشعره، وذلك يردّ عليه بالمثل، وتحيز لكل فريق جماعة، وتعددت عوامل الفرقة حتى أدّى ذلك إلى الطعن في العقائد، والحط من الكرامات.

قال أحمد بن الحسن لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله: ذكروا لابن أبي قتيلة بمكة أصحاب الحديث فقال: أصحاب الحديث قوم سوء. فقال أبو عبد الله ـ وهو

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢١٣.

ينفض ثوبه ـ ويقول: زنديق، زنديق، زنديق، ودخل البيت[1].

وفي ذلك العصر اتسع نطاق النشاط العلمي، فكان في كل بلد إمام له مذهب ينسب إليه، ففي الشام مذهب الأوزاعي، وفي مصر مذهب الليث بن سعد، وفي الكوفة مذهب سفيان الثوري وابن عيينة، وغيرها من المذاهب التي انقرضت ولم يكتب لها البقاء.

ولكن المذهب الحنفي قد سعد دون غيره برجال دونوا فيه وألّفوا، وكانت لهم السلطة التشريعية، فأبو يوسف قاضي قضاة الدولة العباسية كان يتولى نشر المذهب بقوة سلطانه، ونفوذ أمره.

وإذا أردنا أن نقيس شهرة أبي حنيفة في عصره، ومنزلته في مجتمعه، فلا يعدو أن يكون واحداً من الشخصيات التي نبغت في ذلك العصر، بل كان الكثير منهم يفوقه شهرة.

ولكنه على مر الزمن أصبح أبو حنيفة يذكر اسمه بالإعجاب في العالم الإسلامي، ويجب أن يلاحظ. وذلك كنتيجة للعصور المتأخرة ولتلامذة أبي حنيفة، وعلى الأخص لمحمّد بن الحسن الشيباني. فقد كتبوا كتباً ودونوا فيها كل العلوم والتجارب، وأضافوها إلى السلف وختموا كل ذلك بخاتم راويهم الأخير وهو أبو حنيفة، فكان من أجل ذلك عند الأجيال المتأخرة هو المبدع الوحيد، والمؤسّس لعلم الفقه وطريقته، والفقهاء الكبار الذين عاشوا قبله، والذين عاصروه لا يعرف عنهم شيء، من أجل نقص الكتب التي تحمل اسمهم. ومن ناحية أخرى فقد كانت مساهمة تلامذة أبي حنيفة في تكوين الروايات وتكميلها غير منفصلة عن عمل أستاذهم[2].

وكان لتلامذة أبي حنيفة آراء خاصة، فإنك تجد في كتب الحنفية أقوال أبي يوسف، ومحمّد بن الحسن، وزفر بن الهذيل، حسب ما يظهر لهم من المعاني والآثار فوافقوا أبا حنيفة في بعضها، وخالفوه في كثير من الآراء والأقوال، وقد حاول بعض الحنفية أن يجعل أقوالهم المخالفة لأبي حنيفة أقوالاً له رجع عنها، أو أن أبا حنيفة جعل ما يصح من الحديث مذهباً له، فتكون أقوال تلامذته التي اجتهدوا فيها

(١) طبقات الحنابلة ج١ ص٣٨.

(٢) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص٢٣٥.

واستخرجوها من الأحاديث هي أقوال أبي حنيفة وآرائه، وبهذا تكوّن المذهب ونسب المجموع إليه.

وهكذا مذهب مالك بن أنس فقد تولى نشره سلطان الأندلس، عندما بلغه ثناء مالك عليه، وكان يحيى بن يحيى المتوفى سنة ٢٣٣هـ مكيناً عنده، قال أحمد بن خالد: لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس ـ منذ دخلها الإسلام ـ من الحظوة وعظيم القدر، وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى.

وكان السلطان لا يولي قاضياً في أقطار الأندلس إلا بمشورته واعتباره، ولا يشير إلا بأصحابه، والناس سراع إلى الدنيا. فأقبلوا على ما يرجون به بلوغ ما يرضيهم[(١)].

كما أن مالك نفسه كان مكيناً عند العباسيين يصلونه بجوائزهم، ويرفعون من شأنه، حتى أن الأمراء كانوا يخشون سطوته، والحرس يأتمرون بأمره، بسجن من يريد سجنه، وإطلاق من يريد إطلاقه، وكان يحضر عند الوالي، فيعرض عليه السجن فيأمره بضرب هذا مائة، وهذا مائتين، وقطع هذا، وصلب ذاك[(٢)].

وحاول المنصور أن يجعل مالك هو المصدر للتشريع، فنهى غيره من العلماء عن الإفتاء، وطلب منه أن يضع كتاباً يحمل الناس على العمل به.

وقد رأينا فيما سبق أن المنصور قد غضب عليه قبل ذلك لفتوى تخالف غرضه، فعذّب مالك، وضرب خمسين سوطاً حتى انخلعت كتفه. وهذا ما يدلّنا على أن المنصور يناصر العلماء ما لم تمس تعاليم أحدهم بصالح سلطانه، فهو يرى أن مركز الخلافة فوق كل شيء، وقد طارد العلماء الذين انتقدوا أعماله.

أما الشافعي ـ وهو تلميذ مالك ومن عداد أهل الحديث ـ فقد انتشر مذهبه بمصر بواسطة تلامذته، ومكانتهم في مجتمعهم، وقد زاحم مذهبه مذهب مالك حتى تعصب عليه أصحاب مالك فقتلوه شهيداً[(٣)] وجاءت الدولة الأيوبية، وكان ملوكها شافعية، فناصروا مذهب الشافعي ونشروه، وبنوا له المدارس، فأقبل الناس عليه.

---

(١) ابن خلكان ج٢ ص١١٦.

(٢) مالك بن أنس لأمين الخولي ص٣١٩.

(٣) توالي التأسيس لابن حجر ص٨٦.

وقد أشرنا عن قريب في هذا الجزء إلى مذهب أحمد وانتشاره، وكيف تكون، فلا نطيل الحديث بذلك.

وصفوة القول أن المذاهب الأربعة المعمول بها كانت تنتشر تحت تأثير عوامل لو ساعدت غيرها من المذاهب السنية المعمول بها في ذلك الزمن لطال عمرها، وامتد الزمن بها، كمذهب الأوزاعي، والظاهري، وابن جرير، والأعمش، والليث بن سعد وغيرهم.

وكان من وراء تأثير الدعاية القوية للمذاهب الأربعة ومناصرة السلطات لها أن أقبل الناس عليها وهجروا ما سواها، وقد صدر مرسوم في عهد المنتصر العباسي، يقضي بالالتزام بقول المشايخ السابقين، وأن لا يذكر قول مع أقوالهم، وأفتى علماء الأمصار بوجوب اتباع المذاهب الأربعة، وتحريم ما عداها، وبهذا أغلق باب الاجتهاد في وجوه أتباع المذاهب الأربعة. ولا قائل من السلف بغلق باب الاجتهاد، وبهذا سارت المذاهب الأربعة في طريق الانتشار دون غيرها من المذاهب السنية المعمول بها كما تقدم. وقد تكفلت أبحاثنا في هذا الكتاب بأجزائه جميعاً، كل ما له علاقة بتكوين المذاهب وانتشارها.

وفي الختام أبتهل إلى الله تعالى أن يتقبّل أعمالنا، ومنه وحده عزّ وجل أطلب المكافأة والجزاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل، كما نسأله تعالى مكافأة من شجعنا من الأدباء في تقريظ هذا الكتاب نظماً ونثراً، وسننشر ذلك في كلمة الختام مع الشكر والتقدير لهم. وإلى هنا ينتهي الجزء الرابع وإلى اللقاء في الجزء الخامس إن شاء الله.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

فهرس

الجزء الثالث ٧

عَرضٌ وتمَهيد ٩

الإمَام الصَّادق : المدرسَة وَالمذهب وَالشيعة ١٧

أخطاء وأكاذيب ٣٥

أصحَابه وحَمَلة فقهِهِ ٤٧

أبان بن تغلب ٥١

مؤمن الطَّاق : محمَّد بن عَلي بن النعمان ٦٣

هشَام بن الحكم ٧١

الفرق الإسلامية في عَصْر الإمام الصَّادق ١٠٩

الإمام الصَّادق : وصَايَاه وَحِكمه ١٢٥

المذاهِب الأربعَة : التِزَام وَآراء ١٣٧

آراء حَول الاجتهادَ والتقليد ١٥٣

الإمام الشافعي ١٦٩

حيَاتهُ العِلميّة ١٨١

آراؤه وأقوالـه ٢٠٢

عَصْره ومَذهَبه وأخبَاره ٢١١

تعقيبٌ وتصْويب ٢٤٥

الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ٢٥٥

الجزء الرابع ٢٥٥
تقْديم وبيَان ٢٥٩
الإمَام الصَّادق: لمَحَات مِنْ تاريخ حيَاته ٢٦٩
قبس مِنْ سيرتِهِ وَتَعَاليمه ٢٧٧
الدَّعْوة الصَامِتة ٣٠٥
انْطباعَات عَن شخصيَّته ٣١٥
فصُولٌ مِن حِكَمِهِ ٣٢٧
مُشكلة الغُلاة ٣٥١
الإمام الصَّادق: أجْوبَة ومُناظرات ٣٩٣
الإمام أحمد بن حَنْبَل: نَسَبُه وَنَشأتُهُ ٤٢٥
في محنَته ٤٣٣
حيَاته العِلميّة ٤٤٩
عَصْرُه وَحَوَادِثُهُ ٤٦٥